وما أدراك ما عليّ

القسم الثاني

بعد رحيل الوحي وصاحبه

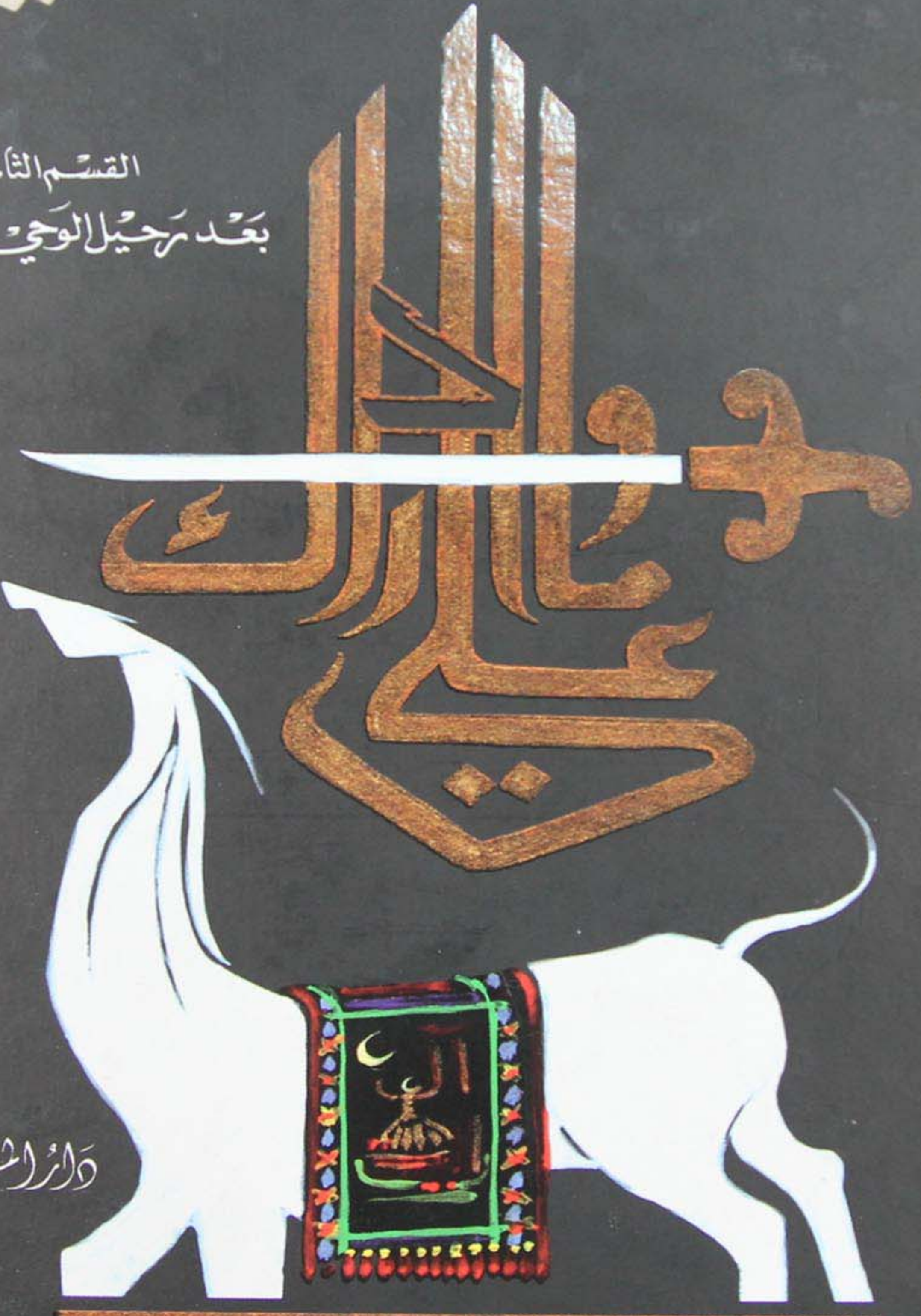

دار المؤرخ العربي

الدكتور صلاح مهدي الفرطوسي

مكتبة الروضة الحيدرية

www.haydarya.com

وما أدراك ما عليّ

القسم الثاني

بعد رحيل الوحي وصاحبه

حُقُوق الطّبْع مَحفُوظَة

الطّبْعَة الأولى

١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م

دار المؤرّخ العربي

بيروت - لبنان - ص ب ٢٤/١٢٤ - تلفاكس ٥٤٤٨٠٥
Email: al_mouarekh@hotmail.com

مكتبة الروضة الحيدرية
النجف الاشرف

بسم الله الرحمن الرحيم

الإخراج الفنّي: علي محمد جواد الطريحي

تصميم الغلاف: الفنان سلمان البصري

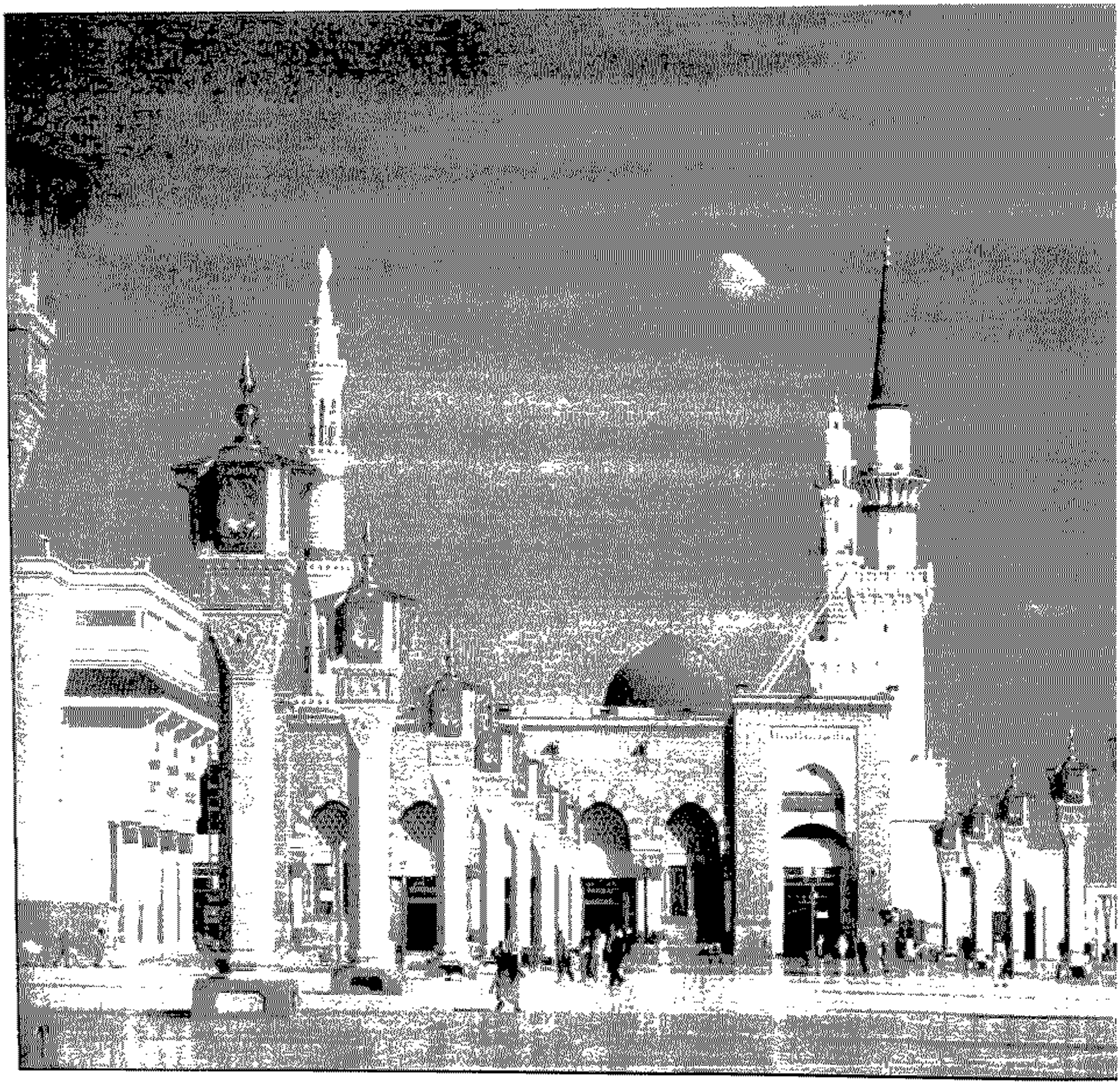

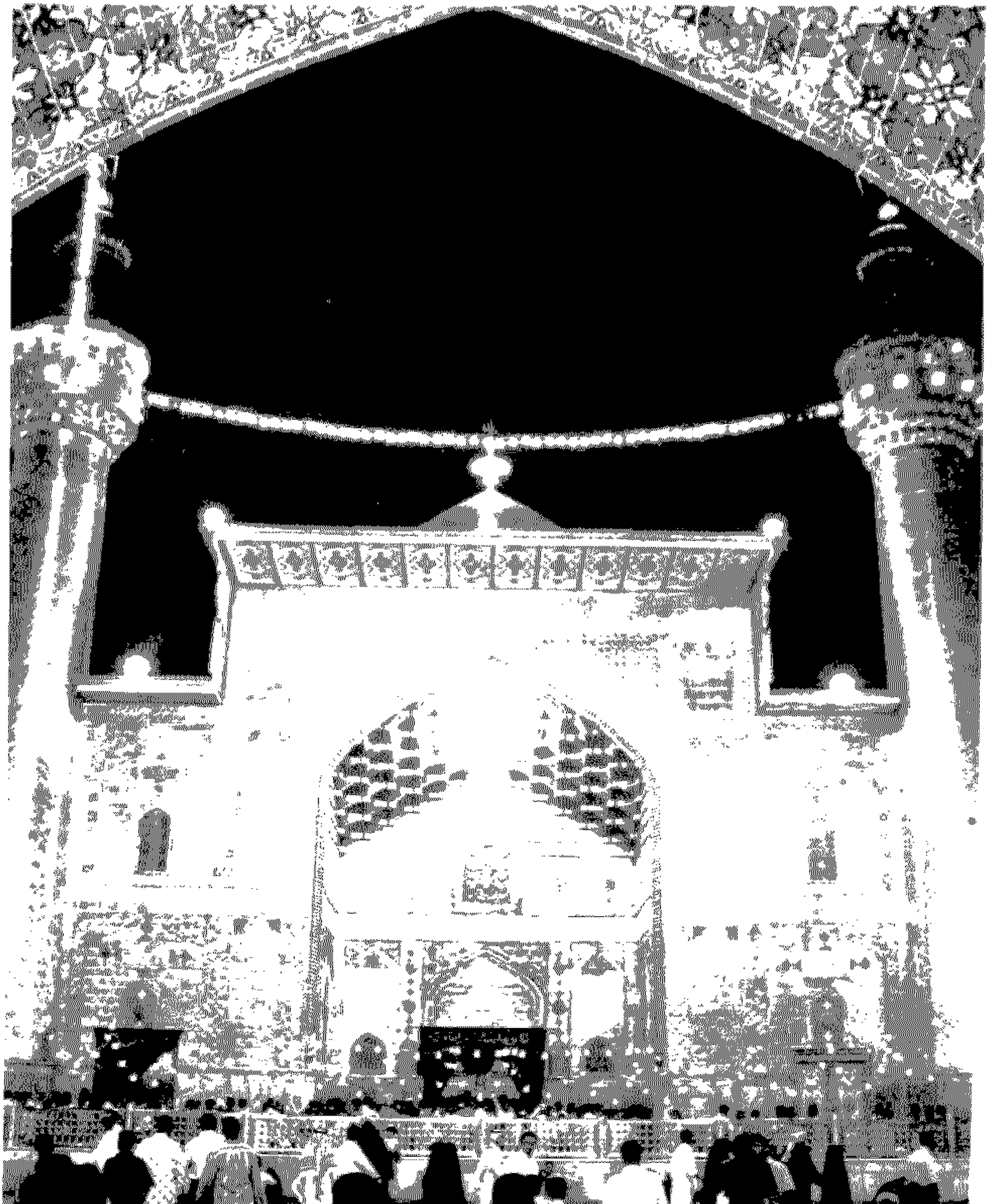

المقدمة

الانتصار على الذات

يوم أخذني قلمي إلى سيرة أمير المؤمنين عليه السلام لم يدر في خلدي الاهتمام بالتاريخ وأحداثه وشخوصه، وما أن سرت خطوات في رحابها حتى وجدتني مجبرًا على الخوض في لجحه، لأن الإمام لم يكن بمعزل عن دائرته، وإنما كان قطبها منذ ولد، لذا فإن الابتعاد عنها هو ضرب من المستحيل، وهي بحلوها ومرِّها خلقت منه عليه السلام نموذجًا فريدًا تتالت أقلام العصور من كل المذاهب والديانات على تناوله بدهشة وانبهار.

وعلى الرغم من مرور قرابة خمسة عشر قرنًا على رحيله عليه السلام فإن منهجه مازال يزداد بريقًا وتوهُّجًا وإغراء للمؤرخ والكاتب والسياسي والمفكِّر ورجل الدين بالدراسة والتحليل والرغبة الجامحة في دخول عوالمه الرحبة اللانهائية، ولا أشك في أن المحاولات ستستمر جيلاً بعد جيل مادام الظلم شائعًا، والحقُّ مغتصبًا، والإنسانية معذبة في الأرض.

وسيرته التي سيمر عليها هذا الجزء تدخَّل التاريخ في جميع مفاصلها، وغالبها فيه من الفواجع ما يزاحم أهداف البحث، لذا كانت دراسة مرحلة ما بعد رحيل الوحي غاية في صعوبة لأن ما يكتنفها من الكدر ليس بقليل، ولا أشكُّ في أنه كدر كان من أسباب خلوده في الضمير الإنساني المشبع حتى رأسه في البحث عن الفضيلة والعدل والرحمة، وحقِّ العقل في التفكير والحوار والفهم والإفهام والتعليم والتعلُّم، والاجتهاد العفيف

الذي ينطلق من عدالة لا تستطيع الأهواء مهما كانت قوتها أن تزحزحه أو تؤثر عليه.

ولعل الحديث عن جوانب من قدراته التي انتصر فيها على ذاته الشريفة، ومدى التزامه بالخط الرسالي يسهل علينا من بعد ذلك المدخل الصعب، وفي ذات الوقت يخفّف من غلواء عتمته.

والنظر إلى مجمل سيرته عليه السلام بعين الإنصاف يأخذ بيد الباحث إلى ألوان من الحيرة، إذ إنه حينما يبدأ بتقليب صفحاتها لابد أن يصاب بالدوران، لأنه سيجدها حلقة لا يعرف لها طرف كي يبدأ منه، وكأنما حينما خلقه سبحانه وتعالى أراد له أن يكون خلقًا فريدًا لا يستطيع أحد أن يسمو إلى مقامه، أو يضعه موضع المقارنة مع الآخرين من شخصيات التاريخ الكبرى، وأراد له أن يَشْخَصَ في الضمير الإنساني مثالاً شامخًا تنظر إليه الإنسانية ولا تستطيع الدنوّ منه أو تقترب من بهائه، ولا أشك في أنَّ الأقلام التي ازدحمت على بابه ما استطاعت أن تقدمه بالصورة التي هو عليها، لذا فإن المحاولات ستبقى مستمرة ما بقيت البشرية تبحث عن مخلص أو منقذ، وأشهد أني قد قرأت هذه الدراسة مرَّات ومرَّات في فترات متباعدة ومتقاربة، وكدت في غير مرَّة أن أعتذر للإمام عليه السلام عن إخراجها، ولكي أرضي النفس وأكبح من جماحها عرضت غير فصل منها على من لا أتهم مودته وأقدر علمه، فوجدت في كلمات الإطراء ما يخفف من صدمة مشاعر الفشل التي مازالت تراودني، ثم من بعد رأيت أن ما لا يدرك كله لا يترك بعضه.

وكيف لا يكون بتلك العظمة وقد استطاع بكل شموخ وعبقرية أن يحمل الفكر الإنساني الخيِّر هكذا على راحتيه، ومزجه بكل رحمة الله وعدله ومحبته

لخلقه، واستلهم من قوة الله وعظمته وشرعه ما استلهم، فكان الوسيلة التي نشرت دعوة الله، ثم أراد من بعد أن يكون الأداة التي تطبق قيم دعوته، فاندفع في صدام مروِّع مع الباطل بكلِّ الصور التي تمثَّل بها، وما كان له أن يدخل في تلك الحرب الضروس لولا انتصاره الذي ليس له من مثيل على ذاته سلام الله عليه.

ولا شك أن المال الذي حتربت عليه البشرية هو عصب الحياة، فله من البريق ما يخطف الأبصار، ويتجاوز القيم، وهو يملك من السطوة والسلطة ما يستطيع بهما تجاوز البصائر النافذة، ويسيطر عليها لأنه زينة الحياة الدنيا، فكيف نظر إليه الإمام؟ وكيف تعامل معه؟

وأزعم أنه كان بالنسبة إليه زينة أيضًا، ولكنه نظر إليه بمنظار نزَّهه عن كلِّ ما يشينه، وسما به عن القذر الذي يدنِّس الذات، وتعامل معه بأسلوب ما تعامل به أحد من خلق الله مثلما تعامل معه، فهو عنده وسيلة لإسعاد الأمة والمساواة بين أبنائها للقضاء على الفوارق بينها، لذا كان حربًا شديدة الوقع على الأغنياء لخلق التكافل الاجتماعي داخل المجتمع كي تذوب الفوارق أو تختفي منه، لذا كان حسابه للموسرين من صحابته أشد قسوة من حساب غيرهم، وكانت رقابته لعماله تنفِّر كلَّ طالب دنيا من العمل معه، ويراودني يقين من شديد كراهيته للفقر ونفوره منه، فحاربه، كما حارب الثراء، حارب الأول لتهوين وقعه على من ابتلي به، وتشجيعه على التخلُّص منه، فحثَّ على العمل ما شاء أن يحثَّ عليه، وحثَّ على الصبر حتى لم يترك مجالاً لمستزيد، وحارب الثاني ليحسن صاحبه التعامل معه، حتى لم يترك مجالاً لقول قائل يأتي بعده، تعال وانظر ما يقول: (ألا وإنَّ من البلاء الفاقة؛ وأشدُّ

من الفاقة مرض البدن؛ وأشدُّ من مرض البدن مرضُ القلب؛ ألا وإن من التنِّعم سعة المال، وأفضل من سعة المال الصحَّةُ البدن، وأفضل من صحَّةِ البدن تقوى القلوب). وتقف في نهجه على مشاهد كلها تؤدي من بعد إلى القضاء على التفاوت الطبقي الذي رهن كل عمره الشريف لقصفه قال عليه السلام وهو في النهج ٧٧٧: (إنَّ أخسر الناس صفقةً وأخيبهم سعيًا رجلٌ أخلق بدنهُ في طلبِ ماله، ولم تساعده المقادير على إرادته، فخرج من الدنيا بحسرتِهِ، وقدِمَ على الآخرة بتبعته)، ولا يتم ذلك من وجهة نظره، ولن يتحقّق النهج الذي سعى إليه إلا بتعاون نزيه بين العلم والمال، قال لصاحبه جابر بن عبد الله الأنصاري، وهو في النهج ٧٦٤أيضًا: (يا جابر قِوام الدين والدنيا بأربعة: عالِمٍ مستعملٍ علمَه، وجاهلٍ لا يستنكِفُ أن يتعلَّمَ، وجوادٍ لا يبخل بمعروفه، وفقير لا يبيع آخرته بدنياه، فإذا ضيَّع العالمُ علمَهُ استنكفَ الجاهلُ أن يتعلَّم، وإذا بخل الغنيُّ باع الفقير آخرته بدنياه؛ يا جابر، من كثرت نعم الله عليهِ كثُرت حوائجُ الناسِ إليه، فمن قام لله فيها بما يجب فيها عرَّضها للدوام والبقاء، ومن لم يقم فيها بما يجب عرَّضها للزوال والفناء)، وهي فقرة من آلاف الفقر تجدها مبثوثة في نهجه العظيم كلها تدور في فلك التكافل الاجتماعي وسبل ارتقاء الأمَّة وسعادتها في الدارين.

وكيف لا تطفر الدمعة من عينك، ولا يقف قلبك من عظمة هذا العبد الصالح وأنت تقف في النهج ٧٧٢ على مثل قوله: (ما أحسن تواضع الأغنياء للفقراء طلبًا لما عند الله! وأحسنُ منه تِيهُ الفقراء على الأغنياء اتكالاً على الله)، وانظر إليه كيف يحثُّ ولده الحسن عليهما السلام على المعروف، وهو بالحتم حديث ما أراد به ولده الذي تخرج في مدرسة النبوَّة، وإنما أراده عبرة

للآخرين : (لا تخلّفن وراءك شيئًا من الدنيا ، فإنك تخلّفه لأحد رجلين : إما رجلٍ عمل فيه بطاعة الله فسَعِدَ بما شقيت به ، وإما رجُلٍ عمل فيه بمعصية الله فشقِيَ بما جمعت له فكنتَ عونًا له على معصيته ، وليس أحدُ هذين حقيقًا أن تؤثرَه على نفسك) ، بل استمع إلى ما قاله لرجل أستغفر الله بحضرته ، ولو أدركنا معنى الاستغفار من وجهة نظره عليه السلام لصعب مجرّد التفكُّر به : (ثكلتك أمُّك أتدري ما الاستغفار؟ الاستغفار درجةُ العِلّيِّينَ ، وهو اسم واقع على ستةِ معانٍ : أولها الندمُ على ما مضى ، والثاني ، العزم على ترك العود إليه أبدًا ، والثالث : أن تؤدي إلى المخلوقين حقوقهم حتّى تلقى الله أملسَ ليس عليك تبعة ، والرابع : أن تعمِدَ إلى اللحم الذي نبت على السُّحْتِ فتذيبَهُ بالأحزان حتى تُلصِقَ الجلد بالعظم ، وينشأ بينهما لحمٌ جديدٌ ، والسادس : أن تذيقَ الجسمَ ألم الطاعة كما أذقتَه حلاوة المعصية ، فعند ذلك تقول : أستغفر الله) ، وسقطت الخامسة في نسختي من النهج فحمدت الله ، وأي تحذير من المعصية أكبر من قوله عليه السلام : (إحذر أن يراك الله عند المعصية ويفقدك عند طاعته فتكون من الخاسرين ، وإذا قويت فاقوَ على طاعة الله ، وإذا ضعفت فاضعف عن معصية الله).

ولقد حارب الظلم والعدوان حربًا لا هوادة فيها ، وحثَّ على إقامة عدل الله قولاً وسلوكًا ، وأرى أمّته رحمة الله عيانًا ، وصفحات النهج يأخذ بعضها برقاب بعض ، وإن تناولتها بقلب سليم استوعبت دستور الإسلام وقيمه ، وعلمت كيف كان صراع الإمام مع الذات ، وقدّرت انتصاره العجيب عليها ، ولا شك أنه سيروّعك بمشاهد تأخذ بيدك نحو الطمأنينة وراحة البال والقناعة والرضا ، وتحثك على السلوك القويم الذي يخدم مجتمعك قبل أسرتك ، ومن

عجيب وصاياه لأحد صحابته قوله: (لا تجعلنَّ أكثر شغلك بأهلك وولَدِكَ: فإن يكن أهلُك وولَدُكَ أولياءَ الله، فإنَّ اللهَ لا يُضيعُ أولياءه، وإن يكونوا أعداءَ الله فما همُّك وشغلُك بأعداء الله؟).

إنه عالَمُ الإمام، عالم النور والبهجة، وعالم السعادة بسعادة الآخر والقدرة على انتشاله من كبوته بكل الطرق التي تخلق المجتمع الفاضل الذي تخيله عليه السلام.

كان لا يقول قولاً من دون عمل، فهو يعملُ ويكدُّ، ويبيع ويشتري ولكن لا لكي يأكلَ من طيِّباتها، أو يلبس من فاخر ثيابها هو وأسرته، وإنما من أجل أن يحرر عبدًا من رقِّه، أو يملأ بطن جائع يطرقه، أو يساعد محتاجًا على حاجته، أما أموال الأمة التي كانت تأتيه من أقاصي الأرض أيام خلافته فلم يشارك الآخرين في الاحتراب عليها، ولم يبتدع الوسائل والحجج لنهبها لأنها أموالهم، وهو ليس أكثر من مؤتمن عليها، رقيب على توزيعها بالحقِّ والعدل، ولم يكتف بذلك وإنما تنازل عن حقِّه فيها، فلم يأخذ لنفسه أو لأسرته منها كثيرًا ولا قليلاً، وتخبرك كتب التراث والتاريخ بقصص عن كل هذا، وقفنا على جانب منها في الجزء الأول، وسنقدم أمثلة منها في هذا المبحث، ونلحقها بأخرى تجدها مبثوثة في جميع المباحث القادمة، وهي بمجملها تقدم لك صورة الكمال بعينه حول نظرته إلى الحياة وفق مثل العقيدة وقوانينها، وليس وفق قيم السياسة وألاعيبها التي تطمح بالاستيلاء على الحكم والإفادة من منافعه بكل السبل المتاحة، والأمثلة في هذا المجال تصعب على الإحصاء، منها ما ذكره ابن أبي الحديد في شرح النهج ٣٩٦/٢ عن الشعبي الذي قال: (دخلت الرحبة بالكوفة -وأنا غلام - في غلمان؛

فإذا أنا بعلي عليه السلام قائمًا على صبرتين - كومتين - من ذهب وفضّة، ومعه مخفقة - سوط - وهو يطرد الناس بمِخفقته ثم يرجع إلى المال فيقسمه بين الناس؛ حتى لم يبق منه شيء، ثم انصرف ولم يحمل إلى بيته قليلاً ولا كثيرًا. فرجعت إلى أبي فقلت له: لقد رأيت اليوم خير الناس أو أحمق الناس، قال: من هو يا بني، قلت: علي بن أبي طالب أمير المؤمنين، رأيته يصنع كذا، فقصصت عليه، فبكى، وقال: يا بني رأيت خير الناس!).

وليس وحده الذي رأى أو روى فهناك عشرات غيره كابن قتيبة في عيونه ١١٥/١، والبلاذري في أنسابه ٣٦٨/٢-٣٧٢ وابن عبد البر في استيعابه ١١١٣/٣، وابن أبي الحديد الذي روى في شرحه ٣٩٧/٢ عن أبي عاصم بن كليب الجرمي قال: (شهدت عليًّا عليه السلام وقد جاءه مال من الجبل، فقام وقمنا معه، وجاء الناس يزدحمون، فأخذ حِبالاً فوصلها بيده، وعقد بعضها إلى بعض، ثم أدارها حول المال، وقال: لا أُحِلُّ لأحدٍ أن يجاوِزَ هذا الحبل، قال: فقعد الناس كلُّهم من وراء الحبل، ودخل هو، فقال: أين رؤوس الأسباع؟ وكانت الكوفة يومئذ أسباعًا، فجعلوا يحملون هذه الجوالق إلى هذه الجوالق، وهذا إلى هذا، حتى استوت القسمة سبعة أجزاء، ووُجد مع المتاع رغيف، فقال: اكسروه سبْعَ كسر، وضعوا على كلِّ جزء كِسرة، ثم قال:

هذا جَناي وخِياره فيه إذ كلُّ جَانٍ يده فيه

ثمَّ أقرع عليها ودفعها إلى رؤوس الأسباع).

وذكر أبو بكرة - كما روى البلاذري في أنسابه ٣٧١/٢ - أن عليًّا عليه السلام استعمله على بيت المال، (ثم دخله فقال: خذ خذ. فقسم ما فيه

بين المسلمين ، فبقي مطرف فقال : انظروا لي رجلاً محتاجًا أعطيه هذا المطرف. فقلت : فلان رجل من موالي بني عجل ، فأرسلني به إليه ، فقال : من أين يعرفني أمير المؤمنين؟ فقلت : ذكرتك له. فقال : جزى الله أمير المؤمنين خيرًا ، فقد وافق منّي حاجة ، فباعه بمال سمّاه ، وصلّى علي في بيت المال فأمر به فكنس وقال : الحمد لله الذي أخرجني منه كما دخلته).

وحينما رأى غلامه قنبر صنيعه بالأموال التي تأتي وكيف يوزعها بدون أن يدّخر منها أي شيء أراد أن يخصّه بشيء منها ؛ لعلّه رآه حقًا من حقوقه لم يشأ أن يأخذه حياء أو تعفّفًا فهو أمير المؤمنين ، وله حقُّ الإمام في بيت المال ، وهو من ذوي القربى ، وله سهمهم ، وهو أول القوم إسلامًا ، وله حصتهم ، وكأن قنبر لم يعاشر إمامه ولم يعرفه من قبل ، روى ابن أبي الحديد في شرح النهج ٢/٣٩٦ عن زاذان قال : (انطلقت مع قنبر غلام علي عليه السلام فإذا يقول : قم يا أمير المؤمنين ، فقد خبأت لك خبيئًا ، قال : وما هو ويحك ! قال : قم معي ، فانطلق به إلى بيته ، وإذا بغرارة - وعاء - مملوءة من جامات ذهبًا وفضة ، فقال : يا أمير المؤمنين ، رأيتك لا تترك شيئًا إلا قَسَمْتَه ، فادَّخرت لك هذا من بيت المال ، فقال علي عليه السلام : ويحك يا قنبر! لقد أحببت أن تُدْخِلَ بيتي نارًا عظيمة ، ثمَّ سلَّ سيفه وضربه ضربات كثيرة ، فانتثرت من بين إناء مقطوع نصفه ، وآخر ثلثه ، ونحو ذلك ، ثم دعا الناس ، فقال : اقسموه بالحصص ، ثم قام إلى بيت المال ، فقسم ما وجد فيه ، ثم رأى فيه إبرًا ومسالاً ، فقال : ولْتَقْسِموا هذا ، فقالوا : لا حاجة لنا فيه .. قال : لَيُؤْخَذَنَّ شرُّه مع خيره) ، وأراك تقرأ هذا وكثيرًا غيره في كتب التاريخ والسير كأنساب البلاذري ٢/٣٧٣—٣٧٧ واستيعاب ابن عبد البر ٣/١١١٠—١١١٥ ،

وتاريخ ابن عساكر الذي خصَّص ما خصَّص من تاريخه لترجمته، ولك أيضًا في كتب فضائله عليه السلام ما يرك العجب.

والأمَّة التي حكمها، أو التي حاربته تعلم علم اليقين أنه لم يأخذ من مالها ولا من حقّه فيه منذ أن استلم خلافتهم قليلاً ولا كثيرا، ولقد وروي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال على ما ذكر ابن أبي الحديد في شرح النهج ٣٩٨/٢: (ولقد علمتم أنه كان يأكل - يا أهل الكوفة -عندكم من ماله بالمدينة، وأن كان ليأخذ السَّويق فيجعله في جراب، ويختم عليه مخافة أن يزاد عليه من غيره؛ ومن كان أزهد في الدنيا من علي عليه السلام).

ذلك كان بعض تصرف عليٍّ عليه السلام في المال العام، فكيف كان تصرفه مع نفسه وعياله؟! ولكي تقدِّر مدى زهده، وطبيعة تصرفه تعال ننظر إلى طعام الحسنين عليهما السلام خاصَّة، فأنت تعرف مدى حبه لهما وحرصه عليهما بسبب صلتهما برسول الله صلوات الله وسلامه عليهم، وكأنَّك تظن أنه خصَّهما بطعام يختلف عن طعام بقية أبنائه أو خاصَّته، أو حباهما بمال هو من خمس جدهما، نعم لقد خصَّهما لشديد محبَّته، ولكن ليس بطعام أو شراب أو مال، وإنما بالتربية التي ربَّاه عليها رسول الله عينها، والسلوك الذي سلكه معه، فقد ذكر البلاذري في أنسابه ٣٧٥/٢ عن أبي الجَحَّاف عن رجل من خثعم قال: (رأيت الحسن والحسين عليهما السلام يأكلان خبزًا وخلاً وبقلاً، فقلت: أتأكلان هذا وفي الرحبة ما فيها؟ فقالا: ما أغفلك عن أمير المؤمنين!). ذلك طعامهما عليهما السلام، ويسهل عليك معرفة حال بقيَّة بنيه وأهل بيته كيف كانت وهم جميعًا أبناء مدرسته في العفَّة والإيثار من رواية ورواها ابن أبي الحديد في الشرح ٣٩٧/٢ عن هارون بن سعيد قال: (قال: عبد الله بن جعفر

ابن أبي طالب لعليٍّ عليه السلام: يا أمير المؤمنين، لو أمرت لي بمعونة أو نفقة! فوالله مالي نفقة إلا أن أبيع دابَّتي، فقال: لا والله ما أجد لك شيئًا إلا أن تأمر عمَّك أن يسرق ويعطيك)، ولا أشهر من حكاية مفارقة أخيه عقيل إلى معاوية بعد أن يئس من الطمع في دنيا علي، فأعطاه معاوية لا من حقٍّ عقيل، وإنما لغاية لا تخفى على أحد، وذكر ابن عبد ربه في عقده ٤/٧ أن معاوية قال لعقيل يومًا: (أنا لك خير من أخيك عليّ. قال: صدقت، إن أخي آثر دينه على دنياه، وأنت آثرت دُنياك على دينك، فأنت خيرٌ لي من أخي، وأخي خير لنفسه منك)، وذكر أيضًا في المصدر نفسه أنه قال له: (أنت الليلة معنا؛ قال: نعم، ويوم بدرٍ كنت معكم)، ولقد ذكر الإمام ما فعله بأخيه عقيل وهو يرى أطفاله بالصورة التي وصفهم بها فقال كما ورد في النهج: (والله لقد رأيتُ عقيلاً، وقد أملَقَ حتَّى استماحَني من بُرِّكُم صَاعًا، ورأيتُ صبيانَه شُعْثَ الشُّعورِ، غُبْرُ الألوانِ من فَقْرِهِم، كأنَّما اسوَدَّتْ وجُوهُهُم بالعِظْلِمِ، وعاوَدَني مُؤكِّدًا، وكرَّرَ عليَّ القولَ مُرَدِّدًا؛ فأصغَيْتُ إليه سَمْعِي فَظَنَّ أنِّي أبيعُهُ دِيني، وأتَّبِعُ قِيادَهُ، مُفارِقًا طَرِيقَتي؛ فأحْمَيْتُ له حديدةً، ثمَّ أدنَيْتُها من جِسْمِهِ ليعتَبِرَ بها، فضجَّ ضَجِيجَ ذي دَنَفٍ من ألمِها، وكاد أن يحترقَ من مِيسَمِها فقلتُ له: ثكلتْكَ الثَّواكِلُ يا عقِيلُ، أتئِنُّ من حديدةٍ أحْماها إنسانُها للَعِبِه، وتجُرُّني إلى نارٍ سَجَرَها جبَّارُها لِغَضَبِهِ؟..) وهي من خطبه الخالدات ختمها بقوله: (والله لو أُعْطِيتُ الأقاليمَ السَّبعَةِ بما تحتَ أفلاكِها على أن أعْصِيَ اللهَ في نملةٍ أسْلُبُها جِلْبَ شَعيرةٍ تَقْضَمُها ما فعلتُ، وإنَّ دُنياكم عندي لأهونُ من ورقةٍ في فمِ جرادةٍ تقضَمُها، ما لعليٍّ ولنعِيمٍ يفْنَى، ولذَّةٍ لا تبقَى، نعوذُ بالله من سُباتِ العقلِ، وقُبْحِ الزَّلَلِ، وبه نستعينُ).

وروي أنَّ إحدى بناته استعارت عقدًا من بيت المال كي تتزيَّن به في العيد على أن تعيده إلى خازن البيت بعد ثلاثة أيَّام ، فلمَّا رآه الإمام على جيدها عرفه ولما سألها أخبرته أنها استعارته من خازن بيت المال ابن أبي رافع ، فبعث إليه وقال له : أتخون المسلمين يا أبا رافع؟ فقال : معاذ الله ، فقال : كيف أعرت بنت أمير المؤمنين العقد الذي في بيت مال المسلمين بغير إذني ورضاهم، فقال: إنها ابنتك ؛ وسألتني أن أعيرها العقد تتزيَّن به ، فأعرتها إيَّاه عارية مضمونة مردودة ؛ فقال : ردَّه من يومك ، وإياك أن تعود إلى مثله فتنالك عقوبتي. ثم قال : (ويلٌ لابنتي ! لو كانت أخذت العقد على غير عارية مردودة مضمونة لكانت إذن أول هاشمية قُطِعت يدُها في سرقة) ، كما ورد في قصص العرب ٩٦/٢–٩٧ وحاشا الله أن تقطع يدها ، أو تفكّر بسرقة ، وهي بين طهر الزهراء وعدل عليّ.

وروى أحمد في كتاب فضائله عليه السلام ٥٢ برقم ٢٤ عن أبي صالح قال : (دخلت على أم كلثوم بنت علي فإذا هي تمتشط في ستر بيني وبينها. فجاء حسن وحسين فدخلا عليها وهي جالسة تمتشط فقالا ألا تطعمون أبا صالح شيئًا؟ قال: فأخرجوا إليّ قصعة فيها مرق بحبوب. قال فقلت : تطعموني هذا وأنتم أمراء؟! فقالت أم كلثوم : يا أبا صالح كيف لو رأيت أمير المؤمنين ، تعني عليًا عليه السلام أتى بأترج فذهب حسن فأخذ منه أترجة ، فنزعها من يده ، ثم أمر فقسّم بين الناس).

وروى ابن أبي الحديد في شرحه ٣٩٨/٢ أيضًا عن بكر بن عيسى قال : (كان علي عليه السلام يقول : يا أهل الكوفة ، إذا خرجت من عندكم بغير راحلتي ورحلي وغلامي فلان ، فأنا خائن ، فكانت نفقته تأتيه من غَلّته بالمدينة بينبع ، وكان يطعم الناس منها الخبز واللحم ، ويأكل هو الثَّريد بالزَّيت).

وأنت تقرأ في سيرته عجائب عن تعلُّقه بأخيه المصطفى ومحبَّته له، بل إن سيرة المصطفى صلى الله عليه وآله وسلّم ما فارقته على الرغم من مرور عقود على رحيله، وكثيرًا ما كانت تأخذه العبرات حينما يتعرض أحد صحابته لطعامه عليه السلام، لأنه كان يرى أن طعام رسول الله أكثر جشوبة من طعامه، أو إلى لباسه لأن لباس أخيه كان أكثر خشونة من لباسه، على الرغم من أنه كان يأكل في كثير من الأحيان الخبز اليابس يكسره على ركبته، أما لباسه فهو لباس الفقراء والمساكين كما ستراه في غير موضع، ويمكن أن تستنتج من عشرات الروايات التي مرَّت عليك وأنت تقلب صفحات تاريخه المجيدة، مدى تعلُّقه بأخيه في تقشفه وزهده عليه السلام حتى من شفقة أصحابه عليه، منها ما رواه ابن أبي الحديد في الشرح ٢/٣٩٨ عن عقبة بن علقمة قال: (دخلت على علي عليه السلام، فإذا بين يديه لبن حامض، آذتني حُمُوضته، وكسر يابسة، فقلت: يا أمير المؤمنين، أتأكل مثل هذا! فقال لي: يا أبا الجنوب، كان رسول الله يأكل أيبس من هذا، ويلبس أخشن من هذا - وأشار إلى ثيابه - فإن لم آخذ بما أخذ به خفت ألا ألحق به)، وروى في ٢/٣٩٨ أيضًا عن سويد بن علقمة قال: (دخلت على عليٍّ عليه السلام بالكوفة، فإذا بين يديه قَعب لبن أجد ريحه من شدَّة حموضته، وفي يده رغيف، ترى قُشار الشَّعير على وجهه، وهو يكسره، ويستعين أحيانًا بركبته، وإذا جاريته فِضّة قائمة على رأسه، فقلت: يا فضَّة، أما تتقون الله في هذا الشيخ! ألا نخلتم دقيقه؟ فقالت: إنا نكره أن يؤْجر ونأثمَ، " نحن قد أخذ علينا ألا ننخُل له دقيقًا ما صَحِبناه - قال: وعلي عليه السلام لا يسمع ما تقول -فالتفت إليها فقال: ما تقولين؟ قالت: سله، فقال لي: ما قلت لها؟

قال: فقلت إني قلت لها: لو نخلتم دقيقه! فبكى، ثم قال: بأبي وأمي من لم يشبع ثلاثًا متوالية من خبز برّ حتى فارق الدنيا، ولم ينخل دقيقه! قال: يعني رسول الله صلى الله عليه وآله)، وكيف تستطيع فضّة أو غيرها مخالفته، وهو لها بالمرصاد، ثم أيّ وفاء هذا للراحل العظيم صلوات الله وسلامه عليه يدعوه أن يتمثّله بعد عقود في كلّ شاردة وواردة من حياته، هكذا تشيّع أمير المؤمنين عليه السلام لأخيه ورسالته، في القول والعمل، فأين تشيُّعنا له ومن قبله لرسول الله صلوات الله عليهما، وروى أيضًا في ٢/ ٣٩٨ عن صالح بيّاع الأكسية، وهي في فضائل أمير المؤمنين لأحمد ٦٨ برقم ٣٩ (أن جَدَّتَهُ لقيت عليًّا عليه السلام بالكوفة، ومعه تمر يحمله، وقالت له: أعطني يا أمير المؤمنين هذا التمر أحمله عنك إلى بيتك، فقال: أبو العيال أحقُّ بحمله، قالت: ثم قال لي: ألا تأكلين منه؟ فقلت: لا أريد، قالت: فانطلق به إلى منزله ثم رجع مرتديًا بتلك الشّملة، وفيها قشور التمر، فصلّى بالناس فيها الجمعة)، نعم كان يريد بكلّ ما أوتي من قوّة وعزيمة أن يكون مثالاً طيبًا لأخيه المصطفى أمام خلقه وخالقه، وكان يريد أن يكون كلمته الصّادقة فكان له ما أراد.

ذلك كان طعامه الذي هو من ماله لم يتغيّر في كلّ أطوار حياته، أما بقيّة المال الذي كان يأتيه من ينبع وغيرها فكان ينفقه على فقراء المسلمين ومساكينهم لتعويضهم ما حرموا منه، وفي أثناء بقائه في دنياهم تصدّق به جميعه على فقراء أمّته، فأية شفقة ورحمة كانت في صدر ربيب الوحي، جعلت منه بحق أبًا للفقراء والمساكين، وصديقهم وباب حوائجهم، ولا أشك في أنهم عنده أعزُّ مكانة وأكرم ذكرًا من جميع من اكتنز الذهب والفضّة من كبار الصحابة والتابعين ممن شحّ بماله ظنًّا منه أنه سيخلد في الحياة وما هو من الخالدين.

وتعال ننظر في طعام ضيوفه كيف كان، ورأيهم فيه على ما ذكر الذهبي في عهده ٦٤٤ عن الغافقي الذي قال: (دخلت على عليٍّ يوم الأضحى فقرَّب إلينا خزيرة - لحم يقطَّع صغارًا ويصب عليه ماء كثير - فقلت: لو قرَّبت إلينا من هذا الإوزّ، فإن الله قد أكثر الخير، قال: إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: لا يحلُّ للخليفة من مال الله إلاَّ قصعتان، قصعة يأكلها هو وأهله، وقصعة يضعها بين يدي الناس)، والخبر عن عبد الله بن زرير في مسند علي بن أبي طالب ٩٤ برقم ١٧/٥٧٨.

وطريف أن أذكر لك ما حدَّث به الأسود بن قيس عن أحدهم يوم ظن أن طعام أمير المؤمنين أطيب من الطَّعام الذي يقدمه للناس، قال كما روى البلاذري في أنسابه ٢/٤٠٨-٤٠٩ عنه بسنده: (كان علي يطعم الناس بالكوفة بالرحبة، فإذا فرغ أتى إلى منزله فأكل، فقال رجل من أصحابه: قلت في نفسي: أظن أمير المؤمنين يأكل في منزله طعامًا أطيب من طعام الناس، فتركت الطعام مع العامة، ومضيت معه، فقال: أتغديت؟ قلت: لا. قال: فانطلق معي؛ فمضيت معه إلى منزله فنادى: يا فضَّة. فجاءت خادم سوداء فقال: غدِّينا.فجاءت بأرغفة وبجرَّة فيها لبن فصبَّتها في صحفة وثردت الخبز، فإذا فيه نخالة، فقلت: يا أمير المؤمنين لو أمرت بالدقيق فنخل. فبكى ثم قال: والله ما علمت أنه كان في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم منخل قط).

وأيُّ ينبع تستطيع أن تفي بحاجاته عليه السلام، وهل يستطيع مثل علي إن كان له مثل أن يحفظ مالاً لنفقته أو نفقة عياله، لقد وصلت به الحال إلى عرض سيفه للبيع كي يشتري إزارًا يأتزر به، وعليك أن تتخيل حال

إزار خليفة المسلمين الذي اضطرَّه إلى عرض سيفه في سوق الكوفة! ذكر ابن أبي الحديد في شرح النهج ٢/٣٩٧ رواية عن أبي رجاء قال: (أخرج علي عليه السلام سيفًا إلى السوق، فقال: من يشتري مني هذا؟ فوالذي نفس عليٍّ بيده، لو كان عندي ثمن إزار ما بعته، فقلت له: أنا أبيعك إزارًا وأُنسِئُكَ ثمنه إلى عطائك، فدفعت إليه إزارًا إلى عطائه، فلما قبض عطاءه دفع إليَّ ثمن الإزار)، وذكر مثل هذا أحمد في فضائله ٤٦ برقم ٢٠ عن يزيد بن محجن.

ومما ذكره الذهبي في عهده ٦٤٤ عن هارون بن عنترة عن أبيه قال: (دخلت على عليٍّ بالخورنق، وعليه سمل قطيفة، فقلت يا أمير المؤمنين إن الله قد جعل لك ولأهل بيتك في هذا المال نصيبًا، وأنت تفعل هذا بنفسك! فقال: إني والله ما أرزؤكم شيئًا، - أي ما آخذ من مالكم - وما هي إلاَّ قطيفتي التي أخرجتها من بيتي)، وكان على هارون وعنترة وأبيه وغيرهم الإشفاق على أنفسهم، بعد أن رأوا إمامهم وقدوتهم بتلك الحال.

وتقرأ هنا وهناك روايات في هذا المصدر أو ذاك حول مدى اهتمام المرتضى بفقراء المسلمين، وما فعل كي يكون قدوة للأغنياء في تصرفهم بأموالهم، وغصَّة في صدور من يشحُّ بها ويكنزها، روى ابن أبي الحديد في الشرح ٢/ ٣٩٩ أيضًا عن محمد بن فُضَيْلٍ بن غزوان قال: (قيل لعلي عليه السلام: كم تتصدَّق! كم تُخرج من مالك! ألا تُمسِك! قال: إني والله لو أعلم أن الله تعالى قبل منِّي فرضًا واحدًا لأمسكت؛ ولكني والله ما أدري؛ أقبل منِّي سبحانه شيئًا أم لا!)، وليس بعجيب أن يقول مثل هذا إمام الزاهدين وعبرة الخلق بعد أن تدبَّر القرآن وعلم ما فيه، وبعد أن رأى الله بقلبه كما لم يره

أحد، وبعد أن ربَّاه رسول الإنسانية صلوات الله وسلامه عليه تلك التربية القرآنية التي أطنب الكتَّاب في وصفها.

وخطب يومًا في أهل الكوفة وهو الصادق الأمين عليه السلام على ما ذكر الذهبي في عهده ٦٤٣—٦٤٤ عن أبي عمرو بن العلاء عن أبيه قال: (أيها الناس، والله الذي لا إله إلاَّ هو، ما رزأت من مالكم قليلاً ولا كثيرًا، إلاَّ هذه القارورة، وأخرج قارورة فيها طيب، ثمَّ قال: أهداها إليَّ دهقان)، وقريبًا منها ما ذكره ابن عبد البر في استيعابه ١١١٣/٣ وتلاحظ أن تلك القارورة لم يأخذها من مالهم، وحاشا أن يطمع أحد في رشوته.

وروى ابن أبي الحديد في شرحه ٣٩٩/٢ عن جعفر بن محمد عليهما السلام قال: (ابتاع علي عليه السلام في خلافته قميصًا سَمِلاً - أي: بالٍ - بأربعة دراهم، ثم دعا الخيَّاط، فمدَّ كُمَّ القميص، وأمره بقطع ما جاوز الأصابع)، وتابعه الذهبي في عهده ٦٤٥ فروى قريبًا من هذا، وروى أيضًا أن ابن جرموز قال: (رأيت عليًا وهو يخرج من القصر، وعليه إزار إلى نصف الساق، ورداء مُشَمَّر، ومعه دِرَّة يمشي بها في الأسواق، ويأمرهم بتقوى الله وحسن البيع، ويقول: أوْفوا الكيل والميزان، ولا تنفخوا اللحم)، وستجد الرواية السابقة إن أردت عند ابن الجوزي في منتظمه ٣٢٠/٣ وابن عبد البر في استيعابه ١١١٢/٣ أيضًا، وهي في فضائله لأحمد ٩١ برقم ٦١ (ولا تنفحوا اللحم)، أي لا تقشروه عن العظم.

ولم يكن وحده الذي رأى أو روى لأن مراقبة الأسواق ومنع الاحتكار أو رفع الأسعار، أو مراقبة المكاييل كان يراها المرتضى من مهمَّات الحاكم التي لابدَّ أن يزاولها بنفسه، روى أحمد في كتاب فضائله عليه السلام ٧١ برقم

٤٢ بسنده عن أبي خريم الباهلي عن أبيه قال: (رأيت عليًا بشط الكلا - مرفأ السفن - يسأل عن الأسعار).

وروى أيضًا برقم ١٨٦ عن أبي مطر البصري: (أنه شهد عليًا أتى أصحاب التمر، وجارية تبكي عند التمَّار، فقال: ما شأنك؟ قالت: باعني تمرًا بدرهم فردَّه مولاي فأبى أن يقبله. قال: يا صاحب التمر خذ تمرك وأعطها درهمها، فإنها خادم، وليس لها أمر، فدفع عليًا، فقال له المسلمون: تدري من دفعت؟ قال: لا. قالوا: أمير المؤمنين. فصبَّ تمرها وأعطاها درهمها. قال: أحبُّ أن ترضى عنِّي. قال: ما أرضاني عنك إذا أوفيت للناس حقوقهم).

ومن روائع ما رواه أحمد في كتاب فضائله ٢٥٣ برقم ١٨٨ عن عجيب سلوكه عليه السلام أنه كان يمرُّ في الأسواق (يرشد الضالّ ويعين الحمَّال على الحمولة، يقرأ هذه الآية ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾، ثم يقول: هذه الآية نزلت في الولاة وذوي القدرة من الناس).

والإمام في زهده عجيبة الله في أرضه، ليس زهد رهبانيَّة في جبل أو غار أو دير، وليس زهد عبادة لغرض العبادة فحسب، إنه زهدٌ أراد أن يغيِّر به وجه الحياة الكالح إلى لون من ألوان وجه الآخرة المشرق، لم يكن زهدًا يتحصَّل بالعبادة والتهجُّد في محراب فحسب، لقد كان زهدًا يوظِّف الزهد لحياة الآخرين من بني البشر، كلُّه ترهيب وترغيب، فالحياة فانية لا ريب في ذلك، وقصيرة مهما مدَّ فيها العمر، ونهايتها مثل لمح من بصر، وعلى من وردها أن يتهيَّأ لما بعد الورد، والسِّباق فيها واقع لا جدال في ذلك، بعضهم يشترك فيه فيفوز بالجائزتين، أما البقيَّة فلا مهرب لهم من المشاركة فيه كي ينتهوا إلى سوء المصير،

وليس أمام المشتركين إلاّ التخلّص من خطاياهم، وما أكثر الخطايا التي نرتكبها بسبب طول الأمل، وفسحة الرجاء، وغرور الحياة وشياطينها، ولكي يفوز المتسابق لابد له من رصيد يعتمد عليه أعدَّه في أيّام أمله لأجله، والويل لمن يقصِّر في تلك الأيام.

قال عليه السلام كما جاء في النهج ١٤٣: (أمَّا بعد، فإنَّ الدنيا قد أدْبَرَت، وآذنت بِوداعٍ، وإنَّ الآخِرةَ قد أشْرَفتْ باطّلاعٍ، ألا وإنَّ اليومَ المِضْمارَ، وغدًا السِّباقَ، والسَّبَقَةُ الجَنَّةُ، والغايةُ النارُ؛ أفَلا تائبٌ من خَطِيئَتِهِ قبلَ مَنِيَّتِهِ؟ ألا عاملٌ لِنَفْسِهِ قبل يومِ بؤسِهِ؟ ألا وإنَّكُم في أيّامِ أمَلٍ من ورائهِ أجَلٌ، فمن عَمِلَ في أيّام أمله قبل حضورِ أجلِهِ نَفَعَهُ عملَهُ، ولم يضْرُرْهُ أجلُهُ، ومن قصَّر في أيّام أمَلِهِ قبلَ حُضُور أجلهِ فقد خَسِرَ عَمَلَهُ وضَرَّه أجَلُهُ، ألا فاعْمَلُوا في الرغْبَةِ كما تعملون في الرهبةِ...).

وأنت أمام كلماته تلك في هول ما بعده هول، فالسباق ليس كبقية المسابقات التي حضرتها من قبل، أو سمعتها في إذاعة، أو رأيتها في تلفاز أو سينما، ولن تستطع كل عبقرية السينما الأمريكيّة أن تتخيَّله، سباق يشترك فيه كل البشر منذ آدم وحتى قيام الساعة، فإن قامت بدأ السباق، ويا لهول ذلك المنظر الرهيب، فليس من خيار أمام الخلق في حلبته، إذ لابدَّ من المشاركة فيه، من أعدَّ العدَّة في المضمار، أي في الحياة الدنيا، فاز الفوز العظيم الذي ما بعده فوز، ومن لم يحسب حسابًا ليومه الواقع ذاك كان الخسران من نصيبه.

وتجد في لغته عليه السلام من عمق المعنى ودقّته وجزالته ما لن تجده عند أحد من بني البشر، فإن مثَّل أحسن التمثيل، حتى كأنك ترى الأمر الذي يعنيه

عيانًا، ولقد أشار الشريف الرضي في تعليقه على جملة واحدة من تلك الكلمة الخالدة إشارة تدلُّ على مدى إعجاب سيِّد البلغاء في زمانه بقوله عليه السلام (ألا وإنَّ اليوم المضمار وغدًا السباق،) فقال: (فإن فيه - مع فخامة اللفظ وعظم قدر المعنى، وصادق التمثيل، وواقع التشبيه - سرًّا عجيبًا، ومعنًى لطيفًا، وهو قوله عليه السلام: والسَّبقة الجنَّة والغاية النار، فخالف بين اللفظين لاختلاف المعنيين، ولم يقل: السبقة النار، كما قال: السبقة الجنَّة؛ لأنَّ الاستباق إنما يكون إلى أمر محبوب، وغرض مطلوب... وقال: الغاية النار؛ لأنَّ الغاية ينتهي إليها من لا يسرُّه الانتهاء ومن يسرّه ذلك)، وليس هذا - ومثله كثير في خطب الإمام وأحاديثه ووصاياه - بكثير على ربيب الوحي، وترجمان القرآن وباب مدينة علم المصطفى صلوات الله وسلامه عليه.

لقد أحبَّ الدنيا عليه السلام، ولكن ليس كحبٍّ الطامعين بنعيمها الزائل، ولا بحياتها القصيرة، إنه حبٌّ من نوع خاص، لأنها كما قال في ما روى ابن عساكر في ترجمته عليه السلام ٣/٢٦٧-٢٦٨ بتاريخه: (إن الدنيا لمنزل صدقٍ لمن صدَّقها، ودار غنًى لمن فهم عنها، وعافية لمن تزوَّد منها، منزِلُ أحبَّاء الله، ومهبط وحيه، ومصلَّى ملائكته، ومتجر أوليائه، اكتسبوا فيها الجنَّة، وربحوا فيها المغفرة، فذمَّها أقوام غداة الندامة، وحمدها آخرون، ذكَّرتهم فذكروا، وحدَّثتهم فصدَّقوا، فمن ذا يذمُّها، وقد آذنت ببينها، ونادت بانقطاعها، راحت بفجيعةٍ، وابتكرت بعافية، تخويفًا وترهيبًا...).

وأنت تتنقّل في محراب الله حينما تقلب صفحات النهج، ولا تدري ماذا ستختار، وكلُّه مختار، مختار لغة ليس كبيانها أي بيان لمخلوق عرفناه من بعد من أرباب البلاغة والبيان، من أطال أو من أوجز، من زوَّق في ألفاظه، أو

ترك نفسه على سجيَّتها على طول قرون عصور البلاغة الراقية والكلام الجميل، في أي موضع من مواضع عبقرية الإمام ما أن تُعَوِّدَ نفسك على الصبر أمام لغته حتى تجده يمسك بتلابيبك لا تستطيع الانفكاك عنه، ولن يُخَلِّصك إلاَّ الخوف من عوالم الظلمة التي ينقلك إليها، ويحذِّرك منها، فأيَّ خطيب من ذلك الزمن كان!!.

لقد حرم نفسه عليه السلام من كلِّ طيِّبات الدنيا ليس طمعًا في طيبات الآخرة فحسب، وإنما كي يكون عبرة بين الناس للحاكم العدل، والمؤمن الصالح الذي يؤثر على نفسه، ذكر أحمد في كتاب فضائله عليه السلام ٤٣ برقم ١٧ أنه أُتي له ببعض الحلوى فآثر صحابته ولم يأكل منها، وذكر أيضًا برقم ١٨ أنه أُتي له (بشيء من خبيص فوضعه بين أيديهم فجعلوا يأكلون، فقال علي عليه السلام: إن الإسلام ليس ببكر ضال، ولكن قريشًا رأت هذا فتناحرت عليه).

ولست في حاجة إلى توثيق زهد عليٍّ عليه السلام إلى حكاية أو رواية، ولكن ذكر علي وزهده يلَذُّ لمحبه أن يسترسل فيه، ففيه من العبرة ما فيه. ويغلب على ظنِّي أنه زهد في دنيا لأجْلِ أخرى أرادها لأمته لا لكي تقتدي بها، لأنها لا تقدر عليها، وإنما لخلق مجتمع فاضل لا يجوع فيه أحد ولا يعرى، ولا يزداد فيه الفقير فقرًا كي يتخم الآخر، دنيا يؤمن بها بني البشر بأن الملك لله وليس لهم، فما يأكلونه وما ينفقونه في سبيله هو مالهم الحق، أما ما يكنزونه فيرثه الآخر حلالاً، أو ينهبونه بأيَّة طريقة من الطُّرق، فهو الجحيم الحق الذي أراد الإمام أن ينجيهم منه.

ومن عجيب ما قرأته له، ورأيته وحده من بين أعاجيب كلامه السَّهل الممتنع، المليء بالحكمة والموعظة، بل رأيته يكفي أن يكون دستور رحمة

وعدل للبشريَّة قاطبة قوله عليه السلام: (إن أعظم الحسرات يوم القيامة حسرة رجل كَسَبَ مالاً في غير طاعة الله، فورِثه رجل فأنفقه في طاعة الله سبحانه، فدخل به الجنَّة ودَخَلَ به الأوَّل النار)، لقد أراد لهم دنيا ترفل بالمحبَّة والرأفة وأخوَّة الخلق، يؤثِرُ فيها الآخر ولا يشعره بمنَّة أو إحسان، لذا كان الإمام يتقصَّد إهانة دنياهم عسى أن يكون لهم عبرة فيترفَّعوا عما يؤول إلى خلاء أو تراب، وعلى هذا فليس بغريب أن يسلك مثل علي إن كان له مثل ذلك السلوك الذي مازال عجيبة التاريخ على مرِّ الحقب والأجيال.

ولعل بعضه يكون قدوة حسنة في عصرنا هذا الذي نرى فيه عجبًا ما بعده عجب من أمم تنفق على قططها وكلابها ما يسد حاجة أقوام من أخوة لهم في الدين أو الخلق، ومن تخمة تصيب آخرين، وبجوارهم أخوة يتضورون جوعًا، وما أشد كفر الجوع، وما أعظم بلائه لو كانوا يعلمون.

ومما رواه ابن أبي الحديد في الشرح ٢/٣٩٩ أيضًا عن عبد الله بن الحسين بن الحسن قال: (أعتق علي عليه السلام في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله ألف مملوك مما مجلت يداه وعرق جبينه، وقد ولي الخلافة، وأتته الأموال، فما كان حلواه إلا التمر، ولا ثيابه إلا الكرابيس)، وبكرابيسه تلك التي استشهد ولم يخلعها ووصفتها خادمه أم موسى، والضحاك بن عمير كما ورد في فضائله ٦٩–٧٠ برقم ٤٠ و ٤١ بأنها سنبلانيَّة، وهي ثياب مساكين الرعية وفقرائهم، فارق دنياهم كما فارقها غيره ممن رفل بناعم الثياب، وظنَّ أنه سيخلد فيها، فكان الخلود الدائم له، وباتوا في! ولا أدري أين، ولكن لا يشعر بهم أحد، وإن شعر فإنه لن يستطيع وضعهم موضع المقارنة، وإن فعل فشتَّان!!.

وروى الذهبي في عهده ٦٤٤ أن سفيان الثوري قال: (إذا جاءك عن عليٍّ شيءٌ فخذ به، ما بنى لبنة على لبنة، ولا قصبة على قصبة، ولقد كان يجاء بجيوبه في جراب)، وأزعم أن الإمام عليه السلام لم يكن على رأيه، لأنه بنى في قلب الإنسانية أعظم دار يمكن أن يفكِّر ببنائها أحد من الخلق.

وظنَّ بعضهم أن الإسلام جاء للعرب خاصَّة، وهم أفضل عند الله من غيرهم، ولاسيما أن الدعوة نزلت فيهم وبلسانهم، والفتح كان على أيديهم، والحكم لهم، ولكنَّ الإمام خيَّب ظنَّهم يوم لم يفرق بين أعجمي وعربي في أموال المسلمين لا بتقوى ولا بغيرها، لأن التقوى وصالح الأعمال ثوابهما عند الله، أما المال الذي هو عصب الحياة فينبغي تقسيمه بالسويَّة.

وروى ابن أبي الحديد في شرحه ٣٩٨/٢ عن أبي إسحاق الهمداني (أن امرأتين أتتا عليًا عليه السلام إحداهما من العرب والأخرى من الموالي، فسألتاه، فدفع إليهما دراهم وطعامًا بالسَّواء، فقالت إحداهما: إني امرأة من العرب، وهذه من العجم، فقال: إني والله لا أجد لبني إسماعيل في هذا الفيء فضلاً على بني إسحاق).

كان عليه السلام بين صحابته ورعيَّته كأحدهم، على الرغم من هيبته في نفوسهم، يزور مريضهم، ويحزن لحزنهم، ويفرح لفرحهم، ويعزِّيهم إذا أصيبوا بمصاب، ويخفِّف من أحزانهم، قال مُعزِّيًا أحدهم على ما ورد في عيون ابن قتيبة ٧٠/٣: (إن تجزع فأهل ذلك الرَّحم، وإن تصبر ففي الله عوض من كلِّ غائب، وصلَّى الله على محمَّدٍ، وعظَّم الله أجركم)، وإذا شجر بينهم ما يشجر في ساعات الغضب، فإنه يسارع بنفسه، وقد يعاقب وجوه القوم لتقاعسهم في إصلاح ذات البين، ولقد رأيناه على حمار رآه في

السكّة فركبه أدرك فيه كندة فتوسطها ثمَّ ضرب الأشعث وعمه ضربًا عنيفًا لأنهما لم يصلحا أمر قومهما كما روى البلاذري في أنسابه ٢/٣٩٥، ورأيناه في المصدر السابق يحجز بنفسه بين تميم وهمدان في ساعة غضب حلت بهم.

وليس كثيرًا عليك بعد هذه القطرات من فيض بحر عليٍّ أن تتمثّل هول صراعه مع الذات، وعظمة انتصاره عليها، وأزعم أنه إذا كانت دنيا القوم لا تساوي عنده شروى نقير، أو عفطة عنز كما قال، فلأن الدنيا التي أرادها لهم هي مبتغاه، وهي حرثه الذي أنفق كلَّ عمره الشريف لأجله بكلِّ صدق وأمانة، ربَّاه رسول الله من أجلها، وفتح عينيه عليها، وتنفَّسها ملاعب طفولة وفتوَّةً وشبابًا وكهولة وشيخوخة، ولم يعرف غيرها إلى أن ذهب حميدًا كلَّ ذلك الحمد.

ولو أراد دنيا القوم لكانت تحت قدميه بدون أن يفقد مقعده الذي وُعِدَ به على عهد أخيه مرَّات ومرَّات، فربيب الوحي عاش في أجواء الوحي بكلِّ أبعاده آية آية قبل أن يعرفها أحد من الخلق أو يسمع بها، سمعها وعرفها واستوعب معانيها غضَّة طريَّة من فم رسول الله صلوات الله وسلامه عليه، فكانت عالمه وعوالمه، وطريقه ومنهجه، ما انحرف عنه في يوم، وما فكَّر في تغييره، ولم يرده لنفسه مطلقًا، لذا كانت محنته في ذلك الجو المليء بالأعاصير والأنواء العاتية لا يستطيع أن يتصوَّرها عقل أو يدرك مغزاها فكر.

تلك كانت دنياه، وذلك ما خلَّفه، وتعال معي كي تنظر إلى ما خلَّفه بعضٌ ممن قيل إنه بُشِّر بالجنَّة وكان له دور احتسب له في حياة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وبعد مماته رشحه أن يكون من أهل الشورى الذين

اختارهم عمر بن الخطّاب لقيادة الأمّة، ولا أدري إن كان مصيبًا في تلك الخيرة التي اختارها لأمّة محمّد وهو على فراش الموت أم!؟

— أما الخليفة عثمان فقد ذكر ابن سعد في طبقاته ٧٦/٣ أنه كان له (عند خازنه يوم قتل ثلاثون ألف ألف درهم وخمسمائة ألف درهم، وخمسون ومائة ألف دينار، فانتُهِبت وذهبت، وترك ألف بعير بالربذة)، وذكر المسعودي في مروجه ٣٤١/٢–٣٤٢، ونقله عنه العقاد في كتابه عبقرية الإمام ٣٥–٣٦ أنه يوم قتل كان عند خازنه من المال (خمسون ومائة ألف دينار وألف ألف درهم، وقيمة ضياعه بوادي القرى وحنين وغيرهما مائة ألف دينار، وخلّف إبلاً وخيلاً كثيرة)، نعم وهو حلال عليه إن كان قد جمعه من طرق مشروعة، وإن كان قد أدى حقوق الله فيه، ولكنّه من أخص الصحابة وأقربهم صلة بالمصطفى، كيف سوّلت له نفسه أن يكنز كلّ ذلك المال وهو مسؤول عن أمّة بكل فقرائها ومعدميها، وما أكثرهم، لا أستطيع أن أجد له أي عذر ولاسيما أنه من العارفين بسيرة الرسول وحياته وموقفه من الذين يكنزون هذا الكنز، ولم يكن بعيدًا عن كتاب الله فقد أخذته عنه أمّة من المسلمين على ما ذكر الرواة.

— وأما الزبير بن العوّام فقد ذكر المسعودي في مروجه ٣٤٢/٢ ونقله عنه العقاد في كتابه عبقرية الإمام أنه (بنى داره بالبصرة، وهي المعروفة في هذا الوقت -وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة - تنزلها التجار وأرباب الأموال وأصحاب الجهاز من البحرينيين وغيرهم، وابتنى أيضًا دورًا بمصر والكوفة والإسكندرية، وما ذكرنا من دوره وضياعه فمعلوم غير مجهول إلى هذه الغاية، وبلغ مال الزبير بعد وفاته خمسين ألف دينار، وخلّف الزبير ألف

فرس، وألف عبد وأمة، وخططًا بحيث ذكرنا من الأمصار)، ترى أين كان الزبير من بيت رسول الله، وأين ذهبت صلة الرحم التي تربطه بالنبي الكريم، ترى هل نسي الزبير كم عدد خيل المسلمين في واقعة بدر الكبرى أو في معركة أحد، ثم ألم يكن إيمانه يوم آمن وهو فتى لمّا يبلغ العشرين عن بصر وبصيرة بسبب قيم الإسلام التي في مقدّمتها قيم الإيثار والعدل والمساواة، وأين كان من رحمة رسول الله وإيثاره، وهو من أقرب الصحابة إليه رحمًا، ثم ماذا كان يفعل بكلّ ذلك المتاع وهو من كبار الصحابة.

— وأما طلحة بن عبيد الله التيمي فقد ذكر ابن سعد في طبقاته ٣/٢٢١-٢٢٢ أن معاوية بن أبي سفيان سأل موسى بن طلحة عن تركة أبيه من العين فقال: (ترك ألفي ألف درهم ومائتي ألف درهم ومائتي ألف دينار...) وروى بسنده عن أم يحيى بن طلحة قالت: (قتل طلحة بن عبيد الله يرحمه الله، وفي يد خازنه ألفا ألف درهم ومائتا ألف درهم، وقُوِّمت أصوله وعقاره ثلاثين ألف ألف درهم)، وذكر المسعودي في مروجه ٢/٣٤٢ ونقله عنه العقاد في كتابه عبقرية الإمام أنه (ابتنى داره بالكوفة المشهورة به هذا الوقت، المعروفة بالكُناسة بدار الطلحيين، وكانت غلته من العراق كل يوم ألف دينار، وقيل أكثر من ذلك، وبناحية الشراة أكثر مما ذكرنا، وشيد داره بالمدينة وبناها بالآجر والجصّ والساج).

— وأما عبد الرحمن بن عوف الزهري فقد ذكر ابن سعد في طبقاته ٣/١٣٦ أنه ترك (ألف بعير وثلاثة آلاف شاة بالبقيع.. وكان في ما ترك ذهبٌ قُطِّع بالفؤوس حتى مَجِلَت أيدي الرجال منه، وترك أربع نسوة، فأخرجت امرأة من ثُمنها بثمانين ألفًا...قال: أصاب تُماضر بنت الأصبغ رُبْع الثُّمن فأخرجت

بمائة ألف وهي إحدى الأربع...)، وذكر المسعودي في مروجه ٢/٣٤٢ ونقله عنه العقاد في كتابه عبقرية الإمام أنه (ابتنى داره ووسَّعها، وكان على مربطه مائة فرس، وله ألف بعير، وعشرة آلاف شاة من الغنم، ويلغ بعد وفاته ربع ثمن ماله أربعة وثمانين ألفًا)، ومن طريف ما ذكره المسعودي في مروجه ٢/ ٣٤٩ محاورة بين عثمان وأبي ذر وكعب، سببها تركة عبد الرحمن بن عوف هذه قال: (أتى عثمان بتركة عبد الرحمن بن عوف من مال، فنثرت البِدَر حتى حالت بين عثمان وبين الرجل القائم، فقال عثمان: إني لأرجو لعبد الرحمن خيرًا؛ لأنه كان يتصدَّق، ويقري الضيف، وترك ما ترون، فقال كعب الأحبار: صدقت يا أمير المؤمنين، فشال أبو ذرٍّ العصا فضرب بها رأس كعب، ولم يشغله ما كان فيه من الألم، وقال: يا ابن اليهودي تقول لرجل مات وترك هذا المال: إن الله أعطاه خير الدنيا وخير الآخرة، وتقطع على الله بذلك، وأنا سمعت النبي صلى الله عليه وسلّم يقول: « ما يسرني أن أموت وأدع ما يزن قيراطًا» فقال له عثمان: وار عني وجهك).

— وأما سعد بن أبي وقّاص فقد ذكر ابن سعد في طبقاته ٣/١٤٩ عن عائشة بنت سعد أنها قالت: (أرسل سعد بن أبي وقّاص إلى مروان بن الحكم بزكاة عين ماله خمسة آلاف درهم، وترك سعد يوم مات مائتي ألف وخمسين ألف درهم)، وروى عن ابن عمر (أن عمر قاسم سعد بن أبي وقّاص ماله حين عزله عن العراق)، وذكر المسعودي في مروجه ٢/٣٤٢ أنه (ابتنى داره بالعقيق، فرفع سمكها، ووسع فضاءها وجعل أعلاها شُرُفات).

— وأما زيد بن ثابت فقد روى المسعودي في مروجه ٢/٣٤٢ عن سعيد بن المسيب (أن زيد بن ثابت حين مات خلّف من الذهب والفضة

ما كان يكسَّر بالفؤوس، غير ما خلف من الأموال والضياع بقيمة مائة ألف دينار).

ولا أحدثك عن مال يعلى بن منيَّة الذي نهبه من اليمن وموَّن ببعضه جيش أصحاب الجمل، ولا عما خلَّف يوم مات، ولكنَّ المسعودي ذكر في مروجه ٣٤٣/٢ أنه خلَّف (خمسمائة ألف دينار، وديونًا على الناس وعقارات، وغير ذلك من التركة ما قيمته ثلاثمائة ألف دينار)، ولا عن أموال بني أمية وبني مروان، وهو باب إن استرسلنا به خلفَّ غصَّة في النفس وحسرة، ويكفي أن أنقل لك ما قاله المسعودي في تاريخه عنه: (وهذا باب يتسع ذكره ويكثر وصفه، فيمن تملَّك من الأموال في أيامه - أي عثمان - ولم يكن مثل ذلك في عصر عمر بن الخطاب، بل كانت جادَّة واضحة، وطريقة بيِّنة).

- وأما علي فقد خلَّف سبعمائة درهم أراد أن يشتري بها خادمًا لأهله، بل قال بعضهم في رواية ذكرها المسعودي في مروجه ٤٢٦/٢: (ترك لأهله مائتين وخمسين درهمًا ومصحفه وسيفه)، ولم يضع حجرًا على حجر، فكانت تلك جادَّتهم، وهي بكلِّ المقاييس لا تلتقي مع جادَّته عليه السلام.

ولا أظن أحدًا ممن كتب عنه أو قرأ سيرته لم يغالبه البكاء مرات ومرات، ولا أراني أجانب الصواب إذا جمعت في هذا الأمر بين محبيه ومبغضيه، فقد رأيت معاوية تفيض دموعه غير مرَّة حينما تأتي سيرته، ورأيت جيلاً من قتلة أبنائه أو ممن حاول طمس ذكره تجري دموعهم مدرارًا في رحاب سيرته وسيرتهم صلوات الله وسلامه عليهم.

ذلك بعض نهج علي، وسترى صورًا أخر تريك عجبًا، ومن كان هذا نهجه، لا يمكن أن تطمع الدنيا به أو يطمع بها، وكله يهوّن علينا ذلك المدخل الصعب، ويخفّف من غلواء عتمته.

يوم ازدحمت الملائكة
على باب رسول الله

المُصْطَفَى في ذِمَّةِ الله

عاد النبيُّ المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم من حجَّته التي انتظرها عقدًا ويزيد بعد أعمال الحجِّ والتبليغ إلى المدينة، منهك القوى، وبعودته أيضًا انقطع خبر السماء، فقد أدّى الدور المناط به حتى النهاية، وقريبًا سيأتي دور الثقل الثاني الذي تكفَّل به المرتضى عليه السلام.

وبدأت قرون الرِّدَّة تطلعُ هنا وهناك، فكان تنبؤ الأسود العنسي، وطليحة بن خويلد الأسدي وغيرهما، إذ لم تكن غالبيَّة القبائل التي دخلت الإسلام قد تمكَّنت العقيدة منها، ومازالت العصبيَّة فيها هي المحرِّك الذي يسيِّرها، وكان على النبيّ أن يقطع تلك القرون، فجيَّش لها على الرغم من التَّعب الشَّديد الذي أحسَّ به بعد عودته، وكادت تنقطع لولا رحيله صلى الله عليه وآله وسلَّم، وما أن حلَّ يومه حتى تطالعت كرؤوس الشياطين من جديد، وقد فصَّل الطبري وغيره من المؤرخين أمر تلك الأحداث.

ويبدو أن عِلَّته القديمة من آثار أَكْلةِ زينب بنت الحارث زوجة سلاَّم مشكم، وابنة أخي مرحب بدأت تعاوده هذه المرَّة بألم تحمَّله، وصبر له بانتظار يومه الموعود، كما ذكر ابن سعد في طبقاته ٢٠١/٢–٢٠٢ عن ابن عباس وغيره، ولم يدم مرضه طويلاً فقد شعر بصداع شديد في رأسه وهو في

بيت ميمونة، ولعلَّ آلام الشقيقة التي أشار ابن الأثير في كامله ٢/٢١٩، إلى أنها كانت تلازمه باليوم واليومين، وتمنعه من الخروج عاودته هذه المرَّة أيضًا بأشدَّ من سابقاتها وشاركت في تعجيل نهايته صلى الله عليه وآله وسلَّم.

وكان يهود المدينة قد قاموا بمحاولات عدَّة لسمِّه، ولكنَّ فعلة زينب تلك كانت أشدَّها عليه، فقد طبخت بعد فتح خيبر، كتف شاة وسمَّتها، وقدَّمتها له بعد صلاة المغرب فدعا من حضر من أصحابه للعشاء معه، وفيهم بشر بن البراء بن معرور، وما أن بدأ القوم بالأكل بعد أن سبقهم إليه المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم حتى أمرهم برفع أيديهم عن الطعام فقد شعر بتغيُّر طعمه، وبوضع السُّم فيه، أما بشر فقد تغيَّر لونه من ساعته، وقال: لقد وجدت من أكلتي التي أكلت، واستمرَّ وجعه سنة مات بعدها، وأما رسول الله فدعا زينب، وقال لها: «ما حملك على ما صنعت؟»، فقالت: نلت من قومي ما نلت! قتلت أبي وعمِّي وزوجي... فدفعها إلى أهل بشر فقتلوها.

واحتجم رسول الله، وأمر أصحابه الذين شاركوه بالطعام بالاحتجام، وعاش بعد ذلك ثلاث سنوات، وكان يقول صلَّى الله عليه وآله وسلَّم: «مازلت أجد من الأكلة التي أكلتها يوم خيبر عِدادًا حتى كان هذا أوان انقطاع أبهري»، وحاول يهود المدينة أيضًا تسليط السِّحر عليه، إلا أن الله كان ينجِّيه من أفعالهم كلَّ مرَّة، كما ذكر ابن سعد في طبقاته ٢/١٩٨.

وفي أثناء وجعه خرج من بيت ميمونة إلى بيت عائشة فاشتد عليه المرض، ولازمه ثلاثة عشر يومًا، أو أربعة عشر، كان يصلي خلالها بالمسلمين قاعدًا حين اشتداده، ثم انتقل إلى الرفيق الأعلى صلَّى الله عليه وآله وسلَّم.

ولا شكَّ أن تلك الأيام كانت من أشدِّ الأيام على المسلمين، على المهاجرين منهم والأنصار، وعلى من تحزَّب أو لم يتحزَّب، وعلى أهل بيته عليهم السلام وخاصَّة صحابته، بل إن نتائج ما دار فيها سرًّا وعلنًا، وما تلاها بعد رحيله، هي أشد الأيَّام على المسلمين من يوم الله ذاك وستبقى إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ولا يستطيع أي باحث يتعرَّض لدراسة أية شخصيَّة من شخصيَّات تلك المرحلة بدون التعرُّض لتلك الأيَّام العصيبة من تاريخ الإسلام، وبسبب من تأثيرات التراكم السياسي الطائفيّ الذي حرف جانبًا من تاريخ المسلمين وحزَّبهم يجد نفسه في حرج شديد أمام قسوة الأحداث وانحيازها، وتلاطم الروايات في ما بينها أحيانًا، ولا شك أن روايات كثيرة خلطت الغثَّ بالسَّمين دسَّتها طائفيَّة الحكم، أو الرؤى المتعصِّبة، كما شاركت أيضًا الأوضاع السياسية التي حدثت من بعد، والأحداث التي تداخلت واختلطت في تشويهها، ومهما حاول الباحث أن يكون موضوعيًّا فلابد أن يُرمى بالحجارة من هذا أو ذاك، وإذا كنت قد بذلت جهدي في مشروع الكتابة عن الإمام عليه السلام كي أقترب من الواقع في عرض سيرته، فليس خوفًا من هذا أو ذاك، ولا تقرُّبًا لهذا أو ذاك، فلم يعد في العمر بقيَّة كثيرة أحرص فيها على أيِّ مكسب دنيويٍّ، وإنما لكي أقرأ التاريخ بصورة تقترب من الحقيقة بكلِّ ما أمكنني الجهد، وفي الوقت ذاته لا أعكر صفو سيرته عليه السلام بكدر تلك الأيَّام وما جرَّته على المسلمين من إحن وبلايا، وهو أمر في غاية الصُّعوبة، ولا يوجد ما يدعوني للاهتمام بسيرة غيره من الصحابة في هذا البحث، وإن كنت أتعرَّض لها أحيانًا فبسبب علاقة هذا الصحابي أو ذاك بسيرة الإمام..

وبعد أن جمّعت غالبيّة ما ذكره القدماء والمحدثون عن هذه المرحلة تمنّيت عدم الخوض في أحداثها على وجه الخصوص، ولقد استقرَّ بي القرار على عدم التعمّق بها وبفواجعها، أو مناقشتها بالصّورة التي تستحقّها، ولاسيما بعد أن ناقشتها مئات الأقلام تباينت في الحكم عليها لأنَّ غالبيتها نظرت إلى الحقيقة من الوجهة التي تتماشى مع ميولها ونوازعها وإرثها، ولم تستطع النظر إليها مجرّدة، وما أبرئ نفسي وإن حاولت.

والذي يهمني من أحداثها تبيان بهاء صورة الإمام عليه السلام في خلالها، وثباته في وجه بلابلها، وليست الفواجع بذاتها وما خلّفته، ولم يمنعني تردُّدِي من الوقوف وقفات خاطفة منها، كي أسلط الضوء على عتمة رأيتها هنا أو هناك، تبيّن عظمة المرتضى عليه السلام في تنفيذ ما عاهد به أخاه قبل رحيله صلوات الله وسلامه عليهما.

ولا شك أن المصطفى صلّى الله عليه وآله وسلّم في أيّامه الصّعبة تلك كان يتمنّى لأمّته عزَّ الدنيا والآخرة، فأمسى وأصبح يبصّرها ويدعو لها، ويستغفر لمن طلب منه الاستغفار، وزار البقيع واستغفر لأهله كما ذكر ابن سعد في طبقاته ٢/ ٢٠٤ والطبري في تاريخه ٣/٥٧ وابن أبي الحديد في الشرح ١٣/ ٢١ ولكنَّ المطامح والأهواء طفحت فكانت السّقيفة، وكانت الفلتة التي تحدّث عنها الخليفة عمر بن الخطاب في غير مناسبة.

وبدأتْ غيمةٌ سوداء تتسلّلُ قبل رحيل النبي المصطفى صلوات الله وسلامه عليه إلى سماء المدينة من دون أن يصاحبها من مطر فيُزيحُها، ورافقتها رياح عاتية صفراء وقفت سدًّا منيعًا أمام بصر وبصيرة كثير من المسلمين وكبار الصّحابة، ورفعت الفتنة في تلك العتمة رأسها، وأخرجت قرونها بلا

استحياء، إذ إن طليعة من المهاجرين والأنصار أخذت تفكّر في ما بعد يومه صلى الله عليه وآله وسلم وتخطّط له، ويبدأ الانحياز يطفو على السطح شيئًا فشيئًا، أما قريش فإن غالبيتها اتّخذت موقفًا من الهاشميين في وضح النّهار جهرة وعيانًا بلا رادع من دين أو حياء من المصطفى وأهل بيته عليهم السلام، فحاولت تنقّصهم في مجالسها، والتعبيس في وجوههم إن رأوهم حتى شاع أمرهم، فخطب الرسول غير خطبة فيها من التقريع ما فيها استشهد بها التقي الحكيم وفصّل القول عنها في كتابه عبد الله بن عباس ١/٩٤–٩٨، بل أصبح ثلب سيرة المرتضى خاصة بعد عودة النبي الكريم من الحجّ ما بين الهمس والجهر حتى في مسجده، ولقد رأينا الغضب باديًا على وجهه صلى الله عليه وآله وسلّم في غير مناسبة من موقف بعض الصحابة من أخيه، وقد روى ابن عساكر في ترجمته عليه السلام بتاريخه ١/٤١٨–٤٦٢ بسنده بعضها، منها ما رواه عن سعد بن أبي وقّاص الذي قال: (كنت جالسًا في المسجد أنا ورجلان فنلنا من علي، فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم غضبان يعرف في وجهه الغضب، فتعوّذنا بالله من غضبه، فقال: «مالكم ومالي؟ من آذى عليًّا فقد آذاني»)، ولكنّ كلّ ذلك الدّفع لم يستطع وضع حدٍّ لتلك الألسنة، وتشوّف النبيُّ الآتي، وحاول تغييره، ولكنه قدر الله الذي يعرفه، وقضاءه الذي شاء لن يستطيع أن يردّه أحد.

سريّة أسامة بن زيد

ويراودني يقين أن النبيَّ صلوات الله وسلامه عليه مع شعوره باقتراب موعد رحيله شاء بكلّ ما استطاع من قوّة تمهيد الطريق لأمر ولاية المسلمين الذي بلّغه في غدير خم قبل قرابة ثلاثة أشهر، ولا سيما أنه كان على بيّنة

بنيَّات القوم، وتقلُّبات النفوس، فأمر الناس بالتهيؤ لغزو الروم في يوم الاثنين لأربع ليال بقين من صفر سنة إحدى عشرة من هجرته المباركة كما ذكر الواقدي في مغازيه ١١١٧/٣ وابن سعد في طبقاته ١٩٠/٢، ودعا أسامة بن زيد وطلب منه أن يسير أميرًا على جيش المسلمين إلى موضع مصارع زيد وجعفر وعبد الله بن رواحة وصحابتهم الأبرار في مؤتة، وأوصاه وصايا كانت من بعد منهاجًا للقيم العسكرية النبيلة، عن قبح الغدر والختل والاعتداء على مزروع أو محروث، أو طفل أو امرأة أو شيخ، وفي الوقت ذاته كانت خطَّة عسكريَّة محكمة لا يفوتها النصر.

ولا يغيب عنك أنه كان يبدو من الأنسب أن يرسل عليًّا عليه السلام في هذه الغزوة لتحقيق ما يرومه من ورائها، كما أرسله من قبل إلى اليمن، فهو أجدر القوم بقيادتها بسبب من شجاعته وفطنته وقدراته القيادية، ومعروف أنه لم يعرف الجيش الذي يقوده إلا النصر، وكان النصر في هذا البعث ضروريًا إذ إنه بخلافه قد تقع هزيمة لا يعرف عاقبتها إلا الله، وعلى هذا فإن مثل هذا الجيش كان لا بد أن يقوده المصطفى بنفسه، أو يوكل أمره إلى المرتضى، ولاسيما أن المصاب الجلل في واقعة مؤتة بالدرجة الأولى هو مصابه ومصاب أخيه سلام الله عليهما، وكان بإمكانه لو شاء أن يرسل في الجيش أسامة بن زيد، وإن شاء تكريمه منحه مزيَّة فيه، كما منح من قبل جعفر وعبد الله بن رواحة رضوان الله عليهما، وإن كان غير ذلك فإن بالإمكان أن يضع على رأس الجيش واحدًا من كبار الصَّحابة أو من المسلمين الذين عرفوا بتجربتهم ومكانتهم، ولكنَّ شيئًا من هذا لم يحدث أيضًا، ولعلَّ أمَّة من المسلمين رأت أن الوقت غير مناسب لهذه الحملة، وأن بالإمكان تأخيرها لحين قيامه من علَّته تلك.

بل قد تقول: إن من الأنسب إرسال ذلك الجيش إلى القبائل التي ارتدَّت، لتثبيت الإسلام في الجزيرة قبل كلِّ شيء، ولدفع أيِّ اعتداء يمكن أن يقع على المدينة إن خرج غالبيَّة الرجال منها، ثم من بعد يكون التوجُّه إلى مؤتة أو غيرها..

من كلِّ ذلك يتبيَّن لك أنه بقراره ذاك كان يهدف صلّى الله عليه وآله وسلَّم إلى أمر آخر يضاف إلى حرصه على خروج المسلمين للثار من عدوِّهم، ولنشر الإسلام في تلك البقاع، ويتبيَّن أيضًا أنه باختياره أسامة كان يهدف إلى أمور لا أظنها قد غابت عن الملأ الذي تقرر خروجه، كما لم تغب عنك بالتأكيد، ومن بين ما أراده أيضًا من تأمير أسامة الذي التحق به كبار الصحابة إضافة إلى كبارهم من حيث الواقع الاجتماعي، ضرب مثلٍ أعلى لهذا الدين الذي لا يحسب حسابًا لعرق أو قبيلة أو مكانة، وقد التفت الدكتور فاضل الأنصاري في كتابه العبودية ٦٢ إلى هذا الأمر، كما التفت إليه غيره ممن كتب عن هذه المرحلة، بل إن مجرَّد تولية أسامة يمثل ضربة قاصمة للمكانة الاجتماعية التي كان يحسب لها ذلك المجتمع الذي لم يتمكن الإسلام بقيمه من غالبيَّته ألف حساب.

وأمر رسول الله صلوات الله وسلامه عليه الناس بالتهيؤ يوم الاثنين لأربع ليالٍ بقين من صفر، وفي صباح يوم الخميس عقد اللواء بيده المباركة وقدَّمه إلى أسامة، الذي دفعه إلى بُريدة بن الحصيب الأسلمي، ولم يبق من وجوه الصحابة أحد لم يلتحق بذلك الجيش، وفي مقدَّمتهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجرَّاح وسعد بن أبي وقّاص وغيرهم كما ذكر ابن سعد في طبقاته ٢/١٩٠، وخص البلاذري بالذكر في أنسابه ١/٤٩٣ أبا بكر وعمر.

ويدأت القالة تفشو في الجيش والمدينة حول تأمير أسامة وهو بزعمهم غلام، وفي الجيش كبار الصحابة من المهاجرين الأوَّلين والأنصار، وعلى الرغم من استفحال علّته صلى الله عليه وآله وسلّم فقد غضب غضبًا شديدًا حينما طرق سمعه ما يدور من أحاديث، وخرج وقد عصب رأسه من شدَّة الألم وصعد منبره وخطب فيهم يذكّرهم بأنها ليست المرَّة الأولى التي يعترضون فيها، فقديمًا اعترضوا أيضًا على جيش أبيه زيد بن حارثة، وحينما رأى تلكؤ القوم في الخروج خرج ثانية وهو في غاية التعب وحثَّهم على الخروج غير مرَّة، بل ذهب بعضهم إلى أنه صلوات الله وسلامه عليه دعا على من يتأخر عن هذا البعث، وقال غير مرَّة: «أنفذوا بَعْثَ أسامة!» كما روى الطبري في تاريخه ٣/٥٥ والواقدي في مغازيه ٣/١١١٧ -١١١٨ وابن سعد في طبقاته ٢/١٩٠ الذي ذكر أيضًا، (فلمَّا كان يوم الأحد اشتدَّ برسول الله صلى الله عليه وسلّم وجعه، فدخل أسامة من مُعَسْكَره والنبيّ مغمور، وهو اليوم الذي لدُّوه فيه، فطأطأ أسامة فقبّله ورسول الله صلى الله عليه وسلّم لا يتكلّم، فجعل يرفع يديه إلى السماء ثم يضعهما على أسامة، قال: فعرفت أنه يدعو لي، ورجع أسامة إلى معسكره، ثم دخل يوم الاثنين وأصبح رسول الله مفيقًا، صلوات الله عليه وبركاته، فقال له: اغدُ على بركة الله! فودَّعه أسامة وخرج إلى معسكره فأمر الناس بالرحيل، فبينما هو يريد الركوب إذا رسول أُمِّهِ أمُّ أيمن قد جاءه يقول: إن رسول الله يموت...ودخل المسلمون الذين عسكروا بالجرف إلى المدينة..)، والرواية عينها في مغازي الواقدي ٣/ ١١١٩—١١٢٠ الذي ذكر أيضًا: (وجاء المسلمون الذين يخرجون مع أسامة يودعون رسول الله، وفيهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ورسول الله

صلى الله عليه وسلم يقول: «أنفذوا بعث أسامة»، وأنت تستطيع أن تقدر أسباب حرص رسول الله صلى الله عليه وآله على إنفاذ هذا البعث على الرغم من الوضع الصحي الخطير الذي كان يعاني منه، فالمصطفى وإن كان يريد الثأر لمبعوثه الذي أرسله للقوم فقتلوه غدرًا، والثأر لجعفر ولزيد بن حارثة وصحابته من شهداء واقعة مؤتة، فإنه أراد أيضًا، وضع صحابته والمسلمين من بعد على ما لا يمكن الاحتجاج به، فليس للسنّ أو الصحبة أو السابقة مكان في اختيار الرجل المناسب للمكان المناسب.

وأراد بما لا يقبل الشك أيضًا تهيئة الأجواء لوصيِّهِ المرتضى عليه السلام أن يخلفه في الأمَّة من بعده، ولا يراودني شكٌّ في أن تدبير النبي صلى الله عليه وآله وسلّم لو تمَّ لسارت الأحداث في طريق آخر لا يلتقي بالطريق الذي سارت عليه.

بل إن ابن أبي الحديد روى في شرح النهج ٥/ ٢٠٩ أن أسامة قال للنبيّ: (أتأذن لي أن أمكث أيّامًا حتى يَشْفِيك الله تعالى؟! فقال: «اخرج وسِرْ على بركة الله»، فقال: يا رسول الله، إن أنا خرجت وأنت على هذه الحال خرجت وفي قلبي قرحة منك، فقال: «سر على النصر والعافية»، فقال: يا رسول الله إني أكره أن أسأل عنك الركبان. فقال: « انفذ لما أمرتك به»، ثم أغمي على رسول الله صلى الله عليه وسلّم، وقام أسامة فتجهَّز للخروج، فلمَّا أفاق رسول الله صلى الله عليه وسلّم سأل عن أسامة والبعث، فأخبر أنهم يتجهَّزون، فجعل يقول: « أنفذوا بعث أسامة لعن الله من تخلّف عنه»، وكرَّر ذلك، فخرج أسامة واللواء على رأسه والصحابة بين يديه، حتى إذا كان بالجرف نزل ومعه أبو بكر وعمر وأكثر المهاجرين ..).

يوم الخميس

ويبدو لي أن المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم في آخر أيامه شعر بالعقبات التي تواجه بعث أسامة، بعد تلكؤ بعض الصحابة بالخروج، وعودة بعضهم إلى المدينة في ما يبدو بدون إذن منه صلوات الله عليه، وعلى الرغم من شِدَّة وطأة مرضه، شاء أمرًا آخر يدفع فيه عن أمّته الضلالة، ويوثّق به بيعة المرتضى سلام الله عليه كي يكون حجّة على الناس من بعد، ولكنّ القوم قد عزموا أمرهم وعقدوه بليل؛ فالأنصار وإن كانت غالبيّتهم لا تبطن بغضًا أو كراهية لأهل بيت النبيّ، فإن ذلك لا يمنع من وجود نار تحت رماد كثير من المدنيين من المنافقين ومن تابعهم أو شجّعهم أو آزرهم تنتظر الفرصة كي تفوز بها، بل إن الفرصة آتية لا ريب فيها، والحجّة التي يمكن أن تروّج ولا أسهل منها قبل يوم النبيّ ذاك وبعده، فهم البيت الذي آواى، والسيف الذي دافع، والدم الذي سال، ومازال الأمس الذي اختار شِعْبَهم رسول الله صلوات الله عليه ليس ببعيد، وفي ظنّي أنه كان بإمكان ذلك النفر من الأنصار الذي رأى الحقّ بالصورة التي رآها الفوز وإن بنصيب، ولكنّ جذوة العصبيّة التي مازالت تحت الرماد وجدت الوقت المناسب لتتأرّث، فأخذتهم إلى يوم السقيفة، ونجحت في التفريق بين القبيلين، واستطاعت إخراجهم من حلبة الصراع بسهولة، ولو أنّ تلك العصبة وضعت في حسبانها أن الإسلام دين دعوة وقيم، وليس دين سيف ومكاسب وحكم، وأنّ تلك القيم لا يمكن أن تترسّخ بين عشيّة وضحاها، وإنما هي بأمسّ ما تكون إلى طاقة إيمانيّة محفوفة برعاية ربّانيّة ووعي وأفق كي تضعها موضع القبول، ثم تستطيع من بعد التمكّن من ذلك المجتمع الذي مازالت أعراف القبيلة هي المسيطرة على

الغالبيّة العظمى منه على الرغم من إسلامه، لكانت الأمور سارت في اتجاه آخر، وعلى كلٍّ حال فإن سيطرة الهواجس القبلية كسرت شوكتهم، وأخرجتهم من دائرة الصراع نهائيًّا.

أما غالبية المهاجرين من قريش - في ما أحسب - فقد ازدادت كراهيتها لعليٍّ وخاصَّة بعد أن لبس غالبيَّة الطلقاء رداء الإسلام، فكان صدام الثأر بالعقيدة الذي أجَّجته قيم القبيلة كفيل بهدم صروحها إلا ما دفع الله، يضاف إلى هذا وذاك وجود قوَّة أخرى، وإن لم تطمع بحكم، فإنها كانت تخطط لهدم بناء وتغذي نارًا تحت الرماد، وهي القوى اليهوديَّة ومن سار في ركابها، أما سلطة رأس المال التي تمثلها الأرستقراطية القرشية، فإنها وإن لم تكن طامعة بالحكم في هذه المرحلة، فإنها في حاجة إلى ما يحفظ لها مصالحها، أو لا يصطدم بها في الأقل.

أما الحزب الهاشمي في المدينة فهو من حيث العدد قد لا يتجاوز أصابع اليدين، وهو من حيث العدَّة قد لا يمتلك هو وأتباعه إلاّ ما يستره، وهو من حيث المنزلة وإن احتلَّ موضع الصدارة فيها، فإنه لا يملك مقومات القوة والنفوذ، فالرسول صلوات الله عليه عما قريب سيرحل، ووجه الحزب علي المرتضى ليس محل رضى القوى المؤثرة ولا قبولها، بل إن ثأر جميع من كلمهم الإسلام سيكون بعد رحيل الرسول المصطفى في رقبته، ولم يكن ذلك الثأر حصرًا في قريش، وإنما تعداها إلى جميع القبائل التي اشتبكت بحرب مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

روى ابن أبي الحديد في شرح النهج ٢/٢٩٥–٢٩٦ عن الصحيحين بسندهما عن ابن عباس قال: (لمّا احتُضِر رسول الله صلى الله عليه وسلّم وفي

البيت رجال منهم عمر بن الخطّاب؛ قال النبي صلى الله عليه وسلّم: «هلمَّ أكْتُبُ لكم كتابًا لا تضلّون بعده» فقال عمر: إن رسول الله صلى الله عليه وسلّم قد غلب عليه الوجع، وعندكم القرآن، حسبنا كتاب الله، فاختلف القوم واختصموا، فمنهم من يقول: قَرِّبوا إليه يكتب لكم كتابًا لن تضلّوا بعده، ومنهم من يقول: القولُ ما قاله عمر؛ فلمّا أكثروا اللغو والاختلاف عنده عليه السلام، قال لهم: «قوموا» فقاموا، فكان ابن عباس يقول: إن الرزيَّة كل الرزيّة ما حال بين رسول الله صلى الله عليه وسلّم وبين أن يكتب ذلك الكتاب)، وقد روى الخبر ابن سعد في طبقاته ٢٤٢/٢ تحت عنوان (ذكر الكتاب الذي أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكتبه لأمته في مرضه الذي مات فيه)، وهو عن ابن عباس من غير طريق، منها عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: (اشتكى النبي صلى الله عليه وسلّم يومَ الخميس فجعل - يعني ابن عباس - يبكي ويقول يوم الخميس وما يوم الخميس! اشتدَّ بالنبي صلى الله عليه وسلم وجعه فقال: «ائتوني بدواة وصحيفة أكتب لكم كتابًا لا تضلّوا بعده أبدًا»، فقال بعض من كان عنده: إن نبي الله لَيَهْجر - يهذي - قال: فقيل له: ألا نأتيك بما طلبت؟ قال: «أوَبَعْدَ ماذا؟» قال: فلم يدعُ به). ورواه أيضًا بسنده عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال: (لما كان في مرض رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي توفّي فيه دعا بصحيفة ليكتب فيها لأمته كتابًا لا يَضلّون ولا يُضَلّون، قال: فكان في البيت لغطٌ وكلامٌ، وتكلّم عمر بن الخطّاب قال: فرفضه النبي صلّى الله عليه وسلم)، وجاء في شرح النهج ٢٩٦/٢ أيضًا (وفي الصحيحين أيضًا خرَّجاه معًا عن ابن عباس رحمه الله تعالى، قال: لما احتُضِر رسول الله صلى الله عليه وآله وفي

البيت رجال منهم عمر بن الخطاب؛ قال النبي صلى الله عليه وآله: هلمّ أكتب لكم كتابًا لا تضلون بعده، فقال عمر: إن رسول الله صلى الله عليه وآله قد غلب عليه الوجع، وعندكم القرآن، حسبنا كتاب الله، فاختلف القوم واختصموا، فمنهم من يقول: قرّبوا إليه يكتب لكم كتابًا لن تضلُّوا بعده، ومنهم من يقول: القول ما قاله عمر؛ فلما أكثروا اللغو والاختلاف عنده عليه السلام قال لهم: قوموا، فقاموا، فكان ابن عباس يقول: إن الرزيَّة كلَّ الرزية ما حال بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين أن يكتب لكم ذلك الكتاب)، ورواه ابن أبي الحديد ثانية في شرح النهج ٥/٢٠٨ عن أبي بكر أحمد بن عبد العزيز، وعلّق بقوله: (هذا الحديث قد خرّجه الشيخان محمد بن إسماعيل البخاري، ومسلم بن الحجاج القشيري في صحيحهما، واتّفق المحدِّثون كافة على روايته)، وروى حكاية يوم الخميس أيضًا الطبري في تاريخه ٣/٦١ من غير طريق وابن الأثير في كامله ٢/٣٢٠ عن ابن عباس أيضًا، أما ابن كثير فإنه بعد أن روى خبر الصحيفة في بدايته ٥/٢٧١عن ابن عباس نقلاً عن الصحيحين، قال: (وقد قدمنا أنه قال: يأبى الله والمؤمنون إلاّ أبا بكر)، ولا أظنك في حاجة للتعليق على تهافت رواية ابن كثير.

وتستطيع أن تستنتج سبب انقسام القوم، في تلك الساعة، كما تستطيع أن تستنتج امتناع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من الأمر بالكتابة بعد اتّهامه بالهذيان لأن ما سيكتبه سيفقد قيمته عند من يريد الخلاف عليه، ولا أدلّ على اقتراب هذا الرأي من الصحة ما رواه ابن أبي الحديد بسنده عن ابن عباس في غير مناسبة، فقد ذكر في شرح النهج ٢/٢٩٨ أن ابن عباس قال: (تفرّق الناس ليلة الجابية - قرية من أعمال دمشق - عن عمر، فسار كلٌّ

واحد مع إلفه، ثم صادفت عمر في تلك الليلة في مسيرنا، فحادثته، فشكا إليّ تخلّف عليٍّ عنه، فقلت: ألم يعتذر إليك؟ قال: بلى، فقلت: هو ما اعتذر به، قال: يا بن عباس، إن أوّل من ريَّثكم عن هذا الأمر أبو بكر؛ وإن قومكم كرهوا أن يجمعوا لكم الخلافة والنبوّة، قلت: لم ذاك يا أمير المؤمنين؟ ألم نُنِلْهم خيرًا؟ قال: بلى، ولكنّهم لو فعلوا لكنتم عليهم جَحْفًا جَحْفًا)، والرواية في تاريخ الطبري ٢٢٢/٤ تقترب من رواية ابن أبي الحديد من ناحية، وتبتعد عنها في القسم الخاص بأبي بكر منها إذ ورد فيه: (لعلّكم تقولون: إن أبا بكر فعل ذلك، لا والله ولكن أبا بكر أتى أحزم ما حضره، ولو جعلها لكم ما نفعكم مع قربكم).

وروى ابن أبي الحديد عن ابن عباس أيضًا بسند يرفعه عن جعفر بن محمد عن أبيه في شرح النهج ٢٩٧/٢ (مرّ عمر بعليٍّ وعنده ابن عباس بفناء داره، فسلّم فسألاه: أين تريد؟ فقال: مالي بينبع، قال علي: أفلا نصل جناحك ونقوم معك؟ قال: بلى، فقال لابن عباس: قم معه، قال فشبّك أصابعه في أصابعي، ومضى حتى إذا خلّفنا البقيع، قال: يابن عباس، أما والله إن كان صاحبك هذا أولى الناس بالأمر بعد وفاة رسول الله إلاّ أنّا خفناه على اثنين. قال ابن عباس: فجاء بمنطق لم أجد بُدًّا معه من مسألته عنه، فقلت يا أمير المؤمنين، ما هما؟ قال: خشينا على حداثة سِنّه وحبّه بني عبد المطّلب)، وعاد فذكره في شرح النهج ٢٠٨/٥ ثانية بسند آخر، والرواية أن صحّت تريك من بين ما تريك أيضًا مصداقًا لما ذكرنا من أن القوم بيّتوا أمرهم وناقشوه قبل رحيل المصطفى صلوات الله وسلامه عليه، ولم يكن ابن ساعته كما أريد له أن يبدو، فمراكز القوى كلها كانت تطمح بخلافة رسول الله،

ولاسيما من كان من المقرَّبين منه صلى الله عليه وآله وسلم، وفي مقدِّمتهم أبو بكر وعمر، فإن كان علي زوج الزهراء، فإن رسول الله زوج عائشة، وهي ابنة أبي بكر، وزوج حفصة، وهي ابنة عمر بن الخطاب.

وروى ابن الأثير في كامله ٦٣/٣ -٦٤ عن ابن عبَّاس أن عمر بن الخطاب قال له: (أتدري ما منع قومكم منهم - أي من بني هاشم - بعد محمد صلّى الله عليه وسلّم؟ فكرِهتُ أن أجيبَه فقلت: إن لم أكن أدري فإن أمير المؤمنين يُدْرِيني! فقال عمر: كَرِهوا أن يجمعوا لكم النبُوَّةَ والخلافة فتَبْجَحوا على قومكم بجحًا بجحًا، فاختارت قريشٌ لأنفسها فأصابت ووُفِّقت. فقلت: يا أمير المؤمنين، إن تأذن لي في الكلام وتُمِطْ عنِّي الغضبَ تكلَّمتُ. قال: تكلَّم. قلتُ: أمَّا قولك يا أمير المؤمنين: اختارت قريش لأنفسها فأصابت ووُفِّقت، فلو أن قريشًا اختارت لأنفسها حين اختار الله لها لكان الصواب بيدها غير مردود ولا محسود، وأما قولك: إنهم أبَوا أن تكون لنا النبوة والخلافة، فإن الله عزَّ وجلَ وصف قومًا بالكراهة فقال: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾، فقال عمر: هيهات والله يا ابن عباس، قد كانت تبلغني عنك أشياء كنت أكره أن أُقِرَّك عليها فتزيل منزلتك منِّي. فقلت: ما هي يا أمير المؤمنين؟ فإن كانت حقًّا فما ينبغي أن تُزِيلَ منزلتي منك، وإن كانت باطلاً، فمثلي أماط الباطلَ عن نفسه، فقال عمر: بلغني أنك تقول: إنما صرفوها عنك - أي: عن علي - حسدًا وبغيًا وظلمًا.فقلت: أما قولك يا أمير المؤمنين: ظلمًا فقد تبيَّن للجاهل والحليم، وأما قولك: حسدًا، فإن آدمَ حُسِدَ ونحن ولدهالمحسَّدون. فقال عمر: هيهات هيهات! أبت والله قلوبكم يا بني هاشم إلاَّ حَسَدًا لا يزول. فقلت: مهلاً يا

أمير المؤمنين لا تصفْ قلوب قوم أذهب الله عنهم الرجسَ وطهَّرهم تطهيرًا بالحسدِ والغشّ، فإن قلبَ رسول الله صلى الله عليه وسلّم من قلوب بني هاشم. فقال عمر: إليك عنّي يا ابن عباس. فقلت: أفعلُ، فلما ذهبت لأقومَ استحيا منّي فقال: يا ابن عباس مكانك فوالله إني لراعٍ لحقّك محبٌّ لما يسرُّك. فقلت: يا أمير المؤمنين إنَّ لي عليك حقًّا وعلى كلِّ مسلم، فمن حَفِظه فحظَّه أصاب، ومن أضاعه فحظَّه أخطأ. ثمَّ قام فمضى)، والرواية بعينها في تاريخ الطبري ٤/٢٢٣–٢٢٤، ولا شك أن مثل تلك الروايات تبين لك ما أعدَّه القوم قبل يوم النبي صلوات الله وسلامه عليه لما بعده، وصدق الخليفة في ما ذهب إليه من اختيار قريش لنفسها، فمتى أحبَّت عليًّا، وقد فعل بها الأفاعيل يوم كشَّرت عن أنيابها في وجه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم، وحاربته تلك الحرب الشعواء، ومصداقًا لتلك الكراهية قول الإمام علي بن الحسين عليهما السلام الذي رواه ابن عساكر في ترجمته عليه السلام بتاريخه ٢/٢٢٩ عن ابن طاووس عن أبيه: (قلت لعلي بن الحسين بن علي: ما بال قريش لا تحبُّ عليًّا؟ فقال: لأنه أورد أوَّلهم النار، وألزم آخرهم العار).

وعلى كلِّ حال فإن النبي كان على بيِّنة مما سيحدث يوم قال للإمام صلوات الله وسلامه عليهما: «إن الأمَّة ستغدر بك بعدي»، وقد رواه ابن عساكر من طرق عدَّة في ترجمته عليه السلام بتاريخه ١٤٨/٣— ١٥٠ ولم تغدر به فحسب، وإنما غدرت فئتها الباغية أيضًا بأهل بيت النبوَّة من بعد، وكان المرتضى على بيِّنة من غدرهم، فقد روى البلاذري في أنسابه ٢/٤٠٩ عن مجاهد أن الإمام عليه السلام قال بالكوفة يومًا: (كيف أنتم إذا أتاكم أهل

عن مجاهد أن الإمام عليه السلام قال بالكوفة يومًا: (كيف أنتم إذا أتاكم أهل بيت نبيِّكُم؟ قالوا: نفعل ونفعل، قال: فحرَّك رأسه ثم قال: بل توردون ثم تُعَرِّدُونَ، ثم تطلبون البراءة ولا براءة لكم).

أيَّام في حضرة المصطفى

ولا يستطيع أحد من الخلق تصور مدى حزن الإمام بقرب رحيل أخيه، وأزعم أنه قد تشوَّفه بعد خطبته في غدير خم منصرفه من حَجَّة الوداع، التي بلَّغ فيها أمته، وأشهدهم على ما قال، ولعل الأوقات التي قضاها المرتضى لوحده معه صلوات الله وسلامه عليهما بعدها هي أعزُّ الأوقات وأقربها إلى نفسه وأشدها وقع حزن على قلبه عند تذكُّرها، ولا يداخلني شكٌ في أنه صلى الله عليه وآله وسلم قد أبلغه فيها من مكنون علمه ما أبلغه، فما أكثر ما ناجاه في ما هو كائن ويكون، وما أكثر ما أوصاه بالصبر على غوالي الزمن الآتي ونوازله، وما أكثر ما أوصاه بتحمُّل الثقل حينما تخفت جذوة الإيمان في نفوس الأقربين قبل الأبعدين، ويغلب على الظن أنه أراه مصارع ذريته الطاهرة، وتنكر أولي الأمر والحل والعقد في الأمة لأهل بيته وشيعته، وتسلط بني أميَّة على رقاب الناس، وأحاديث كلها ألم وحسرة، ولعل أبا السبطين تلقَّاها بصدر رحب ليس فيه ما يزيد من حزن المصطفى، فجميعها لعين الله، وفي سبيله، وكيف لا يكون مستعدًّا لحمل الوصيَّة وهو بكل ذلك الإيمان، وكيف لا يكون مستعدًّا وضربة من سيفه عدلت عبادة الثقلين، فكيف ببقيَّتها في بدر وأحد وخيبر وحنين وغيرها، وكيف لا يكون مستعدًّا وقد حارب بالأمس على تنزيله، وعليه أن يحارب غدًا على تأويله.

ولقد رأيناه صلّى الله عليه وآله وسلّم يخرج من بيت ميمونة تخط قدماه بين علي وبين ابن عمّه، ورأيناه يخرج إلى مسجده لحث القوم على الخروج في بعث أسامة بينهما، ورأيناه بجانبه أيضًا حينما أمَّ أبو بكر المسلمين كما ذكر ابن هشام في سيرته ٣٥٣/٤ وابن سعد في طبقاته ٢١٨/٢ ابن أبي الحديد في شرح النهج ٢٠/١٣-٢١.

ولعلّه من شدَّة هول وقع مرض النبيِّ على المرتضى سلام الله عليهما ما كان يرغب بتقدير حالته الصحيَّة، ولا يريد تصديقها، فكان إذا خرج منه وسئل عن حالته يقول: (أصبح بحمد الله بارئًا)، كما ذكر ابن سعد في طبقاته ٢٤٥/٢، والطبري في تاريخه ٦١/٣ من طبعة الأعلمي، وابن الأثير في كامله ٣٢١/٢ وغيرهم، وقال ابن هشام في سيرته ٣٦١/٤ رواية عن ابن إسحاق عن الزهري بسنده عن عبد الله بن عباس، وهي عن الزهري أيضًا في تاريخ الطبري: (خرج يومئذ علي بن أبي طالب رضوان الله عليه على الناس من عند رسول الله صلى الله عليه وسلّم فقال له الناس: يا أبا حسن، كيف أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلّم ؟ قال: أصبح بحمد الله بارئًا، قال: فأخذه العباس بيده، ثم قال: يا علي، أنت والله عبد العصا بعد ثلاث، أحلف بالله لقد عرفت الموت في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم كما كنت اعرفه في وجوه بني عبد المطلب، فانطلق بنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فإن كان هذا الأمر فينا عرفناه، وإن كان في غيرنا أمرناه فأوصى بنا الناس، وقال: فقال له علي: وإني والله لا أفعل، والله لئن منعناه لا يؤتيناه أحد بعده، فتوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم حين اشتد الضحاء من ذلك اليوم).

ولا أشكُّ في قلق العباس بن عبد المطّلب رضوان الله عليه في تلك الساعات الحرجة، ولا أشكُّ أيضًا في أنه كان يرغب بحسم الأمر بمبايعة ابن أخيه، ولا أستبعد استشارته ابن أخيه في أمر مفاتحة رسول الله بما ستؤول إليه الأمور لهم أو عليهم بعد رحيله، ويراودني يقين، أن المرتضى لو أخذ في تلك الساعة برأي عمّه ومدَّ يده، وقبل بيعته، كما روى ابن سعد في طبقاته ٢/٢٤٥–٢٤٦، لتمَّت البيعة له بصورة أو بأخرى، ولكن عاقبتها ستكون نحر الإسلام من الوريد إلى الوريد، ولعادت الجاهلية الأولى إلى يومها الذي كانت عليه، وكان عليه السلام عالمًا عارفًا بالأمر بكلِّ أبعاده.

وإذا كان المرتضى عبد العصا بزعم الرواية بعد ثلاث، فليس خوفًا من اجتماع من اجتمع، أو حسابًا أو رهبة، ولقد رافقتُ سيرة الإمام عليه السلام خطوة خطوة في ما كتب عنه، وفي ما قرأته بنهجه العظيم قراءة رويَّة بعيدة عن كلِّ المؤثّرات التي أحاطت بي - وهي لا تقاوم - وثبت عندي أنه كان على بيِّنة بما ستؤول إليه الأمور من خلال مناجاته مع الرسول الكريم قبل مرضه وفي أثنائه حتى رحيله، بل قالها صلى الله عليه وآله وسلم صراحة يوم خرج وأبو بكر يصلي بالناس، بعد أن انتهى من صلاته: كما روى الطبري في تاريخه ٦٥/٣ من طبعة الأعلمي: «يا أيُّها النَّاس، سُعِّرت النَّار، وأقبلت الفِتَنُ كقِطَعِ الليل المظلم! وإنّي لا تمسكون عليَّ شيئًا؛ إنّي لم أُحِلَّ لكم إلاَّ ما أحلَّ القرآن، ولم أحرِّم عليكم إلاَّ ما حرَّم عليكم القرآن»، وهي ليست خطبة مودِّع كما هو واضح من كلماتها، وإنما هي خطبة فيها من الغضب والتهديد بالويل ما تقشعرُّ له الأبدان (سُعِّرت النَّار، وأقبلت الفِتَنُ كقِطَعِ الليل المظلم)، ولا أشك في أن سرَّ غضبه لم يكن بغائب عن النفر

الذي استمع إليها، لأن أحاديث القوم وما بيتوه كانت بمسمع منه صلى الله عليه وآله وسلم.

والذي أعتقده أيضًا أن المصطفى وضّح لأخيه صلوات الله وسلامه عليهما حدود الاعتراض ومداه كما سيتبين لنا من بعد، ولا أشك في أن ما جاء في الرواية عن الزهري بعيد عن الواقع وغريب على الرواية، وقد دُسَّ دسًّا فيها، وهو قول عليٍّ عليه السلام بزعمه: (إني والله لا أفعل، والله لئن منعناه لا يؤتيناه أحد بعده)، فمعروف أن الزهريَّ من المنحرفين عن علي، وقد رصد انحرافه جملة من المؤرخين منهم ابن أبي الحديد الذي روى في شرح النهج ٣٠٩/٤ بسنده أن محمد بن شبَّة قال: (شهدت مسجد المدينة، فإذا الزهري وعروة بن الزبير جالسان يذكران عليًّا عليه السلام، فنالا منه، فبلغ ذلك علي بن الحسين عليه السلام؛ فجاء حتى وقف عليهما، فقال: أما أنت يا عروة، فإن أبي حاكم أباك إلى الله، فحكم لأبي على أبيك، وأما أنت يا زهريّ، فلو كنت بمكّة لأريتك كِير أبيك)، إذ إن حديث غدير خمٍّ وما ورد فيه، وغيره من الأحاديث التي سمعتها من فم النبيِّ أمَّةٌ من المهاجرين والأنصار لا يسوِّغ للمرتضى سؤاله صلى الله عليه وآله وسلّم ثانية، ولاسيما أنه كان على بيِّنة من الآتي القريب.

صلاة الخليفة أبي بكر

وقد احتلت صلاة الخليفة أبي بكر صباح اليوم الذي رحل فيه المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم حيِّزًا ليس بقليل في كتب السيرة والحديث، وكانت رواياتها محل أخذ وردٍّ، وعلى الرغم من أني لست من الذين يبنون عليها حكمًا في أمر خلافة أو غيرها، حتى وإن كان المصطفى صلى الله عليه وآله

وسلم قد أمر بها، فما كانت لترشح إلى منصب أو حكم، وإن كانت ترشح إلى احترام ومكانة اجتماعية لأن من توافرت فيه شروط إقامتها تصدَّر لها، ولا شك أن من يتصدَّر لها ينظر أليه بكل احترام وتقدير، ولكنها لا تمنح فوق هذا، ولك أن تنظر شروطها في كتب الفقه على المذاهب لتتبيَّن، ولا يوجد خلاف جوهريٌّ بين المسلمين في أدائها، كما لست بصدد إثبات أمر أو تغييره اختلف عليه المسلمون منذ وقوعه، ولكنِّي بصدد عرض الأحداث بصورها المختلفة، على أن أمنح الفرصة للقارئ كي يوازن، ولا يهم من بعد ما سيستنتجه، فذلك عليّ وما أدراك ما عليّ، وذلك أبو بكر، وقد مضت خلافته، ولا تستطيع كلُّ المناقشات أن تغيِّر حقيقة وقعت، وطواها التاريخ في سجلِّه مع ما طوى.

وقد اخترت من بين الروايات التي تعرضت لتلك الصلاة ما نقله ابن سعد، وما ذكره الشيخ المفيد وما ناقشه السيد المرتضى، ولكي يكون التقارب في النظرة إلى تلك الروايات على أسس موضوعية لا بد أن نضع في الحسبان روايات بعث أسامة التي رصدت من بين ما رصدته التحاق كبار الصحابة فيها كأبي بكر وعمر وغيرهما، وهذا يعني من بين ما يعنيه أن جميع من اشترك فيه لم يكن داخل المدينة، وإنما ينبغي أن يكون على مشارفها في تلك الليلة التي سبقت رحيل المصطفى صلوات الله وسلامه عليه، ولاسيما أن الجيش آذن بالتحرُّك.

وتدلُّ عند ابن سعد في غالبيَّتها أنها كانت لصلاة صبح يوم الاثنين الذي رحل فيه المصطفى، وإن كانت هناك رواية تذهب إلى أنها كانت لأسبوع وأخرى إلى أنها لثلاثة أيّام، وكلاهما في تاريخ الطبري ٣/٦٤–٦٥ من طبعة

الأعلمي، والروايات عند ابن سعد تسير في طريقين، طريق عن السيِّدة عائشة ومن تابعها تؤيد فيها أنها كانت بأمر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وتذهب في اتجاهين: اتجاه يرى أن الرسول التحق بالصلاة، وآخر يرى أن الرسول نظر إلى المصلّين من كوَّة داره، ولم يلتحق بهم، وأما الطريق الآخر، فهو عن أم سلمة ومن تابعها، وتذهب إلى أنه صلى الله عليه وآله وسلّم لم يأمر أبا بكر بالصلاة، وإنما أمر بإقامتها فتصدَّر لها أبو بكر.

أما أصحاب الطريق الأول فقد بنوا بيعة أبي بكر من بين ما بنوا عليه أن الرسول اختاره لأمته بدليل اختياره لإمامة المسلمين، وأما أصحاب الطريق الثاني، فقد استنتجوا أن الرسول كان واعيًا للأمر، فما إن علم بقيام أبي بكر حتى اضطر أن يخرج بين أخيه المرتضى وعمِّه العبَّاس أو ابن عمِّه الفضل، كي يبطل حجَّةً يمكن أن يحتجَّ بها بعد رحيله صلوات الله وسلامه عليه، وأيًّا كانت حجج الفريقين فإنَّ ما قدَّره الله وَقَعَ.

أولى تلك الروايات التي ذكرها ابن سعد في طبقاته ٢/٢١٥ عن عبيد بن عمير الليثي قال: (إن رسول الله صلى الله عليه وسلّم في مرضه الذي توفّي فيه أمر أبا بكر أن يصلّي بالناس، فلما افتتح أبو بكر الصلاة وجد رسول الله صلى الله عليه وسلم خفَّة فخرج فجعل يفرج الصفوف، فلما سمع أبو بكر الحِسَّ علم أنَّه لا يتقدَّم ذلك التقدُّم إلاَّ رسول الله صلى الله عليه وسلّم، وكان أبو بكر لا يلتفت في صلاته فخنس إلى الصفِّ وراءه، فردَّه رسول الله صلى الله عليه وسلّم إلى مكانه فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلّم إلى جنب أبي بكر وأبو بكر قائم، فلمَّا فرغا من الصلاة قال أبو بكر: أي رسول الله أراك أصبحت بحمد الله صالحًا، وهذا يوم ابنة خارجة امرأة لأبي بكر من

الأنصار في بلحارث بن الخزرج، فأذن له رسول الله صلى الله عليه وسلّم، وجلس رسول الله، وحذّر الناس الفتن، ثمَّ نادى بأعلى صوته حتى إن صوته ليخرج من باب المسجد فقال: «إني والله لا يمسك الناس عليَّ بشيء لا أُحِلُ إلاّ ما أحلَّ الله في كتابه ولا أُحرِّم إلاّ ما حرَّم الله في كتابه، ثم قال: يا فاطمة بنت محمد ويا صفيَّة عمَّة رسول الله اعملا لما عند الله فإني لا أغني عنكما من الله شيئًا ثم قام من مجلسه ذلك فما انتصف النهار حتى قبضه الله»)، والرواية المذكورة تثير غير تساؤل، وتدعو إلى النظر، فما بين أمر النبي قيام أبي بكر بالصلاة بسبب مرضه وعدم استطاعته إقامتها، وما بين الركعة الأولى التي تكاد تكتمل لا أكثر من هنيهة من الوقت، فما الذي دعاه صلى الله عليه وآله إلى الخروج بتلك العجلة، وهو لا يقوى على الحركة، بل أصبح صوته من بعد يسمع من خارج المسجد على الرغم من أنه كان غاصًّا بالمصلّين، ثم لماذا اتسمت لهجته صلوات الله وسلامه عليه بالغضب المشوب بالوعيد المخيف، فقد افتتح كلمته بعدها بقوله: « يا أيُّها النَّاس، سُعِّرت النَّار، وأقبلت الفِتَنُ كقِطَعِ الليل المظلم!»، وكلمات من هذا النوع تفتتح فيها خطبة مودِّع لابد أن يكون وراءها ما دفع إلى ذلك التحذير، ويغلب على ظنّي أنه كان على بينة بما يجري في الخفاء من تحزُّب وتهيؤ لما بعد يومه صلوات الله وسلامه عليه، ثم لماذا خص ابنته وعمَّته بزعم الرواية في موضع يقتضي الحديث فيه الاسترسال حول أسباب تلك النار المسعَّرة والفتن المقبلة؟!، حتى أكاد أقول: إن هذه الجملة قد حشرت من بعد في خطبته تلك، ولاسيما أن الرواية تكاد تكون عينها في تاريخ الطبري ٦٥/٣ من طبعة الأعلمي، وهي فيه عن أبي بكر بن عبد الله بن أبي مليكة، ولكن ليس فيها أنه قال: « يا فاطمة بنت محمد ويا

صفيَّة عمَّة رسول الله اعملا لما عند الله فإني لا أغني عنكما من الله شيئًا»، ولكن فيها أمرًا آخر لا أدري كيف استمع إليه الراوي؟! وهو أن أبا بكر (نكص عن مصلاَّه، فدفع رسولُ الله في ظهره وقال: صلِّ بالناس)، وذهب الشريف المرتضى في الشافي ٢/ ١٦٠ إلى أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه عزل أبا بكر عن الصلاة، وأقامها بنفسه، لأنَّ إقراره فيها (في مقامه غلط فضيع من حيث يستحيل أن يكون النبي صلى الله عليه وآله وهو الإمام المتَّبَعُ في سائر الدين متَّبعًا مأمومًا في حال من الأحوال ..).

وذكر ابن سعد رواية أخرى في طبقاته ٢/ ٢١٧ عن عبد الله بن عمر جاء فيها أن عائشة قالت للنبيّ: (إن أبا بكر رجل رقيق كثير البكاء حين يقرأ القرآن فمر عمر فليصلِّ بالناس، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ليصلِّ بالناس أبو بكر، فراجعته عائشة بمثل مقالتها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلَّم: ليصلِّ بالناس أبو بكر إنكنَّ صواحب يوسف!)، وقد ذكر الرواية السابقة ابن الأثير في كامله ٢/ ٣٢٢، والحوار أيضًا يوحي أنه في حاجة إلى فضل تأملٍ، كما يوحي بغضبه منها، بل ومن غيرها، وذلك لقوله: « إنكنَّ صواحب يوسف»، ولا شكَّ أن السيِّدة عائشة كانت في غاية الحرص على قيام أبيها بالصَّلاة، والرواية في تاريخ الطبري ٣/ ٦٤ يشوبها قلق كثير، وينقصها ما يربط بين جملها فقد ذكر أن الأرقم بن شرحبيل قال: (سألت ابن عبَّاس: أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلَّم؟ قال: لا، قلت: فكيف كان ذلك؟ قال: قال رسول الله «ابعثوا إلى عليٍّ فادعوه»، فقالت عائشة: لو بعثت إلى أبي بكر! وقالت حفصة: لو بعثت إلى عمر! فاجتمعوا عنده جميعًا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلَّم: «انصرفوا، فإن تك لي حاجة

أبعث إليكم؟»، فانصرفوا، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «آن الصلاة؟»، قيل: نعم، قال: «فمروا أبا بكر ليصلِّيَ بالنَّاس»، فقالت عائشة: إنه رجل رقيق، فمر عمر، فقال: «مروا عمر»، فقال عمر: ما كنت لأتقدَّم وأبو بكر شاهد، فتقدَّم أبو بكر، ووجد رسول الله خِفَّة، فخرج، فلمَّا سمع أبو بكر حركته تأخَّر، فجذبَ رسول الله صلى الله عليه وسلَّم ثوبه، وأقامه مكانه، وقعد رسول الله فقرأ من حيث انتهى)، بل إن ابن أبي الحديد في شرح النهج ١٣/ ٢٤ يقترب كثيرًا من وجهة النظر الشيعية، ومن رواية أم سلمة، كما قال، فقد نقل رواية الأرقم بن شرحبيل السابقة بسندها عن الطبري، وعلّق عليها بقوله: (قلت: عندي في هذه الواقعة كلام، ويعترضني شكوك واشتباه؛ إذا كان قد أراد أن يبعث إلى علي ليوصي إليه، فَنَفَست عائشة عليه، فسألت أن يحضُر أبوها، ونفست حفصة عليه فسألت أن يحضر أبوها، ثم حضرا ولم يُطلَبا، فلا شبهة أن ابنتيهما طلبتاهما، هذا هو الظاهر، وقول رسول الله صلى الله عليه وسلَّم وقد اجتمعوا كلهم عنده «انصرفوا فإن تكن لي حاجة بعثت إليكم»، قول من عنده ضجر وغضب باطن لحضورهما، وتهمة للنساء في استدعائهما، فكيف يطابق هذا الفعل، وهذا القول ما روي من أن عائشة قالت لمَّا عيَّن على أبيها الصلاة: إن أبي رجل رقيق، فمر عمر! وأين ذلك الحرص من هذا الاستعفاء والاستقالة! وهذا يوهم صحَّة ما تقوله الشيعة من أن صلاة أبي بكر كانت عن أمر من عائشة، وإن كنتُ لا أقول بذلك، ولا أذهب إليه إلاَّ أنَّ تأمّل هذا الخبر ولَمْحَ مضمونه يوهم ذلك، فلعلّ هذا الخبر غير صحيح. وأيضًا ففي الخبر ما لا يجيزه أهل العدل، وهو أن يقول: « مروا

صفيَّة عمَّة رسول الله اعملا لما عند الله فإني لا أغني عنكما من الله شيئًا»، ولكن فيها أمرًا آخر لا أدري كيف استمع إليه الراوي؟! وهو أن أبا بكر (نكص عن مصلاه، فدفع رسولُ الله في ظهره وقال: صلِّ بالناس)، وذهب الشريف المرتضى في الشافي ٢/١٦٠ إلى أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه عزل أبا بكر عن الصلاة، وأقامها بنفسه، لأنَّ إقراره فيها (في مقامه غلط فضيع من حيث يستحيل أن يكون النبي صلى الله عليه وآله وهو الإمام المتَّبَعُ في سائر الدين متَّبعًا مأمومًا في حال من الأحوال ..).

وذكر ابن سعد رواية أخرى في طبقاته ٢/٢١٧ عن عبد الله بن عمر جاء فيها أن عائشة قالت للنبيّ: (إن أبا بكر رجل رقيق كثير البكاء حين يقرأ القرآن فمر عمر فليصلِّ بالناس، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ليصلِّ بالناس أبو بكر، فراجعته عائشة بمثل مقالتها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلَّم: ليصلِّ بالناس أبو بكر إنكنَّ صواحب يوسف!)، وقد ذكر الرواية السابقة ابن الأثير في كامله ٢/٣٢٢، والحوار أيضًا يوحي أنه في حاجة إلى فضل تأملٍ، كما يوحي بغضبه منها، بل ومن غيرها، وذلك لقوله: «إنكنَّ صواحب يوسف»، ولا شكَّ أن السيِّدة عائشة كانت في غاية الحرص على قيام أبيها بالصَّلاة، والرواية في تاريخ الطبري ٣/٦٤ يشوبها قلق كثير، وينقصها ما يربط بين جملها فقد ذكر أن الأرقم بن شرحبيل قال: (سألت ابن عبَّاس: أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلَّم؟ قال: لا، قلت: فكيف كان ذلك؟ قال: قال رسول الله «ابعثوا إلى عليٍّ فادعوه»، فقالت عائشة: لو بعثت إلى أبي بكر! وقالت حفصة: لو بعثت إلى عمر! فاجتمعوا عنده جميعًا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلَّم: «انصرفوا، فإن تك لي حاجة

أبعث إليكم؟»، فانصرفوا، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «آن الصلاة؟»، قيل: نعم، قال: «فمروا أبا بكر ليصلِّيَ بالنَّاس»، فقالت عائشة: إنه رجل رقيق، فمر عمر، فقال: «مروا عمر»، فقال عمر: ما كنت لأتقدَّم وأبو بكر شاهد، فتقدَّم أبو بكر، ووجد رسول الله خِفَّة، فخرج، فلمَّا سمع أبو بكر حركته تأخَّر، فجذبَ رسول الله صلى الله عليه وسلَّم ثوبه، وأقامه مكانه، وقعد رسول الله فقرأ من حيث انتهى)، بل إن ابن أبي الحديد في شرح النهج ١٣/ ٢٤ يقترب كثيرًا من وجهة النظر الشيعية، ومن رواية أم سلمة، كما قال، فقد نقل رواية الأرقم بن شرحبيل السابقة بسندها عن الطبري، وعلَّق عليها بقوله: (قلت: عندي في هذه الواقعة كلام، ويعترضني شكوك واشتباه؛ إذا كان قد أراد أن يبعث إلى علي ليوصي إليه، فَنَفَست عائشة عليه، فسألت أن يحضُر أبوها، ونفست حفصة عليه فسألت أن يحضر أبوها، ثم حضرا ولم يُطلَبا، فلا شبهة أن ابنتيهما طلبتاهما، هذا هو الظاهر، وقول رسول الله صلى الله عليه وسلَّم وقد اجتمعوا كلهم عنده «انصرفوا فإن تكن لي حاجة بعثت إليكم»، قول من عنده ضجر وغضب باطن لحضورهما، وتهمة للنساء في استدعائهما، فكيف يطابق هذا الفعل، وهذا القول ما روي من أن عائشة قالت لَمَّا عيَّن على أبيها الصلاة: إن أبي رجل رقيق، فمر عمر! وأين ذلك الحرص من هذا الاستعفاء والاستقالة! وهذا يوهم صحَّة ما تقوله الشيعة من أن صلاة أبي بكر كانت عن أمر من عائشة، وإن كنتُ لا أقول بذلك، ولا أذهب إليه إلاَّ أنَّ تأمّل هذا الخبر ولَمْحَ مضمونه يوهم ذلك، فلعلَّ هذا الخبر غير صحيح. وأيضًا ففي الخبر ما لا يجيزه أهل العدل، وهو أن يقول: « مروا

أبا بكر»، ثم يقول عقيبه: «مروا عمر»، لأن هذا نسخ الشيء قبل تقضّي وقت فعله).

وذكر أيضًا رواية أخرى في ٢٢٠/٢ عن عائشة توثق أن الصلاة كانت لصبيحة يوم الاثنين، وليس لغيره كما ورد في بعض الروايات إذ قالت: (لمّا كانت ليلة الاثنين بات رسول الله صلى الله عليه وسلم دنفًا فلم يبق رجل ولا امرأة إلا أصبح في المسجد لوجع رسول الله صلى الله عليه وسلّم، فجاء المؤذن يؤذنه بالصبح فقال: قل لأبي بكر يصلي بالناس، فكبّر أبو بكر في صلاته فكشف رسول الله صلى الله عليه وسلّم الستر فرأى الناس يصلُّون فقال: إن الله جعل قرة عيني في صلاة الصبح، وأصبح يوم الاثنين مفيقًا فخرج يتوكأ على الفضل بن عباس وعلى ثوبان غلامه حتى دخل المسجد، وقد سجد الناس مع أبي بكر سجدة من الصبح وهم قيام في الأخرى... فجاء حتى قام عند أبي بكر فاستأخر أبو بكر، فأخذ النبي صلى الله عليه وسلم بيده فقدمه في مصلاّه، فصفّا جميعًا، رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس وأبو بكر قائم على ركنه الأيسر يقرأ القرآن، فلما قضى أبو بكر السورة سجد سجدتين ثم جلس يتشهد، فلمّا سلّم صلى النبي صلى الله عليه وسلم الركعة الأخيرة ثم انصرف)، والرواية أيضًا توحي بالقلق، فإن كان صلوات الله وسلامه عليه بتلك الحال، وأمر أبا بكر بالصّلاة، فمن الصعب أن يعرِّضه للإحراج أمام المسلمين بدخوله عليه في مصلاّه، وما سيلحق ذلك الدخول من همس بينهم، ثم إن الرواية ستلحق بها رواية أخرى عن عائشة، تبتعد عن الرواية السابقة، ويبدو عليها قلق كبير أيضًا في ٢١٨/٢–٢١٩ عن عبيد الله بن عبد الله قال:(دخلت على عائشة فقلت

لها حدِّثيني عن مرض رسول الله صلى الله عليه وسلم، قالت: لمَّا ثقل رسول الله صلى الله عليه وسلَّم فقال: أصلى الناس؟ فقلت: لا، هم ينتظرونك يا رسول الله! قال: ضعوا لي الماء في المِخضَب، قالت ففعلنا فاغتسل ثمَّ ذهب لينوء فأغمي عليه ثم أفاق فقال: أصلى الناس؟ فقلت: لا، هم ينتظرونك! فقال: ضعوا لي الماء في المخضب، قالت: ففعلنا فاغتسل ثم ذهب لينوء فأغمي عليه ثمَّ أفاق فقال: أصلَّى الناس؟ فقلت: لا، هم ينتظرونك! فقال: ضعوا لي الماء في المخضب، قالت ففعلنا فذهب فاغتسل فقال: أصلى الناس ؟ فقلنا: لا، هم ينتظرونك ! والناس عكوف في المسجد ينتظرون رسول الله صلى الله عليه وسلم لصلاة العشاء الآخرة. قالت: فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلَّم إلى أبي بكر بأن يصلِّي بالنَّاس، فأتاه الرسول فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلَّم يأمرك أن تصلِّيَ بالناس، فقال أبو بكر، وكان رجلاً رقيقًا: يا عمر صلِّ بالناس! فقال عمر: أنت أحق بذلك! فصلَّى أبو بكر تلك الأيَّام، ثمَّ إن النبيَّ صلى الله عليه وسلَّم وجد من نفسه خفَّة فخرج بين رجلين أحدهما العباس فصلى الظهر وأبو بكر يصلِّي بالناس، قالت فلمَّا رآه أبو بكر ذهب ليتأخَّر فأومأ إليه النبي، صلى الله عليه وسلَّم أن لا يتأخَّر، وقال لهما أجلساني جنبه، فأجلساه إلى جنب أبي بكر. قال: فجعل أبو بكر يصلِّي وهو قائم بصلاة النبي صلى الله عليه وسلَّم، والناس يصلون بصلاة أبي بكر والنبي صلى الله عليه وسلَّم قاعد، قال عبيد الله: فدخلت على عبد الله بن عباس فقلت: ألا أعرض عليك ما حدَّثتني عائشة عن مرض رسول الله صلى الله عليه وسلَّم؟ قال: هات! فعرضت عليه فما أنكر منه شيئًا غير أنَّه قال:

سمَّت لك الرجل الذي كان مع العباس؟ قال: قلت: لا! قال: هو علي بن أبي طالب).

ويبدو أن الحابل قد اختلط في الروايات الواردة عن السيِّدة عائشة بالنَّابل كما اختلط برواية الطبري السابقة الذكر، حتى إنه من الصَّعب الأخذ بها، فهي صلاة عشاء مرَّة، وصلاة ظهر، ثمَّ صلوات وليس صلاة واحدة، ثم حرص من النبي صلوات الله وسلامه عليه على الذهاب إلى المسجد وهو بذلك الوضع الصِّحي الذي لا يسمح له بالحركة، ولكن في الروايتين أمر نوَّه به ابن أبي الحديد كما سبق القول، ويمكن أن يضاف إلى تنويهه، وهو أن النبيَّ حينما أمر بقيام أبي بكر بالصلاة، وقالت له السيدة عائشة: إنه رجل رقيق، قال بزعم الرواية: مروا عمر يصلِّي، مما يدل على أن الأمر إن صحَّ لا يتعدَّى صلاة يقيمها أحد أصحابه ليس من ورائها ما يرشِّح أحدًا لأمر، وإذا كنَّا نستطيع تقدير الخلط الذي وقع في الرواية، فإنه من الصَّعب أن نقدِّر خروج النبي بتلك الحال على أنه رغبة منه صلوات الله وسلامه عليه على إقامتها في مسجده!!

وذكر ابن سعد في طبقاته ٢٢٣/٢ رواية عن أم سلمة، وفيها أن رسول الله لم يأمر أبا بكر بالصلاة في أثناء مرضه، وإنما قال صلى الله عليه وآله وسلَّم: مروا الناس فليصلُّوا فصلَّى بهم أبو بكر، قال ابن سعد: (أخبرنا محمد بن عمر عن سعيد بن عبد الله بن أبي الأبيض عن المَقْبُري عن عبد الله بن رافع عن أم سلمة: أن رسول الله صلى الله عليه وسلَّم كان في وجعه إذا خفَّ عنه ما يجد خرج فصلَّى بالناس، وإذا وجد ثقله قال: مُرُوا الناس فليصلُّوا! فصلَّى بهم ابن أبي قحافة يومًا الصبح فصلَّى ركعة، ثم خرج رسول الله، صلى الله عليه

وسلّم، فجلس إلى جنبه فأتمّ بأبي بكر، فلمّا قضى أبو بكر الصلاة أتمّ رسول الله صلى الله عليه وسلّم ما فاته).

وهذه الرواية وإن بدت أقدر من غيرها على تحقيق القبول، لأن تخصيص الرسول لأحد من المسلمين كي يصلي في مكانه في تلك الساعة الحرجة قد يثير قيلاً لا يريده ولا يرضاه، على الرغم من صعوبة قبول ما جاء فيها من إمامة أبي بكر لرسول الله فيها، إذ كيف يكون الإمام مأمومًا، ثم كيف عُلِمَ أنه قد أمّه فيها؟! لا شك أن هذا اجتهاد تصوره الراوي تدفعه رواية أخرى جاء فيها (أومأ له أن يتأخّر فتأخّر، وأمّ النبيُّ الناس)، وإذا أخذنا بجميع ما قيل من أقوال لترجيح كفّة أبي بكر في الخلافة، فإن جميع الظروف التي أحاطت بعلاقة النبي بأخيه المرتضى تدلل على شديد رغبته بخلافته الأمّة من بعده، وإلى رجحان كفّته على كفّة غيره من المسلمينعند رسول الله صلى الله عليه آله وسلّم، ولا نقرأ هذا من خلال الأوسمة التي اتّشح بها ولا من خلال بيعة الغدير فحسب، وإنما من مجمل سيرته عليه السلام.

تلك الروايات التي ذكرنا أهم روايات أصحاب الحديث بشأن صلاة أبي بكر، أما رواية علماء مذهب أهل البيت فقد ذكرها اليوسفي في موسوعته ٣/٦٨٦–٦٨٧ عن إرشاد المفيد، وفيه أنّ بلالاً كان (يؤذن ثم يأتي إلى النبي فيؤذنه بذلك، فأذّن يومًا للفجر ثم جاءه وهو مغمور بالمرض، فنادى: الصلاة يرحمكم الله، فأوذن رسول الله صلى الله عليه وآله بندائه، فقال: يصلّي بالناس بعضهم فإنّني مشغول بنفسي. فقالت عائشة: مروا أبا بكر.. وقالت حفصة: مروا عمر! وكان رسول الله قد أمرهما بالخروج إلى أسامة،

ولم يكن عنده علم أنّهما قد تخلّفا، فلمّا سمع من عائشة وحفصة ما سمع علم أنهما متأخّران عن أمره، ورأى حرص كلّ واحدة منهما على التنويه بأبيها وافتتانها بذلك هذا ورسول الله حيّ، فقال رسول الله لهما: اكففن فإنّكنّ صُويحبات يوسف، ثم دعا عليًّا والفضل بن العباس واعتمدهما ورجلاه تخطّان الأرض من الضعف، فلما خرج من بيته إلى المسجد وجد أبا بكر قد سبق إلى المحراب، فحضره وأومأ بيده إليه أن تأخّر، فتأخّر أبو بكر، فقام رسول الله صلى الله عليه وآله مقامه، ولم يبن على ما مضى من أفعال أبي بكر بل ابتدأ الصلاة بإقامة وتكبيرة إحرام).

وناقش أمر تلك الصلاة الشريف المرتضى في الشافي ٢/١٥٨–١٥٩ فقال: (وقد بيَّن أصحابنا رحمهم الله في غير موضع الكلام على خبر الصلاة المنسوبة إلى أبي بكر، ودلُّوا على أنه لا نسبة بين الصلاة والإمامة، وجملة ما أوردوه أن خبر الصلاة أولاً خبر الواحد، ثمّ إنّ الأمر بها والإذن فيها وارد من جهة عائشة، وليس بمنكر أن يكون الإذن صدر من جهتها لا من جهة الرسول صلى الله عليه وآله، وقد دلّ أصحابنا على ذلك بشيئين أحدهما قول النبي صلى الله عليه وآله على ما أتت به الرواية لما عرف تقدُّم أبي بكر في الصلاة وسمع قراءته في المحراب: (إنكُنَّ كصويحبات يوسف)، وبخروجه عليه السلام متحاملاً من ضعف معتمدًا على أمير المؤمنين عليه السلام والفضل بن العباس، وعزله لأبي بكر عن المقام وإقامة الصلاة، وتقدُّمه عليه بنفسه في الصلاة، وهذا يدلُّ دلالة واضحة على أن الإذن في الصلاة لم يتعدَّ عائشة إلى الرسول صلى الله عليه وسلّم ..). وعلى الرغم من الروايات السابقة فإن ابن عبد ربّة ذكر في عقده ٤/٢٣٩ رواية عن أنس بن مالك لا تستقيم مع جميع

الروايات السابقة إذ يقول: (صلّى أبو بكر بالناس ورسول الله صلى الله عليه وسلّم مريض ستّة أيّام)، بل روى أيضًا في المصدر السابق عن النضر بن إسحاق عن الحسن قال: قيل لعلي: علام بايعت أبا بكر؟ فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلّم لم يمت فجأة، وكان يأتيه بلال في كلّ يوم في مرضه يؤذنه بالصلاة، فيأمر أبا بكر فيصلّي بالناس، وقد تركني وهو يرى مكاني، فلمّا قُبضَ رسول الله صلى الله عليه وسلّم رضي المسلمون لدنياهم من رضيه رسول الله لدينهم فبايعوه وبايعته)، وعجيب أن يذكر ابن عبد ربه أيضًا في ٤/ ٢٤٢ (الذين تخلّفوا عن بيعة أبي بكر علي والعباس والزبير وسعد بن عبادة، فأما علي والعباس والزبير فقعدوا في بيت فاطمة حتى بعث إليهم أبو بكر عمر بن الخطاب ليخرجهم من بيت فاطمة، وقال لهم: إن أبوا فقاتلهم. فأقبل بقبس من نار على أن يضرم عليهم الدار، فلقيته فاطمة، فقالت: يا ابن الخطاب، أجئت لتُحرق دارنا؟ قال: نعم، أو تدخلوا في ما دخلت فيه الأمة. فخرج عليٌّ حتى دخل على أبي بكر فبايعه، فقال له أبو بكر: أكرهت إمارتي؟ فقال: لا، ولكنّي آليت أن لا أرتدي بعد موت رسول الله صلى الله عليه وسلّم حتى أحفظ القرآن، فعليه حبست نفسي)، ثم ذكر بعد ذلك بلا فاصل (ومن حديث الزهري عن عروة عن عائشة قالت: لم يبايع عليٌّ أبا بكر حتى ماتت فاطمة، وذلك لستة أشهر من موت أبيها صلى الله عليه وسلّم).

سويعات الوداع وهولها

على أن أحدًا لا يستطيع أن يقدر هول السويعات الأخيرة على أبي الحسنين عليه السلام، والمصاب الجلل الذي كان ينوء به، لقد رأيته وعيناه في أمّ رأسه

يمسك بتلابيب أعصابه عصبًا عصبًا وهو يرى أخاه يجود بنفسه، يرى عمره منذ طفولته المبكرة هكذا بين أصابعه ينسلُّ منها ولا يستطيع الإمساك به، وهبه كان عليًا فإن مصابه ذاك ليس كأي مصاب، وعجيب عدم تساؤل جميع رواة أخبار رحيل المصطفى، أو سيرة المرتضى عن المرتضى هل صلّى خلف أحد في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلّم أيام مرضه، وهل رآه أحد من قبل يصلي في بيته، أو في غيره، وهو في المدينة!؟، فلماذا تخلّف عن الصلاة خلف أبي بكر في صلاته تلك إن كان النبيُّ قد أمر بها، لا أظن أن الإمام عليه السلام كان بعيدًا عن رسول الله، إذ لم يكن بيته ببعيد عن بيته أو عن مسجده الشّريف، فليس غير جدار يغلب على الظن أنه من الجريد، وليس غير باب يدخل منها في المسجد ويخرج، ولا أظنه فارقه لحظة واحدة، ولعلّه لم يذق طعم نوم أو طعام أو شراب في تلك الأيام، لقد كان في شغل عن دنيا القوم التي بدأ الاحتراب عليها قبل حين، بل يراودني يقين أن المصطفى ما كان يطيق فرقة أخيه ولو لدقيقة واحدة، فما زال هناك ما يوصيه به ويحدّثه عنه، لذا فإنه حينما أحس صلى الله عليه وآله وسلّم بدنوِّ أجله، - ولعلَّ الإمام في ساعتها ذهب إلى ما لا يقدر على منع نفسه من الذهاب إليه - طلبه النبيُّ بإلحاح شديد، فليس غيره يجدر أن يحضر كي يسمع كلماته الأخيرة؛ قال ابن سعد في طبقاته ٢٦٣/٢ : (أخبرنا محمد بن عمر، حدثني عبد الله بن محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب عن أبيه عن جدّه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرضه «ادعوا لي أخي»؛ قال: فدعي له علي فقال: ادن منّي، فدنوت منه فاستند إليَّ فلم يزل مستندًا إلي وإنه ليكلّمني حتى إن بعض ريق النبي صلى الله عليه وسلم لَيُصيبني، ثم نزل برسول الله صلى الله عليه وسلم وثَقِلَ في

حجري فصحت يا عباس أدركني فإني هالك! فجاء العباس فكان جَهدهما جميعًا أن أضجعاه)، وتقرأ قريبًا من هذا في كتاب فضائل أمير المؤمنين لأحمد ٣٨٩ برقم ٢٩٦ عن أمّ سلمة يوم أقسمت أن المرتضى كان أقرب الناس عهدًا برسول الله صلوات الله وسلامه عليهما، ولك أن تنظره عنها في مستدرك الحاكم ٣/١٣٨ -١٣٩.

ورواية ابن سعد السابقة تأخذ منحًى إضافيًا في إرشاد المفيد، فالرسول حينما دعا، قالت السيدة عائشة: ادعوا له أبا بكر، فلمّا دعي أعرض عنه النبي، فقالت السيدة حفصة: ادعوا له عمر، فلما حضر أعرض عنه النبي، ولما أعاد الطلب ثالثة، قالت السيدة أم سلمة: ادعوا له عليًّا إنه لا يريد غيره.

وأنت تستطيع أن تقدِّر مدى تعلق المصطفى بأخيه سلام الله عليهما حتى الرمق الأخير، ولا أدري كيف نستطيع أن نتصور متى استطاع الإمام سلَّ صورة ذلك الوداع الأخير من عينيه، يراودني يقينٌ أنه لم يستطع سلّه لا في ساعات ليل ولا في ساعات نهار، ولعلَّ الصورة كانت على أوضح ما تكون حين ضربه ابن ملجم على هامته ففطرها، ولعلَّ تلك السويعات على شدّة إيلامها كانت من أحبِّ ساعات الدنيا إليه، ولا أشكُّ في أن أمير المؤمنين يوم قرب موعد التحاقه بأخيه كان يراه صلى الله عليه وآله كما لم يكن قد رآه من قبل، فتعجَّل الرحيل إليه، فكتبه الله له عليه السلام.

وروى الشيخ اليوسفي في موسوعته ٣/٦٨٩ عن إرشاد المفيد ١/١٨٥ وغيره من مصادره أنَّ النبيَّ في سويعاته تلك التفت إلى عمّه العباس وسأله إن كان بإمكانه تقبُّل وصيّته، فاعتذر بسبب شيخوخته وتقدُّم سنّه، وبسبب ثقل وصيّته صلوات الله عليه، وحينما سأل أخاه لم يتردَّد عن قبولها فدعا

المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم بسيفه ودرعه وجميع لامته وعصابة كان يشدها على بطنه إذا خرج إلى الحرب فدفعها إليه، ونزع خاتمه من يده، وطلب منه أن يضعه بإصبعه، ولا شك أنَّ ذلك الخاتم لم يفارق يده إلى أن التحق به صلوات الله وسلامه عليهما، ورويت روايات أخر حول إخبار النبيّ أخاه وعمَّه عن موقف القوم منهم بعد رحيله.

الرحيل

وفي الوقت الذي كان أصحاب السقيفة في شغل عن رسول الله، كان المرتضى وأهله في شغل عنهم، فقد تولّى عليه السلام من الأمر أصعبه، وساعده فيه ابن عمّه قثم بن العبَّاس وأبوه العباس وأسامة بن زيد وشقران مولى رسول الله صلى لله عليه وآله وسلّم، وانضمَّ إليهم أوس بن الخولي - وهو من البدريين - بعد أن نشد الإمام حظ الأنصار من رسول الله كما ذكر ابن هشام في سيرته ٣٧٠/٤ الذي قال أيضًا: (قال ابن إسحاق: فلما بويع أبو بكر رضي الله عنه أقبل الناس على جهاز رسول الله صلى الله عليه وسلم الثلاثاء... فأسنده علي بن أبي طالب إلى صدره، وكان العباس والفضل وقثم يقلبونه معه، وكان أسامة بن زيد وشقران مولاه هما اللذان يصبان الماء وعلي يغسله وقد أسنده إلى صدره وعليه قميصه يدلكه من ورائه لا يفضي بيده إلى رسول الله صلى الله عليه وسلّم، وعلي يقول: بأبي أنت وأمي، ما أطيبك حيًّا وميّتًا ولم ير من رسول الله صلى الله عليه وسلّم مما يرى من الميت). ولا شكّ أن القيام بأمر النبيّ كله يوم حضر أجله صلوات الله عليه لم يكن بمبادرة من علي عليه السلام فحسب، وإنما كان بوصاة منه صلى الله عليه

وآله وسلّم فقد روى الصدوق بسنده عن ابن عباس كما ذكر اليوسفي في موسوعته أنّه لما مرض النبيُّ سأله عمار بن ياسر وهو وسط أصحابه عن الذي يقوم بتغسيله إن نزل القضاء، فقال: « ذاك علي بن أبي طالب، لأنّه لا يهم بعضو من أعضائي إلاّ أعانته الملائكة على ذلك»، ثمَّ سأله عمّار عن الذي يصلّي عليه فالتفت إلى أخيه صلوات الله وسلامه عليهما وقال: «إذا رأيت روحي فارقت جسدي فاغسلني ونقّ غسلي، وكفّنّي في طِمريَّ هذين، أو في بياض مصر وبرد يمان، ولا تغال في كفني، واحملوني حتى تضعوني على شفير قبري، فأوّل من يصلّي علي الجبّار جلَّ جلاله من فوق عرشه، ثم جبريل وميكائيل وإسرافيل في جنود من الملائكة لا يحصي عددهم إلاّ الله عزَّ زجل، ثمَّ الحافُّون بالعرش، ثم سكان أهل سماء فسماء، ثم جلّ أهل بيتي ونسائي الأقربون فالأقبون، يومون إيماء ويسلّمون تسليمًا، لا يؤذوني بصوت نادبة ولا رنّة».

وكان صلى الله عليه وآله وسلّم قد طلب من أخيه أن يغسّله من ماء عين غرس، وهي بقباء وكان يستطيب ماءها كما روى ابن سعد في الطبقات ٢/ ٢٨٠ وياقوت في معجم بلدانه ٤/ ٢١٨.

أما القوم فكانوا في شغل عن المسجّى حين جاءت ساعة القضاء، فقد كانوا في مولدٍ عظيم، لأن جذوة الإيمان في نفوس خاصّة صحابته قد عراها الوهن والضّعف، وعجيب أن يقول ابن إسحاق: (فلمّا بويع أبو بكر رضي الله عنه أقبل الناس على جهاز رسول الله) لأن السؤال المحير هو أقبلوا يفعلون ماذا؟ وأي جهازٍ شاركوا فيه؟ والرواية كما هي أمامك ليس فيها من مشارك في ذلك الجهاز غير من ذكرنا.

وقد رويت روايات عدَّة بشأن غسله وتكفينه ودفنه صلوات الله وسلامه عليه، كان المرتضى عليه السلام فيها هو المتوّلي أمره في جميعها.

أما بشأن تكفينه فقد قال ابن هشام في السيرة ٤/٣٧٢ نقلاً عن ابن إسحاق: (فلما فرغ من غسل رسول الله صلى الله عليه وسلم كفن في ثلاثة أثواب، ثوبين صحاريين وبرد حبرة أدرج فيه إدراجًا، كما حدثني جعفر بن محمد بن علي بن الحسين عن أبيه عن جده علي، والزهري عن علي بن الحسين).

أما وداعه صلى الله عليه وآله وسلّم والصلاة عليه إلى مثواه الأخير فلم تشارك فيه أمَّة من المهاجرين والأنصار، لانشغالهم بذلك المولد عن وداعه أو الصلاة عليه كما ذكر توفيق أبو علم في كتابه عن الإمام ٧٧–٧٨، نقلاً عن الشيخ المفيد.

ولا أحدّثك ولا غيري يستطيع وصف حال أبي السبطين عليه السلام، وهو يلي كلَّ هذا، ولعلَّ في ما رواه محمَّد بن حبيب الذي نقله ابن أبي الحديد في شرح النهج ١٣/ ٣٠ ما يقرِّب لك الصورة، قال: (فلمَّا كشف الإزار عن وجهه بعد غَسْلِهِ انحنى عليه فقبَّله مرارًا؛ وبكى طويلاً وقال: بأبي أنت وأمي! طبت حيًّا وطبت ميتًا! انقطع بموتك ما لم ينقطع بموت أحد سواك من النبوَّة والأنبياء وأخبار السماء! خصَّصتَ حتى صرتَ مُسَلِّيًا عمَّن سواك؛ وعمَّمت حتى صارت المصيبة فيك سواء!، ولولا أنّك أمرتَ بالصَّبْرِ، ونَهَيْتَ عن الجَزَعِ، لأنفَدْنا عليكَ ماء الشُّؤُونِ؛ ولكن أتى ما لا يُدْفَع! أشكُو إليك كمدًا وإدبارًا مخالفين وداء الفتنة، فإنها قد استعرت نارها، وداؤها الداء الأعظم! بأبي أنت وأمّي اذكرنا عند ربّك، واجعلنا من بالك وهمِّكَ)، وهي في النهج ٥٢٨–٥٢٩ قريبة من هذا بشيء من الاختلاف.

أما اليعقوبي في تاريخه ٤٤٤/١ فذكر رواية لا أراها تبتعد عن الواقع في رزيَّة أهل البيت بمصابهم الجلل ذاك كرَّمهم بها الله سبحانه وتعالى، وخفَّف شيئًا من وقعه، قال: (وغسَّله عليٌّ بن أبي طالب، والفضل بن العبَّاس وأسامة بن زيد يناولان الماء، وسمعوا صوتًا من البيت، يسمعون الصَّوت ولا يرون الشخص، فقال: السلام ورحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت، إنه حميد مجيد، إنما يريد الله ليذهب عنكم الرِّجس أهل البيت ويطهِّركم تطهيرًا، ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ * لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذىً كَثِيراً وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ إنَّ في الله خلفًا من كلِّ هالكٍ وعزاء من كلِّ مصيبة، عظَّم الله أجوركم، والسلام ورحمة الله وبركاته.فقيل لجعفر بن محمد: من كنتم ترونه؟ فقال: جبريل).

دفن المصطفى ومن شارك فيه

وروى ابن سعد روايات أخر بشأن غسله وتكفينه ودفنه صلى الله عليه وآله وسلَّم، وفي ما ذكرناه ونذكره كِفايةٌ لِمُجْمِلٍ، ومن طلب الاستزادة فله في كتب السيرة والتاريخ وغيرها ما لا يضيف شيئًا كثيرًا إلى ما ذكرناه.

قال ابن سعد بسنده في طبقاته ٢٦٢/٢–٢٦٣ عن جابر بن عبد الله الأنصاري: (إن كعب الأحبار قام زمن عمر بن الخطَّاب فقال ونحن جلوس عند عمر أمير المؤمنين: ما كان آخر ما تكلَّم به رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم؟ فقال عمر: سَلْ عليًّا؛ قال: أين هو؟ قال: هو هنا؛ فسأله فقال

علي: أسندته إلى صدري فوضع رأسه على مَنْكبي فقال: الصلاة الصلاة! فقال كعب: كذلك آخر عهد الأنبياء وبه أُمِروا وعليه يُبْعَثون؛ قال: فمن غسَّله يا أمير المؤمنين؟ قال: سلْ عليًا؛ قال: فسأله فقال: كنتُ أنا أغسله، وكان عبَّاس جالسًا وكان أُسامة وشُقْران يختلفان إلي بالماء).

وروى في طبقاته ٢٦٣/٢ أيضًا عن الشعبي قال: (توفي رسول الله صلى الله ليه وسلم، ورأسه في حجر عليٍّ، وغسله عليٌّ والفضل محتضنه وأسامة يناول الفضل الماء).

وكان عروة بن الزبير وهو معروف بتحامله على الإمام عليه السلام قد حدَّث عن السيِّدة عائشة أن رسول الله توفِّيَ في حجرها، ولكن ابن سعد في طبقاته ٢٦٣/٢ قال بسنده أن أبا غطفان قال: (سألت ابن عباس أرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم توفي ورأسه في حجرِ أحد؟ قال: توفِّي وهو لمستند إلى صدر علي؛ قلتُ: فإن عروة حدَّثني عن عائشة أنها قالت تُوفِّي رسول الله صلى الله عليه وسلَّم بين سَحْري ونَحْري! فقال ابن عباس: أتعقِلُ؟ والله لتُوُفِّي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإنه لمستندٌ إلى صدر عليّ، وهو الذي غسَّله وأخي الفضل بن عباس، وأبى أبي أن يحضر، وقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأمرنا أن نستتر فكان عند الستر).

وروى ابن سعد في طبقاته تحت عنوان ذكر غسل رسول الله صلى الله عليه وسلم وتسمية من غسله روايات عدة في الطبقات ٢٧٧/٢ــ٢٨١ كلُّها توثِّق أن الإمام عليه السلام هو الذي تولىَّ غسله، وحجبه الفضل وأسامة في رواية، وفي أخرى (والعباس قاعد والفضل محتضنه وعلي يغسله وأسامة يختلف)، وفي أخرى (العباس وعلي والفضل، قال الفضل بن دكين في

حديثه: والعباس يسترهم)، وفي أخرى (العباس وعلي والفضل وصالح مولى رسول الله)، وفي أخرى عن يزيد بن بلال قال: (قال علي: أوصى النبي صلى الله عليه وسلم ألاّ يغسله أحدٌ غيري، فإنه لا يرى أحدٌ عورتي إلاّ طُمِسَت عيناه، قال علي: فكان الفضل وأسامة يناولاني الماء من وراء الستر، وهما معصوبا العين، قال علي: فما تناولت عضوًا إلاّ كأنما يُقلِّبه معي ثلاثون رجلاً حتى فرغت من غسله)، وأخرى (علي والفضل وسامة بن زيد وشقران، ووليَ غسل سَفِلَته عليٌّ والفضل محتضنه، وكان العباس وأسامة بن زيد وشقران يصبُّون الماء)، وأخرى (علي والفضل وأمروا العباس أن يحضر عند غسله فأبى فقال: أمرنا النبي صلى الله عليه وسلَّم أن نستتر) وغيرها.

واختُلِفَ في يوم رحيله ويوم دفنه صلى الله عليه وآله وسلّم، فذكر الطبري في تاريخه ٦٦/٣—٦٧، من طبعة الأعلمي، بسنده (عن فقهاء أهل الحجاز، قالوا: قُبِضَ رسول الله صلى الله عليه وسلَّم نصفَ النهار يوم الاثنين، لليلتين مضتَا من شهر ربيع الأوَّل...وقال الواقدي توفي يوم الاثنين لثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأوَّل، ودفن من الغد نصف النهار حين زاغت الشمس، وذلك يوم الثلاثاء)، وقال في ٧٦/٣ (فلمَّا بويع أبو بكر أقبل الناس على جهاز رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال بعضهم: إنما دفن بعد وفاته بثلاثة أيّام).

وروى ابن سعد في طبقاته ٢٧٢/٢ عن محمد بن قيس أنه توفي يوم الاثنين لليلتين مضتا من شهر ربيع الأول سنة إحدى عشرة، وروى أيضًا في ٢٧٣/٢ بسنده عن عائشة أنه توفي يوم الاثنين لاثنتي عشرة مضت من ربيع الأول، وذكر ابن هشام في السيرة ٣٧٤/٤ أن ابن إسحاق حدَّث بسندِهِ عن عائشة قالت: (ما علمنا بدفن رسول الله صلى الله عليه وسلَّم حتى سمعنا صوت

المساحي من جوف الليل من ليلة الأربعاء. قال محمد بن إسحاق: وقد حدثتني فاطمة هذا الحديث).

وأخبر ابن سعد في طبقاته ٢/٢٧٣ عن عثمان بن محمد الأخنسي، أن وفاته كانت في يوم الاثنين حين زاغت الشمس ودفن يوم الأربعاء، وأخبر أيضًا عن أُبيّ بن عباس بن سهل عن أبيه عن جدّه قال: (توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين، فمكث يوم الاثنين والثلاثاء حتّى دفن يوم الأربعاء)، وروى اليعقوبي في تاريخه ١/٤٤٥ أنه توفّي يوم الاثنين لليلتين خلتا من شهر ربيع الأول، ودفن في ليلة الأربعاء، وتابعه ابن الأثير في كامله ٢/٣٣، وأشار ابن سعد في طبقاته ٢/٢٧٤ إلى ما يرجح تأخر دفنه صلوات الله وسلامه عليه في رواية عن البهيّ، وأخرى عن القاسم بن محمد، ووردت عنده في طبقاته ٢/٢٧٣ رواية بسندها حدّثه فيها (عبد الله بن محمد بن عمر بن علي عن أبيه عن جدّه عن علي قالوا: توفّيَ رسول الله صلّى الله عليه وسلم يوم الاثنين ودفن يوم الثلاثاء)، وكذا ذكر في رواية أخرى عن يحيى بن عبد الرحمن بن محمد بن لبيبة عن جدّه، وإلى ذلك ذهب أيضًا مالك في ما بلغه، وذكر رواية أخرى عن عكرمة ذكر فيها أنه توفي (يوم الاثنين فجلس بقية يومه وليلته ومن الغد حتى دُفِن من الليل).

وذكر اليوسفي في موسوعته ٣/٧٠٢ أن وفاته صلى الله عليه وآله وسلم كانت لليلتين بقيتا من صفر سنة إحدى عشرة من هجرته، وهو ابن ثلاث وستين سنة، وذكر أيضًا رواية عن الإمام الرضا عليه السلام أنه قبض في يوم الاثنين لليلتين خلتا من شهر ربيع الأول، وذكر أيضًا: (وعن ابن الخشاب رواه الإربلّي عن الباقر موقوفًا عليه)، قال: (وهو ما رواه الطبري عن الكلبي

عن أبي مخنف عن فقهاء الحجاز قالوا: قبض رسول الله نصف نهار يوم الاثنين لليلتين مضتا من شهر ربيع الأول).

وذكر اليعقوبي في تاريخه ١/٤٤٥ (ونزل قبره علي بن أبي طالب والعباس بن عبد المطّلب، وقيل الفضل بن العباس وشقران مولى رسول الله، ونادت الأنصار: اجعلوا لنا في رسول الله نصيبًا في وفاته كما كان لنا في حياته! فقال علي ينزل رجل منكم. فأنزلوا أوس بن خَوَلي أحد بني الحبلى، وكان حفر قبره أبو طلحة بن سهل الأنصاري).

أما ابن هشام فقد روى في السيرة ٤/٣٧٤ -٣٧٥ عن ابن إسحاق الذي قال: (وكان الذين نزلوا في قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب والفضل بن العباس وقثم بن العباس وشقران مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد قال أوس بن الخولي لعلي بن أبي طالب: يا علي أنشدك الله وحظنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال له: انزل فنزل مع القوم)، وذكر مثل هذا ابن الأثير في كامله ٢/٣٣٢.

وكان المغيرة بن شعبة يدّعي أنه آخر من نزل في قبر رسول الله صلوات الله وسلامه عليه، ولكن ابن هشام ذكر في السيرة ٤/٣٦٧–٣٧٧ عن ابن إسحاق بسنده عن مقسم عن مولاه عبد الله بن الحارث قال: (اعتمرت مع علي بن أبي طالب رضوان الله عليه في زمان عمر أو زمان عثمان فنزل على أخته أم هانئ بنت أبي طالب، فلما فرغ من عمرته رجع، فسكب له غسل، فاغتسل، فلما فرغ من غسله دخل عليه نفر من أهل العراق، فقالوا: يا أبا حسن جئناك نسألك عن أمر نحب أن تخبرنا عنه، قال: أظن أن المغيرة بن شعبة يحدثكم أنه كان أحدث الناس عهدًا برسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا: أجل، عن

ذلك جئناك نسألك، قال: كذب أحدث الناس عهدًا برسول الله صلى الله عليه وسلم قثم بن العباس)، وذكر ذلك بإيجاز ابن الأثير في كامله ٢/٣٣٣، بل إن ابن سعد ذكر في طبقاته ٢/٣٠٣ أن المغيرة بن شعبة ألقى في قبر النبي صلوات الله عليه (بعد أن خرجوا خاتمه لينزل فيه فقال علي بن أبي طالب: إنما ألقيت خاتمك لكي تنزل فيه فيقال: نزل في قبر النبي صلى الله عليه وسلّم، والذي نفسي بيده لا تنزل فيه أبدًا! ومنعه) وذكر أيضًا (قال علي بن أبي طالب: لا يتحدَّث الناس أنك نزلت فيه، ولا يتحدَّث الناس أن خاتمك في قبر النبيّ صلى الله عليه وسلّم، وقد رأى موقعه فتناوله فدفعه إليه).

وروى في طبقاته ٢/٣٠٢ بسنده عن علي بن الحسين عليه السلام في معرض السؤال عن الذين نزلوا في قبره صلوات الله وسلامه عليه فقال: (علي بن أبي طالب والفضل بن العباس وأوس بن الخولي).

ومن آيات الوفاء للراحل العظيم ما ذكره ابن سعد في طبقاته ٢/٣١٩ بسنده (عن عبد الواحد بن أبي عون: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما توفي أمر عليٌّ صائحًا يصيح: من كان له عند رسول الله عِدة أو دين فليأتني! فكان يبعث كل عام عند العقبة يوم النحر من يصيح بذلك حتى توفي علي، ثم كان الحسن بن علي يفعل ذلك حتى توفي، ثم كان الحسين يفعل ذلك، وانقطع ذلك بعده، رضوان الله عليهم وسلامه. قال ابن أبي عون: فلا يأتي أحد من خلق الله إلى علي بحق ولا باطل إلا أعطاه).

حين أنكر المسلمون قلوبهم

حقٌّ لأبي الحسنين عليه السلام أن يتساءل عن أنباء السَّقيفة كيف جرت؛ وإن كان على بيِّنة منها ومن مجرياتها ونتائجها، بعد أن رأى بأمِّ عينيه مسير الأحداث قبل تغسيل الرسول ودفنه، بل إن همسها جرى، والنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم في النزع الأخير لم يمت بعد.

وقبل أن أنقل لك طرفًا من أحداثها أذكر لك ما قاله أنس بن مالك كي نتقارب في تصوّرها، روى ابن سعد في الطبقات ٢/٢٧٤ بسنده أنه قال: (لمّا كان اليوم الذي قُبِضَ فيه النبيّ صلى الله عليه وسلّم، أظلم منها - يعني المدينة - كلُّ شيء، وما نفضنا عنه الأيدي من دفنه حتى أنكرنا قلوبنا)، ولقد صدق.

جاء في النهج ١٨٩–١٩٠ قال عليٌّ: (ما قالت الأنصار؟ قالوا: قالت: منَّا أمير ومنكم أمير، قال: فهلاّ احتججتُم عليهم بأنَّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وصّى بأن يُحْسَنَ إلى مُحْسِنِهِم، ويُتَجاوَزَ عن مُسيئهم!

قالوا: وما في هذا من الحجّة عليهم؟

فقال عليه السلام: لو كانت الإمارة فيهم لم تكنِ الوصيّةُ بهم!

ثمَّ قال عليه السلام: فماذا قالت قريش؟ قالوا: احتجّت بأنّها شجرة الرسول صلّى الله عليه وسلّم، فقال عليه السلام: احتجُّوا بالشَّجرة وأضاعوا الثَّمرة). وهكذا فعلوا، ولقد صدق سلمان رضوان الله تعالى عليه يوم قال كما ورد في شرح النهج ٢/٢٩٢: (أصبتم ذا السنّ منكم، وأخطأتم أهل

بيت نبيكم، لو جعلتموها فيهم ما اختلف عليكم اثنان، ولأكلتموها رغدًا).

وليت الثمرة هي التي ضاعت فحسب!

وإذا حقَّ لهم في ذلك اليوم الأيوم استبعاد جميع أهل بيته من مؤتمرهم، كي يتمَّ لهم ما أرادوا، فإني أعجب كيف استبعدوا منه خيار الصحابة من المهاجرين ممن لا يجوز استبعاده من مثل عمار بن ياسر، وأبي ذر، وسلمان، والزبير بن العوام، وخالد بن سعيد، والمقداد بن عمرو، والبراء يبن عازب، وغيرهم، لكي يكون الحجاج من بعد، أو اختيار الخليفة القادم على قاعدة يمكن الركون إليها، وأنت إذا أعدت النظر في أسماء المهاجرين الذين شاركوا في اجتماع السقيفة سترى أي فلتة كانت!!.

من ذلك اليوم نستطيع تقدير ثقل الحمل الذي خلّفه الرسول الكريم على الإمام صلوات الله وسلامه عليهما، وخاصَّة بعد حدوث ذلك الشرخ العظيم الذي أدّى من بعد إلى صراع رهيب بسبب دوافع عصبيَّة، ونوازع قبليَّة، ومصالح سياسيَّة، ومكاسب مالية، لاحت في الأفق قبل رحيل المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم، بعد أن كشَّرت عن ضواحكها، ولعل النيات وضحت بعد خطبة الغدير، فتهيّأ القوم للآتي القريب، ليقينهم أن صاحب الدعوة عما قريب سيرحل، ودعوته التي بدأت في دامسٍ عمَّ سناها الجزيرة العربيَّة فوحَّدتها، وبدأت ذراعها تتجاوز حدودها، والبشرى بوصولها إلى المشرقين حديث كل المجالس، والنَّفس الأمَّارة بالسوء تحدث هذا وذاك بالفرصة التي ينبغي أن تُقْتنصَ، وأحاديثٌ لا تتجاوز الصدورَ بل تجاوزتها حول ما ينبغي القيام به عند حلول الساعة الحاسمة.

وليست قريش لوحدها التي كانت بانتظار تلك الفرصة، وإنما خطَّطت لاهتبالها جماعة من الأنصار أيضًا، وما أن شعرت بحلول أجله صلوات الله عليه حتى سارعت إلى تلك السقيفة لاقتناصها قبل أن يفوق القوم من صدمتهم، ولكنَّ قريشًا كانت لها بالمرصاد ففوَّتتها عليها، وهكذا ضاعت على المسلمين فرصة الاختيار على أسس سليمة.

وتحزَّبَ القوم من حيث يعلمون أو لا يعلمون، وكان الرسول صلى الله عليه وآله وسلّم على يقين أن ما كتبه الله هو قدره، وكان على يقين أيضًا أن الدور الذي أوكل بالمرتضى عليه السلام سيقوم به على أكمل وجه، ويحتمله حتى الشهادة، فقد اختاره الله له، وكرمه به يوم أعلنه النبي على رؤوس الأشهاد في غير مناسبة، ولا أشك أنه خلال اجتماعاته المغلقة مع النبي قد أعلمه من مكنون علمه بما ستجره الأيام من محن وإحن، وكيف ستنقسم الأمَّة إلى فرق وأحزاب، تتكالب على النعيم الزائل، وتضحي بالنعيم الباقي، ولقد صرح المرتضى في غير مناسبة منذرًا ومحذرًا، إنذار العارف بحقائق الأمور وخفاياها، فقال من بين ما قال سلام الله عليه كما جاء في النهج ٣٠٧: (لو تعلمون ما أعلم ممَّا طُوِيَ عنكم غيبُهُ إذًا لخَرَجتم إلى الصُّعُدات تبكون على أعمالكم، وتلتدمون على أنفسكم، ولتركتم أموالكم لا حارس لها، ولا خالف عليها).

ومن تابع سيرته عليه السلام من الفتوَّة إلى الشهادة علم أن ليس فيها إلاَّ الجهاد، وهو جهاد لا يعرف ما بين الألوان من ألوان، ولا يحسب لحساب النفوس أي حساب، فالخلق في نظره سواسية في الحقِّ، وكلهم خلق الله وعبيده، وكان هدفه أخذهم من أيديهم إلى النعيم، سيرًا على هدي أخيه

المصطفى صلوات الله وسلامه عليهما الذي طالما انتجاه وسارّه، وعلّمه من علم الله ما علّمه فكان بحقٍّ باب مدينته التي ما ندم من دخلها، وما ربح في الدارين من فارقها، وإذا سكت مرّات عن حقٍّ رآه له خاصّة فلأن الأمر الرسالي اضطره إلى السكوت، ولكنه ما كان يومًا سكوت الخائف أو الخانع، فليس في سيرته ما ينبئ عن معرفته الخوف إلاّ على رسالة الحقّ أن تتصدع، لذا كان في سكوته يجاهد نفسه ويجاهد الآخرين، كما جاهدها في أيام الرسالة الأولى يوم منع نفسه عن القيام بأي تصرف من دون إذن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمره، وما كان يسمع لأحد أو يلتفت لأحد، ولم يكن في حاجة إلى مشورة أحد، فالنهج واضح عنده ليس فيه غير الحقّ، والعدل، والغنى، والعلم، والنور، والنعيم الدائم؛ أما خلافه فليس فيه إلا الظلم، والقهر، والفقر، والباطل، والجهل، والظلمة، وخسران الدارين.

ولا أشكُّ في أن أمر الخلافة أو غيرها من أمور الدنيا ما كان يمثل له من قريب أو بعيد أيَّ مكسب أو ربح ماديٍّ أو معنوي، لأن ما ناله من حظٍّ عظيم ليس فوقه أو بعده ما يمكن أن يضيف لمجده ما يضاف، ولقد رأيناه يوم قال لابن عباس: إن شسع نعله التي أصلحها أفضل عنده من خلافتهم إلاّ أن يقيم حقًا أو يدفع باطلاً، إن أمر ذلك الحقّ كان هدفه ومسعاه، لأن فيه إقامة شريعة الله على أفضل الوجوه وأسماها.

وأما مسير الأحداث فليس بخافٍ عليه أيضًا في ما أحسب، ولكن معرفته به لم تمنعه عن مجاهدته سلميًّا بكل ما أوتي من شجاعة وعقل وحكمة، بل لعلّ مجاهدته من الأمور التي كان على يقين من أهميتها لحاضر الدعوة ومستقبلها، وإذا كان قد جاهد بسيفه من قبل، فإن جهاده هذه المرّة كان

الأكبر لأنه بالكلمة أحيانًا، وبصمت الاحتجاج في أحيان أخر، ويكبح جماح صحابته وأهل بيته من الثورة أو الاعتراض أو الاعتزال، وقبل هذا كبح جماح نفسه وهو يرى أن حقه قد اختطفه الآخرون.

لم تكن الصورة فيها أيٌّ لبس أو غموض عنده بعد رحيل الوحي وصاحبه، ولا أدلَّ على ذلك مما رواه ابن حجر في مطالبه العاليَّة ٤/٦٠-٦١ برقم ٣٩٦٠ عنه عليه السلام يوم قال: (كنت أماشي رسول الله صلى الله عليه وسلَّم في سكك المدينة وهو آخذ بيدي فمررنا على سبع حدائق فيها، وكنت أظهر إعجابي بكلِّ واحدة منها، وكان صلى الله عليه وسلَّم في كلِّ مرَّة يقول: «لك في الجنة أحسنُ منها»، فلمَّا خلا الطريق اعتنقني، ثمَّ أجهش باكيًا، فقلت: يا رسول الله، ما يبكيك؟ قال: «ضغائن في صدور أقوام لا يبدونها لك إلاّ من بعدي»، قلت: يا رسول الله في سلامة من ديني؟ قال: «في سلامة من دينك»)، والرواية فيه عن أبي يعلى والبزاز، وقال محقق كتاب مطالب ابن حجر في هامشه: (قال البوصيري: رواه أبو يعلى والبزاز والحاكم وصححه، وقال الهيثمي: فيه الفضل بن عميرة، وثقه ابن حبان وضعفه غيره، وبقية رجاله ثقات ٩/١١٨، وفي المسندة قال البزاز: لا يروى عن علي إلا بهذا الإسناد، ولا جاء عن أبي عثمان عن علي غير هذا، وصححه الحاكم)، وقد أكون على يقين من صحَّة الحديث سندًا ومتنًا، فمن أدرى من النبي صلى الله عليه وآله وسلم بتقلبات النفوس، ومن أعلم منه بما ستؤول إليه الأمور.

وأمير المؤمنين عليه السلام رأس الثقل الثاني علمه علم رسول الله، وهديه من هدي النبوَّة، وسنته سنتها، وحاشاه أن يغير أو يبدل، وقد صرح بكل ذلك في غير مناسبة، ذكر واحدة منها الجاحظ في بيانه ٢/٥٠ من خطبة

روى بعضها عن أبي عبيدة معمر بن المثنى مرفوعة عن الإمام جعفر بن محمد عليهما السلام قال: قال أمير المؤمنين: (الا إنَّ أبرار عترتي، وأطايب أرومتي، أحلم النَّاس صغارًا، وأعلم الناس كبارًا، الا وإنَّا أهل بيت من علم الله علمنا، وبحكم الله حكمنا، ومن قول صادق سمعنا، وإن تتبعوا آثارنا تهتدوا ببصائرنا، وإن لم تفعلوا يُهلككم الله بأيدينا، معنا راية الحقِّ، من اتَّبعها لحق، ومن تأخَّر عنها غرق، ألا وإن بنا تُرَدُّ دبرة كلِّ مؤمن، وبنا تُخْلَعُ رِبْقة الذلِّ من أعناقكم، وبنا غُنِمَ، وبنا فتح الله لا بكم، وبنا يَخْتِمُ الله لا بكم)، ولا أظن أحدًا من المسلمين ممن عرف الله حقَّ معرفته يستطيع الردَّ على الإمام عليه السلام في كلِّ ما قال.

كان لزامًا عليه أن يقوم بالدور إلى نهايته على ثقله، فقام به قولاً وفعلاً، لذا كان موقفه صارمًا صارخًا في وجه أبي سفيان حينما طلب مبايعته وقال له: (يا أبا الحسن ما بال هذا الأمر في أضعف قريش وأقلِّها! فوالله لئن شئت لأملأنَّها عليهم خيلاً ورَجْلاً. فقال علي بن أبي طالب عليه السلام: يا أبا سفيان طالما عاديت الله ورسوله صلى الله عليه وسلَّم فما ضرَّهم ذلك شيئًا)، كما جاء في أنساب الأشراف ٢٧١/٢ والأغاني ٣٧٠/٦ وغيرهما، وذكر الطبري في تاريخه ٢٠٩/٣ وابن الأثير في كامله ٣٢٦/٢ أن المرتضى قد زجره أيضًا وقال: (والله إنَّك ما أردت بهذا إلاّ الفتنة، وإنك والله طالما بغيت للإسلام شرًّا ! لا حاجة لنا بنصيحتك)، وعلى الرغم من أنه ما كان بحاجة إلى خيله وفرسانه، لأنه كان على معرفة به وبأمثاله ممن لم يكن الإسلام قد عرف طريقه لقلوبهم، فإن أبا سفيان سرعان ما تخلى عن جعجعته تلك بعدما ترك له الخليفة ما في يده من الصدقات التي أرسله النبيُّ لجمعها

بعدما كلّمه عمر بذلك (فقال: إن أبا سفيان قد قدم، وإنا لا نأمن شرَّه، فدع له ما في يده، فتركه فرضي...) كما روى ابن أبي الحديد في شرح النهج ٢٨٨/٢ عن كتاب السقيفة للجوهري بسنده، واليعقوبي في تاريخه ١٠/٢ ، والطبري في تاريخه ٤٧/٣ من طبعة الأعلمي، وأشار إلى هذا وغيره من تلك الجعجعة البلاذري في أنسابه ٢٧١/٢ أيضًا.

ما بعد اجتماع السقيفة

وكان الإمام عليه السلام أمينًا أيضًا مع عمه العباس رضوان الله عليه الذي طلب منه أن يبايعه مع بني هاشم كما ذكر ابن قتيبة في الإمامة والسياسة ١٢/١ وغيره، فكان ردُّه عليه وعلى حزبه من صفوة المهاجرين والأنصار أو غيرهم قاطعًا يدلِّلُ على ما وطَّن نفسه عليه، فقد ذكر الشريف الرضي (لما قبض رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وخاطبه العباس وأبو سفيان في أن يبايعا له بالخلافة) قال كما ورد في النهج ١١١–١١٢: (أيها الناس، شُقُّوا أمواج الفتن بسفنِ النجاة، وعَرِّجُوا عن طريق النافرة، وضَعُوا تيجانَ المفاخرة، أفلح من نهض بجناحٍ، أو استسلم فأراحَ، هذا ماءٌ آجِنٌ، ولُقمةٌ يغصُّ بها آكلها. ومجتني الثمرة لغير وقتِ إيناعها كالزَّارع بغير أرضه، فإن أقلْ يقولوا: حرص على الملك، وإن أسكت يقولوا: جزع من الموت، هيهات بعد اللتيَّا والَّتي والله لابنُ أبي طالب آنس بالموت من الطفل بثدي أُمِّه، بل اندمجت على مكنون عِلم لو بحتُ به لاضطربتم اضطراب الأرشية في الطُّوِيِّ البعيدةِ)، وقد أشار عليه السلام إلى مكنون علمه هذا في غير خطبة.

وأكاد أجزم أنه لو أرادها وقَامَ لأَخَذها، أما قوله عليه السلام: (لم يكن لي معين إلاَّ أهل بيتي فضننتُ بهم عن الموت) الذي عقَّب عليه ابن أبي الحديد في شرح النهج ٢٧٣/٢ بقوله: (فقولٌ مازال علي عليه السلام يقوله، ولقد قاله عَقيبَ وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلَّم، قال: لو وجدت أربعين ذوي عزم! ذكر ذلك نصر بن مزاحم في كتاب صفِّين، وذكره كثير من

أصحاب السيرة)، فلا يبتعد عن الواقع مطلقًا، فلم يكن في أهل بيته عليهم السلام عدّة ولا عدد، ومن كان منهم في المدينة قد لا يتجاوزون أصابع اليد الواحدة بكثير، وكأنهم في ذلك اليوم ليس غير بيت العباس، يضاف إلى هذا أن القوم كانوا في هرج ومرج، بعد أن رفعت الفتنة قرونها، وكشَّرت المطامع عن أنيابها عند أمَّة من المهاجرين والأنصار، ولو قام فإن النتيجة حين ذاك ستكون وبالاً في تلك السَّاعات التي هددت الإسلام بالويل والثبور.

والقول الذي استشهد به ابن أبي الحديد تمامه في النهج: (اللهمَّ إنِّي أستعدِيكَ على قريشٍ ومن أعانهم فإنهم قد قطعوا رحمي وأكفأوا إنائي، وأجمعوا على منازعتي حَقًّا كنت أولى به من غيري، وقالوا ألا إنَّ في الحقِّ تأخذَهُ وفي الحقِّ أن تُمنَعَهُ، فاصبِرْ مغمومًا، أو مُتْ متأسِّفًا، فنظرتُ فإذا ليس لي رافِدٌ، ولا ذابٌّ ولا مساعدٌ إلاَّ أهلَ بيتي فضننتُ بهم عن المنيَّةِ فأغضَيْتُ على القذى، وجرعتُ ريقي على الشَّجى، وصبرتُ مِنْ كَظْمِ الغيظِ على أمرَّ من العلقم، وآلمَ للقلبِ من حزِّ الشِّفار).

وعلى الرغم من أن غالبية المهاجرين الأولين من غير قريش كانت في صفِّه عليه السلام، فإن غالبيَّة تلك الغالبيَّة كانت من المستضعفين وفقراء المسلمين ممن لم تكن عنده عصبة ولا عصبيَّة تدافع عنه وتحمي ظهره، وهم في الوقت ذاته من أعمدة خيمة الإسلام، وإن مصرع أي فرد منهم سيكون خسارة تحدث ثلمًا كبيرًا لن يرتضيه المرتضى بأي وجه.

أما جماعة الأنصار فإنها (لَمَّا فاتها ما طلبت من الخلافة، قالت: -أو قال بعضها - لا نبايع إلاَّ عليًّا، وذكر نحو هذا علي بن عبد الكريم المعروف بابن الأثير الموصلي في تاريخه)، كما ذكر ابن أبي الحديد في شرح النهج ٢/

٢٧٢، ولك أن تقرأ فصلاً في تاريخ اليعقوبي ٢/٧-٢٢ حول من اصطف من الصَّحابة مع الإمام من مثل الزبير بن العوَّام وخالد بن سعيد، والمقداد بن عمرو، وسلمان الفارسي، وأبي ذرٍّ، وعمَّار بن ياسر، والبراء بن عازب وغيرهم بالإضافة إلى أهل بيت النبوَّة، وذكر اليعقوبي في تاريخه ٢/٨ أيضًا أن المهاجرين والأنصار كانوا لا يشكُّون أن الخلافة ستكون لعليٍّ.

وكان للزهراء عليها السلام في تلك الأيَّام يوم أو أيام احتجَّت فيه احتجاجًا صارخًا، تجسَّد في مطالبتها بحقِّها في فدك، وفي ميراثها من أبيها، وفي حقِّها بسهم ذوي القربى، وفي أحقيَّة زوجها بالخلافة، وهي مطالبة ما أرادت بها فدك ولا غيرها فحسب، وإنما أرادت إحقاق حقٍّ رأته ينتهب من دون ناصر أو معين، فخطبت خطبة عصماء بيَّنت فيها حقَّ المرتضى بالخلافة التي لا ينبغي لأحد أن ينازعه فيها، وقد وقفنا وقفة مطوَّلة على موقفها ذاك سلام الله عليها في كتابنا «الزهراء في بيت علي»، والتحقت بأبيها صلوات الله وسلامه عليهما وهي غاضبة على من اغتصب ذلك الحق، وقد وقفنا عليه وعلى خطبتها في الكتاب المذكور.

ونتيجة لقلق القوم في تلك الأيَّام، وحرصهم الشديد على إضعاف جبهة عليٍّ عليه السلام اقترح عمر بن الخطَّاب وأبو عبيدة بن الجرَّاح على أبي بكر أن يلقى العباس بن عبد المطَّلب ويجعل له نصيبًا يكون له ولعقبه من بعده، وبذا تُقْطَعُ ناحية مهمَّة من علي تكون حجَّة عليه، ولكنّ الزيارة باءت بالفشل بعد أن أسقط العبَّاس حجَّتهم، وقال من بين ما قاله: (فأما ما قلت إنك تجعله لي، فإن كان حقًّا للمؤمنين، فليس لك أن تحكم فيه، وإن كان لنا فلم نرض ببعضه دون بعض، وعلى رسلك، فإنَّ رسول الله من شجرة نحن

أغصانها، وأنتم جيرانها)، كما ذكر اليعقوبي في المصدر السابق ٢/ ٩، وابن قتيبة في الإمامة والسياسة ١/ ٢١، وذكر اليعقوبي في تاريخه أيضًا في ٢/ ١١ رواية غالب التشويه بعض جوانبها، ولا أظنه أصاب في بعض ما ورد فيها قال: (وبلغ أبا بكر وعمر أنَّ جماعة من المهاجرين والأنصار قد اجتمعوا مع علي بن أبي طالب في منزل فاطمة بنت رسول الله، فأتوا في جماعة حتَّى هجموا الدَّار، وخرج عليٌّ ومعه السَّيف، فلقيه عمر، فصارعه عمر فصرعه، وكسر سيفه، ودخلوا الدَّار فخرجت فاطمة فقالت: والله لتخرُجُنَّ أو لأكشِفَنَّ شعري ولأعِجَّنَّ إلى الله! فخرجوا وخرج من كان في الدَّار وأقام القوم أيَّامًا، ثمَّ جعل الواحد بعد الواحد يبايع، ولم يبايع عليٌّ إلاَّ بعد ستَّة أشهر وقيل أربعين يومًا)، فإن حكاية المصارعة، وحكاية السيف المكسور قد اختلطت برواية أخرى، إذ ليس من المعقول أن يصرع عمر عليًّا، وأما السيف الذي انكسر فليس سيفه عليه السلام، وإنما هو سيف الزبير كما هو مشهور، وأما دخول الدَّار فقد دخلوه، وذهبت بعض الروايات إلى أن الباب ضغطت الزَّهراء عند دخولهم فأفقدتها جنينها عليها السلام، وقيل فوق هذا، وإن صحَّ فإنه يشيب الرؤوس في ذلك اليوم الشديد الإظلام، وقيل: إن أوَّل المقتحمين كان عمر ابن الخطَّاب، وأما التهديد بالدعاء عليهم فقد هدَّدت، وستقف على شيء من هذا، بل إن كثيرًا منه ذكره ابن أبي الحديد في شرح النَّهج ٢/ ٢٧٢، وذكر وغيره، ولك أن تقرأ تفاصيل أخر شديدة الإيلام في كتاب ابن قتيبة الإمامة والسياسة ١/ ١٨ -٢٢.

ولعل ما يقرِّب من صحة اصطفاف كثير من الأنصار مع عليٍّ بعد اجتماع السَّقيفة ما رواه البلاذري في أنسابه ٢/ ٢٦١ إذ قال: (فلما اجتمع الناس على

أبي بكر قسم بينهم قسمًا فبعث إلى عجوز من بني عدي بن النجار بقسمها مع زيد بن ثابت فقالت: ما هذا؟ قال: قسم قسمه أبو بكر. فقالت: أترشوني على ديني؟ قال: لا. قالت: أتخافوني أن أدع ما أنا عليه؟ قال: لا. قالت: فوالله لا آخذ منه شيئًا)، أي أن انحيازهم، أو انحياز بعضهم إليه كان بعد فوات الأوان، ولو انحاز بهم الإمام مع من لحق به من المهاجرين لكانت الفتنة التي يعلم الله وحده ما ستجلبه على الإسلام من مخاطر في أيّام تطالع فيها أنبياء الضلالة في الجزيرة العربيَّة كرؤوس الشياطين، وكادت طلائعهم تدكُّ أطراف المدينة بل دكّتها، بالإضافة إلى انتشار الطلقاء في أزقّتها، بل إن غير قليل من قبائل العرب أعلنت العصيان بعد حين ليس ببعيد بسبب بيعة أبي بكر، واعتراضهم على تسليمه صدقاتهم بعد رحيل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم، وقد أنفق الطبري قسمًا كبيرًا من الجزء الثالث من تاريخه على أخبارها التي استوعبتها أيضًا كتب السيرة والتاريخ..

كان النبي على يقين أن ما تمناه لأمته صعب التحقيق بسبب ثأر القوم الذي مازال ينغّص عليهم حياتهم، ويزلزل مجالسهم، وبسبب التكالب على الدنيا وبهجة الملك، وبسبب طبيعة النفس البشرية الأمّارة بالسوء، فلما رحل صلوات الله عليه سارعت قريش بتنحية أخيه في مثل لمح من بصر، على أنه استمرَّ وصحبه شاخصًا، واستمرّت تنظر إليه بخوف وحذر وريبة، ولكنّها لا تستطيع تجاوزه بالشكل الذي تتمناه، وليس وحده الذي شخص وإنما تبعه رعيل من ذرية النبي الطاهرة حملوا لواء الثورة في عهود الدولتين الأموية والعباسية، أحصى منهم أبو الفرج الأصفهاني في مقاتله حتى القرن الرابع الهجري قرابة مائتين وثلاثين شخصية علوية، وفي مقدمتهم ثلاثة من

أصحاب الكساء، وكأنَّ القوم ما ورد عليهم قول رسول الله صلى الله عليه وآله الذي رواه الحاكم في المستدرك ١٤٩/٣ عن أبي ذر حيث قال: (وهو آخذ بباب الكعبة سمعت النبيَّ صلى الله عليه وآله يقول: «ألا إن مثل أهل بيتي فيكم مثل سفينة نوح من قومه من ركبها نجا، ومن تخلَّف عنها غرق»، ولا قوله الذي ورد في المصدر السابق عن ابن عباس « النجوم أمان لأهل الأرض من الغرق، وأهل بيتي أمان لأمتي من الاختلاف، فإذا خالفتها قبيلة من العرب اختلفوا فصاروا حزب إبليس» ولا قوله «اشتدَّ غضب الله وغضب رسوله على من أهرق دم ذريتي أو آذاني في عترتي»، بل إن أصحاب الكساء جميعهم صلوات الله وسلامه عليهم ذهبوا شهداء إيمانهم بدعوة الحق، وكان في مقدمتهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ثم التحقت به الزهراء سلام الله عليها، وهي في عمر الزهور نتيجة الظروف التي أحاطت بها، ثم تبعها زوجها المرتضى، ثم التحق بهم ريحانة رسول الله الحسن السبط، ثم كانت مجزرة كربلاء التي استشهد فيها من استشهد من أهل بيت النبي، وفي مقدمتهم سيد الشهداء أبي عبد الله الحسين سلام الله عليهم أجمعين.

ومن الطبيعي أن أمر ولاية المرتضى عليه السلام كان من الأمور التي أخذت حيِّزًا ليس بقليل من أحاديث القوم وتأويلاتهم، نستطيع أن نستشفَّها ليس من حديث الغدير فحسب، ولا من خلال أوسمته التي تشير كلها إلى احتلاله مكان الصَّدارة بين المهاجرين والأنصار، وهي مكانة نالها ليس بسبب مصاهرة أو قرابة وإن كانتا، وليس بسبب محبَّة أو تربية وإن كانتا، وليس بسبب عصمة، وإن كانت، فالقضاء الذي هو دعامة الحكم لا يستطيع أحد من المسلمين بإجماعهم أن يزاحمه فيه، وفروض الإسلام من عبادات ومعاملات هو هو إمامها بلا

منازع، وليس بين الصحابة من عنده ظاهر علم القرآن وباطنه غيره كما ذكر ابن مسعود، وهو باب علم رسول الله الذي نهله نهلاً ثم شربه كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم، ويوم سئل عنه قال: «قسّمت الحكم عشرة أجزاء، فأعطى عليٌّ تسعة أجزاء والناس جزءًا واحدًا»، وقال له صلوات الله وسلامه عليهما: «يا علي، لك سبع خصال لا يحاجك فيهن أحد يوم القيامة؛ أنت أوّل المؤمنين بالله إيمانًا، وأوفاهم بعهد الله، وأقومهم بأمر الله، وأرأفهم بالرعية، وأقسمهم بالسويّة، وأعلمهم بالقضيّة، وأعظمهم مزيّة يوم القيامة»، وهو «سيِّد المسلمين وإمام المتّقين، وقائد الغرّ المحجّلين»، وقد أخذ صلوات الله وسلامه عليه بضبعه، أي بعضده، وقال: «هذا أمير البررة، وقاتل الفجرة، منصور من نصره، مخذول من خذله» و«حبُّك إيمان، وبغضك نفاق، وأوّل من يدخل الجنّة محبُّك، وأوّل من يدخل النار مبغضك»، وسيل من الأحاديث في حقّه تجدها مرصوصة في كتب الحديث والتاريخ كلها مرفوعة بإسناد لا ريب فيه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم، ولك ما يكفيك منها في ما رواه أبو نعيم في حلية أوليائه ١/٦١–٨٧، وابن عساكر في جميع أجزاء ترجمته عليه السلام بتاريخه الذي روى جميع ما ذكرناه.

ولم يطاوله أحد في سخاء أو شجاعة أو زهد أو عبادة أو عدل، فقد رأى الله عيانًا فعبده، وسعى إلى مرضاته بالقول والفعل، ولعل في مقولة سلمان الفارسي التي رواها البلاذري في أنسابه ٢/٢٧٤ يوم تمت البيعة لأبي بكر خير دليل على خسارة المسلمين في عدم بيعته عليه السلام قال سلمان: (عملتم وما عملتم، لو بايعوا عليًّا لأكلوا الشهد من فوقهم، ومن تحت أرجلهم).

وكان النبي صلوات الله عليه على بيِّنة من كلِّ ما سيحدث، ويوم سئل عن استخلافه عليه السلام قال: « إن تستخلفوا عليًا - وما أراكم فاعلين - تجدوه هاديًا مهديًا يحملكم على المحجَّة البيضاء » كما روى أبو نعيم في حليته ١ / ٦٤ بسنده عن حذيفة بن اليمان.

ولست بصدد السقيفة وأحداثها، ومآل الحكم بعد رسول الله، فقد أسهبت أمَّة من القدماء والمحدثين في الحديث عنها وعن رواياتها، ولا أخفيك سرًّا فإن النفس تعزف عن العود إليها، بعد أن تركت في النفوس ما تركت، وكان القدح المعلّى من نصيب عليٍّ عليه السلام في كلِّ الأحوال أثناء احتجاجه السلمي الذي لم يشهر فيه سيفًا.

وإذا شئت أن تطلع عليها، ولا أظنك تجهلها، فلك في كتابات أهل السير والحديث والمؤرخين من غير علماء شيعة أهل البيت ما يشجيك ويؤلمك من كلِّ ما حدث إذ سترى عجبًا في مسيرة ذلك اليوم الذي مازال يشغل المسلمين ويفرقهم من يوم الله ذاك وسيبقى.

على أني سأقف على بعض أخبارها التي تحتاج إلى كثير من التأمل لصعوبة الأخذ بها، منها خبر رواه البلاذري في أنسابه ٢/٢٦٧ بسنده عن ابن عباس قال: (بعث أبو بكر عمر بن الخطاب إلى علي رضي الله عنهم حين قعد عن بيعته وقال: ائتني به بأعنف العنف، فلما أتاه، جرى بينهما كلام، فقال علي: أحلب حلبًا لك شطره. والله ما حرصك على إمارته اليوم إلاّ ليؤمرك غدًا، وما تَنفِسُ على أبي بكر هذا الأمر ولكنَّا أنكرنا ترككم مشورتنا، وقلنا: إن لنا حقًّا لا تجهلونه. ثم أتاه فبايعه). ولا أشكُّ أن مثل هذه الروايات لا يقبلها عقل أو منطق، فقد ثبت أن الإمام عليه السلام لم يبايع

إلا بعد مرور ستة أشهر على خلافة أبي بكر، فإن كان المرتضى قد جيء به إلى الخليفة بتلك الطريقة المشينة، فلا شك أن حجاجه مع أبي بكر لم يكن بالشكل الذي عرضته الرواية: (ولكنا أنكرنا ترككم مشورتنا، وقلنا: إن لنا حقًا لا تجهلونه، ثم أتاه فبايع)، وللرواية صورة أخرى تبدو أقرب إلى الواقع في تلك الغائمة من رواية البلاذري، وقد ذكرها ابن قتيبة في الإمامة والسياسة ١٨/١ -١٩ قال: (ثم إن عليًّا كرم الله وجهه أتى به إلى أبي بكر وهو يقول: أنا عبد الله وأخو رسوله، فقيل له بايع أبا بكر، فقال: أنا أحق بهذا الأمر منكم، لا أبايع وأنتم أولى بالبيعة لي أخذتم هذا الأمر من الأنصار، واحتججتم عليهم بالقرابة من النبي صلى الله عليه وسلم، وتأخذونه منّا أهل البيت غصبًا، ألستم زعمتم أنكم أولى بهذا الأمر منهم لما كان محمد منكم، فأعطوكم المقادة، وسلموا إليكم الإمارة، وأنا أحتجُّ عليكم بمثل ما احتججتم به على الأنصار، نحن أولى برسول الله حيًّا وميتًا، فأنصفونا إن كنتم تؤمنون، وإلاّ فبوءوا بالظلم وأنتم تعلمون، فقال له عمر: إنك لست متروكًا حتى تبايع، فقال له علي: احلب حلبًا لك شطره، واشدد له اليوم أمره يردده عليك غدًا، ثم قال: والله يا عمر لا أقبل قولك ولا أبيعه، فقال له أبو بكر: فإن لم تبايع فلا أكرهك، فقال أبو عبيدة بن الجراح لعلي كرم الله وجهه: يابن عم، إنك حديث السن وهؤلاء مشيخة قومك، ليس لك مثل تجربتهم، ومعرفتهم بالأمور، ولا أرى أبا بكر إلاّ أقوى على هذا الأمر منك، وأشد احتمالاً واضطلاعًا به، فسلم لأبي بكر هذا الأمر، فإنك إن تعش ويطل بك البقاء، فأنت لهذا الأمر خليق وبه حقيق في فضلك ودينك وعلمك وفهمك وسابقتك وصهرك، فقال علي كرم الله وجهه: الله الله يا

معشر المهاجرين، لا تخرجوا سلطان محمد في العرب عن داره وقعر بيته إلى دوركم وقعور بيوتكم، ولا تدفعوا أهله عن مقامه في الناس وحقه؛ فوالله يا معشر المهاجرين، لنحن أحق الناس به، لأنّا أهل البيت، ونحن أحق بهذا الأمر منكم ما كان فينا القارئ لكتاب الله، الفقيه في دين الله، العالم بسنن رسول الله، المضطلع بأمر الرعية، المدافع عنهم الأمور السيئة، القاسم بينهم بالسوية، والله إنه لفينا، فلا تتبعوا الهوى فتضلوا عن سبيل الله، فتزدادوا من الحق بعدًا)، وإذا كان ابن قتيبة خفّف من لهجته فقال: (أتي به)، فإن نوعية ذلك الإتيان بينت نوعه الرواية من بعد، وإذا كان بعضهم أنكر الرواية وعدّها من منحول القول فقد وثّقها من بعد معاوية بن أبي سفيان في رسالة بعثها إلى أمير المؤمنين عليه السلام يعيّره فيها، ويتهمه أنه كان يقاد إلى بيعة من سبقه كما يقاد الجمل المخشوش، فأجابه الإمام برسالة مطولة هي من غرر رسائله في النهج ٥٦٥ -٥٧١ جاء فيها: (وقلت: إنّي كنتُ أقادُ كما يُقادُ الجملُ المخشوشُ حتّى أبايعَ، ولعَمْرُ الله لقد أردتَ أن تَذُمَّ فمدحتَ، وأن تفضحَ فافتضَحْتَ! وما على المسلمِ من غضاضةٍ في أن يكونَ مظلومًا ما لم يكنْ شاكًا في دينه، ولا مرتابًا بيقينه).

وذكر ابن قتيبة في الإمامة والسياسة ١ / ٢٠ مقدمة أظنه اقتطعها من الرواية السابقة وهي : (ثم قام عمر فمشى معه جماعة حتى أتوا باب فاطمة، فدقوا الباب، فلما سمعت أصواتهم نادت بأعلى صوتها: يا أبي يا رسول الله، ماذا لقينا بعدك من ابن الخطاب وابن أبي قحافة، فلما سمع القوم صوتها وبكاءها انصرفوا باكين ...، وبقي عمر ومعه قوم، فأخرجوا عليًا فمضوا به إلى أبي بكر، فقالوا له بايع، فقال: إن أنا لم أفعل فمه؟ قالوا: إذًا والله الذي لا إله

إلاَّ هو نضرب عنقك، فقال: إذًا تقتلون عبد الله وأخا رسوله، قال عمر: أما عبد الله فنعم، وأما أخو رسوله فلا، وأبو بكر ساكت لا يتكلم، فقال له عمر: ألا تأمر فيه بأمرك؟ فقال: لا أكرهه على شيء ما كانت فاطمة إلى جنبه)، وإذا كانت الرواية قد نقلت الحدث بصورته تلك، فأظن أنَّ التعبير خان الراوي حين أظهر الإمام بهذا الضعف أمام النفر الذي أخذه إلى الخليفة، فقد كان لابدَّ أن يذهب معهم للإعلان عن موقفه في رفض البيعة، وإذا كان الموقف دفع عمر بن الخطاب إلى قول ما قاله، فإنَّ الواقع أقوى من كلِّ تهديد، فما كان أحد يجرؤ على قتل علي في تلك الغائمة، لأنَّ ذلك يعني القضاء على كل التدابير التي اتخذت لتنصيب الخليفة، وستجر من بعد إلى حرب كفيلة بإخراج ذلك الحزب من دائرة الصراع بعد أن تمكنت من الفوز به.

ومنها ما ورد في أنساب البلاذري ٢٦٨/٢ أيضًا عن ابن عون: (إن أبا بكر أرسل إلى عليّ يريد البيعة، فلم يبايع، فجاء عمر، ومعه قبس فتلقته فاطمة على الباب، فقالت فاطمة: يا ابن الخطاب، أتراك محرِّقًا عليَّ بابي؟ قال: نعم، وذلك أقوى في ما جاء به أبوك، وجاء علي فبايع، وقال: كنت عزمت أن لا أخرج من منزلي حتى أجمع القرآن). أما حكاية ذلك العزم على إحراق بيت فاطمة عليها السلام وردعها ابن الخطاب فقد ذكر في مصادر عدَّة، بل إن الخليفة شعر بندم عظيم على موقفه ذلك فقد روى الطبري في تاريخه ٢٥٤/٣ من طبعة الأعلمي أن أبا بكر قال: (وددت أني لم أكشف بيت فاطمة عن شيء، وإن كانوا غلّقوه على حرب) وتابعه ابن أبي الحديد في شرح النهج ٢٠٨/٥ بسنده، وابن قتيبة في الإمامة والسياسة ٢٤/١، ولكن لات حين مندم.

أما موقف عمر بن الخطاب ذاك واندفاعه فلا أستغربه، فقد مرَّت علينا روايات كثيرة في حياة المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم كان اندفاعه فيها واضحًا ولاسيما حينما يكون آمنًا من سير الأحداث، بل إن الجفوة كانت طبعًا فيه كما ذكر ابن أبي الحديد في شرح النهج ٢٧٦/٢، وسبقت في غير مناسبة منها مناسبة صلح الحديبية التي قال عنها عمر: (مازلت أصوم وأتصدَّق وأصلّي وأعتق من الذي صنعت يومئذ) كما ذكر الطبري في تاريخه ٦٣٤/٢، وأما مجيء علي واعتذاره بعدم البيعة لانشغاله بجمع القران، فأمر لا يأخذ به سياق الأحداث، وليس المرتضى الذي يخرج للبيعة بسبب قبس عمر أو غيره، فما هي إلاّ جعجعات لا أشكُّ في أنها ما كانت تحرِّك ساكنًا عنده عليه السلام.

ومثلها رواية ابن سيرين في أنساب البلاذري ٢٦٩/٢ التي قال فيها: (قال أبو بكر لعلي رضي الله تعالى عنهما: أكرهت إمارتي؟ قال: لا، ولكني حلفت أن لا أرتدي بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلّم برداء حتى أجمع القرآن كما أنزل)، لأن البيعة إن أرادها لا تحتاج إلى رداء، فالإمام لم يكن حبيس داره تلك الأيَّام، ولابد أنه كان يخرج إلى صلاة أو غيرها، وغالبًا ما كان يلتقي أبا بكر في كل مرة يخرج بها، فلو شاء أن يبايعه لبايعه، كما أن سؤال الخليفة بزعم الرواية لا وجه له، فلا شكَّ أن عليًّا عليه السلام قد كرهها، ولا شك أنه كان يراها حقًّا له اغتصبه منه أبو بكر، وإلاّ لماذا كل ذلك الحجاج.

ومنها ما رواه البلاذري في أنسابه ٢٦٧/٢ عن أبي نضرة قال: (لما بايع الناس أبا بكر، اعتزل علي والزبير، فبعث إليهما عمر بن الخطاب، وزيد بن ثابت، فأتيا منزل علي، فقرعا الباب، فنظر الزبير من قترة -كوة النافذة

- ثم رجع إلى علي فقال: هذان رجلان من أهل الجنَّة، وليس لنا أن نقاتلهما. قال: افتح لهما. ثم خرجا معهما حتى أتيا أبا بكر، فقال أبو بكر: يا علي أنت ابن عم رسول الله وصهره، فتقول إني أحق بهذا الأمر؛ لاه الله لأنا أحق به منك. قال: لا تثريب، يا خليفة رسول الله، ابسط يدك أبايعك، فبسط يده فبايعه، ثم قال للزبير: تقول: أنا ابن عمة رسول الله وحواريّه وفارسه وأنا أحق بالأمر؛ لاه الله لأنا أحق منك. فقال: لا تثريب يا خليفة رسول الله، ابسط يدك، فبسط يده فبايعه)، والرواية تتهالك من بدايتها، فالقوم ليس في مقام حرب كي يقول الزبير لعليٍّ ما قال، وما كان بينهما ثالث لينقل ما دار من حوار بينهما، كما أن منطق الزبير في تلك الساعة يدعو إلى الغرابة والعجب (هذان رجلان من أهل الجنَّة، وليس لنا أن نقاتلهما)، ومعلوم أن الزبير كان يريد البيعة لعلي، وليس لنفسه، ولا يعقل حتى وإن صحَّت الرواية أن يكون حوار أبي بكر معهما بالصورة التي يقدمها الخبر، فكلاهما بإمكانه الردَّ عليه بعشرات الردود التي لم يكن أبو بكر في حاجة إليها في مثل ذلك الوقت، ولاسيما أنهما جاءا لبيعته بزعم الرواية.

ومنها رواية عجيبة عن حبيب بن أبي ثابت ذكرها الطبري في تاريخه ٣/ ٧٢ من طبعة الأعلمي، وتابعه في ذكرها ابن الأثير في كامله ٢/ ٣٢٤ وهي: (كان عليٌّ في بيته إذ أُتِيَ فقيل له: قد جلس أبو بكر للبيعة، فخرج في قميص ما عليه إزار ولا رداء، عجلاً كراهية أن يبطئ عنها حتى بايعه، ثم جلس إليه وبعث إلى ثوبه فأتاه فتجلَّله، ولزم مجلسه)، ولكنَّ ابن الأثير حينما ذكر هذه الرواية قال بعدها بدون فاصل أو تمهيد: (والصَّحيح: أن أمير المؤمنين ما بايع إلاَّ بعد ستة أشهر، والله أعلم).

وحاول بعض أصحاب السِّير ربط عدم بيعته بسبب انحياز بعض الصَّحابة إليه إكرامًا لوجه الزهراء عليهما السلام، فلمَّا انتقلت إلى الرفيق الأعلى بدءوا بالتخلّي عنه، فبايع بزعم الرواية، وهي في تاريخ الطبري ٧٣/٣ من طبعة الأعلمي بسند لا يؤخذ به لأنها فيه وفي غيره عن الزهري عن عروة عن السيِّدة عائشة، وذلك لموقف رواة السَّند من عليٍّ عليه السلام، وجاء في شرح النهج ٢٧٣/٢ أيضًا (وأما الذي يقوله جمهور المحدِّثين وأعيانهم، فإنه عليه السلام امتنع من البيعة ستة أشهر، ولزم بيته، فلم يبايع حتى ماتت فاطمة عليها السلام، فلمَّا ماتت بايع طوعًا)، وقال في الصفحة نفسها بلا فاصل: (وفي صحيحي مسلم والبخاري: كانت وجوه الناس إليه وفاطمة باقية بعد، فلمَّا ماتت فاطمة عليها السلام انصرفت وجوه الناس عنه، وخرج من بيته فبايع أبا بكر، وكانت مدَّة بقائها بعد أبيها عليه الصلاة والسلام ستة أشهر)، فقد رأيتها محاولة من محاولات أخر بعيدة عن الواقع ولا تنسجم مع مسيرة الإمام في أي وجه من الوجوه، فالمرتضى عليه السلام اكتسب مكانته بين المسلمين ليس بسبب قرابة أو زيجة من الزهراء صلوات الله عليها فحسب، وإنما بسبب مواقفه التي أعزَّت الإسلام وأهله، ثم ما علاقة موتها عليها السلام ببيعته، وقد رجَّحت غالبيَّة المصادر رحيلها بعد أبيها صلوات الله عليه بثلاثة أشهر تنقص أيَّامًا ولا تزيد، حتى تصل إلى ثلاثين يومًا في رواية عند اليعقوبي في تاريخه ٤٤٥/١، بل كأنَّ كلَّ منزلة الإمام بين المسلمين مرتبطة بالزهراء عليها السلام، فلما ماتت لم تبق له من منزلة عندهم، وقد روى ابن الأثير في كامله ٣٣١/٢ نحو هذا عن الزهري وهو من أشدِّ المنحرفين عن الإمام عليه السلام، وقد رأيناه في مسجد رسول الله هو وعروة

ابن الزبير (يذكران عليًّا عليه السلام فنالا منه) فنهرهما الإمام علي بن الحسين عليه السلام أشدَّ النهر كما ذكر ابن أبي الحديد في شرح النهج ٤ / ٣٠٩.

وكلُّ هذا الذي يبتعد عن واقع الإمام وسيرته هو من نسج مبغضيه، ولا تجده مرويًّا في كتب الحديث والسيرة إلاّ من طريقهم، لذا فإن من الصَّعب جدًّا على المنصف عدم رفضه جملة وتفصيلاً، فصحابته مازالوا صحابته في حياة الرسول وبعد رحيله، ولم يتخلَّ أحدٌ منهم إلاّ من تغلَّبت عليه الدنيا ببريقها من بعد.

ولعل أقرب روايات البلاذري إلى الواقع أن الإمام رأى أن يبايع، بسبب الخطر الذي بدأ يتهدد الإسلام لارتداد من ارتدَّ، وبسبب موقف بعض القبائل التي امتنعت عن دفع صدقاتها لاعتراضها على بيعة أبي بكر، وبسبب تململ غالبية المدنيين والهاشميين وكثير من السابقين من المهاجرين من غير قريش كعمار وأبي ذر والمقداد وسلمان الفارسي وغيرهم وبعض القرشيين من بيعة أبي بكر كطلحة والزبير وخالد بن سعيد وغيرهم، فأراد أن يلحم ذلك الشَّرخ، وإن كان ذلك على حسابه، ولك في ما ورد من أخبار البيعة في أنساب البلاذري ٢/٢٥٩—٢٧٤ وسيرة ابن هشام ٤/٣٦٤—٣٧٩ وشرح النهج ٢/ ٢٧٢—٢٩٩ ما يثير الحيرة والتردد، وكانت بيعته بعد أن وثّق اعتراضه على شرعيَّة بيعة أبي بكر وخلافته، وعلى شرعيَّة الطريقة التي جرت بها.

والذي لا أشك فيه قيام سفارات كثيرة بين كبار الصحابة من قريش ممن بايع وبين علي عليه السلام فرأى بثاقب رأيه، وواسع حلمه أن يقر البيعة وإن لم يكن براض عنها، وذلك بسبب الواقع الجديد الذي أحاط بالإسلام، وقد رأينا الخليفة أبا بكر في إحدى روايات أنساب البلاذري ٢/٢٦٣ يعترف له

بذلك الحق، وفي الوقت ذاته يعتذر له بسبب خوف الفتنة التي كادت تقع في سقيفة بني ساعدة، ومن تلك السفارات التي أشير إليها في كتب السيرة سفارة عبد الرحمن بن عوف، وسفارة عثمان بن عفان التي ذكرها البلاذري في أنسابه ٢/٢٧٠ وهي فيه عن المدائني عن عبد الله بن جعفر عن أبي عون قال: (لما ارتدَّت العرب مشى عثمان إلى علي فقال: يا ابن عم، إنه لا يخرج أحد إليّ. فقال: هذا العدو، وأنت لم تبايع، فلم يزل به حتى مشى إلى أبي بكر، فقام أبو بكر إليه، فاعتنقا، وبكى كل واحد إلى صاحبه. فبايعه فسرَّ المسلمون، وجدَّ الناس في القتال، وقطعت البعوث)، أقول: أما مشية الإمام إلى أبي بكر فليست واردة في نظري، وأما اقتناعه بمجيء الوقت المناسب للبيعة بعد أن سجّل اعتراضه عليها فنعم، ولكن ليس بالصورة التي ذكرها أبو عون وغيره.

لقد قرر الإمام البيعة، ولا شك أنها كانت بعد رحيل الزهراء عليها السلام بما يقارب الثلاثة أشهر أو تتجاوزها بكثير، روى البلاذري في أنسابه ٢/٢٦٨–٢٦٩ عن المدائني بسنده عن عائشة قالت: (لم يبايع علي أبا بكر حتى ماتت فاطمة بعد ستة أشهر، فلما ماتت ضرع إلى صلح أبي بكر، فأرسل إليه أن يأتيه. فقال له عمر: لا تأته وحدك. فقال: وماذا يصنعون بي؟ فأتاه أبو بكر. فقال علي: والله ما نفسنا عليك ما ساق الله إليك من فضل وخير، ولكنا نرى أن لنا في الأمر نصيبًا استبدَّ به علينا. فقال أبو بكر: والله لقرابة رسول الله أحب إلي من قرابتي، فلم يزل علي يذكر حقّه وقرابته، حتى بكى أبو بكر. فقال: ميعادك العشية، فلما صلى أبو بكر الظهر، خطب فذكر عليًا وبيعته فقال علي: إني لم يحبسني عن بيعة أبي بكر ألا أكون عارفًا بحقه، ولكنا نرى أن لنا في الأمر نصيبًا استبد به علينا، ثم بايع أبا بكر. فقال المسلمون: أصبت وأحسنت).

والرواية في تاريخ الطبري ٣/٧٣ من طبعة الأعلمي عن عائشة أيضًا رواها الزهري عن عروة، وفيها أيضًا: (قال رجل للزهري: أفلم يبايعه عليٌّ ستة أشهر! قال: لا ؛ ولا واحدٌ من بني هاشم حتى بايعه عليٌّ)، وفيها: (فأرسل إلى أبي بكر: أن ائتنا ولا يأتنا معك أحد، وكره أن يأتيه عمر لما علم من شدّة عمر... فدخل على علي، وقد جمع بني هاشم عنده).

ومن يوم السقيفة أيضًا

ومن أمور السقيفة التي تبيَّنت بعد حين، ما ذكره ابن أبي الحديد في شرح النهج عن الشريف المرتضى في كتابه الشافي، وهو فيه إن صحَّ يحتاج إلى فضل تأمُّلٍ، وهو جدير بالوقفة لأنه سيوضح أشياء لعلَّ أحدًا يعود إليها فيكتشف أسرارًا جديدة عن تلك الحقبة الشائكة، ويقتضي الأمر أن نقف على بعض أخبار السَّقيفة قبل أن نقف عليه.

فيبدو من مسار الأحداث أن عمر بن الخطاب وأبا عبيدة بن الجراح قد أعدَّا عدَّتهما للأمر قبل وقوعه، ويبدو أيضًا أن عمر بن الخطاب كان يرى أن الأمر لن يتعداه، وإن تعداه فإلى صاحبه أبي عبيدة، ولا شك أنه كان يريدها لنفسه، ولكن مجريات الأمور سارت على غير ما يريد، سبب وجود أبي بكر في طريقه أبو بكر فأخذها منه.

روى البلاذري في أنسابه ٢/٢٥٩ بسنده عن إبراهيم التيمي قال: (لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلّم أتى عمر بن الخطاب أبا عبيدة بن الجراح فقال له: ابسط يدك نبايعك فإنك أمين هذه الأمة على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا عمر، ما رأيت لك فهه منذ أسلمت قبلها ؛

أتبايعني وفيكم الصديق وثاني اثنين؟). والرواية معكوسة في شرح النهج ٢/ ٢٧٤—٢٧٥ فقد ذكر أن المدائني قال: (لمّا أخذ أبو بكر بيد عمر وأبي عبيدة وقال للناس: قد رضيت لكم أحد هذين الرجلين، قال أبو عبيدة لعمر: امدد يدك نبايعك، فقال عمر: ما لك في الإسلام فهّة غيرها. أتقول هذا وأبو بكر حاضر! ثم قال للناس: أيكم يطيب نفسًا أن يتقدَّم قدمين قدَّمهما رسول الله صلى الله عليه وسلّم للصلاة؟ رضيك رسول الله صلى الله عليه وسلّم لديننا، أفلا نرضاك لدنيانا! ثمَّ مدَّ يده إلى أبي بكر فبايعه. وهذه هي الرواية التي ذكرها قاضي القضاة رحمه الله في كتاب المغني). وروى في الصفحة نفسها عن ابن عون أن محمدًا بن سيرين حدَّث فقال: (لما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلّم أتوا أبا عبيدة بن الجراح. فقال: أتأتوني وفيكم ثالث ثلاثة؟ قال ابن عون: فقلت لمحمد: وما ثالث الثلاثة؟ قال: ألم تقرأ هذه الآية ﴿ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ ﴾).

بل هناك رواية ذكرها جمهور من المؤرخين منهم ابن الأثير في كامله ٣٢٣/٢ تدلل بما لا يقبل الشكّ أن أبا بكر كان في داره بالسُّنح ساعة الإعلان عن موت رسول الله صلوات الله وسلامه عليه، وقد ظهر فجأة، فحدَّ من تهوُّر عمر الذي أنكر موت النبيّ، ثمَّ أخذت الأحداث طريقها إلى السقيفة.

وأيُّ الروايات تصحُّ يكون فيها وجود أبي بكر في تلك الساعة قد قلب الموازين لصالحه، أما قريش فليس لها في عنق ذلك المثلث أي ثأر، وهو كفيل إن فاز بالأمر أن يبعد خطر الهاشميين عامة، وخطر مبايعة علي عليه السلام خاصة، وسيكون الدور لها تسير به حيث تشاء ولو بعد حين، ووجد عمر بن

الخطاب نفسه مدفوعًا بالشوط إلى آخره وراء أبي بكر وأمامه، وإن احتملها فلعله قدَّر أن صبره لن يطول، وبعد حين سيؤول الأمر إليه، ولا أدل على ذلك من خلافته بعد أبي بكر بعهد منه، على أنه قال عن تلك البيعة: (ثم إنه قد بلغني أن فلانًا قال: إن بيعة أبي بكر كانت فلتة فتمت، وإنها كانت كذلك، إلا أن الله قد وقى شرَّها، وليس فيكم من تقطع الأعناق إليه مثل أبي بكر، فمن بايع رجلاً عن غير مشورة من المسلمين فإنه لا بيعة له، وهو ولا الذي بايعه تغرة أن يقتلا)، كما ذكر ابن هشام في سيرته ٤/٣٦٦، والطبري في تاريخه ٢/٧٠ وأشار إلى ذلك البلاذري في أنسابه ٢/٢٧٥، على الرغم من أن أمَّة من المسلمين لا تتفق معه في ما ذهب إليه لأن شرَّ ذلك اليوم ما زالت الأمة الإسلامية تدفع ثمنه اختلافًا بينها بل أدى إلى زهوق ملايين الأرواح على طول التاريخ الإسلامي.

ولكن هل كانت نفس عمر بن الخطاب صافية من جهة أبي بكر؟، أو هل كانت نفس أبي بكر صافية من جهة عمر؟ أو أن لقاء المصالح والظروف التي أحاطت بسيرتهما حالت من دون إظهار الحقيقة، وبقيت النار خافتة تحت الرَّماد؟

وإذا كانت غالبية الروايات تتحدَّث عن عمق العلاقة بينهما، فإننا نقف على روايتين تدللان على غير ما أشيع أوردهما الشريف المرتضى في كتابه الشافي في الإمامة ٤/١٢٧–١٢٨، قال: (روى الهيثم بن عدي عن عبد الله بن عياش الهمداني، عن سعيد بن جبير، قال: ذُكِرَ أبو بكر وعمر عند عبد الله بن عمر، فقال رجل: كانا والله شمسي هذه الأمَّة ونورَيها، فقال ابن عمر: وما يُدْرِيك؟ قال الرجل: أوليس قد ائتلفا! قال ابن عمر: بل اختلفا

لو كنتم تعلمون! وأشهد أني عند أبي يومًا، وقد أمرني أن أحبس الناس عنه، فاستأذن عليه عبد الرحمن بن أبي بكر فقال عمر: دويّبة سوء، ولهو خير من أبيه، فأوحشني ذلك منه، فقلت يا أبت، عبد الرحمن خير من أبيه! فقال: ومن ليس خيرًا من أبيه لا أمَّ لك! ائذن لعبد الرحمن، فدخل عليه فكلَّمه في الحطيئة الشاعر أن يرضى عنه - كان عمر قد حبسه في شعر قاله— فقال عمر: إن الحطيئة لبذي فدعني أقوِّمه بطول الحبس، فألحَّ عليه عبد الرحمن ، وأبى عمر، فخرج عبد الرحمن، فأقبل عَلَيَّ أبي وقال: أفي غفلة أنت إلى يومك هذا عمَّا كان من تقدُّم أُحَيْمِق بني تَيم عليَّ وظلمه لي! فقلت: لا علم لي بما كان من ذلك، قال: يا بنيَّ فما عسيت أن تعلم؟ فقلت: يا أبه لا علم لي بما كان من ذلك، فقال: يا بني وما عسيت أن تعلم، فقلت: والله له أحبُّ إلى الناس من ضياء أبصارهم، قال: إن ذلك لكذلك على رغم أبيك وسُخْطه، قلت: يا أبت، أفلا تجَلّي عن فعله بموقف في الناس تُبيِّن ذلك لهم؟ قال: وكيف لي بذلك مع ما ذكرت أنه أحب الناس من ضياء أبصارهم! إذن يُرْضَخُ رأس أبيك بالجندل، قال ابن عمر: ثمَّ تجاسر والله فجسر، فما دارت الجمعة حتى قام خطيبًا في الناس فقال: أيها الناس؛ إنَّ بيعة أبي بكر كانت فلتة وقى الله شرَّها، فمن دعاكم إلى مثلها فاقتلوه).

وقد نقل الرواية السابقة ابن أبي الحديد في شرح النهج ٢/٢٧٢ عن شافي الشريف، وعلق عليها في ٢/٢٨٢ بقوله: (وأما الأخبار التي رواها عن عمر فأخبار غريبة؛ ما رأيناها في الكتب المدوَّنة، وما وقفنا عليها إلاّ من كتاب المرتضى، وكتاب آخر يعرف بكتاب المسترشد لمحمد بن جرير الطبري، وليس هو محمد بن جرير صاحب التاريخ بل هو من رجال الشيعة).

وإذا صحّت الرواية فيكون الأمر ليس حصرًا على ابن عمر إنما تعداه بعد عقود إلى الشعبي فقد روى المرتضى في شافي ١٢٨/٤ عن (الهيثم بن عدي، عن مجالد بن سعيد، قال: غدوت يومًا إلى الشعبي ... إذ أقبل رجل من الأزد فجلس إلينا، فأخذنا في ذكر أبي بكر وعمر فضحك الشعبي وقال: لقد كان في صدر عمر ضِبٌّ على أبي بكر، فقال الأزدي: والله ما رأينا ولا سمعنا برجل قطُّ كان أسلسَ قيادًا لرجل، ولا أقوله بالجميل فيه من عمر في أبي بكر، فأقبل على عامر الشعبي فقال: هذا مما سألت عنه، ثم أقبل على الرجل فقال: يا أخا الأزد، كيف تصنع بالفلتة التي وقى الله شرَّها! أترى عدوًا يقول في عدوٍّ يريد أن يهدم ما بنى لنفسه في الناس أكثر من قول عمر في أبي بكر؟! فقال الرجل: سبحان الله يا أبا عمرو أنت تقول ذلك! فقال الشعبي: أنا أقوله!، قاله عمر بن الخطاب على رؤوس الأشهاد، فلُمْه أو دعه. فنهض الرجل مُغْضبًا وهو يهمهم بشيء لم أفهمه في الكلام، فقال مجالد: فقلت للشعبي: ما أحسب هذا الرجل إلاّ سينقل عنك هذا الكلام إلى الناس ويبثُّه فيهم! قال: إذن والله لا أحفل بذلك، شيئًا لم يحفِل به ابن الخطاب حين قام على رؤوس المهاجرين والأنصار أحفل به! وأنتم أيضًا فأذيعوه عنّي ما بدا لكم). ونقله ابن أبي الحديد في شرح النهج ٢٧٧/٢ - ٢٧٨ عن شافي المرتضى.

ونقل أيضًا ٢/ ٢٧٨ - ٢٨١ عن شافي الشريف، وهو فيه في ١٢٩/٤ -١٣٢ أيضًا: (وروى شريك بن عبد الله النخعي، عن محمد بن عمرو بن مَرَّة عن أبيه، عن عبد الله بن سلمة، عن أبي موسى الأشعري، قال: حججت مع عمر، فلمّا نزلنا وعُظْم - كذا - الناس خرجت من رَحْلي

أريده، فلقيني المغيرة بن شعبة، فرافقني، ثم قال: أين تريد؟ فقلت: أمير المؤمنين، فهل لك؟ قال: نعم، فانطلقنا نريد رَحْل عمر... فإذا عمر يطوف بالبيت، فطفنا معه، فلمَّا فرغ دخل بيني وبين المغيرة، فتوكَّأ على المغيرة وقال: من أين جئتما؟ فقلنا: خرجنا نريدك يا أمير المؤمنين، فأتينا رَحلك فقيل لنا: خرج إلى المسجد فاتَّبعناك. فقال: اتَّبعكما الخير، ثم نظر المغيرة إليَّ وتبسَّم، فرمقه عمر، فقال: مم تتبسَّم أيها العبد! فقال: من حديث كنت أنا وأبو موسى فيه آنفًا في طريقنا إليك، قال: وما هذا الحديث؟ فقصصنا عليه الخبر حتى بلغنا ذِكر حسد قريش، وذكر من أراد صرف أبي بكر عن استخلاف عمر، فتنفَّس الصعداء ثم قال: ثكلتك أمك يا مغيرة! وما تسعة أعشار الحسد! بل وتسعة أعشار العشر، وفي الناس كافة كلّهم عشر العشر، بل وقريش شركاؤهم أيضًا فيه! وسكت مليًّا وهو يتهادى بيننا، ثم قال: ألا أخبركما بأحسد قريش كلها؟ قلنا: بلى يا أمير المؤمنين، قال: وعليكما ثيابكما؟ قلنا: نعم، قال: وكيف بذلك وأنتما ملبَسان ثيابكما! قلنا: يا أمير المؤمنين، وما بال الثياب! قال: خوف الإذاعة منها، قلنا له: أتخاف الإذاعة من الثياب أنت، وأنت من ملبس الثياب أخوف! وما الثياب أردت! قال: هو ذاك، ثم انطلق وانطلقنا معه حتى انتهينا إلى رحله، فخلّى أيدينا من يده، ثم قال: لا تريما - لا تبرحا -ودخل، فقلت للمغيرة: لا أبا لك! لقد عثرنا بكلامنا معه، وما كنَّا فيه، وما نراه حبسنا إلاَّ ليذاكرنا إيَّاها، قال: فإنا لكذلك إذ أخرج إذنُه إلينا، فقال: ادخلا، فدخلنا فوجدناه مستلقيًا على بَرْذعة برَحل، فلمَّا رآنا تمثَّل بقول كعب بن زهير:

لا تُفْشِ سِرَّك إلاَّ عند ذي ثِقَةٍ ... أولى وأفضل ما استودعتَ أسرارا

لا تُفْشِ سِرَّك إلاَّ عند ذي ثِقَةٍ أولى وأفضل ما استودعتَ أسرارا
صدرًا رحيبًا وقلبًا واسعًا قَمِنًا ألاَّ تخاف متى أودعت إظهارا

فعلمنا أنه يريد أن نضمن له كتمان حديثه، فقلت أنا له: يا أمير المؤمنين، الْزَمْنا وخُصَّنا وصلنا، قال: بماذا يا أخا الأشعرين؟ فقلت: بإفشاء سرّك وأن تشركنا في همّتك فنعم المستشاران نحن لك! قال: إنكما كذلك، فاسألا عمّا بدا لكما، ثمَّ قام إلى الباب ليُغلقه، فإذا الآذن الذي أذن لنا عليه في الحجرة، فقال: امض عنَّا لا أمَّ لك! فخرج وأغلق الباب خلفه، ثم أقبل علينا، فجلس معنا، وقال: سلا تُخْبرا، قلنا: نريد أن يخبرنا أمير المؤمنين بأحسد قريش، الذي لم يأمن ثيابنا على ذكره لنا، فقال: سألتما عن مُعْضِلة؛ وسأخبركما فليكن عندكما في ذمَّة منيعة وحرزٍ ما بقيت؛ فإذا متُّ فشأنكما وما شئتما من إظهار أو كتمان. قلنا: فإن لك عندنا ذلك. قال أبو موسى: وأنا أقول في نفسي: ما يريد إلاَّ الذين كرهوا استخلاف أبي بكر له كطلحة وغيره، فإنهم قالوا لأبي بكر: أتستخلف علينا فظًّا غليظًا! وإذا هو يذهب إلى غير ما في نفسي، فعاد إلى التنفُّس، ثم قال: من تريانه؟ قلنا: والله ما ندري إلاَّ ظنًّا؟ قلنا: عساك تريد القوم الذين أرادوا أبا بكر على صرفِ هذا الأمر عنك؛ قال: كلاَّ والله! بل كان أبو بكر أعقَّ، وهو الذي سألتما عنه، كان والله أحسد قريشٍ كلّها، ثمَّ أطرق طويلاً، فنظر المغيرة إليَّ ونظرت إليه، وأطرقنا مليًّا لإطراقه، وطال السكوت منا ومنه، حتى ظننا أنه قد ندم على ما بدا منه. ثم قال: وا لهفاه على ضئيل بني تيم بن مرّة! لقد تقدَّمني ظلمًا، وخرج إليَّ منها آثمًا، فقال المغيرة: أمَّا تقدُّمه عليك يا أمير المؤمنين ظلمًا فقد عرفناه، وكيف خرج إليك منها آثمًا؟ قال: ذاك لأنه لم يخرج إليَّ منها إلاَّ بعد

يأس منها، أما والله لو كنت أطعت يزيد بن الخطاب وأصحابه لم يتلمَّظ من حلاوتها بشيء أبدًا، ولكني قدَّمت وأخَّرت، وصعَّدت وصوَّبت، ونقضتُ وأبرمت، فلم أجد إلاَّ الإغضاء على ما نشب به منها، والتلُّف على نفسي، وأمَّلت إنابته ورجوعه، فوالله ما فعل حتى نغر - أتخم - بها بشمًا.

قال المغيرة: فما منعك منها يا أمير المؤمنين، وقد عَرَّضَك لها يوم السقيفة بدعائك إليها! ثم أنت الآن تنقِم وتتأسَّف. قال: ثكِلتك أمك يا مغيرة! إني كنت لأعدك من دهاة العرب، كأنك كنت غائبًا عمَّا هناك! إن الرجل ماكَرني فماكرتُه، وألفاني أحذر من قطاة، إنه لَمّا رأى شغف الناس به، وإقبالهم بوجوههم عليه، أيقن أنهم لا يريدون به بدلاً، فأحبّ لما رأى من حرص الناس عليه، وميلهم إليه أن يعلم ما عندي، وهل تنازعني نفسي إليها؟ وأحبَّ أن يبلوني بإطماعي فيها، والتعريض لي بها، وقد علم وعلمتُ لو قبلت ما عرضه علي، لم يجب الناس إلى ذلك، فألفاني قائمًا على إخمصي مستوفزًا حذرًا، ولو أجبته إلى قبولها لم يسلّم الناس إليّ ذلك، واختبأها ضِغنًا عليّ في قلبه، ولم آمن غائلته ولو بعد حين مع ما بدا لي من كراهة الناس لي؛ أما سمعت نداءهم من كلّ ناحية عند عرضها علي: لا نريد سواك يا أبا بكر، أنت لها! فرددتها إليه عند ذلك، فلقد رأيته التمع وجهه لذلك سرورًا. ولقد عاتبني مرّة على كلام بلغه عنّي، وذلك لما قُدِم عليه بالأشعث أسيرًا، فمنّ عليه وأطلقه، وزوَّجه أخته أم فروة، فقلت للأشعث وهو قاعد بين يديه: يا عدو الله، أكفرت بعد إسلامك، وارتددت ناكصًا على عقبيك! فنظر إليَّ نظرًا علمت أنه يريد أن يكلِّمني بكلام في نفسه، ثم لقيني بعد ذلك في سكك المدينة، فقال لي: أنت صاحب الكلام يا بن

الخطاب؟ فقلت: نعم يا عدوَّ الله؛ ولك عندي شرّ من ذلك، فقال: بئس الجزاء هذا لي منك! قلت: وعلام تريد منّي حُسنَ الجزاء؟ قال: لأنفتي من اتّباع هذا الرجل، والله ما جرّأني على الخلاف عليه إلاّ تقدّمه عليك، وتخلُّفك عنها، ولو كنت صاحبها لما رأيت منّي خلافًا عليك. قلت: لقد كان ذلك، فما تأمر الآن؟ قال: إنه ليس بوقت أمر بل وقت صبر، ومضى ومضيت. ولقي الأشعث الزبرقان بن بدر فذكر له ما جرى بيني وبينه، فنقل ذلك إلى أبي بكر، فأرسل إليَّ بعتاب مؤلم، فأرسلت إليه: أما والله لتكفُّنَّ أو لأقولنَّ كلمة بالغة بي وبك في الناس، تحملها الركبان حيث ساروا، وإن شئت استدمنا ما نحن فيه عفوًا فتغافل، والله ما ذكرني بعد ذلك حرفًا حتى هلك..فاكتما ما قلت لكما عن الناس كافّة وعن بني هاشم خاصّة، ولْيكن منكما بحيث أمرتكما، قوما إذا شئتما على بركة الله. فقمنا ونحن نعجب من قوله، فوالله ما أفشينا سرَّه حتى هلك).

مع أبي بكر في خلافته بعد البيعة

ذكرت في غير مناسبة أن الإمام عليه السلام لم يكن معنيًّا بتكوين علاقات في غاية الخصوصيَّة مع أحد من المسلمين، وإن كانت ربطته بهذا أو ذاك من الصحابة والتابعين علاقة فليس لأن مزاجه أو طبعه قارب طبعهم أو مزاجهم فحسب، ولا لأنهم من بني هاشم أو من غيرهم، وإنما لأنهم وجدوا فيه المثال الذي يمكن أن يتَّخذه المسلم قدوة للسلوك الإسلامي القويم، كما وجدوا في أنفسهم قدرة على مجاراته، والسَّير على نهجه الذي هو نهج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم، ووجدوه في فيض علمه قرآنًا يلجأون إليه في عباداتهم ومعاملاتهم فانحازوا إليه، بل إن الموغل بالإيمان منهم وجده جديرًا بكلّ الأوسمة التي قلّده بها النبي الكريم صلوات الله عليه، فاتَّخذه صاحبًا وخليلاً، بل أفصحت أوراق التاريخ عن أن جميع التيَّارات حينما يحاصرها امتحان في أمر من أمور الشرع أو القضاء أو غيرهما كانت تجد فيه الملجأ الذي تلتجئ إليه.

ولم تكن منزلة الإمام بخافية على الخليفة فقد كان على بينة منها، ومن الأوسمة التي اتشح بها، ولا أدلَّ على ذلك من رواية ذكرها ابن عساكر في ترجمة الإمام بتاريخه ٣١٩/٢ -٣٩٣ بأكثر من طريق عن السيدة عائشة التي قالت: (رأيت أبا بكر الصديق يكثر النظر إلى وجه علي بن أبي طالب. فقلت يا أبه، إنك لتكثر النظر إلى علي بن أبي طالب. فقال لي: يا بنية سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «النظر إلى وجه علي

عبادة»)، والحديث من مشاهير أوسمة الإمام عليه السلام، وقد وثّقه ابن عساكر في المصدر السابق ٢/٣٩٣ -٤٠٣ من طرق كثيرة عن عثمان بن عفان، وعبد الله بن مسعود، ومعاذ بن جبل، وعمران بن حصين، وجابر بن عبد الله الأنصاري.

يبدو أن حديث الوصيَّة لم يغب عن الخليفة أيضًا بعد بيعته، فقد روي أن العباس بن عبد المطلب دافع عليًا عليه السلام في ميراثه من النبيِّ صلى الله عليه وآله وسلّم، فذهبا إلى أبي بكر ليفصل في الأمر، فقال علي ما روى ابن عساكر في ترجمة الإمام بتاريخه ١/١٤٠–١٤١: (أنشدك الله هل تعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلّم جمع بني عبد المطّلب وأولادهم وأنت فيهم وجمعكم دون قريش فقال: «يا بني عبد المطلب إنه لم يبعث الله نبيًّا إلاّ جعل له من أهله أخًا ووزيرًا ووصيًّا وخليفة في أهله فمن يقوم منكم يبايعني على أن يكون أخي ووزيري ووصيِّي وخليفتي في أهلي؟»، فلم يقم منكم أحد! فقال: «يا بني عبد المطلب كونوا رؤوسًا في الإسلام ولا تكونوا أذنابًا، والله ليقومنَّ قائمكم أو لتكونُنَّ في غيركم ثمَّ لتندمنَّ!»، فقام علي من بينكم فبايعه على ما شرط له ودعاه إليه، أتعلم هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلّم؟ قال: نعم)، وللحكاية نهاية أخرى في مسترشد الطبري ١٣٧ رواها محقّق الترجمة في هامشه، وهي: (فقال له العبّاس: فلم أنت بمجلسك تقدَّمته وتآمرت عليه؟ فقال أبو بكر: أغدرًا يا بني عبد المطّلب). وإن كنت لا آخذ بأمر المدافعة وأستبعده.

أما العلاقات الدنيويَّة التي رأيناها بين بعض الصَّحابة، فما رأينا لها حسابًا عند علي عليه السلام، وما كان يهتمُّ بها بالمطلق لا من قريب ولا من بعيد،

ولقد رأيناه في غير مناسبة لا تأخذه في الحقّ لومة لائم لا في موالٍ ولا في معادٍ، وكان يُحِقُّ الحقَّ أحيانًا في ظروف قد يراها غيره تستحقُّ النظر. وقصص كثيرة ذكرناها وسنذكر غيرها تؤيد ذلك.

ولا يمكن أن يقال: إن الصَّفاء قد حلَّ بينه وبين الخليفة أبي بكر مكان مشاعر الحيف مما حدث، ولاسيما أنه صرَّح عليه السلام في غير مناسبة عن تلك المشاعر، ولكنَّ الأمور سارت بعد أن بايع أبا بكر سيرًا ليس فيها تجاذب ولا تنافر، وإنما فيها من الاحترام والالتزام بالبيعة وشروطها ما جعل العلاقة في ما بينهما تكاد تبدو طبيعيَّة، وانصرف الإمام إلى شؤونه لأداء دوره في إرساء قيم الرسالة بدون أن يكون هناك احتكاك أو مماحكة حرصًا على ما أحاط بالإسلام من مخاطر، وما كان يتأخَّر في إسداء النصيحة أو المشورة لمن يطلبها، ولم يتردَّد من الدفاع عن المدينة يوم تهدَّدها خطر طليحة، فقد خرج رفقة طلحة والزبير وابن مسعود لحراسة نواحيها كما ذكر ابن الأثير في كامله ٢/٣٤٤، ويوم خرج أبو بكر لقتال أهل الردَّة لحق به المرتضى إلى ذي القصَّة ومنعه من مباشرة الحرب بنفسه، وكان محقًا في إرجاعه، إذ إنه لو قُتِلَ في تلك الأثناء فقد يتعرَّض المسلمون إلى هزيمة لا يعلم إلاَّ الله عقباها، وقد يكون عليه السلام كتب له مرَّة كما ذكر ابن الأثير في كامله ٢/٤٢٠–٤٢١.

ولم تدم خلافة أبي بكر طويلاً إذ سرعان ما توفي قبل مرور ثلاث سنوات على تولِّيها، وكانت وفاته ليلة الثلاثاء لثماني ليال بقين من جمادى الآخرة، واستمرَّت خلافته سنتين وثلاثة أشهر وتسع ليال كما ذكر ابن قتيبة في معارفه ١٧١ أو عشرين يومًا كما ذكر المسعودي في مروجه ٢/٣٠٤ وقيل: وعشر ليال عشر ليال، وأوصى أن تغسله زوجته أسماء بنت

عميس، ودفن ليلاً وصلى عليه عمر بن الخطاب كما ذكر ابن الأثير الكامل ٢/٤١٨–٤١٩.

وقبل وفاته أوصى بالخلافة لعمر بن الخطّاب، وقد اعترض عليه طلحة والزبير في استخلافه، ولكنه لم يأخذ باعتراضهم، أما بالنسبة لعليٍّ بن أبي طالب سلام الله عليه فإنه كظم غيظه وبايع.

مع عمر بن الخطّاب في خلافته

امتدّت خلافة عمر بن الخطاب عشر سنوات وستة أشهر كما ذكر المسعودي في مروجه ٣١٢/٢، وقد بويع في (يوم الثلاثاء لليلتين بقيتا من جمادى الآخرة، وقيل لسبع بقين منه سنة ١٣) للهجرة كما ذكر اليعقوبي في تاريخه ٢٧/٢ ، واختار الإمام عليه السلام في خلالها تأدية الدور الذي أناطه به رسول الله صلى الله عليه وآله على خير وجه ، أما علاقته بالخليفة الجديد فقد اتسمت بالاحترام المتبادل أيضًا، ولم تخرج عن قبول الأمر الواقع على مضض، بعد أن وجد الأجواء مهيأة له لاستلام الحكم، إذ كان الرجل الثاني خلال خلافة أبي بكر، كما أنه قد استخلفه قبل رحيله على الرغم من اعتراض بعض وجوه الصّحابة على قراره مما دفع أبا بكر أن يقول لعبد الرحمن بن عوف: (إنّي ولّيتُ أمركم خيركم في نفسي ، فكلّكم وَرِمَ أنفُهُ من ذلك، يريد أن يكون الأمر له دونه) كما ذكر الطبري في تاريخه ٤٢٩/٣ ، أما الإمام عليه السلام فإنه وإن لم يعترض على تنصيب الخليفة الجديد، على الرغم من شعوره بالحيف ليس من موقف أبي بكر فحسب، وإنما من جميع من أبعده عن حقّه في خلافة المسلمين، أو دفعه عنها، أو ناصبه العداوة في أثناء خلافته عليه السلام، وقد رافقه هذا الشّعور حتى في أثناء خلافته، روى البلاذري في أنسابه ٤٠٩/٢ بسنده عن عبد الرحمن بن أبي بكرة أنه عليه السلام عاد أحدهم فقال: (ما لقي أحد من هذه الأمّة ما لقيت، توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أحقُّ الناس بهذا الأمر؛ فبايع الناس أبا بكر،

فاستخلف عمر، فبايعت ورضيت وسلّمت، ثم بايع الناس عثمان فبايعت وسلّمت ورضيت، وهم الآن يميلون بيني وبين معاوية)، وليس مردّ ذلك حرصه على الحكم وما يمكن أن يقدّمه من مكاسب، وإنما لإيمانه أن بإمكانه إقامة حكم يأخذ بيد الأمّة إلى نعيم الدّارين.

وأقرأ من خلال بعض الروايات أن عمر بن الخطّاب كان على بيّنة من أحقيّة المرتضى بالخلافة، وقدرته على قيادة الأمّة على أسس من الحكمة والعدل والمساواة، ولكنه كان يجد مسوّغات غير المقنعة في إبعاده عنها، بل أشعر أيضًا أن هذا الأمر مثّل هاجسًا له في أثناء خلافته خاصّة، وكانت تشغله عوامل نفسية تدفعه حينًا إلى الاعتراف بأفضليته، وحينًا إلى ترشيحه من بعده، وحينًا آخر إلى استبعاده، وأقرأ في رواية ذكرها ابن أبي الحديد في شرح النهج ٢٩٨/٢ أنه قد صرَّح بأن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه قد اختاره للخلافة من بعده، فقد ذكر بسنده مرفوعًا إلى عاصم بن عمرو بن قتادة الذي قال: (لَقِيَ علي عليه السلام عمر، فقال له عليٌّ عليه السلام: أنشدك الله، هل استخلفك رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: لا، قال: فكيف تصنع أنت وصاحبك؟ قال: أما صاحبي فقد مضى لسبيله، وأما أنا فسأخلعها من عنقي إلى عنقك، فقال: جدع الله أنف من يُنْقِذك منها! لا ولكن جعلني الله عَلَمًا، فإذا قمت فمن خالفني ضَلّ)، ولعل في قوله إشارة لقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم الذي رواه ابن عساكر في ترجمة الإمام بتاريخه ٤٨٩/٢ عن حذيفة بن اليمان: «جعلتك علمًا في ما بيني وبين أمّتي فمن لم يتبعك فقد كفر»، وأنت لا تقرأ في الرواية السابقة مشاعر الحيف فحسب، وإنما تقرأ أيضًا أنّه يحمّل الخليفة وزر تجاوزه

عليه السلام، إلاّ أنه في الوقت ذاته يذكّره أنه هو الكلمة التي لا يستطيع مخالفتها إلا الضّالين.

ورواية أخرى نسبها ابن أبي الحديد في شرح النهج ١٢/٢٠٧ لابن عباس قال فيها إنه دخل على عمر في أوّل خلافته، فقال له: (من أين جئت يا عبد الله؟ قلت: من المسجد، قال: كيف خلّفت ابن عمّك؟ فظننتُ يعني عبد الله بن جعفر، قلت: خلّفته يلعب مع أترابه، قال: لم أعن ذلك، وإنما عنيت عظيمكم أهل البيت، قلت: خلّفته يمتح بالغرب -الدلو - على نخيلات من فلان، وهو يقرأ القرآن، قال: يا عبد الله، عليك دماء البُدْنِ إن كتمتنيها! هل بقي في نفسه شيء من أمر الخلافة؟ قلت نعم، قال: أيزعم أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نصّ عليه؟ قلت: نعم، وأزيدك، سألت أبي عمّا يدّعيه، فقال: صدق، فقال عمر: لقد كان من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذَرْوٌ من قول -طرف منه - لا يثبتُ حُجَّة، ولا يقطع عذرًا، ولقد كان يربع في أمره وقتًا، ولقد أراد في مرضه أن يصرِّح باسمه فمنعت من ذلك إشفاقًا وحيطة على الإسلام، لا وربّ هذه البنيَّة لا تجتمع عليه قريش أبدًا! ولو وليها لانتقضت عليه العرب من أقطارها، فعلم رسول الله صلى الله عليه وسلّم أني علمت ما في نفسه، فأمسك، وأبى الله إلاّ إمضاء ما حتم)، وكنّا قد وقفنا على حكاية رزيَّة الخميس، وبيّنّا أن سبب إمساكه صلى الله عليه وآله وسلم غير الذي ذهب إليه عمر.

وأزعم أن هاجس هذه الرؤية رافق الخليفة عمر طيلة خلافته أكثر من صاحبيه أبي بكر وعثمان، وأزعم أنه حاول التقرُّب إلى الإمام عليه السلام بطرق عدَّة، ولعلّه كلّل تلك المحاولات بطلب يد ابنته أم كلثوم، لكسر ذلك

الحاجز، وسواء أكان أمر هذا التقارب بسبب رغبته في اتصال نسبه برسول الله صلوات الله عليه وآله وسلّم، أم لأسباب أخر تتعلّق برغبته في كسر حاجز الجفوة بينه وبين الإمام من ناحية، وبالتقرُّب إلى بني هاشم وأصحاب الإمام من ناحية أخرى، فإن علاقة المرتضى به كانت مبنيَّة على احترام كلٍّ منهما صاحبه، وقد انصرف عليه السلام عن بيت الخلافة ومن تمحَّك به إلاّ أن يدعى إليه، لقضاء أو إبداء رأي، وما كان يتدخَّل في أمور الخلافة لا من قريب ولا من بعيد إلاّ أن يرى ضرورة في تدخُّله، وما كانت الخلافة في زمن عمر تستغني عن رأيه أو قضائه في كثير من الأمور، وكان عليه السلام مخلصًا كعادته في إبداء النُّصح أو المشورة إن طُلبا منه.

والراجح أن زواج الخليفة بابنة المرتضى قد تمَّ بعد محاولات بذلها الخليفة لإتمامه، فقد اعتذر الإمام له غير مرَّة، وامتنع عليه، وأغلب الظن أنه تمَّ بتدخُّل خاص من عمِّه العبَّاس بن عبد المطلب رضوان الله عليه، وإلحاح منه، كما ذكر محمد حسين الجلالي في كتابه الاكتفاء ١٧٢ اعتمادًا على روايتين رواهما الكليني بسنده عن الإمام الصادق عليه السلام، ونجاح الطائي في كتابه نظريات الخليفتين ١/٣٨٤ نقلاً عن السيد المرتضى، ووثقه أيضًا السيد جعفر بحر العلوم في كتابه تحفة العالم ١/٢٣٩ -٢٤٠، ووثقه أيضًا في مستدرك الوسائل للميرزا النوري ١٤/٤٤٤، ولم يقطع به الشيخ المفيد، ولكنه أشار إلى رواياته المختلفة في المسائل السروية ٨٦ -٩٠، ووثقه أيضًا السيد المرتضى في رسائله ٣/١٤٩ -١٥٠، كما ذكره من قبل أيضًا اليعقوبي في تاريخه ٢/٤٠، وعلى كلِّ حال فقد ذهبت بعض الروايات إلى أنه تزوَّج من أم كلثوم سنة سبع عشرة للهجرة ودخل بها في ذي القعدة من السَّنة

نفسها كما ذكر ابن الأثير في كامله ٥٣٧/٢، وأنجبت منه زيدًا، ومما رواه ابن عبد ربه في عقده ٣٣٤/٤ وتابعه ابن الأثير في كامله ١٢/٤ وزاد عليه (كان بسر بن أبي أرطأة عند معاوية ، فنال من علي، وزيد بن عمر بن الخطاب حاضر، وأمه أم كلثوم بنت علي، فعلاه بالعصا وشجَّه، فقال معاوية لزيد: عمدت إلى شيخ قريش وسيد أهل الشام فضربته! وأقبل على بسر فقال: تشتم عليًّا وهو جده، وابن الفاروق على رؤوس الناس! أترى أن يصبر على ذلك؟ فأرضاهما جميعًا).

ولقد صدر عمر طيلة خلافته في مواقف كثيرة عن رأي المرتضى عليه السلام، ولم يحد عنه ليقينه بصوابه، وأخذ بقضائه في جميع الدّعاوى التي حكم بها، وقد استخلفه على المدينة غير مرَّة، منها يوم أراد الخروج إلى العراق سنة أربع عشرة للهجرة، فقد ذكر الطبري في تاريخه ٢٩٦/٣ من طبعة الأعلمي، وابن الأثير في كامله ٤٥٠/٢ أنه حين خرج استخلف المرتضى على المدينة ونزل على ماء يدعى صرار، فعسكر به ولا يدري الناس ما يريد أيسير أم يقيم، واستخلفه عليها أيضًا في سنة خمس عشرة يوم خرج إلى بيت المقدس بعد أن حاصرها أبو عبيدة بن الجرَّاح فطلب منه أهلها الصلح على أن يتولى عقده الخليفة بنفسه كما ذكر الطبري في تاريخه ٤٠٣/٣ من طبعة العلمي، وابن الأثير في كامله ٥٠٠/٢، واستخلفه أيضًا سنة ثماني عشرة يوم خرج بعد وقوع طاعون عمواس إلى بلاد الشام لتقسيم المواريث، كما ذكر ابن الأثير في كامله ٥٠٠/٢ أيضًا.

وأقطعه ينبع وأضاف إليها غيرها كما جاء في معجم البلدان ٣٠٥/٤ (عن جعفر بن محمد أن النبي صلى الله عليه وسلم أقطع عليًّا أربع

أرضين: الفقيرين، وبئر قيس والشجرة، وأقطعه عمر ينبع، وأضاف إليها غيرها).

ولقد استشاره في أمور كبرى في غير مناسبة كما سبق القول، أذكر منها ما رواه ابن الأثير في كامله ٨/٣ من أنه أراد الخروج على رأس جيش الفتح بعد تجمع الأعاجم بنهاوند، فقام علي عليه السلام ولم يحبِّذ له الأمر، ورآه خطرًا جسيمًا على الإسلام والمسلمين واقترح عليه خطّة أخذ بها عمر إذ قال له عليه السلام: (إنك إن أشخصت أهل الشام من شامهم سارت الروم إلى ذراريهم، وإن أشخصت أهل اليمن من يمنهم سارت الحبشة إلى ذراريهم، وإنك إن شخصت من هذه الأرض انتقضت عليك العرب من أطرافها وأقطارها حتى يكون ما تدع وراءك أهم إليك مما بين يديك من العورات والفيالات. اقرر هؤلاء في أمصارهم، واكتب إلى أهل البصرة فليتفرّقوا ثلاث فرق: فرقة في حرمهم وذراريهم، وفرقة في أهل عهدهم حتى لا ينتقضوا، ولتسر فرقة إلى إخوانهم بالكوفة مددًا لهم، إن الأعاجم إن ينظروا إليك غدًا قالوا هذا أمير المؤمنين أمير العرب وأصلها، فكان ذلك أشد لكلبهم عليك، وأما ما ذكرت من مسير القوم فإن الله هو أكره لمسيرهم منك، وهو أقدر على تغيير ما يكره، وأما عددهم فإنا لم نكن نقاتل في ما مضى بالكثرة ولكن بالنصر، قال عمر: هذا هو الرأي).

ويوم شعر عمر بن الخطّاب بالحاجة إلى تاريخ يعتمد عليه في توثيق الأمور جمع الناس على ما ذكر الطبري في تاريخه ٣٨/٤–٣٩ وتابعه ابن الأثير في كامله ١١/١ وابن الجوزي في منتظمه ١٤٠/٣ وقال: (من أي يوم نكتب التاريخ؟ فقال علي: من مهاجرة رسول الله صلى الله عليه وسلّم، وفراقه أرض الشرك ففعله عمر).

ومن مواقف الإمام عليه السلام الكبرى في خلافة عمر موقفه من تقسيم السواد بين المسلمين، إذ شاور عمر الصحابة في أمر قسمتها، (فقال علي رضي الله عنه: دعهم يكونوا مادة للمسلمين، فبعث عثمان بن حنيف الأنصاري فمسح الأرض ووضع الخراج على شروطه) كما ذكر ياقوت في معجم بلدانه ٣١٢/٣، وأنت تستطيع تقدير قيمة رأيه، وما كان يمكن أن يحدث من مآسٍ لو قسّم السّواد بين المسلمين، فبالإضافة إلى التفاوت الطبقي الذي سيخلقه التقسيم وما يؤدّيه بالحتم من اختلال في الميزان الاجتماعي، فإنه سيجرُّ إلى أحداث لا يعلم عواقبها إلاّ الله.

وما كان يبخل عليه السلام على الخليفة بمشورة صادقة في أيّ أمر من الأمور، ذكر ابن الأثير في كامله ٥١٨/٢ أنه (لمّا قدمت الأخماس على عمر نفّل منها من غاب ومن شهد من أهل البلاء، ثم قسم الخمس في مواضعه، ثم قال: أشيروا علي في هذه القِطف، فمن بين مشير بقبضه وآخر مفوّض إليه. فقال له علي: لم يجعل الله علمك جهلاً ويقينك شكّاً، إنه ليس لك من الدنيا إلاّ ما أعطيت فأمضيت أو لبست فأبليت أو أكلت فأفنيت، وإنك إن تبقه على هذا اليوم لم تعدم في غدٍ من يستحقّ به ما ليس له. فقال: صدقتني ونصحتني، فقطّعه بينهم، فأصاب عليًّا قطعة منه فباعها بعشرين ألفًا، وما هي بأجود تلك القطع)، فأخلص له النصيحة، ولم تأخذه في الحقّ لومة لائم، وللخبر رواية أخرى في مسند علي بن أبي طالب ١١٤ برقم ٧٢٥/ ١٦٤ تقاربها وتزيد عليها، وهي فيه قال: (قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه للناس: ما ترون في فضل فضل عندنا من هذا المال؟ فقال الناس: يا أمير المؤمنين، قد شغلناك عن أهلك وضيعتك وتجارتك، فهو لك، فقال لي: ما

تقول أنت؟ فقلت: قد أشاروا عليك، فقال لي: قل، فقلت: لِمَ تجعل يقينَك ظنًّا؟ فقال: لَتَخْرُجَنَّ مما قلت، فقلت: أجل والله لأخرجَنَّ منه، أتذكر حين بعثك نبيُّ الله صلى الله عليه وسلم ساعيًا، فأتيت العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه فمنعك صدقته، فكان بينكما شيء، فقلت لي: انطلق معي إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم فوجدناه خاثرًا، فرجعنا ثم غدونا عليه فوجدناه طيِّب النفس، فأخبرته بالذي صنع فقال لك: «أما علمت أنَّ عمَّ الرجل صنو أبيه»، وذكرنا الذي رأيناه من خثوره في اليوم الأوَّل، والذي رأيناه من طيب نفسه في اليوم الثاني، فقال: «إنكما قد أتيتماني في اليوم الأول وقد بقي عندي من الصدقة ديناران، فكان الذي رأيتما من خثوري له، وأتيتماني اليوم وقد وجَّهتهما، فذاك الذي رأيتما من طيب نفسي» فقال عمر: رضي الله عنه: صدقت والله لأشكرنَّ لك الأولى والثانية).

ولا شكَّ أن الخليفة كان يعرف معدن الإمام عليه السلام وجوهره، فقد خبره سنوات طوال عن قرب شديد، فما وجد له زلّة في قول أو عمل، ويعلم يقينًا أنه أحبُّ الخلق إلى الله بعد رسوله، ويعلم يقينًا مدى زهده بالحياة وطبيعة إيمانه القوي الذي جاء عن علم وبصيرة، وليس غيره من المسلمين يطلب منه موعظة إن أرادها، فطلبها منه يومًا فقال له كما روى ابن عساكر في ترجمته عليه السلام ٢٦١/٣ بتاريخه: (لا تجعل يقينك شكًّا ولا عملك جهلاً ولا ظنَّك حقًّا، واعلم أنه ليس لك من الدنيا إلاَّ ما أعطيت فأمضيت، وقسمت فسوَّيت، ولبست فأبليت. قال: صدقت يا أبا الحسن).

وأزعم أنه ما كان لأحد أن يعترض على عمر بن الخطاب أو يدلو برأي يتعلق بحقوق الخليفة الشخصيَّة في مجلسه، ولكن الإمام عليه السلام كان

يفعل ولا يبخل بقول، وفي هذا الإطار لم أقف على نصٍ تجاوز فيه الخليفة رأي الإمام، أو ما قرَّره، ولا وقفت على حكم أو رأي أو مشورة في أمر ذهب إليه الإمام واعترض عليه أحد من الصَّحابة، وقد مرَّت عليك أمثلة، وأزيد عليها ما ذكره الطبري في تاريخه ٦١٦/٣ من أن عمر بن الخطّاب جمع الناس يومًا حين انتهى إليه (فتح القادسيَّة ودمشق، فقال: إني كنت امرأ تاجرًا، يغني الله عيالي بتجارتي، وقد شغلتموني بأمركم، فماذا ترون أنه يحلُّ لي من هذا المال، فأكثر القوم وعليٌّ عليه السلام ساكت، فقال: ما تقول يا علي؟ فقال: ما أصلحك وأصلح عيالك بالمعروف، ليس لك من هذا المال غيره، فقال القوم: القول قول علي بن أبي طالب)، وتلاحظ أن أمر المال قد تكرر في غير مناسبة، ولكن جواب المرتضى لم يتغيَّر فيها، فليس للحاكم إلاَّ ما أصلحه وأصلح عياله بالمعروف.

وكان عليه السلام القاضي العدل الذي لا يستطيع أحد ردَّ قضائه أو مناقشته، ولقد أشاد الخليفة في غير مناسبة بقضائه عليه السلام نوهنا ببعضها، بل روى ابن سعد في طبقاته ٣٣٩/٢ عن سعيد بن المسيَّب (كان عمر يتعوَّذ بالله من معضلة ليس فيها أبو حسن)، وتابعه البلاذري في أنسابه ٣٥١/٢ في الرواية عن ابن المسيَّب أيضًا، ولكنها فيه: (لا أبقاني الله لمعضلة ليس لها أبو الحسن)، وروى البلاذري في أنسابه ٣٥٤/٢ (عن سعيد بن وهب قال: قال عبد الله: أعلم أهل المدينة بالفرائض علي بن أبي طالب)، وبالسند نفسه روى أحمد في فضائله ٣٦ برقم ١١.

وكيف لا يتعوَّذ الخليفة وهو القائل على ما ذكر ابن عساكر في ترجمة أمير المؤمنين عليه السلام بتاريخه ٢/ ٣٦٤-٣٦٥ برواية مصقلة العبدي عن أبيه،

وبرواية رقبة بن مصقلة عن عبد الله بن ضبيعة العبدي عن أبيه عن جدّه: (أشهد على رسول الله صلى الله عليه وسلم لسمعته يقول: إنَّ السماوات السبع لو وضعتا في كفّة ميزان ثم وضع إيمان علي في كفّة ميزان لرجح إيمان عليٍّ)، يوم استفتاه رجلان في طلاق الأمة، وقال ابن عساكر الراوي: (كذا قال، وإنما هو عبد الله بن الحويعة بن صبرة العبدي، كذلك رواه العتيقي عن الدارقطني في كتاب فضائل الصحابة).

من فتاواه في خلافة عمر

وقد ذكرت مصادر التاريخ الإسلامي فتاوى كثيرة أفتاها الإمام عليه السلام في عصر النبوَّة وما تلاه، وسبق أن أرسله النبيُّ صلى الله عليه وآله وسلَّم قاضيًا إلى اليمن، ولم يزاحمه أحد من الصَّحابة زمن النبوَّة في هذا اللقب، ويسبب من دعوة النبيِّ ما التبس عليه القضاء بين اثنين، وحفظ له التاريخ في خلافة عمر جملة من الفتاوى، أذكر منها الآتي:

– ذكر أبو الفرج في أغانيه ١٥/١٩ (أتي عمر بن الخطاب بجماعة فيهم أبو محجن الثقفي وقد شربوا الخمر فقال: أشربتم الخمر بعد أن حرَّمها الله ورسوله فقالوا: ما حرمها الله ورسوله، إن الله يقول: ﴿ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾، فقال عمر: ما ترون فيهم؟ فاختلفوا فبعث إلى علي بن أبي طالب عليه السلام فشاوره فقال علي: إن كانت هذه الآية كما يقولون فينبغي أن يستحلوا الميتة والدم ولحم الخنزير فسكتوا، فقال عمر لعلي ما ترى فيهم؟ قال: أرى إن كانوا شربوها مستحلين لها أن يقتلوا، وإن كانوا شربوها وهم مؤمنون أنها حرام أن يُحَدُّوا

، فسألهم فقالوا: والله ما شككنا في أنها حرام، ولكنا قدَّرنا أن لنا نجاة في ما قلنا، فجعل يحدهم رجلاً رجلاً حتى انتهى إلى أبي محجن فلما جلده أنشأ يقول:

وإني لذو صبر وقد مات أخوتي ولست عن الصهباء يومًا بصابر

قال عمر: أبديت ما في نفسك لأزيدنك عقوبة لإصرارك على شرب الخمر، فقال علي عليه السلام: ما ذلك لك، وما يجوز أن تعاقب رجلاً قال: لأفعلنَّ وهو لم يفعل)، وأزعم أن التفاتة التاريخ إلى هذه الفتوى ليست بسبب جلد أبي محجن والشخصيَّات التي وقع القضاء عليها، ولا بسبب اجتهاد الإمام عليه السلام في تفنيد حجَّة الخصوم ومحاولتهم التخلُّص من العقوبة فحسب، وإنما في رأيه القاطع أن القضاء لا يقع على قول لم يسبقه فعل، وهي عدالة غابت بعد غيابه عليه السلام فكم من شهيد ذهب بسبب قول قاله، أو رأي أيَّده، أو صرَّح به.

— وذكر أبو الفرج في أغانيه أيضًا ١٦/١٠٧–١٠٨ حكاية شهادة النفر على المغيرة بن شعبة بارتكابه جريمة الزنا، ونجاته من العقوبة لأن زياد بن أبيه عدل عن شهادة الحق، مما دفع الخليفة إلى جلد الشهود بحدِّ القذف، ولكن أبا بكرة (قال بعد أن ضُرِبَ: فإني أشهد أن المغيرة فعل كذا وكذا، فهم عمر بضربه، فقال له عليه السلام: إن ضربته رجمت صاحبك، ونهاه عن ذلك. قال: يعني أنه إن ضربه جعل شهادته بشهادتين، فوجب بذلك الرجم على المغيرة. قال: واستتاب عمر أبا بكرة. فقال: إنما تستتيبني لتقبل شهادتي. قال: أجل. قال: لا أشهد بين اثنين ما بقيت في الدنيا. قال: فلمَّا ضُرِبوا الحدَّ قال المغيرة: الله أكبر الحمد لله الذي أخزاكم. فقال عمر: اسكت أخزى الله مكانًا رأوك فيه. قال:

وأقام أبو بكرة على قوله، وكان يقول: والله ما أنس رَقَطَ فخذيها.. وكان أبو بكرة بعد ذلك إذا دعي إلى شهادة يقول: اطلب غيري فإن زيادًا أفسد علي شهادتي... فقال له عمر: أتتجاهل علي؟ والله ما أظن أبا بكرة كذب عليك وما رأيتك إلاّ خفتُ أن أرمى بحجارة من السماء.....قال علي بن أبي طالب: عليه السلام: لئن لم ينته المغيرة لأتبعنَّه أحجاره، وقال غيره: لئن أخذت المغيرة لأتبعنه أحجاره). وأنت تلحظ من الرواية السابقة والتي ستليها أن عمر كان على يقين من فعلة المغيرة، ولكنه أراد درأ الحدّ عنه لسبب رآه، وقد أرّقه هذا الأمر، وخاف عاقبته، وذكر ابن الأثير في كامله ٢/ ٥٤٠-٥٤٢ أنَّ عمر بن الخطاب في سنة سبع عشرة عزل المغيرة بن شعبة عن البصرة بسبب ارتكابه فاحشة الزّنا بأم جميل بن الأفقم، وكان بيته في البصرة قبالة بيت أبي بكرة أخي زياد لأمه، وصادف أن كان زياد ونافع بن كلدة وشبل بن معبد البجلي في بيت أبي بكرة، وشاء الله فضيحة المغيرة فهبّت ريح فتحت كوتي بيتي المغيرة وأبي بكرة، فقام أبو بكرة ليسدّ الكوّة فرأى من المغيرة ما رأى، وشهد النفر عليه إلا زياد بن أبيه فإنه غير شهادته وقال: (رأيته جالسًا بين رجلي امرأة فرأيت قدمين مخضوبين تخفقان واستين مكشوفتين وسمعت حفزًا شديدًا. قال: هل رأيت كالميل في المكحلة؟ قال: لا. قال: هل تعرف المرأة؟ قال: لا ولكن أشبّهها، وأمر بالثلاثة فجُلِدوا الحدَّ. فقال المغيرة: اشفني من الأعبد. قال: اسكت أسكت الله نأمتك، أما والله لو تمّت الشهادة لرجمتك بأحجارك)، وإذا كان التاريخ قد حفظ هذه الحكاية أيضًا، فلم يحفظها بسبب مكانة من شارك فيها فحسب، وإنما بسبب رأي الإمام القاطع أيضًا في أن من وقع عليه الحدُّ، وأصر على شهادته، فإنها تحسب بشهادتين.

– ومما ذكره ابن قتيبة في عيونه ٨١/٢ حكاية عن الزيادي (أن عمر أُتي بامرأة ولدت لستة أشهر فهمَّ بها، فقال له علي: قد يكون هذا، قال عز وجلَّ ﴿ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً ﴾ وقال: ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ﴾، وأنت تلحظ كيف دفع الإمام ما همَّ به الخليفة بدليل لا يمكن دفعه، ولكن من التفت إليه غير عليٍّ!

– ومما ذكره البلاذري في أنسابه ٤٠٣/٢ (بلغ عمر عن امرأة من قريش أمرٌ فبعث إليها يدعوها فارتاعت فأسقطت غلامًا، فبلغ ذلك من عمر كل مبلغ فجمع أصحاب رسول الله فقال: ما تقولون؟ قالوا: ما نرى عليك شيئًا فقال علي: أرى أنك قد ضمنت ديته، قال: صدقتني فأقسمت عليك ألاّ تبرح حتى تقسمها على بني أبيك يعني قريشًا)، وأنت تلحظ أن التاريخ حفظ هذه الفتوى لأمرين يدلُّ الأول منهما على أن المرتضى لا تأخذه في الحقِّ لومة لائم، ويدلُّ الثاني على أن القائم بالأمر ليس من حقّه ترويع أحد في شبهة قبل التأكُّد منها، وعليه أخذ المتّهم بحسب الظروف التي تحيط به، فشبهة حمل سفاح جريرتها فضيحة كبرى لعلّها تتجاوز عقوبتها في ذلك المجتمع، وكان ينبغي أن يتمَّ التحقيق فيها بمنتهى السريَّة والحكمة إلى أن يثبت الحكم، وباجتهاد الإمام دفع عن المرأة الفضيحة، وفي الوقت ذاته عوَّضها الضرر الذي وقع عليها.

– روى أحمد في كتاب فضائل أمير المؤمنين ٤٣٤ برقم ٣٣٤ بسنده أن أبا ظبيان الجنبي قال: (إن عمر بن الخطاب أتى بامرأة قد زنت فأمر برجمها، فذهبوا بها ليرجموها، فلقيهم علي فقال: ما لهذه؟ قالوا: زنت فأمر عمر برجمها. فانتزعها علي من أيديهم فرجعوا إلى عمر. فقال: ما ردَّكم؟ قالوا:

ردّنا - يعني علي - (قال: ما فعل هذا إلاّ لشيء قد علمه. فأرسل إلى علي ؛ فجاء وهو شبه المغضب. فقال: مالك رددت هؤلاء؟ قال: أما سمعت النبي صلى الله عليه وسلّم يقول: «رفع القلم عن ثلاثة: عن النائم حتى يستيقظ، وعن الصغير حتى يكبر، وعن المبتلى حتى يعقل» قال: بلى. قال علي: هذه مبتلاة بني فلان فلعلّه أتاها وهو بها. فقال عمر: لا أدري. قال علي: وأنا أدري فلم يرجمها)، أي أن عقوبة تلك الجريمة لا تقع إلاّ بإرادة، فإن انتفت الإرادة انتفت العقوبة.

وتستطيع أن تستنتج قواعد للقضاء اعتمدتها الأمة في جميع عصورها بسبب فتاوى الإمام عليه السلام، بل أنت واجد في الكتب التي تناولت قضاء أمير المؤمنين عليه السلام أمثلة كثيرة عن قضائه خلال خلافة عمر بن الخطاب، أقرّها الخليفة، ولم يعترض عليها معترض، وتذهب كثير من الروايات إلى أنه كان عليه السلام قاضي المسلمين خلال خلافته على الرغم مما في النفوس من تباعد، بل ذكر فاضل الملاّ في كتابه الإمام علي ومنهجه في القضاء ١٠ أنّ (لكل حكم صدر عنه في جزئيات القضايا فلسفة وحكمة، وتستخلص منها فائدة وسابقة قضائية).

الشورى ونتيجتها

حبكت خيوط المؤامرة حبكة كاملة انتهت بمصرع الخليفة عمر بن الخطاب بخنجر أبي لؤلؤة فيروز غلام المغيرة، فقد طعنه يوم الأربعاء لسبع بقين من ذي الحجة، ومكث ثلاثة أيام ثم توفي لأربع بقين من الشهر المذكور سنة اثنتين وعشرين للهجرة، وكانت مدة خلافته عشر سنين وستة أشهر وخمس ليال كما ذكر ابن قتيبة في معارفه ١٨٣، وقيل: عشر سنين وستة أشهر كما ذكر المسعودي في مروجه ٢/٣١٢.

ولسنا بصدد الحديث عنها وعمّا دار حولها من اجتهادات، ولكننا بصدد ما تبعها من أمر الشورى، وانتقال الخلافة لعثمان بن عفان، وإذا كنّا نأخذ بمكيال الموضوعيّة وندّعيها فلا بد أن نحسب حسابًا للمؤثّرات النفسية والعلاقات الشخصية وصلات القربى والتكتّلات السياسية والاجتماعيّة وموقف قريش، فلابدّ أن يستبعد المرتضى عن الخلافة للمرّة الثّالثة. فقد وضع الخليفة خطّة لاختيار خلفه تبدو للوهلة الأولى بعيدة عن التحيُّز، إذ اختار ستة من مهاجري قريش معروفة ميولهم واتجاهاتهم.

وعلى الرغم من اعتراف الخليفة بأن المرتضى لو تولّى الخلافة من بعده لسار بالمسلمين على جادّة الإسلام وهديه، كما كان على بيّنة بأن أحدًا من المسلمين لا يدانيه في أي أمر من أمور الحكم، وقد صرّح بهذا في غير مناسبة سرًّا وعلانية، في بداية حكمه، أو في أثنائه، أو في ساعاته الأخيرة، أذكر منها ما رواه ابن أبي الحديد في شرح النهج ٦/٣٩٧ عن ثعلب في أماليه عن ابن

عبَّاس يوم تنفَّس عمر تنفُّسًا ظن ابن عباس (أن أضلاعه قد انفرجت) فلما استوضحه قال: (والله لئن وليها ليحملنَّهم على المحجَّة البيضاء والسراط المستقيم)، وما ذكره السيد محمد سعيد الحكيم في كتابه أصول العقيدة ٤٤٢ نقلاً عن محاضرات الأدباء ٤٧٨/٢ الذي روى أنَّ ابن عباس ذكر أن الخليفة عمر قال: (أما والله يا بني عبد المطلب لقد كان عليٌّ فيكم أولى بهذا الأمر منِّي ومن أبي بكر)، ولكن كل هذا لم يشفع عنده في النهاية، وتغلَّبت عوامل أخر عليه وهو في سويعاته الأخيرة، وفي زحمة الصِّراع كانت الشورى، ولا أدلَّ على ذلك من روايات عدَّة ذكرها غير واحد من المؤرخين أذكر منها ما رواه البلاذري في أنسابه ٢٥٣/٢ (عن عمرو بن ميمون قال: لما ولى عمر الستة فقاموا أتبعهم بصره ثم قال لئن ولوها الأجيلح -يعني علي عليه السلام، والجلح: انحسار الشَّعر عن جانبي الرأس - ليركبنَّ بهم الطريق)، وما رواه ابن عبد البر في استيعابه ١١٣٠/٣ بسنده من قوله لولده عبد الله: (لله درهم إن وَلّوها الأصَيْلع! كيف يحملهم على الحقِّ، ولو كان السيف على عنقه. فقلت: أتعلم ذلك منه ولا تولّيه؟ قال: إن لم أستخلف فأتركهم فقد تركهم من هو خيرٌ منِّي)، والرواية عند الذهبي في عهده ٦٣٩ عن عمرو بن ميمون، وهي فيه أكثر دقَّة إذ قال عمرو: (شهدتُ عمر يوم طعن، فذكر قصَّة الشُّورى، فلما خرجوا من عنده قال عمر: إن يوَلُّوها الأُصَيْلَعَ يسلكُ بهم الطريق المستقيم، فقال له ابنه عبد الله: فما يمنعك؟ - يعني أن تُوَلّيه - قال: أكره أن أتحمَّلها حيًّا وميّتًا).

وأنت تستطيع أن تشعر بالصراع الذي كان يعاني منه الخليفة في سويعاته الأخيرة، من نعته بالأجيلح مرَّة، وبالأصيلع في أخرى، فهو على بيِّنة لا

يعتريها أيُّ شكٍّ من مكانة المرتضى، وبكلِّ المقاييس عنده لا يمكن أن يقرنه بغيره من الصَّحابة، ولكنَّ ترسبَّات قديمة وعوامل نفسيَّة رافقته وهو يعاني من تلك الضربة القاتلة، يضاف إليها إحاطة قريش به إحاطة السوار بالمعصم وتأثيرها عليه، دفعته إلى اتخاذ ذلك القرار الذي كانت له تبعاته الكبرى على مستقبل الأمة الإسلامية.

بل نقف على رواية من العجب أن تصدر عن عمر بن الخطاب، وهي قوله الذي رواه ابن الأثير في كامله ٦٦/٣ : (وما أظن يلي إلاَّ أحد هذين الرجلين: علي أو عثمان، فإن ولي عثمان فرجل فيه لين، وإن ولي علي ففيه دعابة، وأحرى بهم أن يحملهم على طريق الحق)، وليست المرَّة الأولى التي ينعته فيها بهذا النعت، فقد سبقتها أخرى يوم قال لعبد الله بن عباس : (إني أراك تقول: إن صاحبك أولى الناس بها - يعني عليًّا رضي الله عنه - قلت له: أجل، والله إني لأقول ذلك في سابقته وعلمه وقرابته وصهره، قال: إنه كما ذكرت، ولكنه كثير الدعابة)، بل ذكر ابن عبد ربِّه في عقده ٢٦٢/٤ رواية أخرى عن المغيرة بن شعبة بعد أن اتهمه عمر في أمر فقال له: (والله ما خرج هذا الأمر إلاَّ من تحت يدك، فقال علي: اتقِ الله أن لا تكون الذي نطيعك فنفتنك، قال: وتُحِبُّ أن تكون هو؟ قال: لا، ولكننا نذكرك الذي نسيتَ ... وتفرَّقا قال: فأشار إلى عليٍّ وقال: أما والله لولا دُعابة فيه ما شككت في ولايته، وإن نزلت على رغم أنف قريش)، وعجيب أن يتَّهمَ عليه السلام بالدعابة، وهو القائل كما ورد في عيون الأخبار: (إذا ضحك العالم ضحكة مجَّ من العلم مجَّة)، ولا أظنك ستقف في سيرته التي طوفنا فيها على موقف واحد تشمُّ منه رائحة دعابة لا من قريب ولا من بعيد، بل إن

موضوع الدعابة لو كان له بصيص من حقيقة، لأفادت منه الفئة الباغية أيما إفادة، ونسجت حوله قصصًا وحكاياتٍ ولكنها لم تفعل لاستحالة تصديق صدورها عن عليٍّ إلاّ أن يكون الخليفة قد أراد من الدَّعابة تلك البساطة المتناهية في المأكل والملبس والسلوك تأسّيًا بمربيه العظيم الرسول الأكرم صلوات الله وسلامه عليهما، بل إن المتابع لسيرته عليه السلام منذ ولادته وحتى استشهاده لا يستطيع أن يعثر على دعابة واحدة تنسب له. فلو نسب له التواضع وحب الفقراء والمساكين وحدبه عليهم، وتمثله بمأكلهم ومشربهم، لصدق في ما ذهب إليه، أما الدَّعابة التي نعرفها فهي حتمًا ليست من صفاته.

وكان المرتضى على بيِّنة بمآل الخلافة هذه المرَّة أيضًا، وما كان أمرها يخاف عليه وهو ذلك المحنَّك الذي خبر الدنيا بالطول والعرض، ولا كانت نيَّات القوم بعيدة عن إدراكه، ولكنَّه دخل فيها حرصًا على وحدة المسلمين، وكراهية لوقوع الخلاف في ما بينهم، وقد صرَّح بكلٍّ ذلك لعمِّه العباس رضوان الله عليه كما ذكر ابن الأثير في كامله ٦٦/٣، لأن المبدأ الذي وضعه الخليفة عمر بن الخطَّاب يؤدي في مآله بالحتم إلى رجحان كفَّة عثمان إذ أوصى أبا طلحة الأنصاري أن يختار خمسين رجلاً من الأنصار، وأن يدخل الستة بيتًا (ويقيم على رؤوسهم، فإن اجتمع خمسة وأبى واحد فاشدخ رأسه بالسيف، وإن اتفق أربعة وأبى اثنان فاضرب رؤوسهما، وإن رضي ثلاثة رجلاً وثلاثة رجلاً فحكِّموا عبد الله بن عمر، فإن لم يرضوا بحكم عبد الله بن عمر فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف، واقتلوا الباقين إن رغبوا عما اجتمع فيه الناس. فخرجوا فقال علي لقوم معه من الهاشميين: إن أطيع فيكم قومكم لم تؤموا أبدًا، وتلقَّاه عمه العباس فقال: عُدِلَت عنا فقال: وما علمك؟ قال:

قرن بيني وبين عثمان، وقال: كونوا مع الأكثر، فإن رضي رجلان رجلاً فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن، فسعد لا يخالف ابن عمه، وعبد الرحمن صهر عثمان لا يختلفون فيوليهما أحدهما الآخر، فلو كان الآخران معي لم ينفعاني)، ولا أدلَّ على علاقة عبد الرحمن بن عوف بعثمان وميله إليه أن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه يوم آخى بين المهاجرين آخى (بين عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف) كما روى ابن سعد في طبقاته ٣/٥٦.

ويبدو أنَّ العبَّاس حذَّره مما رسمه الخليفة، ونهاه من الدخول معهم كما ذكر ابن عبد ربه في عقده ٤/٢٥٥، ولكن ما صدر عن الإمام عليه السلام غاب عن عمِّه في ما أحسب، فالعباس يراها حقًّا لابن أخيه خاصَّة، عليه أن يأخذه مرَّة حينما عرض عليه مبايعته، ومرَّة في إفساد ما رسمه الخليفة كي تؤول الخلافة إليه كما ذكر ابن الأثير، ولكن ابن أخيه لا يبحث عن حقِّه قدر بحثه عن تنفيذ وصيَّة رسول الله صلوات الله وسلامه عليهما في الحفاظ على الدعوة ونشرها بكلِّ السبل المتاحة، إلاَّ أن ذلك لم يمنع من احتجاجه على المتشاورين بحديث الغدير، وحديث الثقلين، وحديث المنزلة، ولكنَّ حادثة السَّقيفة وما تلاها ابتنت على إهمال النصِّ والانقلاب عليه كما ذهب إلى ذلك السيد محمد سعيد الحكيم في كتابه أصول العقيدة ٤١٨-٤١٩، بل سنرى من بعد في قوَّة احتجاجه ما يدلّل على النهج الذي اتَّخذه في الاعتراض عليه السلام، لأنَّ سمعه وطاعته كانا خوفًا من رجوع الناس إلى كفرهم، ووقوع فتنة تؤدي إلى سفك الدماء.

وقد روى ابن عساكر في ترجمته عليه السلام بتاريخه ٣/١١٣-١٢٠ احتجاج المرتضى ومناشدته عليه السلام بسندين عن أبي طفيل عامر بن واثلة

الكناني قال: كنت واقفًا على الباب يوم الشورى فارتفعت الأصوات بينهم فسمعت عليًا يقول: بايع الناس لأبي بكر، وأنا والله أولى بالأمر منه وأحقُّ به منه، فسمعت وأطعت مخافة أن يرجع الناس كفارًا يضرب بعضهم رقاب بعض بالسيف، ثم بايع الناس عمر وأنا والله أولى بالأمر منه وأحقُّ فسمعت وأطعت مخافة أن يرجع الناس كفارًا يضرب بعضهم رقاب بعض بالسيف، ثم أنتم تريدون أن تبايعوا عثمان؟ إذًا لا أسمع ولا أطيع! وإن عمر جعلني في خمسة نفر أنا سادسهم لا يعرف لي فضلاً عليهم في الصلاح ولا يعرفونه لي كلنا فيه شرع سواء، وأيم الله لو أشاء أن أتكلَّم ثمَّ لا يستطيع عربيُّهم ولا عجميُّهم ولا المعاهد منهم ولا المشرك أن يردَّ خصلة منها لفعلت)، ثم روى ابن عساكر ما احتجَّ به عليه السلام بمؤاخاته، وبعمه حمزة سيد الشهداء، وبأخيه ذي الجناحين، وبسبطي رسول الله، وبزوجته الزهراء، وبقتله مشركي قريش، وبوقايته رسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم يوم نام بفراشه، وبفتح أبواب المسجد له، وبتطهيره، وبالنجوى بين يديه، وبانفراده بأخذ الخمس هو وفاطمة عليهما السلام، وبإغماضه عيني رسول الله صلوات الله عليه ساعة رحيله، وبسبق صلاته، وغيرها، وذكر مثل هذا أيضًا ابن أبي الحديد في شرح النَّهج ٥/٢٨٨—٢٨٩ إلاّ أن ذلك لم يشفع عند قريش، ومتى شفع، وكيف يشفع؟!

ويغلب على الظنِّ أن الإمام عليه السلام حذرهم من يوم آتٍ ليس ببعيد لابدَّ أنه واقعٌ إن انصرفت الخلافة إلى غير أهلها، فما أسهل التنصُّل من العهود، وما أصعب أيّام انتضاء السيوف وما يجرُّه امتشاقها من إحن وويلات، قال كما روي في النهج ٣٤٤—٣٤٥ : (لن يُسرعَ أحدٌ قبلي إلى

دعوة حقٍّ، وصلة رحمٍ، وعائدة كرمٍ، فاسمعوا قولي، وعُوا منطقي، عسى أن ترَوا هذا الأمر من بعد هذا اليوم تُنْتَضَى فيه السيوف، وتُخانُ فيه العهود، حتى يكون بعضُكُم أئمَّةً لأهل الضلالةِ، وشيعةً لأهل الجهالة).

ويبدو أن بعض الصحابة، ولاسيما صاحبه عمار بن ياسر حاول قبل استخلاف عثمان دفعها إليه عليه السلام، ولكن بلا جدوى، روى البلاذري أنسابه ٢/٣٧٨ بسنده (عن سحيم بن حفص قال: بلغني أن عمار بن ياسر قال: إن الله أعزَّنا بدينه، وأكرمنا بنبيه، فأنى تصرفون الأمر عن أهل بيت نبيكم؟ فقال رجل من مخزوم: يا ابن سمية وما أنت وإمرة قريش؟ فقال سعد: افرغ يا عبد الرحمن بن عوف قبل أن ينتشر بين الناس)، ولا شك أن قريشًا ما عادت تنظر إلى الأمر خلافة، وإنما هو إمرة لقريشٍ خاصَّة، أما عمَّار وغيره، فليس أكثر من ابن سميَّة، وإن كانت سميَّة رضوان الله عليها أوَّل شهيدة في الإسلام.

وسارت الأحداث في الطَّريق الذي رُسِمَ لها، ولن نقف على تفصيلاتها فقد أشبعها الدارسون من قبل بحثًا وتحليلاً، وكان المرتضى على بيِّنة من مآلها ولعلَّه أراد إلقاء الحجَّة على عبد الرحمن بن عوف يوم تنازل عن حقِّه في الخلافة على أن يكون هو صاحب الكلمة فيها، فقال عثمان كما روى ابن عبد ربه في العقد ٢/٢٥٧: (أنا أول من رضي، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلَّم يقول: عبد الرحمن أمين في السماء أمين في الأرض. فقال القوم: رضينا. وعليٌّ ساكت. فقال: ما تقول يا أبا الحسن؟ قال: إن أعطيتني مَوْثقا لتُؤْثرنَّ الحقَّ ولا تتبع الهوى، ولا تخصَّ ذا رحم، ولا تألو الأمة نُصحًا).

ولنقف على كلمتي الإمام وعبد الرحمن يوم بايع عثمان، وكلتيهما، مع حكاية الشورى في كامل ابن الأثير ٣/٦٥ - ٧٦ وعقد ابن عبد ربه ٤/٢٥٩، قال عليه السلام: (ليس هذا أوَّل يوم تظاهرتم فيه علينا، ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾، والله ما ولّيتَ عثمان إلاّ ليردَّ الأمر إليك، والله كلّ يومٍ في شأن! فقال عبد الرحمن: يا عليّ لا تجعل على نفسك حجّة وسبيلاً. فخرج عليٌّ وهو يقول: سيبلُغُ الكتاب أجله. فقال المقداد: ما رأيتُ مثلما أتى إلى أهل هذا البيت بعد نبيهم، إنّي لأعجبُ من قريش أنهم تركوا رجلاً ما أقول ولا أعلم أنَّ رجلاً أقضى بالعدلِ ولا أعلم منه، أما والله لو أجِدُ أعوانًا عليه! فقال عبد الرحمن: يا مقداد اتّقِ الله فإني خائفٌ عليك الفتنة. فقال رجلٌ للمقداد: رحمك الله من أهل هذا البيت ومن هذا الرجل؟ قال: أهل البيت بنو عبد المطلب، والرجل علي بن أبي طالب. فقال علي: إن الناس ينظرون إلى قريش، وقريش تنظر بينها فتقول: إن ولي عليكم بنو هاشم لم تخرج منهم أبدًا، وما كانت في غيرهم تداولتموها بينكم).

ونقف على رواية عند اليعقوبي في تاريخه ٢/٦٥ إن صحَّت فإنها تدلّل بما لا يقبل الشك على وقوع اتّفاق مسبَّق بين عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان على أمر الخلافة، فهذا يتولاّها اليوم شريطة أن يليها الآخر من بعده، فقد ذكر أن سبب القطيعة التي وقعت بينهما يعود إلى أن عثمان اعتلَّ علّة اشتدَّت به، فدعا حمران بن أبان مولاه، وكتب عهدًا لمن بعده، فلما وصل إلى موضع الاسم بعهده ترك مكانه فراغًا، ثمَّ أخذ العهد من حمران، وكتب اسم عبد الرحمن بن عوف فيه سرًّا، ثمَّ كفّه وربطه، وبعثه بيد أم حبيبة بنت أبي سفيان، (فقرأه حمران في الطريق فأتى عبد الرحمن فأخبره، فقال

عبد الرحمن: أستعمله علانية ويستعملني سرًّا، ونمى الخبر وانتشر بذلك في المدينة، وغضب بنو أميَّة، فدعا عثمان بحمران مولاه، فضربه مائة سوط، وسيَّره إلى البصرة، فكان سبب العداوة بينه وبين عبد الرحمن بن عوف).

وقد عزا معاوية بن أبي سفيان ما أصاب الأمَّة من حروب وفتن وتشتُّت أمر المسلمين إلى يوم الشورى، ورأى أن عمر جانبه الصواب في اجتهاده على ما روى ابن عبد ربه في عقده ٤/٢٦٠-٢٦١ قال: (ثمَّ جعلها شورى بين ستة نفر، فلم يكن رجلٌ منهم إلاَّ رجاها لنفسه ورجاها له قومُه، وتطلَّعت إلى ذلك نفسه ولو أن عمر استخلف عليهم كما استخلف أبو بكر ما كان في ذلك اختلاف).

مع عثمان في خلافته

بويع عثمان بالخلافة لثلاث مضين من المحرم سنة أربع وعشرين للهجرة، أو قبيل ذلك أو بعده بأيّام، وذكر ابن قتيبة في معارفه ١٩٤ أن بيعته كانت في غرَّة محرم، وكان على الإمام عليه السلام أن يستمر أمينًا على الرسالة ومصدرًا للفتوى والتشريع، وترجمانًا للقرآن، ومفسّرًا لسيرة أخيه صلى الله عليه وآله وسلّم، وحكمًا تلجأ الأمة إليه عند احتدام الأحداث، ورقيبًا عليها حينما يميل ميزانها.

بايع ولعلّه كان من أوّل المبايعين، وغصة الإحساس بالحيف تخنقه من موقف عبد الرحمن بن عوف الذي رجّح كفّةَ عثمان التي مثّلت الثّقل القرشي على كفّة عليٍّ وهو يعلم أنها هي الراجحة في ميزان العقيدة، بايع وهو على يقين في أنه أحق الناس بخلافة المسلمين، ولكنّه اتّشح بالصّبر ثانية، لأنّ الأهم عنده أن تسلم أمور المسلمين، وتستطيع أن تستشعر غصّته في قوله عليه السلام الذي ورد في النهج ١٩٩ : (لقد علمتم أني أحقُّ الناس بها من غيري، ووالله لأُسلّمنّ ما سَلِمَت أمورُ المسلمين ولم يكن فيها جورٌ إلاّ عليَّ خاصّة التماسًا لأجرِ ذلك وفضله، وزهدًا في ما تنافستّموه من زُخْرُفِهِ وزِبْرِجِهِ)، ويبدو أن بعض الأمويين جهر في وجهه عليه السلام بأنه كان يتمنّى أن يتمّ الأمر له لشدّة حرصه عليه فأجابهم كما جاء في النهج ٤٠٦–٤٠٧ أيضًا: (بل أنتم والله لأحرص وأبعد، وأنا أخصُّ وأقرب! وإنما طلبتُ حقًا لي وأنتم تحولون بيني وبينه، وتضربون وجهي دونه)، ويبدو أنه انصرف عنهم إلى شؤونه ولم يدخل معهم

في مشادَّة أو كلام، إلا أنه بسبب شديد معاناته من موقف قريش قال: (اللهم إنِّي أستعديك على قريش ومن أعانهم؛ فإنهم قطعوا رحمي، وصغَّروا عظيم منزلتي، وأجمعوا على منازعتي أمرًا هو لي، ثمَّ قالوا: ألا إنَّ في الحقِّ أن تأخذه وفي الحقِّ أن تتركه)، وشهد الله أنهم زاغوا عن الحق.

أما موقفه من الخليفة والأحداث التي واكبت حكمه، فتستطيع أن تقدره لا من خلال مئات الأوراق التي سطرها المؤرخون، ولا من خلال آراء الملل والنحل فيها، ولا من خلال دفاع من دافع عن الإمام عليه السلام، وإنما من خلال أحد أقواله بعد أن سلمه ابن عباس رسالة من الخليفة يطلب منه ترك المدينة والخروج إلى ماله في ينبع، ولم تكن المرة الأولى التي يطلب منه الخليفة مثل هذا الطلب وخاصَّة بعد سُنَيَّات مضت من حكمه تمكَّن فيها مروان بن الحكم وعصابته الأموية من رقبة الخليفة، فردَّ على ابن عمه بمرارة تكاد تطفر من بين كلماته: (يا ابن عباس، ما يريد عثمان إلاَّ أن يجعلني جملاً ناضحًا بالغَرْب (يحمل الماء بدلو كبير) أُقْبِلُ وأُدبرُ، بعث إليَّ أن أَقْدُمَ، ثم هو الآن يبعثُ إليَّ أن أخرُجَ، والله لقد دفعتُ عنه حتى خشيت أن أكون آثمًا)، كما ورد في النهج ٥٣٢ –٥٣٣، وأنت تعرف مدى صدق الإمام عليه السلام في القول والعمل، بل إن المتابع للأحداث يخرج منها برؤية أنَّ الثورة على خلافة عثمان ما كان لها أن تتأخَّر لولا موقف عليٍّ الذي دفعها عنه في غير مناسبة بعد أن تخلَّى عنه كبار الصَّحابة.

قرون الفتنة

ويبدو أن الأمور يوم انقلب عاليها على سافلها، وتمكَّنت العصابة الأمويَّة من رقبة الخليفة الجديد عتب بعض الصحابة على عبد الرحمن بن عوف،

ولعلّهم لاموه على فعلته يوم بايعه، وكان من بين من عاتبه أبو وائل كما روى ابن الأثير بسنده في أسده ٣/٦٠٩-٦١٠ الذي قال: (قلت لعبد الرحمن بن عوف: كيف بايعتم عثمان وتركتم عليًّا؟ فقال: ما ذنبي؟ قد بدأت بعلي فقلت: أبايعك على كتاب الله وسنَّة نبيِّه وسيرة أبي بكر وعمر. قال فقال: في ما استطعت. قال: ثم عرضتها على عثمان فقبلها)، بل إن كبار الصَّحابة (قالوا لعبد الرحمن بن عوف: هذا عملك واختيارك لأمَّة محمد. قال: لم أظنَّ هذا به؛ ودخل على عثمان فقال له: إنِّي إنما قدَّمتك على أن تسير فينا بسيرة أبي بكر وعمر، وقد خالفتهما. فقال: عمر كان يقطع قرابته وأنا أصل قرابتي في الله. فقال له: الله عليَّ أن لا أكلمك أبدًا. فمات عبد الرحمن وهو لا يكلم عثمان) كما روى ابن عبد ربه في عقده ٤/٢٨١، وأكاد أجد لابن عوف المعاذير، فهو على الرغم من يقينه بأحقِّيَّة الإمام عليه السلام بالأمر كله قبل ذلك اليوم وبعده لأنه في كفَّة الحقِّ ليس كمثله رجل بين المسلمين، وقد شهد له بذلك رسول الله صلوات الله وسلامه عليه، وليس فوق شهادته من شهادة، ولكن ليس بكل هذا يقوم الحكم في تلك الظروف، إذ إن ابن عوف بكلِّ ما روي عن منزلته ما كان يؤثر على عثمان أحدًا، ولكي يتخلَّص من بعد إن كان هناك من لوم استشار النفر القرشي صاحب الصولة والكلمة، وكلُّه لا يريد عليًّا، وكلُّه لا يريد بني هاشم، بل لعلَّ قريشًا لو خيِّرت بتغييب هذا البيت وراء الشمس لما اختارت غير تغييبه، وكيف يريده ومازالت جراحات سيفه وسيف عمه حمزة لم تندمل بعد، وكيف يرجحه على عثمان وكله خير عليهم عامَّة، وعلى بني أميَّة خاصَّة، لم يكلمهم بكلم، وليس لهم في بيته من ثأر، وقد حماهم أثناء عصر النبوَّة في

غير مناسبة مرَّت علينا، وهو فرصة البيت الأموي الفريدة التي ليس فوقها مغنم أو مكسب، وما أعظم فرحة أبي سفيان في ذلك اليوم، وما أشده على أنصار الإمام ومحبيه وأهل بيته عليهم السلام، بل على جميع الصفوة التي آمنت بالإسلام وقيمه حقَّ الإيمان.

ولا أدلَّ على ذلك من موقف أبي سفيان من بيعة عثمان، ومن موقف خاصَّة صحابة المرتضى منها، فقد دخل أبو سفيان: (دار عثمان عقيب الوقت الذي بويع فيه عثمان ودخل داره ومعه بنو أميَّة فقال أبو سفيان أفيكم أحد غيركم؟ وقد كان عَمِيَ، قالوا: لا، قال: يا بني أميَّة، تلقَّفوها تلقُّفَ الكرة، فوالذي يحلف به أبو سفيان مازلت أرجوها لكم ولتصيرن إلى صبيانكم وراثة)، ولكنَّ قوله لم يبق حبيس ذلك المجلس، وإنما نما، ونما (إلى المهاجرين والأنصار وغير ذلك الكلام، فقام عمار في المسجد فقال: يا معشر قريش، أما إذا صرفتم هذا الأمر عن أهل بيت نبيكم هاهنا مرة وهاهنا مرَّة فما أنا بآمن من أن ينزعه الله منكم فيضعه في غيركم كما نزعتموه من أهله ووضعتموه في غير أهله، وقام المقداد فقال: ما رأيت مثل ما أوذي به أهل هذا البيت بعد نبيهم، فقال له عبد الرحمن بن عوف: وما أنت وذاك يا مقداد بن عمرو؟ فقال: إني والله لأحبهم لحب رسول الله صلى الله عليه وسلّم، وإن الحقَّ معهم وفيهم، يا عبد الرحمن، أعجب من قريش - إنما تطوُّلهم على الناس بفضل أهل هذا البيت - قد اجتمعوا على نزع سلطان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعده من أيديهم، أما وأيم الله يا عبد الرحمن لو أجد على قريش أنصارًا لقاتلتهم كقتالي إياهم مع النبي عليه الصلاة والسلام يوم بدر، وجرى بينهم من الكلام خطب طويل) كما روى

المسعودي في مروجه ٣٥٢/٢، ولا أحدّثك عن صلة الرحم التي تربط عبد الرحمن بن عوف بعثمان، ولا عن صلة التلاقي بين نفسيهما التي دفعت المصطفى صلوات الله عليه أن يؤاخي بينهما.

وإذا صحَّ ما رواه اليعقوبي في تاريخه ٦٥/٢ من عهد عثمان حين شعر بالمرض لعبد الرحمن بن عوف، فيكون الأمام عليه السلام كأنّه ينظر من وراء حجاب يوم قال كما جاء في وعقد ابن عبد ربه ٢٥٩/٤ وكامل ابن الأثير ٦٥/٣– ٧٦ : (ليس هذا أوّل يوم تظاهرتم فيه علينا، ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ ، والله ما ولّيتَ عثمان إلاّ ليردَّ الأمر إليك، والله كلّ يومٍ في شأن!).

من أسباب الفتنة

ويبدو أن أول خلاف وقع بين والخليفة عثمان وأمير المؤمنين عليه السلام كان في أوّل قضيَّة استقبلها الحكم الجديد، وهي قضيَّة عبيد الله بن عمر الذي قتل الهرمزان وجفينة، وهو رجل من النَّصارى، وكان ظهيرًا لسعد بن مالك، فاستشار عثمان في أمر عبيد الله، فأمَّا علي عليه السلام الذي لا تأخذه في حدود الله شفقة فقال: أرى أن تقتله، وأما بعض المهاجرين فقالوا: قُتِلَ عمر أمس، ويُقتل ابنه اليوم! كما ذكر الطبري في تاريخه ٦١١/٣، وابن الأثير في كامله ٧٦/٣، فاجتهد عثمان واحتمل ديَّة القتيل، ولم يكن الخليفة مصيبًا في اجتهاده على الرغم من حراجة الموقف، ولمّا أفضت الخلافة إلى الإمام عليه السلام هرب عبيد الله والتحق بمعاوية، لأن المرتضى كان قد اعترض على اجتهاد عثمان، (ولو كان إطلاقه بأمر ولي الدم لم يتعرّض له عليٌّ) كما ذكر ابن الأثير في المصدر السابق الذكر.

ومرَّت سنيّات، وبدأت شروط البيعة التي تعهد الخليفة بالالتزام بها تنفرط شرطًا إثر آخر، وبدأت عصبةٌ تلفُّ حبالها بحكمة وأناة حول رقبته من دون أن يشعر، إلى أن وجد نفسه لا يملك القدرة على التنفس.

وبدأت رقعة النقمة بالاتساع، فقد أعاد عمه طريد رسول الله الحكم بن أبي العاص، وأعاد معه ولده مروان، وتمكّن البيت الأموي من تشديد الخناق على الشيخ، واغتنم كلَّ فرصة لإبعاده عن المخلصين من الصَّحابة، وبث الفرقة بينه وبين كبارهم وخيارهم، فهذا الوليد بن عقبة واليًا على الكوفة يتقيّأ خمرًا على منبرها، ويزيد المسلمين ركعتين في صلاتهم، ويعقبه سعيد بن العاص واليًا عليها فيضيق الخناق على أهلها ويستبد بفيئها، وذلك عبد الله ابن سعد بن أبي سرح واليًا على مصر يعيث بها ويستبد بفيئها، وذلك عبد الله بن عامر في البصرة، وشيئًا فشيئًا يصبح فيء المسلمين قطيعة لبني أميَّة ومن والاهم، وشيئًا فشيئًا يجد الخليفة نفسه في عزلة تامَّة باستثناء الطغمة التي أحاطت به، وشيئًا فشيئًا تدقُّ الثورة أبواب المدينة.

ويوم أحسَّ الإمام عليه السلام بقرون الفتنة تخرج من كلِّ صوب، والثَّورة التي ستخبط خبط عشواء على الأبواب، استجاب لطلب الناس في مواجهة عثمان، فدخل عليه وكلّمه كما روى الطبري في تاريخه ٤/٧٣ من طبعة الأعلمي، وابن عبد ربّه في عقده ٤/٢٨٤ والحديث بتمامه في النهج ٣٢٩–٣٩٣ قال: (إن الناس ورائي قد كلّموني أن أكلّمَك، والله ما أدري ما أقول لك، ما أعرف شيئًا تنكره، ولا أعلمك شيئًا تجهله، وما ابن الخطّاب أولى بشيء من الخير منك، وما نُبصِّرُك من عمى، وما نعلمك من جهل، وإن الطريقَ لبيِّنٌ واضحٌ. تعلم يا عثمان أن أفضل الناس عند الله إمام عَدْلٍ،

هُدِيَ وهَدَى، فأحيا سُنَّةً معلومة، وأمات بدعة مجهولة؛ وأن شرَّ الناس عند الله إمام ضلالة، ضَلَّ وأضَلَّ، فأحيا بدعة مجهولة، وأمات سُنَّة معلومة، وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلّم يقول: «يُؤتَى بالإمام الجائر يوم القيامة ليس معه ناصرٌ ولا عاذرٌ فيُلْقَى في جهنَّمَ فيدورُ دور الرحَى يرتطم بجمرة النَّار إلى آخر الأبد»، وأنا أُحَذِّرُك أن تكون إمام هذه الأمَّة المقتول، يُفتَحُ به بابُ القتلِ والقتال إلى يوم القيامة، يمرَجُ به أمرُهم ويمرَجون. فخرج عثمان ثمَّ خطب خُطبتَه التي أظهر فيها التوبة)، ولا أشكُّ في أنك قرأت مدى عقلانيَّة الخطاب وحرصه على توفير القناعة للخليفة من دون إثارته، فهو ليس خطاب معاتبة أو مماحكة، قدر ما كان خطاب إيمان وتقوى ذكَّر بالخاليات من أيَّام أنفاس الوحي الذي مازال عبقها يملأ طرقات المدينة وحواريها، وبأيَّام الجهاد التي كلها تضحية وفداء.

ولا شك أن ذلك الخطاب لم يكن كلّ الحوار، فلابد أن عثمان قد اشتكى قلَّة النَّاصحين بعد أن تخلَّى عن مجلسه كبار الصحابة بسبب إحاطة البيت الأموي به، وأزعم أن المرتضى تعهَّد بتنبيهه بالحدِّ الأدنى مما ينبغي فعله قبل استفحال الأمر وخروجه من دائرة السيطرة، ويبدو أنه كان يبعث إليه بولده الحسن سلام الله عليهما بين حين وآخر، فثقل ذلك أيضًا على العصابة الأمويَّة فأوغروا صدر الخليفة من جديد على عليٍّ عليه السلام، ذكر ابن عبد ربِّه في المصدر السابق، أنه كلَّما اشتكى الناس إلى عليٍّ أمر عثمان (أرسل ابنه الحسن إليه، فلمَّا أكثر عليه قال له: إن أباك يرى أن أحدًا لا يعلم ما يعلم، ونحن أعلم بما نفعل، فكُفَّ عنَّا. فلم يبعث عليٌّ ابنه في شيء بعد ذلك).

أما الطبري، فقد روى بعدما ذكر حديث عليٍّ عليه السلام معه، أن الخليفة عثمان خرج إلى الناس فأعلن توبته لهم، ولكنَّه ما أن عاد إلى داره حتَّى استقبله مروان بن الحكم في بيته وطلب الإذن بالكلام وقال: (والله لوددت أن مقالتك هذه كانت وأنت ممتنع منيع، فكنت أوَّل من رضي بها، وأعان عليها.. والله لإقامة على خطيئة تستغفر الله منها أجمل من توبة تخوَّف عليها..)، فطلب عثمان منه أن يخرج إلى الناس على الرغم من تحذير زوجته نائلة من مغبَّة فعلة مروان الذي خرج إلى الناس وقال من بين ما قال كما روى الطبري في المصدر السابق ٤/٩٤: (..ما شأنكم قد اجتمعتم كأنَّكم قد جئتم لنهب! شاهت الوجوه! كلُّ إنسان آخذ بأذُنِ صاحبه. ألا من أريد! جئتم تريدون أن تنزعوا ملكنا من أيدينا! اخرجوا عنَّا، أما والله لئن رمتمونا ليمرَّن عليكم منَّا أمر لا يسرُّكم؛ ولا تحمدوا غبَّ رأيكم، ارجعوا إلى منازلكم فإنا والله ما نحن مغلوبين على ما في أيدينا)، وذكر الطبري أيضًا أن الناس رجعوا إلى عليٍّ فأخبروه بخبر مروان، فعاد (مغضبًا حتى دخل على عثمان فقال: أما رضيت من مروان ولا رضي منك إلاَّ بتحرُّفك عن دينك وعن عقلك، مثل جمل الضَّعينة يقاد حيث يسار به؛ والله ما مروان بذي رأي في دينه ولا نفسه؛ وأيم الله إني لأراه سيوردك ثم لا يصدرك؛ وما أنا بعائد بعد مقامي هذا لمعاتبتك، أذهبتَ شرفكَ، وغلبت على أمرك)، فلمَّا خرج عليه السلام دخلت نائلة امرأته وقالت: (قد سمعت قول عليٍّ لك؛ إنه والله لن يعاودك، وقد أطعت مروان يقودك حيث شاء. قال: فما أصنع؟ قالت: تتقي الله وتتَّبع سنَّة صاحبيك قبلك، فإنك متى أطعت مروان قتلك؛ ومروان ليس له عند النَّاس قدْر ولا هيبة ولا محبَّة، وإنما تركك النَّاس لمكان مروان؛ فأرسل إلى

عليٌّ فاستصلحه، فإن له قرابة منك، وهو لا يعصَى)، وذكر أيضًا محاورات جرت، كلها توثّق ما فعله المرتضى لإنقاذ عثمان، وهي تدلّلُ أيضًا على أن الرجل لا يستطيع صدورًا ولا ورودًا بعد أن تغلّبت عليه تلك العصابة.

ونال بعض كبار صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم حيف لم يخطر على بال المسلمين في خلافته، وكلٌّ منهم له من التأثير ما ليس لغيره، من مثل عبد الله بن مسعود وقد حدث له ما أدى إلى انحراف هذيل عن عثمان، ويوم مات ابن مسعود صلى عليه عمار بن ياسر كما ذكر اليعقوبي في تاريخه ٦٧/٢، وقد صلّى أيضًا على المقداد يوم وفاته، وقد نال عمار بن ياسر أيضًا من الضرب بأمرٍ من الخليفة وعلى مرأى منه أدى إلى إصابته بفتق كاد يقتله، مما دفع إلى انحراف بني مخزوم عن عثمان، ومن ذلك ما حدث لأبي ذرٍّ الغفاري من نفي إلى بلاد الشام وعودة منها على حال أسهبت في ذكرها كتب التاريخ بسبب ما أصابه فيها من أذى، ثم نفيه إلى الربذة بسبب موقفه من الذين يكنزون الذهب والفضّة ولا ينفقونها في سبيل الله، وبسبب تركة عبد الرحمن بن عوف التي كانت القشّة التي قصمت ظهر العلاقة بينه وبين عثمان، إذ أتي بتركته بعد وفاته، وكانت مالاً كثيرًا يصعب تقديره (فقال عثمان بحضور أبي ذرٍّ: إني لأرجو لعبد الرحمن خيرًا؛ لأنه كان يتصدّق، ويقري الضيف، وترك ما ترون، فقال كعب الأحبار: صدقت يا أمير المؤمنين، فشال أبو ذرّ العصا، فضرب بها رأس كعب، ولم يشغله ما كان فيه من الألم، وقال: يا ابن اليهودي، تقول لرجل مات وترك هذا المال: إن الله أعطاه خير الدنيا وخير الآخرة، وتقطع على الله بذلك، وأنا سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «ما يسرني أن أموت وأدع ما يزن

قيراطًا»)، فقال له عثمان: غيِّب وجهك عني، فخرج إلى الربذة كما ذكر المسعودي في مروجه ٣٤٩/٢ -٣٥٠، وما تبع هذا النفي من تصرف أدى إلى تشنج العلاقة بين علي وعثمان، إذ أمر الخليفة بعدم وداع أبي ذرٍّ، ولكن الإمام عليه السلام خرج لتوديعه رفقة ولديه الحسن والحسين عليهم السلام وأخيه عقيل وابن أخيه عبد الله بن جعفر وعمار بن ياسر، فشيع أبا ذرٍّ فاعترضه مروان بن الحكم فقال: (يا علي إنَّ أمير المؤمنين قد نهى الناس أن يصحبوا أبا ذرّ في مسيره ويشيعوه، فإن كنت لم تدر بذلك فقد أعلمتك، فحمل عليه علي بن أبي طالب بالسوط وضرب بين أذني راحلته، وقال: تنحَّ نحَّاك الله إلى النار) كما ورد في مروج المسعودي ٣٥٠/٢ -٣٥١ وكامل ابن الأثير ١٠٦/٣ -١١٠، ولا يخفى عليك أن جميع تلك الصفوة التي نالها ذلك الأذى هي من صفوة صحابة المرتضى وخاصَّته.

وعجيب صبر الإمام عليه السلام في تلك الأيَّام، وهو يرى مخالب الاستئثار تنشب بفيء المسلمين في جميع البلاد، عجيب صبره وهو الذي دفع جيوش الشرك بصدره في كل المواقع فهزمها هزائم منكرة، وألبسهم لباس الذل، ومحا دولتهم من الجزيرة بسيفه هو وليس بسيف غيره، نعم كانت هناك سيوفٌ لقريش، ولكن أين هي من ذلك السيف ، لقد سكت عن الظلم الذي كان يقع هنا وهناك خوفًا من الفتنة التي كان يراها على الأبواب، وعلى الرسالة التي أوكل على صيانتها والمحافظة عليها، انظر إليه كيف ودَّع صاحبه وقد أصابه من الهوان ما لا يمكن للإمام أن يسكت عنه، ولكنه سكت وواسى بكلمات ذكَّر فيها بدنيا أبي ذرٍّ ودنيا القوم، وقال لصاحبه كما ورد في النَّهج ٣٣٠ - ٣٣١: (يا أبا ذرٍّ، إنك غضبتَ لله فارجُ من غضبتَ له، إن القوم

خافوك على دنياهم، وخِفْتَهم على دينك، فاتركْ في أيديهم ما خافوك عليه، واهرب منهم بما خِفتَهم عليه، فما أحوجهم إلى ما مَنَعْتَهم، وما أغناك عمَّا منعوك، وستعلمُ من الرَّابحُ غدًا، والأكثر حُسَّدًا؟ ولو أنَّ السماوات والأرضينَ كانتا على عبدٍ رَتْقًا ثمَّ اتَّقى الله لجعل الله له منهما مخرجًا، لا يُؤْنِسَنَّكَ إلاَّ الحقُ، ولا يوحِشَنَّكَ إلاَّ الباطل، فلو قَبِلْتَ دُنْياهم لأحبُّوك، ولو قَرَضْتَ منها لأمَّنوكَ)، أما مروان فقد سارع إلى الخليفة كي يوغر صدره، ففاز في ما أراد، ولكنَّ فوزه كان وبالاً عليه، قال عثمان لعلي: (ما حملك على ما صنعت بمروان، ولم اجترأت عليّ ورددت رسولي وأمري؟! قال: أما مروان فإنه استقبلني يردُّني، فرددته على ردِّي، وأما أمرك فلم أردَّه، قال عثمان: ألم يبلغك أني قد نهيت الناس عن أبي ذرٍّ وعن تشييعه؟ فقال علي: أو كلّ ما أمرتنا به من شيء نرى طاعة الله والحق في خلافه اتَّبعنا فيه أمرك؟ بالله لا نفعل، قال عثمان: أقد مروان، قال: مم أقيده؟ قال: ضربت بين أذني راحلته وشتمته، فهو شاتمك، وضارب بين أذني راحلتك. قال علي: أما راحلتي فهي تلك فإن أراد أن يضربها كما ضربت راحلته فليفعل. وأما أنا فوالله لئن شتمني لأشتمنَّك أنت مثلها بما لا أكذب فيه ولا أقول إلاَّ حقًّا. قال عثمان: ولم لا يشتمك إذا شتمته، فوالله ما أنت عندي بأفضل منه؟! فغضب علي بن أبي طالب وقال: إلي تقول هذا القول؟ وبمروان تعدلني؟ فأنا والله أفضل منك، وأبي افضل من أبيك، وأمي أفضل من أمِّك..فلما كان الغد واجتمع الناس إلى عثمان شكا إليهم عليًا وقال: إنه يعيبني ويظاهر من يعيبني، يريد بذلك أبا ذر وعمار بن ياسر وغيرهما، فدخل الناس بينهما حتى اصطلحا، وقال له علي: والله ما أردت بتشييع أبي ذرٍّ إلاَّ الله تعالى).

وكيف لا يكون أبو ذرّ بمثل تلك الشّدة في الوقوف بوجه أي انحراف، بل كيف يريد أبو الحسن عليه السلام غير وجه الله، وقد قال عنه المصطفى يوم التحق به لوحده مشيًا على قدميه في غزوة تبوك: «يرحم الله أبا ذرٌ، يمشي وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده، ويشهده عصابة من المؤمنين»، فلمَّا أدركه الموت في الربذة اجتاز بجنازته رهط فيه الأحنف بن قيس، ومالك الأشتر فبكيا وتذكرا حديث النبي صلوات الله وسلامه عليه ودفناه كما روى ابن أعثم في فتوحه ١/٣٧٢.

وذكر بن سعد في طبقاته ٣/٦٤ وقاربه ابن عبد ربه في عقده ٤/٢٦٣ أنه: (لمّا ولي عثمان عاش اثنتي عشرة سنة أميرًا يعمل ستَّ سنين لا ينقم الناس عليه شيئًا، وإنه لأحبَ إلى قريش من عمر بن الخطّاب لأن عمر كان شديدًا عليهم، فلمَّا وليهم عثمان لان لهم ووصلهم، ثم توانى في أمرهم واستعمل أقرباءه وأهل بيته في الست الأواخر، وكتب لمروان بخمس مِصر، وأعطى أقرباءه المال، وتأوّل في ذلك الصِّلة التي أمر الله بها، واتَّخذ الأموال، واستلف من بيت المال وقال: إن أبا بكر وعمر تركا من ذلك ما هو لهما، وإنِّي أخذته فقسمته في أقربائي، فأنكر الناس عليه ذلك..قال: أخبرنا محمد بن عمر قال: حدَّثني عبد الله بن جعفر عن أمّ بكر بنت المسوٌر عن أبيها قال: سمعت عثمان يقول: أيُّها الناس، إن أبا بكر وعمر يتأولان في هذا المال ظَلْفَ أنفسهما وذوي أرحامهما، وإني تأوّلت فيه صلة رَحِمِي).

وعلى الرغم من كلّ الظروف فقد بقي الإمام يمارس دوره أحيانًا في الرقابة والقضاء وتطبيق الحدود، فيوم شهد الشهود على الوليد بن عقبة في شربه الخمر أمر عثمان رجلاً بضرب الوليد الحدَّ بعد أن أحرجه الإمام وأصرَّ

على عقوبة الوليد، فلما دنا الرجل منه قال له الوليد: نشدتك الله وقرابتي من أمير المؤمنين فتركه، (فخاف علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن يعطِّل الحدُّ فقام إليه فحدَّه.. فقال له الوليد: نشدتك بالله وبالقرابة، فقال علي: اسكت أبا وهب، فإنما هلكت بنو إسرائيل بتعطيلهم الحدود، فضربه وقال: لتدعوني قريش بعد هذا جلاَّدها)، كما ذكر أبو الفرج في أغانيه ٥/١٣٩ وقاربه ابن عبد ربه في عقده ٦/٣٧٠.

في أيَّام الفتنة

على الرغم من الحشد الإعلامي الذي حشدته الفئة الباغية ضدَّ أمير المؤمنين عليه السلام فإن أحدًا من المؤرخين أو المحدِّثين أو أصحاب السير والأخبار لم يستطع توجيه أي اتهام للإمام بما آل إليه مصير الخليفة، بل إن جميع الأقلام الشريفة كانت بالمرصاد لكلٍّ من حاول اتهامه بالمشاركة في مقتل عثمان، وسنذكر بعض المواقف التي رصدها المؤرخون، ولا أظن أن كثيرًا منها بغائب عن أحد.

جاء في كتاب فضائل أمير المؤمنين لأحمد ٤٦٤ برقم ٣٦١ بسنده عن محمد بن علي قال: (جاء إلى عليٍّ ناس من الناس فشكوا سعاة عثمان. قال: فقال لي أبي: اذهب بهذا الكتاب إلى عثمان فقل له: إن الناس قد شكوا سعاتك، وهذا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلَّم في الصدقة، فمرهم فاليأخذوا به، قال: فأتيت عثمان فذكرت ذلك له، قال: فلو كان ذاكرًا عثمان بشيء لذكره يومئذ يعني بسوء).

ويوم استطاعت قالة السوء أن تملأ صدره حنقًا على الإمام عليه السلام، أرسل إلى عبد الله بن عباس كما ذكر ابن عبد ربه في العقد ٤/٢٨٥ وقال له:

(اكفِنِي ابنَ عمِّك) قال ابن عباس: (فقلت له: إنَّ ابن عمِّي ليس بالرجلِ يُرَى له، ولكنَّه يرى لنفسه، فأرسِلني إليه بما أحببتَ. قال: قل له فليخرج إلى ماله بينبع فلا أغتمّ به ولا يغتمّ بي، فأتيت عليًّا فأخبرته. فقال: ما اتخذني عثمان إلا ناضحًا ... فخرج إلى ينبع، فكتب إليه عثمان حين اشتدَّ الأمر: (أما بعد فقد بلغ السيل الزُّبى، وجاوزَ الحِزامُ الطُّبينِ، وطمع فيّ من كان يضْعُفُ عن نفسهِ:

فإنك لم يفخر عليك كفاخرٍ ضعيفٍ ولم يغْلِبكَ مثلُ مغَلَّبِ

فأقبِل عليَّ أيَّ أمريك أحببتَ، وكن لي أم عليّ، صديقًا كنت أم عدوًّا:

فإن كنتُ مأكولاً فكُن خيرَ آكلٍ وإلاَّ فادرِكْني ولَمَّا أمزَّقِ).

وما أن حلّت سنة خمس وثلاثين من الهجرة حتى احتشدت الحشود على باب عثمان من كلِّ حدب وصوب ستمائة رجل من مصر أو سبعمائة عليهم عبد الرحمن بن عديس البلوي، وهو من الصحابة الذين بايعوا تحت الشَّجرة، ومائة رجل من البصرة يتقدَّمهم حكيم بن جبلة العبدي، وسار مالك بن الحارث النخعي من الكوفة بمائتي رجل، كما ذكر المسعودي في مروجه ٣٥٢/٢، ونزلوا في موضع يعرف بذي خشب.

وذكر اليعقوبي في تاريخه ٧١/٢-٧٣ أنه حين اشتدَّ الحصار على عثمان ذهب مروان بن الحكم إلى السيدة عائشة فقال: (يا أمَّ المؤمنين، لو قمت فأصلحت بين هذا الرجل وبين الناس؟ قالت: قد فرغت من جهازي، وأنا أريد الحجَّ. قال: فيدفع إليك بكلِّ درهم أنفقته درهمين، قالت: لعلَّك ترى أنّي في شكٍّ من صاحبك؟ أما والله لوددت أنّه مقطَّعٌ في غرارة من غرائري، وأنّي أطيق حمله، فأطرحه في البحر)،

وذكر في الصفحة نفسها، (وكان أكثر من يؤلّب عليه طلحة والزبير وعائشة)، وذكر أن عثمان كتب إلى معاوية يسأل تعجيل القدوم عليه، (فتوجّه إليه في اثني عشر ألفًا، ثم قال: كونوا بمكانكم في أوائل الشام، حتى آتي أمير المؤمنين لأعرف صحّة أمره، فأتى عثمان، فسأله عن المدد، فقال: قد قدمت لأعرف رأيك وأعود إليهم فأجيئك بهم. قال: لا والله، ولكنك أردت أن أقتل فتقول: أنا وليّ الثّأر. ارجع، فجئني بالناس! فرجع، فلم يعد إليه حتى قتل).

واستعان الخليفة أيضًا بعمرو بن العاص كما ذكر اليعقوبي أيضًا ولكنه ألّب الناس على عثمان بدلاً من امتصاص غضبهم، فلما دخل عليه قال: (يا بن النّابغة! والله ما زِدتَ أن حرَّضت الناس عليَّ. قال: والله لقد قلت فيك أحسن ما علمت، ولقد ركِبْتُ من الناس، وركبوها منك، فاعتزل إن لم تعتدل! فقال: يا بن النابغة قَمِلَ دِرعُكَ مذ عزلتك عن مصر).

وما أن علم عثمان بذلك الحشد واشتدَّ به الأمر، وشعر أن ليس له من منقذ مما هو فيه غير عليٍّ كتب له تلك الرسالة التي سبق ذكرها، وقد رواها ابن قتيبة في عيونه ١/ ٩٠ والمبرِّد في كامله ١/ ٢٦، ولم يتأخَّر الإمام عليه السلام عن الاستجابة لطلبه، وأسرع يحث الخطى إلى داره، ودفع عنه شرَّ ذلك اليوم ولو إلى حين.

وذكر ابن قتيبة في عيونه ١/ ٢٩ عن قنبر مولى علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: (دخلت مع علي بن أبي طالب على عثمان بن عفان رضي الله عنهما فأحبَّ الخلوة فأومأ إلي علي بالتنحي فتنحَّيت غير بعيد، فجعل عثمان يعاتب عليًّا وعليٌّ مطرق، فأقبل عليه عثمان فقال: ما بالك لا تقول؟

فقال: إن قلت لم أقل إلاّ ما تكره، وليس لك عندي إلاّ ما تُحبُّ)، ولا أشكُّ في أنك تشعر بعظمة موقف أبي الحسنين عليه السلام، وبهاء كلماته على الرغم من شديد إيجازها، فهو إن قال ليس له عند عثمان إلاّ النصيحة، وما أثقلها على الخليفة لأنَّ ما يترتَّبُ عليها لا يستطيع الخليفة القيام به بعد أن انفلتت كلُّ الخيوط من يده، ولكن في ذلك الموقف الصَّعب ليس له عند المرتضى عليه السلام إلاّ النصر ودفع الأذى عنه ما استطاع إلى ذلك سبيلا، وقد فعل.

ورواية أخرى تشعرك بالبون الشَّاسع بينه عليه السلام ومن طالب من بعد بدم عثمان، ذكرها الطبري في تاريخه ٤/٤٣٠ بسنده عن مولى عثمان بن عفان عن شيخ من أهل الكوفة يحدِّثه عن شيخ آخر، قال: (حصر عثمان وعلي بخيبر، فلما قدم أرسل إليه عثمان يدعوه، فانطلق فقلت لأنطلِقَنَّ معه ولأسمعنَّ مقالتهما، فلما دخل عليه كلمه عثمان، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: فإن لي عليك حقوقًا ...ثم خرج فدخل المسجد فرأى أسامة جالسًا، فدعاه فاعتمد على يده فخرج يمشي إلى طلحة وتبعته، فدخلنا دار طلحة بن عبيد الله وهي دحاس -ممتلئة - من الناس، فقام إليه، فقال: يا طلحة، ما هذا الأمر الذي وقعت فيه؟ فقال: يا أبا الحسن، بعدما مسَّ الحزام الطُّبَّين! فانصرف عليّ ولم يُحِر إليه شيئًا حتى أتى بيت المال، فقال: افتحوا هذا الباب، فلم يقدر على المفاتيح، فقال: اكسروه؛ فكُسر باب بيت المال، فقال: أخرجوا المال، فجعل يُعطِي الناس فبلغ الذين في دار طلحة الذي صنع عليٌّ، فجعلوا يتسلّلون إليه حتَّى تُرك طلحة وحده، وبلغ الخبر عثمان، فسُرَّ بذلك، ثم أقبل طلحة يمشي عائدًا إلى دار عثمان، فقلت: والله لأنظرنَّ ما

يقول هذا ، فتبعته فاستأذن على عثمان فلما دخل عليه قال : يا أمير المؤمنين، أستغفر الله وأتوب إليه ، أردت أمرًا فحال الله بيني وبينه ، فقال عثمان : إنك والله ما جئت تائبًا ، ولكنّك جئت مغلوبًا ، والله حسيبك يا طلحة !).

وتعهد عثمان لأبي الحسن عليه السلام أن يضمن للثائرين على ما ذكر المسعودي في مروجه ٣٥٣/٢ (كلّما يريدون من العدل وحسن السيرة ، فسار عليٌّ إليهم ، فكان بينهم خطب طويل ، فأجابوه إلى ما أراد وانصرفوا) ، وقد فصَّل الطبري في تاريخه ١٠١/٤–١٠٢ من طبعة الأعلمي الأحداث ، وذكر ابن عبد ربه في عقده ٢٦٦/٤–٢٦٨ أن أهل مصر جاؤوا في سبعمائة رجل يشكون عامل عثمان ابن أبي السرح إلى صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم الذي قتل رجلاً منهم (فقام طلحة بن عبيد الله فكلَّم عثمان بكلام شديد. وأرسلت إليه عائشة : قد تقدَّم إليك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلَّم وسألوك عزل هذا الرجل فأبيت أن تعزله ، فهذا قد قتل منهم رجلاً فأنصفهم من عاملك ، ودخل عليه عليٌّ وكان متكلّم القوم ، فقال : إنما سألوك رجلاً مكان رجل ، وقد ادَّعوا قِبله دمًا ، فاعزله عنهم ، واقضِ بينهم ، وإن وجب عليه حقٌّ فأنصفهم منه. فقال لهم : اختاروا رجلاً أُوَلّه عليكم مكانه ، فأشار الناس عليهم بمحمد بن أبي بكر. فقالوا : استعمل علينا محمد بن أبي بكر ، فكتب عهده وولاه).

ولكنّ الأمر كلّه خرج من يده ، فقد بلغ من العمر عِتيًا ، وأصبح مروان يتصرَّف باستشارته أو بدونها ، بل أصبح تأثيره عليه لا حدود له ، ويبدو أنه تمكّن من خاتمه أيضًا ، فحرَّر رسالة على لسانه إلى ابن أبي السرح يأمره بالقصاص من غالبية من حضر من مصر ، ويقتل محمد بن أبي بكر الذي

ترشَّح أن يكون واليًا عليها مكان ابن أبي السرح، وتشاء الصدف أن المصريين لما وصلوا (إلى الموضع المعروف بحسمى، إذا هم بغلام على بعيرٍ، وهو مقبل من المدينة، فتأمَّلوه فإذا هو ورش غلام عثمان، فقرَّروه، فأقرَّ وأظهر كتابًا إلى ابن أبي سرح صاحب مصر، وفيه: إذا قدم عليك الجيش فاقطع يد فلان، واقتل فلانًا، وافعل بفلانٍ كذا، وأحصى أكثر من في الجيش، وأمر فيهم بما أمر) كما ذكر المسعودي في المصدر السابق، وزاد عليه ابن عبد ربِّه في عقده ٤/٢٦٦-٢٦٩ وأسهب.

حصار حتى النهاية

وعاد الناقمون إلى المدينة بنقمة يصعب الفصل فيها، وأسهب الطبري في تاريخه ٤/١٠٤-١٠٨، في ذكر ما حاجُّوه به، وكان الحصار الذي استمرَّ تسعة وأربعين يومًا، وقيل: أكثر من ذلك، ويوم أنكر الخليفة أن يكون بعث ورشًا أو غيره طالب الناقمون بمروان، ولكنه امتنع عليهم كما ذكر المسعودي في مروجه ٢/٣٥٥!!.

ومُنِعَ عثمان أثناء الحصار الماء، فطلبه ولم يبادر أحد من أهل المدينة بالاستجابة لطلبه خوفًا من الثوَّار، أو حرصًا من بعضهم أن يقتل وإن عطشًا، باستثناء عليٌّ عليه السلام الذي بعث له بثلاث قرب كما ذكر المسعودي في مروجه ٢/٣٥٣.

وتشير بعض المصادر إلى أن طلحة شارك في قطع الماء عن الخليفة، فقد ذكر ابن شبَّة في تاريخ المدينة ٤/١٢٠١ الذي روى بسنده عن ابن الكلبي الذي قال: (أرسل عثمان إلى علي رضي الله عنهما يقرئه السلام ويقول: إن فلانًا - يعني طلحة - قد قتلني بالعطش، والقتل بالسلاح أجمل من

القتل بالعطش، فخرج علي رضي الله عنه يتوكأ على يد المسور بن مخرمة حتى دخل على ذلك الرجل ... فلمَّا رآه تنحَّى عن صدر الفراش ورحَّب به، فقال علي رضي الله عنه: إن عثمان أرسل إليَّ أنكم قتلتموه بالعطش، وأن ذلك ليس يحسن، وأنا أُحِبُّ أن تدخل عليه الماء. فقال: لا والله ولا نعمة عين، لا نتركه يأكل ويشرب، فقال علي رضي الله عنه: ما كنت أرى أني أكلِّم أحدًا من قريش في شيء فلا يفعل! فقال: والله لا أفعل، وما أنت من ذلك في شيء يا علي، فقام رضي الله عنه غضبان وقال: لتعلمنَّ بعد قليل أكون من ذلك في شيء أم لا.. فلمَّا انتهى إلى منزله التفت إلى المسور فقال: أما والله ليصلينَّ حرَّها، وليكوننَّ بردها وحرَّها لغيره، ولتتركنَّ يداه منها صفرًا. ويعث ابنه إلى عثمان براوية ماء).

ومن عجبٍ أن طلحة بعد حين ليس ببعيد عنق وراء الجمل وأمامه بعد أن هيَّج ما هيَّج بحجَّة المطالبة بدم عثمان، يومها قال المرتضى عليه السلام كما ورد في النهج ٤١٠: (والله ما استعجل مُتَجَرِّدًا للطَّلَبِ بدم عثمان إلاَّ خوفًا من أن يُطالبَ بدمه لأنَّه مَظِنَّتُهُ، ولم يكن في القوم أحرصُ عليه منه، فأراد أن يُغالطَ بما أجلبَ فيه لِيُلْبِسَ الأمرَ ويَقَعَ الشَّكُّ!..)

بل إن ابن عبد ربِّه روى في عقده ٤/٢٧٣ أن المغيرة بن شعبة (دخل على عائشة فقالت: يا أبا عبد الله، لو رأيتني يوم الجمل وقد نفذت النصال هودجي حتى وصل بعضها إلى جلدي. قال لها المغيرة: وددتُ والله أن بعضها كان قتلك. قالت: يرحمك الله، ولم تقول هذا؟ قال: لعلَّها تكون كفَّارة في سعيك على عثمان. قالت: أما والله لئن قلت ذلك لما علم الله أني أردت قتله، ولكن علم الله أني أردتُ أن يقاتل فقوتلتُ، وأردتُ

أن يُرمَى فرميتُ، وأردتُ أن يُعصى فعُصيت، ولو علم مني أني أردت قتلَه لقُتِلتُ).

ويقابل هذا موقف طلحة من عثمان، الذي جاء من بعد يطلب بدم عثمان من عليٍّ عليه السلام، روى ابن الأثير في كامله ١٨٣/٣ (قيل: كان لعثمان على طلحة بن عبيد الله خمسون ألفًا، فقال له يومًا: تهيَّأ مالك فاقبضه، قال: هو لك معونة على مروءتك. قيل: فلما حُصِرَ عثمان قال علي لطلحة: أنشدك الله ألاَّ رددت الناس عن عثمان! قال: لا والله حتى تعطيني بنو أمية الحقَّ من نفسها).

ويوم ضُيِّق الخناق على عثمان دافع عنه المرتضى بما هو أعزُّ عليه من روحه، إذ أرسل إليه ولده الحسن عليه السلام، ولا أشكُّ في أنه أرسل الحسن لترويع المحاصرين بابن بنت رسول الله صلوات الله وسلامه عليهم، ذكر ابن الأثير في الكامل ١٧٥/٣ قال عثمان للحسن يوم كان محاصرًا: (إن أباك الآن لفي أمر عظيم من أمرك فأقسمت عليك لما خرجت إليه)، بل إن المسعودي ذكر في مروجه ٣٥٣/٢ أنه (بعث بابنيه الحسن والحسين مع مواليه بالسلاح إلى بابه لنصرته)، ونصُّ ابن الأثير يدلُّ دلالة ما بعدها دلالة على أن عثمان في ساعاته الأخيرة قدَّر موقف عليٍّ عليه السلام أعظم تقدير، بل إن المسعودي يذكر أيضًا أن بعض الصحابة أرسلوا بأبنائهم، وأزعم أن طلحة والزبير وغيرهما أرسلوا بأبنائهم بعدما رأوا موقف الإمام من عثمان، وذكر المسعودي في مروجه ٣٥٤/٢ أيضًا: (واشتبك القوم، وجرح الحسن، وشُجَّ قنبر، وجرح محمد بن طلحة، فخشي القوم أن يتعصَّب بنوا هاشم وبنو أميَّة، فتركوا القوم في القتال على الباب، ومضى نفر منهم إلى دار قوم من الأنصار

فتسوَّروا عليها، وكان ممن وصل إليه محمد بن أبي بكر ورجلان آخران، وعند عثمان زوجته وأهله ومواليه مشاغيل بالقتال، فأخذ محمد بن أبي بكر بلحيته، فقال: يا محمد والله لو رآك أبوك لساءه مكانك، فتراخت يده، وخرج عنه إلى الدار، ودخل رجلان فوجداه مقتولاً... ودخل عليٌّ الدار وهو كالواله الحزين، وقال: كيف قتل أمير المؤمنين وأنتما على الباب، ولطم الحسن، وضرب صدر الحسين، وشتم محمد بن طلحة، ولعن عبد الله بن الزبير، فقال له طلحة: لا تضرب يا أبا الحسن، ولا تشتم ولا تلعن، لو دفع إليهم مروان ما قتل، وهرب بنو أميَّة، وطُلِبوا ليقتلوا فلم يوجدوا، وقال عليٌّ لزوجته نائلة بنت الفرافصة: من قتله وأنت كنت معه؟ قالت: دخل إليه رجلان وقصَّت خبر محمد بن أبي بكر، فلم ينكر ما قالت، وقال: والله لقد دخلت عليه وأنا أريد قتله، فلما خاطبني بما قال خرجت ولا أعلم بتخلُّف الرجلين عنِّي، والله ما كان لي في قتله من سبب، ولقد قتل وأنا لا أعلم بقتله)، وإذا كنت أستبعد من الرواية لطم الحسن وضرب صدر الحسين لأنه كان ينظر إليهما على أنهما ابنا رسول الله صلوات الله عليهم، ولعلَّ كلامه معهما كان فيه لوم وحدَّة، فإنَّ اليقين يراودني ببقيَّة ما ورد فيها.

وذكر ابن الأثير في كامله ١٨٧/٣ : (جاء في اليوم الذي منع فيه عثمان الصلاة سعد القرظ، وهو المؤذن إلى علي بن أبي طالب فقال: من يصلي بالناس؟ فقال: ادع خالد بن زيد فدعاه فصلى بالناس، وهو أوَّل يوم عرف أن اسم أبي أيوب الأنصاري خالد بن زيد فصلى أيَّامًا... ثم صلى علي بالناس العيد)، وكذا قال ابن الجوزي في منتظمه ٣٠٨/٣، وفي أول يوم من

أيّام عرفة من ذلك العام صلّى أبو أيوب الأنصاري بالناس كما ذكر باقتراح منه عليه السلام، فلم يعترض عليه أحد، والغالب على الظنّ أن سعيدًا لم يأت باب عليٍّ إلا بطلب من عثمان.

ولم يتخلَّ الإمام عليه السلام عن عثمان حتى ساعته الأخيرة، روى ابن سعد في طبقاته ٣/٦٨ -٦٩ بسنده عن أبي فَزارة العبسي (أنَّ عثمان بعث إلى عليٍّ وهو محصور في الدَّار أن ائتِني، فقام ليأتيه، فقام بعض أهل علي حتى حبسه وقال: ألا ترى إلى ما بين يديك من الكتائب؟ لا تخلُصُ إليه، وعلى علي عمامة سوداء فنقضها على رأسه ثمَّ رمى بها إلى رسول عثمان، وقال: أخبره بالذي رأيت، ثمَّ خرج عليٌّ من المسجد حتى انتهى إلى أحجار الزيت في سوق المدينة، فأتاه قتله فقال: اللهمَّ إني أبرأ إليك من دمه أن أكون قلتُ أو مالأتُ على قتله)، وروى أحمد في فضائل أمير المؤمنين ١٣١ برقم ٩٣أن ابن الحنفية قال: (كنت مع علي وعثمان محصور، قال: فأتاه رجل فقال: إن أمير المؤمنين مقتول. ثم جاء آخر فقال: إن أمير المؤمنين مقتول الساعة، قال: فقام علي، قال محمد: فأخذت بوسطه تخوُّفًا عليه فقال: خلِّ عنِّي لا أمَّ لك. قال: فأتى علي الدار وقد قتل الرجل، فأتى داره فدخلها وأغلق عليه بابه).

وذكر ابن قتيبة فذكر في معارفه ١٩٧ عن ابن إسحاق أنه قتل يوم الأربعاء ودفن يوم السبت قبل الظهر، وروى عن الواقدي أنه قتل يوم الجمعة لثمان ليال خلون من ذي الحجة سنة خمس وثلاثين وهو ابن اثنتين وثمانين سنة، وقال: هذا ما لا خلاف فيه. وروى المسعودي في مروجه ٢/٣٥٥ أنه (قتل في ليلة الجمعة لثلاث بقين من ذي الحجَّة)، أما الذهبي فذكر في عبره ١/٢٦

ليلة الجمعة لثلاث بقين من ذي الحجَّة)، أما الذهبي فذكر في عبره ١/ ٢٦ (حصر المصريون عثمان رضي الله عنه لينزع نفسه من الخلافة، ولم يزل الأمر بهم إلى أن تجرَّؤوا عليه واقتحموا عليه داره فذبحوه والمصحف بين يديه في يوم الجمعة ثاني عشر ذي الحجَّة، وله بضع وثمانون سنة)،

وبعد مصرعه بقي جثمانه فلم يدفن وسط ذلك الهرج والمرج واستيلاء الثوَّار على المدينة، وكان من الصَّعب أن يوارى لولا أمير المؤمنين عليه السلام أيضًا، ذكر ابن الأثير في كامله ٣/ ١٨٠ (قيل: بقي عثمان ثلاثة أيام لا يدفن، ثم إن حكيم بن حزام وجبير بن مطعم كلّما عليًّا في أن يأذن في دفنه ففعل، فلما سمع من قصده بذلك قعدوا له في الطريق بالحجارة، وخرج به ناس يسير من أهله وغيرهم وفيهم الزبير والحسن وأبو جهم ومروان بين المغرب والعشاء، ودفنوه في موضع يسمى حش كوكب، وهو خارج البقيع، وصلى عليه جبير بن مطعم، وقيل حكيم بن حزام، وقيل: مروان، وجاء ناس من الأنصار ليمنعوا من الصلاة عليهم تركوهم خوفًا من الفتنة، وأرسل علي إلى من جلس على الطريق لما سمع بهم فمنعهم. وقيل: إنما دفن بالبقيع مما يلي حش كوكب، وقيل: شهد جنازته علي وطلحة وزيد بن ثابت وكعب بن مالك وعامة ثم من أصحابه)، ويبدو أن وجود مروان في المدينة خلال تلك الظروف يبدو مستحيلاً، ولا أظنه حضر دفن أو صلاة، ويغلب على الظن أنه اغتنم أول فرصة سانحة فهرب لأنه كان طلبة الثوار.

بيعة الإمام

وذهب الشيخ الذي جاوز الثمانين بسنتين في ما قيل بسبب تسليمه مقاليد الأمور إلى غير أهلها، وتهاونه في المال العام تهاونًا جرَّ عليه النِّقمة ليس من الأمصار الإسلاميَّة فحسب، وإنما من أقرب صحابته إليه، وبسبب سيطرة طلقاء قريش عليه، لم يعد بإمكانه الصدور إلاَّ عن رأيها ومشورتها، ذهب في يوم من شهر ذي الحجة اختلف فيه وفي تاريخه سنة خمس وثلاثين للهجرة بعد حصار اختلف في عدد أيَّامه أيضًا كما ذكر ابن سعد في طبقاته ٣/ ٣١ والمسعودى في مروجه ٢/ ٣٥٤/ ٤٢٧–٤٤١ وابن عبد ربه في عقده ٤/ ٢٨٦ وابن خلدون في تاريخه ٢/ ٥٧٥–٥٧٧ وغيرهم.

وليس تاريخ الأحداث باليوم والساعة من همومي، لأني ما وقفت على حدث اتُّفقت المصادر على تاريخه، ولكنها قد تضطرني إلى محاولة الاقتراب منها بسبب علاقتها بمسيرة المرتضى، أو لإظهار حقٍّ غيَّبه باطل. وإذا كان المؤرخون قد اختلفوا في تواريخ تلك الفترة العصيبة، فمن الطبيعي أن يختلفوا أيضًا في يوم بيعة أمير المؤمنين العامة، وفي الأيام التي بقيت الأمة فيها بلا حاكم ما بين يوم وسبعة أيام، ولكنَّ الذي عليه غالبيَّة المؤرخين أنها كانت أربعة.

كان جلَّ همِّي الاقتراب من بهاء الإمام عليه السلام في دامس تلك الأيام التي خيمت على المدينة وأطبقت عليها، لمعرفة كيف تصرف خلالها، لأن ما كتب عنها من يوم الله ذاك إلى يومه هذا من الصعب أن يجمع في سفر بسبب ما

خلّفته من عنقاوات وغيلان مازالت تسرح وتمرح في بلاد المسلمين . وقالوا: إن الإمام عليه السلام بويع في يوم الجمعة لخمس بقين من ذي الحجة كما رجّح الطبري في تاريخه ٤٣٦/٤ وابن الجوزي في منتظمه٣١٥/٣ -٣١٧، وابن الأثير في كامله ١٩٤/٣، وإذا ترجّحت بيعته في يوم الجمعة فإن ما بينها وبين مصرع عثمان سبعة أيّام وليس أربعة، أو يكون يوم مصرع عثمان غير اليوم الذي ذكر، وقال اليعقوبي في تاريخه ٧٥/٢: إنها كانت في يوم الثلاثاء لسبع ليال بقين من ذي الحجة سنة خمس وثلاثين للهجرة، وذكر المسعودي في مروجه ٣٥٩/٢ أنها كانت في اليوم الذي قتل فيه عثمان، وقال أيضًا: (وقد قيل: إنه بويع البيعة العامة بعد قتل عثمان بأربعة أيّام)، أما ابن سعد فقال في طبقاته ٣١/٣ (قتل عثمان يوم الجمعة بعد ثماني عشرة ليلة مضت من ذي الحجة، وبويع علي الغد من يوم قتل عثمان) أي في يوم السبت لتسع عشرة ليلة مضت من الشهر المذكور، وإلى ذلك ذهب ابن كثير في بدايته ٢٥٣/٧.

وذكر الحاكم في المستدرك ١١٤/٣ أن الراوايات قد اختلفت في بيعة عليٍّ فقيل: بويع بعد أربعة أيام من مقتل عثمان، وقيل: بعد خمس، وقيل: بعد ثلاث، وقيل: بويع يوم الجمعة لخمس بقين من ذي الحجة، وقيل: بايع عقيب قتل عثمان في دار عمرو بن محمد الأنصاري، (وأصح الروايات إنه امتنع عن البيعة إلى أن دفن عثمان ثم بويع على منبر رسول الله صلى الله عليه وآله)، ولما بويع (قال خزيمة بن ثابت، وهو واقف بين يدي المنبر:

إذا نحن بايعنا عليًّا فحسبنا ... أبو حسن مما نخاف من الفتن

وجدناه أولى الناس بالناس إنه ... أطبُّ قريشًا بالكتاب وبالسنن

وإن قريشًا ما تشقُّ غباره إذا ما جرى يومًا على الضمَّر البدن
وفيه الذي فيهم من الخير كلّه وما فيهم كل الذي فيه من حَسَن

وقال ابن سعد في المصدر السابق: إن من بين من بايعه (طلحة، والزبير، وسعد بن أبي وقّاص، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، وعمّار بن ياسر، وأسامة بن زيد، وسهل بن حُنيف، وأبو أيّوب الأنصاري، ومحمد بن مسلمة، وزيد بن ثابت، وخزيمة بن ثابت، وجميع من كان بالمدينة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلّم وغيرهم)، وقال الشيخ اليوسفي في موسوعته ٤٣٢/٤ (لعلها كانت يوم الاثنين ٢١ ذي الحجة).

والروايات حول من بايعه عليه السلام أو تخلّف عن بيعته، وفي ما دار فيها من أحاديث يشوبها خلاف، وهو طبيعي بسبب التاريخ الذي تأخّر تدوينه، وبسبب الأحداث الرهيبة التي واكبتها أو التي جاءت بعدها، وبسبب حضور بعضهم جانبًا منها، وحضور غيرهم جانبًا آخر، وبسبب اختلاف مواقف بعض الرجال واختلاف أهوائهم، ولا يبعد عن البال أن سماع الرواة قد التبس في أحيان نتيجة للغط الشّديد الذي واكب بيعته ما بين رفضه الشديد وإصرارهم القاطع، ولكنّ الراجح أن القوم باتوا أيامًا يدورون حول أنفسهم، وحوله إذ لم يجدوا أحدًا يصلح لها غيره، ولكنّ الشيء الوحيد الذي تتفق عليه النصوص التي ذكرها المؤرخون أنه رفضها عليه السلام جملة وتفصيلاً بعد ذهاب جميع خيرها الذي كان يأمل فيه تطبيق رؤيته الإسلامية في الحكم، وعلى الرغم من تقوُّل المتقوّلين من أقرب الناس ومن أبعدهم في أمر قبوله البيعة فإنه ما كان باستطاعته ترك كل ذلك الجهاد في سبيل الله

وبين يدي رسول الله يذهب هباء، فيطمع بأمة الإسلام من يستطيع الانحراف بها عن مسارها ويأخذها أخذ مقتدر فيحولها إلى ملك عضوض يذهب بدعوة سيِّد الكائنات كلَّ مذهب، وكان له وازع من دينه يمنعه من الإصرار على الرفض بعد أن اجتمعت عليه الكلمة وطوقته الأحداث ولاسيما أنه قطبها الذي كانت تدور عليه، وليس من مندوحة أمامه للهرب منها.

ولم تعد لقريش في تلك الأيَّام الحالكة هيبة ولا سطوة بحيث تستطيع الاعتراض أو التصدِّي لبيعة الإمام عليه السلام، أو تقديم أيّ مقترحٍ غيرها، فما عادت لها كلمة، ولا قول فصل، ولو كانت ما فكَّر أحدهم ببيعته، بل إن غالبية الرؤوس التي أحاطت بعثمان سرعان ما فرَّت من المدينة بعد مصرعه أو في أثنائه، كما أن من طمع بالحكم بعد أن تطاولت الرؤوس لم تجد لأصواتها أذنًا صاغية، بل أصابها الرعب خوفًا على رؤوسها أن تحصد إن هي قررت المشاكسة أو العناد أو الالتفاف بطريقة أو بأخرى.

ولم يكن باستطاعة الإمام عليه السلام الرفض أيضًا بعد ذلك التهديد الذي أعلنه القوم على رؤوس الأشهاد بقتل وجوه الصحابة البارزين، لأنَّ إصراره في تلك الظروف الحالكة يعني إراقة أنهار من الدماء في مدينة رسول الله، وإشعال نار فتنة تأتي على الأخضر واليابس فيها وفي غيرها، ولاسيما أنَّ الجميع يعلم أنه ليس لها إلاَّ عليّ، ولا يستطيع أحد أن يُقَدَّمَ لها أو يتقدَّم سواه، وهو لا يريدها حقًّا، وكان عليه السلام بين أمرين أحلاهما مرٌّ في تلك الغائمة، أن يقبل ببيعتهم وهو يعلم إلى أين ستذهب به وبهم، أو يتنحَّى عنها فيترك إرث رسول الله صلوات الله وسلامه عليه نهبًا للمتربِّصين يذهبون به حيث يشاؤون في وقت مازال فيه

الإسلام بأمس الحاجة إلى دوره عليه السلام، وإن كانت نتيجته التضحية بحياته، وفعلاً كان له ما أراد ففاز بالحسنيين، حسنى ترسيخ قواعد الإسلام الكبرى، وحسنى الفوز بالشهادة.

وذكر ابن الأثير في أسده ٣/ ٦٠٩ بسنده عن سعيد بن المسيَّب قال: (لما قتل عثمان جاء الناس كلهم إلى علي يُهْرَعون، أصحاب محمد وغيرهم، كلُّهم يقول: أمير المؤمنين علي، حتى دخلوا عليه داره فقالوا: نبايعك فمدَّ يدك، فأنت أحق بها، فقال عليٌّ عليه السلام: ليس ذلك إليكم، وإنما ذاك إلى أهل بدر، فمن رضي به أهل بدر فهو خليفة، فلم يبق أحد إلاَّ أتى عليًّا، فقالوا: ما نرى أحدًا أحقَّ بها منك، فمدَّ يدك نبايعك. فقال: أين طلحة والزبير؟ فكان أوّل من بايعه طلحة بلسانه، وسعد بيده، فلمَّا رأى علي ذلك خرج إلى المسجد، فصعد المنبر، فكان أول من صعد إليه فبايعه طلحة، وتابعه الزبير وأصحاب النبي صلى الله عليه وسلَّم ورضي عنهم جميعًا)، وإذا صحَّت الرواية فإن تصرُّف الإمام عليه السلام يكون في غاية الحكمة، فليست الخلافة فلتة يتولاَّها من يسبق إليها، كما أنها ليست شورى محصورة بنفر من قريش، وإن كانوا من أهل السابقة، وإنما هي للسابقين المؤمنين من المهاجرين والأنصار ممن دافع عن الإسلام بنفسه وماله، وقاتل أشدَّ القتال لإعلاء كلمته، وقد رأى بثاقب نظره أن أقرب المسلمين إلى هذه المنزلة هم أهل بدر، وبهذا يشارك في الانتخاب كل من شارك فيها من المهاجرين والأنصار، وقد أكَّد ذلك ابن عبد ربِّه في عقده ٤/ ٢٦٨، وهكذا يكون عليه السلام قد وضع قاعدة للحكم في الإسلام كان من نكد طالع المسلمين أنها هي أو ما يقترب منها لم تطبق في اختيار خليفة أو حاكم من بعده.

وروى ابن كثير في البداية والنهاية ٥/ ٣٢٠ (فلما قتل عثمان يوم الجمعة لثمان عشرة خلت من ذي الحجَّة سنة خمس وثلاثين على المشهور عدل الناس إلى علي فبايعوه قبل أن يدفن عثمان، وقيل بعد دفنه، وقد امتنع علي من إجابتهم إلى قبول الإمارة حتى تكرَّر قولهم له، وفرَّ منهم إلى حائط بني عمرو بن مبدول، وأغلق بابه فجاء الناس فطرقوا الباب وولجوا عليه، وجاؤوا معهم بطلحة والزبير، فقالوا له: إن هذا الأمر لا يمكن بقاؤه بلا أمير، ولم يزالوا به حتى أجاب).

ولم يكن في مقدور من أحاط بالمدينة من العراقيين والمصريين وغيرهم تركها بدون خليفة، بل لعلَّ الخوف بدأ يساورهم بعد مرور خمسة أيّام أو أقل أو أكثر على مصرع عثمان، وهو خوف مدمِّر قد يدفع إلى ما لا تحمد عقباه، ولعلَّ أقرب النصوص التي يمكن أن تقرِّب الأمر وتسمح بالنظر فيه من بين ركام الروايات التي تدخَّلت في صياغتها الأهواء روايات ذكرها الطبري في تاريخه ٤/ ٤٣٣–٤٣٤ الأولى عن أبي حارثة وأبي عثمان قالا: (لما كان يوم الخميس على رأس خمسة أيّام من مقتل عثمان رضي الله عنه، جمعوا أهل المدينة فوجدوا سعدًا والزبير خارجين، ووجدوا طلحة في حائط له، ووجدوا بني أميَّة قد هربوا إلاَّ من لم يطق الهرب، وهرب الوليد وسعيد إلى مكَّة في أوَّل من خرج، وتبعهم مروان، وتتابع على ذلك من تتابع فلمّا اجتمع أهل المدينة قال لهم أهل مصر: أنتم أهل الشورى، وأنتم تعقدون الإمامة، وأمركم عابر على الأمة، فانظروا رجلاً تنصِّبونه، ونحن لكم تبع. فقال الجمهور: علي بن أبي طالب نحن به راضون)، وقال: (فقالوا لهم: دونكم يا أهل المدينة فقد أجَّلناكم يومين، فوالله لئن لم تفرغوا لنقتلنَّ غدًا

عليًّا وطلحة والزبير وأناسًا كثيرًا، فغشي الناس عليًّا فقالوا: نبايعك فقد ترى ما نزل بالإسلام، وما ابتلينا به من ذوي القربى، فقال علي: دعوني والتمسوا غيري، فإنَّا مستقبلون أمرًا له وجوه وله ألوان، لا تقوم له القلوب، ولا تثبت عليه العقول، فقالوا: ننشدك الله ألا ترى ما نرى، ألا ترى الإسلام! ألا ترى الفتنة! ألا تخاف الله! فقال: قد أجبتكم لما أرى، واعلموا إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم، وإن تركتموني فأنا كأحدكم، إلا أني أسمعكم وأطوعكم لمن ولّيتموه أمركم ثمَّ افترقوا على ذلك، واتَّعدوا الغد).

وذكر قريبًا من كل هذا ابن الجوزي في منتظمه ٣/٣١٦–٣١٧، ولكن يوم بايعوه على شرطه عليه السلام في خضمٌ تلك الأنواء العاصفة هل ركبوا معه سفينة النجاة التي كان لابد من ركوبها كي يتحقّق عدل الله الذي أراد أن يعبر بهم إليه؟!!!

وروى الطبري في تاريخه ٤/٤٣٤ أيضًا أن الناس تشاوروا (في ما بينهم وقالوا: إن دخل طلحة والزبير فقد استقامت، فبعث البصريون إلى الزبير بصريًّا وقالوا: أحذر لا تحادّه - وكان رسولهم حُكَيم بن جبلة العبدي في نفر - فجاءوا به يحدُّونه بالسيف، وإلى طلحة كوفيًّا، وقالوا له: أحذر لا تحادّه، فبعثوا الأشتر في نفر فجاءوا به يحدُّونه بالسيف، وأهل الكوفة وأهل البصرة شامتون بصاحبهم، وأهل مصر فرحون بما اجتمع عليه أهل المدينة، وقد خشَّع أهل الكوفة وأهل البصرة أن صاروا أتباعًا لأهل مصر وحشوة فيهم، وازدادوا بذلك على طلحة والزبير غيظًا، فلماَّ أصبحوا من يوم الجمعة حضر الناس المسجد، وجاء علي حتى صعد المنبر، فقال: أيها الناس - عن ملأ وإذن - إن هذا أمركم ليس لأحد فيه حقٌ إلاّ من أمرتم، وقد افترقنا

بالأمس على أمر، فإن شئتم قعدت لكم، وإلاّ فلا أجد على أحد. فقالوا: نحن على ما فارقناك عليه بالأمس، وجاء القوم بطلحة فقالوا: بايع، فقال: إني إنما أبايع كرهًا، فبايع -وكان به شلل- أول الناس، وفي الناس رجل يعتاف، فنظر من بعيد، فلمَّا رأى طلحة أول من يبايع قال: إنا لله وإنَّا إليه راجعون! أول يد بايعت أمير المؤمنين يدٌ شلاّءُ، لا يتم هذا الأمر! ثمَّ جيء بالزبير فقال مثل ذلك وبايع -وفي الزبير اختلاف- ثمَّ جيء بقوم كانوا قد تخلَّفوا فقالوا: نبايع على إقامة كتاب الله في القريب والبعيد، والعزيز والذليل، فبايعهم؛ ثمَّ قام العامَّة فبايعوا)، وأخبر الطبري أيضًا في ٤/٤٣٤ بسنده (عن عوف قال: أما أنا فأشهد أني سمعت محمد بن سيرين يقول: إن عليًّا جاء فقال لطلحة: ابسط يدك يا طلحة لأبايعك، فقال طلحة: أنت أحق، وأنت أمير المؤمنين، فابسط يدك، قال: فبسط علي يده فبايعه)، وقد لا أستبعد هذه الرواية أو تلك، فكلٌّ خائفٌ من ناحية، وكلٌّ يرى أيضًا أنه لابد أن يكون له من نصيب في الخلافة القادمة أو منها، وفي الوقت ذاته كلٌّ خائف على رأسه أن تقطف في زحمة السيوف التي شُهِرَت، وليس بمستبعد أيضًا التباس الباطل بالحقّ في تلك المدلهمّة فأعمى كثيرًا من البصائر، ولكنَّ بصيرة واحدة كانت على بيِّنة من الأمر كلّه هي بصيرة أمير المؤمنين عليه السلام. لذا أراد أن يكون وزيرًا لهم رقيبًا على أعمالهم إلى أن يحين وقت قيام فعندها يقوم، ومن يتأخر عن القيام معه في حينها يذهب إلى ما أراد من غضب الله.

وأخرى ذكرها الطبري في تاريخه ٤/٤٢٧ أيضًا مرفوعة عن محمد بن الحنفية قال: (كنت مع أبي حين قتل عثمان رضي الله عنه، فقام فدخل

منزله، فأتاه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلّم، فقالوا: إن هذا الرجل قد قتل، ولابد للناس من إمام، ولا نجد اليوم أحدًا أحقَّ بهذا الأمر منك؛ لا أقدم سابقة، ولا أقرب من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: لا تفعلوا، فإني أكون وزيرًا خيرٌ من أن أكون أميرًا؛ فقالوا: لا والله ما نحن بفاعلين حتى نبايعك، قال: ففي المسجد، فإن بيعتي لا تكون خَفيًّا، ولا تكون إلاّ عن رضا المسلمين. قال سالم بن أبي الجعد: فقال ابن عباس: فلقد كرهت أن يأتي المسجد مخافة أن يُشْغَبَ عليه، وأبى هو إلا المسجد، فلمَّا دخل دخل المهاجرون والأنصار فبايعوه، ثم بايعه الناس)، وقد ذكر الرواية بسندها عن محمد بن الحنفية أيضًا ابن الجوزي في منتظمه ٣/٣١٥، ويغلب على الظن أن اسم ابن عبَّاس حشر فيها لغير مناسبة لأنه وصل إلى المدينة بعد تمام البيعة، إذ كان على الحجِّ لتعذُّرِ خروج الخليفة بالناس ذلك العام.

وأخرى ذكرها الطبري في تاريخه ٤/٤٢٧–٤٢٨ أيضًا عن أبي بشير العابدي قال: (كنت بالمدينة حين قتل عثمان رضي الله عنه، واجتمع المهاجرون والأنصار، فيهم طلحة والزبير، فأتوا عليًّا فقالوا: يا أبا حسن؛ هلمَّ نبايعك، فقال: لا حاجة لي في أمركم، أنا معكم فمن اخترتم فقد رضيت به فاختاروا والله، فقالوا: ما نختار غيرك؛ قال: فاختلفوا إليه بعد ما قتل عثمان رضي الله عنه مرارًا، ثمَّ أتوه في آخر ذلك، فقالوا له: إنه لا يصلح الناس إلاّ بإمرة، وقد طال الأمر، فقال لهم: إنكم قد اختلفتم إليَّ وأتيتم، وإني قائل لكم قولاً إن قبلتموه قبلت أمركم، وإلاّ فلا حاجة لي فيه. قالوا: ما قلت من شيء قبلناه إن شاء الله. فجاء فصعد المنبر، فاجتمع الناس

إليه، فقال: إني قد كنت كارهًا لأمركم، فأبيتم إلا أن أكون عليكم، ألا وإنه ليس لي أمر دونكم، إلاَّ مفاتيح مالكم معي، ألا وإنه ليس لي أن آخذ منه درهمًا دونكم، رضيتم؟ قالوا: نعم، قال: اللهم اشهد عليهم، ثم بايعهم على ذلك)، وصدق الصدِّيق فلم يأخذ منه دونهم درهمًا أو دينارًا إلى أن فارقهم وذهب إلى جوار أخيه صلوات الله وسلامه عليهما.

وأخرى ذكرها الطبري في تاريخه ٤٢٨/٤ أيضًا عن أبي المليح قال: (لما قتل عثمان رضي الله عنه، خرج علي إلى السوق، وذلك يوم السبت لثماني عشرة ليلة خلت من ذي الحجَّة، فاتَّبعه الناس وبهشوا في وجهه، فدخل حائط بني عمرو بن مبذول، وقال لأبي عمرة بن عمرو بن محصن: أغلق الباب، فجاء الناس فقرعوا الباب، فدخلوا، فيهم طلحة والزبير، فقالا: يا علي ابسط يدك. فبايعه طلحة والزبير، فنظر حبيب بن ذؤيب إلى طلحة حين بايع، فقال: أول من بدأ بالبيعة يد شلاَّء، لا يتم هذا الأمر! وخرج علي إلى المسجد فصعد المنبر وعليه إزار وطاق وعمامة خزٍّ، ونعلاه في يده متوكئًا على قوس؛ فبايعه الناس، وجاءوا بسعد، فقال علي: بايع، قال: لا أبايع حتى يبايع الناس، والله ما عليك مني بأس؛ قال: خلُّوا سبيله. وجاءوا بابن عمر، فقال: بايع، قال: لا أبايع حتى يبايع الناس، قال: ائتني بحميل -كفيل-، قال: لا أرى حميلاً، قال الأشتر: خلِّ عنِّي أضرب عنقه، قال علي: أنا حميله، إنك - ما علمت - لسيِّئ الخلق صغيرًا وكبيرًا)، وقد أستبعد أن تكون جملة (إنك سيئ الخلق) قد صدرت من الإمام عليه السلام، وقد تكون أُلحقت في الرواية من بعد، وحشرت فيها حشرًا، فما رأيناه أجبر ممتنعًا عن بيعته على مبايعته، وقد نعتهم يوم سئل عنهم أنهم (خذلوا الحقَّ ولم ينصروا الباطل).

وأخرى ذكرها الطبري في تاريخه ٤٢٩/٤ أيضًا عن عبد الله بن الحسن قال: (لَمّا قتل عثمان رضي الله عنه بايعت الأنصار عليًّا إلاّ نُفَيْرًا يسيرًا، منهم حسَّان بن ثابت، وكعب بن مالك، ومسلمة بن مخلّد، وأبو سعيد الخدري، ومحمد بن مسلمة، والنعمان بن بشير، وزيد بن ثابت، وفضالة بن عبيد، وكعب بن عُجْرة، كانوا عثمانية، فقال رجل لعبد الله بن الحسن: كيف أبى هؤلاء بيعة علي! قال: أما حسَّان فكان شاعرًا لا يبالي ما صنع، وأما زيد بن ثابت فولاّه عثمان الديوان وبيت المال، فلمَّا حصر عثمان، قال: يا معشر الأنصار، كونوا أنصارًا لله مرَّتين، فقال أبو أيوب: ما تنصره إلاّ أنه أكثر لك من العِضدان. وأمَّا كعب بن مالك فاستعمله على صدقة مُزَيْنة وترك ما أخذ منهم له)، ولا أدل على صدق أبي أيوب من حكاية ذكرها اليعقوبي في تاريخه ٦٤/٢ جرت قبل تولي زيد مفاتيح بيت المال تقرِّب لك سبب امتناعه عن بيعة أمير المؤمنين عليه السلام: (وكان عثمان إذا أجاز أحدًا من أهل بيته بجائزة جعلها فرضًا في بيت المال، فجعل يدافعه -أي خازن بيت المال - ويقول له: يكون فنعطيك إن شاء الله فألحَّ عليه، فقال: إنما أنت خازن لنا، فإذا أعطيناك فخذ، وإذا سكتنا عنك فاسكت. فقال: كذبت والله! ما أنا لك بخازن، ولا لأهل بيتك إنما أنا خازن المسلمين. وجاء بالمفتاح يوم الجمعة وعثمان يخطب، فقال: أيها الناس، زعم عثمان إنِّي خازن له ولأهل بيته، وإنما كنت خازن المسلمين، وهذه مفاتيح بيت مالكم، ورمى بها، فأخذها عثمان ودفعها إلى زيد بن ثابت).

وقال الطبري: في تاريخه أيضًا ٤٣٠/٤ أيضًا: (وحدثني من سمع الزهري يقول: هرب قوم من المدينة إلى الشام ولم يبايعوا عليًّا، ولم يبايعه قدامة بن مظعون، وعبد الله بن سلام، والمغيرة بن شعبة. وقال آخرون: إنما

بايع طلحة والزبير عليًا كرهًا، وقال بعضهم: لم يبايعه الزبير)، وليس غريبًا أن يقف زيد بن ثابت ذلك الموقف، ويتبعه فيه أخوه حسان، فبالإضافة إلى ما ولاّه عليه عثمان، فإن رابطًا آخر لا أشك أن عصبيّته تدفع ذلك البيت إلى مؤازرة عثمان، فيوم آخى النبيُّ صلى الله عليه وآله وسلّم بين المهاجرين والأنصار آخى بين عثمان وأوس أخيهما ونزل عليه عثمان عند هجرته كما روى ابن سعد في طبقاته ٣/ ٥٤.

وذكر اليعقوبي في تاريخه ٢/ ٧٥ -٧٦ أنه لم يتأخر عن بيعته إلاّ ثلاثة من قريش هم مروان بن الحكم، وسعيد بن العاص، والوليد بن عقبة، ثم كلمه الوليد بلسانهم فقال: (يا هذا إنك قد وترتنا جميعًا، أما أنا فقتلت أبي صبرًا يوم بدر، وأما مروان فشتمت أباه وعبت على عثمان يوم ضمه إليه.... فتابعنا على أن تضعه عنّا ما اصبنا، وتعفي لنا عمًّا في أيدينا، وتقتل قتلة صاحبنا)، وكان جوابه قاطعًا لا لبس فيه إذ قال: (أما ما ذكرت من وتري إياكم فالحق وتركم، وأما وضعي عنكم ما أصبتم، فليس لي أن أضع حقَّ الله تعالى؛ وأما إعفائي عما في أيديكم فما كان لله وللمسلمين فالعدل يسعكم، وأما قتلي قتلة عثمان، فلو لزمني قتلهم اليوم لزمني قتالهم غدًا، ولكن لكم أن أحملكم على كتاب الله وسنة نبيه، فمن ضاق عليه الحق، فالباطل عليه أضيق، وإن شئتم فالحقوا بملاحقكم، فقال مروان: بل نبايعك، ونقيم معك، فترى ونرى).

تلك أهم الروايات التي ذكروها، وهناك أخر، ولكنّها بجميعها تثبت لك بما لا جدال فيه أنه أراد لهم عليه السلام عزَّ الدارين، بعد أن تنازل لهم عن جميع ما يطمع به الطامعون، ولكنَّ بعضهم أراد شيئًا آخر، فذهب هو بكلِّ مجد الدّارين، وكان الخسران من نصيبهم.

على أن بعضًا من ذلك النفر الذي لم يبايع ندم على موقفه ذلك ولكن لات حين مندم، منهم عبد الله بن عمر الذي قال: (ما آسى على شيء إلاّ أني لم أقاتل مع علي الفئة الباغية)، وقد رواه ابن عبد البرّ في استيعابه ١١١٧/٣ من غير طريق، ومن عجيب ما قرأته في شرح نهج البلاغة ١٧٦/١٣ ما ذكره أبو جعفر الإسكافي شيخ ابن أبي الحديد أن عبد الله بن عمر الذي لم يبايع أمير المؤمنين (طرق على الحجاج بابه ليلاً ليبايع لعبد الملك؛ كي لا يبيت تلك الليلة بلا إمام، زعم. لأنه روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «من مات ولا إمام له مات ميتة جاهلية» حتى بلغ من احتقار الحجاج له واسترذال حاله، أن أخرج رجله من الفراش، فقال: أصفق بيدك عليها)، وروى عن الشعبي أنه قال: (ما مات مسروق حتى تاب إلى الله عن تخلُّفه عن القتال مع علي...وروى من حديث علي، ومن حديث ابن مسعود، ومن حديث أبي أيوب الأنصاري أنه أمر بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين، ورُوي عنه أنه قال: ما وجدتُ إلاّ القتال أو الكفر بما أنزل الله).

ولا أعجب من خلق عليٍّ عليه السلام وحكمته وطول أناته، فإنه لم يجبر أحدًا على بيعته ولا رغّب بها، فكانت بيعته فلتة أخرى ما عرف تاريخ المسلمين ولا تاريخ الإنسانيّة مثيلاً لها، وشتّان بين الفلتتين، وقد روى ابن عبد البر بسنده في استيعابه ١١٢١/٣ يوم سئل الإمام عن تلك الفئة التي تخلّفت عن بيعته فقال في رواية: (أولئك قوم قعدوا عن الحق، ولم يقوموا مع الباطل)، وفي أخرى (أولئك قوم خذلوا الحقّ، ولم ينصروا الباطل)، وفي رواية ابن الأثير في أسده ٦١٠/٣ (أولئك قعدوا عن الحقّ، ولم ينصروا الباطل).

ويبدو أن النفر المدني الذي لم يبايع عن عداوة وسابق إصرار فضَّل الشام أو مكَّة على المدينة، وبقي قسم منهم فيها، ولمَّا شعروا أن كلامهم بمسمع منه عليه السلام دخلوا عليه فقال له كعب: (يا أمير المؤمنين، أخبرنا عن عثمان أقتل ظالمًا، فنقول لك؟ أم قتل مظلومًا فتقول بقولنا، ونكلك إلى الشبهة فيه، فالعجب من تيقننا وشكك، وقد زعمت العرب أن عندك علم ما اختلفنا فيه فهاته نعرفه... فقال لهم عليه السلام: لكم عندي ثلاثة أشياء: استأثر عثمان فأساء الأثرة، وجزعتم فأسأتم الجزع، وعند الله ما تختلفون فيه إلى يوم القيامة. فقالوا: لا ترضى بهذا العرب، ولا تعذرنا به، فقال علي عليه السلام: أتردون عليَّ بين ظهرانَي المسلمين بلا بيِّنة صادقة، ولا حجَّة واضحة؟ اخرجوا عنِّي، ولا تجاوروني).

وروى الطبري في تاريخه ٤٣١/٤ عن أبي بكر بن إسماعيل بن محمد بن سعد بن أبي وقَّاص عن أبيه عن سعد قال: (قال: طلحة: بايعت والسيف فوق رأسي، فقال سعد: لا أدري والسيف على رأسه أم لا، إلاَّ أني أعلم أنه بايع كارهًا، قال: وبايع الناس عليًّا بالمدينة، وتربَّص سبعة نفر فلم يبايعوه؛ منهم سعد بن أبي وقَّاص، ومنهم ابن عمر، وصهيب، وزيد بن ثابت، ومحمد بن سلمة، وسلمة بن وقش، وأسامة بن زيد، ولم يتخلَّف أحد من الأنصار إلاَّ بايع في ما نعلم)، وانظر أيضًا منتظم ابن الجوزي ٣١٦/٣.

ولا شكَّ أن بعضهم بايع وهو لا يريد بيعته، وبعضهم بايع وهو يطمح من وراء بيعته بلقمة سائغة، أما أن يكون قد أجبر على البيعة فهذا مما لا يقبله عقل بدليل تخلُّف من تخلَّف عنها، ويبدو أن اسم أسامة بن زيد قد حشر حشرًا بين الأسماء، فقد ذكر البلاذري في أنسابه ١٦٦/٢ أن الإمام عليه

السلام قد دعاه يوم نهض إلى البصرة فقال: والله إني لأصدقك المحبة؛ ولو كنت بين لِحيي أسد لأحببت أن أكون معك، ولكني جعلتُ على نفسي وعاهدت ربي لا أقاتل أحدًا يقول لا إله إلا الله)، وذكر أن أسامة توجَّه سنة سبع في سرية، (فلحق نهيك بن مرداس الجهني، فلما لحمه السيف قال: لا إله إلا الله، فقتله واستاق ما كان معه من النعم. فلما رجع، قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: « يا أسامة، أقتلت رجلاً يقول لا إله إلا الله؟» فقال: إنما قالها يا رسول الله، متعوِّذًا، قال: « فهلاَّ شققت عن قلبه؟ »، فجعل أسامة على نفسه ألاَّ يواجه رجلاً يقول لا إله إلاَّ الله بسيف أبدًا)، ولا يبتعد عن ظنِّي أيضًا أنَّ أبا سعيد الخدري قد حُشِرَ اسمه أيضًا، فهو أحد رواة حديث الناكثين، وهو مأمور بروايته في الحرب مع عليٍّ عليه السلام، فقد ذكر ابن عساكر في ترجمة أمير المؤمنين عليه السلام بتاريخه ٢١٢/٣-٢١٣ بسنده أن أبا سعيد قال: (أمرنا رسول الله بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين، فقلنا: يا رسول الله أمرتنا بقتال هؤلاء فمع من؟ «قال مع علي بن أبي طالب، معه يقتل عمَّار»).وذكر ابن أبي الحديد في شرح النهج ٣٠٩/٤ أن أسامة بن زيد بعث إلى الإمام عليه السلام يطلب عطاءه وقال: (إنك لتعلم أنك لو كنت في فم أسد لدخلت معك، فكتب إليه -أي الإمام - إن هذا المال لمن جاهد عليه؛ ولكن لي مالاً بالمدينة فأصِبْ منه ما شئت)، وكلُّ ذلك لا يدلُّ على تأخُّره عن بيعته عليه السلام، وإنما يدلُّ على عدم نهوضه معه. وأما عبد الله بن عمر فقد ندم على عدم مقاتلته الفئة الباغية بجنب أمير المؤمنين عليه السلام، كما ذكر البلاذري في أنسابه ٤٠٤/٢ وغيره إلا أن ندمه كان بعد حين، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

وأزعم أن الحلَّ والعقد لو استمرَّ بيد قريش ما فكّرت ببيعته، ولوضعت أمامها ألف عائق وعائق، وأزعم أن خطبته الشقشقية كانت تتردد في صدره عليه السلام قبل سنوات فكتمها ولم تخرج إلاّ بعد حين، وكان أستاذنا الفقيد الدكتور شوقي ضيف رحمه الله ينكر صدورها عن الإمام ويعدُّها من المنحول الذي لا علاقة له به، وقد وهم في هذا المقام، وكأنه رأى أن الشريف الرضي أو غيره نسجها ونسبها للإمام، وعلى الرغم من شديد إعجابي بأستاذي الكبير، فإنه لو نظر بعينه الفاحصة في أسلوب الخطبة ونفسها لقرر -بما لا يقبل الشك عندي - أنها من عين نسيج خطب الإمام، أما أستاذنا الفقيد إبراهيم السامرائي فقد وثّق صدورها، ورأى أن من نافلة القول أن تصدر عنه بعد ما مرَّ به من أحداث، فهو يرى أنه أحق الناس بخلافة رسول الله صلوات الله عليه، وهو حقٌّ في ما أزعم لم يطلبه طمعًا بالحكم ومكاسبه، فقد سلمت له كل المكاسب داخل حوزة الخلافة أو خارجها، ولم ينقص من جاهه ولا من مكانته مقدار قيراط، وعلى هذا فإنه لم يصرِّح بذلك الحق طمعًا في ما يمكن أن يكسبه من ورائه، وإنما كان همُّه النهج الذي سينهجه من يتولاّها، وهو على يقين أن من سيتولاها مهما كان لن يستطيع مطاولته بكلِّ ما يمكن أن يطاوله به من الصفات الحميدة التي أدَّبه عليها الله، ولعل ما يوثق نسبتها له عليه السلام ما جاء في رسالة بعثها إلى معاوية وهي في النهج ٥٤٥ (فيا عجبًا للدَّهر إذ صرتُ يُقْرنُ بي من لم يسعَ بقدمي، ولم تكُنْ له سابقتي التي لا يُدْلِي أحدٌ بمثلِها إلاّ أن يدَّعي مدَّعٍ ما لا أعرفه، ولا أظنُّ الله يعرفه، والحمد لله على كلِّ حال).

ويوم ذهبت من بين يديه وازن الأمور بميزان العقل والحكمة، واستعان بالصبر، حفاظًا على دين الله أن تذهب به المذاهب وما كان ما وقع ببعيد عنه

عليه السلام، قال كما جاء في النهج ١٠٢–١٠٨: (أما والله لقد تَقَمَّصَها فلانٌ، وإنَّه يعلمُ أنَّ مَحَلِّيَ منها مَحَلُّ القُطْبِ من الرَّحى: ينحَدِرُ عَنِّي السَّيْلُ ولا يرقَى إليَّ الطَّيْرُ، فَسَدَلْتُ دونها ثوبًا، وطَوَيْتُ عنها كَشْحًا، وطَفِقْتُ أرتَئِي بين أن أصولَ بيدٍ جَذَّاء، أو أصبِرُ على طَخْيَةٍ عمياءَ يهرَمُ فيها الكبيرُ، ويشيبُ فيها الصَّغيرُ، ويَكْدَحُ فيها مُؤمِنٌ حتَّى يلقَى ربَّه، فرأيتُ أن أصبرَ على هاتا أحجَى، فصَبَرْتُ وفي العينِ قَذًى، وفي الحلْقِ شَجًا، أرى تُراثي نهبًا، حتى مضى الأوَّلُ لسبيلِهِ، فأدْلَى بها إلى فلانٍ من بَعْدِهِ - ثمَّ تمثَّل بقولِ الأعشى:

شتَّان ما يومي على كُورِها ... ويومُ حَيَّانَ أخي جابِرِ

فيا عجبًا! بينا هو يستقِيلُها في حياته، إذ عقدها لآخرَ بعدَ وفاتِهِ، لَشَدَّ ما تَشَطَّرا ضَرْعَيْها فصَيَّرَها في حَوْزَةٍ خَشْناءَ يَغْلُظُ كُلامُها، ويَخْشُنُ مسُّها، ويكثُرُ العُثار فيها، والاعتذار منها، فصاحِبُها كراكبِ الصَّعبةِ إن أشْنَقَ لها خَرَمَ، وإن أسْلَسَ لها تَقَحَّم، فَمُنِيَ الناسُ - لعَمْرُ الله - بخَبْطٍ وشِماسٍ، وتَلَوُّنٍ واعتِراضٍ، فصَبَرتُ على طُولِ المُدَّة، وشِدَّة المِحْنَةِ، حتى إذا مضَى لسبيله جعلهَا في جماعةٍ زَعَمَ أنِّي أحَدُهُم، فيا للهِ ولِلْشُّورى متى اعترضَ الرَّيْبُ فِيَّ مع الأوَّل حتى صِرْتُ أُقْرَنُ إلى هذه النظائرِ!! لكنِّي أسفَفْتُ إذ أسَفُّوا، وطِرْتُ إذ طاروا، فصغى رجُلٌ مِنهم لِضِغْنِهِ، ومالَ الآخَرُ لِصِهْرِهِ مع هَنٍ وهنٍ، إلى أن قامَ ثالثُ القومِ نافِجًا حُضْنَيْهِ بين نَثِيلهِ ومُعْتَلَفِهِ، وقام معه بنو أبيهِ يخْضِمونَ مالَ الله خَضْمَةَ الإبلِ نِبْتَةَ الربيع، إلى أن انتَكَلَ فَتْلُهُ، وأجْهَزَ عليه عَمَلُهُ، وكَبَتْ به بِطْنَتَهُ، فما راعني إلاَّ والناسِ كعُرْفِ الضَّبُعِ إليَّ ينثالون عليَّ من كلِّ جانبٍ، حتَّى لقد وُطِئَ الحسنانِ، وشُقَّ عِطْفايَ، مُجتمعينَ حَوْلي كَرَبيضَةِ الغَنَمِ، فلما نهَضْتُ بالأمرِ، نَكَثَتْ طائفةٌ، ومَرَقَتْ أُخرى،

وقَسَطَ آخرونَ كأنَّهم لم يسمَعوا كلامَ الله حيث يقول: ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ بَلَى! والله لقد سَمِعُوها ووَعَوْها، ولكنَّهم حَلِيَتْ الدُّنيا في أعيُنِهِم، وراقَهم زِبْرِجُها، أما والذي فَلَقَ الحبَّةَ، وبَرأَ النَّسَمَةَ لولا حُضُور الحاضِرِ، وقِيام الحُجَّة بوجودِ النَّاصر، وما أَخَذَ اللهُ على العلماءِ أن لا يُقارُّوا على كِظَّةِ ظالمٍ، ولا سَغَبِ مظلومٍ لألقَيْتُ حَبْلَها على غارِبِها، ولَسَقَيْتُ آخِرها بكأسِ أوَّلِها، ولألفيتُم دُنياكم هذهِ أزْهَدُ عِندي من عَفْطَةِ عَنْزٍ).

وأوجز ابن خلدون في تاريخه ٢/٥٧٥-٥٧٦ بيعته عليه السلام بقوله: (لما قتل عثمان اجتمع طلحة والزبير والمهاجرون والأنصار وأتوا عليًّا يبايعونه فأبى وقال: أكون لكم وزيرًا خير من أن أكون أميرًا، ومن اخترتم رضيته، فألحُّوا عليه وقالوا له: لا نعلم أحق منك ولا نختار غيرك حتى غلبوه في ذلك، فخرج إلى المسجد وبايعوه. وأول من بايعه طلحة ثم الزبير بعد أن خيَّرهما - ويقال: إنهما ادعيا الإكراه بعد ذلك بأربعة أشهر وخرجا إلى مكّة - ثم بايعه الناس وجاءوا بابن عمر فقال كذلك، فقال: ائتني بكفيل قال: لا أجده، فقال الأشتر دعني أقتله، فقال عليٌّ: دعوه فأنا كفيله، وبايعت الأنصار، وتأخر منهم حسان بن ثابت وكعب بن مالك ومسلمة بن مخلد وأبو سعيد الخدري ومحمد بن سلمة والنعمان بن بشير وزيد بن ثابت ورافع بن خديج وفضالة بن عبيد وكعب بن عجرة وسلم بن سلامة بن وخش، وتأخر من المهاجرين عبد الله بن سلاّم وصهيب بن سنان وأسامة بن زيد وقدامة بن مظعون والمغيرة بن شعبة، وأما النعمان بن بشير فأخذ أصابع نائلة امرأة عثمان وقميصه الذي قتل فيه ولحق بالشام صريخًا).

ولم يترك أمير المؤمنين عليه السلام أسرة عثمان وسط ذلك الصَّخب وفي أوج تلك المحنة بلا رعاية أو حماية خوفًا عليهم من غوغاء المدينة، فكان يتفقدهم، ويعنى بشؤونهم، ذكر ابن قتيبة في عيونه ٢٩٩/١ (نظر علي إلى ولد عثمان كأنهم مستوحشون فسألهم فقالوا: نرمى بالليل، فقال: من أين يأتيكم الرمي؟ قالوا: من هنا، فصعد علي ولفَّ رأسه، ثمَّ جعل يرمي، وقال: إذا عاد فافعلوا مثل هذا فانقطع الرمي)، ولابد أن صعوده كان بمرأى ومسمع من أهل المدينة، ويعني من بين ما يعنيه أن أيَّ اعتداء على أهل ذلك البيت هو اعتداء عليه، فكان ذلك رادعًا لمن سوَّلت له نفسه فعل ما فعل، وعلى الرغم من ذلك، ومن كلِّ مواقف الإمام من عثمان في أيّام الحصار فإن نائلة بنت الفرافصة كتبت لمعاوية كما جاء في المنتظم لابن الجوزي ٣١١/٣ —٣١٢ (أما بعد. فإني أذكركم بالله الذي أنعم عليكم وعلمكم الإسلام وهداكم من الضلالة وأبعدكم عن الكفر، وأنشدكم الله فأذكركم حقّه وحق خليفته أن تنصروه، وأن أمير المؤمنين بُغي عليه، وكنت مشاهدة أمره، إن أهل المدينة حصروه يحرسونه ليلهم ونهارهم قيامًا على بابه بسلاحهم حتى منعوه الماء، ثم إنه رمي بالنبل والحجارة، ثم أحرقوا باب الدار، ثم دخلوا عليه وأخذوا بلحيته وضربوه على رأسه ثلاث ضربات وطعنوه في صدره طعنات، وقد أرسلت إليكم بثوبه، فحلف رجال من الشام ألاّ يطأوا النساء حتى يقتلوا قتلته أو تذهب أرواحهم)، وكان أحرى بنائلة أن تفكِّر بموقف معاوية من زوجها الخليفة المقتول قبل أن ترسل بتلك الرسالة، فما الذي منع معاوية من نصرته بعد أن استنجد به واستغاث، لقد كان في مقدِّمة من شارك بقتل زوجها بخطَّته الجهنَّميَّة التي اختطَّها، فلمَّا جاءته رسالة

نائلة اغتنمها فرصة لتأليب الشام على أمير المؤمنين بعد أن نصب ثوب عثمان على منبر المسجد الجامع بدمشق، فأبكى واستبكى تلك العيون التي أحسن ترويض عقولها لهذا اليوم الذي أعدَّ عدَّته له منذ حين بعيد.

البيعة ومحنة المرتضى فيها

بويع أمير المؤمنين عليه السلام في ظروف بالغة التعقيد، شبَّت فيها النار هائلة مدمرة في الحواضر الإسلاميَّة الكبرى، ولم تسمح للعقل كي يأخذ فسحة للتفكير، ولم تمنح أي فرصة للعقيدة كي تطرد شيطان المطامح الذي تصدَّر عاتيًا في وجهه عليه السلام، وكانت مراكز القوى التي تملك المال والسطوة مستعدَّة لإنفاق جميع ما اكتنزته لإحراق كلِّ شيء جاءت به دعوة سيد الكائنات باسم سيد الكائنات صلى الله عليه وآله وسلَّم، وكانت ردَّة ما شهد الإسلام مثيلاً لها من قبل ولا من بعد شارك فيها خلق من المسلمين أخذتهم الفتنة بأذيالها، وقادتهم طليعة تلبَّسها الشيطان فما عادت لها بصيرة بعد أن فقدت نعمة الإبصار.

وكان إيمان عليٍّ عليه السلام لا يعرف مداهنة ولا مساومة، ولولا خوفه من انفراد بني أمية بحكم المسلمين ما أظنه قبل ببيعتهم في ذلك الزمن العلقم الذي تشوَّفه آتٍ رؤية عين، كما قال عليه السلام في ما رواه البلاذري في أنسابه ٣٥٣/٢: (والله ما تقدَّمت عليها إلا خوفًا من أن ينزو على الأمر تيس بني أمية فيلعب بكتاب الله عز وجلّ). وتحرَّكت الردَّة كالإعصار خوفًا على مكاسبها، وعلى ما سيضيع منها في مستقبلات الأيَّام، لأنها على يقين أن خصمها أقوى منها على الجلاد والمطاولة في تطبيق شرع الله. ولا شكَّ أنها كانت على يقين أنه سيحاسبها من بعد على ما كسبته من مال الأمَّة دونما وجه حقٍّ بعد أن أعلن ذلك صراحة في أوَّليَّات أيَّامه.

واصطفت فئة دوغما وعي مع الباطل، وتربصت أخرى بكل الوعي فكانت الباطل بعينه، وشاركت كلا الفئتين بصورة أو بأخرى في هدر دم الخليفة، وكانت سببًا حقيقيًّا لفتنة لن تنطفئ حتى يرث الله الأرض ومن عليها. وكانت رؤى عجزت كل البصائر عن تصويرها قديمًا وحديثًا، وستبقى عاجزة.

وانشطرت الأمَّة شطرين، مثَّل الشطر الأول غالبيَّة المهاجرين والأنصار إلا غالبية من قريش وقلَّة من الأنصار زاغ بصرهم بسبب الأصفر الرنان الذي يئست من الحصول عليه في ظل الخلافة الجديدة.

ووجد الإمام عليه السلام نفسه في محنة لم يمتحن بمثلها أحد لا من الصحابة ولا من غيرهم، وكان صبره أعجب من العجب بكثير، لقد رأى النار تشب في كل مكان، ورأى أمَّة محمد صلى الله عليه وآله وسلَّم يفعل بها الباطل أفاعيله، وحاول بكل الحكمة والكلمة الواعية أن ينتشلها فلم يفلح.

وما كان لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يختاره لقيادة الأمَّة بسبب رغبة أو عاطفة، إنما هو أمر الله، وما حدث قضاؤه، ولا رادَّ له إلاَّ هو سبحانه، لقد أراده كي يبقى نور الله بينهم، فيعمهم الخير والنماء والحقّ والعدل، وأراده كي تنتشر دعوته في الآفاق على أسسها التي قامت عليها فتصبح بنيانًا متين الأركان لا يطمع به الطَّامعون، بل من أين يأتي الطامعون إذا طُبِّقَ عدل السماء في الأرض.

وإذا كان قد قَبِلَ البيعة اليوم، فهو يعلم بما ستؤول إليه الأحداث، وما سيؤول إليه مصيره بسببها، ولكن لابد من وسيلة لإقامة حقٍّ رآه يضيع، ولإزهاق باطل رأى الأمَّة تخبط فيه، ولتثبيت أركان رسالة رآها تهتزُّ، وإن كان الثمن حياته، ومن بعد سفك دماء ذريَّته الطاهرة عليها السلام، أما إمرة

القوم فإن نعله - وأية نعل كانت - أحب إليه منها، قال ابن عباس كما ورد في النهج ١٥٣: (دخلت على أمير المؤمنين عليه السلام بذي قار وهو يخصف نعله، فقال لي: ما قيمة هذا النعل؟ فقلت: لا قيمة لها. فقال عليه السلام: والله لهي أحبُّ إلي من إمرتكم إلا أن أقيمَ حقًّا أو أدفع باطلاً)، ولا أدلَّ على استهانته بالدنيا من قوله لرجل سأله أن يصفها له أثناء إحدى خطبه فقال على ما ذكر المبرِّد في كامله: (وما أصف من دار أوَّلها عناء، وآخرها فناء، في حلالها حساب، وفي حرامها عقاب، من صحَّ فيها أمن، ومن مرض فيها ندم، ومن استغنى فيها فُتِنَ، ومن افتقر فيها حزن).

لم يكن راغبًا بخلافتهم، ولا ببيعتهم، في زمن تشوف مآسيه بعد حدوث ذلك الشرخ الذي كاد يطفئ هالة النور التي واكبت دعوة سيد الكائنات صلى الله عليه وآله في حياته، وما زالت تخبو حتى أصبحت خافتًا لابد له من طاقة تدفعه إلى الإشعاع من جديد، لذا قال في موقف التذكير كما جاء في النهج ٥٢٣: (وبَسَطْتُم يدي فكففتها، ومددتُموُها فقبضتُها، ثم تداككتُم عليَّ تداكَّ الإبلِ الهيمِ على حِياضِها يوم ورودِها، حتى انقطعتِ النعلُ، وسقطَ الرِّداء، ووُطِئَ الضعيفُ)، لم يكن بمقدوره الرفض، وكان لزامًا عليه أن يقبل، وإياك أن تظنَّ أنه خاف من أحد، فقد اتفقت الأجيال ما بين محبٍّ ومبغض بأنه ليس الرجل الذي ينفع معه الترغيب أو الترهيب، فمنذ أن كان فتًى لم يبلغ الحلم، كان ما بين الفتيان رجلاً ولا ككل الرجال، ويوم دعا الرسول الكريم الأقربين من عشيرته لم يجد من يناصره ويبايعه بينهم سواه، وقد ذهب الأقربون في يومهم ذاك وهم يتضاحكون من محمد ومن الفتى الذي أصر بكل ثبات على مبايعته ونصرته، لا لحبٍّ أو لقربى وإن كانا، ولا لطمع

بمأكول أو مشروب، ولا لوفاء بحقٍّ أو دَيْن فحسب، وإنما لأنَّ إيمانه كان فطرة فطره الله عليها، وبصيرة بصَّره بها. لقد وافق على قيادة الأمة مهما كانت النتائج لأنه رأى الواجب يدعوه فلبّى، ولاسيما بعد أن ساومهم مساومة لا رجعة فيها على النهج الذي سيسير عليه.

ويوم بويع تلك البيعة العامة التي لم يشاركه بمثلها من سبقه، ولا من جاء بعده كان يرى ببصره وبصيرته ما ستؤول إليه الأمور، فتشوف الآتي المرعب، ولم يكن المصير بغائب عنه فقد أنبأه عنه قدوته وأخوه صلوات الله وسلامه عليه قبل أن يذهب إلى جوار ربه، فقال عليه السلام في ذلك الجمع الغفير الذي حضر البيعة بلسان الواثق مما يقول، وبصدق لا تداخله الريبة أو الشك كما ورد في النهج ١١٩–١٢٠: (ألا وإن بليتكم قد عادت كهيئتها يوم بَعَثَ الله نبيَّكم صلى الله عليه وسلم؛ ولذي بعثه بالحق لَتُبَلْبَلُنَّ بَلْبَلَةً، ولَتُغَرْبَلُنَّ غربلةً، ولَتُساطُنَّ سَوْطَ -خلط- القِدْرِ حتى يعودَ أسفلكم أعلاكم وأعلاكم أسفلكم، ولَيَسْبِقَنَّ سابقونَ كانوا قَصَّروا، ولَيُقَصِّرَنَّ سَبَّاقون كانوا سبقوا، والله ما كتمت وَشْمة، ولا كذبتُ كِذبةً، ولقد نُبِّئْتُ بهذا المقام وهذا اليوم، ألا وإن الخطايا خيلٌ شُمُسٌ حُمِلَ عليها أهلها، وخُلِعتْ لُجُمُها فتقحَّمت بهم في النار، ألا وإن التقوى مطايا ذُلُلٌ حُمِلَ عليها أهلها، وأُعْطوا أزِمَّتها فأوردتهم الجَنَّة، حقٌّ وباطلٌ، ولكل أهل، فلئن أَمَرَ الباطلُ لقديمًا فَعَلَ، ولئن قلَّ الحقُّ فلربما ولعلّ، ولقلّما أدبر شيءٌ فأقبلَ)، بهذه الكلمات التي صدرت وكأنها زفرات وحسرات على مسيرة رحلت برحيل صاحبها صلى الله عليه وآله وسلّم استقبل مسيرةً أرادها كمسيرته حتى وإن استشهد في سبيلها، وكيف لا يأسف وهو يرى سبّاقين قد قصَّروا، وكيف يستقبلها، وقد

تشوَّفها، ويُلّغ عنها قبل حينها، فبسطها أمام أعينهم، واضطر لقبولها وهي لا تساوي عنده نعله التي يخصفها بيده، وهي من الليف، إلا أن يقيم حقًا أو يدفع باطلاً كما قال عليه السلام.

لقد رأى الباطل يندفع كالنار في الهشيم يكاد يدمِّر كلَّ أرث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم، ويقضي على الحلم الوردي الذي تمنَّته رسالة السماء لمن في الأرض إن ترك الأمور على غواربها، وبدأ الظلم يسبح في البلاد ويخرج من بين رمال الصحراء، وظنت الجماعة التي استولت على مقاليد الأمور أن كلَّ فيء الأمة هو فيؤها تتصرَّف فيه كيفما تشاء، فالسواد بستان قريش تسرح فيه وتمرح دونما خوف من عقاب أو وازع من ضمير.

وكانت كراهيَّته للظلم منذ أن رآه لا حدود لها لذا كان هدفه الأسمى إنصاف المظلوم من الظالم بأية طريقة لا تخرجه عن نواميس العدل، بل كان كلُّ همِّه أن تعود النواميس إلى نهجها الذي انحرفت عنه لذا قال كما ورد في النهج ٣٣٩: (لم تكن بيعتكم إيَّاي فلتةً، وليس أمري وأمركم واحدًا، إني أُريدكم لله، وأنتم تريدونني لأنفسكم أيها الناس، أعينوني على أنفسكم، وأيْمُ الله لأنصِفَنَّ المظلوم من ظالمه، ولأقودنَّ الظالم بخِزامته حتى أورده منهل الحقِّ وإن كان كارهًا)، هل سمعت بخطبة يخطب بها حاكم في أوَّل استخلافه تقطر أسًى ولوعة، وعزيمة وإصرارًا من جانب، وتذكيرًا ببيعة سلفت من جانب آخر، أسًى لأن أمره وأمرهم أصبح على طرفي نقيض، فمازال هو هو لم يتغير، ومازال هو هو يريد الدنيا التي أرادها الله، أما غالبيَّة القوم فقد تبدَّلت نفوسهم وتغيَّرت، وقصَّرت صفوة كانت في الطَّليعة فما عادت بذلك الصفاء الذي كانت عليه يوم آمنت، بعد أن شغلتها الدنيا بمغانمها، وهي

شغّالة إلاّ ما رحم الله، وهل رأيت حرقة كحرقته، وهو يصرخ بصوت كأنه النحيب يصمُّ الآذان؛ أعينوني!!! ومن ذا يعينك يا سيدي بل من يستطيع أن يعينك على أمر لا يستطيع عليه إلاّ من قارب درجتك وهم قلّة تعد على أطراف الأصابع في زمانك ذاك، ويعينونه على أي أمر؟! على قصر يشيده، أو على بستان يأنس به، أو على مال يستعين به لإسعاد أهله وأسرته، لقد أراد عونهم لنصرته على الباطل لأنه على بيِّنة بمدى قوته إن تمكّن.

وليس بخافٍ عليك أن مشكلة تطبيق قوانين الحق من أشق المشكلات التي واجهت الحاكم العدل في كلّ العصور والأزمان، فعلى الرغم من قدم الحقّ، فإن الباطل أقدم منه، ولكي ينتصر عليه فيزهقه فلابد من خضوع المجتمع إلى جملة من القوانين عن عقيدة راسخة، وهو أمر لم تعرفه الأرض بعد.

كان عليه السلام على بصيرة بالأهواء التي تقاذفت الأمة، فمزقتها أيدي سبأ، وحزّبتها، حتى غاب الحق عن بصيرتها، ونصَّبَ الباطل راياتِهِ في كل الطرقات، فرأى من حق الأمّة عليه -وهو لأمين عليها - أن يصدقها القول فقال كما جاء في النهج ٥٢٧: (واعلموا، رحمكم الله أنكم في زمان القائل فيه بالحقّ قليل، واللسانُ عن الصدقِ كليلٌ، واللّازم للحقّ ذليل، أهله معتكفون على العصيان، مُصْطَلِحون على الإدهان، فتاهم عارمٌ، وشائبهم آثمٌ، وعالِمهم منافقٌ، وقارئهم مماذِقٌ، لا يعظّم صغيرهُم كبيرَهم، ولا يعولُ غنيُّهم فقيرَهُم)، فأية أمة هذه التي تغيّرت كلَّ ذلك التغيير، ولمّا تزل روحُ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم ترفرف فوق رؤوسهم، وعبقُ أنفاسه يفوح من مسجدهم، ووقعُ خطواته يسمع في طرقات مدينتهم، وما برحت أيامهم وأيّامه ما بين مكة والمدينة بين أعينهم يرونها ويتحدّثون عنها في ليالي سمرهم،

وسويعات أنسهم وحزنهم وتأسِّيهم وتذكُّرهم، وإذا كانت وسط ذلك العالم البهي بهذه الصورة فكيف ستكون قابلات أيّامهم بعد أن كشَّر الباطلُ عن أنيابه، وانزوى الحقُّ وسط عاصف قاصف من طغيان الباطل وجبروته.

ولعلَّ قوله عليه السلام الذي ورد في النهج ١٧٥ كان في أوَّليات أيّام بيعته وهو : (أيها الناس، إن لي عليكم حقًا، ولكم عليَّ حق، فأما حقكم علي فالنصيحة لكم، وتوفير فيئكم عليكم، وتعليمكم كي لا تجهلوا، وتأديبكم، كيما تعلموا، وأما حقي عليكم فالوفاء بالبيعة، والنصيحة في المشهد والمغيب، والإجابة حين أدعوكم، والطاعة حين آمركم).

استقبل يومه الأول في الحكم دونما مقدِّمات، بسياسة لا تعرف ألاعيب السياسة، ولا تعترف بحيلها، على أنها ليست بغائبة عنه لو أرادها، وازدحمت على بابه أمَّة ما بين مخلص وطامع وموتور، ولكنَّ بيت الحكمة، وإمام الفكر يعرف المخلصَ منهم والموتور والطامع، لذا فإن من بايع لغرض في نفسه سرعان ما اكتشف أن ما يصبو إليه بعيد المنال.

وطبيعي أن يزداد اللغط في المدينة وغيرها حول موقفه من عثمان، وما كان الإمام عليه السلام بغافل عنه، وحاول وأده بأقصى ما يمتلك من القوَّة كي يطوي صفحة ويبدأ مسيرة، ويقطع ألسنة، فقال بأعلى صوته في خطبة سمعها حسان بن زيد: (يا أيها الناس، إنكم تكثرون فيَّ وفي عثمان، فإن مثلي ومثله كما قال الله تعالى: ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَاناً عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴾ كما ذكر ابن الأثير في كامله ١٨٤/٣.

وعجيب أن يمثِّل أوليات اتساع الخرق موقف بعض الصفوة من إمام المتَّقين، فمازال التاريخ يذكر جهاد طلحة والزبير بين يدي رسول الله صلوات

الله وسلامه عليه، ويذكر موقفهما بالأمس منه عليه السلام، فالأمس الذي تنازل فيه الزبير عن حقّه في الشورى لعليٍّ ليس ببعيد أيضًا، ومازال الزبير من أهل البيت قبل أن يشبّ ولده عبد الله ويزوغ البصر، لأن أمه صفيّة بنت عبد المطلب رضوان الله عليها عمّة المرتضى، ومازال سيفه الذي امتشقه يوم السقيفة دفاعًا عن حقٍّ كان يراه لأخيه المرتضى على الرغم من شديد علاقته بأبي بكر جدّ ولده عبد الله لأمّه أسماء، ومازال موقفه من أبي بكر من بعد تتداوله كتب السيرة والتاريخ لأنه رشّح عمر بن الخطّاب للخلافة، وعشرات من القصص والحكايات التي جمعت بينه وبين ابن خاله حديث المؤرخين، وما عرف لطلحة موقف من قبل باعد بينه وبين أمير المؤمنين، لا في حياة النبيِّ صلوات الله وسلامه عليه ولا في حياة الشيخين، ولم يحسب يومًا من حزب عثمان، وما كان من أنصاره، بل كان في مقدّمة من ألّب الناس عليه، ودفعهم دفعًا لقتله. وعلى الرغم من كلِّ ذلك فإن المطامح وقفت سدًّا منيعًا أمام بصيرتي طلحة والزبير وخاصّة بعد أن يئسا من تولي حكم البصرة والكوفة إذ كان على بيّنة من نيّاتهما، فردّهما ردًّا حسنًا، ثم عادا إليه مع من كانت بيعة الإمام شوكة في عينه يطالبون بتطبيق الحدود والاقتصاص من قتلة عثمان، وكأنَّ طلحة لم يحاصره بالأمس، ولم يمنع عنه حتى الماء كي يقتله عطشًا، مما اضطرَّ الإمام إلى إرسال ولده براوية من الماء كما ذكر ابن شبّة في تاريخ المدينة ١٢٠١/٤، ويعلمان أيضًا أن طلبهما يستحيل تطبيقه في ظل تلك الأجواء التي كانت تحيط به وبهم فقال: (يا إخوتاه، إني لست أجهل ما تعلمون، ولكني كيف أصنع بقوم يملكوننا ولا نملكهم! ها هم هؤلاء قد ثارت معهم عُبدانكم، وثابت إليهم أعرابكم، وهم خلالكم يسومونكم ما

شاءوا، فهل ترون موضعًا لقدرة على شيء مما تريدون؟ قالوا: لا، قال: فلا والله لا أرى إلاّ رأيًا ترونه إن شاء الله. إن هذا الأمر أمر جاهلية، وإن لهؤلاء القوم مادة؛ وذلك أن الشيطان لم يشرَع شريعة قط فيبرح الأرض من أخذ بها أبدًا، إن الناس من هذا الأمر إن حُرِّك على أمور: فرقة ترى ما ترون، وفرقة ترى ما لا ترون، وفرقة لا ترى هذا ولا هذا حتى يهدأ الناس وتقع القلوب مواقعها وتؤخذ الحقوق، فاهدءوا عني وانظروا ماذا يأتيكم، ثمَّ عودوا) كما ذكر الطبري في تاريخه ٤/٤٣٧، وذكر قريبًا منه ابن الجوزي في منتظمه ٣/ ٣٢١، ولكي تستتبَّ الأحوال في المدينة خرج عليه السلام إلى الناس في اليوم الثالث من بيعته وطلب من أبنائها إخراج من كان بضيافتهم من الأعراب أو من غيرهم للعودة إلى بلادهم، كما ذكر الطبري في تاريخه ٤/٤٣٨.

أما طلحة والزبير فقد شعرا بأن ما أمَّلاه من وراء بيعتهما لم يتحقق، ويوم عاتباه على ترك مشورتهما بعدما علَّلا نفسيهما بولاية البصرة والكوفة كما ذكر الطبري في تاريخه ٤/٤٣٨، كان جوابه قاصمًا لا موارية فيه، ولا مطمع من ورائه، ولا حجة عليه فقال لهما: (لقد نقمتما يسيرًا، وأرجأتما كثيرًا، ألا تخبراني أيُّ شيء لكما فيه حقٌّ دفعتُكُما عنه؟ وأيُّ قَسْمٍ استأثرتُ عليكما به؟ أم أيُّ حقٍّ رفعه إليَّ أحدٌ من المسلمين ضَعُفتُ عنه أم جَهِلتُهُ أم أخطأتُ بابه؟) وكأنه أحس أنهما يعتقدان أن بيعتهما كانت منَّة عليه، ودالَّة تدعوه إلى أن يشركهما في الحكم، بل لعل حوارًا من هذا النوع دار أشارا فيه إلى دورهما في استخلافه فقال: (والله ما كانت لي في الخلافة رغبة، ولا في الولاية إربةٌ، ولكنكم دعوتموني إليها، وحملتموني عليها، فلما أفضت إلي نظرت إلى كتاب الله وما وضع لنا، وأمرنا بالحكم به فاتبعته، وما استنَّ النبي صلى الله

عليه وآله وسلم فاقتديته، فلم أحتج في ذلك إلى رأيكما، ولا رأي غيركما، ولا وقع حكم جهلته فأستشيركما وإخواني المسلمين، ولو كان ذلك لم أرغب عنكما، ولا عن غيركما، وأما ما ذكرتما من أمر الأسوة فإن ذلك أمر لم أحكم أنا فيه برأيي، ولا وُلّيتُهُ هوًى مني، بل وجدت أنا وأنتما ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد فرغ منه فلم أحتج إليكما في ما قد فرغ الله من قَسْمِهِ، وأمضى فيه حكمه، فليس لكما والله عندي ولا لغيركما في هذا عتبى. أخذ الله بقلوبنا وقلوبكم إلى الحق، وألهمنا وإياكم الصبر.. ثم ختم بقوله: رحم الله امرأً رأى حقًّا فأعان عليه، أو رأى جورًا فردَّه، وكان عونًا بالحقِّ على صاحبه).

وكان عاصفة في قراراته التي ليس فيها من حيل السياسة ما يأخذ به، فلم يأخذ بنصيحة المغيرة بن شعبة التي رواها الطبري في تاريخه ٤٣٨/٤ يوم قال له: (إن لك حقَ الطاعة والنصيحة، وأن الرأي اليوم تُحرِز به ما في الغد، وإن الضياع اليوم تُضَيِّع به ما في غد، أقْرِرْ معاوية على عمله، وأقرر ابن عامر على عمله، وأقرر العمال على أعمالهم، حتى إذا أتتك طاعتهم وبيعة الجنود استبدلت أو تركت)، وتابعه في روايتها ابن الجوزي في منتظمه ٣٢١/٣، وابن الأثير في كامله ١٩٧/٣ فلمَّا يئس من هذه جاءه في غده ينصحه بعزل عمال عثمان كما ذكر الطبري في تاريخه ٤٣٩/٤ وابن الجوزي في المنتظم ٣٢٢/٣، وظَنَّ أنه نصح الإمام في الأولى وغشَّه في الثانية، وظَنَّ أن الإمام لم يكن على بيِّنة بأن معاوية ومن سار بركابه لا تهمهم شورى ولا يحفلون بدم عثمان الذي شاركوا بسفكه، وأنهم إن ضربت مصالحهم سيدَّعون بالشورى وبالدم المسفوك، واغتنم المغيرة فرصة فخرج إلى مكة بعد أن يئس من تحقيق مآربه في

صفٌ الإمام، وكان ابن عباس أقرب مستشاري الإمام عليه السلام على هذا الرأي كما ذكر الطبري في تاريخه ٤/٤٣٨–٤٤١، وابن الجوزي في منتظمه ٣/ ٣٢٢ بل إن أبا الفرج في أغانيه ١٦/١٠١ روى عن أبي مخف أن الإمام قال للمغيرة: (نصحتني في الأولى وغششتني في الآخرة، ولكني والله لا آتي أمرًا أجد فيه فسادًا لديني طلبًا لصلاح دنياي، فانصرف)، وهو رأي، ولكنه رأي سياسة وحكم لا يمكن أن يكون رأي عليٍّ، ولو كان مطمحه الحكم لأسقط من قبل حجة عبد الرحمن بن عوف في الموافقة على السير على سنة الله ورسوله ونهج الشيخين، فتمسك بسنة الله ورسوله والاجتهاد برأيه في ما لا يجد ما يتكئ عليه في كتاب الله وسُنَّة رسوله، في حين وافق الآخر على شرط عبد الرحمن، ولكنه خالفه بعد حين، وهو أيضًا ليس من رأي الآلاف المؤلفة التي اعترضت على سياسة عثمان وولاته، وثارت عليه، بل هو رأي فيه نظر كثير فإن من ثار على عثمان ثار عليه بسبب ولاته الذين ساموهم من العذاب، وعلى هذا فإنه لابد للحكم الجديد أن يقرَّ أوّل ما يقرَّ النظام في جميع الأمصار بما في ذلك المدينة، وإقراره لا يكون إلاَّ بتغيير وجه النظام السابق، وإذا كان معاوية مقبولاً من الشّاميين، فإنه مرفوض من طائفة كبيرة من خيار الصحابة والمسلمين.

استبدال الولاة

استبدل عليه السلام جميع الوجوه التي كانت سببًا في ثورة الأمصار، بوجوه غيرها ليس عليها من غبار، وهي محلّ قبول صفوة المسلمين، فبعث عثمان بن حنيف على البصرة، وعمارة بن شهاب على الكوفة، وعبيد الله بن عباس على اليمن، وقيس بن سعد على مصر، وسهل بن حُنيف على الشّام، وأبقى أبا موسى الأشعري على الكوفة برجاء مالك ومشورته.

أما سهل، فما أن وصل تبوك حتى جبهته خيلُ ابن أبي سفيان فعاد إلى المدينة.

وأمَّا قيس بن سعد فقد دخل مصر بعد أن احتال على طلائع معاوية، ووجد مصر قد افترقت، فرقة التزمت ببيعة الإمام عليه السلام فكانت معه، وفرقة قالت نحن مع علي إن لم يُقِدْ إخواننا، فكانت معه أيضًا، وثالثة اعتزلت وتجمَّعت بمدينة خَرْبتا بانتظار الاقتصاص من قتلة عثمان.

وأما عثمان بن حُنَيف فدخل البصرة، وقد تفرقت ثلاث فرق، فرقة التزمت ببيعة الإمام، وأخرى التزمت الخارجين عليه، وثالثة قالت: ننظر ما يصنع أهل المدينة فنصنع ما يصنعون.

أما عمارة فقد التقاه أهل الكوفة، وطلبوا منه العودة من حيث أتى، وأعلموه أنهم لا يريدون بأميرهم أبي موسى الأشعري بديلاً، وقال اليعقوبي في تاريخه ٢/٧٧ : إن الإمام عليه السلام أقرَّه على الكوفة برأي الأشتر.

وأما عبيد الله بن عباس فقد وصل إلى اليمن فوجد أن يَعْلَى بن أميَّة قد هرب بفيء المسلمين، ووظَّفه من بعد لجيش أصحاب الجمل، وكلُّ ذلك ذكره ابن سعد في طبقاته كما ذكره غيره من المؤرخين، وأوجز أيضًا في طبقاته ٣/٣١–٣٢ بسنده: (ثم ذكر طلحة والزبير أنهما بايعا كارهين غير طائعين وخرجا إلى مكَّة وبها عائشة، ثم خرجا من مكة ومعهما عائشة إلى البصرة يطلبون بدم عثمان، وبلغ عليًّا عليه السلام ذلك فخرج من المدينة إلى العراق، وخلَّف على المدينة سهل بن حنيف، ثم كتب إليه أن يقدم عليه، وولَّى المدينة أبا حسن المازني فنزل ذا قار، وبعث عمَّار بن ياسر والحسن بن علي إلى أهل الكوفة يستنفرهم للمسير معه، فقدموا عليه فسار بهم إلى البصرة، فلقي طلحة والزبير وعائشة ومن كان معهم من أهل البصرة وغيرهم

يوم الجمل في جمادى الآخرة سنة ست وثلاثين، وظفر بهم وقُتِل يومئذ طلحة والزبير وغيرهما، وبلغت القتلى ثلاثة عشر ألف قتيل، وأقام علي بالبصرة خمس عشرة ليلة ثم انصرف إلى الكوفة). أما طلحة فقال لأهل البصرة يوم سألوه عن بيعته أنه لم يبايع إلا بعد أن وضعوا السيف على رقبته كما ذكر ابن عبد ربه في العقد ٢٨٩/٤، ولا شكَّ أن أحدًا لم يضع السيف على رقبته أو رقبة غيره.

وروى اليعقوبي في تاريخه ٧٧/٢ رواية لم أقف عليها عند غيره مفادها أنه ولَّى طلحة اليمن، والزبير اليمامة والبحرين (فلمَّا دفع إليهما عهديهما قالا له: وصلتك رحمٌ! قال: وإنما وصلتكما بولاية أمور المسلمين، واستردَّ العهد منهما، فعتبا من ذلك، وقالا آثرت علينا! فقال: لولا ما ظهر من حرصكما لقد كان لي فيكما رأي).

وذكر اليعقوبي أيضًا (وأتاه طلحة والزبير فقالا: إنه قد نالتنا بعد رسول الله جفوة فأشركنا في أمرك! فقال: أنتما شريكاي في القوة والاستقامة، وعوناي على العجز والأود).

وذكر الطبري في تاريخه ١٦٦/٤ -١٦٧ من طبعة الأعلمي أن أمير المؤمنين أرسل رسالة إلى معاوية مع سَبْرة الجهني فأخَّره ثلاثة أشهرٍ لا يجيبه عليها، ثم دعا معاوية قبيصة العبسي، ودفع إليه (طومارًا مختومًا، عنوانه من معاوية إلى علي، فقال: إذا دخلت المدينة فاقبض على أسفل الطومار، ثم أوصاه بما يقول، وسرَّح رسول علي، وخرجا فقدما إلى المدينة في ربيع الأوَّل لغرَّته)، وفعل العبسي ما أمره معاوية، ولما فتح أمير المؤمنين رسالة معاوية لم يجد فيها كتابة، فلما سأل رسوله عن الأمر أجابه: (إني تركت قومًا لا

يرضون إلاّ بالقود، قال: ممن؟ قال: من خيط نفسك، وتركت ستين ألف شيخ يبكي تحت قميص عثمان وهو منصوب لهم، قد ألبسوه منبر دمشق. فقال: منّي يطلبون دم عثمان! ألست موتورًا كترةِ عثمان! اللهمَّ إنّي أبرأ إليك من دم عثمان! نجا والله قتلةُ عثمان إلاّ أن يشاء الله).

من صدى النبوّة في نهج الإمام وسلوكه

يوم رحل النبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم كان الإمام عليه السلام قد استوعب جميع أبعاد دعوته وقيمها، وستبيِّن لك أحداث سيرته في مجملها أنه قد سار على نهج رسم له فسار على هديه ولم ينحرف عنه قلامة ظفر على الرغم من كلِّ الأعاصير التي عصفت به، والنهج الذي آمن به واتَّبعه لا يعرف يمينًا ولا شمالاً، وإنما هو الوسطية التي دعا إليها الإسلام، واتَّبعها نبي الرحمة وطبقها، وسطية لا تعرف التطرف في قول أو عمل، أعلنها بكل وضوح وجلاء في قوله الذي ورد في النهج ١٢٢: (اليمين والشمال مضَلَّة، والطريق الوسطى هي الجادة، عليها باقي الكتاب، وآثار النبوة، ومنها منفذ السُّنَّة، وإليها مصير العاقبة). وفي قوله الذي رواه ابن قتيبة في عيونه ١/ ٤٤٧ عنه: (خير هذه الأمة النَّمَط الأوسط، يرجع إليهم الغالي، ويلحقُ بهم التَّالي)، وفي قوله الذي رواه الجاحظ في بيانه ٢٥٦/١ عنه : (كن في الناس وسطًا وامش جانبًا).

ويكفيه عليه السلام فخرًا منحه عز الدهر، وجعله إمام الحق بدون منازع، موقفه الصارم الذي لم يقبل النقاش أو المهادنة من الظلم، فقصفه قصفًا، وحاربه حربًا لا هوادة فيها ولا تراجع، وأقسم بنزعه بكل إصرار، وأنت تلحظ هذا في كثير من خطبه ومراسلاته ووصاياه، بعد تولِّيه أمر الأمَّة، ولعل من أكثرها وضوحًا قوله الذي جاء في النهج ٥١٩: (والله لأن أبيتَ

على حسك السَّعدان مسهَّدًا، وأجرَّ في الأغلال مصفَّدًا، أحبُّ إلي من أن، ألقى الله ورسوله يوم القيامة ظالمًا لبعض العباد، وغاصبًا لشيء من الحطام، وكيف أظلم أحدًا لِنَفْسٍ يُسْرِعُ إلى البلى قُفُولُها ، ويطولُ في الثرى حلولُهَا).

وما أكثر ترغيبه عليه السلام القوم بالرضوخ للحق واتباعه حتى وإنْ جرَّ عليهم الضرر وجلب لهم الغمَّ والحزن، لأن من اتبعه وعمل به فَضَلَ الناس عند الله قال، وهو في النهج ٣٢٢ : (إن أفضل الناس عند الله من كان العملُ بالحقِّ أحبَّ إليه، وإن نقصَهُ وكَرَثَهُ - اشتدَّ عليه - ، من الباطل وإن جرَّ إليه فائدة وزاده، فأين يُتاهُ بكم؟).

وإذا كان العدل أساس الملك، فإن فهمه ومن بعد تطبيقه هو الذي يخلق المجتمع الفاضلَ الذي لا يضار به أحد من الخلق، وليس كالإمام عليه السلام فهمًا للعدل بين المسلمين، ولا أشدَّ من حرصه على تطبيقه، وإن تعلّق بالحقوق أو الحدود فستقف على مشاهد عقدناها هنا أو هناك، لامتثاله أوامر المصطفى صلى الله عليه وآله وسلّم في عهد النبوَّة، أو لقضائه في عهد من سبقه من الخلفاء، أو في عهده، وإن أنصفتَ فستذهبُ إلى ما ذهب إليه آخرون في أنّه إمام الأمّة في عدله وقضائه وإقامته حدود الله، ولعلَّ في حكاية جلده الوليد بن عقبة التي ذكرها أبو الفرج في أغانيه ١٣٩/٥ وابن عبد ربه في عقده ٦/ ٣٧٠ وسبق ذكرها خير مثال على ذلك الحرص.

وكان في بعض الأحكام التي تتعلّق بالغرائز يقسو ويوجع كي يكون المذنب عبرة لغيره، روى ابن عبد ربه في عقده ٦/ ٢٩٠ عن الرياشي أنه عليه السلام ضرب زانيًا فأوجعه إيجاعًا شديدًا، فقال له عم المضروب: (بعد هذا

الضرب فقد قتلته. فقال علي رضي الله عنه: إنه وتر مَن وَلَدَهَا من قبل أبيها وأمها من النبيين والصالحين إلى آدم).

أما إنصاف المظلوم، الذي هو واجب قضاه الله في محكم كتابه، ونفذه نبيه المصطفى صلى الله عليه وآله وسلّم بالصورة التي أرادها الله، وتشربه الإمام أولاً بأول من أخيه، فلم يعرف فيه عزيزًا أو كبير قوم، وكان جزءًا مهمًّا من النهج الذي صرَّح به وسار عليه، قال، وهو في النهج ١٦١ -١٦٢: (الذليل عندي عزيز حتى آخذ الحق له، والقوي عندي ضعيف حتى آخذ الحقَّ منه، رضينا عن الله قضاءه، وسلّمنا لله أمرَه، أتراني أَكْذبُ على رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ والله لأنا أوَّل من صدَّقه فلا أكون أوَّل من كَذَبَ عليه).

أما دعوته القوم إلى إحقاق الحق فتجدها في كل خطبه ووصاياه وكتبه، وهو يرسلها بصور شتى تدل على مدى حرصه على إقامته، بل إن كثيرًا من أقواله تصلح أن تكون شعارات لإقامة حكم يعم الأرض بالسلام والعدل من مثل قوله في النهج ٣٥٧: (لا تنفروا من الحقِّ نِفار الصحيح من الأجرب، والبارئ من ذي سقم).

وهو في دعوته لا يمل من الترهيب والترغيب، ترهيب وترغيب يريد من ورائهما توفير قناعة للمتلقي كي يسير على الجادة التي تأخذ بيده إلى ما يحقق المبتغى والأمل، من مثل قوله في النهج ١٤٤: (ألا وإنكم في أيّام أمل من ورائه أجل، فمن عَمِلَ في أيّام أمله قبل حضور أجله فقد خَسِرَ عمله وضرُّه أجله ... ألا وإنه من لا ينفعه الحقُّ يضرره الباطل، ومن لم يستقم به الهدى يجُرُّه الضلال إلى الردى)، ولعلَّ من عيون حكمه التي رواها المبرد في كامله

١/٢٧٠ قوله عليه السلام: (من سرَّه الغِنى بلا مالٍ، والعِزُّ بلا سلطانٍ، والكثرة بلا عشيرة، فليخرج من ذُلِّ معصية الله إلى عزِّ طاعته، فإنه واجد ذلك كلَّه).

وإذا كان ابن عمه صلوات الله وسلامه عليهما خرج من الدنيا خميصًا لم يضع حجرًا على حجر، فإنه خرج منها كقدوته فحق له أن يقول كما جاء في النهج ٣٨٥: (إن الله جعل محمدًا صلى الله عليه وآله وسلَّم عَلَمًا للساعة، ومبشِّرًا بالجنَّة، ومنذرًا بالعقوبة، خرج من الدنيا خميصًا، وورد الآخرة سليمًا، لم يضع حجرًا على حجرٍ حتى مضى لسبيله، وأجابَ داعي ربِّه، فما أعظم منَّة الله عِندنا حين أنعم علينا به سلفًا نتَّبعُهُ، وقائدًا نطأ عَقِبَهُ، والله لقد رقعت مِدرعتي هذه حتى استحييت من راقِعِها، ولقد قال لي قائلٌ: ألا تنبُذُها عنك؟ فقلت: اغرب عنِّي فعند الصباح يحمَدُ القومُ السُّرى).

وليس بكثير على الإمام عليه السلام أن يكون بهذا الحرص على خلق الله، ولاسيما الضعفاء والمساكين منهم، وحقٌّ لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يقول له كما جاء في حلية الأولياء ٧١/١: «يا علي إن الله قد زيَّنك بزينة لم تزين العباد بزينة أحب إلى الله تعالى منها، وهي زينة الأبرار عند الله عز وجل؛ الزهد في الدنيا فجعلك لا ترزأ من الدنيا شيئًا، ولا ترزأ الدنيا منك شيئًا، ووهب لك حب المساكين فجعلك ترضى بهم أتباعًا ويرضون بك إمامًا».

وبمرعته تلك أسس دولة الحق، وجاهد في الدفاع عنها على الرغم من قوَّة الباطل وجبروته، وبها أراد أن يضرب المثل للإنسانية على تفاهة الحياة وقصرها وقرب زوال نعيمها حتى وإن استمرَّ إلى حين، ويراودني يقين أن زهده العجيب لم يكن طمعًا في نعيم الآخرة، لأنه كسبه قبل حين طويل،

كما ذكرت في غير مناسبة، ولم يكن فيه ممن آثر العزلة عن الناس فلم يشاركهم الحياة التي يحيونها، لأنه أحبَّها بكلِّ أبعادها وعوالمها الرحبة الجميلة، وإنما كان طمعًا في تأسيس المجتمع الفاضل الذي أراده الله لخلقه، ولن يكون ذلك إلاّ أن يزهّد الإنسان في دنيا الغرائز وزينتها كي تتكشَّف له ويعرف حقيقتها، وبمعرفته تتحقق العدالة الاجتماعيَّة لتي ينشدها الإمام، ومن درر أقواله عليه السلام ما رواه أبو نعيم مرفوعًا عنه في حليته ٧٢/١ قال عليه السلام: (من زهد في الدنيا علّمه الله تعالى بلا تعلُّم، وجعله بصيرًا، وكشف عنه العمى)، ولا أشك في أنك توافقه في ما ذهب إليه، فما عرف أسرار الدنيا وخباياها ونفذ في أسرار المعرفة إلاّ من زهد بملذّاتها، وسما بنفسه عن دنسها، ولك في سير جميع العظماء في شتى العلوم ما يؤكد نظريته تلك عليه السلام.

وما كان نعيمها ليغريه في أي وجه مع وجود فقير أو مسكين في الأمَّةِ، ولعلَّ تصدُّقه بضيعتي أبي نيزر والبغيبغة يقدم لنا تصوُّرًا عن طبيعة حياة الإمام السمحة التي تفكّر بالآخر وتؤثره على نفسها، وتجاهد بكلِّ الصُّور لإسعاده والتخفيف من متاعبه، ذكر ياقوت في معجم بلدانه ١٩٨/٤، قال أبو نيزر - وستأتي حكايته في موضعها - : (جاءني علي وأنا أقوم بالضيعتين البغيبغة وعين أبي نيزر فقال: هل عندك من طعام؟ فقلت: لا أرضاه لأمير المؤمنين. فقال: عليَّ به، فقام إلى الربيع، وهو جدول فغسل يديه، ثم أصاب من ذلك الطّعام شيئًا، ثم رجع إلى الربيع فغسل يديه بالرمل حتى نقّاهما... ثم أخذ المعول وانحدر فجعل يضرب، وأبطأ عليه الماء فخرج وقد تنضّح جبينه عرقًا فانتكف العرق من جبينه، ثم أخذ المعول وجاء إلى

العين فأقبل يضرب فيها، وجعل يهمهم فانثالت كأنها عنق جزور فخرج مسرعًا وقال: أشهد الله أنها صدقة، عليَّ بدواة وصحيفة، فكتب: بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما تصدَّق به عبد الله علي أمير المؤمنين تصدَّق بالضيعتين بعين أبي نيزر والبغيبغة على فقراء أهل المدينة، وابن السبيل ليقي بهما وجهه من حرِّ النار يوم القيامة، لا تباعا ولا توهبا حتى يرثهما الله وهو خير الوارثين، إلاَّ أن يحتاج إليهما الحسن والحسين فهما طلق لهما وليس لأحد غيرهما... قال أبو محلم محمد بن هشام: فركب الحسين دين، فحمل إليه معاوية بعين أبي نيزر مائتي ألف دينار فأبى أن يبيع، وقال: إنما تصدَّق بهما أبي ليقي وجهه حرَّ النار ولست بائعهما بشيء).

كان من همومه الكبرى عليه السلام رفع بعض الحيف عن كاهل الفقراء والمظلومين الذي أصابهم من دنيا الآخرين من الذين ظنوا أنهم خالدين فيها، فأوقف جميع ما فاء الله عليه ولقد قدِّرت وقوفه في رواية ذكرها ابن الأثير في أسده ٥٩٨/٣ بأربعين ألفًا وعلى الرغم من كلِّ تلك الأموال التي أوقفها فإنه كان يربط حجرًا على بطنه أحيانًا من شدَّة الجوع كما ذكر ابن الأثير، وروى في أسده ٥٩٩/٣ بسنده أيضًا عن مطير بن ثعلبة التميمي قال: حدَّثنا أبو النوَّار بيَّاع الكرابيس - وهي ثياب قطنيَّة من لباس الفقراء - قال: (أتاني علي بن أبي طالب ومعه غلام له، فاشترى مني قميصي كرابيس، فقال لغلامه: اختر أيهما شئت، فأخذ أحدهما، وأخذ علي الآخر، فلبسه، ثمَّ مدَّ يده فقال: اقطع الذي يفضل من قدر يدي، فقطعته وكفَّه ولبسه، وذهب).

ولعل في الرواية التي ذكرها ابن الأثير في أسده ٥٩٩/٣ بسنده أيضًا عن عبد الملك بن عمير خير برهان على عجيبة عدل الإمام في حكمه، وسمو

دستوره في توازنه، وسماحته، وبعد نظره، ليس مع المسلمين عربًا وعجمًا، وإنما مع الكتابيين أيضًا، وسأذكر لك من بعد ما أوصى به عامله الثقفي يوم استعمله على مدرج سابور وهي عن الثّقفي أيضًا عند ابن عساكر في ترجمته عليه السلام ٢٤٨/٣ بتاريخه، وفيه أنه عليه السلام استعمله على عكبرا، وهي في سواد العراق، ولم يسكنها المسلمون كما ذكر.

بتلك الروح الإنسانيّة العالية الجناب صارع الباطل والظلم بكلّ صفاء ووضوح وشفّافيّة حتى مضى شهيدًا، وبها أراد أن يرفع الإنسانيّة هكذا على راحتيه كي تنعم بالأمنِ والعدلِ والأمان، ولكن المطامح والأهواء لم تترك له فسحة، فلما عجز بكل حكمته وطول أناته من إصلاحها حاربها بكل الشجاعة التي عرف بها، حاربها وكاد ينتصر عليها لولا لعبة الأصفر الرنان التي لم تعرفها أخلاقه أو عقيدته أو ثوابته.

وبمدرعته تلك مازال يزعزع عروش كل الظالمين في بلاد المسلمين منذ رحيله وحتى الآن، بل مازالت أمّة من الظَّلَمَةِ على طول التاريخ تربط نسبها به كي تدفع الثورة عليها، وما نام ظالم منهم فيه عرق من إنسانية إلا وكان الإمام هاجسه الذي يؤرق ليله، وبتلك المدرعة التي استحى من راقعها فاضل كل الخلق بعد رسول الله ففضلهم بلا منازع، وبذلك الطعام الجشب الذي ما ذاق غيره من الولادة إلى الشهادة تصاغرت موائد الملوك والحكام وعشاق الثروة وخازنيها، وبذلك البيت الذي لم يماثله بيت من بيوت المسلمين تواضعًا سامى قصور أصحاب السلطة والمال على مر الدهور فسماهم.

محنة الإمام في أمته

ومحنة الإمام في أمته كانت محنة إيمان وكفر، ومحنة حقٍّ وباطل، ومحنة عدل وظلم، ومحنة مساواة ومفاضلة، ومحنة سماحة وتقتير، محنة من عرف الله فآمن وعمل، ومن عرفه ولم يعمل، ومن لم يعرفه فكفر، وجاهد عليه السلام بالكلمة الحكيمة مرة، وبالسلوك الفاضل في أخرى، وبالسيف في ثالثة، وفي كلِّ ذلك لم يستطع إقناع الآخر العاقل والمعتوه بمشروعه العظيم، لأنه تعارض مع نوازع نفسه الضيِّقة وتطلعاتها الدنيويَّة.

محنة الإمام محنة من عرف الإسلام حقَّ معرفته، في وسطيَّته، وعدله، ورحمته، وسماحته، وحقِّ الآخر فيه، فأراد تطبيقه بكلِّ ما عرف عنه من إصرار على الحق وإن كان السيف على محزِّ رقبته، فحاربه من يعرف كلَّ ذلك على مرِّ الحقب بكلِّ الوسائل كي يقيم سلطانًا لا يعرف رحمة ولا عدلاً ولا وسطية ولا مساواة.

كان يطمح بخلق مجتمع يقوده العقل إلى أطيب فرات، والرأفة والإيثار إلى شاطئ الأخوة والرحمة، فحاور الصغير والكبير، والجاهل والعاقل، كي يُسَيِّرَ نفسه بنفسه على الجادَّة، بعيدًا عن اجتهاد هذا أو ذاك وسيطرتهما، ووجد ذلك المجتمع الجاحد فيه ما لم يعرفه في غيره من قبل، فتجاوز الحدود على الرغم من هيبته عليه السلام، فقعد وتمرد لأنه أمن العقاب، واستحلى الجلوس على أعصاب المعوزين وآلامهم وتعاستهم، وشيئًا فشيئًا وجد الإمام نفسه بعد كل تلك التضحيات وسط أمواج الباطل وقلَّة الناصر يسبح ضدَّ

التيّار، فما أسعده يوم فارقهم، وما أشقانا يوم فارقناه، ولم نتعلق بسبب من أسبابه، نعم أحببناه من كلِّ الملل والنحل والمذاهب، وادَّعينا أنّا من شيعته عليه السلام، شفقة على أنفسنا ومجتمعاتنا وشعوبنا وعالمنا، وصفقنا لمبادئه أينما وجدناها، وناضلنا كي نحقق بعضها، شريطة أن يكون التطبيق على غيرنا وليس علينا، فما أكثر أحاديثنا عن القيم، ولكن ما أكبر باطلنا لو راجعنا أنفسنا في كل صغيرة وكبيرة.

ولقد صدق المدائني في قوله الذي رواه ابن عساكر في ترجمته عليه السلام ٢٥٧/٣ بتاريخه من أن أمير المؤمنين نظر إلى قوم على بابه (فقال لقنبر: يا قنبر من هؤلاء؟ قال: هؤلاء شيعتك يا أمير المؤمنين، قال: وما لي لا أرى فيهم سيماء الشّيعة؟ قال: وما سيماء الشّيعة؟ قال: خمص البطون من الطوى، يبس الشّفاه من الظماء، عمش العيون من البكاء)، وأزعم أنك تدرك معنى كلامه عليه السلام، فكم منّا يستطيع الادّعاء من بعد أنه من شيعته بحسب ميزانه، ليس لنا غير أن ندعو الله أن يتجاوز عن سيئاتنا ويرحمنا برحمته.

كان الأشتر أقرب صحابة الإمام إلى نفسه، وساعده في جهاده إلى أن ذهب إلى جوار ربه شهيد ذلك الحب وتلك العاطفة، وقد كان له كما كان لرسول الله صلوات الله وسلامه عليهما، ومازال نسله الطيب على ذلك الحب والوفاء لأهل البيت عليهم السلام، ولقد ذهب، ولو أراد دنيا القوم لنالها، ولكن الله أراد تكريمه بدنيا عليٍّ وآخرته، ولعلّه كان يتضوّر حسرة وألّما مما كان يلقاه إمامه من دنيا القوم، فأراد وهو على يقين أن ما أراده بعيد المنال في عالمه عليه السلام، فقال وهو يسمع شكواه من القوم الذين ابتلي بهم على ما ذكر ابن أبي الحديد في شرح النهج ٣٩٥/٢:

(يا أمير المؤمنين، أنت تأخذهم بالعدل، وتعمل فيهم بالحق، وتُنصِف الوضيع من الشَّريف، فليس للشريف عندك فضلُ منزلة على الوضيع، فضجَّت طائفة ممن معك من الحق إذ عُمُّوا به، واغتمُّوا من العدل إذ صاروا فيه، ورأوا صنائع معاوية عند أهل الغناء والشَّرف، فتاقت أنفس الناس إلى الدنيا، وقلَّ من ليس للدنيا بصاحب، وأكثرهم يجتوي - يكره - الحقَّ ويشتري الباطل، ويؤثر الدنيا، فإن تبذل المال يا أمير المؤمنين تَمِلْ إليك أعناق الرجال، وتَصفُ نصيحتُهم لك، وتستخلص وُدَّهم، صنع الله لك يا أمير المؤمنين! وكبت أعداءك، وفضَّ جمعهم، وأوهن كيدهم، وشتَّت أمورَهم، إنه بما يعملون خبير).

ترى أليست تلك القيم التي اعترض عليها مالك هي عين القيم التي مازالت الإنسانية تناضل كي تحققها على مرِّ الحقب والأجيال، أليست هي التي تدور حولها موادُّ جميع دساتير الأمم التي تدَّعي الديمقراطية في قارَّات العالم، نعم هي هي، طبَّقها أبو الحسنين بحذافيرها بلا زيادة أو نقصان.

ولم تكن خبايا النفوس ورغباتها في ذلك المجتمع بغائبة عنه، وما كان بعيدًا عنها وهو العارف بخباياها، ومن غيره في هذه الدنيا قال: سلوني. نعم بكلِّ ما قاله مالك يستطيع أن يسوس ذلك المجتمع وينتصر على باطله الذي اجتاحه، ولكنه بهذا يلتحق بباطل القوم، وهو أمر يستحيل أن يدور في خلده، فما على هذا عاهد أخاه المصطفى صلوات الله عليهما، ولم يرده ليس طمعًا في آخرة فحسب، فقليل مما قدَّمه ضمن له أعلى علِّيين، ضمنها بعشرات المواقف التي ضجَّت بها ملائكة السماء. حينما افتدى الإسلام

بسيفه، وضمنها بانحيازه التام للحقّ والعدل من ناحية، ولفقراء الأمّة ومساكينها من ناحية ثانية.

أما العدل الذي أشار إليه مالك، فإنه عليه السلام خائف من أن يكون مقصِّرًا فيه، وأما المال لاصطناع الرجال، فمن أين يأتي به، ليس له غير طريق واحد، وهو سرقته من أموال الأمّة، وأما الاصطناع، فمازال مؤمنًا بقوله تعالى ﴿ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ ومازال مؤمنًا بأن الله يوم بعث محمَّدًا بعثه (وحده، فكثَّره بعد قلَّة، وأعزَّ فِئَته بعد الذِّلَّة، وإن يُرِدِ الله أن يولينا هذا الأمر يذلّل لنا صعبه، ويسهّل لنا حَزْنه)، وعلى الرغم من قبوله نصح صاحبه وثقته به، ولكنه لا يستطيع أن يقبل منه إلا ما يرضي الله عزَّ وجل.

ولم يكن الأشتر لوحده على ذلك الرأي فقد وروى ابن أبي الحديد أيضًا في شرحه ٢/٣٩٩ عن المدائني (أن طائفة من أصحاب علي عليه السلام مشوا إليه فقالوا: يا أمير المؤمنين، أعطِ هذه الأموال وفضّل هؤلاء الأشراف من العرب وقريش على الموالي والعجم، واستمل من تخاف خلافَه من الناس وفرارَه.... فقال لهم: أتأمرونني أن أطلب النَّصر بالجور! لا والله لا أفعل ما طلعت الشمس، وما لاح في السماء نجم، والله لو كان المال لي لواسيت بينهم، فكيف وإنما هي أموالهم)!!!.

ركوب الصعب

بعد أن يئس عليه السلام من عدول معاوية عن غيه، كان لزامًا أن يخرج إليه قبل أن تعم فتنته بقية الأمصار، وخاصة بعد أن التحق به من التحق من طلقاء قريش وغيرهم، ولم يجد الإمام بدًّا من الموجهة، بعد أن فشلت الرسل والرسائل في إقناعه بمبايعة الإمام وعدم الخروج عليها، كاد عليه السلام يتجهَّز إليه علّه يثنيه عن غيه هو ومن التحق به، فدفع لواءه إلى ولده محمد بن الحنفيَّة، ووضع عبد الله بن عباس على ميمنته، وعمر بن أبي سلمة أو عمرو بن سفيان بن عبد الأسد على ميسرته، وأبا ليلي بن عمر بن الجراح؛ ابن أخي عبيدة بن الجرَّاح على مقدّمته، ولكنَّ الأخبار وصلته بإعناق الجمل إلى البصرة فاضطر إلى تغيير وجهته عليه السلام.

وهكذا تلحظ كيف أن دبيب الفتنة القرشيَّة بدأ يدبُّ من اليوم الثاني من بيعته، وثابت فئة ممن طوتها الفتنة بعد فوات الأوان، وبعد فيضان من دماء المسلمين هدرتها في دورة اللاوعي التي مرَّت بها، وفجأة أحست بهول ما قامت به، فقدمت حياتها كما قدَّمت على مسرح فعلتها ما قارب العشرين ألف قتيل من المسلمين في معركة الجمل، وآلاف تتلوها آلاف على مرِّ الحقب والأزمان.

وحين أراد الباطل أن يفترش البلاد الإسلاميَّة، ونكث العهد من نكثه قام الإمام مخاطبًا أصحابه بعد أن وصله خبر الناكثين كما ورد في النهج ١٣١: (ألا وإنَّ الشيطانَ قد ذَمَّرَ -حضه وشجعه - حِزْبَه، واستجْلَبَ جَلَبَهُ،

ليعودَ الجَوْرُ إلى أوْطانه، ويَرْجِعَ الباطِلُ إلى نِصابِهِ، والله ما أنكروا عليَّ مُنْكَرًا، ولا جَعَلُوا بيني وبينَهم نَصفًا، وإنَّهم لَيَطْلبونَ حقًّا هم تركوه، ودَمًا هُمْ سَفَكُوهُ، فلئِنْ كُنْتُ شَريكَهم فيه فإنَّ لهم لَنَصيبَهم منه، ولئن كانوا وَلُوه دُوني فما التَّبِعَةُ إلاَّ عِنْدَهُم، وإنَّ أعظمَ حُجَّتِهِم لَعَلى أنْفُسِهِم !! يرتَضِعُونَ أمًّا قد فَطَمَتْ، ويُحْيُونَ بِدْعَةً قد أُمِيتَتْ، يا خيبةَ الدَّاعي !! مَن دعا؟ وإلامَ أُجِيبَ؟ وإنِّي لراضٍ بحُجَّةِ اللهِ عليهِم، وعِلْمِهِ فيهم. فإن أبَوا أعْطيتهُم حدَّ السَّيْفِ وكَفَى به شافِيًا من الباطِلِ، وناصِرًا للحَقِّ. ومن العَجَبِ بَعْثُهُم إليَّ أنْ أبْرُزَ للطِّعان! وأن أصْبِرَ للجِلاد، هَبِلَتْهُم الهَبُولُ لقد كنتُ ما أُهَدَّدُ بالحَرْبِ، ولا أُرَهَّبُ بالضَّرْبِ، وإنِّي لعلى يقينٍ من ربِّي، وغَيْرِ شُبْهَةٍ من ديني).

وأصبح المرتضى عند أهل الشام محرِّضًا على قتل عثمان، وشيئًا فشيئًا أصبح في نظرهم مشاركًا فيه، وهكذا وجد الإمام نفسه مضطرًّا إلى مغادرة المدينة بعد أن استعرت فتنة لابد من إطفاء نارها، أو وأدها مهما كلَّف الأمر.

المدينة
بعد مغادرة أمير المؤمنين

كانت السيِّدة عائشة في طريقها إلى المدينة يوم بلغها مصرع عثمان، ولمَّا علمت بتمام البيعة لعليٍّ عليه السلام انصرفت راجعة إلى مكَّة ثانية، وقصدت حجر الكعبة فاستترت به، فاجتمع الناس إليها فقالت: (يا أيها الناس، إنَّ الغوغاء من أهل الأمصار وأهل المياه وعبيد أهل المدينة اجتمعوا أن عاب الغوغاء على هذا المقتولِ بالأمس ... فتابعهم ونزع لهم عنها استصلاحًا لهم، فلمَّا لم يجدوا حجَّة ولا عذرًا .. فسفكوا الدَّم الحرام واستحلُّوا البلد الحرام وأخذوا المال الحرام، واستحلُّوا الشَّهر الحرام. والله لإصبع عثمان خيرٌ من طباق الأرض أمثالهم. فنجاة من اجتماعكم عليهم حتى ينْكِل بهم غيرهم ويشرِّد من بعدهم.. فقال عبد الله بن عامر الحضرمي: ها أنا ذا لها أوَّل طالب– وكان أوَّل مجيب ومنتدِب)، كما ذكر الطبري في تاريخه ١٧١/٤ من طبعة الأعلمي، واستقرَّ رأيها على الشُّخوص إلى المدينة بالملأ الذي سار في ركابها، ولكنَّهم أقنعوها بالتوجُّه إلى البصرة بسبب خضوع المدينة لعليٍّ بزعمهم كما ذكر الطبري أيضًا في ١٧٢/٤ – ١٧٥ وقالوا لها: (دعي المدينة فإن من معنا لا يقرنون لتلك الغوغاء التي بها، واشخصي معنا إلى البصرة، فإنَّا نأتي بلدًا مضيَّعًا، وسيحتجُّون علينا فيه ببيعة عليّ بن أبي طالب، فتُنهضينهم كما أنهضتِ أهل مكَّة ثمَّ تقعدين، فإن أصلح الله الأمر كان الذي تريدين، وإلاَّ احتسبنا ودفعنا عن

هذا الأمر بجَهدنا حتَّى يقضي الله ما أراد)، وكادت حفصة تخرج معها أيضًا ولكن أخاها عبد الله منعها.

ويوم أذَّن مروان بعد خروج ركب الجمل من مكّة وقف على طلحة والزبير وقال لهما: (أيكما أسلِّم بالإمرة وأؤذّن بالصلاة؟ فقال عبد الله ابن الزبير: على أبي عبد الله، وقال محمد بن طلحة: على أبي محمد، فأرسلت عائشة رضي الله عنها إلى مروان فقالت: مالك؟ أتريد أن تفرِّق أمرنا! ليصلِّ ابن أختي).

كانت عودتها إلى مكّة بداية محنة لن يتخلّص منها المسلمون إلى قيام الساعة، ويوم رجعت التحقت بها الفتنة بكلِّ قرونها وسوَّغت لها المطالبة بدم عثمان، وقد أجمل خروجها رفقة ذلك الركب ابن قتيبة في معارفه ٢٠٨ بقوله: (لحق بها طلحة والزبير ومروان بن الحكم وعبد الله بن عامر بن كريز ويعلى بن منبه عامل اليمن، فلمَّا تتامُّوا بمكّة تشاوروا في ما يريدون من الطَّلب بدم عثمان، وهموا بالشام لمكان معاوية بها، فصرفهم عبد الله بن عامر عن ذلك إلى البصرة، فتوجَّهوا إليها، فأخذوا عثمان بن حنيف عامل عليٍّ بها، فحبسوه، وقتلوا خمسين رجلاً كانوا معه على بيت المال وغير ذلك من أعماله، وأحدثوا أحداثًا، فلمَّا بلغ عليًّا سيرهم خرج مبادرًا إليهم، واستنجد بأهل الكوفة ثم سار بهم إلى البصرة)، وتابعه في غالب ما ذكره المسعودي في مروجه ٢/٣٦٦–٣٦٧؛ وليس دم عثمان هو الذي تباكى عليه ذلك الركب، إذ إن غالبية ما أهدر من دمه كان برقبته، ولا أدلَّ على ذلك من قتل مروان طلحة بسهم يوم أدبر النصر بوجهه عن ذلك الجيش، كما ستتبين من بعد.

ولم يجد أمير المؤمنين عليه السلام بُدًّا من اللحاق بهم علّه يُثنيهم عن غيِّهم ويعيدهم إلى جادّة الحقّ، وقد أجمل المسعودي في مروجه ٣٦٧/٢ خروجه من مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلّم بعد حوالي أربعة أشهر من خلافته عليه السلام، فقال: خرج منها (في سبعمائة راكب منهم أربعمائة من المهاجرين والأنصار منهم سبعون بدريًّا، وباقيهم من الصحابة، وقد كان استخلف عليها سهل بن حنيف الأنصاري)، وقال أيضًا: (ولحق بعلي من أهل المدينة جماعة من الأنصار فيهم خُزَيْمة بن ثابت الأنصاري ذو الشهادتين).

ولم تعد المدينة بذلك البهاء بعد أن غادرها الركب الهاشمي رفقة ذلك الحشد من المهاجرين والأنصار، فقد كادت تخلو من تلك النُّخبة التي رافقت الوحي وصاحبه، ويبدو أن واليه عليها سهل بن حنيف عافت نفسه البقاء فيها، فأحبَّ الالتحاق به عليه السلام، بعد أن أعلمه بتسلُّل أصحاب المطامع منها، فكتب إليه المرتضى كما ذكر البلاذري في أنسابه ٣٨٦/٢: (أما بعد فإنه بلغني أن رجالاً من أهل المدينة يخرجون إلى معاوية؛ فلا تأسف عليهم، فكفى لهم غيًّا، ولك منهم شافيًا فرارهم من الهدى والحق، وإيضاعهم إلى العمى والجهل، وإنما هم أهل دنيا مقبلون عليها، قد علموا أن الناس يقبلون في الحق أسوة،؛ فهربوا إلى الأثرة، فسحقًا لهم وبعدًا أما لو بعثرت القبور ﴿ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴾، واجتمعت الخصوم، وقضى الله بين العباد بالحقّ؛ لقد عرف القوم ما يكسبون، وقد أتاني كتابك تسألني الإذن لك في القدوم، فاقدم إذا شئت عفا الله عنَّا وعنك السلام).

ركب الناكثين

وأعنقَ الجمل من مكّة بركب الناكثين يريد البصرة، بعد أن حمل الباطل على كتفيه، وتمنطق بأكبر فتنة وبغي شهدهما التاريخ الإسلامي وسيبقى دخانها بنار أو بلا نار يخيّم على بلاد المسلمين، تهيّجه بين حين وآخر فئة باغية لا يعلم إلا الله متى يتخلّص الإسلام والمسلمون منها، وكان تحركه بداية لانشقاق رهيب في الجسد الإسلام، فالسائرين في ركابه لهم حضور كبير وواضح في نفوس المسلمين وفي مقدّمة ذلك الركب السيدة عائشة أم المؤمنين، فكيف لا ينحاز جمهور من المسلمين إليها وإلى من سار في ركابها، ويوم تحرك كان في وضع اقتصادي وعدّة وعدد، فقد أعنق بأموال المسلمين التي سرقها يَعْلَى بن أميَّة من اليمن، وبالأموال التي اكتنزها طلحة والزبير من عطايا الخليفة عثمان وهباته لهما، أما جيش الإمام فقد تحرَّك بعقيدته وقوَّة إيمانه، ورصيد الشخصية التي سار وراءها، على الرغم من خلوّ جعبتها من المغريات الدنيوية، ولا أشك في أن ذالك الركب الذي سار خلف الإمام تكفَّل بقُوْتِهِ وجهازه كما تكفل براحلته، ليس في هذه الحرب فحسب، وإنما في كل المواقع التي التحق فيها بركب الإمام.

ما كان عليه السلام يخاف خروج من خرج ولا يرهبه، فهو على بيِّنة من دينه، وهو إن قاتل أو سالم، فإنه لا يبحث عن أوسمة أو نياشين ، لأن ما اتشح به منها لا ينحصر بعدٌ، إنه قتال أو سلام يرتبط بالمبادئ والقيم التي تتحكم به. وكان بلا شكٌ على يقين من خروجهم، ومأمور بحربهم، وهو يوم خرجوا كان على بيِّنة أيضًا بأنهم تركوا الحقَّ إلى باطلٍ ما أغناهم عنه لو أرادوا، ولكنه قدر الله يمتحن به عباده، وعجيب أنهم ما أن خرجوا حتى اختلفوا بمن يصلّي بهم، ومن يُسَلَّم عليه بالإمرة.

ويوم ركبت أم المؤمنين عائشة نسيت قول رسول الله صلوات الله وسلامه عليه: «يا حميراء، كأني بك تنبحك كلاب الحُوأب. تقاتلين عليًّا وأنت له ظالمة» كما روى ابن عبد ربه في عقده ٤/٣٠٥ من بين من رووا؛ ولم تأخذ بنصح أم سلمة ولا بتحذيرها وإنذارها، ولا بالهول الذي صورته لها يوم قالت: (ما كنت قائلة لرسول الله صلى الله عليه وسلم لو عارضك ببعض هذه الفلوات ناصَّةً قَعودًا من منهل إلى منهل؟ وغدًا تردين على رسول الله صلى الله عليه وسلم. أقسم لو قيل لي: يا أم سلمة، ادخلي الجنَّة، لاستحييتُ أن ألقى رسول الله صلى الله عليه وسلم هاتكة حجابًا ضربه عليّ) كما روى ابن عبد ربه في عقده ٤/٢٩١ من بين من رووا أيضًا، وذكر قريبًا من هذا عن أم سلمة الحاكم في المستدرك ٣/١١٩، وزاد عليه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلَّم التفت إلى عليٍّ فقال: «إن ولِّيت من أمرها شيئًا فارفق بها»، وما أن وصل الركب بعض ديار بني عامر حتى (نبحت عليها الكلاب، فقالت أيُّ ماء هذا؟ قالوا: الحوأب. قالت: ما أظنني إلاَّ راجعة. فقال الزبير: إلا بعد أن تقدمي ويراك الناس ويصلح الله ذات بينهم، قالت: ما أظنني إلا راجعة سمعت رسول الله يقول: «كيف بإحداكُنَّ إذا نبحتها كلاب الحوأب»)، كما روى الحاكم في مستدركه بسنده ٣/١١٩، وروى الطبري في تاريخه ٤/١٧٨ من طبعة الأعلمي بسنده أنَّ العرنيَّ صاحب جملها ودليلهم قال: (فسرتُ معهم فلا أمرُّ بالطريق على وادٍ ولا ماء إلاَّ سألوني عنه، حتى طرقنا ماء الحوأب فنبحتنا كلابها، فقالوا: أيّ ماء هذا؟ قلت: ماء الحوأب، قال: فصرخت عائشة بأعلى صوتها، ثم ضربت عضُدَ بعيرها فأناخته، ثم قالت: أنا والله صاحبة كلاب الحوأب طروقًا، رُدُّوني! تقول

ذلك ثلاثًا. فأناخت، وأناخوا حولها وهم على ذلك، وهي تأبى حتى كانت السَّاعة التي أناخوا فيها من الغد. قال: فجاءها ابن الزبير فقال: النجاء النجاء فقد أدرككم والله علي بن أبي طالب!).

وغريب تغيُّر الأحوال بين فينة وفينة في ذلك الدَّامس، فقد روى والطبري في تاريخه ٤/٤٩٨ وابن عبد ربه في عقده ٤/٢٩٤ من بين من رووا أنها قبل أن تركب ذلك الجمل المشؤوم، وقبل التحاق من التحق بها التقاها الأحنف بن قيس بمكة بعد مصرع عثمان كما التقى بالمدينة طلحة والزبير من قبل، وسألها كما سألهم (من تامريني أن أبايع؟ قالت: علي بن أبي طالب. قلتُ أتأمريني به وترضينه لي؟ قالت: نعم)، فارتضت له عليًّا كما ارتضاه له طلحة والزبير قبل مصرع عثمان، ويبدو أنه ليس الأحنف لوحده الذي استشارها، وإنما استشارها أيضًا عبد الله بن بُدَيْل الخزاعي، روى ابن عبد ربّه في عقده ٤/٣٠٢ بسنده فقال: (انتهى عبد الله بن بديل إلى عائشة وهي في الهودج، فقال: يا أم المؤمنين، أنشدك بالله أتعلمين أني أتيتك يوم قتل عثمان فقلت لك: إن عثمان قد قتل فما تأمريني به؟ فقلت لي: الزم عليًّا فوالله ما غيَّر ولا بدَّل ..).

لقد خرجوا، وكان خروجهم أكبر الغصص التي تجرَّعها أمير المؤمنين عليه السلام في حياته، بل من أكبر الكوارث على الإسلام، فقد بايعاه ونكثا بعد أن علما أنهما أمام رجل ليس من ورائه لا حلوٌ ولا حامض، بل ما وجدا مكانة لأحد كبيرًا كان أو صغيرًا عنده، فالرعيَّة متساوية في الحقِّ في مجلسه، بل الكبير فيه صغير حتى يستوفي الحقَّ منه.

وداع مدينة رسول الله

ولا شكّ أنه عليه السلام يوم قرّر الخروج إلى البصرة وراء القوم لإقناعهم بهول ما يقدمون عليه وخطورته، ودَّع في المدينة عمرًا فيه كلّ أحبته وذكرياته، فهذا قبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم يلجأ إليه بعد كلّ عاصف يعصف به، ويعود منه وقد امتلأ طمأنينة وإيمانًا، وذاك قبر أمّه يلوذ به بين حين وآخر كما يلاذ بالظلّ في ساعة الهجير، وذلك قبر عمّه حمزة الذي لابد أن يكون قد زاره مرّات ومرّات رفقة أخيه أو ابنته صلوات الله وسلامه عليهم، ومثله قبر عمّه العبّاس الذي ودّعه قبل سنيّات إلى مثواه الأخير في البقيع، وذلك قبر قُرّة عينه الزهراء يذكّره بأيّام الدفء التي نعم بها تحت خيمة رسول الله ومحبّته وعطفه، وقريب من كلّ ذلك مصارع أهل بيته من بني هاشم، ومن رحل منهم، كما ودَّع ذكريات احتفاء السماء ببطولاته في معارك الإسلام الكبرى بدر، وأحد، والخندق، وحنين، وغيرها، بل إن المدينة بكلّ أزقتها وحواريها تذكره بأنفاس الوحي التي كان يصابحها ويماسيها رفقة أخيه رسول السلام.

ولا شكّ أنه قبل خروجه عليه السلام زار هذا أو ذاك، أو هذه أو تلك من الأحبّة والأصحاب ممن لا يقوى على مرافقته في رحيل اللا عودة من المدينة.

وإذا كان التاريخ نسي حفظ أسماء من ودَّعهم ربيب الوحي فإنه لم ينسَ وداعه أم سلمة زوج رسول الله، فقالت له كما روى الحاكم في مستدركه ٣/ ١١٩ بسنده: (سِر في حفظ الله وفي كنفه، فوالله إنك لعلى حقّ، والحقّ معك ولولا أني أكره أن أعصى الله ورسوله فإنه أمرنا صلى الله عليه وآله أن نقرّ في

بيوتنا لسرتُ معك، ولكن لأرسلنَّ معك من هو أفضل عندي وأعزُّ عليَّ من نفسي ابني عمر).

ويبدو أن بعض الصحابة نصحه بعدم مغادرة المدينة، فردَّهم ردًّا قاطعًا لا رجعة فيه إذ قال عليه السلام كما ورد في النَّهج ١١٣: (والله لا أكونُ كالضَّبع: تنامُ على طولِ اللَّدْم - ضربٌ غير شديدٍ - حتى يَصِلَ إليها طالبُها، ويختِلُها راصِدُها، ولكنِّي أضرِبُ بالمُقْبِلِ إلى الحقِّ المُدبِرَ عنه، وبالسَّامعِ المطيعِ العاصي المريب أبدًا، حتَّى تأتي عليَّ يومي. فوالله مازلت مدفوعًا عن حقِّي مُستَأثرًا علي منذ قبض اللهُ نبيَّه صلَّى الله عليه وآله وسلَّم حتى يوم النَّاس هذا).

بل قل: كيف يأخذ بنصيحتهم؟ وعجيب أن يصدر منهم النُّصح بعد أن أمروا بالخروج معه وراء الناكثين، وكأنهم نسوا أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم بقتالهم وقتال غيرهم معه عليه السلام، وإن كنت في ريب فلك في ما رواه ابن عساكر في ترجمته عليه السلام بتاريخه ٣/١٩١—٢٢٠ فيض من الأحاديث الشريفة عن كبار الصحابة توثِّق ما ورد عنه صلى الله عليه وآله بوجوب قتال الناكثين والمارقين والقاسطين، وهذا يوم الناكثين رفع رايته واتَّجه بها إلى البصرة.

إلى البصرة

قتال الناكثين

ومما ابتلي به أمير المؤمنين عليه السلام أن قادة جيش الناكثين الذي استقرّ في البصرة، كان ملء السمع والبصر، فهذه السيِّدة عائشة زوج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم، وعن يمينها وشمالها طلحة والزبير، بالإضافة إلى يَعْلَى بن منيَّة وغيره، ولقد قال عليه السلام من بين ما قال: (بُليتُ بأنضّ الناس، وأنطق الناس، وأطوع الناس بالناس)، أراد بأنضّ الناس يَعْلَى، وكان من أكثر الناس ثراء وخاصة بعد أن استولى على بيت مال المسلمين في اليمن وهرب به إلى مكّة، وهو صاحب (عسكر) جمل السيدة عائشة، الذي اشتراه لها بثمن لم يقاربه ثمن أي جمل في ذلك الزمن، ووضع عليه هودجًا من حديد، وجهَّز من ماله لحرب الإمام خمسمائة فارس بأسلحتهم وما يحتاجون إليه، وحقٌّ له أن يفعل، فإنَّ من ورائه حسابٌ لا يقبل المساومة بالإضافة إلى إقطاعية اليمن التي ضاعت من بين يديه، ولن تعود هي أو غيرها إلاّ بذهاب عليٍّ، وأما أنطق الناس فقد عنى به طلحة بن عبيد الله، وحقٌّ لطلحة أن يفعل أيضًا، فكثير من دم عثمان يتحمَّل وزره، وهذه الخلافة قاب قوسين أو أدنى منه بظّنه شريطة أن يتخلّص من صاحبها بأيِّ ثمن كان، وأما أطوع الناس بالناس فعائشة أم المؤمنين كما ذكر ابن عبد ربه في عقده ٢٩٩/٤ -٣٠٠، وحقٌّ للزبير أن يمتشق حسامه الذي امتشقه بالأمس في وجه من زاحم عليًّا فزحمه أن يمتشقه اليوم، ولكن في وجه ابن خاله، فالأمس الذي كان يضجُّ بالزحام قد ذهب، أما اليوم فليس

غير عليٍّ يتخلّص منه وتكون الصّدارة له كما خيِّل إليه، فهو ابن عمَّة رسول الله المؤيَّد بأم المؤمنين أخت أسماء زوجته وابنة أبي بكر فمن يستطيع مزاحمته عليها من قريش نسبًا وموقعًا!!

وما أن وصلت كتائبهم البصرة حتى كتبت عائشة إلى زيد بن صوحان: (من عائشة أم المؤمنين إلى ابنها البار زيد بن صوحان، سلام عليك. أما بعد، فإنَّ أباك كان رأسًا في الجاهلية وسيِّدًا في الإسلام، وإنَّك من أبيك بمنزلة المُصَلِّي من السابق، يقال كاد أو لحق، وقد بلغك الذي كان في الإسلام من مصاب عثمان بن عفان، ونحن قادمون عليك، والعِيان أشفى لك من الخبر. فإذا أتاك كتابي هذا فثبِّط الناس عن علي بن أبي طالب، وكن مكانك حتى يأتيك أمري والسلام)، غير أن الرجل كان على بيِّنة من أمره، ويقين من دينه، فكتب إليها: (من زيد بن صوحان إلى عائشة أم المؤمنين. سلام عليك، أما بعد، فإنَّك أُمِرتِ بأمرٍ وأُمِرنا بغيره. أمرتِ أن تَقَرّي في بيتك، وأمرنا أن نقاتل الناس حتى لا تكون فتنة؛ فتركتِ ما أمرت به وكتبتِ تنهينا عما أُمِرنا به والسلام)، وقدر روى الرسالتين ابن عبد ربه في عقده ٢٩٢/٤، أما أخبار تلك الأيَّام فقد فصَّل فيها القول الطبري في تاريخه ١٨٢/٤–١٨٩ من طبعة الأعلمي ولم يبتعد عن الذي ذكرناه.

وروى ابن عبد ربه في عقده ٢٩٣/٤ أيضًا أنه دخل عليها عثمان بن حنيف والي أمير المؤمنين وبرفقته عمران بن حصين ووالد أبي الأسود راوية الخبر فقالوا لها: (يا أم المؤمنين أخبرينا عن مسيرك هذا. عهدٌ عَهِدَهُ إليك رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ أم رأي رأيتيه؟ قالت: بل رأيٌ رأيْتُهُ حين قُتِلَ عثمان بن عفان، إنَّا نقِمنا عليه ضربه بالسوط، وموقع المسحاة المُحماة،

وإمرة سعيد والوليد، فعدوتم عليه فاستحللتم منه ثلاث حرم: حرمة البلد، وحرمة الخلافة، وحرمة الشهر الحرام، بعد أن مصتموه كما يُماص الإناء فغضِبنا لكم من سوط عثمان، ولا نغضب لعثمان من سيفكم؟ قلنا: ما أنت وسيفُنا وسوط عثمان، وأنت حَبِيس رسول الله صلى الله عليه وسلَّم! أمرك أن تَقَرِّي في بيتكِ فجِئتِ تضربين الناس بعضهم ببعض! قالت: وهل أحدٌ يقاتلني أو يقول غير هذا؟ قلنا: نعم. قالت: من يفعل ذلك؟ هل أنت مُبْلِغٌ عنِّي يا عمران؟ قال: لست مبلِّغًا عنك حرفًا واحدًا. قلتُ - أي والد أبي الأسود -: لكنَّني مبلِّغٌ عنك فهاتِ ما شئتِ. قالت: اللهم اقتل مذمَّمًا قِصاصًا بعثمان، وارمِ الأشتر بسهم من سهامك لا يُشْوِي، وأدرك عمَّارًا بخَفَرِهِ بعثمان)، وقد أرادت بمذمم أخاها محمدًا ظنًّا منها أنه شارك بقتل عثمان، كما ظنَّت أن الأشتر شارك بقتله، ونسيت ما قاله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم بالفئة التي تقتل عمَّارًا، ونسيت ما قاله بحقِّه في غير مناسبة، ونسيت ما فعله جلاوزة عثمان بعمار يوم ذهب إليه برسالة من أهل المدينة يذكرونه فيها بما بايعوه عليه، ولو أخذ بتلك الرسالة لكان للأمر وجه آخر، كما قُدِّر لها أن تنسى ما أمرت به، وحدِّثت به قبل يومها هذا.

ويوم عزل أمير المؤمنين عليه السلام عمال عثمان أبقى أبا موسى الأشعري على ولاية الكوفة لأنَّ أهلها ارتضوه، أو لأنَّ مالكًا الأشتر كلمه فيه كما ذكر اليعقوبي في تاريخه ٢/٧٧، ولكنَّه بدلاً من الانتصار للحقِّ انتصر للباطل فثبَّط الناس من الخروج خلف أمير المؤمنين في وقت لم يعلن فيه الإمام عليه السلام الحرب، وإنما جاء لإقناع القوم كي يعدلوا عن غيِّهم، وكان لابد له من قوة تساند الحقَّ وتعيد النَّاس إلى رشدهم.

ووصل جيش أمير المؤمنين عليه السلام مشارف البصرة بعد أن التحق به عدي بن حاتم بقبيلته طيِّئ، وزفر بن زيد في قومه من بني أسد كما ذكر ابن قتيبة في الإمامة والسياسة ١/٥٥، واضطرَّ الإمام حين وصل (ذي قار) إلى إرسال ولده الحسن عليه السلام رفقة عمار بن ياسر لاستنفار أهل الكوفة بعد أن ثبَّطهم أبو موسى، ووقف في وجوههم، ويراودني يقين أنه كان يبحث عن دور قادم أيضًا، إذا لم يكن له فقد يكون لزوج ابنته عبد الله بن عمر كما سيتبين من بعد، ونتيجة لموقفه الغريب ذاك عزله الإمام عن الكوفة وولّى عليها قَرَظة بن كعب الأنصاري كما ذكر المسعودي في مروجه ٢/٣٦٨، وسار إليه من الكوفة قرابة سبعة آلاف فيهم مالك الأشتر، وذكر المسعودي في مروجه ٢/٣٩٤ أيضًا أن حذيفة بن اليمان كان مريضًا في الكوفة فلما بلغه مقتل عثمان، (وبيعة الناس لعليٍّ قال: أخرجوني وادعوا الصلاة جامعة، فوضع على المنبر، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي وآله، ثمَّ قال: أيها الناس، إن الناس قد بايعوا عليًّا، فعليكم بتقوى الله وانصروا عليًّا ووازروه، فوالله إنه لعلى الحقِّ آخرًا وأوَّلاً، وإنه لخير من مضى بعد نبيِّكم ومن بقى الى يوم القيامة، ثمَّ أطبق يمينه على يساره ثم قال: اللهم اشهد إني قد بايعت عليًّا، وقال: الحمد لله الذي أبقاني إلى هذا اليوم، وقال لولديه صفوان وسعد: احملاني وكونا معه، فستكون له حروبٌ كثيرة فيهلك فيها خلق من الناس، فاجتهدا أن تستشهدا معه، فإنه والله على الحقِّ، ومن خالفه على الباطل، ومات حذيفة بعد هذا اليوم بسبعة أيّام، وقيل: بأربعين يومًا).

وقدَّم المسعودي في مروجه ٢/٣٦٨ بسنده أيضًا وصفًا لقيادة ركب أمير المؤمنين عليه السلام بيَّن فيه حجم الإيمان الذي التحق به وقاده، فهذا موكب

احتشد بالمهاجرين والأنصار يقوده أبو أيوب الأنصاري، وهذا آخر احتشد بمثلهم يقوده خزيمة بن ثابت الأنصاري ذو الشهادتين، وآخر مثلهما يقوده أبو قتادة بن ربعي، وآخر يقوده فارس (على فرس أشهب عليه ثياب بيض وعمامة سوداء أسدلها من بين يديه ومن خلفه شديد الأدمة عليه سكينة ووقار رافع صوته بقراءة القرآن متقلّدٌ سيفًا متنكّبٌ قوسًا معه راية بيضاء في ألف من الناس مختلفي التيجان حوله مشيخة وكهول وشباب كأنما قد أوقفوا للحساب، أثر السجود قد أثّر في جباههم، فقلت: —الراوي— من هذا؟ فقيل: عمَّار بن ياسر في عِدَّة من الصَّحابة من المهاجرين والأنصار وأبنائهم)، وآخر يقوده عبد الله بن عباس، (ثم أقبلت المواكب والرايات يقدم بعضها بعضًا واشتبكت الرماح، ثم ورد موكب فيه خلق من الناس عليهم السلاح والحديد مختلفو الرايات في أوَّله راية كبيرة يقدمهم رجل كأنما كُسِر وجُبِرَ نظره إلى الأرض أكثر من نظره إلى فوق كأنما على رؤوسهم الطير، وعن يمينه شابٌّ حسن الوجه، وعن يساره شابٌّ حسن الوجه، وبين يديه شابٌّ مثلهما، فقلت: من هؤلاء قيل: هذا علي بن أبي طالب، وهذان الحسن والحسين عن يمينه وشماله، وهذا محمد بن الحنفيَّة بين يديه معه الراية العظمى، وهذا الذي خلفه عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، وهؤلاء ولد عقيل وغيرهم من فتيان بني هاشم، وهؤلاء المشايخ هم أهل بدر من المهاجرين والأنصار).

وفعل ركب أصحاب الجمل فعلتهم بوالي أمير المؤمنين عليه السلام وصحبه، وكانوا في أخذ وردٍّ ما بين قتله وحبسه، واستقرَّ رأيهم على حبسه بعد أن ضربوه أربعين سوطًا ونتفوا شعر لحيته ورأسه وحاجبيه وأشفار عينيه

كما ذكر الطبري في تاريخه ١٨٨/٤ من طبعة الأعلمي، وقد تجد تبريرًا للحبس إن أردت، ولكن أي تبرير تجده لمن خرج بزعمه للثأر لحرمة الخلافة التي انتهكت في البلد الحرام والشهر الحرام بنتف شعر رأس ذلك الصَّحابي وحاجبيه وأشفار عينيه؟!!!

بل إنَّ اليعقوبي روى في تاريخه ٧٩/٢ حكايتين، إحداهما حول غدرهم بوالي الإمام عليه السلام، الذي منع السيدة عائشة ومن معها من دخول البصرة، ولكنهم قالوا له: (لم نأت لحرب، وإنما جئنا لصلح، فكتبوا بينهم وبينه كتابًا أنهم لا يحدثون حدثًا إلى قدوم علي، وأنَّ كلَّ فريق منهم آمن من صاحبه، ثم افترقوا، فوضع عثمان بن حنيف السلاح، فنتفوا لحيته، وأشفار عينيه وحاجبيه، وانتهبوا بيت المال، وأخذوا ما فيه)، أما الحكاية الثانية فهي أنه حينما حان وقت الصلاة (تنازع طلحة والزبير، وجذب كل واحد منهما صاحبه، حتى فات وقت الصلاة، وصاح الناس: الصلاة الصلاة يا أصحاب محمد! فقالت عائشة: يصلي محمد بن طلحة يومًا، وعبد الله بن الزبير يومًا، فاصطلحوا على ذلك).

وحين أخذت الخيل مصافها في جيش أصحاب الجمل كان جون بن قتادة في جيش الزبير ويقربه كما ذكر الطبري في تاريخه ٢٢٤/٤ ، الذي روى عنه رواية مفادها أن أحدهم سلَّم بالإمرة على الزبير، وأخبره أنه مرَّ بجمع من أصحاب عليٍّ فيهم عمار بن ياسر، فأنكر الزبير أن يكون عمار معهم، فلمَّا أصرَّ الرجل على رأيه أرسل الزبير أحدهم ليستطلع الأمر، فلما أعلمه بصدق ما ذكر الرجل قال الزبير: (يا جدع أنفاه - أو يا قطع ظهراه - ثم أخذه أفكل، فجعل السلاح ينتفض، فقال جون: ثكلتني أمِّي، هذا الذي كنت

أريد أن أموت معه، أو أعيش معه، والذي نفسي بيده ما أخذ هذا ما أرى إلاّ لشيء سمعه أو رآه من رسول الله صلى الله عليه وسلم)، فلما تشاغل النّاس انصرف جون فلحق بالأحنف.

وأفاق طلحة والزبير من سكرتهما، ولكن لات حين إفاقة، وبدأ بلبال يهزُّ كيانهما بعنف ما بعده عنف، وأصبحا ما بين أمرين أحلاهما أشدّ مرارة من العلقم، بين الحقّ الذي لا مراء فيه الذي غيبته عنهما المطامح الدنيوية حينًا فأبصراه جليًّا لا شكَّ فيه، وبين الجيوش التي جيشاها بكل الباطل الذي ألبساه قميص عثمان، وهما على يقين من دورهما في مصرعه وتأليب الخلق عليه، أما الزبير فقد دعاه أمير المؤمنين عليه السلام قبل تدافع الغبار والرماح مشرعة، والتقاه دونما سلاح وكان الزبير بكامل عدَّته، فذكَّره بحديث رسول الله صلوات الله وسلامه عليه يوم اتَّهمه بالزهو كما روى أبو الفرج في أغانيه ١٨/١٩ وغيره ممن رووا «مه ليس بمزهوٍّ ولتقاتلنّه وأنت له ظالم» فقال: اللهم نعم، ولو ذكّرت ما سرت مسيري هذا، والله لا أقاتلك أبدًا، وللحديث رواية أخرى أو للمناسبة حديث آخر رواه ابن عبد ربه في عقده ٤/ ٢٨٩ وهو أن الإمام حين التقى الزبير يوم الجمل قال له: (أبا عبد الله، أتذكر يومًا أتانا النبيُّ صلى الله عليه وسلم وأنا أناجيك فقال: أتناجيه! والله ليُقاتلنَّك وهو ظالم لك)، فما كان من الزبير إلاّ أن صرف وجه دابَّته وانصرف، ولكن لات حين انصراف كما سبق القول، وروى الطبري في تاريخه ٤/٢١٧–٢١٨ من طبعة الأعلمي لحكاية اللقاء بينهما روايتين الأولى عن قتادة وهي: (فدنا منهما حتى اختلفت أعناق دوابِّهم، فقال عليٌّ: لعمري لقد أعددتما سلاحًا وخيلاً ورجالاً، إن كنتما أعددتما عند الله عذرًا

فاتَّقيا الله سبحانه، ولا تكونا كالتي نقضت غزلها من بعد قوَّة أنكاثا، ألم أكن أخاكما في دينكما، تحرِّمان دمي وأحرِّم دماءكما! فهل من حدثٍ أحلَّ لكما دمي؟ قال طلحة: ألّبت النَّاس على عثمان رضي الله عنه، قال عليٌّ: ﴿ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴾، يا طلحة، تطلب بدم عثمان رضي الله عنه! فلعن الله قتلة عثمان. يا زبير، أتذكر يوم مررت مع رسول الله صلى الله عليه وسلّم في بني غنم، فنظر إليَّ فضحك وضحكت إليه، فقلت: لا يدع ابن أبي طالب زهوه، فقال لك رسول الله صلى الله عليه وسلّم «صه، إنه ليس به زهو، ولتقاتلَنَّه وأنت له ظالم»؟ فقال: اللهم نعم، ولو ذكرت ما سرت مسيري هذا، والله لا أقاتلك أبدًا)، والثانية في ٢٢٣ من الجزء نفسه عن غير سيف، أنه لما توافقوا (خرج علي على فرسه، فدعا الزبير، فتواقفا، فقال علي للزبير: ما جاء بك؟ قال: أنت، ولا أراك لهذا الأمر أهلاً، ولا أولى به منَّا؛ فقال علي: لست له أهلاً بعد عثمان! قد كنَّا نعدُّك من بني عبد المطّلب حتى بلغ ابنُك ابن السوء ففرَّق بيننا وبينك؛ وعظَّم عليه أشياء، فذكر أن النبيَّ صلى الله عليه وسلّم مرَّ عليهما فقال لعليٍّ: « ما يقول ابن عمَّتك؟ ليقاتلنَّك وهو لك ظالم». فانصرف عنه الزبير، وقال: فإني لا أقاتلك. فرجع إلى ابنه عبد الله فقال: مالي في هذه الحرب بصيرة، فقال له ابنه: إنك قد خرجت على بصيرة، ولكنَّك رأيت رايات ابن أبي طالب، وعرفت أن تحتها الموت، فجبُنت. فأحفظه حتى أرعد وغضب، وقال: ويحك إني قد حلفت له لا أقاتله، فقال له ابنه: كفِّر عن يمينك بعتق غلامك سرجس، فأعتقه وقام في الصفِّ معهم، وكان عليٌّ قال للزبير: أتطلب مني دم عثمان وأنت قتلته! سلّط الله على

أشدّنا عليه اليوم ما يكره)، وقد سلّط الله عليه ما يكره، فما أن وقعت الهزيمة حتى فرَّ الناس عنه وعن غيره، وانصرف إلى وادي السباع فقتله ابن جرموز في الرواية المعروفة التي رواها الطبري في تاريخه ٥١٢/٤–٥١٣ وغيره.

وذكر المسعودي في مروجه ٣٧١/٢–٣٧٢ الرواية السابقة، ولكنه ختمها بقول الزبير لأمير المؤمنين: (وكيف أرجع الآن وقد التقت حلقتا البطان؟ هذا والله العار الذي لا يغسل، فقال يا زبير ارجع بالعار قبل أن تجمع العار والنَّار، فرجع الزبير وهو يقول:

اخترتُ عارًا على نار مؤجَّجَةٍ ... ما إن يقوم لها خَلْقٌ من الطِّينِ
نادى عليٌّ بأمرٍ لست أجهله ... عار لعمرك في الدنيا وفي الدِّينِ
فقلت: حسبك من عذلٍ أبا حسنٍ ... فبعض هذا الذي قد قلت يكفيني

فقال ابنه عبد الله: أين تذهب وتدعنا؟ فقال: يا بنيَّ أذكرني أبو الحسن بأمرٍ كنت قد نسيته. فقال: لا والله، ولكنَّك فررت من سيوف بني عبد المطَّلب؛ فإنها طوال حداد، تحملها فتية أنجاد، قال: لا والله، ولكنّي ذُكِّرتُ ما أنسانيه الدَّهر، فاخترت العار على النَّار، أبالجبن تعيِّرُني لا أبا لك؟ ثمَّ أمال سنانه وشدَّ في الميمنة، فقال عليٌّ: أفرِجوا له فقد هاجوه، ثمَّ رجع فشدَّ في الميسرة، ثمَّ رجع فشدَّ في القلب، ثمَّ عاد إلى ابنه، فقال: أيفعل هذا جبان، ثمَّ مضى منصرفًا، حتى أتى وادي السباع، والأحنف بن قيس معتزلٌ في قومه من بني تميم، فأتاه آتٍ فقال له: هذا الزبير مارًّا، فقال: ما أصنع بالزبير وقد جمع بين فئتين عظيمتين من الناس يقتل بعضهم بعضًا، وهو مارٌّ إلى منزله سالمًا!، فلحقه نفر من بني تميم فسبقهم إليه عمرو بن جُرموز، وقد نزل الزبير إلى الصلاة، فقال: أتؤمُّني أو أؤمُّك؟ فأمَّه الزبير، فقتله عمرو في الصلاة).

وذكر المسعودي في المصدر السابق ٣٧٣/٢ أيضًا: (وأتى عمرو بسيف الزبير وخاتمه ورأسه، وقيل لم يأت برأسه، فقال علي: سيف طالما جلا الكرب عن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكنه الحين ومصارع السوء، وقاتل ابن صفيَّة في النار؛ ففي ذلك يقول عمرو بن جرموز التميمي في أبيات:

أتيت عليًّا رأس الزبير وكنت أرجو به الزلفه
فبشَّر بالنار قبل العيانِ وبئس بشارة ذي التحفه
لسيَّان عندي قتلُ الزبير وضرطة عنز ذي الجحفه).

وأما طلحة فقال له الإمام كما روى الطبري في تاريخه ٥٠٩/٤: (يا طلحة، جئت بعِرسِ رسول الله صلى الله عليه وسلم تقاتل بها وخَبَأتَ عِرسك في البيت..)، وروى المسعودي في مروجه ٣٧٣/٢ أن عليًّا عليه السلام نادى طلحة بعد رجوع الزبير وقال له: (يا أبا محمد، ما الذي أخرجك؟ قال: الطلب بدم عثمان، قال علي: قتل الله أولانا بدم عثمان، أما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلَّم يقول: « اللهمَّ وال من والاه وعاد من عاداه» وأنت أوَّل من بايعني ثم نكث، وقد قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ ﴾، فقال: أستغفر الله، ثمَّ رجع، فقال مروان بن الحكم: رجع الزبير ويرجع طلحة، ما أبالي رميت ههنا أم ههنا، فرماه في أكحله فقتله، فمرَّ عليٌّ بعد الوقعة في موضعه في قنطرة قرة، فوقف عليه وقال: إنا لله وإنَّا إليه راجعون، والله لقد كنت كارهًا لهذا..).

ويبدو أنه عليه السلام بعدما أعيته الحيلة معهم أخذ مصحفًا وطاف به في أصحابه، كما حدَّث الطبري في تاريخه ٢٢٥/٤ من طبعة الأعلمي بسنده عن

عمّار بن معاوية الدهني، وقال: (من يأخذ هذا المصحف يدعوهم إلى ما هو فيه وهو مقتول؟! فقام إليه فتًى من أهل الكوفة عليه قباء أبيض محشوّ، فأعرض عنه)، ثم كرَّر القول عليه السلام ثلاث مرَّات، وذلك الفتى عينه يقول له: أنا، فدفعه إليه، (فدعاهم فقطعوا يده اليمنى، فأخذه بيده اليسرى، فدعاهم فقطعوا يده اليسرى، فأخذه والدماء تسيل على قبائه، فقتل رضي الله عنه، فقال علي: الآن حلَّ قتالهم).

وذهب طلحة بسهم رماه به مروان بن الحكم لما هُزم الناس كما ذكر الطبري في تاريخه، واليعقوبي في تاريخه ٨١/٢ والذهبي في تاريخه ٥٢٨/٣، وروى ابن عبد ربّه في عقده ٢٩٥/٤ أنه كان أول مصروع، أتاه سهم غرب فأصاب ركبته، فكان إذا أمسكوه فتر الدم، وإذا تركوه انفجر، فقال لهم: اتركوه، فإنما هو سهم أرسله الله، وذكر أنه قال:

ندمت ندامة الكُسَعِيِّ لمَّا طلبتُ رضا بني حَزمٍ بزعمي

اللهم خذ منِّي لعثمان حتى ترضى، وروى أيضًا من حديث أبي بكر بن أبي شيبة قال: (لمَّا رأى مروان بن الحكم يوم الجمل طلحة بن عبيد الله قال: لا أنتظر بعد اليوم بثأري في عثمان. فانتزع له سهمًا فقتله).

وأما السيدة عائشة فروى الطبري في تاريخه ٢٢٣/٢–٢٢٤ من طبعة الأعلمي أنَّ محمد بن أبي بكر احتملها (فضُرب عليها فسطاط، فوقف عليٌّ عليها فقال: استفززت النَّاس وقد فزُّوا، فألَّبت بينهم، حتى قتل بعضهم بعضًا ... في كلام كثير. فقالت عائشة: يا بن أبي طالب، ملكت فأسجح، نعم ما أبليت قومك اليوم! فسرَّحها عليٌّ، وأرسل معها جماعة من الرجال والنساء، وجهزها وأمر لها باثني عشر ألفًا من

المال)، وذكر رواية أخرى عن سيف عن محمد وطلحة قالا: (أمر عليٌّ نفرًا بحمل الهودج من بين القتلى، وقد كان القعقاع وزفر بن الحارث أنزلاه عن ظهر البعير، فوضعاه إلى جنب البعير، فأقبل محمد بن أبي بكر إليه، ومعه نفر، فأدخل يده فيه، فقالت: من هذا؟ قال: أخوك البرُّ، قالت: عقوق. قال عمار بن ياسر: كيف رأيت ضرب بنيك اليوم يا أمّه؟ قالت: من أنت؟ قال: ولدك البار عمّار؟ قالت: لست لك بأم، قال: بلى، وإن كرهت...فانتهى إليها عليٌّ فقال: أيْ أمّه، يغفر الله لنا ولكم، قالت: غفر الله لنا ولكم).

وأسر مروان بن الحكم، فتشفّع له الحسنان فأطلق سراحه، وقيل له: خذ البيعة منه، فقال عليه السلام: وما أصنع ببيعته؟ ألم يبايع من قبل، وأمّن الوليد بن عقبة وولد عثمان وغيرهم من بني أميَّة، وأمن الناس جميعًا كما ذكر المسعودي في مروجه ٢/ ٣٧٨ وغيره.

ولا أحدثك عن بطولات الإمام في تلك الواقعة التي أراد دفعها عليه السلام بشتّى السبل، ولم يَسُلَّ فيها سيفًا إلاّ بعد أن أعذر، فلمّا سلّه كان الموت الزؤام بين شفرتيه، فقطف من الرؤوس ما يصعب على الإحصاء، ويكفي أن أذكر ما رواه ابن عبد ربه في عقده ٤/ ٣٠٠ عن الأعمش عن رجل سمّاه قال: (كنت أرى عليًّا يوم الجمل يحمل فيضرب بسيفه حتى ينثني، ثم يرجع فيقول: لا تلوموني ولوموا هذا، ثم يعود يقوّمه)، وما ذكره المسعودي في مروجه ٢/ ٣٧٥ حول حملته عليه السلام: (وحمل، وحمل الناس معه، فما كان القوم إلاّ كرماد اشتدّت به الريح في يوم عاصف)، ولا أحدّثك أيضًا عن بطولات صحابته وقد أوصاهم عليه السلام قبل أن يشبَّ سعير تلك

الفتنة الضارية بعدم الإجهاز على جريح، أو اتباع مدبر، أو ترويع امرأة، ولك في كتب التراث ما يريك العجب العجاب، وإياك أن تظن أن أمير المؤمنين كان سعيدًا بتلك الدماء التي سالت على ذلك السهل الفسيح، لقد تركت في قلبه حرقة لا أظنها فارقته حتى يومه الأخير عليه السلام، ولكن القضاء لا رادَّ له.

ولعلَّ مما يجدر ذكره ما قاله في ذلك اليوم الرهيب حين أعطى الراية ولده محمد الذي ورد في النهج، وهو يصوِّر لك أبعاد شجاعة الإمام عليه السلام، وعمق أيمانه بصواب موقفه ذاك قال: (تزولُ الجبالُ ولا تزُلْ! عضَّ على ناجذَكَ - أقصى الأضراس -، وأعِرِ اللهَ جُمْجُمَتِكَ، تِدْ في الأرضِ قدمَكَ، ارمِ بصرَكَ أقصَى القوم، وغُضَّ بَصَرَكَ، واعلم أنَّ النَّصرَ من عندِ الله سبحانه).

وفي خروج الناكثينَ قال أقوالاً كلها حجَّة عليهم، منها ما ورد في النهج ٣٤١-٣٤٢ مذكرًا فيه ببيعتهم: (فأقبلتم إليَّ إقبَالَ العُوذِ المطافيلِ وِلادِها - الإبل الحديثة الولادة - تقولونَ البَيْعةَ البيْعَةَ!! وقَبَضْتُ كَفِّي فبسطْتُموها، ونازعَتْكُم يَدي فَجاذَبْتُمُوها، اللهم إنهما قَطَعاني وظلماني، ونكثا بيعتي، وألَّبا النَّاس عليَّ، فاحْلُلْ ما عَقَدَا، ولا تُحْكِم لهما ما أبْرَما، وأرِهما المسَاءةَ في ما أمَّلا وعَمِلا، ولقد استَثَبْتُهُما قبل القتال، واستأنيتُ بهما أمام الوِقاع، فغَمَطا النِّعمة، وردَّا العافيةَ).

ومنها ما بيَّن فيه ظلمهم، وتأليبهم الناس على قتل عثمان، وأنَّهم فئة باغية أُمر بحربها، وكان عليهم لو أرادوا الحقَّ الذي اشتبه عليهم إن كان قد اشتبه لأنصفوه، ولاسيما أنهم لم ينكروا عليه منكرًا، وإنه على بصيرة وهدي من الطريق الذي سلكه وسار عليه، قال كما جاء في النهج ٣٤٠:

(والله ما أنكروا عليَّ منكرًا، ولا جعلوا بيني وبينهم نَصَفًا، وإنَّهم ليطلِبونَ حَقًّا هم تَرَكُوه، ودمًا هم سفكُوهُ؛ فإن كنتُ شَرِيكَهُم فيه، فإنَّ لهم نَصِيبَهم منه؛ وإن كانوا وَلُوه دُوني فما الطَّلِبَةُ إلاَّ قِبَلَهُم، وإنَّ أوَّلَ عَدْلِهم لَلْحُكْمُ على أنفسهِم، وإنَّ معي لَبَصيرتي؛ ما لَبَسْتُ ولا لُبِسَ عليَّ، وإنها للفِئةُ الباغِيةُ ...).

وكان البلاذري قد روى في أنسابه ٢/٣٧٤-٣٧٥ عن علقمة قوله: (سمعت عليًا يقول: أمرت بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين. وحدِّثت أن أبا نعيم قال لنا: الناكثون أهل الجمل، والقاسطون أصحاب صفِّين، والمارقون أصحاب النهر).

وانقضى يوم الجمل، في يوم الخميس لعشر خلون من جمادى الآخرة سنة ستٍ وثلاثين كما ذكر الطبري في تاريخه ٤/٢٢٤ من طبعة الأعلمي، وذكر أيضًا في ٤/٢٤٨-٢٤٩ أنه بعد انقضائه (راح إلى عائشة على بغلته، فلمَّا انتهى إلى دار عبد الله بن خلف وهي أعظم دار بالبصرة، وجد النساء يبكين على عبد الله وعثمان ابني خلف مع عائشة، وصفيَّة ابنة الحارث مختمرة تبكي، فلما رأته قالت: يا علي، يا قاتل الأحبَّة، يا مفرِّق الجمع، أيتم الله بنيك منك كما أيتمت ولد عبد الله منه! فلم يردَّ عليها شيئًا، ولم يزل على حاله حتى دخل على عائشة، فسلَّم عليها، وقعد عندها، وقال لها: جبهتنا صفيَّة، أما إنِّي لم أرها منذ كانت جارية حتى اليوم، فلمَّا خرج عليٌّ أقبلت عليه فأعادت عليه الكلام، فكفَّ بغلته وقال: أما لهممت -وأشار إلى أبواب الدار - أن أفتح هذا الباب وأقتل من فيه، ثم هذا فأقتل من فيه، ثمَّ هذا فأقتل من فيه -وكان أناس من الجرحى قد لجأوا إلى عائشة، فأخبر

عليٌّ بمكانهم عندها فتغافل عنهم - فخرج عليٌّ، فقال رجل من الأزد: والله لا تفلتنا هذه المرأة. فغضب وقال: صه! لا تهتكنَّ سترًا، ولا تدخلنَّ دارًا، ولا تهيجنَّ امرأة بأذى، وإن شتمن أعراضكم، وسفّهن أمراءكم وصُلحاءكم، فإنَّهُنَّ ضعاف، ولقد كنّا نؤمر بالكفِّ عنهنَّ، وهنَّ مشركات، وإنَّ الرجل ليكافئ المرأة ويتناولها بالضرب فيُعَيَّرُ بها عقبه من بعده).

وعلى الرغم من أهوال ذلك اليوم الذي وقع بموضع يقال له الخريبة في البصرة، فإن الحرب فيه لم تدم طويلاً، فقد ذكر اليعقوبي في تاريخه ٢/ ٨١ أن غبارها انقشع بعد أربع ساعات من النهار لا غير، وذكر أنها وقعت في شهر جمادى الأولى وليس الآخرة كما ذكر الطبري.

ويغلب على الظنِّ أن المرتضى عليه السلام خطب في أهل البصرة غير خطبة يبدو أن أقساها بعد انجلاء غبار تلك المعركة الرهيبة، فقال في ذمِّ أهلها كما ورد في النهج ١١٦ (كنتم جندَ المرأة، وأتباع البهيمة؛ رغا فأجبتم، وعُقِر فهربتم، أخلاقُكم دِقاقٌ، وعهدكم شقاقٌ، ودينكم نفاقٌ..)، وقال فيهم أيضًا: (خفَّت عقولكم وسَفِهَت حُلُومكم، فأنتم غَرَضٌ لنابِلٍ، وأُكْلَةٌ لآكلٍ، وفريسةٌ لصائلٍ)، ولا شك أنَّ يومها كان من أشد الأيام قسوة على أمير المؤمنين عليه السلام على الرغم من الانتصار الساحق الذي حققه، فقد فَقَدَ فيه أقوامًا كانوا أعزَّة عليه، ربطته بهم صحبة وجهاد، وجمعتهم محبَّة الإسلام، ولكنَّ الدنيا غرَّتهم؛ بعضهم عن سابق إصرار على الباطل، وبعضهم اجتهد فأخطأ الاجتهاد، وبعضهم أخذتهم حميَّة الجاهلية، وبعضهم سوَّلت لهم أنفسهم ما سوَّلت، وما أظن أنه في ليلة ذلك اليوم الرهيب قد غمض له جفنٌ فيها، فما أكثر ما تقلَّب، وما أطول ساعاتها على

نفسه الرقيقة المفعمة بالإيمان وهو بانتظار صبح وأيِّ صباح كان، كان لزامًا عليه أن يقاتل أصحاب الجمل بعد أن أعيته الحيلة وتقطّعت به السبل معهم، ووقع ما وقع، وسالت دماء تمنى أن تسيل إن شاء الله لها هناك حيث البلاد التي لم تدخل بعد تحت خيمة الإسلام.

وأزعم أن خيار حرب الجمل كان من أصعب الخيارات التي مرَّت عليه وأقساها فهو أمام امتحان لابد من اجتيازه مهما كانت النتائج، فإما السيف أو الكفر بما أنزل الله على محمَّدٍ صلى الله عليه وآله كما روى عنه عليه السلام ابن عساكر في ترجمته بتاريخه ٣/٢٢٠، فالبيعة عقد لا يستطيع أحد أن يتحلَّل منه بدون وجود مسوِّغ حقيقيٍّ لا نقاش فيه، وقد بايع المسلمون المرتضى بيعة لم يكرههم أحد عليها، ولم يدفعهم أحد إليها، ولقد وثَّق ابن الأثير في أسده ٣/ ٦٠٨ بسنده ما رواه ابن عساكر من قوله عليه السلام: (ثمَّ إن عثمان قتل، فجاءوا فبايعوني طائعين غير مكرهين، ثمَّ خلعوا بيعتي، فوالله ما وجدت إلاَّ السيف أو الكفر بما أنزل الله عزَّ وجل على محمدً صلى الله عليه وسلَّم)، وقال من بين ما قال عليه السلام حول ذلك اليوم كما جاء في النَّهج ٤٠٧: (فخرجوا يجرُّون حُرمة رسول الله صلى الله عليه وآله كما تُجَرُّ الأمةُ عند شِرائها، متوجِّهين بها إلى البصرة؛ فَحَبَسا نِساءهما في بيوتِهما وأبرزا حبيس رسول الله صلى الله عليه وسلم، لهما ولغيرهما في جيشٍ ما منهم رجلٌ إلاَّ وقد أعطاني الطَّاعة، وسمح لي بالبيعة، طائعًا غير مكره، فقدِموا على عاملي بها وخُزَّان بيت مال المسلمين وغيرهم من أهلها؛ فقتلوا طائفةً صبرًا، وطائفةً غدرًا! فوالله لو لم يُصيبوا من المسلمين إلاَّ رجلاً واحدًا مُعْتَمدين قتله بلا جُرمٍ جرَّه، لحلَّ لي قتلُ ذلك الجيش كُلِّه، إذ حضروه فلم

يُنْكِروا، ولم يدفعوا عنه بلسان ولا بيدٍ. دع ما أنهم قد قتلوا من المسلمين مثل العُدَّة التي دخلوا بها عليهم). وقال أيضًا كما ورد في النهج ٥٠٧: (فقدموا على عمالي وخُزَّان بيت مال المسلمين الذي في يديَّ وعلى أهل مِصرٍ كُلُّهم في طاعتي وعلى بيعتي، فشتَّتوا كلمتهم، وأفسدوا عليَّ جماعتهم؛ ووثبوا على شيعتي؛ فقتلوا طائفة منهم غدرًا، وطائفة منهم عَضُّوا على أسيافهم فضاربوا بها حتى لقوا الله صادقين).

وبعد انجلاء المعركة وجنَّ الليل على الإمام خرج عليه السلام (ومعه قنبر، وبيده شعلة من نار يتصفَّح القتلى حتى وقف على رجل - وهو طلحة - فلمَّا وقف عليه قال: أعزز عليَّ أبا محمد أن أراك معفَّرًا تحت نجوم السماء وفي بطون الأودية، شفيت نفسي وقتلت معشري، إلى الله أشكو عُجَري وبجري) كما ذكر المبرد في كامله ١/ ٢٨٠.

وقتل يوم الجمل مع عائشة كما روى ابن عبد ربه في عقده ٤/ ٣٠٠ عن قتادة عشرون ألف، منهم ثمانمائة من بني ضبَّة، وذكر اليعقوبي في تاريخه ٢/ ٨١ أن بعضهم روى: (أنه قتل في ذلك اليوم نيف وثلاثون ألفًا)، فيا لمحنة الإمام في ذلك اليوم، ويا لعظيم مصابه.

ومن المضحك المبكي أيضًا ما رواه ابن عبد ربه في عقده ٢/ ٣٠٥ عن أبي بكر بن أبي شيبة الذي قال: (دخلت أم أوفى العبديَّة على عائشة بعد وقعة الجمل فقالت لها: يا أم المؤمنين، ما تقولين في امرأة قتلت ابنًا لها صغيرًا؟ قالت: وجبت لها النار. قالت: فما تقولين في امرأة قتلت من أولادها الأكابر عشرين ألفًا في صعيدٍ واحد؟ قالت: خذوا بيد عدوَّة الله).

واستشهد من صحابته عليه السلام في معركة الجمل من بين من استشهد زيد بن صوحان، وكانت يده قطعت في معركة جلولاء كما ذكر أبو الفرج في أغانيه ١٥٨/٥، وزيد وأخوه صعصعة من خيار صحابة أمير المؤمنين عليه السلام.

ولازمه من البدريين من بين من لازمه جمهرة في مقدمتهم عمَّار بن ياسر ورفاعة بن رافع الأنصاري، الذي شهد معه الجمل وصفّين، ومات في أيام معاوية كما ورد في الكامل في التاريخ ٤٤/٤، وعدي بن حاتم الذي فقد إحدى عينيه فيها كما جاء في المحبر ٣٠٢ والمعارف ٣١٣، واستشهد ولده محمد بن عدي فيها أيضًا، وكان له دور وأيّ دور في التحاق طيئ بركب الإمام عليه السلام، وغيرهم من البدريين وخيار الصحابة رضوان الله عليهم.

وما كادت المعركة تنجلي حتى تحرَّك رأس جديد من رؤوس الفتنة يطالب بسلب الجيش المنهزم كما روى ابن عبد ربه في عقده ٣٠٥/٤، فلمَّا حرَّمه عليهم عليه السلام قالوا: (ما أحلَّ لنا دماءهم وحرَّم علينا أموالهم! فقال عليٌّ: هي السُّنَّة في أهل القبلة. قالوا: ما ندري ما هذا؟ قال: فهذه عائشة رأس القوم، أتتساهمون عليها! قالوا سُبحان الله ! أُمُّنا. قال: فهي حرام؟ قالوا: نعم. قال: فإنه يحرم من أبنائها ما يحرم منها).

ويدأ القوم في أخذ وردٍ حول موقف عائشة ومن ناصرها، فما كان من الإمام عليه السلام إلاّ أن قال لهم: كما ذكر ابن عبد ربه في عقده أيضًا: (إخواننا بغوا علينا)، وقال عليه السلام أيضًا كما في المصدر السابق: (إنَّ قومًا زعموا أن البغي كان منَّا عليهم، وزعمنا أنه منهم علينا، وإنما اقتتلنا على البغي ولم نقتتل على الكفر).

وسئل عمار كما ورد في المصدر السابق عن عائشة يوم الجمل فقال : (أما والله إنًّا لنعلم أنها زوجته في الدنيا والآخرة. ولكنَّ الله ابتلاكم بها ليعلم أتتبعونه أم تتبعونها).

وترك البصرة من ورائه عليه السلام، بعد أن ولّى عليها عبد الله بن عباس، ولا أشكُّ في أن اختياره كان عن رويَّة وحكمة، فقد خرجت لتوها من هزيمة منكرة، وهي بحاجة إلى شخصيَّة تستطيع أن تستلَّ منها ما خلَّفته الحرب، وليس كابن عبَّاس لهذه المهمَّة، ويبدو أنه لاقى الأمرَّين منها في أوَّليَّات إمارته، فكتب إلى أمير المؤمنين عليه السلام يخبره بما يلاقيه، فأجابه كما روى البلاذري في أنسابه ٣٨٦/٢ : (أتاني كتابك تذكر ما رأيت من أهل البصرة بعد خروجي عنهم، وإنما هم مقيمون لرغبة يرجونها أو عقوبة يخافونها، فأرغب راغبهم، وحلل عقدة الخوف عند راهبهم بالعدل والإنصاف له، إن شاء الله).

جيش القراء في ركب علي

لا شك أن حالاً إيمانية خاصّة تعتريك إن استمعت بخشوع لمرتّلٍ يتقن القراءة جميل الصَّوت وشجيِّه، وقد تأخذك لحظات من التأمل في ما مرَّ من حياتك فتشعر بالنَّدم من كل هفوة ارتكبت، فتأسف على ارتكابها وتسأل الله الصفح والمغفرة، وفي القرآن من السحر ما يغلب كل سحر البيان، وإن أصغى الإنسان إلى وقع جرسه وتدبر معانيه ملك عليه أقطار نفسه حتى وإن كان أعجميًا، ولقد عرفت عشرات ممن حفظ القرآن

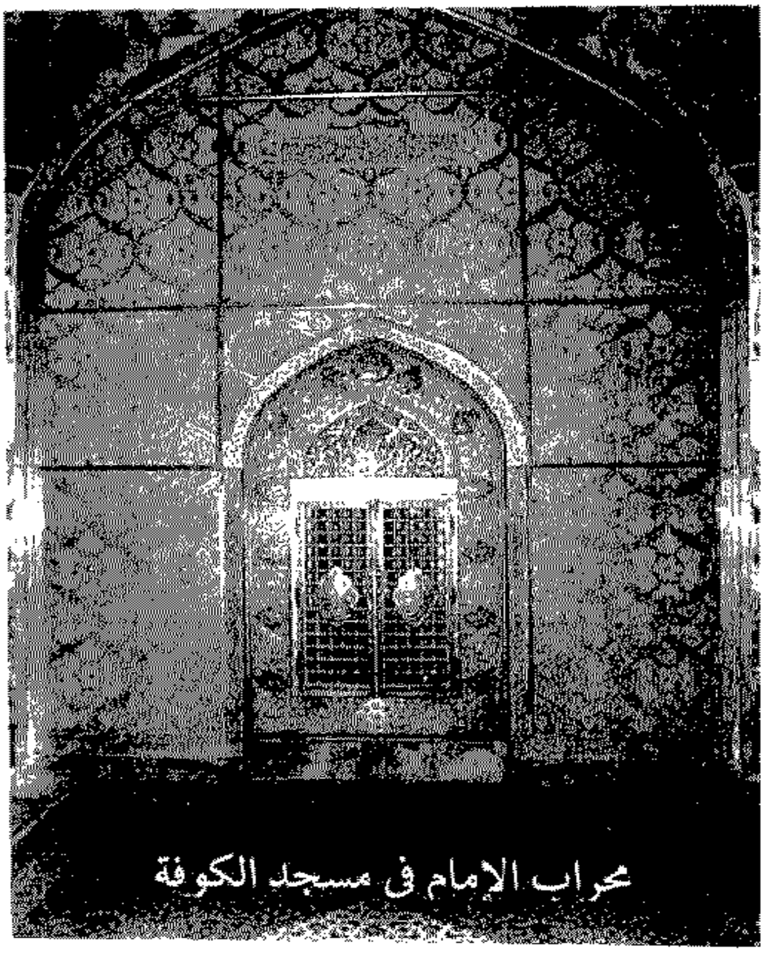

محراب الإمام في مسجد الكوفة

ورتله في الغرب الإفريقي وهم لا يعرفون العربية ولا يفهمونها، ولكنَّ أحدهم إن قرأ تمكّن من أسماع الآخرين بسحر التلاوة، وبالتلاوة الصَّحيحة انخرطت آلاف مؤلّفة في الإسلام في ذلك الغرب وتركت شعوب وثنيتها فيه، والأمر عينه نجده في أقطار الدنيا الأخر.

وليس لأحد من الصحابة أن يطاول عليًا عليه السلام في حفظ القرآن وترتيله، وهو الذي رافق نزول آياته البيِّنات ساعة نزولها، وعرف بيانها أولاً

بأول، وكم من مرَّة أقسم بعلمه بمكان نزولها وزمانه، وبناسخها ومنسوخها، وبمناسبة نزولها، ولقد روى ابن سعد في طبقاته ٣٣٨/٢ عن غير طريق قوله عليه السلام: (سلوني عن كتاب الله فإنه ليس من آية إلا وقد عرفت بليل نزلت أم بنهار، في سهل أم في جبل)، وقال كما ذكر ابن سعد أيضًا، وتابعه الذهبي في عهده ٦٣٧ : (والله ما نزلت آية إلا وقد علمت في ما نزلت، وأين نزلت، وعلى من نزلت! إن ربي وهب لي قلبًا عقولاً ولسانًا طلقًا)، ولا يستطيع أحد أن يدانيه في معرفة تفاصيل جميع الأحكام التي وردت فيها، فكان بحقٍّ أقضى الأمَّة بدعوة المصطفى وأفقهها، وخير من فسَّر القرآن بعد رسول الله صلوات الله وسلامه عليهما، وأنت تقرأ في نهجه حول اهتمامه بقراءة القرآن والتعبُّد فيه ما يبين لك مدى عمق إيمانه به، وكان حريصًا على نشره وتعليمه، ولا يدانيه أحدٌ في حثِّ المسلمين على تلاوته وتدبُّر معانيه، ومن بين ما قال على ما ورد في عيون الأخبار ١٤٧/٢ : (مثلُ المؤمن الذي يقرأ القرآن مثلُ الأترجَّة، ريحها طيِّب وطعمها طيِّب، ومثلُ المؤمن الذي لا يقرأ القرآن مثلُ التمرة طعمها طيِّب ولا ريح لها، ومثلُ الفاجر الذي يقرأ القرآن مثلُ الريحانة ريحها طيِّب وطعمها مرٌّ، ومثلُ الفاجر الذي لا يقرأ القرآن مثلُ الحنظلة طعمها مرٌّ، ولا ريح لها)، وأيّ كتاب من كتب التفاسير تفتحه ولا تجد فيه سهم أمير المؤمنين هو الأوفر، ورأيه هو الأصوب!.

وروى عن المصطفى صلوات الله وسلامه عليهما كما ورد في عقد ابن عبد ربه ٢١٦/٢ (سمعت رسول الله يصلى الله عليه وسلم يقول: «كتاب الله فيه خبر ما قبلكم ونبأ ما بعدكم وحكم ما بينكم، وهو الفصل ليس بالهزْل، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تشبع منه العلماء، ولا يَخْلَقُ على كثرة الردِّ، ولا

تنقضي عجائبه، وهو الذي من تركه من جبّار قصمه الله، ومن ابتغى الهدي في غيره أضلّه الله، وهو حبل الله المتين والذكر العظيم، والصراط المستقيم»).

ويوم رحل النبيُّ صلى الله عليه وآله وسلّم إلى الرفيق الأعلى، كان همّ وصيّه عليه السلام الأوَّل كتاب الله فانصرف إلى جمعه بحسب تنزيله وقد وثّق ذلك ابن سعد في طبقاته ٢/٣٣٨ فروى بسنده عنه عليه السلام قوله: (اليت بيمين أن لا أرتدي بردائي إلاّ إلى صلاة حتى أجمع القرآن)، وروى أيضًا إنه (كتبه على تنزيله)، وإذا كان ابن عون راوي الخبر في الطبقات عن محمد قد سأل عكرمة عن ذلك القرآن فلم يعرفه، فليس شرطًا أن يعرف عكرمة أو غيره جميع إرث أهل البيت عليهم السلام، وهم ثقل الأمة الثّاني، وروى اليعقوبي في تاريخه ٢/٢٢-٢٣ حول نسخته عليه السلام تلك أنها في سبعة أجزاء، الأوَّل: البقرة في ثمانمائة وست وثمانين آية، وهو خمس عشرة سورة، والثاني: آل عمران، وهو في ثمانمائة وست وثمانين آية، وهو في ست عشرة سورة، والثالث: النساء، وهو في ثمانمائة وست وثمانين آية، وهو في ستّ عشرة سورة، والرابع المائدة: وهو في ثمانمائة وست وثمانين آية، وهو في خمس عشرة سورة، والخامس: الأنعام، وهو في ثمانمائة وست وثمانين آية، وهو في ست عشرة سورة، والسَّادس: الأعراف، وهو في ثمانمائة وست وثمانين آية، وهو ست عشرة سورة، والسادس الأعراف، وهو في ثمانمائة وست وثمانين آية، وهو في ست عشرة سورة، والسابع: الأنفال، وهو في ثمانمائة وست وثمانين سورة، وهو في خمس عشرة سورة.

كذا ذكر اليعقوبي، والقرآن الكريم في التقسيم المعروف مقسّم على ثلاثين جزءًا في مائة وأربع عشرة سورة، كما أنَّ ترتيبه يختلف عن الترتيب

الذي ذكره اليعقوبي، فقد ذكر على سبيل المثال : (فالجزء الأول البقرة، سورة يوسف، والعنكبوت، والروم، ولقمان، وحم السجدة، والذاريات، وهل أتى على الإنسان، وألم تنزيل السجدة، والنازعات، وإذا الشمس كوِّرت، وإذا السماء انفطرت، وإذا السماء انشقت، وسبِّح اسم ربك الأعلى، ولم يكن، فذلك جزء البقرة)، ولا أستطيع فهم هذا التقسيم الذي عزاه اليعقوبي للإمام عليه السلام، فهو لا يلتقي في عدد سوره ولا في عدد آياته، ولا في عدد أجزائه مع التقسيم المعروف للقرآن، كما لا يلتقي معه في بعض أسماء سوره ولا شكَّ أنك لاحظت ذلك، وأمر هذا التقسيم يدعو إلى التأمُّل والنظر، فات محقق تاريخ اليعقوبي عبد الأمير مهنّا التعقيب عليه.

وغريب أن يتردَّد الذهبي في طبقاته ١/٨ وعهده ٦٣٧ فيقول: إن الإمام عليه السلام (قد قرأ كثيرًا من كتاب الله في أيَّام النبي صلى الله عليه وسلم، أو كل القرآن، وجاء عنه أنه جمع القرآن بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم فالله تعالى أعلم)، فمن غيره عليه السلام قرأ كلَّ القرآن إن لم يقرأه هو، وهل كان في حاجة إلى قول: (قرأ كثيرًا من كتاب الله)، ثم يستدرك من بعد فيقول : (أو كل القرآن)، ثم روى عن ابن سيرين أيضًا على سبيل الزعم أنه قال: (يزعمون أن عليًّا كتب القرآن على تنزيله، فلو أصبت ذلك لكان فيه علم)، ولكنّ ابن عبد البر في استيعابه ١١٠٩/٣ وثّق رواية جمعه القرآن عليه السلام، بل إن الكليني في الكافي ١/٢٢٨ روى عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: (ما ادَّعى أحد من الناس أنه جمع القرآن كما أنزل إلاّ كذّاب وما جمعه وحفظه كما أنزله الله تعالى إلا علي بن أبي طالب عليه السلام والأئمة من بعده عليهم السلام)، وأزعم على وجه التحقيق، أن غاية الإمام

عليه السلام يوم أراد جمعه أن يجمعه بحسب نزوله، لأنه وحده بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم يستطيع ترتيبه بتلك الصُّورة، والزعم موثّقٌ عند جميع علماء أهل البيت عليهم السلام، وما يوثّق ما ذهبت إليه أن السيوطي في تاريخ الخلفاء ١٠٢ ذكر أن أمير المؤمنين عليه السلام (أحد من جمع القرآن وعرضه على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وعرض عليه أبو الأسود الدؤلي، وأبو عبد الرحمن السلمي، وعبد الرحمن بن أبي ليلى)، فالإمام بسند السيوطي لم يجمع القرآن بعد رحيل النبي فحسب، وإنما عرضه بعد جمعه على المصطفى صلوات الله وسلامه عليهما، أما الجمع بعد وفاة النبيّ فهو جمع على التنزيل، واستمرَّ منذ نزوله معنيًّا بتلاوته وتحفيظه إلى أن رحل إلى جوار ربّه، وهكذا أخذ خلق من أهل المدينة والكوفة لا يعرف عددهم إلاّ الله القرآن والقراءة عنه، وخليّة النحل من قرّاء الكوفة كلُها تطاول الآخرين بسماعها عنه عليه السلام، ولك في كتاب طبقات القراء وغيره خير دليل على ما نقول، والقراءة ترتيلاً أو تجويدًا ليس فيها للقارئ إلاّ صوته، أما طريقة الأداء فلا يستطيع أن يتصرَّف فيها بمزاجه أو على هواه، إذ لابد أن يأخذها عن قارئ أخذها عن آخر، وهكذا تؤدى جيلاً بعد جيل، لذا فلا أراني مبتعدًا عن الصواب بالقول: إن صدى صوته عليه السلام مازال يتردد في أرجاء الدُّنيا من مشارقها إلى مغاربها، ولقد أُلِّفت في القراءة والقراءات كتب تصعب على الإحصاء من القرن الثاني الهجري وحتى الآن، واشتهر في تاريخ الأمة قرّاء مازالت قراءة بعضهم تعم المشرقين، وكان قصب السبق في يد عاصم بن أبي النجود (ت ١٢٧هـ) أحد السبعة الذين اختارهم ابن مجاهد في السبعة ١/٨٠، ولقد روى عاصم عن أبي عبد الرحمان

السلمي أنه قال: (ما رأيت أحدًا أقرأ من علي رضي الله عنه)، كما ذكر الذهبي في طبقاته ١/ ٨، وروى خبر أبي عبد الرحمن السلمي أيضًا ابن عبد البر في استيعابه ٣/ ١١٠٩ عن الحكم بن عتبة، فقال: (ما رأيتُ أحدًا أقرأ من عليٍّ، صلّينا خلفه، فقرأ برزخًا - أي كثيرًا من القرآن - فأسقط حرفًا، ثم رجع فقرأه، ثم عاد إلى مكانه)، أما أن يكون ابن عتبة ما رأى أحدًا فذلك ما لا خلاف عليه، وأما أن يكون أسقط حرفًا ثم رجع فقرأه ففيه نظر كثير.

وعلى نهج عاصم وفي طريقه سار حمزة بن حبيب الزيّات (ت ١٥٦هـ) الذي أخذ القراءة عن الإمام جعفر الصادق عن آبائه عليهم السلام كما ذكر الدكتور حازم الحلّي في كتابيه القراءات القرآنية ٢٥، وأصول التلاوة ١٨ عن مصادره، ومن بعدهما علي بن حمزة الكسائي (ت ١٨٩ هـ) الذي أخذ القراءة عن حمزة، وجميعهم من حصّة الكوفة وليس في الكوفة قارئ لم يأخذ عن الإمام، أو عن من أخذ عنه، أما بقيّة السبعة فهم أبو عمرو بن العلاء (ت ١٥٤هـ) وهو وإن كان من حصّة البصرة، فقد أخذ القراءة عن عاصم بن أبي النجود، وقد عرفت طريق قراءته، وعبد الله بن عامر اليحصبي (ت ١١٨هـ) وهو من حصّة بلاد الشّام، وعبد الله بن كثير (ت ١٢٠هـ) من حصّة مكّة، ونافع بن عد الرحمن بن أبي نُعيم المدني (ت ١٦٩هـ) وهو ممن أخذ القراءة بسندها عن الإمام عليه السلام أيضًا، ولك أن تنظر تفصيلات مهمة في عن القراءة والقراء، في كتاب السبعة لابن مجاهد، ومقدّمة محققه الدكتور شوقي ضيف، والبيان في تفسير القرآن للسيد الخوئي، كتابي القراءات القرآنية، وأصول التلاوة للدكتور حازم الحلّي، وغيرها من كتب المباحث القرآنية، وكتب القراءات، ولو أنعمت النظر في

طرق السبعة وغيرهم ومن أخذ عنهم، ستجد أن أهما لابد أن تمرَّ على المرتضى، وسترى من بعد أن غالبيَّة الصحابة بما فيهم عبد الله بن مسعود قد أخذ عنه عليه السلام.

وشاء قدر الله أن تشتهر قراءة عاصم في المشرقين، وكادت تجبُّ ما سواها، وكان غاية في الفصاحة حتى قال أحدهم فيه: (ما رأيت أحدًا كان أفصح من عاصم بن أبي النجود، إذا تكلّم كاد يدخله الخيلاء) كما ذكر ابن مجاهد في السبعة ٧٠، وقد أخذ قراءته عن أبي عبد الرحمن السلمي الذي أخذها غير مرَّة عن الإمام عليه السلام كما ذكر في السبعة ٥٣— ٨٧ والطبقات ١/٧٨، وعن زرّ بن حبيش الذي أخذها أيضًا عن علي عليه السلام كما أخذها عن ابن مسعود أيضًا، ومما ذكره الذهبي في طبقاته ١/٨٠ قوله: (وأعلى ما وقع لي تلاوة كتاب الله من جهة عاصم ، فإني قرأت القرآن كلّه على أبي القاسم سحنون المالكي، عن أبي القاسم الصفراوي، عن أبي القاسم بن عطيَّة، عن أبي الفحَّام، عن ابن نفيس، عن السامري، عن الأُشناني، عن عُبيد بن الصَّباح، عن حفص، عن عاصم، عن أبي عبد الرحمن السلمي، عن علي رضي الله تعالى عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم عن جبريل، عن الله عز وجل)، كما أن طرق الآخرين تلتقي بطريقة وبأخرى، بالطريق التي أخذ منها عاصم، فهي أسلم الطرق إلى رسول الله إلى جبريل.

وليس من ذكرنا وحدهم الذين رووا من عذب منهله، ونمير علمه، فقد روت عنه أمّة من الصحابة والتابعين، وسأكتفي هنا بذكر ما رواه ابن الأثير في أسده ٣/٥٩٤—٥٩٥ إذ قال: (روى علي عن النبي صلى الله عليه وسلم

فأكثر، وروى عنه بنوه الحسن والحسين ومحمد وعمر، وعبد الله بن مسعود، وابن عمر، وعبد الله بن جعفر، وعبد الله بن الزبير، وأبو موسى الأشعري، وأبو سعيد الخدري، وأبو رافع، وصهيب، وزيد بن أرقم، وجابر بن عبد الله، وأبو أمامة، وأبو سريحة حذيفة بن أسيد، وأبو هريرة، وسفينة، وأبو حُجَيْفة السُّوائي، وجابر بن سَمُرة، وعمرو بن حُرَيْث، وأبو ليلى، والبراء بن عازب، وعُمارة بن رُوَيبة، وبشر بن سُحيم، وأبو الطفيل، وعبد الله بن ثعلبة بن صُعَير، وجرير بن عبد الله، وعبد الرحمن بن أُشَيْم، وغيرهم من الصَّحابة.

وروى عنه من التابعين: سعيد بن المسيَّب، ومسعود بن الحكم الزرقي، وقيس بن أبي حازم، وعَبيدة السلماني، وعلقمة بن قيس بن يزيد، وعبد الرحمن بن أبي ليلى، والأحنف بن قيس، وأبو عبد الرحمن السلمي، وأبو الأسود الدِّيلي، وزر بن حبيش، وشريح بن هاني، والشعبي، وشقيق، وخلق كثير غيرهم).

وأمَّا (سلوني) فقد قالها بلسان الواثق العارف وسط حشود أهل الكوفة الذين ضيَّعوه، وأضاعوا على الأمَّة فرصة لن تعود إلى يوم القيامة، وأية فرصة هذه التي ضاعت حينما يقول عليه السلام: (فوالَّذي نفسي بيده لا تسألوني عن شيء في ما بينكم وبين السَّاعة، ولا عن فئة تَهْدِي مائة وتُضِلُّ مائة إلاَّ أنبأتكم بناعقها وقائدها وسائقها ومُنَاخ رِكَابِهَا، ومَحَطِّ رِحالها، ومن يُقْتَلُ من أهلِها قتلاً، ومن يموت منهم موتًا...) كما روي في شرح النهج ٣٢/٤، ولقد نقل ابن أبي الحديد قول هذا وذاك من أئمة المسلمين أنه ليس لأحد من الناس أن يقول (سلوني) إلا علي، وعلّق في الشرح ٣٥/٤ بقوله: (واعلم أنه عليه السلام قد أقسم في هذا الفصل بالله الذي نفسه بيده، أنهم

لا يسألونه عن أمر يحدث بينهم وبين يوم القيامة إلا أخبرهم به... وهذه الدعوى ليست منه عليه السلام ادّعاء الربوبيّة، ولا ادّعاء النبوّة، ولكنه كان يقول: إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أخبره بذلك، ولقد امتحنَّا إخباره فوجدناه موافقًا، فاستدللنا بذلك على صدق الدّعاوى المذكورة، كإخباره عن الضربة يضرب بها في رأسه فتخضب لحيته، وإخباره عن قتل الحسين ابنه، وما قاله في كربلاء حيث مرَّ بها، وإخباره بملك معاوية الأمر من بعده، وإخباره عن الحجاج، وعن يوسف بن عمر، وما أخبر به من أمر الخوارج، وما قدَّمه إلى أصحابه من إخباره بقتل من يقتل منهم، وصلب من يصلب منهم، وإخباره بقتال النَّاكثين والقاسطين والمارقين، وإخباره بعدة الجيش الوارد إليه من الكوفة لمَّا شخص عليه السلام إلى البصرة لحرب أهلها...).

من كلِّ ما تقدَّم يتبيَّن لك حجم جيش القراء الذي ساير الأمام في سلمه وحربه، لأن الخلية الإيمانيَّة كان يعسوبها أمير المؤمنين عليه السلام.

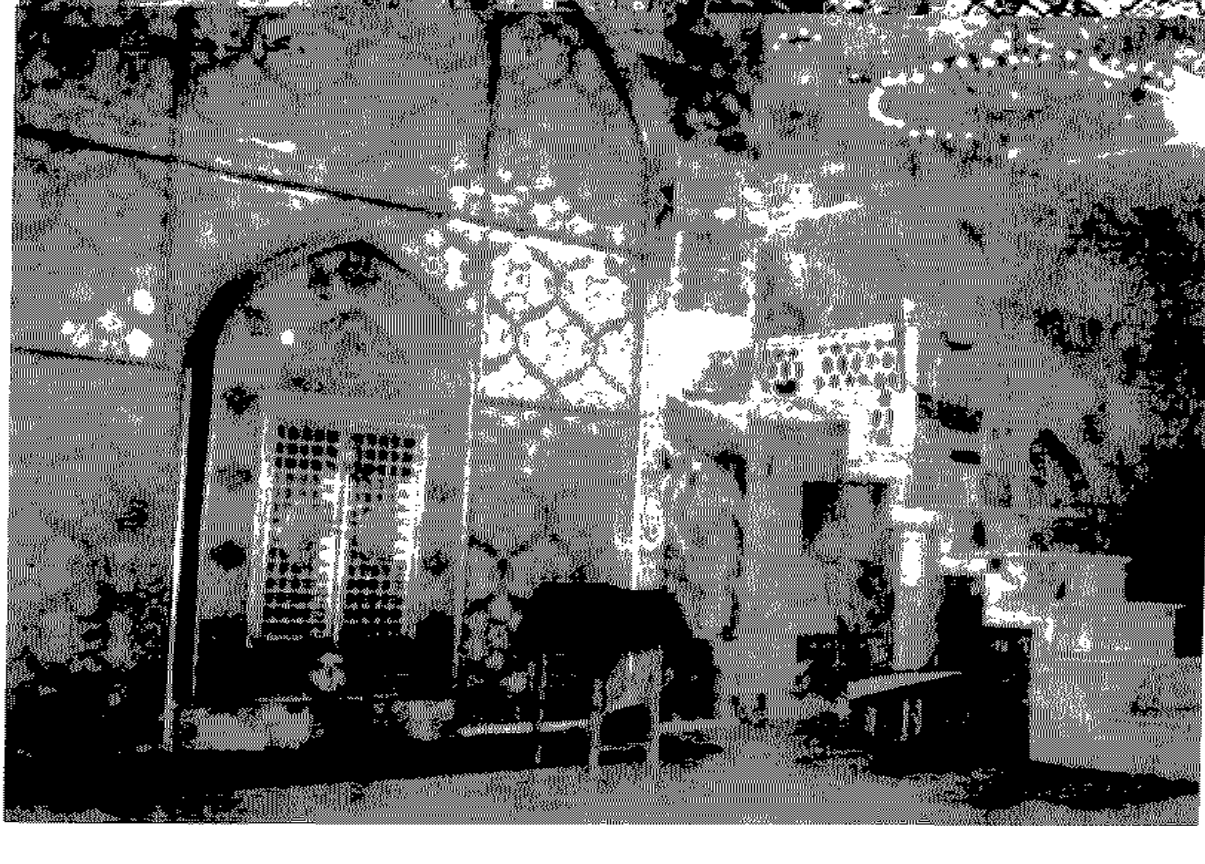

محراب الإمام عليه السلام في مسجد الكوفة ، وفي الأعلى صورة جوية للكوفة

الكوفة عاصمة أمير المؤمنين
أم العلوم والمعارف

مُصّرت الكوفة في أواخر سنة سبع عشرة أو في ثماني عشرة في خلافة عمر بن الخطاب، وقيل: إنها مصرت سنة تسع عشرة كما ذكر ياقوت في معجمه مادتها، أما الطبري في تاريخه ٤٤٧/٣ من طبعة الأعلمي فقد حدد تمصيرها في المحرَّم سنة سبع عشرة، وروى أيضًا أن سعدًا أرسل حذيفة بن اليمان وسلمان ليرتادا منزلاً بريًّا بحريًّا ليس بين جيش المسلمين وبين المدينة بحر ولا جسر، فوقع اختيارهما على الكوفة، (وفيها ديرات ثلاثة: دير حرقة، ودير أم عمرو، ودير سلسلة، وخصاص خلال ذلك، فأعجبتهما البقعة، فنزلا فصلّيا، وقال كلٌّ واحد منهما: اللهم ربُّ السماء وما أظلّت، وربُّ الأرض وما أقلّت، والرِّيحُ وما ذرت، والنُّجوم وما هوت، والبحار وما جرت، والشياطينُ وما أضلّت، والخصاص وما أجنَّت بارك لنا هذه الكوفة، واجعله منزل ثبات)، وذكر رواية أخرى مفادها أن عمّار بن ياسر سأل النَّاس عن المدائن إن كانت تصلح بها الإبل، فأجيب بالنفي لكثرة بعوضها، (فخرج عمّار بالنَّاس حتى نزل الكوفة)، وذكر المسعودي في مروجه ٣٢٩/٢ أنها مُصِّرت سنة خمس عشرة، ولعلّه خطأ في النسخ أو الطباعة لم يلتفت إليه المحقّق، أما سبب تمصيرها فيعود إلى تأثر جيش المسلمين بوخومة المدائن وكثرة حشراتها اللاسعة من بعوض وذباب وما شاكلهما.

ولا شكّ أن الخيام التي اعتادت قبائل الجزيرة على نصبها وطيِّها بحسب الحاجة لم تعد نافعة في ذلك المصر، وبسبب كثرة القصب استأذن أهل الكوفة الخليفة في بناء بيوتهم به، وبسبب وقوع حريق فيها غير مرَّة استأذن سعد الخليفة عمر بن الخطاب في البناء باللبن كما ذكر ابن الأثير في كامله ٢/٥٢٧ - ٥٢٨.

وقد قيلت أشياء كثيرة في فضل الكوفة ومسجدها، ومن مرَّ فيها من الأنبياء، ومن دفن بها، في كتب التاريخ والبلدان، وخاصة في كتاب ابن عساكر تاريخ دمشق، وكتابي السيد البراقي تاريخ الكوفة، واليتيمة الغروية.

والكوفة يوم تأسست لم تكن بعيدة عن المراكز الحضارية في العراق، فهي على تخوم بابل لا تبعد عن آثارها الحالية إلا فراسخ معدودة، وهي بجوار الحيرة أقدم الإمارات العربيَّة في العراق، وذكر محمد سعيد الطريحي في كتابه الديارات والأمكنة النصرانيَّة في الكوفة وضواحيها ٣٣ -٣٥ ما ورد عن معنى اسمها في بعض كتب التاريخ واللغة، ومما ذكره أنها قامت (على أنقاض مدينة سريانيَّة تدعى عاقولا، التي كانت تضمُّ جماعات متفرِّقة من النَّصارى السريان)، وذكر أيضًا أنَّ يعقوب سركيس ذهب (إلى أن اسم الكوفة محرَّف من كوبا، وهي لفظة آراميَّة من معانيها العاقول، وبأنَّ رجال الفتح الإسلامي قد سمعوا بهذه اللفظة فحرَّفوها وقالوا كوفة)، وقال: وظنَّ مانسنيون (بأنَّ اسم الكوفة من عاقولا أيضًا، ولكنَّه يقول بأن معنى اللفظة الحلقة أو الدائرة، وهو يريد بهذا أن يتَّفق مع ما يقرِّره اللغويون العرب بأن من معاني التكوُّف الاستدارة، وأن الكوفة سميت بذلك لاستدارتها).

ونقل البراقي في التحفة الغروية المنشور في مجلة آفاق نجفية عن تذكرة ابن الجوزي (كوفان، وهي الرملة الحمراء، وبها سميت)، ونقل عن مجمع البحرين لفخر الدين الطريحي أيضًا ما ذكره حول تسميتها الذي عزاه إلى استدارة بنائها، أو حمرة تربتها، أو لأن اسمها قديمًا كوفان، وهو الرمل المستدير، أو بسبب قول سعد حينما أراد بناء الكوفة: (تكوفوا في هذا الموضع)، أي اجتمعوا فيه.

ويغلب على ظنّي أن الكوفة تعريب كوثى أو كوثي وهي مدينة قيل: إن إبراهيم عليه السلام ولد فيها، ولاسيما أن ياقوت حين ذكرها في معجمه قال: إنها تقع في أرض بابل التي لا تبعد عن الكوفة كثيرًا، وإذا صحّت ولادة إبراهيم عليه السلام فيها، وصحَّ وجود مقامه فيها أيضًا فمن الممكن أن يغلب اسمها على ما جاورها، ويدخلها التّعريب فتقلب ثاؤها فاء، وهو كثير في العربيَّة، وتقلب ألفها هاء، وبذا يكون للاختيار دلالته الدينيَّة أيضًا، لأنَّ منزلهم الذي اختاروه يكون بقرب المنزل الذي ولد فيه جَدُّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم، وسبق أن ذكرنا ما ورد في معجم ياقوت من أن أمير المؤمنين عليه السلام يوم سئل عن أصل قريش قال: نحن نبط من كوثى، أما نسبتها إلى العاقول أو عاقولا، أو أن اسمها محرَّف عن كوبا بمعنى العاقول أو من التكوُّف والاستدارة فإنه، يبعد عن الظنّ، لأنَّ التكوُّف والاستدارة واقع في كلِّ مقام حلَّ به الجيش الإسلامي، أما الشَّوك والعاقول فما أكثره في أرض الرافدين، وكذا حمرة الأرض فيها، ولكن قد يقال: نزلوا كوثى، وهم بقربها، وقد يكون المنزل ليس منها، ولكنّه غلب عليها، كما غلب اسم النجف على البقعة التي شرَّفها الإمام عليه السلام بقبره، وهي ليست منه.

ولا شكَّ أن الخيام التي اعتادت قبائل الجزيرة على نصبها وطيِّها بحسب الحاجة لم تعد نافعة في ذلك المصر، وبسبب كثرة القصب استأذن أهل الكوفة الخليفة في بناء بيوتهم به، وبسبب وقوع حريق فيها غير مرَّة استأذن سعد الخليفة عمر بن الخطاب في البناء باللبن كما ذكر ابن الأثير في كامله ٢/٥٢٧ - ٥٢٨.

وقد قيلت أشياء كثيرة في فضل الكوفة ومسجدها، ومن مرَّ فيها من الأنبياء، ومن دفن بها، في كتب التاريخ والبلدان، وخاصة في كتاب ابن عساكر تاريخ دمشق، وكتابي السيد البراقي تاريخ الكوفة، واليتيمة الغروية.

والكوفة يوم تأسست لم تكن بعيدة عن المراكز الحضارية في العراق، فهي على تخوم بابل لا تبعد عن آثارها الحالية إلا فراسخ معدودة، وهي بجوار الحيرة أقدم الإمارات العربيَّة في العراق، وذكر محمد سعيد الطريحي في كتابه الديارات والأمكنة النصرانيَّة في الكوفة وضواحيها ٣٣ -٣٥ ما ورد عن معنى اسمها في بعض كتب التاريخ واللغة، ومما ذكره أنها قامت (على أنقاض مدينة سريانيَّة تدعى عاقولا، التي كانت تضمُّ جماعات متفرِّقة من النَّصارى السريان)، وذكر أيضًا أنَّ يعقوب سركيس ذهب (إلى أن اسم الكوفة محرَّف من كوبا، وهي لفظة آراميَّة من معانيها العاقول، وبأنَّ رجال الفتح الإسلامي قد سمعوا بهذه اللفظة فحرَّفوها وقالوا كوفة)، وقال: وظنَّ مانسنيون (بأنَّ اسم الكوفة من عاقولا أيضًا، ولكنَّه يقول بأن معنى اللفظة الحلقة أو الدائرة، وهو يريد بهذا أن يتَّفق مع ما يقرِّره اللغويون العرب بأن من معاني التكوُّف الاستدارة، وأن الكوفة سميت بذلك لاستدارتها).

ونقل البراقي في التحفة الغروية المنشور في مجلة آفاق نجفية عن تذكرة ابن الجوزي (كوفان، وهي الرملة الحمراء، وبها سميت)، ونقل عن مجمع البحرين لفخر الدين الطريحي أيضًا ما ذكره حول تسميتها الذي عزاه إلى استدارة بنائها، أو حمرة تربتها، أو لأن اسمها قديمًا كوفان، وهو الرمل المستدير، أو بسبب قول سعد حينما أراد بناء الكوفة: (تكوفوا في هذا الموضع)، أي اجتمعوا فيه.

ويغلب على ظنّي أن الكوفة تعريب كوثى أو كوثي وهي مدينة قيل: إن إبراهيم عليه السلام ولد فيها، ولاسيما أن ياقوت حين ذكرها في معجمه قال: إنها تقع في أرض بابل التي لا تبعد عن الكوفة كثيرًا، وإذا صحّت ولادة إبراهيم عليه السلام فيها، وصحَّ وجود مقامه فيها أيضًا فمن الممكن أن يغلب اسمها على ما جاورها، ويدخلها التّعريب فتقلب ثاؤها فاء، وهو كثير في العربيَّة، وتقلب ألفها هاء، وبذا يكون للاختيار دلالته الدينيَّة أيضًا، لأنَّ منزلهم الذي اختاروه يكون بقرب المنزل الذي ولد فيه جَدُّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم، وسبق أن ذكرنا ما ورد في معجم ياقوت من أن أمير المؤمنين عليه السلام يوم سئل عن أصل قريش قال: نحن نبط من كوثى، أما نسبتها إلى العاقول أو عاقولا، أو أن اسمها محرَّف عن كوبا بمعنى العاقول أو من التكوُّف والاستدارة فإنه، يبعد عن الظنّ، لأنَّ التكوُّف والاستدارة واقع في كلّ مقام حلَّ به الجيش الإسلامي، أما الشَّوك والعاقول فما أكثره في أرض الرافدين، وكذا حمرة الأرض فيها، ولكن قد يقال: نزلوا كوثى، وهم بقربها، وقد يكون المنزل ليس منها، ولكنّه غلب عليها، كما غلب اسم النجف على البقعة التي شرَّفها الإمام عليه السلام بقبره، وهي ليست منه.

دخل أمير المؤمنين عليه السلام الكوفة في رجب سنة ست وثلاثين كما ذكر اليعقوبي في تاريخه ٢/٨٣، وأزعم أن أمّةً من المسلمين دخلوا عليه ومعه يوم دخل مسجدها الجامع، وقالوا بين يديه ما قالوا، ولكن كلمة صادقة صدرت من أحد عقلاء ذلك الجمع خفّفَتْ من أحزان الإمام وآلامه رواها ابن الأثير في أسده ٣/٦٠٩ وابن عساكر في ترجمته بتاريخه ٣/١٤٥ عن المدائني وهي: (والله يا أمير المؤمنين لقد زِنت الخلافة وما زانتك، ورفعتها وما رفعتك، وهي كانت أحوج إليك منك أليها)، وقد عزا اليعقوبي القول في تاريخه ٢/٧٧ إلى صعصعة بن صوحان، وهو لا يبعد عنه.

ولم تكن الكوفة بذلك البريق قبل أن يدخلها عليه السلام، وما كان لها أن تدخل التاريخ من ذلك الباب الواسع إلاّ بعد أن اتّخذها عاصمة للخلافة الإسلاميّة، وإن كانت البصرة أو بغداد أو غيرهما من الأمصار الإسلاميّة طاولتها فليس بسبب الزهو الحضاري الذي اكتسباه وإنما بفعل تدخّل عوامل سياسة شاركت بسحب البساط من تحتها، لأنَّ تلك الأمصار من نبعها أخذت، وبمائها الرقراق ارتوت، وعلى الرغم من الإهمال الذي واكبها بعد استشهاد الإمام عليه السلام فإن جذوة حكمه لم تنطفئ، وبقيت ذكريات أيّامه وأفعاله النبع الذي استقى منه العلماء والكتاب والمفكّرون والحكماء علمهم، ومعرفتهم، وحكمتهم، وإذا كان التاريخ قد عنى بثوراتها وقلاقلها، والزحوف التي خرجت منها نحو المشرق، فإنه لم يسلط الضوء على تأثير مرحلة خلافته، ولم يذكر لها ما نشره علماؤها وغيرهم من علم أمير المؤمنين عليه السلام وسيرته ونهجه، وعلى الرغم من كلِّ الأبواب الموصدة التي أرادت حجب ذلك النور فإنه واصل إشعاعه منها إلى أقصى

المشرقين، فتداولت سيرته ونهجه أقلام أمم لا يحصيها إلاّ الله، وكأنّه عليه السلام كان يرى الغيب من وراء الحجب، وذلك لعلمه بمصيرها وما ستؤول إليه بعد رحيله، فقال كما ورد في النهج ١٦٩–١٧٠ (كأنّي بكِ يا كوفةُ تُمَدِّين مدَّ الأديم العكاظيِّ، تُعْرَكينَ بالنَّوازلِ، وإنِّي لأعلمُ أنَّه ما أراد بكِ جَبَّارٌ سوءًا إلاّ ابتلاهُ اللهُ بشاغِلٍ، ورماه بقاتلٍ).

وإذا أسهب التاريخ بذكر ثوراتها، فإنه ما انصف في شرح أسبابها، وأثر سياسة أمير المؤمنين عليه السلام في انبثاقها. لقد دخلها وعلى كتفيه كلٌّ علم رسول الله صلوات الله وسلامه عليهما، ولم يجرؤ أحد من الصحابة أو تابعيهم، أو من المسلمين أن يقول (سلوني) قبله أو بعده على أعواد المنابر كما كان يقول، فأثار العقل إثارة لم يعرفها من قبل، ومنحه فرصة للتفكير والتساؤل والإبداع والغوص في آفاق الحياة وعوالمها الرحبة، وهي فرصة مبنية على التدبر القرآني وثوابت الشريعة التي كان عليه السلام ركنها الأهم بين المسلمين بعد رسول الله في الشرح والاستنباط والحكم والقضاء، وهكذا فتَّح الأبواب على عالم رحب لم يعرفه المسلمون من قبل، ولن يعرفوه من بعد على يد حاكم بتلك الصفات، وهي فرصة لم تكن مأخوذة من فراغ لأنها استمدَّت قوتها وثباتها ووجودها من العقل الملتزم الذي يحسن تدبر القرآن والسنَّة، ويجتهد من منظور قرآني قادر على كبح جماح النفس، وعلى هذا الأساس فإن مدرسة العقل التي فتح أبوابها على مصاريعها عليه السلام هي مدرسة القرآن الكريم الذي لم تخل صورة من صوره من حيز أخذ العقل فيه مكانته في التدبُّر والتفكُّر والتقرير والاجتهاد، ومعلوم أن الاجتهاد لا يتيسر لكل متعلم أو حتى متفقِّه بالأحكام، ما لم يكن يملك قدرة مبنيَّة على فهم

عميق وتدبُّر للقرآن وأحكامه، وللسنَّة الشريفة مع التمتع بعدالة تامة لا تمنح النفس فرصة لتدخل هواها في ما يجتهد به، ولا يستطيع أحد من الصحابة أو التابعين مزاحمة الإمام في كلّ هذا وغيره، لأنه كان بين المسلمين الأقضى والأعلم الأتقى والأزهد، والأفقه بشهادتهم بعد شهادة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم، وكان حرصه عجيبة على نشر العلوم، ولم ينحصر عهده بحروب الجمل وصفّين والنهروان كما ساغ لبعض من استعرض ترجمته، لأن تلك الحروب والتهيؤ لها لم تأخذ من فترة حكمه إلا أشهر معدودات لعلها لا تتجاوز الخمسة على أكثر تقدير لم يتوقّف خلالها أيضًا يومًا عن الدرس والتوجيه والإرشاد والترغيب والترهيب وشحذ العقول، وتقديم المثل الأعلى حتى في التعامل مع أعدائه عليه السلام، ولا أدلّ على ذلك من نظرك في النهج في خطبه وأحاديثه ووصاياه وحكمه التي قالها إبّان تلك الأشهر، أما بقيّة أيّام حُكْمِهِ فإنها كانت مشحونة بالنشاط المعرفي الذي ملأت حكاياته كتب التراث الإسلامي، وسيبقى تأثيرها ممتدًا ما بقيت الحياة على الأرض.

وفي الوقت الذي كانت الخلافة السابقة قد منعت تدوين الحديث، وأحرقت ما بين أيدي بعض الصحابة من مدوّنات قرآنيّة أو حديثيّة لسنا بصدد الحديث عن أسبابه، دخل الإمام عليه السلام الكوفة بنسخة من القرآن مرتبة بحسب النزول، وبصيحفة من إملاء رسول الله قيل عنها: إنها في سبعين ذراعًا، فيها ما كان ويكون، وفيها أحكام الحقوق والواجبات، وفيها ما فرض على المسلم من عبادات ومعاملات، وفيها وفيها وفيها مما أطنب في وصفه المؤرخون، وتحدّث عنها تفصيلاً السيّد علي الشهرستاني في كتابه منع تدوين الحديث ٤٢٩ - ٤٨٩، وذكر مصادرها، وما دار حولها من روايات

توثّقها، وذكر ما روي من أحاديثها التي تناثرت في أبواب الفقه وكتب التفسير، ووثّق أيضًا انتقالها بعد رحيله عليه السلام إلى أئمة أهل البيت عليهم السلام ينهلون من علمها، ويفتون المسلمين بما ورد فيها عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم، أما نسخته من القرآن الكريم التي هي بخطّه فإنها كما روى اليعقوبي في تاريخه ٢/ ٢٢-٢٣ مرتّبة على سبعة أجزاء، وروى أنه كتبه عليه السلام لما قبض رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم.

سبب اختلاف المسلمين في رواية الحديث

وكان عليه السلام على بيّنة من خطورة ما بأيدي الناس من حديث ينسب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم، وحينما سئل عن سبب اختلاف المسلمين في الحديث الشريف، كان ردُّه قاعدة اتّكأ عليها رواة الحديث من بعد من الذين لم تأخذهم الأهواء، وأرادوا وجه الله سبحانه، فمحّصوا ما شاء لهم التمحيص، وعلى الرغم من ذلك دخل الحديث الشريف ما دخله، ولو كانت هناك فرصة كافية بين أيدي المسلمين لنخلٍ ما بأيديهم من حديث على أسس الرواية الصحيحة والتدوين الحقّ، والمشورة الواعية، لكان أمرًا آخر لم يدفع المسلمين من بعد إلى كل هذا الخلاف.

وسأقتطف لك قوله عليه السلام الذي ورد في النهج ٤٩٦-٤٩٨ حول الموضوع لترى، قال: (إن في أيدي النّاسِ حقًّا وباطلاً، وصدقًا وكذبًا، وناسخًا ومنسوخًا، وعامًّا وخاصًّا، ومحكمًا ومتشابهًا، وحِفْظًا ووهمًا، ولقد كُذِبَ على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم على عهده حتّى قام خطيبًا فقال: « من كذبَ عليَّ متعمّدًا فلْيَتَبَوَّأْ مقعَدَهُ من النار»، وإنّما أتاك بالحديث أربعة رجالٍ ليس لهم خامسٌ: رجلٌ منافقٌ مُظْهِرٌ للإيمان، متصنّعٌ بالإسلام،

لا يتأثَّم ولا يتحرَّجُ يكذِبُ على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم متعمِّدًا؛ فلو علم الناس أنَّه منافقٌ كاذبٌ لم يقبلوا منه، ولم يصدِّقوا قوله، ولكنَّهم قالوا صاحبُ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم: رآه، وسمع منه، ولقِفَ عنه، فيأخذون بقوله... ورجلٌ سَمِعَ من رسول الله شيئًا لم يحفظْهُ على وجهه، فوَهِمَ فيه، ولم يتعمَّد كذِبًا، فهو في يديه ويرويه ويعمل به، ويقول: أنا سمعته من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم، فلو علم المسلمون أنَّه وهم فيه لم يقبلوا منه، ولو علم هو أنَّه كذلك لرَفَضَهُ، ورجلٌ ثالث: سمع من رسولِ الله شيئًا يأمرُ به، ثمَّ إنَّه نهَى عنهُ وهو لا يعلمُ، فحفِظَ المنسوخَ، ولم يحفظِ النَّاسخَ، فلو علم أنه مَنْسوخٌ لرفضه، ولو علم المسلمون إذ سمعوه منه أنَّه منسوخٌ لرفَضُوهُ. وآخرُ رابعٌ: لم يكذِبْ على الله، ولا على رسُولِهِ، مبغِضٌ للكذِبِ خوفًا من الله، وتعظيمًا لرسول الله صلى الله عليه وآله ولم يهِمْ بل حفِظَ ما سمِعَ على وجههِ، فجاء به على ما سمعه، لم يزد فيه ولم يَنْقُصْ منه؛ فحفظَ الناسِخَ فعمِلَ به، وحفظَ المنسوخَ فجَنَّبَ عنه، وعرف الخاصَّ والعام، فوضعَ كلَّ شيء موضِعه، وعرفَ المتشابهَ ومُحْكَمَهُ. وقد يكون من رسولِ الله صلى الله عليه وآله الكلام له وجهان: فكلامٌ خاصٌّ، وكلامٌ عامٌّ، فيسمعه من لا يعرف ما عنى الله سبحانه به، ولا ما عنى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم، فيحمِلُهُ السَّامِعُ، ويوجِّهُهُ على غير معرفةٍ بمعناه، وما قُصِدَ به، وما خرجَ من أجله، وليس كلُّ أصحابِ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم من كان يسأله ويستفهِمُهُ.. وكان لا يمرُّ بي من ذلك شيءٌ إلاَّ سألتُ عنه وحَفِظْتُهُ، فهذه وجوه ما عليه الناس في اختلافهم وعللهم في رواياتهم). وهكذا تستطيع أن تتصوَّر ما دخل الحديث

النبويّ الشريف من تشويه وخلط أدى إلى تضارب رواياته وتقاطعها أحيانًا، وانصبَّ منهج الجرح والتعديل بالدرجة الأولى على دراسة رجال السَّند ومدى صدقهم في الرواية عن الصَّحابي أيٍّ كان.

ولا أشكُّ في أنَّ مرحلة جديدة شهدتها الكوفة خاصَّة بشأن رواية الحديث الشريف وتمحيصه بدأت بعد دخوله عليه السلام، صوَّب لهم فيها ما صوَّب، وبيَّن لهم ما بيَّن، ولاسيما بعد أن وجدوا بابه مفتوحًا على مصراعيه للإجابة على أسئلتهم.

من قوانين الحكم العادل

ورأت الكوفة بأمِّ عينها فنونًا من الحكم العادل تزوَّد به كلُّ والٍ ذهب إلى مصره؛ الحقُّ فيه بيِّنٌ لا مراء فيه، والباطل بينٌ، أما من استعملهم على الصدقات فإن ما أوصاهم به عند خروجهم لطلبها لا يسعه وصف، ولو وقفت عليه وهو في النهج ٥٥٩–٥٦١ لوقفت على عجب لا تسعه كلُّ قوانين العدل الاجتماعي التي سمعت بها أو وقفت عليها، وهو كفيل في دنيا عليٍّ عليه السلام أن يدفع رعيَّته إلى الخروج من حقِّ الله في أموالهم عن طيب خاطر، فليس فيه إجبار ولا ترهيب، وليس فيه مفاصلة ولا مغالطة، لأنَّ الحقَّ حقُّ الله عند عباده، وهو الذي يحاسبهم عليه، ومن لم يخرجه عن طيب نفس خسر الأجر، وحسابه عند الله، لذا فإنه ليس لصاحب الصدقة حين يمرّ بحيٍّ من الأحياء إلاَّ أن يسلِّم بوقار ويقول: (عباد الله أرسلني إليكم وليّ الله وخليفته لآخذ منكم حقَّ الله في أموالكم؛ فهل لله في أموالكم من حقٍّ تؤدونه إلى وليِّه؟ فإن قال قائلٌ: لا، فلا تراجعه، وإن أنعم لك منعمٌ -أي قال

لك: نعم - فانطلق معه من غير أن تُخيفه وتوعِده، أو تعسِفه، أو تُرهِقَه ..).

وتجد في وصيَّته هذه التي أشير في النهج إلى أنه عليه السلام كان يوصي بها عمَّال الصدقات فنونًا من العدل والرأفة والرحمة تجاوزت الإنسان إلى الحيوان، وكلُّها تدفع الرَّعيَّة دفعًا لإخراج حقِّ الله في أموالها.

أما قانون الكوفة ودستورها، فهو خلاصة عدلِه عليه السلام الذي مازال يلهب بعد قرون مشاعر أممٍ حارت عقولها بذلك الرَّجل الذي ليس كمثله مخلوق! ولقد وصل في دروس عدله أن حمَّل القائمين على الأمر مسؤولية الأرض ومن عليها، فقال كما جاء في النهج ٤٠٢: (اتقوا الله في عباده وبلاده، فإنكم مسؤولون عن البقاع والبهائم، وأطيعوا الله ولا تعصوه، وإذا رأيتم الخير فخذوا به، وإذا رأيتم الشرَّ فأعرضوا عنه).

مدرسة الكوفة

وتحوَّلت الكوفة ما بين غمضة عين وانتباهتها إلى مدرسة معرفيَّة لم يعرف التاريخ لها مثيلاً، ومنحها الإمام فرصة كي تجتهد في القول والعمل، وتبحث وتنقِّب، وبسبب من سعة صدره وإنسانيَّته عليه السلام الذي لم يفرِّق بين عجميهم وعربيهم بل وذميِّهم أيضًا بدأت هذه المدينة تشهد أوليات دروس الحوار الذي يخاطب العقل الملتزم الذي لا يتحكم به الهوى أو الموروث بكل أشكاله، كي يصل إلى الحقيقة ومنها إلى العقيدة الراسخة، ولا شكَّ أنها شهدت أوليات الدرس الفلسفي الإسلامي، وقد تخرج فيها من روادها من تخرَّج، وكلهم عيال على درسه عليه السلام، روى ابن عبد ربِّه في عقده ٢/٣٧٣ (قال رجل لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: ما تقول في

القدر؟ قال: ويحك! أخبرني عن رحمة الله، أكانت قبل طاعة العباد؟ قال: نعم؛ قال علي: أسلم صاحبكم وقد كان كافرًا، فقال الرجل له: أليس بالمشيئة الأولى التي أنشأني بها وقوَّم خَلقي أقوم وأقعد، وأقبض وأبسُط؟ قال علي: إنك بعد في المشيئة؛ أما إنّي أسألك عن ثلاث؛ فإن قلت في واحدة منهنَّ لا، كفرت، وإن قلت نعم، فأنت أنت. فمدَّ القوم أعناقهم ليسمعوا ما يقول، فقال له علي: أخبرني عنك، أخلقك الله كما شئت أو كما شاء؟ قال: بل كما شاء؛ قال: فخلقك الله لما شئت أو لما شاء؟ قال: بل لما شاء؛ قال: فيوم القيامة تأتيه بما شئت أو بما شاء؟ قال: بل بما شاء؛ قال: قم فلا مشيئة لك)».

وتستطيع أن تقدِّر مدى حرصه عليه السلام على تبصير ذلك المجتمع من حوار رواه ابن عباس دار بينه وبين شيخ من أصحابه منصرفه من واقعة صفين، وقد رواه ابن عساكر بسنده في ترجمته عليه السلام ٢٨٤/٣ بتاريخه قال: (لمّا قدم عليٌّ من صفّين قام إليه شيخٌ من أصحابه فقال: يا أمير المؤمنين أخبرني عن مسيرنا إلى أهل الشام أبقضاء وقدر؟ فقال عليٌّ: والذي فلق الحبَّة وبرئ النَّسَمَةَ ما قطعنا واديًا ولا علونا تلعةً إلاَّ بقضاء وقدر. فقال الشيخ: عند الله أحتسب عنائي!!. فقال عليٌّ: ولم؟ بل عظَّم الله أجركم في مسيركم وأنتم مصعدون، وفي منحدركم وأنتم منحدرون، وما كنتم في شيء في أموركم مكرهين، ولا إليها مضطرِّينَ. فقال الشيخ: كيف يا أمير المؤمنين والقضاء والقدر ساقنا إليها؟ قال: ويحك ظننتَهُ قضاءً لازمًا وقدرًا حتمًا؟ لو كان ذلك اسقط الوعد والوعيد، ولبطل الثواب والعقاب، ولا أتت لائمة من الله لمذنبٍ، ولا محمدة من الله لمحسنٍ، ولا كان المحسن أولى بثواب الإحسان

من المذنب!! ذلك مقال إخوان عبدة الأوثان، وجنود الشيطان، وخُصماء الرحمن، وهم قدريَّة هذه الأمَّة ومجوسها، ولكنَّ الله أمر بالخير تخييرًا، ونهى عن الشرِّ تحذيرًا، ولم يعصَ مغلوبًا، ولم يُطَعْ مُكْرِهًا ولم يملك تفويضًا، ولا خلق السماوات والأرض وما نرى فيهما من عجائب آياتهما باطلاً ﴿ ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴾. قال الشيخ: يا أمير المؤمنين فما كان القضاء والقدر الذين كان فيه مسيرنا ومنصرفنا؟ قال: ذلك أمر الله وحكمه، ثم قرأ عليٌّ: ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ﴾، فقام الشيخ تلقاء وجهه ثم قال:

أنت الإمام الذي نرجو بطاعته ... يوم النشور من الرحمن رضوانا
أوضحت من ديننا ما كان ملتبسًا ... جزاك ربُّك عنَّا فيه إحسانا).

ولك أن تنظر أيضًا ما رواه ابن عساكر من محاورات في ترجمته عليه السلام ٣/٢٨٦–٢٨٧ حول القضاء والقدر.

مع أهل الذمَّة

ووسط خليط الكوفة الديني الذي امتازت به في زمانه عليه السلام على بقيَّة الأمصار كان الحوار على أشده بين المسلمين وأصحاب الديانات الأخرى، ومن بين ما ذكر في هذا الشأن ما رواه المبرِّد في كامله ١١٢٣/٣ (يروى أن عليًّا رضوان الله عليه مرَّ بيهودي يسأل مسلمًا، فقال له: اسألني ودع الرجل، فقال له: يا أمير المؤمنين أنت حَبْر، أي عالم: قال علي: أن تسأل عالمًا أجدى عليك)، بل لم يشهد أهل الذمَّة بعد رحيله عليه السلام عدالة كمثل عدالته ولاسيما بعد أن ساوى بين ديَّة المسلم وديَّة الذميِّ، فما عادوا يشعرون في كنفه برهبة من اعتداء أحد عليهم، أو خوف من إبداء رأيٍ

أو مناقشة إخوانهم من المسلمين في ديانة أو عقيدة، وكم دخل في الإسلام منهم بسبب تلك العدالة السماويَّة التي نعموا بها.

بل وصل الأمر ببعض اليهود أنهم دخلوا عليه عليه السلام وقالوا كما روى أحمد في كتاب فضائل أمير المؤمنين ٤٧٣ برقم ٣٦٩ بسنده عن محمد بن قيس: (ما صبرتم بعد نبيِّكم إلاَّ خمسًا وعشرين سنة، حتى قتل بعضكم بعضًا. قال: فقال علي: قد كان صبرٌ وخيرٌ، فذكر صبرٍ وخيرٍ، ولكن ما جفّت أقدامكم من البحر حتى قلتم: ﴿ يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾).

وجاء في صحيفة الإمام الرضا ٨٤ بإسناده عن الحسين عليهما السلام: (إن يهوديًا سأل عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وقال: أخبرني عما ليس لله، وعما ليس عند الله، وعما لا يعلمه الله تعالى؟ فقال عليٌّ عليه السلام: أما ما لا يعلم الله فذلك قولكم يا معشر اليهود إنَّ عُزيرًا ابن الله، والله لا يعلم أنَّ له ولدًا، وأما ما ليس عند الله فليس عند الله ظلم للعباد، وأما ما ليس لله، فليس لله شريك).

وكانت وصاياه لعمَّال الخراج حاسمة قاطعة لا تجوِّز لهم إرهاق أحدٍ من الكتابيين أو غيرهم في استحصال الخراج لأي سبب كان، كتب لأحدهم وهي في النهج ٦١٦ (ولا تبيعَنَّ للناس في خراج كِسوة شتاء ولا صيف ولا دابَّة يعملون عليها، ولا عبدًا، ولا تضرِبُنَّ أحدًا سوطًا لمكان درهم، ولا تَمَسُّنَّ مالَ أحدٍ من الناس مُصَلٍّ ولا مُعاهدٍ).

وأراهم أيضًا عدلاً في تطبيق القانون تجاوز إدراكهم ودفع كثيرًا منهم إلى اعتناق الإسلام، روى ابن عساكر في ترجمته عليه السلام ٣/ ٢٤٤ وقبله أبو

الفرج في أغانيه ٢١٩/١٧ أن أمير المؤمنين عليه السلام فقد درعه فرآها مع نصرانيٍّ، فأنكر النصراني وادَّعاها فأقبل به الإمام إلى شريح القاضي، فطلب من الإمام بيِّنة، (فضحك عليٌّ وقال: أصاب شريح مالي بيِّنة، فقضى بها للنصرانيّ، قال: فمشى النصراني خُطًا ثم رجع فقال: أما أنا فأشهد أنَّ هذه أحكام الأنبياء، أمير المؤمنين قدَّمني إلى قاضيه، وقاضيه يقضي عليه!! أشهد أن لا إله إلاَّ الله وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، الدرع والله درعك يا أمير المؤمنين أتبعت الجيش وأنت منطلقٌ إلى صفين فخرجت من بعيرك الأورق. فقال: أما إذا أسلمت فهي لك. وحمله على فرس. فقال الشعبي: فأخبرني من رآه يقاتل الخوارج مع علي يوم النهروان).

وأراهم إنصافًا ورحمة لم يروهما من بعد، وما سمعوا بهما من قبل، ولعل في الرواية التي ذكرها ابن الأثير في أسده ٥٩٩/٣ بسنده أيضًا عن عبد الملك بن عمير خير برهان على عجيبة حكم الإمام في عدله، ودستوره في حكمه، وسماحته، وبعد نظره، ليس مع المسلمين عربًا وعجمًا، وإنما مع الكتابيين أيضًا، قال: (حدَّثني رجل من ثقيف قال: استعملني علي بن أبي طالب على مدرج سابور، فقال: لا تضربنَّ رجلاً سوطًا في جباية درهم، ولا تتَّبعنَّ لهم رزقًا ولا كسوة شتاء ولا صيفًا، ولا دابَّة يعملون عليها، ولا تقيمنّ رجلاً قائمًا في طلب درهم. قلت: يا أمير المؤمنين، إذن أرجع إليك كما ذهبت من عندك. قال: وإن رجعت ويحك! إنما أُمرنا أن نأخذ منهم العفو، يعني الفضل)، وقد رأينا غالبيَّتها في النهج، وهي عن الرجل الثَّقفي عند ابن عساكر في ترجمته عليه السلام ٢٤٨/٣ بتاريخه، وفيه أن أمير المؤمنين عليه السلام استعمله على عكبرا، وهي في سواد العراق، ولم يسكنها المسلمون كما ذكر.

ونقل الدكتور علي الصلابي في كتابه أسمى المطالب في سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ١/ ٣٨٢ عن كتابي فقه الإمام علي، ومصنف عبد الرزاق أن أمير المؤمنين عليه السلام ساوى في الديَّة بين المسلمين والكتابيين، فقد روي في الكتابين المذكورين (عن الحكم بن عتيبة أن عليًا قال: ديَّة اليهودي والنصراني وكل ذمي مثل ديَّة المسلم).

العناية بالإعمار

وكانت عنايته عليه السلام بالإعمار عظيمةً أيضًا، وكان يرى أن إصلاح الأرض أفضل من جبايتها وهي خراب، ولعلّك قد وقفت على عهد مالك، وما أوصاه به، ولك أيضًا أن تنظر في عهوده الأخر ووصاياه لتعرف مدى اهتمامه بهذا الجانب ز

ولقد رأيته عليه السلام هو وصاحبه عمَّار يوم كانا رفقة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في غزوة ذات العشيرة يعرض على صاحبه الذهاب إلى (المدلجيين) لرؤية طريقة عملهم في ترميم الآبار ورعاية النخيل.

وإذا كان نظره قد تجاوز الكوفة إلى مصر وغيرها، فمن الطبيعي أن اهتمامه بإعمار عاصمته وما جاورها لا يقل عن اهتمامه بأعمار الأمصار الأخر.

والكوفة يوم تأسست على حافّة الصحراء لم تكن بمعزل عن ثقافات الأمم ودياناتها، بل كانت محاطة بأمم من شتى الثقافات والديانات، ومحيطها مسيحيٌ يهوديٌ تكثر فيه الكنائس والأديرة، التي تعج بالقسس والرُّهبان، ومنها أو من جوارها تعلَّم العرب الكتابة، وهي بلا شكٍّ وريثة بابل والحيرة وغيرهما من عواصم الفكر والحضارة في بلاد الرافدين.

الفرج في أغانيه ٢١٩/١٧ أن أمير المؤمنين عليه السلام فقد درعه فرآها مع نصرانيٍّ، فأنكر النصراني وادَّعاها فأقبل به الإمام إلى شريح القاضي، فطلب من الإمام بيِّنة، (فضحك عليٌّ وقال: أصاب شريح مالي بيِّنة، فقضى بها للنصرانيّ، قال: فمشى النصراني خُطًا ثم رجع فقال: أما أنا فأشهد أنَّ هذه أحكام الأنبياء، أمير المؤمنين قدَّمني الى قاضيه، وقاضيه يقضي عليه!! أشهد أن لا إله إلاَّ الله وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، الدرع والله درعك يا أمير المؤمنين أتبعت الجيش وأنت منطلقٌ إلى صفين فخرجت من بعيرك الأورق. فقال: أما إذا أسلمت فهي لك. وحمله على فرس. فقال الشعبي: فأخبرني من رآه يقاتل الخوارج مع علي يوم النهروان).

وأراهم إنصافًا ورحمة لم يروهما من بعد، وما سمعوا بهما من قبل، ولعل في الرواية التي ذكرها ابن الأثير في أسده ٥٩٩/٣ بسنده أيضًا عن عبد الملك بن عمير خير برهان على عجيبة حكم الإمام في عدله، ودستوره في حكمه، وسماحته، وبعد نظره، ليس مع المسلمين عربًا وعجمًا، وإنما مع الكتابيين أيضًا، قال: (حدَّثني رجل من ثقيف قال: استعملني علي بن أبي طالب على مدرج سابور، فقال: لا تضربنَّ رجلاً سوطًا في جباية درهم، ولا تتَّبعنَّ لهم رزقًا ولا كسوة شتاء ولا صيفًا، ولا دابَّة يعملون عليها، ولا تقيمنَّ رجلاً قائمًا في طلب درهم. قلت: يا أمير المؤمنين، إذن أرجع إليك كما ذهبت من عندك. قال: وإن رجعت ويحك! إنما أُمرنا أن نأخذ منهم العفو، يعني الفضل)، وقد رأينا غالبيَّتها في النهج، وهي عن الرجل الثَّقفي عند ابن عساكر في ترجمته عليه السلام ٢٤٨/٣ بتاريخه، وفيه أن أمير المؤمنين عليه السلام استعمله على عكبرا، وهي في سواد العراق، ولم يسكنها المسلمون كما ذكر.

ونقل الدكتور علي الصلابي في كتابه أسمى المطالب في سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ١/٣٨٢ عن كتابي فقه الإمام علي، ومصنف عبد الرزاق أن أمير المؤمنين عليه السلام ساوى في الديَّة بين المسلمين والكتابيين، فقد روي في الكتابين المذكورين (عن الحكم بن عتيبة أن عليًا قال: ديَّة اليهودي والنصراني وكل ذمي مثل ديَّة المسلم).

العناية بالإعمار

وكانت عنايته عليه السلام بالإعمار عظيمةً أيضًا، وكان يرى أن إصلاح الأرض أفضل من جبايتها وهي خراب، ولعلّك قد وقفت على عهد مالك، وما أوصاه به، ولك أيضًا أن تنظر في عهوده الأخر ووصاياه لتعرف مدى اهتمامه بهذا الجانب ز

ولقد رأيته عليه السلام هو وصاحبه عمّار يوم كانا رفقة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في غزوة ذات العشيرة يعرض على صاحبه الذهاب إلى (المدلجيين) لرؤية طريقة عملهم في ترميم الآبار ورعاية النخيل.

وإذا كان نظره قد تجاوز الكوفة إلى مصر وغيرها، فمن الطبيعي أن اهتمامه بإعمار عاصمته وما جاورها لا يقل عن اهتمامه بأعمار الأمصار الأخر.

والكوفة يوم تأسست على حافّة الصحراء لم تكن بمعزل عن ثقافات الأمم ودياناتها، بل كانت محاطة بأمم من شتى الثقافات والديانات، ومحيطها مسيحيٌّ يهوديٌّ تكثر فيه الكنائس والأديرة، التي تعج بالقسس والرُّهبان، ومنها أو من جوارها تعلّم العرب الكتابة، وهي بلا شكٌّ وريثة بابل والحيرة وغيرهما من عواصم الفكر والحضارة في بلاد الرافدين.

وإذا كانت المعرفة قد انكمشت في تلك البقاع فإنها انتشرت وتلاقحت مع الثقافات الأخر لتنتج مزيجًا معرفيًا في الكوفة بعد أن دخلها أمير المؤمنين عليه السلام لم تعرفه بقيَّة الحواضر الإسلاميَّة.

دار الحكمة

والحكمة في تراث المرتضى عليه السلام هي النبع الذي نهل منه الحكماء معرفتهم، وآراءهم في الوجود والحياة، ونوازع النفس التي لم يسبر أغوارها أحد كما سبرها، وأنت واقف في نهجه على أعاجيب من حكميَّاته الخالدات التي تمثّل منهاجًا للحياة على أسس من العقيدة والحقِّ والعدل والرحمة، ونبذ جميع نوازع النفس التي تسيء الظنَّ بالله سبحانه وتعالى، أذكر منها قوله فيه
٧٠٧ عليه السلام: (عجبتُ للبخيلِ يستَعْجِلُ الفقر الذي منه هرب، ويفوتُهُ الغِنَى الذي إيَّاه طلبَ، فيعيشُ في الدنيا عيشَ الفقراءِ، ويُحاسبُ في الآخرةِ حِسابَ الأغنياء، وعجِبْتُ للمتكبِّر الذي كان بالأمسِ نُطفَةً، ويكون غدًا جيفةً، وعجِبْتُ لمن شكَّ في الله وهو يرى خلقَ الله، وعجِبتُ لمن نَسِيَ الموتَ وهو يرى الموتى، وعجِبْتُ لمن أنكر النشأة الأخرى وهو يرى النشأة الأولى، وعجِبتُ لِعامِرِ دار الفناء وتاركِ دارِ البقاء)، ولك في باب المختار من حكمه في النهج عالمًا فسيحًا يصعب عليك أن تختار منه بقعة وتترك أخرى، ومن روائع حكمه التي رواها البلاذري في أنسابه ٢/٣٥٨ - ٣٥٩ قوله عليه السلام: (من أراد عزًّا بلا عشيرة، وهيبة بلا سلطان، وغنى بلا مال فليخرج من ذل معصية الله إلى عزِّ طاعته)، وقوله: (إن أخوف ما أخاف عليكم اثنان: طول الأمل واتباع الهوى، فإن طول الأمل ينسي الآخرة، وإن اتباع الهوى يضل عن الحق، ألا وإن الدنيا ولّت مدبرة، والآخرة مقبلة، ولكل

واحدة منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة، فإن اليوم عمل وغدًا حساب)، وقوله: (لا خير في الصمت عن الحكم كما أنه لا خير في القول بالجهل)، وقوله: (الفرص تمر مر السحاب فانتهزوا فرص الخير)، وقوله: (قيمة كل إنسان علمه)، وقوله: (يا ابن آدم ما كسبت فوق قوتك فأنت فيه خازن لغيرك)، وقوله حين سئل عن الغوغاء فقال: (الذين إذا اجتمعوا غَلبوا، وإذا تفرقوا لم يعرفوا)، وقوله فيهم أيضًا: (لا مرحبًا بوجوه لا ترى إلاّ عند السوء).

ومما رواه أبو الفرج في أغانيه ١٣/ ١٣٠ قوله: (إن للقلوب شهوة وإقبالاً وإدبارًا، فأتوها من قبل شهوتها وإقبالها، فإن القلب إذا أكره ملّ)، وقوله: (الهيبة مقرونة بالخيبة، والحياء مقرون بالحرمان، والفرصة تمرُّ مرَّ السحاب).

وهو سيِّدُ البيان بعد رسول الله صلوات الله وسلامه عليهما لا ينازعه في ذلك أحد، ولك في تعليقات الشريف على بعض ما ورد في النَّهج فسحة لترى أيّ أمير للبيان كان عليه السلام، وقد التفت ابن عبد ربِّه في عقده ٤/ ١٩٦ من بين ما التفت إليه إلى بعض توقيعاته العجيبة في إيجازها عمق معانيها وحكمتها فذكر أنه (وقّع إلى طلحة بن عبيد الله: في بيته يؤتَى الحَكَم. ووقّع في كتاب جاءه من الحسن بن عليٍّ رضي الله عنهما: رأيُ الشَّيخ خيرٌ من مشهدِ الغلام، ووقّع في كتاب سلمان الفارسي، وكان سأله كيف يحاسب الناس يوم القيامة: يُحاسبون كما يُرزَقون، ووقع في كتاب الحُصين بن المنذر - قائد ربيعة في واقعة صفّين - يذكر أن السيف قد أكثر في ربيعة: بقيَّة السيفِ أنمى عددًا، وفي كتاب جاءه من الأشتر النَّخعي فيه بعضُ ما يكره: من لك بأخيك كله؟ وفي كتاب صعصعة بن صوحان يسأله في شيء: قيمة كلِّ امرئٍ ما يحسن).

مدرسة مكارم الأخلاق

وهي مدرسته من سماحة وكرم وحلم وتواضع، وابتعاد عن كلِّ ما يُشين بني آدم لم يثبِّت أركانها بعد رحيل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم سواه، وإذا كانت مدينة المصطفى قد عرفتها من قبل، فإنه كان إمامها في الكوفة أو في غيرها من الأمصار، وسيبقى على عرشها متوَّجًا لا يزاحمه مخلوق إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وكيف لا يكون كذلك وقد تحرَّر تمامًا من أسر الدنيا، فما عادت تطمع فيه، لأنها كانت على يقين أن جلَّ طمعه فيها أن يغيِّرَها إلى عوالم من البهجة والنور لا تبتعد كثيرًا عن عالم الآخرة الذي وعد الله به المتقين من عباده، لذا كانت كلُّ مغانمها من وجهة نظره عليه السلام لا أكثر من مزبلة مرَّ عليها كما روى البلاذري في أنسابه ٢/٣٧٢ بسنده عن الشعبي الذي قال: (إن عليًّا مرّ على قذر بمزبلة فقال: هذا ما بخل به الباخلون)، ولعلَّ من مختار قوله عليه السلام ما ورد في إحدى خطبه، وهي في النَّهج ٤١٢—٤١٩: (انتفِعوا ببيانِ الله، واتَّعظوا بمواعظِ الله، واقبلوا نصيحة الله، فإن الله قد أعذر إليكُم بالجَلِيَّة، وأخذ عليكم الحجَّة..أيها النَّاس؛ طوبَى لمن شغله عَيْبُهُ عن عيوبِ النَّاس، وطوبَى لمن لزِمَ بيتَهُ وأكلَ قوتَهُ، واشتَغَلَ بطاعةِ ربِّه، وبكَى على خطيئتِهِ فكان من نفسه في شُغُلٍ، والنَّاسُ منه في راحةٍ)، ومن بين ما قاله عليه السلام في موضع الإرشاد والنُّصح أيضًا ما جاء في النَّهج ٣٤٥: (يا عبد الله، لا تعجل في عيب أحدٍ بذنبِهِ فلعلّه مغفورٌ له، ولا تأمن على نفسكَ صغير معَصيةٍ فلعلَّكَ معذَّبٌ عليها، فليكفف من علم منكم

عيب غيره لما يعلم من عيب نفسه، وليكن الشكر شاغلاً له على معاناته مما ابتلي به غيره).

ومما رواه البلاذري في أنسابه ٣٦٧/٢ عن المرتضى عليه السلام قوله: (ثلاثة من كن فيه استوجب بهن أربعًا: من إذا حدّث الناس لم يكذبهم، وإذا وعدهم لم يخلفهم، وإذا خاطبهم لم يظلمهم، فإذا فعل ذلك وجبت أخوّته، وكملت مروءته وحرمت غيبته وظهر عدله).

ومن دروسها التي ينبغي أن يتّصف به المسلم قوله عليه السلام في صفته كما ورد في النهج ١٣٣ : (المرء المسلم البريء من الخيانة، ينتظر من الله إحدى الحسنيين: إما داعي الله فما عند الله خير له، وإما رزق الله، فإذا هو ذو أهل ومال ومعه دينه وحسبه، إن المال والبنين حرثُ الدنيا، والعمل الصالح حرث الآخرة، وقد يجمعهما الله لأقوام، فاحذروا من الله ما حذّركم من نفسه، واخشوه خَشْيَةً ليست بتعذير، واعملوا من غير رياء ولا سمعة، فإنه من يعمل لغير الله يكِلْهُ الله لمن عمل له).

قوانين العدل الاجتماعي

وقوانين العدل الاجتماعي التي شرّعها الله سبحانه وتعالى، ونشرها رسوله الكريم صلوات الله وسلامه عليه وطبّقها المرتضى عليه السلام في الكوفة وفي غيرها حتى أصبحت شوكة من بعد في عين من اغتصب الحكم بعده جاهد في إخراجها ولكنه لم يفلح، ولقد وقفت من قبل على بعض خطبه وعهوده التي زلزل فيها كيان الظلم، ورأيت كيف ينبغي أن يكون العدل، وأنت واجد في النهج أمثلة يصعب أن تحصى من تلك القوانين التي أشاعها في عاصمته، ولعل

أكثر ما تردَّد في نهجه هو حديثه عن الحق والعدل والظلم والعدوان ولرأفة والرحمة والقيم التي ينبغي أن يتأسس عليها المجتمع الفاضل. كما تستطيع استخراج آيات من اجتهاده الفقهي من كتب الفقهاء على مرِّ العصور والأزمان.

لقد كان ولا فخر أبا قوانين العدالة الإنسانيَّة، فما من عقوبة بدون جرم وإن كان الجرم واقع بما لا يقبل الشك، وأي درس أعظم من درس عدله يوم حذَّره القوم من ابن ملجم، وخبَّروه أنه قاتله لا ريب عندهم في ذلك فأجابهم بذلك العدل السماوي: (ولكنه لم يقتلني بعد).

لقد علّم البشرية كيف يكون الثبات على المبادئ، ولقّنها دروسًا في محبَّةِ الآخر واحترمه، والدفاع عنه، وإن كان من أشدِّ الأعداء، ولقد رأيت الخوارج وغيرهم يسرحون ويمرحون في طرقات الكوفة من دون أن ينقصهم حقّهم أو يعتدي عليهم أو يحاسبهم، بل رأيت قبلهم كيف تعامل مع من لم يبايعه أو لم ينهض معه أو انصرف إلى معسكر عدوِّه في وقت كان فيه من أدرى المسلمين بنيَّاتهم لأن قانون الإمام عدم محاسبة أحد على نيَّته.

أما عدله ورحمته فإنه استمدَّهما من عدل الله سبحانه وتعالى ورحمته في عباده، فقد روي عنه في مسنده عليه السلام ١٢٠ برقم ٢١٤/٧٧٥ أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم قال: «من أذنب في الدنيا ذنبًا فعوقب به، فالله أعدل من أن يُثنِّي عقوبته على عبده، ومن أذنب ذنبًا فستر الله عليه وعفا عنه فالله أكرم من أن يعود في شيء قد عفا عنه»، وقد استوعبت خطبه ورسائله ووصاياه هذه المعاني، وكانت جزءًا من سلوكه الشخصي لا شك أنك لمحته أو استوعبته في كثير من المواقف والأقوال التي مرَّت عليك.

وأنت تعلم أن الكتابة هي أسُّ العلوم، ورائدها بين الصحابة هو الإمام عليه السلام لا شكَّ في ذلك، ويبدو أنه كان يتأنّق بها، ويوصي كتّابه بتجويدها، ولعل ملاحظاته كانت أولى الملاحظات التي عرفها الخطّاطون من بعد، ولقد رأيناه بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يكتب قرآنه ورسائله وعهوده.

ويبدو أن الكوفة شهدت أوَّل تجمُّعٍ لكتابة القرآن الكريم في زمانه، ولا أدلَّ على ذلك من قول ابن عبد ربّه في عقده ١٨٦/٤ : إن عليًّا عليه السلام قال لأبي حكيمة وهو من كتّاب المصاحف: (أجلل قلمك، فقصمت من قلمي قَصمة، فقال: هكذا، نوّره كما نوَّره الله)، وكون أبي حكيمة من كتّاب المصاحف يعني أن هناك غيره في الكوفة يكتبونها، ولم نقف من قبل في المدينة أو في غيرها على مجموعة تفرَّغت لنسخه باستثناء المجموعة التي نسخت المصحف في خلافة عثمان بن عفان، والنصُّ السابق يعني من بين ما يعنيه أيضًا، أن الكوفة بدأت تشهد رواجًا في النسخ والوراقة والتدوين لم تعرفه بقيَّة الأمصار بعد.

نظم التعليم

وفي مدرسته عليه السلام شرّعت نظم التعليم التي بنيت على حب العلم والحرص على طلبه، واحترم العلماء وتبجيلهم، فبسببٍ من قدسيَّة تربيته بين يدي سيِّد الكائنات صلى الله عليه وآله وسلَّم، رأى للعالم مكانة فوق كلِّ مكانة، وخاصَّة بين طلاّبه ومريديه، فوضع منهاجًا للتربية والتعليم لم تعرفه الأمَّة من قبل، واتَّخذته منهجًا من بعد، فالعالم لابد أن يتَّسم بالوقار والكياسة، لأنه: (إذا ضحك ضحكة مجَّ من العلمِ مَجَّةً) كما روى عنه ابن

قتيبة ١٣٩/٣ في عيونه من بين من رووا، أما حقُّه على طلبته كما رأى عليه السلام، ورواه عنه ابن عبد ربه في عقده ١٩٨/٢، ويبدو أن أحدهم سأله عن حقه فقال: (عليك إذا أتيته أن تسلِّم عليه خاصّة، وعلى القوم عامّة، وتجلس قُدَّامه، ولا تُشِر بيدك، ولا تغمز بعينك، ولا تقل: قال فلان خلافًا لقوله، ولا تأخذ بثوبه، ولا تُلِحَّ عليه في السؤال، فإنما هو بمنزلة النَّخلة المُرْطِبة التي لا يزال يسقُط عليك منها شيء)، أرأيت بأية عين نظر إمام المتَّقين إلى العلماء، إنهم نبع صافٍ لا ينبغي سدّ مجراه أو تكديره. ولا شكَّ أن حديثه مع صاحبه كميل بن زياد النَّخعي يُعَدُّ من روائع ما سطَّرته الأقلام في الحثّ على التعلُّم، والفرق بين العلم والمال، ومكانة صالحي علماء الأمَّة، وهو من أحاديثه التي ما جاد الزمان بمثلها من بعد معنًى والفظًا، وبلاغةً، ومازال من دروس التربية التي لا مثيل لها في ما تقرأ، لم يخلُ منه، أو من فقرات منه كتاب من كتب مختار القول، ويغلب على ظنّي أنه قاله في أخريات أيّامه بعد أن راوده اليأس من إصلاح تلك الأمَّة التي اقتتلت على الأصفر الرنَّان، وباعت دينها وانصرفت إلى الباطل تغترف منه بكلتي يديها، فاختصَّ عليه السلام بمجموعة من صحبه يعلمهم، كي يبقوا من بعده مصابيح هدًى في ضلالة تكاد تعشو الأبصار. جاء في النهج ٧١٢ قال كميل بنُ زيادٍ: (أخذ بيدي أمير المؤمنين عليُّ بنُ أبي طالب عليه السلام فأخرجني إلى الجبَّانِ فلمَّا أصحر تنفَّس الصُّعداءَ؛ ثمَّ قال: يا كميل بن زياد إن هذه القلوب أوعيةٌ، فخيرُها أوعاها، فاحفظْ عنّي ما أقولُ لك: النّاسُ ثلاثة: فعالمٌ ربَّانيٌّ، ومتعَلِّمٌ على سبيل نجاة، وهمج رعاع أتباع كُلِّ ناعقٍ يميلون مع كلِّ ريح، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجأوا إلى ركنٍ وثيقٍ، يا كميلُ: العلمُ خيرٌ

من المال، والعلمُ يحرُسُكَ وأنت تحرُسُ المالَ، والمال تُنقِصُهُ النَّفقةُ، والعِلْمُ يزكو على الإنفاق، وصنيعُ المال يزولُ بزواله. يا كميلُ بنُ زياد: معرفةُ العلمِ دِينٌ يُدانُ به، به يكسِبُ الإنسانُ الطّاعة في حياته وجميل الأحدوثة بعد وفاته، والعلمُ حاكمٌ والمالُ محكومٌ عليه. يا كميل؛ هَلَكَ خُزّانُ الأموالِ وهم أحياءٌ، والعلماءُ باقون ما بقي الدهر، أعيانهُم مفقُودةٌ، وأمثالُهم في القلوبِ موجودةٌ. ها إنَّ ها هنا لَعِلمًا جَمًّا -وأشار بيده إلى صدره- لو أصبتُ له حَمَلَةً! بَلَى أصَبْتُ لَقِنًا غيرَ مأمونٍ عليه، مستعمِلاً آلة الدين للدنيا، ومستظهِرًا بنِعَمِ الله على عباده، وبحُجَجِهِ على أوليائهِ، أو منقادًا لِحَمَلَة الحقِّ لا بصيرة له في إحنائه، ينقَدِحُ الشَّكُّ في قلبهِ لأوَّلِ عارضٍ من شُبْهَةٍ. ألا لا ذا ولا ذاك! أو منهومًا باللذَّة سَلِسُ القيادِ للشَّهوةِ، أو مغرمًا بالجمع والادِّخارِ، ليسا من رعاةِ دينٍ في شيء، أقربُ شيء شَبَهًا بهما الأنعام السَّائبةُ! كذلكَ يموت العِلْمُ بموتِ حامليهِ. اللهمَّ بلى! لا تخلو الأرضُ من قائمٍ للهِ بحُجَّةٍ: إما ظاهرًا مشهورًا، أو خائفًا مغمورًا لئلاَّ تبطُلُ حُجَجُ اللهِ وبيِّناتُهُ. وكم ذا وأين أولئك؟ أولئك والله الأقلُّونَ عددًا، والأعظَمونَ عند الله قَدْرًا يحفظُ اللهُ بهم حُجَجَهُ وبيِّناتِهِ حتى يودِعُوها نُظَراءَهم، ويزرعوها في قلوبِ أشباهِهم. هجمَ بهمُ العلمُ على حقيقةِ البصيرةِ، وباشروا روحَ اليقِينِ، واستلانوا ما استوْعَرَهُ المترَفُونَ، وأنِسوا بما استوحش به الجاهلون، وصحِبُوا الدنيا بأبدانٍ أرواحُها مُعَلَّقةٌ بالمحلِّ الأعلى، أولئكَ خلفاءُاللهِ في أرضهِ، والدعاةُ إلى دينهِ. آهِ آهِ شَوقًا إلى رؤيتِهم! انصرفْ يا كُميل إذا شئتَ».

وحثَّ عليه السلام العلماء على طلب العلم ونشره ابتغاء مرضاة الله وليس طمعًا في دنيا أو مال، لأنهم إن طلبوه بحقِّه أحبَّهم الله، وإن كانت

الأخرى فليس لهم غير مقته وهوانهم عليه، روى البلاذري في أنسابه ٣٦٥/٢ عن الحسن (أن عليًّا عليه السلام قال: لو أن حملة العلم حملوه بحقه لأحبهم الله وملائكته، ولكنهم حملوه لطلب الدنيا فمقتهم الله وهانوا عليه)، ولشديد اهتمامه بالعلم عليه السلام قال أيضًا كما ذكر البلاذري في المصدر السابق ٣٦٧/٢ (قيمة الرجل علمه).

ولم يكن أمير المؤمنين عليه السلام مؤسس علم النحو في الكوفة فحسب كما ذهبت إلى ذلك كثير من الأخبار، وإنما أصبحت هي مهد الدرس النحوي الذي انتقل منها إلى غيرها، وقد رَجَحَ ذلك عندي يوم عالجت تاريخ نشأته في كتابي محاضرات في فقه اللغة العربيَّة ١١٥-١٢٥، لأن علوم العربيَّة نشأت في أحضان القرآن ودراساته، وكان للكوفة القدح المعلّى في هذه النشأة، فمنها تخرَّج أئمَّة القراء، وفيها جلس رائداها أمير المؤمنين عليه السلام وعبد الله بن مسعود لإقراء أئمتهم أيضًا، بل لقد ضجَّ مسجدها الجامع بأصواتهم ورأيناهم جيشًا وسط جيشه عليه السلام الذي اتَّجه إلى حرب معاوية، وكلُّ ذلك الجيش أخذ القراءة عنه.

كان عليه السلام أُسًّا لجميع علوم ذلك الزمن وأزمان تلته، فهو الذي وضع نظام الملاحظة للاستنباط، وهو الذي منح العلماء والباحثين فرصة لبصائرهم كي تبحر في آفاق المعرفة الرحبة، ولك في خطبه معينًا لا ينضب لأوَّليات علوم الطبِّ، والطبِّ النفسي، الحيوان، والنبات، والفلك، وغيرها، ولك في عجيب ملاحظاته حول خلق الخفاش ما يدلُّ قطعًا على ملاحظة واقعيَّة لا تتأتَّى إلاَّ لمختصٍّ في علم الحيوان، وهي في النهج ٣٧٣ - ٣٧٤ في خطبة أراد أن يدلّل فيها على عجيب قدرة الله سبحانه بأسلوب

يأسرك بيانه وتأخذك عبارته كلَّ مأخذ، ومثلها عجبًا ما استدلَّ به على عظمة الخالق أيضًا من خِلقة الطاووس وهي في النهج ٣٩٤ -٣٩٥، فوصفه فأحسن الوصف كأنه لاحظه ملاحظة العالم العارف، في بيئة لا تعرفه، وليست هي من بلاده، ولكنها تسمع عنه، ويبدو أن سلوك هذا الطائر في التناسل أحاطت به الأسطورة إذ كان يزعم كما قال عليه السلام: (إنَّه يُلقح بدمعة تسفحها مدامعه فتقف في ضَفَّتي جفونهِ، وأنَّ أنثاه تَطْعَمُ ذلك ثمَّ تبيض لا من لقاح فحل سوى الدمع المُنْبَجِسُ)، ففنَّد كلَّ ذلك بتقرير حقائق علميَّة مبنيَّة

على الملاحظة الدَّقيقة.

وأمير المؤمنين عليه السلام حينما يتحدَّث في خطبه عن حيوان أو نبات أو جماد، فإنما يتحدَّث للتدليل على عظمة الخالق سبحانه ووحدانيَّته، وإذا كان قد وصف الخفَّاش والطاووس فأبهرك بوصفهما فتعال معي ننظر إلى بعض حديثه في وصف النمل والجراد الذي ورد أثناء إحدى خطبه في النهج ٤٣٧، وهو وصف تكمن أهميَّته في فتح الباب على مصراعيه من بعد للملاحظة العلميَّة الدقيقة أن تأخذ طريقها إلى مباحث العلماء، ولا يبتعد عن ظنِّي أن الجاحظ من بعد أفاد فوائد جمَّة في تأليف كتاب الحيوان من ملاحظاته، وكان قد روى شيئًا ليس بقليل عن الإمام فيه؛ قال عليه السلام: (انظروا إلى النَّملة في صغر جُثَّتِها، ولطافة هيئتها، لا تكادُ تُنالُ بلحظِ البصر، ولا بمستدرك الفكر، كيف دبَّت على أرضها، وصبت على رزقها ..ولو فكَّرت في مجاري أكلِها، في علوِّها وسُفلِها، وما في الجوف من شراسيف بطنِها، وما في الرأس من عينِها وأُذُنِها؛ لقضَيتَ من خَلْقِها عَجَبًا، ولَقِيتَ من وصفِها تعبًا.. ولو

ضربت في مذاهبِ فِكرِكَ لِتَبْلُغَ غاياتِهِ ما دلَّتْك الدَّلالةُ إلاَّ على أن فاطرَ النَّملةِ هو فاطر النَّخلة، لدقيقِ تَفْصِيلِ كلِّ شيءٍ، وغامضِ اختلاف كلِّ حيٍّ! وما الجليلُ واللَّطِيفُ، والثَّقِيلُ والخفيفُ، والقويُّ والضَّعيف، في خلقه إلاَّ سواء... وإن شئت قُلتَ في الجرادةِ؛ إذ خلق لها عينين حمراوينِ، وأسرجَ لها حَدَقَتَينِ قَمْراوينِ، وجعل لها السمع الخفيَّ، وفتحَ لها الفمَ السَّوِيَّ، وجعل لها الحِسَّ القويَّ، ونابينِ بهما تقرِضُ، ومِنْجَلَيْنِ بهما تقبِضُ، يرهبها الزُّرَّاعُ في زرعِهم، ولا يستطيعونَ ذَبَّها، ولو أَجْلَبوا بجمعِهِم، حتى تردَ الحَرْثَ في نَزَواتِها، تقضِي منه شَهَواتِها! وخَلْقُها كُلُّه لا يكون إصبعًا مستدِقَّةً). ومن طريف ما قرأتُهُ حديث الرياشي عنه الذي رواه ابن قتيبة في عيونه ٢/١٠٤ وابن عبد ربه في عقده ٦/٢٥٧ قال: (حدَّثني الرياشي قال: ليس شيء يغيب أذناه إلاَّ هو يبيض، وليس شيء يظهر أذناه إلاَّ وهو يلد، روى ذلك عن علي بن أبي طالب عليه السلام).

ومن أقواله التي تجمع بين عمق الإيمان وسعة المعرفة ما رواه ابن قتيبة في عيونه ٢/٢٢٧ (قيل لعلي بن أبي طالب عليه السلام: كم بين السماء والأرض؟ قال: دعوة مستجابة. قيل فكم بين المشرق والمغرب؟ قال: مسيرة يوم) يعني للشمس.

كان عليه السلام يمسك بكلتي يديه تسعة أعشار العلم، وشارك بقيَّة الصحابة في عشرهم، كما سبق ذكر ذلك، وهو هو، فما شاء لك فتحدَّث بدون أن تتَّهم بمبالغة أو إسهاب، وكيف لا يكون كذلك وقد نهل دروسه من النبع الذي نهل منه النبيُّ، ولقد ضجَّت الملائكة في غير مناسبة من ذلك الإيمان الذي تلبَّسه عليه السلام بدعوة الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله

وسلّم، وتستطيع استخراج فقرات وفقرات من حكمه ودروسه من كتابات العلماء والفلاسفة والحكماء والزهّاد وغيرهم. وأيّ كتاب من كتب التراث في شتى العلوم لا تجد فيه حظ الإمام عليه السلام هو الأوفر، ويوم وضعت نصب عيني اختيار أمثلة أعزّزُ فيها ما ذهبت إليه وجدتني أختار ما جاء في النهج من أوّله إلى آخره فعدلت، ورأيتني أجمع من مختار حكمه وأقواله ما وقفت عليه في كتب التراث، فتجمع عندي ما يعدل ما كتبته عنه فنحّيت.

ومن كلّ ما مرَّ وقرأت ما دار من مؤلّفات حول سيرته تستطيع أن تقدِّر أيَّ وهج حضاري شعَّ في الكوفة بعد أن دخلها عليه السلام.

دواء النفس

ولا أشكُّ أيضًا في أنه عليه السلام خير من خبر النفس الإنسانيَّة، لذا فإنه نصح رعيَّته بإعطائها حقّها من الراحة والترويح شريطة عدم الاقتراب من باطل أو مما يغضب الله، فليس على العبد أن يكرهها على ما لا تحب، وإنما عليه أن يروِّضها حتى تستقيم قال عليه السلام كما روى ابن عبد ربه في العقد ٤٠١/٦ أيضًا: (أجِمُّوا هذه القلوب، والتمِسوا لها طُرَفَ الحكمة، فإنها تَمَلُّ كما تملّ الأبدان. والنَّفسُ مُؤثرة للهوى آخذة بالهوينى، جانحة إلى اللهو، أمّارة بالسوء، مستوطِنة للعجْز، طالبة للراحة، نافرة عن العمل، فإن أكرهتها أنضيتها، وإن أهملتها أرديتها). وروى البلاذري في أنسابه ٣٧٣/٢ عن عبد الله بن صالح قال: (مما علمنا من كلام علي قوله: إن القلوب تملّ كما تملُّ الأبدان فابتغوا لها طرائف الحكمة).

ومن دروسه التي تدلُّ على مدى معرفته بأغوار النفس الإنسانيّة نصحه رعيته في إيجاد مداخل لحاجاتهم عند الآخرين، كاستعانتهم بهديّة

بين يدي حاجاتهم، روى ابن قتيبة في عيونه ١٣٨/٣: (قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: نعم الشيء الهدية أمام الحاجة)، وإيَّاك أن تظنّ أنه يشجِّع على ارتكاب معصية وذلك بتقديم رشوة لقضاء الحاجة، وإنما أراد بالهديَّة أن تكون مدخلاً لطالب الحاجة يخفِّف على طالبها مذلّة طلبها، ويشجِّع الآخر على تلبيتها، ويكسر حاجز الدَّهشة بين الطالب والمطلوب.

ومن دروسه أيضًا في معرفة أصناف الرجال قوله الذي رواه المبرد في كامله ٢٧٨/١: (ثلاثة لا يعرفون إلاّ في ثلاثة: لا يعرف الشجاع إلاّ في الحرب، ولا الحليم إلاّ عند الغضب، ولا الصديق إلاّ عند الحاجة).

إمام الزُّهَّاد

وأمير المؤمنين المرتضى عليه السلام إمام الزهَّاد وقدوتهم، اتخذوه شعارًا وطريقًا إلى الله سبحانه وتعالى، أما المتصوفة فعلى اختلاف طرقهم ومناهجهم وشيوخهم يجمعون أنهم اتخذوا خرقتهم في عنعنة طويلة تنتهي به كما ذكر الدكتور عامر النجار في كتابه الطرق الصوفية في مصر ٣٩، لأنهم وجدوا في سيرته المثال الذي يحتذى، على الرغم من مخالفتهم نهجه في النظرة إلى الحياة، وقد رأيت ملبسه ومأكله إبَّان حكمه وقبله، ورأيت ما خلَّفه لأهله بعد رحيله، وقرأت عن دنياه غيضًا من فيضٍ نثرناه هنا وهناك. ولقد رغَّب ورهَّب حتى لم يبقِ مزيدًا لمستزيد ومن بين ما قال عليه السلام كما جاء في النهج ٢٦٩–٢٧٠ (.. فلا تنافسوا في عزِّ الدنيا وفخرِها، ولا تُعْجَبوا بزينتها ونعيمها، ولا تجزعوا من ضرَّائها وبؤسها؛ فإن عِزَّها وفخرَها إلى انقطاع، وإن زينتَها ونعيمَها إلى زوالٍ، وضرَّاءَها وبؤسها إلى نفادٍ، وكلُّ مدَّةٍ فيها إلى انتهاءٍ، أوليس لكم في آثار الأوَّلين مزدجرٌ، وفي آبائكم الماضينَ تبصرةٌ ومعتبرٌ إن كنتم تعقِلونَ؟ أولم تروا إلى الماضينَ منكم لا يرجعونَ؟ وإلى الخَلَفِ الباقينَ لا يبقونَ؟ أولستم تَرَوْنَ أهلَ الدنيا يُصبحونَ ويُمسونَ على أحوالٍ شتَّى: فميِّتٌ يُبكَى، وآخرُ يُعَزَّى، وصريعٌ مبتلى، وعائدٌ يعودُ، وآخر بنفسه يجودُ، وطالبٌ للدنيا والموت يطْلُبُهُ، وغافِلٌ ليس بمغفولٍ عنه؟ وعلى أثر الماضي ما يمضي الباقي)، وقال عليه السلام في وصف الدنيا والتحذير من شهواتها، وهو في النهج ٢٩٤: (أما بعد، فإني أحذركم الدنيا فإنها حلوةٌ خَضِرَةٌ،

حُفَّت بالشهوات، وتحبَّبت بالعاجلة، وراقت بالقليل، وتحلَّت بالآمال، وتزيَّنت بالغرور، لا تدوم حَبْرتُها، ولا تُؤمَنُ فجعَتُها، غَرَّارةٌ ضَرَّارة، حائلةٌ زائلةٌ نافدةٌ بائدة، أكّالةٌ غوَّالةٌ، لا تعدو إذا تناهت إلى أمنية أهل الرغبةِ فيها والرضاء بها أن تكون كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً ﴾ لم يكن امرؤٌ منها في حَبْرةٍ إلاّ أعقبته عبرةٌ، ولم يلقَ في سرَّائها بطْنًا إلاّ منحته من ضرَّائها ظهرًا)، وجاء في إحدى خطبه الخالدات وهي في النهج ٣٠٢ محذّرًا من الدَّهر: (إن الدَّهر مُوترٌ قوسه لا تخْطِئُ سهامُهُ، ولا تؤسَى جراحُهُ، يرمي الحيَّ بالموت، والصَّحيحَ بالسُّقمِ، والنَّاجي بالعطبِ، آكِلٌ لا يشبَعُ وشاربٌ لا ينقع)، وأنت واجد في توسُّلاته بين يدي ربِّه وأدعيتهِ في النهج ما يصعب حصره، وإذا كان لابد من ذكر مثال من فيض فمن ذلك قوله من دعاء كان يدعو به كثيرًا كما ذكر في النهج ٥٠٢ (.. اللهم إنّي أعوذ بك أن أفتقِرَ في غِناكَ، أو أضِلَّ في هداك، أو أُضامَ في سُلطانِكَ، أو أُضطَهدَ والأمر لك. اللهم اجعل نفسي أوَّلَ كريمةٍ تنتَزِعها من كرائمي، وأوَّلَ وديعة ترتجِعَها من ودائع نعمتكَ عندي. اللهم إنَّا نعوذُ بك أن نذهبَ عن قولكَ، أو نُفتَنَ عن دينِك، أو تتابَعَ بنا أهواؤنا دون الهدى الذي جاء من عندكَ)، وكقوله في أحد أدعيته عليه السلام وتمامه في النهج ٥٢٢ أيضًا: (.. اللهمَّ إن فَهِهْتُ عن مسألتي، أو عميتُ عن طِلْبَتي، فدُلَّني على مصالحي، وخذ بقلبي إلى مراشِدي، فليس ذلك بنُكْرٍ من هداياتِكَ، ولا ببدْعٍ من كفاياتِك)، وما أعظم قوله، وهو منها:.(اللهمَّ احملني على عفوِكَ، ولا تحملْني على عدلك).

ويراودني يقين في أنه ما حثَّ على التقشُّف والزُّهد حبًّا بهما، ولكنه رأى بعض الناس في عوز وفاقة، فأراد انتشالهم من شررهما وجنايتهما وما تخلّفانه من آلام وأحزان، فألحَّ بالعبرة والقول على الخاصَّة قبل العامَّة لإحداث التوازن بين الناس.

وما أكثر ما رغَّب وخوَّف ونصح، ومما جاء في النهج ٢٣٥ قوله عليه السلام: (عباد الله، زِنوا أنفسَكُم قبلَ أن تُوزنوا، وحاسبوها من قبلِ أن تُحاسَبُوا، وتَنَفّسوا قبلَ ضِيقِ الخِناقِ، وانقادوا قبل عُنْفِ السِّياقِ، واعلموا أنه من لم يُعِنْ على نفسِهِ حتَّى يكونَ له منها واعظٌ وزاجِرٌ لم يكُنْ له من غيرِها زاجِرٌ ولا واعِظٌ). جاء في كتاب فضائله لأحمد ٤٣٣ برقم ٣٣٣ بسنده عن أبي وائل قال: (أتى عليًّا رجل فقال: يا أمير المؤمنين إني عجزت عن مكاتبتي فأعنِّي. فقال علي: ألا أعلّمك كلمات علّمنيهُنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلّم لو كان عليك مثل جبل صَبِرٍ دنانير لأدّاه الله عنك؟ قلت: بلى. قال: قل: اللهم اكفني بحلالك عن حرامك وأغنني بفضلك عمَّن سواك). وروى الجاحظ في بيانه قوله عليه السلام: (أفضل العبادة الصمت وانتظار الفرج).

ومن آيات زهده عليه السلام ما رواه أحمد في كتاب فضائله ٤٣١ برقم ٣٣٢ بسنده عن ابن أعبد قال: (قال لي علي بن أبي طالب: يا ابن أعبد هل تدري ما حقّ الطعام؟ قال: قلت: وما حقه يا ابن أبي طالب؟! قال: تقول بسم الله، اللهم بارك لنا في ما رزقتنا. قال وما تدري ما شكره إذا فرغت؟ قال: قلت: وما شكره؟ قال تقول: الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا).

وروى أحمد أيضًا في ٤٤١ برقم ٣٤٠ بسنده عن أبي مطر إنه (رأى عليًّا أتى غلامًا فاشترى منه قميصًا بثلاثة دراهم، ولبسه ما بين الرصغين إلى

الكعبين، يقول: ولبسه وقال: الحمد لله الذي رزقني من الرياش ما أتجمَّل به في الناس، وأواري به عورتي. فقيل: هذا شيء ترويه عن نفسك أو عن النبي صلى الله عليه وسلم؟ قال: هذا شيء سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوله عند الكسوة).

وإن شئت أن تنظر في آيات من زهده خلطت بمزيج مواعظه ونهجه فانظر إلى وصيَّتهِ لولده الحسن عليه السلام يوم انصرف من صفِّين، وهي في النَّهج ٥٧٢–٥٩١، ولعلَّك تقدِّر وضعه النفسي وضجره من ذلك الجمع الذي أفسد عليه رأيه بعد أن كان قاب قوسين من الانتصار على الباطل، ولعلَّ الليالي التي تلت انفصال الجيشين بعد تعيين الحكمين هي من الليالي الحالكة الإظلام التي مرَّت عليه عليه السلام إبان خلافته، حيث رأى بأم عينيه تغلُّب المكر والحيلة والباطل على كلِّ الحقِّ الذي يحمله على كتفيه، وأنت واجد فيها أيضًا خلاصة لنهج الإمام ونظرته إلى الحياة، وإصراره على الاعتبار، وحثِّه على التقوى، وطلب المغفرة، ونصحه في ما يجب له وما يجب عليه وتذكيره بالآخرة، وما ينبغي للإنسان أن يتزوَّد به قبل الرحيل، وهي في مجملها صفحات خالدات في التربية الإسلاميَّة، وآيات بينات من العقيدة الراسخة يأخذ بعضها برقاب بعض، يصعب أن تختار منها بعضًا وتترك بعضًا، تأسرك بلغتها، وتحزنك بتذكيرها، وتبكيك من حرقة ما اعتلج في صدره عليه السلام من حزن وألم، ومن حرص على توثيق نهجه الذي ورثه أهل بيته عليهم السلام، وإن كان لابد فسأقتطف مقتطفات منها بما تسمح به العجالة عند الوقوف على أعظم وصيَّة عرفها المسلمون منذ يوم الله ذاك إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها قال عليه السلام: (... أحْيِ قلبَكَ بالموعظة، وأمته

بالزَّهادة، وقوِّه باليقين، ونوِّره بالحكمة، وذلِّله بذكرِ الموت، وبصِّره فجائع الدنيا، وحذِّره صولةَ الدَّهر، وفحشَ تقلُّب الليالي والأيَّام، واعرض عليه أخبار الماضين، وذكِّره بما أصاب من كان قبلك من الأوَّلين، وسِر في ديارِهم وآثارهِم، فانظر في ما فعلوا، وعمَّا انتقلوا، وأين حلُّوا ونزلوا.... يا بُنَيَّ، اجعل نفسَكَ ميزانًا في ما بينك وبين غيرِك، فأحبب لغيرِك ما تُحِبُّ لنفسِكَ، واكره له ما تكْرَه لها، ولا تظلِمْ كما لا تُحِبُّ أن تُظْلَمَ، وأحْسِنْ كما تُحِبُّ أن يُحْسَنَ إليك، واستقبِح من نفسِكَ ما تستقْبِحُهُ من غيرِك، وارضَ من النَّاس بما ترضاه لهم من نفسِك، ولا تقل ما لا تعلم، وإن قلَّ ما تعلم، ولا تقُلْ ما لا تُحِبُّ أن يقال لك...واعلم أنَّ أمامك عَقَبةً كَؤودًا؛ المُخِفُّ فيها أحسنُ حالاً من المُثْقِلِ، والبطيء عليها أقبحُ حالاً من المُسْرِع، وأنَّ مَهبِطَكَ بها لا محالة على جنَّة أو على نارٍ، فارتدْ لنفسِك قبل نُزُولك، ووطِّئ المنزِلَ قبل حلولِكَ، فليس بعد الموت مُسْتَعتَبٌ، ولا إلى الدنيا مُنْصَرَفٌ...واعلم أنَّك إنما خُلِقْتَ للآخرة لا للدنيا، وللفناء لا للبقاء، وللموت لا للحياة، وأنَّك في منزلِ قُلْعةٍ، ودارِ بُلْغةٍ، وطريقٍ إلى الآخرة، وأنَّك طريد الموت الذي لا ينجو منه هارِبُهُ، ولا يفوتُهُ طالبُهُ...وإيَّاك أن توجِفَ بك مطايا الطَّمع فتورِدَكَ مناهلَ الهَلَكَة، وإن استطعتَ أن لا يكون بينك وبين الله ذو نِعمةٍ فافعل، فإنَّك مُدْرِكٌ قِسْمِك، وآخذٌ بسهمِك، وإنَّ اليسيرَ من الله سبحانَه أعظمُ وأكرمُ من الكثير من خلْقهِ، وإن كان كلٌّ منه...)، ولا أشكُّ في أنه عليه السلام ما أراد بها سبط رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فحسب، وإنما أرادها تذكرة لأهل بيت النبوَّة سلام الله عليهم، واللصَّالحين من عباد الله يقتدون بها ويسيرون عليها إن أرادوا الدارين.

ومن توسُّلاته التي وردت في النهج ٥٠٢ قوله عليه السلام: (اللهم أنت أهل الوصف الجميل، والتَّعداد الكثير، إن تؤَمَّل فخيرُ مأمولٍ، وإن تُرْجَ فأكرمُ مَرْجُوٍّ، اللهم قد بَسَطتَ لي في ما لا أمدحُ به غيرك، ولا أثني به على أحدٍ سواك، ولا أُوَجِّهُهُ إلى معادنِ الخيبة ومواضعِ الريبةِ، وعدلْتُ بلساني عن مدائح الآدميينَ، والثَّناء على المربوبين المخلوقين. اللهم ولكلِّ مُثْنٍ على من أثنى عليه مثوبةٌ من جزاءٍ، أو عارفةٌ من عطاء، وقد رجوتك دليلا على ذخائر الرحمة، وكنوز المغفرة. اللهم وهذا مقام من أفردك بالتوحيد الذي هو لك ولم ير مستحقًّا لهذه المحامد والممادح غيرك، وبي فاقة إليك، لا يجبر مسكنتها إلا فضلك، ولا ينعش من خلتها إلا منك وجودك، فهب لنا في هذا المقام رضاك، وأغننا عن مدِّ الأيدي إلى سواك، إنك على كلِّ شيء قدير). ومما رواه المبرِّد في كامله١/٣٩٤ قوله عليه السلام: (العجب لمن يهلِك والنجاة معه، فقيل: ما هي يا أمير المؤمنين؟ قال: الاستغفار). وروى أيضًا في كامله ١/ ٢٠٦ قوله عليه السلام: (يا ابن آدم، لا تحمل همَّ يومك الذي لم يأتِ على يومك الذي أنت فيه، فإنه إن يُعْلَم من أجلك يأتِ فيه رزقك، واعلم أنك لا تكسب من المال شيئًا فوق قوتك إلا كنت فيه خازنًا لغيرك).

ولم يكن زهد الإمام زهد رهبانيَّة، فقد كان يعمل ويتاجر لكسب قوته وقوت عياله عليه السلام، ولكنه لم يكن عملاً للربح وكنز المال، روى أحمد في كتاب فضائله عليه السلام ٣٣ برقم ٨ وابن الأثير في أسده ٥٩٨ أن أحدهم رأى على علي عليه السلام إزارًا غليظًا، قال: (اشتريته بخمسة دراهم، فمن أربحني درهمًا بعته، وقال: ورأيت معه دراهم مصرورة، فقال: هذه بقيَّة نفقتنا من ينبع)، وتجارته تلك التي بحث على من يربحه

درهمًا فيها كانت في الكوفة كما يستفاد من النصّ السابق. وروى أحمد أيضًا في كتابه السابق الذكر برقم ١٩ بسنده عن مجاهد أن الإمام عليه السلام قال: (جئت إلى حائط أو بستان فقال لي صاحبه: دلو وتمرة فدلوت دلوًا بتمرة فملأت كفّي، ثم شربت من الماء، ثم جئت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بملء كفّي، فأكل بعضه وأكلت بعضه).

وللخبر رواية أخرى، أو هو خبر آخر عن عكرمة عن ابن عباس في ترجمته عليه السلام بتاريخ ابن عساكر ٤٩٩/٢ قال: (بلغ علي بن أبي طالب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم جوع فأتى رجلاً من اليهود، فاستقى له سبعة عشر دلوًا على سبع عشرة تمرة، ثم أتى بهنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله بلغني ما بك من الشدَّة فأتيت رجلاً من اليهود فاستقيت له سبعة عشر دلوًا على سبع عشرة تمرة. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فعلت هذا حبًّا لله ولرسوله؟ قال: نعم. قال: فأعدّ للبلاء تجفافًا يعني الصبر).

وروى أحمد في كتاب فضائله عليه السلام ٤٥٤ برقم ٣٥٣ بسنده عن إسماعيل عن علي قال: (جعت مرَّة بالمدينة جوعًا شديدًا فخرجت أطلب العمل في عوالي المدينة، فإذا أنا بامرأة قد جمعت مدرًا - قطع الطين اليابس - فظننتها تريد بلّه، فأتيتها فقاطعتها كل ذنوب على تمرة، فمددت ستة عشر ذنوبًا حتى مجلت يداي، ثم أتيت الماء فأصبت منه، ثم أتيتها فقلت: بكفي هكذا بين يديها، وبسط إسماعيل -راوية الخبر - يديه وجمعهما، فعدَّت لي ستّ عشرة تمرة، فأتيت النبيّ صلى الله عليه وسلم فأخبرته فأكل معي منها).

ورأيناه يوم سأل عنه عمر بن الخطاب عبد الله بن عباس فقال له كما روى ابن أبي الحديد في شرح النهج ٢٠٧/١٢ : (خلّفته يمتح بالغرب - الدلو - على نخيلات من فلان، وهو يقرأ القرآن)، وهكذا نشر بين زهّاد المدينة أو الكوفة مبدأ للزهد قائم على حبِّ العمل، وليس على الاتّكال.

موقفه من عماله وصحابته

سعى أمير المؤمنين عليه السلام لتأسيس نظام فريد من نوعه، مازال العالم المتقدم حتى الآن يحاول جاهدًا من خلال قوانينه الظريبية والقضائية تحقيق بعض تلك الرؤى الإنسانية الفريدة التي طبقها الإمام، وهو نظام غاية في البساطة؛ لم يكن اشتراكيًا كما أراد له الاشتراكيون أن يكون، ولم يكن رأسماليًا كما أراد له أصحاب هذا الاتجاه، كان نظامًا إسلاميًا يتطلع إلى خلق مجتمع فاضل تسوده قيم العدالة الاجتماعية والحس الإنساني المشبع بالرحمة التي تتجاوز العدل وبالشَّفقة والشعور بالواجب، فالغني يؤدي واجبًا في ماله، ويؤدي حقًّا إنسانيًا ثوابه عند الله وليس عند مستحقّه، وهو يؤديه واجبًا وذلك يأخذه استحقاقًا، أما القائم على الأمر فلا يأخذه غصبًا ولا يحاسب عليه، لأنَّ المحاسِب هو الله.

ولا أظن أنَّ أمَّة نعمت برفاهيَّة اقتصاديَّة مقارنة بزمانها، وحريَّة في التعبير والرأي والعقيدة منذ الفتح وحتى قيام الساعة كالأمَّة التي طالها حكم الإمام عليه السلام، فما أشدَّ رقابته القائمين على الأمر في زمانه، بل إن شعوب دولته كلهم كانوا عيونًا رقيبة تنقل أحوالهم إلى الإمام أولاً بأوَّل، وما كان يتوانى في إنزال أقسى العقوبة على من تسوّل له نفسه خيانة الأمَّة بأيِّ وجه من الوجوه، وهي عقوبة فيها من قسوة اللسان ما يتجاوز وقع الحسام، وكان يختار القائمين على استيفاء الحقوق بعناية شديدة، وقبل إرسالهم إلى ولاياتهم يحذِّرهم أشدَّ التحذير، ويبصِّرهم بعقاب الدنيا والآخرة، لذا كان

الترهيب والترغيب سمة عامَّة في رسائله ووصاياه لهم، وفيها من التخويف من عقاب الدنيا والآخرة ما تقشعرُّ له الأبدان، إذ إن عليهم الالتزام بحكم الله في توزيعها، وهي أمانة خيانتها الذل والخزي والفضيحة في الدارين، لأن أعظم خيانة عنده هي خيانة الأمَّة، وأفضع الغشِّ غشُّها، فكيف بنا اليوم وغش الأمة وخيانتها هو القاعدة السائدة في بلاد المسلمين؟ قال لبعض عماله وقد بعثه على الصَّدقة كما جاء في النهج ٥٦٢: (وإن لك في هذه الصَّدقة نصيبًا مفروضًا، وحقًّا معلومًا، وشركاء أهل مسكنة، وضعفاء ذوي فاقة، وإنَّا مُوفُّوك حقَّك، فوفِّهم حقوقهم، وإلاَّ تفعل فإنك من أكثر النَّاس خُصومًا يوم القيامة، وبؤسًا لمن خَصْمُه عند الله الفقراء والمساكين والسائلون، والمدفوعون، والغارمون، وابن السبيل!! ومن استهان بالأمانة ورتع في الخيانة، ولم ينزِّه نفسه ودينه عنها فقد أحلَّ بنفسه الذُّلَ والخزي في الدنيا، وهو في الآخرة أذلُّ وأخزى، وإن أعظم الخيانة خيانة الأمَّة، وأفضع الغشِّ غِشُّ الأئمة)، وبذا تستنتج من الوصيَّة إن المال الذي تقوم الدولة بجبايته ليس عامًّا يرتع به أمير أو خليفة أو صاحب مقام أو منزلة، إنه خاصٌّ بمستحقِّيه، وهو أمانة على القائم عليها بعد أخذ حقِّه منها تأديتها بالوجه الذي رسمه الإسلام دين العدل والسماحة والرأفة والحق.

ترى أرأيت عدالة كهذه، وهل قرأت دستورًا به فوق هذا، وهل سمعت من قبل بوصيَّة حاكم لعامله كما أوصى عليه السلام، وهل بعد هذا من ترهيب، ثم أي عامل يفكِّر بسرقة مال الأمَّة أو الاعتداء عليه وقد أراه المرتضى خزي الدارين بصور تقشعرُّ لها الأبدان إن فكَّر بخيانة أو تقصير.

والقائم على الأمر ليس سيفًا مسلطًا على رؤوس العباد، لا همَّ له إلاّ الاستيلاء على أموالهم، واستعبادهم وتمشيتهم وفق أغراضه وأهوائه الشخصيَّة، يأمر فيطاع، ولا يحقُّ للرعيَّة الاعتراض أو المناقشة أو الرفض، الحاكم عنده هو وجه الإسلام بكلّ معانيه الراقية الشفَّافة التي تدعو إلى السماحة والعدل والرأفة والإحسان، والحريَّة في الدين والعمل، الحريَّة التي تعرف الالتزام بأرقى القيم وأكثرها سموًّا ورفعة، ولكي تتبيَّن سأنقل لك فقرة من فقرات عهده عليه السلام لمحمد بن أبي بكر الذي تجده في النهج ٥٦٣ حين ولاّه مصر تقرأ فيه، وفي عهده لمالك الذي سنقف معه مطولاً من بعد كيف ينبغي أن تكون معاملة الرعيَّة قال: (فاخفض لهم جناحك، وألن لهم جنابك، وابسط لهم وجهك، وآس بينهم في اللحظة والنَّظرة، حتى لا يطمع العظماء في حيفك لهم، ولا ييأس الضعفاء من عدلك عليهم، فإن الله تعالى يُسائِلكم معشر عباده عن الصَّغيرة من أعمالكم والكبيرة، والظاهرة والمستورة، فإن يُعَذّب فأنتم أظلم، وإن يعف فهو أكرم...).

وتعال ننظر في كتابه إلى الحارث الهمذاني فإنك ستجد فيه من العبر ما لا تجده في كتاب آخر لغيره مهما حاولت، وكأنه أراده دستورًا للإيمان الحقيقي بالقيم التي دعا لها الإسلام، وتمنى الإمام أن تسود البشرية جمعاء كي تنعم بالدفء في الدارين، لذا حق لكل من تعلق بحبل الله المتين أن يتعلق بأية وسيلة به عليه السلام، وحقَّ لي أن أنقلها كلمة كلمة إذ لم أستطع تجاوزها، أو اجتزاء مقطع منها، أو اختيار فقرة أو حكمة من حكمها فكلها حكم وعضات، وأنا أريد أن ينظر إلى الإمام هذه المرَّة لا من خلال أوراق التاريخ وذكرياته الموغلة بالمرارة فحسب، ولا من خلال أقوال هذا أو ذاك فيه من

عارفيه، وكلها قيِّمة في تقديري، ولكني أردت تقديمه من بين ما أردت من خلال بعض أقواله بالدرجة الأولى، ومن خلال رؤيتي القاصرة بالدرجة الثانية، ومن خلال رغبة صادقة تقرب بين القلوب التي أرادها الإمام أقرب إلى الشغاف كي تتوحد الكلمة، وتدوم النعمة، ويسود العدل، وتعم الرحمة، بل أردت تقديمه إلى من اتَّهم الإسلام بشتَّى التهم وهو براء منها، فإن كان قد وقع شيء مما اتهم به الإسلام، أو قام بعض المسلمين، أو ممن يحسبون على الإسلام بممارسات لا إنسانية فلا يحق لأحد نسبة ذلك الوزر إلى الإسلام، كما لا يحق لأحد اتِّهام ديانة بوزر أي عمل فردي أو جماعي يقوم به فرد أو جماعة من المنتسبين إلى تلك الديانة، قال، وهي في النهج ٦٧٠: (وتمسك بحبلِ القرآن واستنصِحْهُ، وأحِلَّ حلاله، وحرِّمْ حرامه، وصَدِّقْ بما سَلَفَ من الحقِّ، واعتبر بما مضى من الدُّنيا ما بقي منها، فإن بعضها يُشْبِهُ بعضًا، وآخرُها لاحقٌ بأولها، وكلُّها حائلٌ مفارِقٌ، وعَظِّم اسم الله أن تذكُرَهُ إلاَّ على حقٍّ، وأكثِر ذكرَ الموت وما بعد الموت، ولا تتمنَّ الموتَ إلاَّ بشرطٍ وثِيقٍ، واحذر كلَّ عملٍ يرضاه صاحِبُهُ لِنَفْسِهِ، ويُكْرَهُ لِعامَّة المسلمينَ. واحذرْ كلَّ عملٍ يُعْملُ به في السِّرِّ ويُسْتَحَى منه في العلانيةِ، واحذرْ كلَّ عملٍ إذا سُئِلَ عنه صاحبُهُ أنكرَهُ أو اعتذر منه. ولا تجعل عِرْضَك غَرَضًا لنبالِ القول، ولا تُحَدِّث النَّاسَ بكلِّ ما سمِعْتَ به، فكفى بذلك كَذِبًا على النَّاسِ كُلَّ ما حَدَّثوكَ به فكفى بذلكَ جهلاً، واكْظِم الغيظَ وتجاوَزْ عند المقدرة، واحلم عند الغضب، واصفح مع الدَّولة، تكن لك العاقبةُ، واستصلح كُلَّ نِعْمةٍ أنعمها الله عليك، ولا تُضَيِّعنَّ نِعْمةً من نِعَمِ الله عندك، ولْيُرَ عليك أثرُ ما أنعمَ الله به عليك.

واعلم أن أفضل المؤمنين أفضَلُهم تَقْدِمةً من نفسهِ وأهله وماله، فإنك ما تُقَدِّمْ من خيرٍ يبقَ لك ذُخْرُهُ، وما تُؤَخِّرْهُ يكن لغيرك خيرهُ، واحذر صحابةَ من يفيل رأيُهُ، ويُنْكَرُ عملُهُ، فإنَّ الصَّاحِبَ مُعْتَبَرٌ بصاحِبِهِ. واسكن الأمصار العِظامَ فإنها جِماعُ المسلمينَ، واحذر منازِلَ الغَفْلَةِ والجفاءِ وقِلَّة الأعوان على طاعةِ الله، واقصُر رأيكَ على ما يعْنيك، وإياكَ ومقاعِدَ الأسواق فإنها مَحاضِرُ الشيطان ومَعاريضُ الفِتَنِ، وأكثِر أن تنظُرَ إلى من فُضِّلْتَ عليه، فإن ذلك من أبواب الشكرِ، ولا تسافر في يوم جمعةٍ حتى تشهد الصلاة إلا فاصِلاً في سبيل الله أو في أمرٍ تُعْذَرُ به، وأطِعِ الله في جميع أمورِكَ فإن طاعة الله فاضلةٌ على ما سواها، وخادعْ نفسكَ في العِبَادةِ، وارفِقْ بها ولا تقهَرْها، وخذ عفوها ونشاطَها، إلاَّ ما كان مكتوبًا عليك من الفريضةِ، فإنه لابدَّ من قضائِها وتعاهُدِها عند مَحَلِّها، وإيَّاك أن ينزِلَ بك الموتُ وأنت آبِقٌ من ربِّكَ في طلبِ الدُّنيا، وإيَّاك ومُصاحبةَ الفُسَّاقِ فإن الشرَّ بالشَّرِّ مُلْحَقٌ، ووقِّرْ اللهَ وأحبب أحِبَّاءهُ، واحذرِ الغضبَ فإنَّه جُنْدٌ عظيمٌ من جُنُود إبليسَ، والسلام).

وإذا كان عليه السلام قاصمةً على من يرتكب خيانة أو جورًا من عمَّاله فإنه ما كان يقصر مع المخلصين منهم، يتحفهم بالكلمة الطيبة، والدعوة المخلصة، وقد كتب مرَّة إلى سعد بن مسعود الثقفي عامله على المدائن وجوخى كما ورد في أنساب البلاذري ٣٨٧/٢ (أما بعد فقد وفَّرت على المسلمين فيأهم، وأطعْتَ ربَّك، ونصحْتَ إمامَكَ فِعْلَ المُتَنَزِّه العفيف، فقد حمدتُ أمركَ، ورضيتُ هديَكَ، وأَبَنْتُ رُشْدَكَ غفر الله لك والسلام).

ومثلها لا تقل رقَّة كتبها إلى عمر بن أبي سلمة عامله على البحرين حينما استبدله بالنعمان بن عجلان بعدما أحس بحاجته إليه كي يرافقه في مسيره إلى

معاوية بن أبي سفيان كما ذكر البلاذري في أنسابه ٣٨٧/٢ (إني قد ولّيت النعمان بن عجلان البحرين من غير ذمٍّ لك، ولا تهمة في ما تحت يدك، ولعمري لقد أحسنت الولاية، وأدّيت الأمانة، فأقبل إليّ غير ظنينٍ ولا ملولٍ، فإني أريد المسير إلى ظلمة أهل الشام، وأحببت أن تشهد معي أمرهم، فإنك ممن أستظهر به على إقامة الدين؛ وجهاد العدو، جعلنا الله وإياك من الذين يهدون بالحقّ وبه يعدلون)، وفي الوقت ذاته حذّر النعمان وخوّفه، وذكّره بعفّة عشيرته وتقواها فقال كما ذكر البلاذري في أنسابه ٣٨٨/٢: (أما بعد فإن من أدى الأمانة؛ وحفظ حقّ الله في السرّ والعلانية، ونزّه نفسَهُ ودينَهُ عن الخيانة كان جديرًا بأن يرفع الله درجته في الصالحين، ويؤتيه أفضل ثواب المحسنين، ومن لم ينزّه نفسه ودينه عن ذلك أخلّ بنفسه في الدنيا وأوبقها في الآخرة، فخَفِ الله في سرِّك وجهرِك، ولا تكن من الغافلين عن أمر معادِك، فإنك من عشيرةٍ صالحةٍ ذات تقوى وعفة وأمانة، فكن عند صالح ظنّي بك والسلام).

ومثلها وصيته إلى يزيد بن قيس الأرحبي التي رواها البلاذري في أنسابه ٢ /٣٨٨ : (أوصيك بتقوى الله، وأحذرك أن تحبط أجرك، وتبطل جهادك، فإن خيانة المسلمين مما يحبط الأجر ويبطل الجهاد؛ فاتق الله ربك ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ ، ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا المفسدين يحبُّ).

وهو إن أتاه آتٍ بخبر عن أحد عماله ينذر أحيانًا فيوجع في الإنذار لأن ما بعده سيكون وبالاً على ذلك العامل، ومن هذا رسالة بعث بها عليه السلام إلى عامله على أردشيرخرّة مصقلة بن هبيرة الشيباني ذكرها البلاذري في

أنسابه ٢ / ٣٨٩، وهي: (بلغني عنك أمرٌ إن كنت فعلته فقد أتيت شيئًا إدًّا، بلغني أنك تقسم فيء المسلمين فيمن اعتفاك وتغشّاك من أعراب بكر بن وائل، فوالذي فلق الحبَّة، وبرأ النسمة، وأحاط بكلِّ شيء علمًا، لئن كان ذلك حقًّا لتجِدَنَّ بك عليٌّ هوانًا فلا تستهين بحقِّ ربك، ولا تُصْلِحنَّ دنياك بفساد دينك ومحقه فتكون من الأخسرين أعمالاً ﴿ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً ﴾).

وهذا زياد ابن أبيه الذي استخلفه عامله عبد الله بن عباس على البصرة يكتب له الإمام: (وإني أقسم بالله قَسَمًا صادقًا لئن بلغني أنك خنت من فيء المسلمين شيئًا صغيرًا أو كبيرًا لأشدنَّ عليك شدَّة تدعك قليل الوفر ثقيل الظهر ضئيل الأمر والسلام)، وهذا المنذر بن الجارود العبدي بلغت الإمام عنه خيانة بعد أن ولاّه بعض أعماله فكتب له كما ورد في النهج ٦٧٣: (ولئن كان ما بلغني عنك حقًّا لجمل أهلك وشسع نعلك خيرٌ منك، ومن كان بصفتك فليس بأهل أن يُسَدَّ به ثغر، أو ينفذ به أمر، أو يعلّى له قَدْر، أو يُشْرك في أمانة، أو يُؤمن على خيانة، فأقبل إلي حين يصلُ إليك كتابي هذا إن شاء الله).

ولم يكن على بابه حجاب يمنع رعيته من شكوى عمالهم إن اقتضتهم الضرورة، ولا فرق عنده بين عربيٍّ أو عجميٍّ، ولا بين مسلم أو ذميٍّ في الحقّ، فهم أخوة في الدين أو الخلق كما قال عليه السلام، وعلى الوالي إنصافهم وعدم تحميلهم ما لا طاقة لهم على حمله، أو مطالبتهم فوق ما فرض عليهم، هذا إن استطاعوا، ولعلّه لوحده في ما أعلم ساوى بين ديَّة المسلم وديَّة الذمي، ويوم شكا إليه بعض دهاقين واليه عمرو بن سلمة

الأرحبي كتب إليه كما ذكر البلاذري في أنسابه ٣٩٠/٢ وقد اخترت رواية النهج لسلامتها من شوائب الطبع: (أما بعد فإن دهاقين بلادك شكوا منك غِلظة وقسوة واحتقارًا وجفوة، ونظرت فلم أرهم أهلاً لأن يُدنَوا لِشِركِهِم، ولا أن يُقْصَوا ويُجْفَوا لعهدهم، فالبس لهم جلبابًا من اللين تشوبه بطرف من الشدَّة، وداول لهم بين القسوة والرأفة، وامزج لهم بين التَّقريب والإدناء، والإبعاد والإقصاء إن شاء الله).

وتقرأ في كتبه لعمَّالِ الخراج كيف ينبغي للقائمين عليه تغليب الرحمة على العدل، وإنصاف الناس، وعدم التفريق بين مسلم وذِمِّيٌّ لأن أخوة الخلق لا تفرِّقُ بين دين ودين، لذا لا ينبغي تعريض أحد إلى ترهيب أو ترويع أو إحراج، أو ضرب، كما لا ينبغي الاعتداء على أموال الناس بحجَّة استيفاء الحقوق، لأنها حقوق الله، والمحاسب هو، وليس القائم على جمعها منهم لذا وجب عليهم عدم إجبار أحد على أدائها، وعليهم ترويض نفوسهم بما يطهرها من شرورها ونوازعها، لإنصاف الناس منها قبل أن تأخذهم إلى مهاوي البغي الذي حذَّر الله منه ونهى عنه، وسيعاقب عليه، كما قال عليه السلام في النهج ٦١٨-٦١٩: (واعلموا أن ما كُلِّفتم به يسير، وأن ثوابه كثير، ولو لم يكن في ما نهى الله عنه من البغي والعدوان عقاب يُخَاف لكان في ثواب اجتنابه ما لا عذر في ترك طلبه، فانصفوا الناس من أنفسكم، واصبروا لحوائجهم، فإنكم خُزَّان الرعية، ووكلاء الأمَّة، وسفراء الأئمَّة، ولا تَحْسِمُوا أحدًا في حاجته، ولا تحبسوه عن طِلْبَتِهِ، ولا تبيعَنَّ للناس في خراج كِسوة شتاء ولا صيف ولا دابَّة يعملون عليها، ولا عبدًا، ولا تضرِبُنَّ أحدًا سوطًا لمكان درهمٍ، ولا تَمَسُّنَّ مالَ أحدٍ من الناس مُصَلٍّ ولا مُعاهدٍ).

والاستشهاد بالشاهد بعد الشاهد ليس الغرض منه توضيح نهجه في إقامة الحقّ ودفع الظلم، فما اختلف على ذلك أحد منذ أن عُرِفَ الإمام عليه السلام، وإنما لكي نقدِّم رؤية عن الإسلام الحقيقي، وعبرة على ما ينبغي أن تسير عليه أمور الحكم أو تقترب منها.

وكان موقفه مع صحابته المقربين أكثر قسوة وشدَّة إذا رأى في مسلكهم ما ينبئ عن حبٍّ للدنيا وحرصٍ عليها، ولعلك واجد صدى ذلك فيما قاله للعلاء بن زياد الحارثي - وهو من صحابته - يوم عاده ورأى سعة في داره كما ورد في النهج ٤٩٤: (ما كنت تصنع بسعة هذه الدار في الدنيا؟ أما أنت إليها في الآخرة كنت أحوجَ؟ وبلى إن شئت بلغتَ بها الآخرة: تقَوِّي فيها الضَّعيف، وتَصِلُ فيها الرحِمَ، وتُطْلِعُ منها الحقوقَ مطالِعِهَا فإذا أنت قد بلغت بها الآخرة).

وأنت تقرأ في رسالته إلى واليه على أصطخر المنذر بن الجارود، ألوانًا من الترهيب والوعيد، لتقصيره في عمله، وانشغاله عنه بالصيد والقنص، وإثرته أعراب قومه على من سواهم، ولم يكتف بذلك، وإنما أعفاه عن الولاية واستقدمه لمحاسبته، ويوم قدم عليه استحلفه فلما امتنع عن اليمين سجنه، ولم يخرجه إلاّ بكفالة صعصعة بن صوحان كما ذكر البلاذري في أنسابه ٢/ ٣٩١، كتب الإمام: (إن صلاح أبيك غرَّني بك، وظننت أنك تتبع هديه وفعله؛ فإذا أنت في ما رقِّي إليّ عنكَ لا تدع الانقياد لهواك، وإن أزرى ذلك بدينك، ولا تصغي إلى الناصح وإن أخلص النصح لك؛ بلغني أنك تدع عملك كثيرًا وتخرج لاهيًا متنزهًا متصيِّدًا، وإنك قد بسطت يدك في مال الله لمن أتاك من أعراب قومك، كأنه تراثك عن أبيك وأمك، وإني أقسم بالله لئن

كان ذلك حقًا لجمل أهلك وشسع نعلك خير منك، وأن اللعب واللهو لا يرضاهما الله، وخيانة المسلمين وتضييع أعمالهم مما يسخط ربك، ومن كان كذلك فليس بأهل لأن يسدَّ به الثغر، ويجبى به الفيء، ويؤتمن على مال المسلمين، فأقبل حين يصل كتابي هذا إليك)، (فقدم فشكاه قوم ورفعوا عليه أنه أخذ ثلاثين ألفًا، فسأله فجحد فاستحلفه فلم يحلف، فحبسه)، ومرض صعصعة بن صُوحان العبدي فعاده عليه السلام، وهو من أقرب صحابة الإمام إلى نفسه (فكلّمه صعصعة وقال: أنا أضمن ما على المنذر. قال علي: كيف تضمن ذلك وهو يزعم أنه لم يأخذ شيئًا؛ فليحلف. فقال صعصعة: هو يحلف! قال علي: وأنا أظنه سيفعل، إنه نظّار في عطفيه، مختال في برديه، تفّال في شراكيه، فأخرجه علي فخلّى سبيله، وقال علي لصعصعة: إنك ما علمت لخفيف المؤونة، حسن المعونة. قال: وأنت والله يا أمير المؤمنين ما علمت بالله لعالم، وله خائف. فلم يشكر المنذر لصعصعة ما صنع في أمره).

كانت قسوته عليه السلام مع القائمين على أمور المسلمين مضرب مثل، ومحلَّ اعتبار، لأنه حينما يحثُّهم على عدم الالتفات إلى النعيم الزائل فلكي يكونوا عبرة لغيرهم وبذا يقضى على الشهرة وما يتبعها من تفاوت طبقي يؤدّي إلى كوارث إنسانية لا يؤمن عقباها، ولا تعرف نتائجها، ولك في ما فعله مع قاضيه شريح خير دليل على ذلك، فقد اشترى دارًا بثمانين دينارًا، فاستدعاه الإمام وقرّعه تقريعًا لا أشك في أن شريحًا ندم على شرائه تلك الدار كما جاء في النهج ٥٤٠، قال له: (بلغني أنك ابتعت دارًا بثمانين دينارًا، وكتبت لها كتابًا، وأشهدت فيه شهودًا، فقال له شريح: قد كان ذلك يا أمير المؤمنين، فنظر إليه نظر مغضبٍ ثم قال له: يا شُرَيْحُ، أما إنَّه سيأتيك من لا

ينظرُ في كتابك، ولا يسألك عن بَيِّنَتِكَ حتى يخرجُك منها شاخِصًا، ويُسْلِمُكَ إلى قبرِك خالِصًا، فانظر يا شُرَيحُ لا تكونُ ابتعتَ هذه الدَّار من غيرِ مالك، أو أنقدْتَ الثَّمن من غير حلالك! فإذا أنت قد خسرت دار الدنيا ودار الآخرة! أما إنَّك لو كنت أتيتني عند شِرائك ما اشتريت لكتبتُ لك كتابًا على هذه النُّسخة، فلم ترغب في شراء هذه الدَّار بدرهم فما فوق)، ولك أن تنظر في النهج ما أراد أن يكتب له الإمام عليه السلام على نسخة الشراء.

ولم يكن تطبيق نهجه حصرًا على ما تحت يده، وإنما طال القاصي والدَّاني، وكان حسابه ليس فيه غير العدل إذا لم يجد مكانًا للرحمة حتى أصبح من الصعب أن نتصور كيف كان يستطع الحصول على والٍ يقوم مقامه في تلك الولايات وهو على ذلك النهج الصارم الذي لا يغض طرفًا عن كل صغيرة أو كبيرة، ولاسيما أن ليس كل القوم كأبي ذرٍّ وسلمان لا يحتاج أن يضع عليه عينًا أو رقيبًا، ولعل النهج الذي سار عليه واتبعه لا يحتاج إلى عين أو رقيب، فكل شيء تحت نظر الجميع، وباب الأمير مشرعة في الليل والنهار، وخلّص صحابته الذين آمنوا برسالته في كل البلاد، عيونهم ترصد كل الطرقات لقول كلمة الحق في حينها دونما خوف أو مواربة، وإن نبت فلابد من إعلام الإمام بأية صغيرة تقع في البلاد التي كانت تحت سيطرته، ولم تستطع قوى الشرّ أن تخرجها من حكمه، وهو فيه مباشر لا يعرف المجاملة أو المهادنة أو السياسة مهما كان المقصِّر قريبًا منه، أو عزيزًا عليه، وليس كابن عباس رضوان الله عليه شخصية تقترب من نفسه وذاته، فهو ذراعه السياسي والعسكري، وهو مستشاره وتلميذه الذي آمن به، وبسيرته، ولك في كتاب (عبد الله بن عباس) للتقي الحكيم خير دليل على تعلق الرجل بإمامه منذ أن

فتح عينيه على الحياة حتى ساعة إغماضهما، ولكن الإمام حينما أبلغه أبو الأسود الدؤلي أن ابن عباس أخذ شيئًا من بيت المال - لعل ابن عباس كان يراه حقًّا من حقوقه تسامح الإمام في تخصيصه من بيت المال لأهل البيت عليهم السلام - أمره بإعادته فورًا، ولعل ابن عباس كان في ضائقة دعته إلى أخذه فقد كانت لهجته معه قاطعة ليس فيها أي حساب للأحداث التي كانت تحيط به بعد معركة صفين، ولا لما كان يفعله معاوية وجنده في الولايات التي يصلون إليها، ولا لمسيس حاجته إلى قائد شجاع ووزير مؤتمن كابن عباس، لأن كل ذلك في ميزان الدنيا أما واجبه لميزان الآخرة فكان الآتي: (أما بعد فقد بلغني عنك أمر إن كنت فعلته فقد أسخطت ربك وأخربت أمانتك، وعصيت إمامك، وخنت المسلمين؛ بلغني أنك جردت الأرض، وأكلت ما تحت يدك، فارفع إلي حسابك، واعلم أن حساب الله أشد من حساب الناس، والسلام). كما جاء في أنساب البلاذري ٣٩٧/٢ الذي ذكر رسائل عدة متبادلة بين الإمام وابن عباس في الصفحة المذكورة وما بعدها، ولقد فصَّل الحديث في هذه القضية التقي الحكيم في كتابه عبد الله بن عباس ١/ ٣٨٦–٤٠٢ الذي وقفنا معه وقفة تقدير وإعجاب لأنه جلا غامض هذه الحكاية، وبين موقف ابن عباس الذي استمرَّ على وفائه لإمامه حتى انتقل إلى دار ربِّه، ولقد لمسنا صورًا من ذلك الوفاء في كثير من الروايات التي رواها بحقِّ الإمام عليه السلام.

ومن روائع نهجه في أخذ عمَّاله بالترغيب والترهيب والإرشاد كتابه إلى الأسود بن قطيبة والي حلوان، وهو في النهج ٦٥٥ وجاء فيه: (أما بعد، فإن الوالي إذا اختلف هواه منعه ذلك كثيرًا من العدل، فليكن أمرُ النَّاس عندك في

الحقِّ سواء، فإنّه ليس في الجور عِوضٌ عن العدل. فاجتنب ما تُنكِرُ أمثاله، وابتذِل نفسَكَ في ما افترض اللهُ عليك راجيًا ثوابه، ومتخوِّفًا من عقابه. واعلم أن الدنيا دارُ بليَّة لم يفرُغْ صاحبُها فيها قطُّ ساعةً إلاّ كانت فرغتُهُ عليه حسرةً يوم القيامة، وأنّه لن يُغْنِيَكَ عن الحقِّ شيءٌ أبدًا. ومن الحقِّ عليكَ حِفْظُ نفسِكَ، والاحتساب على الرعيَّة بجُهدِكَ؛ فإنَّ الذي يصلُ إليكَ من ذلك أفضلُ من الذي يصِلُ بكَ، والسلام).

وطريف أن نختم هذا المبحث برسالته إلى زياد - وقد استخلف ابن عباس على البصرة حينما استدعاه الإمام إلى الكوفة - ففيها من ألوان التقريع والترهيب والتخويف باليوم الآخر ما فيها، قال البلاذري في أنسابه ٢ /٣٩٢: (وكتب عليه السلام إلى زياد يستحثه بحمل مال مع سعد مولاه، فاستحثه فأغلظ له زياد وشتمه، فلما قدم سعد على علي شكا إليه وعابه عنده، وذكر منه تجبرًا وإسرافًا، فكتب علي عليه السلام إليه:

إن سعدًا ذكر لي أنك شتمته ظالمًا، وجبهته تجبرًا وتكبرًا؛ وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم «الكبرياء والعظمة لله، فمن تكبَّر سخط الله عليه» وأخبرني أنك مستكثر من الألوان في الطعام، وأنك تدهن في كل يوم، فماذا عليك لو صمت أيامًا، وتصدَّقت ببعض ما عندك محتسبًا، وأكلت طعامك في مرَّة مرارًا أو أطعمته فقيرًا، أتطمع - وأنت متقلب في النعيم تستأثر به على الجار المسكين، والضعيف الفقير والأرملة واليتيم - أن يجب لك أجر الصالحين المتصدقين، وأخبرني أنك تتكلّم بكلام الأبرار، وتعمل عمل الخطّائين فإن كنت تفعل ذلك فنفسك ظلمت، وعملك أحبطت، فتب إلى ربك وأصلح عملك، واقتصد في أمرك، وقدم الفضل ليوم حاجتك إن

كنت من المؤمنين، وادَّهن غبًّا ولا تدهن رفهًا فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ادَّهنوا غبًّا ولا تدَّهنوا رفهًا» والسلام)، ولمَّا كان زياد يعرف الإمام حقَّ المعرفة، فإنه كان على حذر منه ومن فتكاته عليه السلام، لذا كتب إليه: (إن سعدًا قدم علي فعجَّل فانتهرته وزجرته، وكان أهلاً لأكثر من ذلك، فأما ما ذكر من الإسراف في الأموال والتنعم واتخاذ الطعام؛ فإن كان صادقًا فأثابه الله ثواب الصادقين، وإن كان كاذبًا فلا آمنه الله عقوبة الكذابين.

وأما قوله: إني أتكلم بكلام الأبرار وأخالف ذلك فيّ بالفعل؛ فإني إذًا من الأخسرين عملاً، فخذه بمقام واحدٍ قلت فيه عدلاً ثم خالفته إلى غيره، فإن أتاك عليه بشهيد عدل؛ وإلاّ تبين لك كذبه وظلمه).

أسمعت أو قرأت حسابًا كهذا من حاكم عدوه على الأبواب يتربَّص به الطرقات يهدر مال الله هدرًا على أعوانه وعماله وجواسيسه، وينثره نثرًا أمام من يفارقه إليه. ذلك عليّ، وليس كثيرًا أن يخلد في ضمير الأمة منارة للحقِّ والعدل والمروءة والإنصاف يضرب بها المثل، وأنت تراه عليه السلام لا يتهم زيادًا في أمانته، ولو اتهمه لعامله كما عامل غيره، إنه يريد منه أن يكون مثالاً طيبًا لخلق الإسلام في مأكله ومشربه وحتى في العطر الذي يستعمله أسوة برسول الله، في زمن قلَّ فيه من يتأسى به صلوات الله وسلامه عليه.

وهو في تطبيق شرع الله لا يحسب حسابًا للظروف التي تحيط به، ولا لوزن مقصِّرٍ بين رجاله مهما كانت مكانته وأهميَّته، فهذا النجاشيُّ شاعر أهل العراق ورأس إعلامه في ردِّ كيد أعدائه من شعراء الشام وغيرهم، بل هو رأس كبير من رؤوس أنصاره من اليمانية جلده ثمانين سوطًا وزاده عشرين

لأنه أُخِذَ وهو سكران في شهر رمضان، ولقد أقام عليه الحدَّ في وقت هو بأمس الحاجة فيه إلى جمع كلمة أنصاره حول كلمته، لقد جلده بعد انصرافه من واقعة صفّين، وقد علمت كيف انصرف منها، ولك أن تنظر الحكاية وتوابعها بكاملها في شرح النهج ٣/ ٣٠٠-٣٠٢.

وليست وظيفة الوالي عنده جمع المال من ولايته فحسب، وإنما عليه أن يندفع إلى إصلاحها بما يضمن لها الرفاهية والعيش الكريم، فقد روى البلاذري في أنسابه ٢/ ٣٩٠ أن بعض أهل البلاد التي كانت خاضعة لحكمه قاموا بزيارته عليه السلام، وحدَّثوه عن حاجتهم لحفر نهر قد اندرس فكتب لعامله قرظة بن كعب يحثُّه على النظر في الأمر شريطة ألاَّ يجبر أحدًا على المشاركة بالحفر لأنَّ النهر لمن يحفره: (أما بعد فإن قومًا من أهل عملك أتوني فذكروا أن لهم نهرًا قد عفا ودرس، وأنهم إن حفروه واستخرجوه عمرت بلادهم وقووا على خراجهم وزاد فيء المسلمين قبلهم؛ وسألوني الكتاب إليك لتأخذهم بعمله وتجمعهم لحفره والإنفاق عليه، ولست أرى أن تجبر أحدًا على عمل يكرهه، فادعهم إليك؛ فإن كان الأمر في النهر على ما وصفوا؛ فمن أحبَّ أن يعمل فمره بالعمل، والنَّهر لمن عمله دون من كرهه، ولأن يعمروا ويقووا أحبّ إليَّ من أن يضعفوا والسلام)، وأنت تلحظ في رسالته تلك أمرًا في غاية الأهميَّة، وهو أمر إجبار الناس على عمل لا يرغبون القيام به وإن كان فيه مصلحة عامّة أحيانًا، ولم تأخذ بمثل هذا في العصر الحديث إلاَّ قلّة من الدول الأوروبية المتقدّمة في ما أعلم.

وهو في نهجه ودعوته لا يحث على التقشف وترك ما حلله الله من ملاذّ الحياة وزينتها، والانصراف عنها، وإنما هي الوسطية التي دعا إليها، وسار

عليها، وإنما يرى عليه السلام حقًّا للفقراء في أموال الأغنياء، (فما جاع فقير إلاّ بما مُتّع به غنيٌّ، والله تعالى سائلهم عن ذلك) كما ورد في النهج ٧٥٥، وإذا كنت قد رأيت تلك الشّدة في الحثّ على التقشُّف، فمع القائمين على الأمور كي يكونوا قدوة لغيرهم.

أما الحاكم فإنه إذا ارتدى خشن الثّياب وباليها فإنما يرتديها كي تكون عبرة وأسوة، عبرة للغني كي يصرف ماله في وجوه الخير، وقدوة للفقير كي لا يخرجه فقره إلى ما لا يحمد فيهلكه، ولعلك واجدٌ مصداقًا لذلك في حديثه مع عاصم بن زياد حينما ترك الدنيا وتخلّى عنها فقال له: (يا عُدَيَّ نفسِهِ لقد استهام بك الخبيث، أما رَحِمْتَ أهلَكَ وولَدَكَ، أترى الله أحلَّ لك الطّيِّبات وهو يكرهُ أن تأخُذها؟ أنت أهون على الله من ذلك) فقال له عاصم: (يا أمير المؤمنين، هذا أنت في خُشُونة مَلْبَسِكَ وجَشُوبةَ مأكَلِكَ، فأجابه الإمام عليه السلام: (ويحك، إني لست كأنت، إن الله تعالى فرض على أئمّة العدلِ أن يُقَدِّروا أنفسَهم بِضَعَفَةِ النَّاس كيلا يَتَبَيَّغَ بالفقير فَقْرُهُ) كما جاء في النهج ٤٩٥، والحكاية بتفصيلها تجدها في عقد ابن عبد ربه ٣٦٨/٢، ٢٤١/٦، وكأنما أراد من الحاكم أو ولي الأمر أن يسمو بنفسه عن صغائر الدنيا وترفها كي يقضي على الفوارق بين الناس، وفي الوقت ذاته أراد عليه السلام أن ينبّه أنه ليس على الناس الإسراف أو التّقتير أو حرمان أنفسهم مما حلّل الله من زينة الحياة ومتاعها.

الفتح في زمن الإمام

وما كان للفتح على أسسه الإسلاميَّة السمحة أن يتوقّف في خلافة الإمام، ولكن الظروف العاتية التي أحاطت به عليه السلام حالت من دون

نشره في أرجاء الدنيا على الأسس التي أرادها، ولو قُدِّر للمقادير أن تغيِّر من مسيرتها لرأيت دنيا عليٍّ تغزو المشرقين عدلاً وحكمة وحلمًا ورأفة، ولرأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجًا، ولرأيت صورة أخرى لعالم الفضيلة الذي تدنَّس من بعد، ومع كل ذلك فقد نهض الحارث بن مرَّة العبدي أحد ولاته على الشرق وتوجَّه بإذنه إلى ثغر السِّند، وأصاب مغنمًا كبيرًا، وقيل: إنه قسَّم في يوم واحد ألف رأس، ويشاء قدر هذا الفارس المجاهد أن يقتل هو وصحابته في أرض قيقان سنة اثنتين وأربعين للهجرة كما ذكر ياقوت في معجم بلدانه في أثناء حديثه عن هذه المدينة.

وبعد عودته من صفِّين بعث عليه السلام جعدة بن هبيرة إلى خراسان، فانتهى إلى أبْشهر فوجدهم قد ارتدُّوا إلى الكفر، فعاد من حيث خرج، فبعث أمير المؤمنين خُليد بن قرة اليربوعي فحاصر أهل نيسابور حتَّى صالحوه، وصالحه أهل مرو كما ذكر الطبري في تاريخه ٤/٣٢٥ من طبعة الأعلمي.

العبد الصالح الذي وحّد ربه وآمن برسالته

ولم يكن الإمام عليه السلام في موقفه من الرعيَّة، وما سنَّه لهم من أحكام على هدي سنَّة نبيِّه وقرآنه، قد انطلق عن عاطفة أو عصبية، أو اندفاع فتوَّة أو مراهقة، أو نضج رجولة، أو فطرة، أو ذكاء أو تدبُّر، لقد رأى منذ أن آمن أن هذا الدين ليس دين آخرة فحسب، وإنما هو دين دنيا يحقق العدل والمساواة بين بني البشر، وينقذهم من هول الظلم والقهر والعبودية والجهل والفقر الذي كانت تضجُّ به دنيا ذلك الزمان، فتمكَّن الإيمان منه تمكُّنًا لا يماثله إلاَّ إيمان المصطفى صلوات الله وسلامه عليه، والذي يتابع تراثه لا يراوده شك في أن إيمانه كان منذ اليوم الأول عن عقل نيِّرٍ وبعد نظر وتدبُّر، وليس طمعًا في ثوابٍ أو خوفًا من عقاب، أو ترضية لأخيه صلوات الله وسلامه عليه فحسب، فأنت تقرأ في النهج من روائع الكلم في ذات الله روائع تأخذك أخذ مقتدر إلى عوالم الخالق العظيم حتى كأنَّك تراه عيانًا، ولقد حقَّ لأئمة المتصوِّفة أن يتَّخذوه إمامًا، ويرحلوا إلى ذات الله بكلماته التي تزلزل القلوب، وإن كان مبحثنا غير هذا، فإن من الجدير ذكره أن نستشهد بقول أو قولين كي نعرف مدى معرفته بالخالق العظيم وإيمانه به وبما جاء في قرآنه، كي نقف من بعد على نهجه الذي مازال يحيِّر العقول، بل إنك تقرأ فقراتٍ منه في دساتير

الأمم التي جعلت من الإنسان قيمتها الكبرى وإن لم تلتزم بالتطبيق، فالتوت على دساتيرها وعلى الفكر الذي نادت به ونشرته بطريقة أو بأخرى.

في ذلك المجتمع الذي مازال الجدب الروحي منهجه برز الإمام شاخصًا شخوصًا لم يطاوله أحد فيه، لقد اكتشف عدل الله ورأفته وحبَّه لخلقه، فأحبَّ خلقه بكلِّ عمق وتفانٍ وتضحية، ولقد رأى الله في كلِّ شيء جميل خلقه، فكان قدوته، وطريقه، فاهتدى وجاهد معتصمًا به، لا يخاف أحدًا، ولا يرهب إلاَّ ذلك الخالق العظيم، ولا يعتصم إلاَّ به، قال عليه السلام كما ورد في النهج: ٢٨٨: (كل شيء خاشع له، وكل شيء قائم به، غِنَى كلِّ فقيرٍ، وعزُّ كلِّ ذليلٍ، وقوَّةُ كلِّ ضعيفٍ، ومَفْزَعُ كلِّ ملهوفٍ، ومن تكلَّمَ سمِعَ نُطْقَهُ، ومن سكت عَلِمَ سِرَّهُ، ومن عاش فعليه رزقه، ومن مات فإليه منقلبُهُ)، وانظر إليه كيف حمد الله مرَّة لأنه رآه رؤية عين، وتجلَّى له بمنظور ومستور، فقال كما ورد في النهج ٢٨٤ أيضًا: (الحمد لله المتجلِّي لخلقِهِ بخلقهِ، والظاهرُ لقلوبهِم بحُجَّتِهِ، خلق الخلقَ من غيرِ رويَّةٍ، إذ كانت الرويَّاتُ لا تليقُ إلا بذوي الضمائر، وليس بذي ضمير في نفسهِ، خَرَقَ علمُهُ باطِنَ غيبِ السُّتُرات، وأحاطَ بغموض عقائد السَّريرات)، ولا أدل على عقلانية إيمانه الذي لا يختلف عن إيمان أخيه قوله لذعلب اليماني حينما سأله هل رأيت ربَّك يا أمير المؤمنين؟ فقال عليه السلام: أفأعبد ما لا أرى؟ فقال: كيف تراه؟، فقال كما ورد في النهج ٤٢٢: (لا تدركه العيون بمُشاهَدةِ العيانِ، ولكن تدركُهُ القلوب بحقائق الإيمان، قريبٌ من الأشياء غير ملامسٍ، بعيدٌ عنها غير مُباين، متكلِّم لا برويَّة، مريدٌ لا بهمَّةٍ، صانعٌ لا بجارحةٍ، لطيفٌ لا بجارحةٍ، لطيفٌ لا يوصف بالخفاء، كبيرٌ لا يوصف بالجفاء، بصيرٌ

لا يوصفُ بالحاسَّة، رحيمٌ لا يوصفُ بالرِّقّة، تعنوا الوجوهُ لعظمتهِ، وتجب القلوب من مخافته).

ومن روائع مطالع خطبه عليه السلام ما جاء في النهج ٢٣٤ في وصف الذات الإلهية قوله: (الحمد لله المعروف من غير رُؤْيةٍ، والخالق من غيرِ رَوِيَّةٍ، الذي لم يزلْ قائمًا دائمًا؛ إذ لا سماءٌ ذات أبراجٍ، ولا حُجُبٌ ذاتُ رِتاجٍ، ولا ليلٌ داجٍ، ولا بحرٌ ساجٍ، ولا جبلٌ ذو فِجاجٍ، ولا فجٌّ ذو اعوِجاجٍ، ولا أرضٌ ذات مِهادٍ، ولا خلْقٌ ذو اعتمادٍ؛ ذلكَ مبتَدِعُ الخَلْقِ ووارِثُهُ، وإله الخَلْقِ ورازِقُهُ.....)، ومن كلماته الخالدات أيضًا خطبته التي تعرف بخطبة الأشباح، وقد ارتجلها عليه السلام يوم سأله سائل أن يصف له الله حتى كأنه يراه عيانًا، مما أدى إلى غضبه عليه السلام، وهي في النهج ٢٣٦—٢٥٨، وكلُّ فقرة فيها مختارة، حمد فيها الله ما شاء أن يحمد، وتحدَّث عن صفاته سبحانه وتعالى، ووصف السماء والأرض فيها فأحسن الوصف، ووصف الملائكة وعباداتهم، ثمَّ قال: (قدَّر ما خلقَ فأحكم تقديرَهُ، ودبَّره فألطَفَ تدبيرَهُ ووجَّهَهُ لِوَجْهَتِهِ فلم يتعَدَّ حدودَ منزلتِهِ، ولم يُقَصِّر دون الانتهاءِ إلى غايته، ولم يستصعِب إذ أُمِرَ بالمُضيِّ على إرادتِهِ، وكيف وإنما صدرتِ الأمورُ عن مشيئَتِهِ؟ المُنْشِئُ أصنافَ الأشياءِ بلا رويَّةِ فِكرٍ آلَ إليها، ولا قريحةِ غريزةٍ أضمرَ عليها، ولا تجرُبَةٍ أفادَها من حوادِثِ الدُّهورِ، ولا شريكٍ أعانه على ابتداع عجائبِ الأمورِ، فَتَمَّ خلقُهُ وأذعنَ لطاعتِهِ، وأجابَ إلى دعوتِهِ، ولم يعتَرِضْ دونه ريث المبطئ، ولا أناة المتلكِّئ، فأقامَ من الأشياءِ أوَدَها، ولاءمَ بقدرتِهِ بين مُتَضادِّها، ووصل أسباب قرائِنِها، وفرَّقها أجناسًا مختلِفاتٍ في الحدودِ والأقدار والغرائز والهيئاتِ، بدايا خلائقَ أحكمَ

صنعَهَا، وفطرَها على ما أرادَ وابتدَعَها). فالكون منظمة محكمة الحلقات، كلُّ حلقة فيه أنشأها الله على أعجب نظام، دونما سابقٍ اتكأ عليه، ولا مساعد أعانه، ولا تجربة أفادها، وهو بخلقه دالٌّ على وحدانيَّته جلَّ جلاله، فمن أين استقى تلك المعرفة الربَّانية في معرفة ترابط حلقات الخلق من جماد ونبات وحيوان، لو لم يكن قد صدر عن فهم عميق للقرآن وتدبُّرٍ لمعانيه، ومعرفة لأسراره التي لم تتوفَّر لغيره معرفتها بعد رسول الله.

وذكر المبرِّد في كامله ١/١٣٠ وتابعه ابن عبد ربه في عقده ٢/٢٠١ أن رجلاً قال (لعلي بن أبي طالب رحمه الله: أين كان ربنا قبل أن يخلق السماوات والأرض؟ فقال علي: أين سؤال عن مكان، وكان الله ولا مكان)، فأيّ عبقريَّة هذه، وأيّ إيمان ذاك.

وذكر أبو نعيم في حليته ١/٧٤ عن خلاس بن عمرو قال: (كنا جلوسًا عند علي بن أبي طالب إذ أتاه رجل من خزاعة فقال: يا أمير المؤمنين، هل سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلَّم ينعت الإسلام؟ قال: نعم، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلَّم يقول: «بني الإسلام على أربعة أركان، على الصبر واليقين والجهاد والعدل، وللصبر أربع شعب: الشوق، والشفقة، والزهادة، والترقب؛ فمن اشتاق إلى الجنَّة سلا عن الشهوات، ومن أشفق من النار رجع عن المحرَّمات، ومن زهد في الدنيا تهاون بالمصيبات، ومن ارتقب الموت سارع في الخيرات، ولليقين أربع شعب: تبصرة الفطنة، وتأويل الحكمة، ومعرفة العبرة، واتباع السنة؛ فمن أبصر الفطنة تأوَّل الحكمة، ومن تأول الحكمة عرف العبرة، ومن عرف العبرة اتَّبع السنة، ومن اتَّبعَ السنة فكأنما كان في الأولين، وللجهاد أربع شعب: الأمر

بالمعروف والنهي عن المنكر، والصدق في المواطن، وشنآن الفاسقين، فمن أمر بالمعروف شدَّ ظهر المؤمن، ومن نهى عن المنكر أرغم أنف الباطل، ومن صدق في المواطن قضى الذي عليه وأحرز دينه، ومن شنأ الفاسقين فقد غضب لله، ومن غضب لله يغضب الله له، وللعدل أربع شعب: غوص الفهم، وزهرة العلم، وشرائع الحكم، وروضة الحلم؛ فمن غاص الفهم فسر جمل العلم، ومن رعى زهرة العلم عرف شرائع الحكم، ومن عرف شرائع الحكم ورد روضة الحلم، ومن ورد روضة الحلم لم يفرط في أمره، وعاش في الناس وهم في راحة»، والنَّعْتُ عنه عليه السلام أيضًا في ترجمته ٣ /٢٨٨ بتاريخ ابن عساكر ، ترى أليس من الطبيعي أن من يملك تلك الرؤى ويؤمن بها أن ينماز على خلق الله بنهجه ودستوره، وهكذا كان الإمام.

ويوم سلّمت الخلافة زمامها له أراد بكلّ وسيلة تطبيق شرع الله الذي ما راوده شكٌّ بما سيحدثه من تغيير في مسيرة الإنسانيَّة إن التزمت به، وكان قد وضع ما أراده الله سبحانه لخلقه نصب عينيه بعد كلّ الرُّويّات التي تخطر أو لا تخطر على بال فطبَّقه، بعد أن اتَّخذ من هدي سيرة أخيه وسلوكه منارًا يقتدي به ويسير عليه، فكان نِعم الثِّقل الذي مازال معينًا لقيم العدل والحقّ والرحمة، والنهج الذي استشهد عليه السلام في سبيل تطبيقه لم يكن ابن يومه، وإنما كان على بيِّنة منه، فقد تشرَّب قوانينه وأحكامه وآفاقه ورؤاه ساعة ساعة من وحي الله وهدي رسوله صلوات الله عليه، فقد رافق وحي السماء آية آية ليس بينهما سوى هنيهة بين تبليغ وتبليغ، وكان يعلم في نفسه أنه لن يحيد عنه مهما كلَّفه الأمر من تضحيات، لذا فإنه حينما دعي بعد مقتل عمر بن الخطاب إلى السير على سنَّة النبي ونهج أبي بكر وعمر في الرعية لم يتردد بالرفض، لأنه أراد أن

يسير على هدى وحي الله ونوره، الذي لم يترك له النبيُّ فرصة تفوته فائتة منهما، وهكذا أدارت الخلافة وجهها عنه، بل كان من الطبيعي أن تدير وجهها، ولم يستمع إلى نصح هذا أو ذاك من المخلصين من أهل بيته وصحابته في أمر الدخول في الشُّورى، أو الخروج منها، لأن الجادَّة واضحة أمام ناظريه، وعليه عدم الحياد عنها قيد أنملة، أو الاحتيال عليها ولو إلى حين للوصول إلى غايته، وعلى الباحث قبل مناقشة أحداث العصر قياسها من خلال أقواله عليه السلام، ومن خلال علاقته الحميمة برسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم وليس من خلال رؤى الآخرين الذين صدروا عن رؤى دنيويَّة حقٌّ لهم أن يروها، ولكنها لا علاقة لها برؤى الإمام ونهجه الذي لم يُعِر السياسة أيّ اعتبار.

دنياه عليه السلام دنيا الله، يعرفها معرفة عين، فهو ربيب الوحي، وترجمان القرآن، دنياه دنيا عدل وصدق ومحبَّة ورحمة وإيثار ليس فيها ما يدعو إلى سياسة أو دبلوماسيَّة أو لفٍّ أو دوران، أو رغبة في ملك، كانت الألوان بالنسبة له واضحة ليست كألوان قوس قزح متداخلة، وإن تداخلت فبفعل الرحمة والرأفة والشَّفقة، وكل هذا عنده فوق العدل أحيانًا، ويكفي أن يكون من خالد مقولاته عليه السلام ما رواه الشعبي عنه كما في ترجمته ٣/ ٢٩١ بتاريخ ابن عساكر: (إني لأستحيي من الله أن يكون ذنب أعظم من عفوي، أو جهل أعظم من حلمي، أو عورة لا يواريها ستري، أو خلَّة لا يسدُّها جودي)، ولا أدل على ذلك أيضًا من انفراده عليه السلام بقول: (سلوني)، فهي كلمة ما تجرأ أن يقولها أحد بعد رسول الله غيره، ومعنى هذا أنه مطَّلع ومبلِّغ بما لم يبلِّغ غيره بمثله، وهذا أخذه إلى ما ينبغي عليه الالتزام به، كي يكون حجَّة الله على الأمَّة لا أن تكون الأمَّةُ حجَّةً عليه، وهكذا تجرَّع

كأس النَّدم عبد الرحمن بن عوف على فعلته من بعد حين رأى بأمِّ عينه زوغان الحكم الذي رشَّحه وبايعه لأسباب ليس محلّ بحثها الآن.

وليس في ما يقال انتقاص لفضل أحد من أصحاب الفضل والسابقة، فقد قاموا بدورهم على أحسن وجه، وقدَّموا للإسلام والمسلمين خدمات أجرها عند الله، وشاركوا في نشره في شرق الدنيا وغربها، وعلَّموا الخلق قيمه ومثله، ولكنَّ مُثُلاً أخر ضاعت، وكان بالإمكان أن تؤسس لأمر عظيم ترفل فيه الإنسانيَّة جمعاء، فذهبت الفرصة ولن تعود إلاَّ أن يشاء الله.

ويوم احتشدت الأمة عليه بعد مصرع عثمان كان على بيِّنة من صراطه الذي لا تستطيع تلك الكاثرة التي احتشدت أن تغيره، وكما أنَّ القلَّة القليلة من خيار صحابته لن تستطيع هي الأخرى دفع الواقع القادم على الطريق، لذا قال في لذلك الحشد: (دعوني والتمسوا غيري، فإنَّا مستقبلون أمرًا له وجوه وألوان، لا تقوم له القلوب، ولا تثبت عليه العقول، وإن الآفاق قد أغامت، والمحجَّة قد تنكَّرت، واعلموا أني إن أجبتكم ركبتُ بكم ما أعلم، ولم أصغ إلى قول القائل، وعَتْبِ العاتب، وإن تركتموني فأنا كأحدكم، ولعَلِّي أسمعكم وأطوعكم لمن ولَّيتموه أمركم، وأنا لكم وزيرًا خيرٌ لكم منِّي أميرًا) كما ذكر شرح النهج ٧/٢٤–٢٥، ولسنا بصدد ما ذكره ابن أبي الحديد من آراء حول ما ورد في شرح كلامه عليه السلام هذا من قول أصحابه من المعتزلة أو من قول غيرهم كما ذكر، وإنما الذي نريد توثيقه أن الإمام كان على بيِّنة من صعوبة تطبيق نهج الله، في ذلك النَّفر الذي بدأت الدنيا تداعب شغافه وتبعده شيئًا فشيئًا عن القيم التي شارك خيارهم في إعلائها بسيوفهم وأشاعها نبي الأمة بينهم، فأيَّام الفقر التي كانت ذهبت إلى غير رجعة،

وحلّت مكانها أيّام خصب ودعة، والبطون التي كانت تطوى على الجوع أتخمت اليوم بالأصفر الرنّان، وأصبح ديدنها بعد أن أعماها البريق الاستزادة منه بأي وجه من الوجوه، ولا يهم من بعد على حساب من سيكون ذلك الاكتناز، وهي على أتمّ الاستعداد لمحاربة من يقف في طريقها مهما كان، وهكذا شخصت الأمّارة بالسوء بين القوم تسوقهم سوقًا لمحاربة الحقّ بباطلها إلاّ من رحم الله، وهو يعرف كلّ هذا، ويعرف أنه لا يستطيع أن يحيد عن نهجه أو ينحرف بمشروعه، فرهّب قبل أن يرغّب، وشرط واشترط قبل أن يقبل بيعتهم.

ولربما كان عليٌّ عليه السلام أوّل إنسان في التاريخ -كما يرى الدكتور علي شريعتي في كتابه الإمام علي في محنه الثلاث ١٢٢ - تجرّع غصّة الإحساس بالظلم وسكت قبل تولّيه الحكم حفاظًا على وحدة الأمّة وقوّتها، وسلامة عقيدتها، ويوم سلّمه الحكم زمامه بدأ بثورته العارمة التي أراد بها إعادة النهج إلى ميزان الحقّ والعدل.

ورأت فئة من قريش ومن تابعها أن الفيء الذي قرره الله للأمة هو فيؤها بالدرجة الأولى وليس لغيرها، فهي قريش الحكم والرئاسة والبيت، وبعض قريش يرى أنه من أصحاب السابقة والتضحية فلا يجوز مساواته بغيره، ولكن الحقّ قديم عند الإمام لا يزهقه باطل مهما كانت قوته وطغيانه، يتساوى فيه الإمام مع كل الأمة، وليس لأحد أن ينال غير حقه من مالها مهما كان، لأنه مال الله، ولابد أن يقسم على رعيته بالسوية، أما السابقة والقربى والصحبة والفضل فثوابها وجزاؤها عند الله، والحاكم ملزم أن يعود إلى الحقّ وإن ثقل عليه، ويعيده إلى نصابه حتى ولو تجاوز عليه من سبقه وتقلبت به الأحوال،

أما منهج الحكم فهو نهج الله لا حياد عنه، والحاكم فرد من الرَّعية حقُّه فيها كحقِّهم لا زيادة ولا نقصان، لذا فإنه كان في منهاجه الذي أعلنه في يومه الأول واضحًا وضوح الشمس، إذ قال بلغة غاية في الشفافية تبتعد في بلاغتها عن اللغة المفخَّمة التي عرفناها في خطبه ورسائله، وكأنما أراد عليه السلام أن يقطع كلَّ قالة حول سياسته، والقوم يعلمون ويعرفون أنه إذا قال فعل، وإذا عزم توكَّل بدون التفات إلى الوراء لا يهاب أحدًا ولا يهتمُّ لرأي أحد، وقد عرفوه حاسمًا، يعرف لعب السياسة، ولكنه لا يلعبها ولا تنطلي عليه، لذا قال لهم يومَ أصرُّوا على استخلافه، ووافقوا على شروطه، وقوله في النهج ١١٨-١١٩ : (أيها الناس إنما أنا رجل منكم، لي ما لكم، وعليَّ ما عليكم، وإني حاملكم على منهج نبيكم، ومنفذ فيكم ما أمرت به، ألا إن كل قطيعة أقطعها عثمان، وكل مال أعطاه من مال الله، فهو مردود في بيت المال، فإن الحق قديم لا يبطله شيء، ولو وجدته قد تزوج به النساء وملك به الإماء لرددته فإن في العدل سعة، ومن ضاق عليه العدل فالجور عليه أضيق).

ورأت طائفة ممن تباكت على عثمان، وكانت كلَّ أسباب مصرعه أن تحاول محاورة الإمام على مكاسبها الحرام التي قد تدخل في دائرة المصادرة، في لغة ما بين الترغيب والترهيب لعلَّها تستطيع استمالته إلى جادَّتها كي تحقق مآربها، وإن لم يكن فلا أقلّ من الفوز بما غنمته من دون وجه حقٍّ، ولو كان غيره أيًا كان لنظر إلى الأمور برؤية عقلانية من وجهة نظر العقلانيين، وأخذ هذه الفئة إلى صفِّه ولو إلى حين، ولاسيما أنه يعلم مدى قوَّتها وقدرتها على إيذائه، ولوجد لنفسه عشرات الأسباب لاستمالتها إلى جانبه أو تحييدها في الأقل، غير أن المحاور يابس العود لا لأنه لا يعرف السياسة وأحابيلها وإنما

لأنه مكلّف بدور عليه القيام به، وهو يعرف ما تبطنه له تلك الفئة من عداوة وبغضاء، فثأرهم مازال في رقبته، وكلٌّ ينتظر الوقت المناسب لأخذه، وكان رأس الخطاب بين تلك الطّائفة الوليد، وكان الإمام قد احتزَّ رأس أبيه عقبة صبرًا بأمر رسول الله صلوات الله عليه، فكيف يستطيع نسيان ذلك الحدث لأهل بيته عليهم السلام، وهو يحدّث قومًا ممن كلمهم الإسلام ثارهم جميعًا في رقبته أيضًا بعد رحيل رسول الله، ومن الصعب أن تنسيهم جاهليتهم التي مازالوا غارقين فيها ذلك الثأر، وليت الإيمان قارب شغاف قلوبهم. ذكر ابن أبي الحديد في شرح النهج ٧/٢٨–٢٩ نقلاً عن أبي جعفر الإسكافي وهو من متكلِّمي المعتزلة كانت وفاته سنة ٢٤٠هـ (فبينا النَّاس في المسجد بعد الصُّبح إذ طلع الزبير وطلحة، فجلسا ناحية عن علي عليه السلام، ثم طلع مروان وسعيد وعبد الله بن الزبير، فجلسوا إليهما، ثم جاء قوم من قريش فانضموا إليهم، فتحدَّثوا نجيًّا ساعة، ثم قام الوليد بن عقبة بن أبي معيط فجاء إلى علي عليه السلام فقال: يا أبا الحسن إنك قد وَتَرْتنا جميعًا، أما أنا فقتلت أبي يوم بدر صبرًا، وخذلت أخي يوم الدار بالأمس، وأما سعيد فقتلت أباه يوم بدر في الحرب، وكان ثور قريش، وأما مروان فسخَّفت أباه عند عثمان إذ ضمَّه إليه، ونحن أخوتك ونظراؤك من بني عبد مناف، ونحن نبايعك اليوم على أن تضع عنَّا ما أصبناه من المال في أيَّام عثمان وأن تقتل قتلته، وإنَّا إن خفناك تركناك فالتحقنا بالشام. فقال: أما ما ذكرتم من وِتري إيَّاكم فالحقُّ وتركم، وأما وضعي عنكم ما أصبتم فليس لي أن أضع حقَّ الله عنكم ولا عن غيركم، وأما قتلي قتلة عثمان فلو لزمني قتلتُهم اليوم لقتلتُهم أمس، ولكن لكم عليَّ إن خِفتموني أن أؤمِّنكم، وإن خفتكم أن أُسيِّركم)، وكان

بإمكانه لو أراد أن يكون على غير رأيهم، وان يأخذهم بالطريقة التي يستحقّونها، ولكن الحقوق لا تؤخذ اعتباطًا، وإنما تحتاج إلى شرع وقانون، يسوغه عدل قبل أن تنفذه السلطة، وهكذا أدى قراره إلى اندلاع الشرارة الأولى للتمرد منذ يوم بيعته واستمرَّت بالاتّساع حتى استطاع الباطل في النهاية الانتصار على الحقّ انتصارًا أدى إلى ضياع فرصة تاريخية على الإنسانيَّة كي تعيش في أمن وطمأنينة ويسر وفق قيم الإسلام ودستوره العظيم.

استمر الإمام في بيانه الأول صاعقة على رأس بعض القوم بعد أن تأكد عندهم إصراره على عدم الحياد عن مبدأ المساواة، ولقد كان أمينًا مع الجمهور الذي ازدحم عليه وأجبره على البيعة، ولقد أخبرهم، وهم يعلمون أنه لا يملك إلاّ الصدق لهم، ولكنهم عللوا أنفسهم بلعلّ وعسى، وذلك ما لا يمكن أن يكون.

ولعله فاجأ أمّةً من الذين أفادوا من عثمان إلى حين، ويوم قلب لهم ظهر المجنّ قلبوه له وتآمروا عليه وحثوا الناس على خلعه أو قتله، وراودت بعضهم نفوسهم بأن الأمر قد يكون هيّنًا ليّنًا مع عليٍّ يشركهم في الحكم، ويستبدل بهم عمال عثمان، فهم أهل سابقة، وهم من قريش، وكأنَّ ما قاله لجميع المسلمين بالأمس لا يخصُّهم، ولكنَّ شيئًا من هذا لم يحدث، الذي حدث ولم يتغيَّر إلى آخر يوم من حياته قوله عليه السلام: (ثم جئتموني طائعين فطلبتم إليَّ، وإنما أنا رجل منكم، لي ما لكم، وعليَّ ما عليكم، وقد فتح الله الباب بينكم وبين أهل القبلة، وأقبلت الفتن كقطع الليل المظلم، ولا يحمل هذا الأمر إلاّ أهل الصبر والبصر والعلم بمواقع الأمر، وإني حاملكم على منهج نبيكم صلى الله عليه وآله، ومنفذ فيكم ما أُمِرتُ به، إن استقمتم لي، وبالله

المستعان، ألا إن موضعي من رسول الله صلى الله عليه وآله بعد وفاته كموضعي منه في أيّام حياته، فامضوا لما تؤمرون به، وقِفوا عندما تنهون عنه، ولا تعجلوا في أمر حتى نبيِّنه لكم، فإن لنا عن كلِّ أمر تنكرونه عذرًا، ألا وإن الله عالم من فوق سمائه وعرشه أني كنت كارهًا للولاية على أمَّة محمد، حتى اجتمع رأيكم على ذلك، لأني سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول: «أيّما والٍ وَلِيَ الأمر من بعدي، أقيمَ على حدِّ الصِّراط ونشرت الملائكة صحيفته، فإن كان عادلاً أنجاه الله بعدله، وإن كان جائرًا انتفض به الصِّراط حتى تتزايل مفاصله، ثمَّ يهوي إلى النَّار، فيكون أول ما يتَّقيها به أنفه وحرّ وجهه»، ولكني لمّا اجتمع رأيكم لم يسعني ترككم، ثم التفت عليه السلام يمينًا وشمالاً، فقال: ألا لا يقولنَّ رجال منكم غدًا قد غمرتهم الدُّنيا فاتخذوا العقار، وفجّروا الأنهار، وركبوا الخيول الفارهة، واتّخذوا الوصائف الروُّقة، فصار ذلك عليهم عارًا وشنارًا، إذا ما منعتهم ما كانوا يخوضون فيه، وأصرتُهم إلى حقوقهم التي يعلمون، فينقِمون ذلك، ويستنكرون ويقولون: حرمنا ابن أبي طالب حقوقنا! **ألا وأيما رجل من المهاجرين والأنصار من أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلم يرى أن الفضل له على من سواه لصحبته، فإن الفضل النيِّر غدًا عند الله، وثوابه وأجره على الله، وأيّما رجلٍ استجاب لله وللرسول، فصدّق ملتنا، ودخل في ديننا، واستقبل قبلتنا، فقد استوجب حقوق الإسلام وحدوده، فأنتم عباد الله، والمال مال الله، يقسم بينكم بالسوية، ولا فضل فيه لأحد على أحد، وللمتقين عند الله غدًا أحسن الجزاء، وأفضل الثواب، لم يجعل الله الدنيا للمتقين أجرًا ولا ثوابًا، وما عند الله خير للأبرار، وإذا كان غدًا إن شاء الله فاغدوا علينا، فإن عندنا مالاً**

نقسِّمه فيكم، ولا يتخلفنَّ أحد منكم، عربي ولا عجمي، كان من أهل العطاء أو لم يكن إلاَّ حضر إذا كان مسلمًا حرًّا أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم)، وهي في شرح النهج ٧/٢٧–٢٨، وهكذا وجد الجميع أنفسهم في يوم خلافته الأوَّل ذاك سواسية في العطاء سواء أكانوا من المهاجرين أو الأنصار، أو من أصحاب السابقة أو من جاء بعدهم بحين، أو من العرب أو من العجم، أو من عليَّة القوم أو من تحرر من رقِّ العبوديَّة بالأمس.

وما أن شعر أن القوم لم يرقهم هذا المنهج، وذهبوا يتسارّون في ما بينهم صعد منبر رسول الله ثانية وقال: (... يا معشر المهاجرين والأنصار: أتمنُّون على الله ورسوله بإسلامكم، بل الله يمنُّ عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين، ثم قال: أنا أبو الحسن - وكان يقولها إذا غضب - ثمَّ قال: ألا إن هذه الدنيا التي أصبحتم تَمنُّونها وترغبون فيها، وأصبحت تغضبكم وترضيكم، ليست بداركم، ولا منزلكم الذي خُلِقْتم لها فلا تغرَّنَّكم فقد حذَّرتكموها، واستتموا نعم الله عليكم بالصبر لأنفسكم على طاعة الله، والذل لحكمه جلَّ ثناؤه، **فأما هذا الفيء فليس لأحد على أحد فيه أثرة، وقد فرغ الله من قسمته، فهو مال الله، وأنتم عباد الله المسلمون، وهذا كتاب الله به أقررنا وله أسلمنا، وعهد نبينا بين أظهرنا، فمن لم يرْضَ به فليتولَّ كيف شاء، فإن العامل بطاعة الله، والحاكم بحكم الله لا وحشة عليه)** كما جاء في شرح النهج ٧/٣٠، وهكذا كان بيانه الثاني بعد خطبة بيعته التي تشوف فيها المستقبل المؤلم، دستورًا اقتصاديًّا قاطعًا قائمًا على عدالة السماء، فطبقها تطبيقًا صارمًا لم يفرق فيه بين قريب أو بعيد، أو بين هاشمي وقرشي، أو بين العرب عامة وقريش خاصة، أو بين العرب والعجم، ولنا في ما فعله بأخيه عقيل، خير دليل على

صحة ما قيل ونقول، قال عليه السلام، وهو في النهج ٥١٩ (والله لقد رأيت عقيلاً، وقد أملق حتى استماحني من بُرِّكم صاعًا، ورأيت صبيانه شُعْثَ الشُّعور، غُبْرَ الألوان من فقرهم، كأنما سُوِّدت وجوههم بالتظلم، وعاودني مؤكدًا، وكرَّر عليَّ القول مردِّدًا، فأصغيت إليه سمعي فظنَّ أني أبيعه ديني، وأتَّبع قياده مُفارِقًا طريقتي، فأحميت له حديدة، ثمَّ أدنيتها من جسمه ليعتبرَ بها...)، وهو يعلم أن عقيلاً أحب ولد أبي طالب إلى أبي طالب، فلم تأخذه رأفة به، ولا راعى أخوة، ولا محبة أب هو من هو، لا لأنه لا يذوب شفقة على أخيه واحترامًا لسنِّه، ولا لأنه لا يضعه في المكان الذي وضعه فيه أبوه، وإنما لأنه يغترف من ينبوع المحبَّة والشَّفقة على أخيه وعلى المسلمين جميعًا، وبسبب من شدَّة عدالته عليه السلام في تطبيق منهج الحقِّ تركه أخوه عقيل، ولم يحتمل عدالته تلك، والتحق بمعاوية بن أبي سفيان ليأخذ منه بعض ما يغترفه من ينبوع الباطل من أموال المسلمين، فالتقاه لقاء حسنًا، وأجزل له العطاء، ولكنَّه اغتنمها فرصة لينتقص من مكانة أبي الحسن فقال كما ورد في عيون ابن قتيبة ٢/٢١٤: (يا أهل الشام، ما ظنَّكم برجل لم يصلح لأخيه؟) ولكن عقيلاً رضوان الله عليه ردَّه ردًّا أسكته حين قال: يا أهل الشام، إن أخي خير لنفسه، وشرٌّ لي، وإن معاوية شرٌّ لنفسه، وخير لي)، بل لم يكتفِ معاوية بذلك الدَّرس، وإنما أراد أن يستفيد من وفادة عقيل تلك، فقال يومًا كما ورد في عيون ابن قتيبة ٢/٢١٥ أيضًا: (يا أهل الشام، إن عمَّ هذا أبو لهب) ولكن عقيلاً أجابه على الفور وقال: (يا أهل الشام، إنَّ عمَّة هذا حمّالة الحطب)، إشارة إلى أم جميل زوجة أبي لهب، وأخت أبي سفيان. نعم لقد أراد الإمام أن يلقن أخاه درسًا يأخذ بيده إلى جنان الخلد، ويكون عبرة لغيره ممن تسول له

يلقن أخاه درسًا يأخذ بيده إلى جنان الخلد، ويكون عبرة لغيره ممن تسول له نفسه بالدالة عليه بقرابة أو غيرها، بل يكون درسًا لمن سيأتي بعده من الحكّام، لذا أتعب من جاء بعده وعنّاهم كما سبق القول، ولقد ذهب عليه السلام وليس بين رعيته من هو أفقر منه على رأي عبد الرحمن الشرقاوي الذي ذكره في كتابه القيم (علي إمام المتّقين).

ويوم عوتب على تسوية العطاء بين الناس كان حازمًا كما عزم وعمل، فهو لن يبيعهم آخرته بدنياهم، ولا يشتري رفعتهم بإهانته عند الله، ولا يهتم برفعة الدنيا على ضعة الآخرة، ونصر يأتي بجور لا يشتريه بورقة في فم جرادة كما قال، ولا هو من الطرق التي يركبها إليه، بل إن نصر الدنيا لم يكن يومًا من همومه ولا من تطلعاته، كان يريد نصر الآخرة الذي يعرفه، ويعرف نهجه، لذا كان إصراره قاطعًا، وقراره لا رجعة فيه، وثورته عارمة لا تسمع لنصح أحد، ولا تلتفت لموازين السياسة وتطلعات الحكم وظروفه، على الرغم من عميق معرفته لكلِّ ذلك، قال: (أتأمروني أن أطلب النصر بالجور فيمن وُلّيتُ عليه؟ والله ما أطُورُ به ما سمر سميرٌ، وما أمّ نجمٌ في السماء نجمًا، **ولو كان المال لي لَسَوّيْتُ بينهم، فكيف وإنما المالُ مال الله!** ألا وإن عطاءَ المالِ في غير حقّهِ تبذيرٌ وإسرافٌ، وهو يرفعُ صاحبَهُ في الدنيا، ويضعُهُ في الآخرة، ويُكْرِمُهُ في النَّاس، ويُهِينُهُ عند الله، ولم يضع امرؤٌ مالَه في غيرِ حقّه ولا عند غير أهله إلاّ حرمه الله شكرَهُم، وكان لغيره وُدُّهُم) كما ورد في النهج ٣٢٣.

وعلى الرغم من يقينه أن أمّة المطامع والأهواء لا تقوى على تحمُّل نهجه، ولا تستطيع الانصياع لمشروعه لم يتركهم على غير هدًى، وهو يرى الآتي

كأنه ينظر إليه من دون حجاب، فحذَّرَ منه، حذّرهم غيبة الحقّ، وقيام دولة الباطل، وما ستجره عليهم، حذرهم من زمان آتٍ لا ريب فيه ببوار كتاب الله بينهم إذا تلي حقَّ تلاوته، وحذرهم من المنكر الآتي الذي يتوارى فيه العدل بينهم، ويرفع الباطل لواءه بينهم ولا خاسر في الدارين سواهم قال كما جاء في النهج ٣٥٥: (وإنه سيأتي عليكم من بعدي زمانٌ ليس فيه شيءٌ أخفى من الحقّ، ولا أظهر من الباطل، ولا أكثر من الكذبِ على اللهِ ورسولِهِ، وليس عند أهل ذلك الزمان سلْعَةٌ أبوَرَ من الكتابِ إذا تُلِيَ حقَّ تِلاوتِهِ، ولا أنفق منه إذا حُرِّفَ عن مواضعِهِ، ولا في البلاد شيءٌ أنكرَ من المعروفِ ولا أعرفَ من المنكرِ).

قتال القاسطين

الطريق إلى معركة صِفّين

جاهد أمير المؤمنين عليه السلام بكلّ الوسائل المتاحة لتجنيب المسلمين حربًا أخرى فرضتها عليه الفئة الباغية، بالترهيب من عقاب نازل وإن كان بعد حين مرّة، وبدفع حجج الباطل بكلّ العقل والحكمة والأناة والرويّة التي عُرِفَ بها في أخرى، ومرَّت أشهرٌ لم تنقطع فيها رسائله إلى معاوية بن أبي سفيان لعلّه يجنح لإطفاء الفتنة التي أوقدها قبل تأرُّثها، وجيَّش لها كلَّ ما جبل عليه من مكر وخديعة، وأرسل له رسلاً من أهل السابقة والحكمة والعقل لتبصيره بنتائج إصراره على باطله في حجّته الواهية في اتهامه بمصرع الخليفة عثمان بن عفان الذي شارك معاوية مشاركة فاضحة بقتله، قال عليه السلام في أحد ردوده على معاوية: (ثم ذكرت ما كان من أمري وأمرِ عثمانَ، فلك أن تجاب على هذه لرحِمِكَ منه، فأيُّنا كان أعدَى له، وأهدى إلى مَقَاتِلِهِ! أمَّنْ بذلَ له نُصرتَهُ فاستقعَدَه واستكفَّه؟ أمَّن استنصره فتراخى عنه، وبثَّ المنونَ إليهِ، حتَّى أتَى قدره عليه؟! كلا والله: لَ ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلاً ﴾ ، وما كنتُ لأعتذرَ من أنّي كنتُ أنقِمُ عليه أحداثًا، فإن كان الذنبُ إليه إرشادي وهدايتي له، فلربَّ ملومٍ لا ذنبَ له)، إلا أن كلَّ تلك الجهود ذهبت أدراج الرياح، واستمرَّ الطليق في غيِّه يزبد ويرعد ويهدِّد بمهاجرين وأنصار لا أدري من أين جاء بهم، فأجابه الإمام برسالة هي في النهج ٦٦٢ -٦٦٤ تطفح

بالحقّ والجد والشجاعة أذكر منها قوله عليه السلام: (وذكرتَ أنّك زائري في المهاجرين والأنصار، وقد انقطعت الهجرةُ يوم أُسر أخوك، فإن كان فيه عَجَلٌ فاسترفه -استح - فإنّي إن أزُرْكَ فذلك جديرٌ أن يكون الله إنما بعثني إليكَ للنقمةِ منكَ وإن تزرني فكما قال أخو بني أسد:

مستقبلينَ رياحَ الصَّيفِ تضرِبُهُم بحاصبٍ بينَ أغوارٍ وجُلْمُودِ

وعندي السيفُ الذي أعضَضْتُه بجدِّكَ وخالِكَ وأخِيكَ في مقامٍ واحدٍ، وإنَّك -والله - ما علمتُ إلاّ الأغلف القلب، المُقاربُ العقل، والأولى أن يقالَ لك: إنك رَقِيتَ سُلَّمًا أطلَعَكَ مَطْلَعَ سوءٍ عليك لا لكَ، لأنَّك نشدت غيرَ ضالتِكَ، ورعَيْتَ غيرَ سائمتِكَ، وطلبتَ أمرًا لستَ من أهله ولا في معدنهِ، فما أبعدَ قولِكَ من فِعلِكَ! وقريبٌ ما أشبهتَ من أعمامٍ وأخوالٍ حَمَلَتْهُم الشقَاوةُ وتمنّي الباطلِ على الجحودِ بمحمَّدٍ صلَّى الله عليه وآله وسلَّمَ، فصُرِعوا مصارعَهم حيثُ علمتَ لم يَدْفَعُوا عظيمًا ولم يمنعُوا حريمًا بوقْعِ سيوف ما خلَى منها الوغى، ولم تماشِها الهوينى. وقد أكثرت في قتلة عثمانَ، فادخُلْ في ما دخل فيه النَّاس، ثم حاكم القومَ إليّ أحمِلْكَ وإيَّاهم على كتاب الله تعالى، وأمَّا تلك التي تريد فإنها خُدْعةُ الصبيِّ عنِ اللبن في أوَّل الفصال، والسلام لأهله).

وكان قدر الله واقع، ولابدَّ من قتال القاسطين الذين تركوا الحقّ وعدلوا عنه إلى الباطل كما أمره المصطفى صلى الله عليه وآله وسلّم، فقد روى البلاذري في أنسابه ٢/٣٧٤—٣٧٥ بسنده أن علقمة قال: (سمعت عليًّا يقول: أمرت بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين. وحدثت أن أبا نعيم قال لنا: الناكثون أهل الجمل، والقاسطون أصحاب صفين، والمارقون أصحاب

النهر)، وليس علقمة وحده الذي سمع عليًا عليه السلام، فقد سمعه أيضًا ولده أبو عبد الله الحسين عليه السلام، وكما سمعه علي بن ربيعة، وسعد بن جنادة، وعمرو رواية عن والده أنس، والأعمش، وخليد القصري وغيرهم، وإذا كان فريق قد سمع من عليٍ وهو الصِّديق الأكبر بشهادة المصطفى، فقد سمعه آخرون من فم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم منهم أم سلمة، وعبد الله بن مسعود، وأبو أيوب الأنصاري الذي حدَّث في خلافة عمر بن الخطاب أن رسول الله صلى الله عليه وسلّم أمره بقتالهم مع علي بن أبي طالب عليه السلام، وقد روى ذلك ابن عساكر في ترجمته عليه السلام بتاريخه ٣/٢٠٠–٢١٤ بأكثر من طريق معتبر.

الرؤيا القاصرة

وإذا كان معاوية قد قال كما روى ابن عبد ربّه في عقده ٣٣٦/٤: (أُعِنتُ على عليٍّ بأربعة، كنت أكتم سِرِّي، وكان رجلاً يظهره، وكنت في أصلح جند وأطوعه، وكان في أخبث جند، وتركته وأصحاب الجمل، وقلت: إن ظفروا به كانوا أهون عليٍّ منه، وإن ظفِر بهم اغترَّ بها في دينه، وكنت أحبَّ إلى قريش منه، فيا لك من جامع إليَّ ومفرِّقٍ عنه!)، فما أوهنَ ما ادَّعاه، وما أقصر نظره إن كان قد اعتقد ما قال، فمن جمع له بزعمه أخذ بيده إلى النار، لقد نظر تحت قدميه ولم يتجاوزهما على الرغم من ذكائه، فإذا كان يكتم سرَّه وعليٌّ يذيعه، فلأنَّه أمين على مشروع مداه عمر الإنسان على هذا الكوكب، كان يريد تعليم أجيال وتعويدهم على قول كلمة الحقّ عيانًا جهارًا، لا يساقون كما الأنعام حينما تساق إلى الذبح، وكان يريد تغليب مبدأ العقل الواعي الملتزم على كلِّ عاطفة، وكان يريد لجذوة الإيمان أن تتأجج في الروح كي تحرق كلَّ

نوازع النَّفس الشرِّيرة، لذا فإن جميع من اتبعه في سلمه وحربه كان على بيِّنة لا تحتاج إلى حيل السياسة وألاعيبها، وطمح عليه السلام من بين ما طمح إليه أن يكون من معه على بيِّنة من طبيعة صراع الحقّ مع الباطل، وكان يؤمن أن من حقّ الآخر مناقشة أية قضيَّة للوصول إلى الحقيقة، فهو يؤسس لعقيدة أرادها راسخة في وجدان الإنسان، أما كتمان السرّ لو أراد، فمن أقدر منه على كتمانه بعد أن كتم سرَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم ولمّا يبلغ الحلم، وما كانت ألاعيب السياسة وحيلها ببعيدة عنه لو أرادها، فهو هو باب مدينة العلم، فمن يكون بتلك المنزلة لابدَّ أن يمتَّع بذكاء خارق يؤهل لاستيعاب علم كلّ تلك المدينة الفاضلة، وما كان خلقه يسمح له بالجنوح إلى أيّ أمر لا يرضاه الله، أما الآخر فيؤسس لملك، والملك زائل لا ريب في ذلك، أما العقيدة المبنيَّة على كلّ قيم عدل السماء فلن تزول.

كان عليه السلام يطمح برفع الأمَّة هكذا على راحتيه كي ترقى إلى قيم السماء فتتناولها، وهكذا تُعزُّ نفسها، وتستجيب لواجباتها، وتعرف ما لها فتأخذه، وتعترف بما عليها فتؤدّيه، فلا يظلم أحد فيها ولا يضار.

وكان كلُّ همِّ معاوية أن ترفعه الأمَّةُ على الرغم من باطله وظلمه وجبروته وثأره، ولم يكن في أطوع جندٍ كما ظنَّ، وإنما كان في جندٍ شرب الخداع والمكر إلى أذنيه فما بات يفرِّق بين ناقة وجمل كما قال معاوية مرّة لأحد رسل أمير المؤمنين عليه السلام، وبسبب طول بقائه بين ظهراني ذلك المصر تركه ولا تعرف غالبيّته غير قيم معاوية.

أما جيش عليٍّ عليه السلام فكان على هدًى وبصيرة من الطريق الذي سار عليه، بل كان مدرسة متحركة من مدارس العقل الكبرى التي لم تترك

شاردة أو واردة إلاّ وسألت عنها، فالجيش بكل محاربيه الأشاوس ما فتئ يسأل ويحاور ويتدبر قبل أن يجمع ليخرج، وفي كلّ محطّات الطريق إلى صفّين، وإن كان الأمر قد اختلط عليه أثناء دهشة الخديعة وما رافقها من أساليب، بل إنه وإن اختلط عليه ما اختلط، وارتكب بعضه ما ارتكب، فإنّ بقيَّة صالحة أخذت حزمة من بهاء نوره ونشرتها في الآفاق، ومازال شيئًا ليس بقليل من ذلك البهاء يشع في المشرقين، لذا فاز أمير المؤمنين عليه السلام بكل الخلود والمجد الشامخ بعبقرية لا مثيل لها، واندحر معاوية بخذلان حمل على كتفيه كلّ عار الدهر وشناره، أما أصحاب الجمل الذين أشار إليهم معاوية أو غيرهم ممن خدعتهم الدنيا ببريقها، واصطفّوا في مقابل معسكره، فقد ذهبوا قبل ذهابه، وكان مصيرهم الندم قبل الخسران، وكان نصيب المرتضى النَّصر بكلّ راياته، وأمجاده العظيمة، ولم يدفعه النصر كما ادَّعى إلى الاغترار في دينه، لأنه كان على بيِّنة من طريقه الحقّ، ومعاوية يعلم يقينًا أن حسابات النصر الدنيوي لا تدخل في حساب علي عليه السلام لأنه لا يؤسس لدولة قدر ما أراد إعادة بناء أمَّة قبل أن يجرفها الطوفان، لذا حقّ له أن يرفع مشاعل النور والتنوير إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وطبيعيٌّ أن يكون معاوية أحبَّ إلى قريش منه، فمتى أحبَّته قريش، وقد اقتلع كلَّ صلفها وجبروتها بسيفه من الجذور، ولم يترك بيتًا من بيوتها إلاَّ كلمه ووسمه بأثر لم يستطع الدهر محو عاره، وإيَّاك أن تظنَّ أن المرتضى عليه السلام قد أحبَّ قريشًا، كان يبادلها المشاعر نفسها، ولكن مع فارق بين كراهيتين، كراهية ظالمة وأخرى مظلومة، لأنه أراد لها الدنيا والآخرة، وأرادت لنفسها الدنيا من دون أن تحسب حسابًا لحقّ الغير، فالمال والجاه

والسطوة وملذات الدنيا كلها لهم لا يشاركهم فيها من أحد، وكان يريد أن تسودها قيم الإسلام، وأرادت أن تبقى على جاهليتها وجبروتها، فاضطر لتمريغ أنفها بالتراب.

الإعلام الرخيص

كان نصرُ عليٍّ نصرًا لكل الباحثين عن الحقِّ والعدل والفضيلة والرأفة والرحمة والمساواة وقيم الفروسيَّة الرفيعة، وكان نصر معاوية بكلِّ أحزان التاريخ ونكباته ومآسيه وفواجعه، فذهب عليه السلام وكلُّ الدنيا تعلم أين ذهب، وتركه، وأنت أدرى أين إن كنت من المبصرين.

ولقد شنَّت فئته الباغية حربًا دعائيَّة دنسة ضدَّ أمير المؤمنين عليه السلام، واتَّهمته بأبشع التهم، ووظَّفت لفعلتها كل طاقاتها الخبيثة بالإضافة إلى ما نهبته من أموال المسلمين وصرفتها على جواسيسها ووعَّاظها وأجهزة إعلامها الرَّخيصة ومن التفَّ حولها من الوجوه الكالحة التي لم تعرف من الإسلام إلا الاسم، واحتسبت من بعد من الأصحاب والتابعين، وإذا كان معاوية قد نشر قميص عثمان على طول بلاد الشام وعرضها، فإن ساعده الأيمن عمرو بن العاص روَّج بين أهل الشام تهمًا لا تحصى أبسطها حبُّ الإمام عليه السلام اللَّعب وممازحة النساء ومغازلتهنَّ، وانشغاله بهنَّ، ويوم وصل خبر فريته الرخيصة تلك إلى أسماع الإمام كما روى البلاذري في أنسابه ٣٦٧/٢ بسنده لم يزد على القول: (زعم ابن النابغة أني تلعابة أعافس وأمارس - أي أمازح وأغازل النساء -، والله إنه ليمنعني من اللعب خوف الموت، وإنه ليقول فيكذب، ويحلف فيحنث، وإنه لمن الظالمين أنفسهم)، وقول الإمام في النهج: (زعم ابنُ النَّابغة أنَّ فيَّ دعابة، وأنَّني رجل تِلعابة)، وساح في قرى

الشّام كما ذكر ابن أبي الحديد في شرح النّهج ٣١٠/٤ يجمع أهلها ويخطب فيهم فيقول: (أيُّها النَّاس، إنَّ عليًّا كان رجلاً منافقًا، أراد أن ينخس برسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم ليلة العقبة، فالعنوه، فيلعنه أهل تلك القرية؛ ثم يسير إلى القرية الأخرى، فيأمرهم بمثل ذلك)، وليس هذا فحسب فقد أشاع معاوية وزبانيته أن عليًّا عليه السلام لا يصلّي، وصحبه لا يعرفون الصلاة، وأنه قتل عثمان، وشارك صحابته في قتله كما ذكر الطبري في تاريخه ٣٠٩/٤ من طبعة الأعلمي. وكان ابن العاص يتمنّى لو قتلت عائشة في حرب الجمل كما صرّح لها كي يكون موتها مناسبة للتشهير بالإمام، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك..

الاستعداد للمواجهة

كان عليه السلام على استعداد للأناة والصبر على غيّ معاوية طالما أن خيط الأمل لم ينقطع بعد، ولكنه لم ير ما يمنع أصحابه من التهيؤ لها، لأنه على يقين أنها واقعة في قريب يراه، لذا فإنه لما أرسل سفيره جريرًا بن عبد الله البجلي إلى معاوية كما ذكر المبرد في كامله ٤٢٢/١–٤٢٩ واليعقوبي في تاريخه ٨٣/٢ كي يعدل عن غيّه، واتّفق معه على العودة في يوم بعينه، ولكنّه تأخّر فخطب عليه السلام بأصحابه فذكر لهم ما اتفّق عليه مع سفيره، وحثّهم على الاستعداد للحرب، وقال كما جاء في النهج ١٦٧: (والرأيُ عندي مع الأناة، فأرْوِدُوا ولا أكره لكم الإعداد، ولقد ضربت أنف هذا الأمر وعينه، وقلّبت ظهرَه وبطنَه، فلم أر لي إلاّ القتال أو الكفر، إنّه قد كان على الناس والٍ أحدث أحداثًا، وأوجد للناسِ مقالاً، فقالوا ثم نقَموا وغيّروا)،

واستطاع معاوية جلب ابن العاص إلى معسكره بعد أن وعده بمصر يقطعها له، وكاتب وجوه أهل مكّة والمدينة بلهجة المظلوم الذي يطالب بثأره ويطلب النصرة، والحريص على أمور المسلمين الذي لا يطمع بخلافة، وأنما يريدها شورى كما فعل الخليفة عمر بن الخطاب، فوكل ذلك النفر المسور بن مخرمة كي يردَّ عليه فكتب كما ذكر ابن قتيبة في الإمامة والسياسة ١/٨٩ (أما بعد، فإنك أخطأت خطأ عظيمًا، وأخطأت مواضع النصرة، وتناولتها من مكان بعيد، وما أنت والخلافة يا معاوية، وأنت طليق، وأبوك من الأحزاب، فكفَّ عنَّا فليس لك قبلنا ولي ولا نصير)، وكتب أيضًا إلى عبد الله بن عمر يطلب منه العون ويغريه بالخلافة، فأجابه كما ذكر ابن قتيبة في المصدر السابق ١/٨٩ -٩٠: (أما بعد، فإنَّ الرأي الذي أطمعك في هذا هو الذي صيَّرك إلى ما صيَّرك. تركتُ عليًّا في المهاجرين والأنصار، وتركتُ طلحة والزبير وعائشة، وأتّبعك في من اتّبعك؟! وأما قولك إنّي طعنتُ على علي، فلعمري ما أنا كعلي في الإسلام والهجرة، ومكانه من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكن أحدث أمرًا لم يكن إلينا فيه من رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد، ففزعت إلى الوقوف، وقلت: إن كان هذا فضلاً تركته، وإن كان ضلالة فشرٌّ نجوت منه، فاغن عنّي نفسك)، وكتب أيضًا إلى سعد بن أبي وقاص كما ذكر ابن قتيبة في المصدر السابق يذكره بموقف طلحة والزبير والسيدة عائشة من الثأر لعثمان، وإنه يريد إعادة الخلافة شورى بين المسلمين، فأجابه سعد بقوله: (أما بعد، فإن أهل الشورى ليس منهم أحق بها من صاحبه، غير أن عليًّا كان من السابقة، ولم يكن فينا ما فيه، فشاركنا في محاسننا، ولم نشاركه في محاسنه، وكان أحقنا كلنا بالخلافة، ولكن مقادير

الله تعالى التي صرفتها عنه حيث شاء لعلمه وقدره. وقد علمنا أنه أحق بها منّا، ولكن لم يكن بد من الكلام في ذلك والتشاجر، فدع ذا، وأما أمرك يا معاوية، فإنه أمر كرهنا أوله وآخره، وأما طلحة والزبير فلو لزما بيوتهما لكان خيرًا لهما، والله تعالى يغفر لعائشة أم المؤمنين)، وقد كتب إلى غير هذا النفر ولكنه لم يلق استجابة منهم.

وحينما يئس أمير المؤمنين عليه السلام من جدوى الرسل مع معاوية تحرّك من الكوفة لخمس خلون من شوّال سنة ستٍ وثلاثين، واستخلف عليها أبا مسعود عقبة بن عامر الأنصاري، وإذا كان ياقوت قد ذهب إلى أنه خرج في مائة وعشرين ألفًا في معجمه ٤٧١/٣ فإن المسعودي في مروجه اقترب من الواقع يوم قال في مروجه ٣٨٤/٢: (وقد تنوزع في مقدار ما كان معه من الجيش، فمكثر ومقلل، والمتّفق عليه من قول الجميع تسعون ألفًا)، واستشهد على صحة تقديره بقول أحد أصحاب علي حينما استقر الجيش في صفين:

أثبت معاوي قد أتاك الحافل عما قليل يضمحل الباطل
تسعون ألفًا كلهم مقاتل

ويوم تحرَّك عليه السلام استعاذ بالله ودعا بدعاء مازال كثير من المسلمين يدعون به عند سفرهم رواه الشريف في النهج ١٦٩ وهو (اللهم إني أعوذ بك من وعثاء السَّفر، وكآبة المنقَلَب، وسوء المنظر في الأهل والمال. اللهمَّ أنت الصَّاحب في السَّفر، وأنت الخليفة في الأهل ولا يجمعهما غيرُك؛ لأنَّ المُستَخْلَفَ لا يكون مستَصْحَبًا، والمستَصْحَبَ لا يكون مستخلَفًا)، ولن تستطيع هذه العجالة جمع أخبار صراع ذلك الحقّ مع الباطل في تلك الأيام العصيبة، ولكنّنا سنقف وقفات، ونقتطع مقاطع من صورة تعزُّ على الجمع بعد أن تدخَّل في تشويهها

خلقٌ لا يحصيهم إلاّ الله، ولكنَّ ما بقي منها عجيب في تصوير انتصار أمير المؤمنين على الرغم من أنف التحكيم ومن سبَّبه ووقف وراءه.

بانتظار الصحوة

وقف أمير المؤمنين عليه السلام بصفّين مائة يوم بدأت في أخريات ذي القعدة، جاهد في غالبيَّتها لدفع الشرّ عن الإسلام والمسلمين، وحينما وجد أنَّ سلَّ السَّيف هو الذي سيساعد الحقَّ على المقاومة ولو بعد حين امتشقه في غرَّة صفر سنة سبع وثلاثين بكلِّ الفروسية الشجاعة التي عرف بها، ونال الشهادة بين يديه من البدريين رضوان الله عليهم خمسة وعشرون صحابيًّا في أيامه الغرر تلك على أرض صفِّين، وهي موضع بقرب الرقّة على شاطئ الفرات من جانبه الغربي كما ذكر ياقوت في بلدانه ٣/٤٧١، ذهبوا في أيّام هي كأيام الحشر تقابل فيها الحقُّ بوجهه البهيِّ أمام الباطل بكلِّ ظلمه وخديعته ونفاقه وكذبه وكفره، وإن كانوا قد ذهبوا فأية منارة لعزِّ الدارين ارتقوها، فهنيئًا لهم مجد الدنيا الذي حصدوه، وباستقبال ركب الملائكة الذي زفهم بثياب المسك إلى الجنَّة.

قال ابن سعد في طبقاته ٣/٣٢–٣٣: (خرج علي يريد معاوية بن أبي سفيان ومن معه بالشام، فبلغ ذلك معاوية فخرج فيمن معه من أهل الشام، والتقوا بصِفّين في صفر سنة سبعٍ وثلاثين، فلم يزالوا يقتتلون بها أيّامًا، وقتل بصفين عمَّار بن ياسر، وخُزيمة بن ثابت، وأبو عمرة المازني، وكانوا مع عليّ، ورفع أهل الشام المصاحف يدعون إلى ما فيها مكيدةً من عمرو بن العاص أشار بذلك على معاوية وهو معه، فكرِه الناس الحرب وتداعوا إلى الصلح، وحكّموا الحكمين، فحكّم عليٌّ أبا موسى الأشعري، وحكّم معاوية

عمرو بن العاص، وكتبوا بينهم كتابًا أن يوافوا رأس الحول بأذرُحَ فينظروا في أمر هذه الأمَّة، فافترق الناس، فرجع معاوية بالألفة من أهل الشام، وانصرف علي إلى الكوفة بالاختلاف والدَّغل)، ولم يختلف اثنان من المؤرخين في أنَّ عليًّا عليه السلام لم يحكِّم أبا موسى، وما كان يرغب أن يشترك من بعيد أو قريب في تلك الحكومة التي فرضتها الخديعة، وإنما فُرِضَ عليه كما فُرِضَ التحكيم.

ولم تكن أيَّام صفّين وبطولاتها بهذا الإيجاز الذي ذكره ابن سعد في طبقاته، والطبري في تاريخه، والمسعودي في مروجه، وياقوت في معجمه وغيرهم كثر، فقد كان فيها من الأهوال ما يعجز عن وصفه قلم، وكتب عنها المؤرخون صفحات طوال كلها في مجد عليٍّ عليه السلام ومن ثبت معه أو استشهد، وكان في مقدِّمة ذلك الزحف من البدريين عمار بن ياسر ابن أوَّل شهيدين في الإسلام، الذي كان من أشدِّ المؤمنين بحقِّ عليٍّ وبباطل معاوية، وقال في يومه الأغرّ الذي ذهب فيه إلى جوار أحبَّته كما روى البلاذري في أنسابه ١/١٩٥ : (الجنَّة تحت البارقة، الظمآن قد يرد الماء، الماء مورود. اليوم ألقى الأحبة: محمدًا وحزبه. والله لو ضربونا حتى يبلغوا سعفات هجر، لعلمت أنا على حق وأنهم على باطل. والله لقد قاتلت هذه الراية ثلاث مرات مع رسول الله صلى الله عليه وسلَّم وما هذه المرة بأبرهنّ ولا أنقاهنَّ). وروى عن ابنته بسنده (لما كان اليوم الذي قتل فيه عمار، والراية مع هاشم بن عتبة، وقد قاتل أصحاب علي عليه السلام ذلك اليوم، حتى كادت الشمس تغرب، وعمار من وراء هاشم، وقد جنحت الشمس للغروب، ومع عمار ضَيح من لبن فقال حين وجبت الشمس، وشرب الضيح سمعت رسول الله

صلى الله عليه وسلَّم يقول: «آخر زادك من الدنيا ضيح من لبن» قالت: ثم اقترب فقاتل حتى قتل وهو ابن أربع وتسعين سنة)، وكانت أمَّة من المسلمين الذين راودهم البلبال يتبعون رايته أينما سارت يقينًا منهم أن من حارب تحتها انتصر للحقّ ومن فارقها فارقه.

وقال البلاذري في أنسابه ١/١٩٣: (شهد خزيمة بن ثابت الجمل، فلم يسل سيفًا، وشهد صفّين فقال: لا أقاتل أبدًا حتى يقتل عمار، فأنظر من يقتله؟ فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلَّم يقول: «تقتله الفئة الباغية»، فلما قتل عمار، قال خزيمة: قد أبانت لي الضلالة، ثم اقترب فقاتل حتى قتل، وقيل: إنَّ الذي قتل عمارًا أبو الغادية المرّي، طعنه برمح، فسقط، وكان يقاتل يومئذ في محفة، فقتل وهو ابن أربع وتسعين سنة، فلما وقع أكبَّ عليه رجل آخر فاحتزَّ رأسه، فاختصما فيه. فقال عمرو: والله ما يختصمان إلاّ في النار، فقال معاوية: أتقول هذا لقوم بذلوا أنفسهم دوننا؟ فقال عمرو: هو والله ذاك، وإنك لتعلمه، ولوددت أني متّ قبل هذا اليوم بعشرين سنة).

ولعلَّ البلاذري وهم بما قاله بشأن ذي الشهادتين رضوان الله عليه، فقد رأيناه يقود إحدى كتائب الإيمان في معركة الجمل، التي قال في وصفها المنذر بن جارود كما روى المسعودي في مروجه ٢/٣٦٨: (ثم تلاهم فارس آخر عليه عمامة صفراء وثياب بيض، متقلّدٌ سيفًا متنكّبٌ قوسًا معه راية على فرس أشقرَ في نحو ألف فارس، فقلت: من هذا؟ فقيل: هذا خزيمة بن ثابت الأنصاري ذو الشهادتين) بل إن بعض مؤرخي السلطان عزَّ عليهم استشهاد ذي الشهادتين في صفّ عليٍّ عليه السلام، فشككوا أن يكون هو ذلك الشّهيد الذي سقط في معركة صفّين.

سار أبو الحسن عليه السلام - كما قال المسعودي في مروجه ٢/٣٨٤ - ٤١٤ فاجتاز المدائن، ثمَّ الأنبار، ولمّا وصلَّ الرقّة عقد جسرًا على نهر الفرات عبره أصحابه إلى جهته الغربيَّة، وإذا كان المسعودي أغفل حكاية نصب الجسر فإنَّ الطبري في تاريخه ٤/٢٧٠ -٢٧٢ من طبعة الأعلمي لم يغفلها، فبعد أن تحدَّث عن توزيع كتائب جيش الإمام ومن أمَّره عليها، امتنع أهل الرقّة من عمل الجسر بعدما سحبوا سفنهم، وانحازوا إلى حصنهم، فلم يجبرهم المرتضى على عمله، وقرَّ قراره أن يعبر من جسر منبج، وخلَّف على بقيَّة جنده مالك الأشتر، وتصرُّف أمير المؤمنين عليه السلام مع أهل الرقّة يقدِّم لك درسًا من دروس عدالته في حكمه، فليس للحاكم أن يجبر رعيته على عملٍ لا يرغبون بالقيام به، ولكنَّ مالكًا حينما رأى تحرُّك الإمام بجيشه وما سيتكبَّده من عناء، صاح بأهل الرقّة الذين تحصَّنوا: (اقسم لكم بالله عزَّ وجلَّ؛ لئن مضى أمير المؤمنين ولم تجسروا له عند مدينتكم جسرًا حتى يعبر لأجردنَّ فيكم السَّيف، ثمَّ لأقتلنَّ الرجال، ولأخربنَّ الأرض، ولآخذنَّ الأموال، فلقي بعضهم بعضًا فقالوا: أليس الأشتر يفي بما حلف عليه، أو يأتي بشرٍّ منه؟ قالوا: نعم، فبعثوا إليه: إنَّا ناصبون لكم جسرًا، فأقبلوا، وجاء عليٌّ فنصبوا له الجسر).

أما اليعقوبي فذكر في تاريخه ٢/٨٧ أن جلّ أهل الرقة عثمانيَّة من الذين هربوا من الكوفة إلى معاوية، وحينما وصل جيش الإمام (غلقوا أبوابها وتحصَّنوا، وكان أميرهم سماك بن مخرمة الأسدي، فغلقوا دونه الباب، فصار إليهم الأشتر مالك بن الحارث فقال: والله لتفتحُنَّ، أو لأضعنَّ فيكم السيف! ففتحوا، وأقام بها أمير المؤمنين يومه).

أما معاوية فقد سبقه بجيش قارب الخمسة والثمانين ألفًا أو تجاوزها واستقرَّ بصفّين قبل وصول جيش الإمام، واختار لجيشه سهلاً فسيحًا يشرف على شريعةِ الماء في ذلك المكان، ولم يكن على نهر الفرات شريعة تجاريها في سهولة الحصول على الماء من النَّهر بسبب وعورة جانبيه، وعمق مجراه، وصعوبة وصول الوارد إليه في تلك الأنحاء، ومسك الشريعة أربعون ألفًا من جيشه يقودهم أبو الأعور السلمي، وقرَّر منع الماء عن جيش أمير المؤمنين، وقد نصحه عمرو بن العاص بالعدول عن رأيه، وحذَّره من مغبَّة عمله، فلم يستمع معاوية لنصحه وقال: (لا والله أو يموتوا عطشًا كما مات عثمان).

ولم يغمض لأبي الحسنين جفنٌ في ليلة وصوله عليه السلام، ودار حول معسكره الذي أنهكه التعب والعطش، ولمَّا لم يجد مندوحة من الاصطدام خطب بأصحابه فقال كما ورد في النهج: ١٧٣: (قد استطعموكم القتال، فقِرُّوا على مذلّة، وتأخير محلّةٍ؛ أو روُّوا السيوفَ من الدِّماءِ تُرْوَوا من الماء، فالموت في حياتكم مقهورين، والحياة في موتكم قاهرين..)، وأمر الأشعث بن قيس أن يخرج في أربعة آلاف مقاتل، والتحق به مالك الأشتر في أربعة أخرى، وسار أمير المؤمنين عليه السلام بباقي الجيش خلفهما، وأخذت الحميَّة الأشعث فهجم على عسكر معاوية هجومًا كاسحًا، فأزال أبا الأعور عن الشريعة، وأجبر معاوية وجيشه على التخلّي عن موضعهم لجيش الإمام وتراجع إلى ناحية بعيدة عن الماء، ولكنَّ أخلاق الإمام أبت عليه أن يسلك سلوك معاوية ويعرض جيشه إلى الهلاك عطشًا، إذ لم يأتِ لحرب أو قتال، ولكن إن كان لابد منهما فما باليد حيلة، وأباح الماء لمن يطلبه، ولم يبتعد الطبري في تاريخه ٢٧٣/٤ -٢٧٦ عن الذي ذكره المسعودي، ولكنَّه

ذكر من بطولات جيش عليٍّ وقادته وسماحة بعض جنده ما لا تسمح به العجالة، وذكر أيضًا أن أمير المؤمنين عليه السلام قبل أن يهجم بجيشه أرسل صعصعة بن صوحان إلى معاوية لعله يثيب إلى رشده، فأخبره أنَّ أمير المؤمنين عليه السلام لم يأت إلى حرب أو قتال، وإنما جاء يدعوه ويحتجَّ عليه لعلّه يجنح إلى ما جنح إليه المسلمون، وطلب من معاوية أن يخلّي بين الناس وبين الماء، وأمره أيضًا أن يقول له: (وإن كان أعجب إليك أن نترك ما جئنا له، ونترك الناس يقتتلون على الماء حتى يكون الغالب هو الشارب فعلنا)، فذهب وأبلغه برسالة الإمام عليه السلام، أما الوليد بن عقبة فقال: امنعهم الماء كما منعوه عثمان، (اقتلهم عطشًا)، متناسيًا أنَّ الذي سقى عثمان في تلك الطاحنة هو عليٌّ وليس غيره، وأما عمرو بن العاص، فأشار عليه أن يخلّي بين جيش الإمام وبين الماء، ولكن الوليد لجَّ وأصرَّ على مقالته، ووافقه على رأيه عبد الله بن أبي سرح، واقترح أن يمنعهم الماء إلى الليل، فإنهم سيرجعون، ورجوعهم سيفل عضدهم، وقال: (امنعهم الماء منعهم الله يوم القيامة)، فكان ردّ صعصعة عليهما صفعة حفظها الطبري إذ قال: (إنما يمنعه الله عزَّ وجلَّ يوم القيامة الكفرة الفسقة وشربة الخمر؛ ضربك وضرب هذا الفاسق - يعني الوليد بن عقبة - فتواثبوا إليه يشتمونه ويتهدّدونه، فقال معاوية: كفُّوا عن الرجل فإنه رسول)، ولم يكتف معاوية بالجيش الذي سيطر على شريعة الماء، وإنما أمدَّه ليمنع الماء عن جيش أمير المؤمنين.

كان نزول الإمام عليه السلام بصفّين قبل الأوّل من ذي الحجّة بيومين، وفي أوّله بعث إلى معاوية ثانية بشير بن عمرو بن محصن الأنصاري، وسعيد بن قيس الهمداني، وشبث بن ربعي التميمي، يدعونه إلى وحدة الكلمة

والدخول في جماعة المسلمين في محاولة لإطفاء النَّار التي أوقدها هو ومن والاه، وكانت محاورة رسل الإمام غاية في العقلانيَّة، أحسنوا فيها الموازنة، وأخلصوا له النَّصيحة، وبيّن له شبث خسران دعاواه، وأعلم الحاضرين بمجلسه بموقفه من عثمان أوّلاً وآخرًا، وإن الخسران نصيبه في الحالتين، فشتم معاوية شبثًا وكذّب ما ذكره، وكان جوابه للرسل (انصرفوا من عندي، فإنه ليس بيني وبينكم إلاّ السيف) كما ذكر الطبري في تاريخه ٤/٢٧٧ من طبعة الأعلمي، وحقٌّ لنا أن ندعو الله سبحانه وتعالى بحسن العاقبة، فقد رأينا شبثًا من أشدِّ المدافعين عن حقِّ علي، وأشدِّ الناقمين على باطل معاوية، ولكنَّ سوء عاقبته ابتلاه بحرب الحسين والمشاركة بقتل أهل بيته.

ولم يشأ الإمام عليه السلام أن يشن حربًا عامَّة على جيش معاوية، فيعرض الجيشين إلى خسائر كبيرة لعله يثيب إلى رشده، فبدأت مناوشات بينهما ذكر الطبري بعض من أخرجهم الإمام فيها من مثل حجر بن عدي الكندي، وشبث بن ربعي، وخالد بن المعمّر، وزياد بن النضر الحارثي، ومعقل بن قيس الرياحي، وقيس بن سعد، وكان مالك الأشتر أكثر قادته عليه السلام خروجًا، وفعل مثل ذلك معاوية بن أبي سفيان، فأخرج عبد الرحمن بن خالد المخزومي، وأبا الأعور السلمي، وحبيب بن سلمة الفهري، وابن ذي الكلاع الحميري، وعبيد الله بن عمر، وتوادعوا عند حلول شهر محرَّم الحرام إلى آخره من سنة سبع وثلاثين للهجرة، وتواترت رسل الإمام عليه السلام إلى معاوية طمعًا في ترك الحرب، وكان من بينهم على ما ذكر الطبري في تاريخه ٤/٢٧٩ من طبعة الأعلمي عدي بن حاتم الطائي، ويزيد بن قيس الأرحبي وشبث بن ربعي، وزياد بن خَصَفة،

فحاوروه بحوار العقل والمنطق، وحاورهم بحوار الغش والخديعة والكذب إذ قال من بين ما قال: (فإنكم دعوتم إلى الطّاعة والجماعة؛ فأما الجماعة التي دعوتم إليها فمعنا هي، وأما الطاعة لصاحبكم فإنّا لا نراها؛ إنَّ صاحبكم قتل خليفتنا، وفرّق جماعتنا، وآواى ثأرنا وقتلتنا، وصاحبكم يزعم أنه لم يقتله، فنحن لا نردُّ عليه، أرأيتم قتلة صاحبنا؟ ألستم تعلمون أنهم أصحاب صاحبكم؟ فليدفعهم إلينا فلنقتلهم به، ثمَّ نحن نجيبكم إلى الطّاعة والجماعة)، ويبدو أن عمار بن ياسر كان عند معاوية من قتلة عثمان أيضًا، لأنَّ شبثًا حين أجابه: (أيسرُّك يا معاوية أنّك أُمْكِنت من عمَّار تقتله؟ فقال معاوية: وما يمنعني من ذلك والله لو أُمكِنتُ من ابن سميَّة ما قتلته بعثمان، ولكن كنت أقتله بنائل مولى عثمان، فقال له شبث: وإله الأرض وإله السماء ما عدلت معتدلاً، لا والذي لا إله إلا هو لا تصل إلى عمار حتَّى تندر الهام عن كواهل الأقوام، وتضيق الأرض الفضاء عليك برُحبها. فقال معاوية: إنه لو قد كان ذلك كانت الأرض عليك أضيق)، ثم بعث معاوية إلى عليٍّ عليه السلام حبيب بن سلمة الفهري، وشرحبيل بن السمط، ومعن بن يزيد بن الأخنس، فردَّدوا قالة معاوية، في دفع قتلة عثمان، واعتزال أمر المسلمين ليعود شورى في ما بينهم.

وعلى الرغم من أنَّ جيشَ الإمام كان على بيِّنة من أنَّ إمامهم ما كان يرغب بقتال أهل الشام، ولا أشكُّ في أنه خلال أيّام الموادعة كان يتمنَّى أن يحكّم معاوية ومن تابعه عقولهم، وفي الوقت ذاته كان يدفع جنده إلى الوسيلة الحسنة، وينصحهم بعدم سبِّ جند أهل الشام، ومن بين ما قاله لهم عليه السلام، وهو في النهج ٤٩٢ (إني أكره لكم أن تكونوا سبّابين، ولكنَّكم لو

وصفتم أعمالهم، وذكرتم حالهم، كان أصوب في القول، وأبلغ في العذر، وقلتم مكان سبّكم إيَّاهم: اللهمَّ احقِن دماءنا ودماءَهم، وأصلِح ذات بينِنا وبينِهم، واهدِهم من ضلالتِهم، حتَّى يعرِفَ الحقَّ من جهِله، ويرعوي عن الغَيِّ والعدوانِ من لهج به)، ويبدو أن بعض أصحابه حينما استبطأ إذنه لهم في قتال أهل الشام اتهموه بالخوف من الموت، أو الشَّك في جواز قتالهم، فقال عليه السلام كما ورد في النهج ١٧٧ : (أما قولكم: أكلُّ ذلك كراهية الموت؟ فوالله ما أبالي أدخلتُ إلى الموتِ أو خرج الموتُ إليَّ، وأمَّا قولكم شكًّا في أهل الشَّام! فوالله ما دفعت حربًا يومًا إلاَّ وأنا أطمع أن تلحق بي طائفةٌ فتهتدي بي، وتعشو إلى ضوئي، وذلك أحبُّ إليَّ من أن أقتلها على ضلالِها ؛ وإن كانت تبوء بآثامها).

وقبل غروب شمس آخر يوم من الشهر المحرَّم بعث أمير المؤمنين عليه السلام إلى أهل الشام رسالة جاء فيها: (إني قد احتججت عليكم بكتاب الله، ودعوتكم إليه، وإني قد نبذت إليكم على سَواء، إن الله لا يهدي كيد الخائنين)، فكان جوابهم: (السيف بيننا وبينك أو يهلك الأعجز منَّا).

من أيَّام مجد علي

وروى بعض أيّام الحرب تلك الطبري في تاريخه ٢٨٣/٤–٣١٣ بشيء من التفصيل وكلّها لعليٍّ عليه السلام، كان جيشه فيها هو الذي يعلو، وجيش معاوية يتقهقر، والتحمت الكتائب فيها، وكانت ما بين كرٍّ وفرٍّ، واحتسبت مواقف خالدات لكوكبة من صحابته، في مقدِّمتهم مالك الأشتر الذي كان صاعقة على جيش معاوية في كلِّ أيّام الحرب، وهنيئًا لمالك تلك المكانة

التي أحرزها في نفس أمير المؤمنين عليه السلام، وأيُّ مشاعر تأخذك وأنت ترى ذلك البطل الهمام يدفع الكتائب بصدره ويقطف رؤوس صناديد جيش معاوية بسيفه، وكأنه سيف عليٍّ في معركة بدر الكبرى، ولك في مواقف هاشم المرقال وعمَّار بن ياسر، وعبد الله بن بديل، وعبد الله بن عباس، والحارث بن جُمهان الجُعفي، وجندب بن زهير وعبد الله بن طفيل البكّائي، وعدي بن حاتم الطّائي، وخالد بن المعمَّر، وغيرهم كثر، ما يأخذك إلى عوالم الإيمان الحقيقي والعقيدة الراسخة التي فضَّلت الموت على الحياة، وقاتلت قبائل العراق مثيلاتها من قبائل الشام، وكان سعيرًا أوقده الشَّر لم يستطع الإمام إطفاءه بكل حكمته لأنه قدر الله.

ومما يدمي القلب أيضًا أن ترى بعض من قاتل في هذه الحرب في صفّ الإمام يقاتل حسينًا عليه السلام في معركة الطفّ، بل إنَّ شمر بن ذي الجوشن الذي احتزَّ رأس أبي عبد الله الحسين عليه السلام في معركة الطفّ كان سيفًا من أقوى السيوف على جيش معاوية في معركة صفّين، فسبحان الله الذي لا يحمد على مكروه سواه كيف أن شيطان المطامع يمكن أن يغيِّر النفوس ما بين يوم وليلة، وهي عاقبة نسأل الله أن يحسنها في أخريات أيّامنا. وأوجز تلك الأيّام المسعودي في مروجه ٢/٣٨٧–٤٠٠ أيضًا، وذكر أنه في صباح الأربعاء الموافق الأوَّل من صفر عبأ أمير المؤمنين جيشه، ولعلَّ معاوية قال لعمرو العاص في ذلك اليوم كما روى ابن قتيبة في عيونه ١/٣٣٥: (من طلب عظيمًا خاطر بعظيمته) حينما نظر إلى جيش أمير المؤمنين عليه السلام، وقدَّم عليه السلام الأشتر، وأخرج معاوية حبيب بن مسلمة الفهري، فاقتتل جيشاهما قتالاً شديدًا أسفر عن قتلى من كلا الفريقين، ثم انصرفا.

وفي يوم الخميس وهو الثاني من أيّام الحرب أخرج عليه السلام (هاشم بن عتبة بن أبي وقّاص الزهري المرقال، وهو ابن أخي سعد بن أبي وقّاص، وإنّما سمّي المرقال لأنّه كان يرقل - يسرع - في الحرب، وكان أعور ذهبت عينه يوم اليرموك)، وأخرج معاوية أبا الأعور السلمي، ودارت حرب طاحنة بينهما وانصرفوا في آخر النهار عن كثير من القتلى.

وخرج في اليوم الثالث عمار بن ياسر في كوكبة من المهاجرين والأنصار وعدد من البدريين، والتحق بهم من طلب الشهادة في ذلك اليوم الأغرّ تحت راية عمار، وقابله عمرو بن العاص بجمع من جيش معاوية، وحمل عمار حملة منكرة أزاح فيها جيش ابن العاص وألحقه بعسكر معاوية، وأسفرت الواقعة عن عدد كبير من القتلى غالبيّتهم من أهل الشّام.

وأخرج الإمام في اليوم الرابع - وهو يوم السبت - ولده محمد بن الحنفيَّة رضوان الله عليه في همدان وغيرها ممن خفَّ معه، وأخرج معاوية عبيد الله بن عمر - الذي التحق بمعاوية خوفًا من أن يقيده عليٌّ عليه السلام بالهرمزان الذي قتله عبيد الله ظلمًا بعد مصرع أبيه على يد أبي لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة - فخرج في حمير ولخم وجذام، ودارت الواقعة على أهل الشام، ونجّى الفرار عبيد الله بصعوبة شديدة.

وكان اليوم الخامس من نصيب عبد الله بن عباس، وقابله من جيش معاوية الوليد بن عقبة الذي طيَّب فمه من نار جهنَّم بسبٍّ بني عبد المطَّلب، وقاتله ابن عباس قتالاً شديدًا، وطلبه للمبارزة، ولكنَّه جبن عن لقائه، وكان يومًا على أهل الشام تحقَّقت الغلبة فيه لابن عبَّاس.ومرَّ اليومان السادس والسابع من أيّام الحرب، وهي سجال بين الفريقين، ولكن كفَّة جيش عليٌّ

رجحت فيهما، ولما كان اليوم الثَّامن - وهو يوم الأربعاء - خرج عليٌّ عليه السلام على بغلة رسول الله صلوات الله وسلامه عليهما الشهباء (بنفسه في أصحابه من البدريين وغيرهم من المهاجرين والأنصار وربيعة وهمدان)، ودعا بدعاء رواه الطبري في تاريخه ٤/٢٨٧ جدير بالذكر، لأنه يريك مدى ثباته على المبادئ وكرهه البغي، وخوفه من الفتن، قال عليه السلام: (اللهم ربّ السَّقف المرفوع، المحفوظ المكفوف، الذي جعلته مغيضًا لليل والنهار، وجعلت فيه مجرى الشمس والقمر ومنازل النجوم، وجعلت سكّانه سبطًا من الملائكة لا يسأمون العبادة، وربّ هذه الأرض التي جعلتها قرارًا للأنام، والهوامّ والأنعام، وما لا يحصى مما لا يُرى ومما يُرى من خلقِك العظيم، وربّ الفُلْك التي تجري في البحر بما ينفع النَّاس، وربّ السَّحاب المسخَّر بين السماء والأرض، وربّ البحر المسجور المحيط بالعالم، وربّ الجبال الرواسي التي جعلتها للأرض أوتادًا، وللخلق متاعًا؛ إن أظهرتنا على عدوّنا فجنّبنا البغيَ، وسدّدنا للحقّ، وإن أظهَرْتَهم علينا فارزقني الشَّهادة، واعصم بقيَّة أصحابي الفتنة)، وقد رآه ابن عباس في ذلك اليوم كما لم يره من قبل (عليه عمامة بيضاء، وكأن عينيه سراجا سليط، وهو يقف على طوائف من الناس في مراتبهم يحثُّهم ويحرّضهم) فخطب فيهم، كما روى المسعودي، وتابعه ابن عساكر في ترجمته عليه السلام ٣/١٨٥ - ١٨٦ بتاريخه فقال رواية عن ابن عباس الذي مهَّد لخطبته بقوله: (عقم النساء أن يأتين بمثل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، والله ما رأيت ولا سمعت رئيسًا يوزن به، لرأيته يوم صفّين وهو يقف على شرذمة يحضهم حتى انتهى إليَّ وأنا في كنف من الناس فقال)، وسنعتمد في رواية الخطبة على ما جاء في النهج ١٨٧ - ١٨٨ لابتعاده عن

وفي يوم الخميس وهو الثاني من أيّام الحرب أخرج عليه السلام (هاشم بن عتبة بن أبي وقّاص الزهري المرقال، وهو ابن أخي سعد بن أبي وقّاص، وإنّما سمُّي المرقال لأنّه كان يرقل - يسرع - في الحرب، وكان أعور ذهبت عينه يوم اليرموك)، وأخرج معاوية أبا الأعور السلمي، ودارت حرب طاحنة بينهما وانصرفوا في آخر النهار عن كثير من القتلى.

وخرج في اليوم الثالث عمار بن ياسر في كوكبة من المهاجرين والأنصار وعدد من البدريين، والتحق بهم من طلب الشهادة في ذلك اليوم الأغرّ تحت راية عمار، وقابله عمرو بن العاص بجمع من جيش معاوية، وحمل عمار حملة منكرة أزاح فيها جيش ابن العاص وألحقه بعسكر معاوية، وأسفرت الواقعة عن عدد كبير من القتلى غالبيّتهم من أهل الشّام.

وأخرج الإمام في اليوم الرابع - وهو يوم السبت - ولده محمد بن الحنفيّة رضوان الله عليه في همدان وغيرها ممن خفَّ معه، وأخرج معاوية عبيد الله بن عمر - الذي التحق بمعاوية خوفًا من أن يقيده عليٌّ عليه السلام بالهرمزان الذي قتله عبيد الله ظلمًا بعد مصرع أبيه على يد أبي لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة - فخرج في حمير ولخم وجذام، ودارت الواقعة على أهل الشام، ونجّى الفرار عبيد الله بصعوبة شديدة.

وكان اليوم الخامس من نصيب عبد الله بن عباس، وقابله من جيش معاوية الوليد بن عقبة الذي طيَّب فمه من نار جهنَّم بسبٍّ بني عبد المطَّلب، وقاتله ابن عباس قتالاً شديدًا، وطلبه للمبارزة، ولكنّه جبن عن لقائه، وكان يومًا على أهل الشام تحقّقت الغلبة فيه لابن عبّاس.ومرَّ اليومان السادس والسابع من أيّام الحرب، وهي سجال بين الفريقين، ولكن كفّة جيش عليٍّ

رجحت فيهما، ولما كان اليوم الثَّامن - وهو يوم الأربعاء - خرج عليٌّ عليه السلام على بغلة رسول الله صلوات الله وسلامه عليهما الشهباء (بنفسه في أصحابه من البدريين وغيرهم من المهاجرين والأنصار وربيعة وهمدان)، ودعا بدعاء رواه الطبري في تاريخه ٢٨٧/٤ جدير بالذكر، لأنه يريك مدى ثباته على المبادئ وكرهه البغي، وخوفه من الفتن، قال عليه السلام: (اللهم ربَّ السَّقف المرفوع، المحفوظ المكفوف، الذي جعلته مغيضًا لليل والنهار، وجعلت فيه مجرى الشمس والقمر ومنازل النجوم، وجعلت سكّانه سبطًا من الملائكة لا يسأمون العبادة، وربّ هذه الأرض التي جعلتها قرارًا للأنام، والهوامّ والأنعام، وما لا يحصى مما لا يُرى ومما يُرى من خلقِك العظيم، وربّ الفُلْك التي تجري في البحر بما ينفع النَّاس، وربٌّ السَّحاب المسخَّر بين السماء والأرض، وربّ البحر المسجور المحيط بالعالم، وربّ الجبال الرواسي التي جعلتها للأرض أوتادًا، وللخلق متاعًا؛ إن أظهرتنا على عدوّنا فجنّبنا البغيَ، وسدِّدنا للحقِّ، وإن أظهَرْتَهم علينا فارزقني الشَّهادة، واعصم بقيَّة أصحابي الفتنة)، وقد رآه ابن عباس في ذلك اليوم كما لم يره من قبل (عليه عمامة بيضاء، وكأن عينيه سراجا سليط، وهو يقف على طوائف من الناس في مراتبهم يحثُّهم ويحرِّضهم) فخطب فيهم، كما روى المسعودي، وتابعه ابن عساكر في ترجمته عليه السلام ١٨٥/٣ - ١٨٦ بتاريخه فقال رواية عن ابن عباس الذي مهَّد لخطبته بقوله: (عقم النساء أن يأتين بمثل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، والله ما رأيت ولا سمعت رئيسًا يوزن به، لرأيته يوم صفّين وهو يقف على شرذمة يحضهم حتى انتهى إليَّ وأنا في كنف من الناس فقال)، وسنعتمد في رواية الخطبة على ما جاء في النهج ١٨٧ - ١٨٨ لابتعاده عن

التصحيف والتحريف فيه، وإيجازها في المروج وعدم سلامتها من التصحيف في تاريخ ابن عساكر، قال عليه السلام: (معاشر المسلمين استشعروا الخشية، وتجلْبَبُوا السَّكينة، وعضُّوا على النواجذ، فإنه أنبى للسيوف عن الهام، وقَلْقِلُوا السيوفَ في أغمادها قبل سلّها، والحظُوا الخَزَرَ، واطعنوا الشَّزَرَ - أي: يمينًا وشمالاً - ونافِحوا بالظُبا، وصلوا السيوف بالخُطا! واعلموا أنّكم بعين الله، ومع ابن عمِّ نبيِّهِ صلّى الله عليه وآله وسلّم، فعاودوا الكرَّ واستحيوا من الفرِّ، فإنّه عارٌ في الأعقابِ، ونارٌ يوم الحسابِ، وطيبوا عن أنفسكم نفسًا، وامشوا إلى الموت مشيًا سُجُحًا، وعليكم بهذا السَّواد الأعظم، والرِّواق المطنَّب، فاضربوا ثبجَهُ، فإن الشيطان كامن في كِسْرِه، قد قدَّم للوثبةِ يدًا، وأخَّر للنكوصِ رجلاً، فصَمدًا صَمدًا حتَّى يتجلّى لكم عمودُ الحقِّ ﴿ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴾)، والتحم الجيشان، ولم ينصرفا إلا عند حلول الظلام.

وخرج أمير المؤمنين عليه السلام بنفسه في اليوم التاسع أيضًا، وخرج معاوية بجيشه أيضًا، واقتتل الجيشان لحين الضحى، وبرز عبيد الله بن عمر في أربعة آلاف مقاتل، فقال له أمير المؤمنين حين رآه: (ويحك يا ابن عمر، علام تقاتلني؟ والله لو كان أبوك حيًّا ما قاتلني، قال: أطلب بدم عثمان قال: أنت تطلب بدم عثمان، والله يطلبك بدم الهرمزان، وأمر عليٌّ الأشتر النخعي بالخروج إليه فخرج).

استشهاد عمار والمرقال

وقال عمَّار في ذلك اليوم قولته المشهورة التي سبق ذكرها، وتقدَّم فقاتل قتال الأسود الكواسر على الرغم من تجاوزه التسعين، وعاد فاستسقى (فأتته

امرأة من نساء بني شيبان بعُسٍّ من لبن، فدفعته إليه، فقال: لله أكبر الله أكبر، اليوم ألقى الأحبَّة تحت الأسنَّة، صدق الصادق، وبذلك أخبرني الناطق، وهو اليوم الذي وعدت فيه، ثم قال: أيها الناس، هل من رائح إلى الله تحت العوالي؟ والذي نفسي بيده لنقاتلنَّهم على تأويله كما قاتلناهم على تنزيله)، واقتحم بكوكبة من الفرسان حتى توسَّط جيش معاوية، وكُبَّ قاتله على وجهه في قعر جهنَّم، وفاز هو رضوان الله عليه بالقدح المعلَّى في جوار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم، وقد أفرد الطبري في تاريخه ٤/٣٠٥–٣٠٨ عنوانًا لحكاية مصرعه رضوان الله عليه ذكر فيها ما قاله في تلك الساعة لأصحابه ولعمرو بن العاص، وروى من بين ما رواه عن أبي عبد الرحمن السُّلمي الذي قال: (رأيت عمَّارًا لا يأخذ واديًا من أودية صفِّين إلاّ تبعه من كان هناك من أصحاب محمد؛ ورأيته جاء إلى المرقال هاشم بن عتبة وهو صاحب راية علي، فقال: يا هاشم، أعورًا وجبنًا! لا خير في أعور لا يغشى البأس، فإذا رجلٌ بين الصفَّين قال: هذا والله ليخلُفَنَّ إمامه، وليخذلَنَّ جنده، وليصبرنَّ جهده، اركب يا هاشم، ومضى هاشم يقول:

قد عالج الحياة حتَّى ملاَّ　　أعورُ يبغي أهلَهُ مَحَلاًّ
لا بدَّ أن يَفُلَّ أو يُفَلاَّ

وعمَّار يقول: تقدَّم يا هاشم، الجنَّة تحت ظلال السيوف، والموت في أطراف الأسل، وقد فتحت السماء وتزيَّنت الحور العين

ألقى الأحبَّه　　محمَّدًا وحزبه　　اليوم

فلم يرجعا وقتلا)، وذكر أيضًا ما قال عبد الله لأبيه عمرو بن العاص حول الفئة الباغية التي تقتل عمَّارًا، وما قاله معاوية لعمرو وهو (إنك شيخ خرق،

ولا تزال تحدّث بالحديث وأنت تدحض في بولك! أونحن قتلنا عمارًا! إنما قتل عمَّارًا من جاء به).

الهجوم الكاسح

وزحف جيش عليٍّ عليه السلام زحفًا في جيش معاوية يهدُّ أركانه ركنًا ركنًا، ويقصفه قصفًا فتقدَّم سعيد بن قيس الهمداني في همدان، وقيس بن سعد بن عبادة الأنصاري في الأنصار وربيعة، وعدي بن حاتم في طيء، وأمر عليٌّ عليه السلام الأشتر أن يتقدَّم باللواء إلى أهل حمص وغيرهم من أهل قنسرين، (وأبلى المرقالُ يومئذ بمن معه فلا يقوم له شيء، وجعل يرقل كما يرقل الفحل في قيده، واصطدم بذي الكلاع وهو في حمير، فحمل عليه صاحب لوائه - وهو من عذرة - فجندله، (وقتل بعده تسعة عشر رجلاً، وحمل هاشم المرقال وحمل معه ذو الكلاع ومع المرقال جماعة من أسلم قد آلوا أن لا يرجعوا أو يفتحوا أو يقتلوا، فاجتلد الناس، فقُتِلَ هاشم المرقال، وقُتِلَ ذو الكلاع، فتناول ابن المرقال اللواء، حين قتل أبوه في وسط المعركة، وكرَّ في العجاج، وقال من أبيات:

أعزِزْ بشيخٍ من قريشٍ هالكْ يا هاشم بن عتبة بن مالكْ
أبشر بحور العين في الأرائكْ تخبطُهُ الخيلاتُ بالسنابكْ
والرَّوْح والرَّيحان عند ذلكْ)

وإذا كنت قد ذكرت بعض ما رواه المسعودي بشأن هاشم رحمه الله، فإن الطبري في تاريخه ٣٠٨/٤ - ٣١٣ خصَّص لمصرعه رضوان الله عليه، ولليلة الهرير عنوانًا أيضًا.

وهنيئًا لذلك الركب من الشهداء الأبرار بدعاء أمير المؤمنين عليه السلام لهم، وترحمه عليهم، ولم يستشهد عمار والمرقال في ذلك اليوم لوحدهما، وإنما رافقتهما إلى الجنَّة كوكبة سمَّى منهم المرتضى ولدي المرقال، وجماعة من أسلم يزيد وبشر بن معبد، وسفيان، وعروة، في أبيات رثاهم بها، وذكر المسعودي أيضًا أنه استشهد فيها صفوان وسعد ولدا حذيفة بن اليمان، وكأنَّ الله سبحانه أراد لهما الكرامة باتباعهما وصيَّة أبيهما حينما طلب منهما الشَّهادة مع الإمام عليه السلام، واستشهد فيها أيضًا عبد الله أخو الأشتر، وعبد الله وعبد الرحمن ابنا بديل بن ورقاء في خلق من خزاعة، وكان عبد الله في ميسرة جيش الإمام.

ويبدو أن الحسن عليه السلام صعب عليه أن يُمْنَعَ من اقتحام الوغى، فاقتحمه، وأظنه اقتحمه غير مرَّة بدون علم أبيه، وكان أمير المؤمنين يخاف على الحسنين عليهما السلام خوفًا على نسل رسول الله أن ينقطع، فلمَّا رأى ولده الحسن الزكيَّ يتسرَّع إلى الحرب قال لأصحابه كما ورد في النهج ٤٩٣: (أملِكُوا عَنِّي هذا الغلام لا يهُدَّني فإنِّي أنفَسُ بهذين - أي: الحسنين - على الموت؛ لئلاً ينقطِعَ بهما نسلُ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم).

وكان أمير المؤمنين عليه السلام يخرج عشيَّة كل يوم في إزاره وردائه لوحده بدون خوف أو خشية من جند معاوية الذين كان يحطمهم سيفه كل يوم، فلمَّا حُذِّر من غدرهم قال كما روى المبرِّد في كامله ١/ ٢٦٨ وابن عبد ربِّه في عقده ١/ ١٢٢، ١١٧ أثناء تأويلهما قوله: (من أكثر الفكرة في العواقب لم يشجُع)، فأوَّلَ قوله المبرِّد بأن (من فكَّر في ظفر قرنه وعُلُوِّه عليه لم يُقْدِم، وإنما كان الحزم عند علي رضي الله عنه أن يُحْضِرَ أمر الدين ثم لا

فكر في الموت، وقد قيل له: أتقتل أهل الشام بالغداة، وتظهر بالعشي في إزار ورداء؟! فقال: أبالموت أُخَوَّف؟! والله ما أبالي أسقطتُ على الموت أم سقط الموت عليَّ).

وذكر المسعودي أيضًا أن معاوية لما رأى ما فعله جيش الإمام عليه السلام بجيشه استدعى النعمان بن جبلة التنوخي - وكان صاحب راية قومه في تنوخ وبهراء - وقال له: (لقد هممت أن أولِّي قومك من هو خير منك مقدمًا، وأنصح منك دينًا، فقال له النعمان: إنَّا لو كنَّا ندعو قومنا إلى جيش مجموع لكان في كسع الرجال بعضُ الأناة فكيف ونحن ندعوهم إلى سيوفٍ قاطعة، وردينيَّة شاجرة، وقوم ذوي بصائر نافذة، والله لقد نصحتك على نفسي، وآثرت ملكك على ديني، وتركت لهواك الرشد وأنا أعرفه، وحِدْتُ عن الحقِّ وأنا أبصره، وما وُفِّقتُ في الرشد حين أقاتل على ملكك ابنَ عمِّ رسول الله صلى الله عليه وسلَّم، وأوَّلَ مؤمن به، ومهاجر معه، ولو أعطيناه ما أعطيناك لكان أرأف بالرعيَّة، وأجزل بالعطيَّة، ولكن قد بذلنا لك الأمرَ ولابدَّ من تمامه كان غيًّا أو رشدًا، وحاشا أن يكون رشدًا، وسنقاتل على طين الغوطة وزيتونها إذا حُرمنا أثمار الجنَّة وأنهارها).

وخرج في ذلك اليوم أيضًا عبيد الله بن عمر، وقال لزوجته الشيبانيَّة، وهي بنت هانئ بن قبيصة: (إني قد عبَّأتُ لقومك، وأيم الله إني لأرجو أن أربط بكلِّ طُنُبٍ من أطناب فسطاطي سيِّدًا منهم، فقالت له: ما أبغض إلا أن تقاتلهم. قال: ولم؟ قالت: لم يتوجَّه إليهم صنديد في جاهليَّة ولا إسلام وفي رأسه صعر إلاَّ أبادوه، وأخاف أن يقتلوك، وكأنّي بك قتيلاً وقد أتيتهم أسألهم أن يهبوا لي جيفتك، فرماها بقوس فشجَّها، وقال لها: ستعلمين بمن

آتيك من زعماء قومك)، ثم توجّه إلى ساحة المعركة فقيل: قتله حريث بن جابر الجعفي، وقيل إن الأشتر هو الذي قتله، وقيل: (إنَّ عليًّا ضربه ضرْبةً فقطع ما عليه من حديد حتى خالط سيفه حُشْوة جوفه، ، وإن عليًّا قال حين هرب فطلبه ليقيد منه بالهرمزان: لئن فاتني في هذا اليوم لا يفوتني في غيره) كما ذكر المسعودي في مروجه ٣٩٥/٢، وأشار معاوية على نساء عبيد الله حينما كلّمنه بجثمانه دفع عشرة آلاف لربيعة لأخذها، ولكنَّ ربيعة استأمرت أمير المؤمنين عليه السلام بها، فلم يحلّل بيعها، وأشار عليهم إن أحبُّوا وهبوها لبنت هانئ الشيبانيّة، واشترطت ربيعة على زوجات عبيد الله شدَّ جثّته بذيل بغل يسحلها إلى معسكر معاوية، فصرخن وقلن: هذا أشدُّ علينا، وعدن إلى معاوية فأخبرنه بالأمر، فأشار عليهنَّ بتدخل زوجته بنت قبيصة، فأتت القوم، وعرَّفتهم بنفسها، وحدَّثتهم بما دار بينها وبينه من حوار قبل خروجه، فوهبوها لها.

على مشارف النصر

وروى ابن عبد ربه في عقده ١٢٥/١–١٢٦ (وكان علي بن أبي طالب رضي الله عنه يخرج كلّ يوم بصفين حتى يقف بين الصفّين ويقول:

يوم لا يُقْدَر أو يوم قُدِر   أيّ يوميَّ من الموت أفر
ومن المقدور لا يُنجي الحذر)   يوم لا يُقدر لا أرهبه

أما مناسبة الأبيات فروى المسعودي أن أمير المؤمنين عليه السلام بعد مصرع تلك الكوكبة من البدريين وكبار الصحابة حمل بعشرة آلاف من ربيعة حملة منكرة، كان لا يمرُّ فيها بفارس إلاّ جندله، ونادى معاوية وقال له: (يا معاوية، علام يقتل الناس بيني وبينك؟ هلمَّ أحاكمك إلى الله، فأينا قتل صاحبه

استقامت له الأمور، فقال له عمرو: قد أنصفك الرجل، فقال له معاوية: ما أنصفت، وإنَّك لتعلم أنه لم يبارز رجلاً قطٌ إلا قتله أو أسره، فقال له عمرو: وما يجمل بك إلاَّ مبارزته، فقال له معاوية: طمعت فيها من بعدي، وحقدها عليه)، وروى المسعودي أيضًا غير ذلك، ولكنّه لم يبتعد عنه، وانقصف نهار الخميس بقاصف أشرف بجيش معاوية على الفرار، وقتل من جمعه جمع غفيرٌ، ودفع الإمام عليه السلام الراية إلى ولده محمَّد بن الحنفيَّة، فسار فيها سيرًا رويدًا، والتحق به الإمام وعلى جانبيه الحسن والحسين عليهم السلام وسط كتيبة من البدريين والصحابة مهاجرين وأنصار، وتدافع جيش الإمام يطلب فسطاط معاوية، ويبدو أن ابن العاص أراد أن يجرِّب حظَّه من الإمام، أو دَفَعَهُ إلى ذلك معاوية فلما علاه عليه السلام بسيفه لاذ بعورته، فتركه لها، روى ابن قتيبة في عيونه ١/٢٦٢ عن المدائني: (رأى عمرو بن العاص معاوية يضحك فقال له: ممَّ تضحك يا أمير المؤمنين أضحك الله سنَّك؟ قال: أضحك من حضور ذهنك عند إبدائك سوءتك يوم ابن أبي طالب، أما والله لقد وافقته منّانًا كريمًا، ولو شاء أن يقتلك لقتلك. قال عمرو: يا أمير المؤمنين، أما والله إني لعلى يمينك حين دعاك إلى البراز، فاحولَّت عيناك، وربا سحْرك، وبدا منك ما أكره ذكره لك، فمن نفسك فاضحك أو دعْ)، وللرواية مقدِّمة في مروج المسعودي هي أن (معاوية أقسم على عمرو لما أشار عليه بهذا - أي بمبارزة علي - أن يبرز إلى علي، فلم يجد بدًّا، فبرز له، فلمَّا التقيا عرفه عليٌّ، وشال السيف ليضربه به، فكشف عمرو عن عورته، وقال: مكرهٌ أخاك لا بطل، فحوَّل عليٌّ وجهه عنه، وقال: قبحت! ورجع عمرو إلى مصافِّه)، واستمرَّ القتال ليلة الهرير إلى اليوم الثاني، وقيل: إن سيف الإمام حصد في وليلته تلك

(خمسمائة وثلاثة وعشرين رجلاً أكثرهم في اليوم، وذلك أنه إذا قتل رجلاً كبَّر إذا ضرب، ولم يكن يضرب إلاّ قتل، ذكر ذلك عنه من كان يليه في حربه ولا يفارقه من ولده وغيرهم) كما روى المسعودي في مروجه ٣٩٩/٢، وروى الطبري في تاريخه ٣٠٧/٤ أن أبا عبد الرحمن السُّلمي قال: (كنّا مع علي بصفّين، فكنّا قد وكّلنا بفرسه رجلين يحفظانه ويمنعانه من أن يحمل، فكان إذا حانت منهما غفلة يحمل فلا يرجع حتّى يخضّبَ سيفه، وإنّه حمل ذات يوم فلم يرجع حتى انثنى سيفه، فألقاه إليهم وقال: لولا أنه انثنى ما رجعت).

ورفعت الفتنة رأسها

ذكر اليعقوبي في تاريخه ٢/ ٨٨ (وزحف أصحاب علي وظهروا على أصحاب معاوية ظهورًا شديدً، حتى لصقوا به، فدعا معاوية بفرسه لينجو عليه)، وكان الأشتر في هذا اليوم - وهو يوم الجمعة - على ميمنة علي، وقد أشرف على الفتح كما ذكر المسعودي في تاريخه ٤٠٠/٢، وقرَّب معاوية فرسه صبيحة الجمعة للفرار، ولم تفرّج كربته إلاّ حيلة ابن العاص في رفع المصاحف والاحتكام إليها، (ورفع في عسكر معاوية نحو من خمسمائة مصحف). فرفعت الفتنة رأسها في جيش أمير المؤمنين عليه السلام، وأحسن تأريثها الأشعث بن قيس، الذي تمنّى الخليفة أبو بكر في أيام خلافته الأخيرة من قبل أن يكون قد قتله إذ خُيِّل إليه (أنّه لا يرى شيئًا من الشرّ إلاّ أعان عليه) كما روى اليعقوبي في تاريخه ٢٥/٢، وحذرهم أمير المؤمنين أن تنطلي عليهم حيلة من لا يعرفون من القرآن إلاّ الاسم، وقال لهم من بين ما قال كما روى الطبري في تاريخه ٣١٣/٤: (عباد الله، امضوا على حقّكم وصدقكم قتالَ عدوّكم فإنّ معاوية وابن العاص وابن أبي معيط وحبيب بن مسلمة وابن أبي

سرح، والضحاك بن قيس ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن، وأنا أعرف بهم منكم قد صحبتهم أطفالاً وصحبتهم رجالاً، فكانوا شرَّ أطفال وشرَّ رجال، ويحكم! إنهم ما رفعوها، ثم لا يرفعونها ولا يعلمون بما فيها، وما رفعوها لكم إلاّ خديعة ودَهْنًا ومكيدة)، ولكنَّ من أحاط به منهم تهدَّدوه أن يصنعوا به ما صنع بعثمان، ولا أشكُّ في أنه عليه السلام لم يرهبه تهديدهم، ولم يلتفت إليه، فليس هو الذي يخوَّف بالموت، ولكنَّه خاف من الفتنة أن تأتي على الأخضر واليابس فتحرقه، لذا بعث لمالك أن ياتيه، وكان رضوان الله عليه قاب قوسين أو أدنى من النَّصر المبين، فقال لرسول الإمام يزيد بن هانئ السبيعي (قل له: ليس هذه الساعة التي ينبغي لك أن تزيلني فيها عن موقفي إني قد رجوت أن يفتح لي، فلا تعجلني) وقد ذكر ذلك الطبري في تاريخه ٣١٤/٤، وذكر أيضًا أنّ رسول الإمام عاد إليه ثانية يحثه على مقابلته، وحدَّثه عما وقع نتيجة خديعة رفع المصاحف، وكان مالك قد شعر حين رفعت بإمكانيَّة وقوع الخديعة، وقال له يزيد أيضًا: إن القوم قالوا لإمامه: (لترسُلنَّ إلى الأشتر فليأتينَّكَ أو لنقتلنَّك كما قتلنا عثمان. فأقبل -الأشتر - حتى انتهى إليهم فقال: يا أهل العراق، يا أهل الذُّلِّ والوهن، أحين علوتم القوم ظهرًا وظنُّوا أنكم لهم قاهرون، رفعوا المصاحف يدعونكم إلى ما فيها! وقد والله تركوا ما أمر الله عزَّ وجلَّ به فيها، وسنَّة من نزلت عليه صلى الله عليه وسلم، فلا تجيبوهم، وأمهلوني عدوة الفرس)، واستمرَّ يحاججهم بعقل ودين فلم يستجيبوا له، واضطر الإمام أن يوقف القتال ويأذن للأشعث -كما أراد - أن يذهب إلى معاوية ليستوضح أمره، فكان اقتراح التحكيم في اختيار رجلين أحدهما يمثل عسكر أهل العراق، وأخر يمثل عسكر

أهل الشام كي يعملا بما في كتاب الله، فاختار معاوية عمرو بن العاص، (وقال الأشعث ومن ارتدَّ بعد ذلك إلى رأي الخوارج: رضينا نحن بأبي موسى الأشعري)، وحاول الإمام عليه السلام دفعهم عن أبي موسى، واقترح أن يلي الحكومة عنهم عبد الله بن عبَّاس، وخطب فيهم خطبة ذكّرهم فيها بسابق موقف أبي موسى، وبيَّن لهم ظاهره وباطنه، اقْتَطَعَ منها المسعودي فقرة المروج ٤١٣/٢ وهي في النهج ٥٣٠/٢ أذكر منها قوله: (ألا وإن القومَ قد اختاروا لأنفسهم أقرب القوم مما يحبُّون، وإنَّكم اخترتم لأنفسكم أقرب القوم مما تكرهون، وإنما عهدكم بعبد الله بن قيس بالأمس يقول: إنها فتنة فقطّعوا أوتاركم وشيموا سيوفَكم، فإن كان صادِقًا فقد أخطأ بمسيره غيرَ مُستَكْرِهٍ، وإن كان كاذبًا فقد لزِمته التُّهمةُ، فادفعوا في صدر عمرو بن العاص بعبد الله بن عباس..)، ولكنَّ من ساير الأشعث بن قيس أصرَّ على أبي موسى وقال: (والله لا يحكم فينا مضريَّان، قال علي: فالأشتر، قالوا: وهل هاج هذا الأمر إلاَّ الأشتر)، وذكر الطبري في تاريخه ٣١٦/٤ أن الأشعث قال حين رشَّح أمير المؤمنين مالكًا: (وهل نحن إلا في حكم الأشتر. قال: وما حكمه؟ قال: حكمه أن يضرب بعضُنا بعضًا بالسيوف حتى يكون ما أردت وما أراد؛ قال: فقد أبيتم إلاَّ أبا موسى! قالوا: نعم. قال: فاصنعوا ما أردتم)، ويبدو أن أبا موسى الأشعري كان مع الإمام في جيشه، ولكنَّه اعتزل القتال في (عُرضٍ، فأتاه مولًى له؛ فقال: إن الناس قد اصطلحوا؛ فقال: الحمد لله ربِّ العالمين! قال: قد جعلوك حكمًا! قال: إنا لله وإنا إليه راجعون! وجاء حتى دخل العسكر)، كما ذكر الطبري في المصدر السابق ٣١٦/٤، ولا شك أن مرافقة أبي موسى الأشعري جيش عليٍّ عليه السلام قد أثارت عندك الريبة

التي ارتبتُ بها، فإن كان كارهًا للحرب بزعمه، فإن الإمام لم يجبره على مرافقة جيشه، وسيزداد ارتيابك من بعد أيضًا من حضور عبد الله بن عمر زوج ابنة أبي موسى يوم التحكيم.

ومن المواقف التي تحسب للأحنف بن قيس في تلك الواقعة ما ذكره الطبري، وأجمله الذهبي في عهده ٥٤١ والقلقشندي في صبحه ١٤/٩١-٩٢، اعتراضه على اختيار أبي موسى حكمًا، ولاسيما أنه يعرفه من أيام فتوح بلاد فارس، واقترح على أمير المؤمنين عليه السلام أن يمثّله في الحكومة، أو يكون مساعدًا للحكم الذي يقع عليه الاختيار، لأنه يعرف أيضًا عمرو بن العاص، ويعرف مدى دهائه فقال: (يا أمير المؤمنين إنك قد رُميت بحجر الأرض، وبمن حارب الله ورسوله أنفَ الإسلام وإني قد عجمت هذا الرجل - أي الأشعري - وحلبت شطره، فوجدته كليل الشفرة، قريب القعر، وأنه لا يصلح لهؤلاء القوم إلا رجل يدنو منهم حتى يصير في أكفهم، ويبعد حتى يصير بمنزلة النجم منهم، فإن أبيت أن تجعلني حكمًا، فاجعلني ثانيًا أو ثالثًا، فإنه لن يعقد عقدة إلا حللتها، ولن يحلَّ عقدةً أعقدُها إلا عقدتُ له أخرى أحكم منها). ويسترسل الخبر بالصورة الآتية: (فأبى الناس إلا أبا موسى والرضى بالكتاب، فقال الأحنف، فإن أبيتم إلا أبا موسى فأدفئوا ظهره بالرجال)، و يفهم من النص أيضًا أن الإمام قد ارتضاه، ولكن القوم أبوا إلا اختيار ما يكرهون. ويبدو أنّه عليه السلام رشّح لهم أيضًا أبا الأسود الدؤلي، ولكنّهم لم يرتضوه أيضًا، فقد روى ابن عبد ربّه في عقده ٤/٣٢١ أنه (لما قدم أبو الأسود الدؤلي على معاوية عام الجماعة قال له معاوية: بلغني يا أبا الأسود أن عليًّ بن أبي طالب أراد أن يجعلك أحد الحكمين، فما كنت تحكم به؟ قال:

لو جعلني أحدهما لجمعت ألفًا من المهاجرين وأبناء المهاجرين، وألفًا من الأنصار وأبناء الأنصار، ثم ناشدتهم الله: المهاجرون وأبناء المهاجرين أولى بهذا الأمر أم الطلقاء؟ قال له معاوية: لله أبوك! أيّ حكم تكون لو حُكِّمت).

حين انجلى الغبار

وانجلى غبار تلك الأيّام كما قال المسعودي في مروجه ٢/٤٠٤-٤٠٥ عن سبعين ألف قتيل (من أهل الشام خمسة وأربعين ألفًا، ومن أهل العراق خمسة وعشرين ألفًا، فيهم خمسة وعشرون بدريًّا)، ودفن بعض من استشهد من جيش الإمام في ذلك السهل بصفين، ودفن بعضهم (بحبيس) وهو موضع قرب الرقّة ذكره ياقوت في معجمه ٢/٢٥٠.

وحين توقّفت الحرب كثر اللغط في جيش أمير المؤمنين عليه السلام، وكادت حرب تقع في ما بين رجاله، ما بين منكر للتحكيم ومؤيِّد، وحلّت البغضاء في ما بينهم، مما اضطره أن يعود بجيشه إلى الكوفة.

وقبل أن يدخلها انحاز عنه اثنا عشر ألفًا من القرّاء وغيرهم، فلحقوا بحروراء، ومرَّت قرابة السنة ما أطول شهورها على الإمام عليه السلام كان فيها ما بين معاوية من ناحية والخوارج من ناحية أخرى، بالإضافة إلى أمّة من أهل الكوفة من الذين أمنوا العقاب، وراق لهم جلوسهم واستكانتهم على الرغم من الآتي القريب الذي طالما حذّرهم منه، وبالإضافة إلى من استمالهم معاوية بأصفره الرنّان أو لوّح لهم به، فتسلّل منهم من تسلّل، وخبث منهم من خبث، وكان عليه في الوقت ذاته أن يؤدّي الرسالة التي أأتمن عليها، يمكّن الناس من دينهم على أحسن وجه، ويبصّرهم بدنياهم ما لهم فيها وما

عليهم، ويحثُّ الناس على جهاد المروق الذي طلع عليه كرؤوس الشياطين من كلِّ مكان.

المهزلة الكبرى
التحكيم

لا شكّ أن يوم التحكيم كان من المهازل الكبرى في تاريخ الإسلام، جرَّ كغيره من الأيام الحالكة الإظلام من المحن على المسلمين ما تشيب له الرؤوس على الرغم من حضور بعض وجوه الصحابة من الذين أغراهم ذلك اليوم بما يمكن أن يسفر عنه من مكاسب دنيوية، فقد اجتمع فيه الباطل بكلّ جبروته لينتصر على الحقّ، بعد أن جيَّش الخديعة بمكرها لتصفع الحقيقة بقوَّة الإعصار، وحاولت فيه الشريعة الراشدة النقيَّة أن تقف وقفتها الأخيرة في وجه أحابيل السياسة وألاعيبها، ولكنَّها لم تستطع الثبات، وهكذا انحسرت شيئًا فشيئًا كما الشمس، ولن تبزغ من جديد إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ولم يبق منها إلاّ سرابٌ مازالت البشريَّة تطارده منذ يوم الله ذاك.

وقد اختُلِف في ما جرى من أمر التحكيم ووثيقته ويومه، ومن حضره من المسلمين، وما خلَّفه من محن، وما تجرَّعته الإنسانية من علقم، بالإضافة إلى أنهار الدماء التي سالت على وجه هذا الكوكب.أما ابن سعد فقال في طبقاته ٣٣/٣: إنه في شعبان سنة ثمان وثلاثين للهجرة، وقال: إن مجتمع الناس كان بأذرح، ووافقه المسعودي في مروجه ٤٠٦/٢ على السنَّة، ولكن خالفه في الشهر فقال: إنه في رمضان، وقال: كان (بدومة الجندل، وقيل: بغير

وأوجز ابن سعد أمر يوم التحكيم وجلسته في طبقاته ٣/٣٣ فقال: (واجتمع الناس بأذرح في شعبان سنة ثمان وثلاثين، وحضرها سعد بن أبي وقّاص، وابن عمر وغيرهما من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلّم، فقدّم عمرو أبا موسى فتكلّم فخلع عليًا، وتكلّم عمرو فأقرّ معاوية وبايع له، فتفرّق الناس على هذا).

أما الطبري في تاريخه ٤/٣١٣—٣٢٠ من طبعة الأعلمي، فلم يسهب فيه أيضًا، وأما المسعودي في المروج ٢/٤٠٣—٤١٤ فلم يضف شيئًا ذا بال على ما ذكره الطبري، وهي إن كانت لا تشفي صاديًا، ولكنها غيض من طوفان يسدُّ ثغرة لا غير، فذكر أن صحيفة التحكيم اشترطت على الحكمين أن يحييا (ما أحيا القرآن ويميتا ما أمات القرآن، ولا يتبعان الهوى، ولا يداهنان في شيء من ذلك، فإن فعلا فلا حكم لهما، والمسلمون من حكمهما براء)، وقال: إنها كتبت (لأيّام بقين من صفر سنة سبع وثلاثين، وقيل بعد هذا الشهر)، وروى الطبري أنها كتبت يوم الأربعاء لثلاث عشرة ليلة خلت من صفر سنة سبع وثلاثين، أما الوثيقة فقال ابن كثير في بدايته ٧/ ١٨٣ أنها كتبت بحضور ابن العاص، بعد أخذ المواثيق للحكمين، وكانت على الشكل الآتي:

(بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما قاضى عليه علي بن أبي طالب أمير المؤمنين، فقال عمرو بن العاص: اكتب اسمه واسم أبيه، هو أميركم وليس أميرنا، فقال الأحنف: لا تكتب إلاّ أمير المؤمنين، فقال عليٌّ: امح أمير المؤمنين، واكتب هذا ما قاضى عليه علي بن أبي طالب، ثم استشهد عليٌّ بقصّة الحديبية حين امتنع أهل

مكّة هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله ، فامتنع المشركون من ذلك وقالوا : اكتب هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله. فكتب الكاتب : هذا ما تقاضى عليه علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان، قاضى على عليٌّ أهل العراق ومن معهم من شيعتهم ومن المسلمين، وقاضى معاوية على أهل الشام، ومن معه من المؤمنين -كذا - والمسلمين إنا ننزل عند حكم الله وكتابه ، ونحيي ما أحيى الله ونميت ما أمات الله ، فما وجد الحكمان في كتاب الله وهما أبو موسى الأشعري وعمرو بن العاص عملا به ، وما لم يجدا في كتاب الله فالسنّة العادلة الجامعة غير المتفرّقة)، وشهد عشرة من صحابة أمير المؤمنين عليها فيهم عبد الله بن عباس، والأشعث بن قيس، وحجر بن عدي الكندي، وشهد عليها من أصحاب معاوية أبو الأعور السلمي، وحبيب بن مسلمة ، وعتبة بن أبي سفيان، وغيرهم، وذكر المسعودي أيضًا، أنه بعد كتابة الوثيقة خرج بها الأشعث فرحًا وقرأها على جند أمير المؤمنين، ومرَّ على مجلس من تميم، فيهم عروة بن أدية فقال: (أتحكّمون في دين الله وأمره ونهيه الرجال؟ لا حكم إلاَّ لله ، فكان أوّل من قالها وحكم بها، وقد تنوزع في ذلك، وشدَّ بسيفه على الأشعث فضمَّ فرسه عن الضربة فوقعت في عجز الفرس، ونجا الأشعث، وكادت العصبيّة أن تقع لولا اختلاف كلمتهم في الديانة والتحكيم) ولولا تدخّل الأحنف واعتذاره كما ذكر ابن كثير في البداية والنهاية ١٨٤/٧.

ويلاحظ على تلك الوثيقة أنها كتبت بعجل، ويكتنف الغموض كلّ ما جاء فيها، ولا تقدّم حلاً حقيقيًا بين يدي الحكمين إن كانا يريدان النزول عند حكم الله وكتابه بزعم الوثيقة، وكأن سحرًا أسود غمّست فيه ريشة

القلم الذي كتبت به، فليس فيها من أسس معاهدات الصلح أو الحرب ما يدعو إلى النظر فيها، وكأنّما من شارك بصياغتها بيّت أمرًا بليل لهدم كلّ أحكام الله وما جاء بكتابه، فالأحكام صاغها رسول الله، صلوات الله وسلامه عليه، وشارك الإمام عليه السلام بتطبيقها ونشرها وترسيخها بالسيف الذي شهره في وجه الشرك من ناحية، وبالكلمة الواعية الحكيمة التي تعلّمها من أخيه، واستمرّ بعد رحيل النبوّة أمينًا ورقيبًا، وفي أثناء خلافته كان حكم الله وشرعه، أحيا ما أحياه الله، وأمات ما أحياه عباد الله، فحكم بعدل تسبقه الرحمة، وقسّم بحقّ لا يعرف الظلم، وحاسب نفسه الحساب الذي رأيت قبل أن يحاسب أهله، وربّى أسرته على القيم التي تربّى عليها حتى أصبحت جزءًا من طبيعة وسلوك يومي، فعاشوا في كنفه عيشة الفقراء لا يجرؤ أحد منهم إن كان قد فكّر بمجرّد التحدُّث عن حقوقهم التي قدّرها الله لهم، لأنهم قدوة الأمّة وسراجها، ثم انتقل إلى رعيّته فأخذها بالقسطاس المستقيم، وأشبعها نصحًا وإرشادًا وبصّرها بدنياها وآخرتها، وانتزعها من أعرابيّتها، ومنحها من الحريّة الواعية الملتزمة ما لم تحلم به من بعد، ولم تعرفه بطانة السوء لأنها ما كانت تستطيع الاختفاء تحت عباءته أو الاقتراب من بيته، فهو أصلب من أيّ صلب في تنفيذ شرع الله، فليس من متنفّذ، أو صاحب حظوة أيًا كان، فإن فرّ معتد أو مقصّر من معسكره فليس له من ملجأ إلا معسكر معاوية. أما وجهه عليه السلام فكان على الرغم من كلّ النور الذي يشعّ منه، والدفء الذي يكتسيه، والابتسامة العذبة التي تزينه قاطعًا كالسيف لا يرمش له جفن ولا تغمض له عين، وفوق هذا كانت الأمّة كلّها رقيبة على أفعالها وحكّامها وعلى القائمين على أمورها، وكان أمير المؤمنين أمامها ناصعًا

كالورق الصقيل، صافيًا كالبلور، فأية أحكام لله يحييها الحكمان، وأي أمر يميتاه كان الله قد أماته بزعم الوثيقة، لذا فإني أظن ولست جازمًا أن جعجعة الحكم لله التي دوَّت في المعسكر، ورايات الأصفر الرنَّان التي لوَّح بها معاوية كانت سببًا في انطلاء المؤامرة التي حاكها هو وصاحبه على جيش العقيدة الذي قاده الإمام.

وذكر المسعودي في مروجه ٤٠٨/٢، ولم يبتعد عنه الطبري في تاريخه ٤/ ٣٢٨ -٣٣٢ من طبعة الأعلمي، أنه في الموعد المتَّفق عليه بعث أمير المؤمنين عليه السلام عبد الله بن عباس وشريح بن هاني الهمداني في أربعمائة رجلٍ حسب شرط الوثيقة، وبعث معاوية بن أبي سفيان بعمرو بن العاص ومعه شرحبيل بن السمط في أربعمائة أيضًا.

ووافت الاجتماع مجموعة ممن قعدت عن بيعة أمير المؤمنين كسعد بن أبي وقَّاص، وعبد الله بن عمر، والمغيرة بن شعبة، وغيرهم، وذكر المسعودي بين الأسماء أيضًا عبد الرحمن بن عوف، وهو وهم لم يلتفت إليه محقق المروج، لأن عبد الرحمن مات في خلافة عثمان، ويبدو أن كلا الحكمين قد أعدَّ العدَّة لما سيغنمه في ذلك اليوم، أما أبو موسى الأشعري فكان يطمح أن يستخلف عبد الله بن عمر زوج ابنته، وأما عمرو بن العاص فطمح أن تكون لصاحبه، ولكنَّه بيَّت لأبي موسى الخديعة والمكر، وأيًّا كانت الروايات فقد أوهمه بالموافقة على خلع عليٍّ ومعاوية، وذكر المسعودي أيضًا الطريقة الخبيثة التي اتَّبعها ابن العاص في الإيقاع بأبي موسى في المصيدة التي نصبها له، فاستقبله استقبال المحتفي، وأوهمه أنه جاء فعلاً لتنفيذ روح الوثيقة، وترميم الشرخ الذي حدث بين المسلمين، وإطفاء نار الفتنة، واتفق مع غلامه الذي دخل معه

لكتابة ما يدور في الاجتماع على الطريقة التي يبدأ بها، وما يتبعها، وأمره ألا يكتب إلا بأمر أبي موسى وموافقته، وثم أوهم أبا موسى بما له من مكانة، فما أن خطَّ كاتبه جملة (هذا ما اتّفق عليه الحكمان عمرو بن العاص وأبو موسى) حتى قرَّع غلامه، أشدَّ التقريع لأنه بدأ باسمه وليس باسم الأشعري صاحب السابقة والمكانة، فبدأ باسم أبي موسى، وهكذا أسقط أبو موسى كل الحذر الذي اتَّشح به قبل دخول الخيمة، وشعر بالزهو والمكانة، وشعر أن ابن العاص لا يستطيع الاحتيال أو التلاعب به، ثم قال عمرو لكاتبه: اكتب فإنك شاهد علينا، فشهدا بالشهادتين، وشهدا بخلافة أبي بكر وعمر، ويعملهما بكتاب الله وسنَّة نبيِّه، كل ذلك وأبو موسى هو الذي يأمر بالكتابة وابن العاص يثنِّي عليه، ثم قال ابن العاص: واكتب (وأن عثمان ولي هذا الأمر بعد عمر على إجماع المسلمين وشورى من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضًا منهم، وأنه كان مؤمنًا، فقال أبو موسى الأشعري: ليس هذا مما قعدنا له، قال عمرو: والله لابد من أن يكون مؤمنًا أو كافرًا، فقال أبو موسى : كان مؤمنًا فقال عمرو: فمره يكتب: قال أبو موسى: اكتب، قال عمرو: فظالمًا أو مظلومًا، قال أبو موسى: بل قتل مظلومًا، قال عمرو: أفليس قد جعل الله لولي المظلوم سلطانًا يطلب بدمه؟ قال أبو موسى: نعم، قال عمرو: فهل تعلم لعثمان وليًا أولى من معاوية؟ قال أبو موسى: لا، قال عمرو: أفليس لمعاوية أن يطلب قاتله حيثما كان حتى يقتله أو يعجز عنه؟ قال أبو موسى بلى، قال عمرو للكاتب: اكتب، وأمره أبو موسى فكتب، قال عمرو: فإنا نقيم البيِّنة أن عليًا قتل عثمان، قال أبو موسى: هذا أمر قد حدث في الإسلام، وإنما اجتمعنا لغيره، فهلمَّ إلى أمر يصلح به الله أمر أمَّة محمد، قال عمرو: وما هو؟

قال أبو موسى: قد علمت أن أهل العراق لا يحبون معاوية أبدًا، وأن أهل الشام لا يحبون عليًّا أبدًا؛ فهلمَّ نخلعهما جميعًا ونستخلف عبد الله بن عمر؟ وكان ابن عمر على بنت أبي موسى، قال عمرو: أيفعل ذلك عبد الله بن عمر؟ قال أبو موسى: نعم إذا حمله الناس على ذلك فعل، فعمد عمرو إلى كلِّ ما مال إليه أبو موسى فصوَّبه، وقال له: هل لك في سعد؟ قال له أبو موسى: لا، فعدَّد له عمرو جماعة، وأبو موسى يأبى ذلك إلا ابن عمر، فأخذ عمرو الصَّحيفة وطواها وجعلها تحت قدمه بعد أن ختماها جميعًا، وقال عمرو: أرأيت إن رضي أهل العراق بعبد الله بن عمر وأباه أهل الشام أتقاتل أهل الشَّام؟ قال أبو موسى: لا، قال عمرو: فإن رضي أهل الشام وأبى أهل العراق أتقاتل أهل العراق؟ قال أبو موسى: لا، قال عمرو: أما إذا رأيت الصلاح في هذا الأمر والخير للمسلمين فقم فاخطب الناس، واخلع صاحبينا معًا وتكلَّم باسم هذا الرجل الذي تستخلفه، فقال أبو موسى: بل أنت قم فاخطب فأنت أحق بذلك، قال عمرو: ما أحبُّ أن أتقدَّمك، وما قولي وقولك للناس إلا قول واحد، فقم راشدًا)، فقام أبو موسى وهو يشعر بالزهو والانتصار على ابن العاص، فحمد الله وصلى على النبي، ثم تحدَّث عما اتَّفقا عليه من أمر الصلاح وحقن الدماء ثم قال: (وخلعنا عليًّا ومعاوية، وقد خلعت عليًّا كما خلعت عمامتي هذه، ثم أهوى إلى عمامته فخلعها، واستخلفنا رجلاً قد صحب رسول الله صلى الله عليه وسلَّم بنفسه، وصحب أبوه النبي صلى الله عليه وسلَّم، فبرَّز في سابقته، وهو عبد الله بن عمر، وأطراه، ورغَّب الناس فيه، ثمَّ نزل)، وما أن نزل حتى قام بن العاص وقال: (أيها الناس، إن أبا موسى عبد الله بن قيس قد خلع عليًّا وأخرجه من هذا

الأمر الذي يطلب، وهو أعلم به، ألا وإنّي قد خلعت عليًّا معه، وأثبّت معاوية عليَّ وعليكم)، ثم أخرج الصَّحيفة وأراهم ما اتَّفقا عليه من قتل عثمان مظلومًا شهيدًا، (وأن لوليِّه سلطانًا أن يطلب بدمه حيث كان، وقد صحب معاوية رسول الله صلى الله عليه وسلّم بنفسه، وصحب أبوه النبيَّ صلى الله عليه وسلّم، وأطراه ورغَّب الناس فيه، وقال: هو الخليفة علينا، وله طاعتنا وبيعتنا على الطلب بدم عثمان، فقال أبو موسى: كذب عمرو، لم نستخلف معاوية، ولكنَّا خلعنا معاوية وعليًّا معًا، فقال عمرو: بل كذب عبد الله بن قيس، قد خلع عليًّا ولم أخلع معاوية).

وذكر المسعودي أنه وجد في وجه آخر أنهما اتفقا على خلع عليٍّ عليه السلام ومعاوية، وأن يجعلا الأمر شورى، فقدَّم ابن العاص أبا موسى فخلع عليًّا ومعاوية، وقام عمرو مكانه فقال: (إن هذا قد خلع صاحبه، وأنا أخلعه كما خلعه، وأثبت صاحبي معاوية، فقال أبو موسى: مالك لا وفَّقك الله غدرت وفجرت؟ إنما مثلك كمثل الحمار يحمل أسفارًا، فقال له عمرو: بل إيَّاك يلعن الله، كذبت وغدرت، إنما مثلك مثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث، ثم وكز أبا موسى فألقاه لجنبه، فلما رأى ذلك شريح بن هانئ قنَّع عمرًا بالسوط، وانخزل أبو موسى، فاستوى على راحلته ولحق بمكَّة، ولم يعد إلى الكوفة، وقد كانت خطَّته وأهله وولده بها، وآلى أن لا ينظر إلى وجه علي ما بقى)، أما الركب الذي قعد عن بيعة عليٍّ بالأمس وتربَّص اليوم فقد عاد بخفَّي حنين.

أما أمير المؤمنين عليه السلام فلما بلغه مآل أمر التحكيم خطب بأصحابه فقال كما جاء في النهج ١٧٥ - ١٧٦ بعد أن حمد الله وأثنى عليه: (أما

بعد، فإنّ معصيةَ النَّاصح الشَّفيقِ العالم المجرِّب تورثُ الحيرةَ، وتُعقِبُ النّدامةَ، وقد كنتُ أمرتكم في هذه الحكومةِ أمري، ونخلت لكم مخزون رأيي لو كان يطاع لقصير أمرٌ - إشارة إلى مثل معروف - فأبيتم عليَّ إباء المخالفين الجفاة، والمنابذين العصاة، حتى ارتاب النَّاصح بنصحه، وضنَّ الزَّند بقِدحه، فكنتُ وإيَّاكم كما قال أخو هوازن:

أمرتهم أمري بمُنعَرَج اللّوى   فلم يستبينوا النصحَ إلاّ ضُحَى الغدِ).

قتال المارقين

الخوارج

لم يعد جيش أمير المؤمنين عليه السلام إلى الكوفة بالحماسة التي خرج فيها منها موحَّد الكلمة واثقًا بعدالة قضيَّته، فقد أصابه الهرج والمرج، وحلت بين صفوفه الضغينة والبغضاء، وانقسم بين مندفع وراء خدعة التحكيم ومعارض لها، وبين معارضٍ في صفِّ الإمام، ومعارض لقبوله، وافترق عن جيشه قبل دخولها قرابة اثني عشر ألف مقاتلٍ من أشدِّ المقاتلين غالبيّتهم من القرَّاء، أضلَّ الشيطان تفكيرهم لنزول الإمام عند رأيهم بقبول التحكيم، وحكَّموا باطلهم بوجوب توبته على ما اقترفه من ذنب بزعم شيطانهم.

ودخل عليه السلام الكوفة وهو مثقل بحزنٍ على من ذهب من أصحابه ورفاق دربه، وحزن لانطلاء الخديعة على جيشه ففرَّقت كلمته وشتَّتها، وحزنٍ من انتصار باطل معاوية بالخديعة على حقِّه، وحزنٍ على تلك الكوكبة التي أغواها الشيطان فباتت تدعو بالويل والثبور في سكك الكوفة وغيطانها عليه لأنه فارق شرع الله بقبول التحكيم، ثمَّ بهَمٍّ من قرون الفتنة التي تطالعت وبدأت بالانتشار في كلِّ مكان، وآخر حول كيفيَّة الانتصار على باطل معاوية، فطوى كلّ أحزانه وهمومه وانصرف بجميعه لإطفاء الحرائق التي شبَّت هنا وهناك من ناحية، والاستمرار على نهجه في التوعية والتحذير والترغيب والضرب بيدٍ من حديد على من يتعدَّى حدود الله مهما كانت

منزلته ومكانته، ومهما بعد تأثيره، ولنا في حكاية إقامة الحدِّ على شاعره النجاشي خير دليل.

واتَّجه ببصره إلى حروراء، في محاولة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من ذلك الجمع الذي تمكَّنت منه حبائل الشيطان، وحروراء كما ذكر ياقوت في معجم البلدان ٢٨٣/٢ :(قرية بظاهر الكوفة، وقيل: موضع على ميلين منها)، اتَّخذها الخوارج مكانًا لاجتماعهم، فنسبوا إليها.

بعض ما ورد من أحاديث بشأن الخوارج

وما كان الخوارج أبناء يومهم ذاك، فقد سبقته أيّام عرفها المسلمون الأول، ورووا أخبارها، وكان أبو الحسنين عليه السلام الشاهد عليها في عهد النبوَّة، والقيِّم على حربها بأمر المصطفى صلى الله عليه وآله وسلَّم، ومما رواه عنهم أحمد بن حنبل في كتاب فضائل أمير المؤمنين عليه السلام ٤٢٩ برقم ٣٣٠ بسنده عن المرتضى أن النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم قال: (إن قومًا يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية، يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، طوبى لمن قتلهم وقتلوه. علامتهم رجل مخدَّج اليد)، وروى بسنده في الكتاب السابق أيضًا ٤٤٩ برقم ٣٤٨ أن عليًا دخل على رسول الله صلوات الله وسلامه عليهما (وليس عنده أحد إلاَّ عائشة فقال: يا ابن أبي طالب كيف أنت وقوم كذا وكذا؟ قال: قلت: الله ورسوله أعلم قال: « قوم يخرجون من المشرق يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية. فيهم رجل مخدَّج اليد كأنّ يديه ثدي حبشيّة»)، وروى المبرِّد في كامله ١١٠٨/٣ : (أن رجلاً أسود شديد بياض الثياب وقف على رسول الله صلى الله عليه وسلَّم وهو يقسِّم غنائم خيبر، ولم تكن إلا لمن شهد

الحديبية، فأقبل ذلك الأسود على رسول الله فقال: ما عدلت منذ اليوم فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلّم حتى رئي الغضب في وجهه، فقال عمر بن الخطاب: ألا أقتله يا رسول الله؟ فقال: سيكون لهذا وأصحابه نبأ). قال أبو العباس: (وفي حديث آخر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له: ويحك فمن يعدل إذا لم أعدل؟ ثم قال لأبي بكر: اقتله، فمضى ثم رجع، فقال: يا رسول الله رأيته راكعًا، ثم قال لعمر: اقتله، فمضى ثم رجع، فقال: يا رسول الله، رأيته ساجدًا، ثم قال لعلي: اقتله، فمضى ثم رجع فقال: يا رسول الله لم أره، فقال رسول الله: لو قتل ما اختلف اثنان في دين الله)، وروى في كامله أيضًا ٣/١١٠٨–١١٠٩: (إن عليًّا رضي الله عنه وجَّه إلى رسول الله بذَهَبٍ من اليمن، فقسَّمها أرباعًا، فأعطى رُبعًا للأقرع بن حابس المجاشعي، وربعًا لزيد الخيل الطائي، وربعًا لعلقمة بن عُلاثة الكلابي، وربعًا لعيينة بن حصن الفزاري، فقام إليه رجل مضطرب الخلق غائر العينين ناتئ الجبهة، فقال: لقد رأيت قسمة ما أريد بها وجه الله فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى تورَّد خدَّاه، ثم قال: أيأمنني الله عزَّ وجلَّ على أهل الأرض ولا تأمنوني؟ فقام إليه عمر فقال: ألا أقتله يا رسول الله؟ فقال صلى الله عليه وسلم إنه سيكون من ضئضئ هذا قوم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، تنظر في النَّصل فلا ترى شيئًا، وتنظر في الرِّصاف فلا ترى شيئًا وتتمارى في الفُوق).

وذكر ابن الأثير في كامله ٢/٤٥١ أن عمر بن الخطَّاب لمَّا أمَّرَ سعد بن مالك على حرب العراق، خرج يستعرض الجيش فمرَّ بفتية فأعرض عنهم، فقيل له: مالك وهؤلاء؟ (فقال: ما مرَّ بي قوم من العرب أكره إليَّ منهم. ثمَّ

أمضاهم، فكان بعد يذكرهم بالكراهة، فكان منهم سُودان بن حُمران قتل عثمان، وابن ملجم قتل عليًا، ومعاوية بن حُدَيج جرَّد السيف في المسلمين يُظهر الأخذ بثأر عثمان، وحصين بن نمير كان أشدَّ الناس في قتال عليٍّ). لذا فإن أمرهم لم يكن بخاف عليه السلام، فهم المارقون الذين أمر بحربهم قبل يومهم بعقود، ولكنَّه غلَّب الرحمة على العدل، ووازن بين العقل والعاطفة، لإنقاذ من يمكن إنقاذه من حبائل الشيطان، وذلك بتوهين عزائمهم وإبطال حجَّتهم بالحجَّة الدامغة والموعظة الحسنة، وسدِّ الذرائع في وجوههم ليس ليومهم ذاك فحسب، وإنما للقادمات من أيَّامهم التي سيعيثون فيها فسادًا في بلاد المسلمين.

ولم يكن ذلك الجمع الذي فارقه قبل دخوله الكوفة لوحده الذي مَرَقَ، وإنما هناك جموع أخر دخلت الكوفة معه، وأقامت الدنيا، ونادت بالويل والثُّبور، كما التحقت بذلك الجمع مجاميع أخر ممن لم تشترك في حرب صفِّين بعد أن أغواها الشيطان بصواب رأي من انفصل عن جيش أمير المؤمنين سلام الله عليه.

التنوير قبل الاصطدام

روى ابن سعد في طبقاته ٣٢/٣: (فخرجت عليه الخوارج من أصحابه ومن كانوا معه، وقالوا: لا حَكَمَ إلاَّ الله، وعسكروا بحَروراءَ، فبذلك سُمُّوا الحروريَّة،)، وذكر المسعودي في مروجه ٤٠٥/٢ أنهم (جعلوا عليهم شبيب بن ربعي -كذا- التميمي، وعلى صلاتهم عبد الله بن الكوَّاء اليشكري من بكر بن وائل)، فاتَّبع معهم سيِّد الحكماء الصبر والأناة فتركهم أوَّل الأمر يعبِّرون عن رأيهم بكلِّ حريَّة، فلم يعترض أحدًا منهم، وساواهم في الحقوق

مع غيرهم من المسلمين، على الرغم من أن الأمر وصل بهم كما ذكر المسعودي في المروج ٢/ ٤٠٦ إلى مخاطبته وهو على المنبر بقولهم: (جزعت من البليَّة ورضيت بالقضيَّة، وقبلت بالدنيَّة، لا حكم إلاّ لله، فيقول: حكم الله أنتظر فيكم، فيقولون: ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾، فيقول عليٌّ: ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ ﴾)، وكانت محنته بهم ثالث محنه الكبرى إبّان خلافته، فهم بالأمس من أصحابه ومن أشدِّ الداعين له، وهم اليوم وقد ركبهم الشيطان ليس كالناكثين كي يحاربهم ولا كالقاسطين الذين ما طالبوا إلاّ بالباطل، أما هؤلاء فلا يمكن مقارنتهم بهم، (فليس من طلب حقًّا فأخطأه، كمن طلب الباطل فأدركه)، كما قال عليه السلام، وهو في النَّهج ١٨١ ، لذا أخذهم باللِّين والحجَّة، ولكنَّهم أصرُّوا على ضلالتهم، ويوم قيل له كما جاء في النَّهج ٣١٢–٣١٤: (نهيتنا عن الحكومة ثمَّ أمرتنا بها فما ندري أيّ الأمرين أرشدُ؟ فصفَقَ عليه السلام إحدى يديه على الأخرى ثمَّ قال: هذا جزاءُ من تركَ العُقْدَةَ أما والله لو أنّي حينَ أمرتُكم بما أمرتُكم به حَمَلْتُكُم على المكروه الذي يجعلُ الله فيه خيرًا: فإن استقمتم هديتُكم، وإن اعوَجَجْتم قوَّمتُكم، وإن أبيتُم تداركْتُكُم، لكانت الوُثْقَى، ولكن بمن؟ وإلى من؟ أُريدُ أن أُداوى بكم وأنتم دائي، كناقشِ الشَّوكة بالشَّوكة، وهو يعلم أن ضَلْعَها معها، اللهم قد ملَّت أطِبَّاءُ هذا الدَّاء الدَّوِيِّ، وكلَّت النَّزْعةُ بأشطانِ الرَّكِيِّ، أين القومُ الذينَ دُعُوا إلى الإسلامِ فقبلُوهُ، وقرؤوا القرآن فأحْكَمُوهُ، وهُيِّجُوا إلى القتالِ فَوَلِهُوا وَلَهَ اللِّقاحِ إلى أولادِها، وسَلَبُوا السُّيوفَ أغمادَها، وأخذُوا بأطرافِ الأرضِ زحفًا زحفًا، وصفًّا صفًّا؟ بعضٌ هلك، وبعضٌ

نَجَا! لا يُبَشَّرونَ بالأحياءِ ولا يُعَزَّونَ عن الموتى، مُرْهُ العيونِ من البكاءِ، خُمْصُ البُطُونِ من الصِّيامِ، ذُبُلِ الشِّفاهِ من الدُّعاء، صُفْرُ الألوانِ من السَّهرِ، على وجوهِهم غبرةُ الخاشعينَ، أولئكَ أخواني الذَّاهبون، فحقٌّ لنا أن نظمأ إليهم، ونَعَضَّ الأيدِي على فراقهم. إن الشَّيطان يُسَنِّي لكم طُرُقَهُ، ويريدُ أن يَحُلَّ دينكم عقدةً عقدةً، ويعطيكم بالجَماعةِ الفُرْقَةَ، فاصْدِفُوا عن نَزَغاتِهِ ونفَثاتِهِ، واقبلوا النَّصيحة مِمَّن أهداها إليكُم، واعْقِلُها على أنفسكم).

وتلي يومًا في مجلسه قوله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً ﴾، فقال عليه السلام كما روى المبرِّد في كامله ١١٠٧/٣ : (أهل حروراء منهم).

وحينما شعر عليه السلام بتماديهم في غيِّهم بعث إليهم عبد الله بن عبَّاس ليأخذهم بالعقل والحكمة، فتنازعوا أمرهم بينهم في سماع ما يقول، ثمَّ اتَّفقوا على سماعه، فناظرهم بكتاب الله وسنَّة نبيه، وقد ذكر ابن عبد ربِّه جانبًا من تلك المناظرة فقال: فلمَّا سار إليهم ابن عبَّاس (فرحَّبوا به وأكرموه، فرأى لهم جباهًا قَرِحَةً لطول السُّجود، ... فقالوا: ما جاء بك يا بن عبَّاس؟ قال: جئتكم من عند صهر رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن عمِّه، وأعلمنا بربِّه وسنَّة نبيِّه، ومن عند المهاجرين والأنصار؛ فقالوا: إنَّا أتينا عظيمًا حين حكَّمنا الرجال في دين الله، فإن تاب كما تبنا ونهض لمجاهدة عدوِّنا رجعنا. فقال ابن عباس: نشدتكم الله إلاَّ ما صدقتم أنفسكم، أما علمتم أن الله أمر بتحكيم الرجال في أرنب تساوي ربع درهم تُصادُ في الحرم، وفي شقاق رجلٍ وامرأته؟ فقالوا: اللهم نعم؛ قال: فأنشدكم الله هل علمتم أن رسول الله صلى الله عليه وسلَّم أمسك عن القتال للهدنة بينه وبين أهل

الحديبية؟ قالوا: نعم ولكنَّ عليًّا محا نفسه من خلافة المسلمين، قال ابن عباس: ليس ذلك يزيلها عنه، وقد محا رسول الله صلى الله عليه وسلم اسم النبوَّة، وقال سهيل بن عمرو: لو علمت أنك رسول الله ما حاربتك. فقال للكاتب: اكتب: محمد بن عبد الله، وقد أخذ على الحكمين ألاَّ يجورا، وإن يجورا، فعليٌّ أولى من معاوية وغيره، قالوا: إن معاوية يدَّعي مثل دعوى عليٍّ؛ قال: فأيهما رأيتموه أولى فولُّوه؛ قالوا: صدقت. قال ابن عباس: ومتى جار الحكمان فلا طاعة لهما ولا قَبُول لقولهما)، فرجع معه خلق، وأقام آخر كما قال ابن سعد في طبقاته ٣/ ٣٢ أيضًا. وذكر المبرِّد في كامله ٣/ ١١٣٣ أنه رجع ألفين معه وبقي منهم أربعة آلاف.

ثم خرج أمير المؤمنين عليه السلام إلى معسكرهم لمناظرة من بقي منهم فقال كما ورد في النَّهج ٣١٥ -٣١٦: (أكُلُّكُم شهِدَ معنا صِفِّينَ؟ فقالوا: منَّا من شَهِدَ ومنَّا من لم يشهد، قال: فامْتازوا فرقتين، فليكُنْ من شَهِدَ صِفِّين فِرقةً، ومن لم يشهدها فِرقة، حتَّى أكلِّم كُلاًّ بكلامه، ونادى النَّاس فقال: أمْسِكُوا عن الكلام، وأنصِتُوا لقولي، وأقبِلُوا بأفئدَتِكُم إليَّ، فمن نشدناه شهادةً فليقل بعلمه فيها. ثمَّ كلَّمهم بكلامٍ طويلٍ منه: ألم تقولوا عند رفعِهم المصاحفَ - حيلةً وغيلةً ومُكرًا وخديعةً - إخوانُنا، وأهلُ دعوتِنا استَقالُونا، واستراحُوا إلى كتابِ الله سبحانه، فالرأي القبول منهم، والتَّنفيسُ عنهم؟ فقُلْتُ لكم: هذا أمرٌ ظاهره إيمانٌ، وباطنهُ عُدْوانٌ، وأوَّلُهُ رحمةٌ، وآخرهُ ندامة، فأقِيمُوا على شأنِكم، والزموا طريقَتَكُم، وعضُّوا على الجهادِ بنواجِذِكُم، ولا تلتَفِتُوا إلى ناعقٍ نعقَ إن أُجِيبَ أضلَّ، وإن تُرِكَ ذلَّ. وقد كانت هذه الفَعْلَةُ، وقد رأيتُكُم أعطَيْتُمُوها، والله لئن أبيتُها ما وجبت عليَّ

فَرِيضَتُها، ولا حمَّلني الله ذنبَها، ووالله إن جِئتُها إنِّي للْمُحقُّ الذي يُتَّبَعُ، وإنَّ الكتابَ لَمَعِي ما فارقْتُهُ مذْ صَحِبْتُهُ: فلقد كنَّا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم، وإن القتلَ ليدورُ على الآباء والأبناء والإخوان والقرابات، فما نزدادُ على كلِّ مُصيبةٍ وشِدَّةٍ إلاَّ إيمانًا، ومُضيًا على الحقِّ، وتسليمًا للأمرِ، وصبرًا على مضضِ الجِراح، ولكِنَّا إنما أصبحنا نُقاتِلُ إخواننا في الإسلام على ما دخلَ فيه من الزَّيْغ والاعوجاجِ والشُّبْهةِ والتَّأويلِ، فإذا طَمِعْنا في خَصْلَةٍ يلُمُّ الله بها شَعْثَنا، ونَتَدانَى بها إلى البقِيَّة في ما بيننا رغِبنا فيها، وأمسكنا عمَّا سِواها).

وقال لهم من بين ما قال عليه السلام أيضًا كما ورد في عقد ابن عبد ربِّه ٣٨٢/٢: (أنشدكم الله هل علمتم أن أحدًا كان أكره للحكومة منِّي؟ قالوا: اللهم لا، قال: أفعلمتم أنّكم أكرهتموني عليها حتى أقبلها؟ قالوا: اللهم نعم، قال: فعلام خالفتموني ونابذتموني؟ قالوا: إنَّا أتينا ذنبًا عظيمًا فتُبْنا إلى الله منه، فتب إلى الله منه واستغفره نعُدْ إليك. فقال علي: إني أستغفر الله من كلِّ ذنب فرجعوا معه وهم في ستة آلاف).

غير أنَّ بلبلتهم لم تتوقَّف، وترك كثير منهم الرشد إلى الغيِّ وعادوا إلى قالتهم السابقة، وأشاعوا في الكوفة على ما ذكر ابن عبد ربِّه في عقده ٣٨٢/٢ أن أمير المؤمنين عليه السلام رجع عن التحكيم وتاب منه، فجاء الأشعث الذي أوقد الفتنة في جيش الإمام يوم رفع المصاحف وأصرَّ على التحكيم، وقال للإمام: (يا أمير المؤمنين إن النَّاس تحدَّثوا أنّك رأيت الحكومة ضلالاً والإقامة عليها كفرًا، وتبت)، فخطب عليٌّ عليه السلام بالناس وقال: (من زعم أني رجعت عن الحكومة فقد كذب، ومن رآها ضلالاً فهو

أضلّ منها، فخرجت الخوارج من المسجد فحكّمت)، وما أن سمعوا بخطبته تلك حتى خرجوا من المسجد، ولما أُعْلِمَ أمير المؤمنين عليه السلام بخروجهم وعودتهم إلى قالتهم تركهم إلى أن يأتيَ حكم الله فيهم، وقال: (لا أقاتلهم حتى يقاتلوني، وسيفعلون)، وخرج منهم من خرج من الكوفة، وأوجز ابن سعد في طبقاته ٣٢/٣ حكايتهم فقال: (وثبت قوم على رأيهم، وساروا إلى النهروان فعرضوا للسبيل، وقتلوا عبد الله بن خبَّاب بن لأرتّ، فسار إليهم عليٌّ فقتلهم بالنهروان، وقتل منهم ذا الثَّدية. وذلك سنة ثمان وثلاثين، ثم انصرف علي إلى الكوفة فلم يزل بها يخافون عليه الخوارج من يومئذ إلى أن قتل رحمه الله).

وتمثّل حكايتهم فصلاً من أشدّ فصول المسلمين سوادًا، فقد بقيت طائفة منهم بالكوفة وتسلّلت أخرى، واجتمعوا بالمدائن، وبايعوا فيها عبد الله بن وهب الراسبي الذي خرج بهم إلى النهروان كما ذكر المسعودي في مروجه ٢/ ٤١٥ وابن عبد ربه في عقده ٢/ ٣٨٤.

وعاثوا في الأرض فسادًا وقتلوا عبد الله بن خبَّاب قتلة بشعة، وروى المبرِّد في كامله ١١٣٥/٣ أنهم بعد أن قتلوه مرّوا على نصرانيٍّ فساوموه على نخلة ولم يقبلوها منه إلا بثمن. (فقال النصراني: ما أعجب هذا تقتلون مثل عبد الله بن خبَّاب ولا تقبلون منّا نخلة إلاّ بثمن).

وروى ابن عبد ربِّه حكاية قتلهم عبد الله وتمثيلهم بزوجته فقال في عقده ٢/ ٣٨٤: (ولقوا عبدَ الله بن خبَّاب، وفي عنقه المصحف ومعه امرأته وهي حامل، فقالوا: إن هذا الذي في عنقك يأمرنا بقتلك، فقال لهم: أحيوا ما أحيا القرآن، وأميتوا ما أمات القرآن؛ قالوا: حدِّثنا عن أبيك؛ قال: حدَّثني

أبي قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «تكون فتنة يموت فيها قلب الرجل كما يموت بدنه، ويمسي مؤمنًا ويصبح كافرًا، فكن عبد الله المقتول ولا تكن عبد الله القاتل»؛ قالوا فما تقول في أبي بكر وعمر؟ فأثنى خيرًا؛ قالوا: فما تقول في عليّ قبل التحكيم وفي عثمان؟ فأثنى خيرًا؛ قالوا فما تقول في الحكومة والتحكيم؟ قال: أقول: إن عليًّا أعلم بكتاب الله منكم، وأشدُّ توقّيًا على دينه وأبعد بصيرة؛ قالوا: إنك لست تتّبع الهدى بل الرجال على أسمائها، ثمَّ قرَّبوه إلى شاطئ البحر فذبحوه، فامذَقرَّ دمه، أي جرى مستقيمًا على دقة)، ولم يكتفوا بفعلتهم تلك، وإنما فعلوا بزوجته ما يندى له الجبين فقد بقروا بطنها واستخرجوا جنينها ثم ذبحوه وذبحوها!!!.

وكان في نيَّة أمير المؤمنين عليه السلام أن يفرغ من أمر معاوية أولاً بعد أن وصله ما دار في يوم الحكمين، فطلب من أهل الكوفة التأهُّب لحرب أهل الشام والاستعداد للمسير إليهم، وخرج من الكوفة في خمسة وثلاثين ألفًا، وأتاه من البصرة عشرة آلاف مقاتل فيهم (الأحنف بن قيس، وحارثة بن قدامة السَّعدي، وذلك سنة ثمان وثلاثين، فنزل في الأنبار) كما ورد في مروج الذهب ٢/٤١٥، وبيَّن لهم أمير المؤمنين أن حرب معاوية وجنده أهمّ من حرب الخوارج، ومن بين ما قال عليه السلام: (فسيروا إلى القاسطين، فهم أهمُّ علينا من الخوارج، سيروا إلى قوم يقاتلونكم كي ما يكونوا جبَّارين يتَّخذهم النَّاس أربابًا، ويتَّخذون عباد الله خَوَلاً ومالهم دُوَلاً)، ولكنَّهم عارضوه هذه المرَّة أيضًا، وأشاروا عليه بحرب الخوارج أولاً إذ إنهم لا يستطيعون الذهاب إلى حرب معاوية ويتركونهم من ورائهم فيعتدون على ما خلَّفوه، فنزل أمير المؤمنين عند رأيهم.

وحينما أزمع المسير عليه السلام إليهم سنة تسع وثلاثين قال له أحد أصحابه وكأنه يتكهّن بالنجوم: (يا أمير المؤمنين إن سرت في هذا الوقت خشيتُ أن لا تَظْفَرَ بمرادِكَ، من طريق علم النُّجوم)، فحذّره عليه السلام من التكَهُّن بالنجوم، كما حذّر أصحابه إلا أن يكون مما يهتدى به في برٍّ أو بحر قال، وهو في النهج ٢٠٢: (أتزعَمُ أنّك تَهْدِي إلى الساعةِ التي من سار فيها صُرِفَ عنه السُّوءُ؟ وتُخَوِّفُ من السّاعة التي من سارَ فيها حاقَ به الضُّرُّ؟ فمن صدَّقَ هذا كَذَّب القرآنَ، واستغنَى عن الإعانة بالله في نَيْلِ المحبوبِ ودَفْعِ المكروهِ، وتبتغِي في قولكَ للعاملِ بأمرِكَ يُوَلِّيَكَ الحمدَ دون ربِّه، لأنّك بزعمِك أنتَ هَدَيْتَهُ إلى السّعة التي نال فيها النّفعَ وأمِنَ الضُّرَّ! ثمَّ أقبل عليه السلام على النّاس فقال: أيُّها النّاس، إيّاكم وتعلُّم النُّجوم، إلاّ ما يهتدَى به في برٍّ أو بحرٍ، فإنَّها تدعو إلى الكهانةِ، والمنجِّمُ كالكاهنِ، والكاهنُ كالسّاحِرِ، والسّاحِرُ كالكافرِ! والكافرُ في النارِ. سيْرُوا على اسمِ الله).

وسار بجنده إلى النهروان، وكان عليه السلام على بيِّنة بمجريات تحرُّك الخوارج ونهاية تجمُّعهم، وحين أخبره بعض جنده بعبورهم قنطرة طبرستان (بين حلوان وبغداد من بلاد خراسان) أقسم لهم الإمام أنهم لن يعبروها، وأن مصارعهم دونها وأنه لا يفلت منهم إلاّ عشرة، ولا يقتل من جيشه عشرة (وحينما أشرف عليهم وقد عسكروا بالموضع المعروف بالرميلة على حسب ما قال لأصحابه عليه السلام، فلمّا أشرف عليهم قال: الله أكبر صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم) كما روى المسعودي في المروج ٢/ ٤١٦، وجاء على لسانه في النهج ١٨٠ - ١٨١: (مصارعهم دون النُّطفَةِ، والله لا يفلِتُ منهم عَشَرَةٌ، ولا يهلك منكم عَشَرَةٌ).

ولما قارب جمعهم أرسل إليهم الحارث بن مرّة العبدي يدعوهم إلى الرجوع عن غيِّهم ولكنهم قتلوه، وبعثوا إلى الإمام: (إن تبت من حكومتك وشهدت على نفسك بالكفر بايعناك، وإن أبيت فاعتزلنا حتى نختار لأنفسنا إمامًا فإنّا منك براء)، كما ذكر المسعودي في مروجه ٤١٥/٢، فكان جوابه لهم: (أصابكُم حاصِبٌ، ولا بَقِيَ منكم آبِرٌ؛ أبعد إيماني باللهِ وجهادي مع رسول الله أشهدُ على نفسي بالكُفرِ؟ لقد ضَلَلْتُ إذًا وما أنا من المُهتَدِينَ! فأُوبوا شرَّ مآبٍ، وارجِعُوا على أَثَرِ الأعقاب، أما إنّكم ستَلْقَوْنَ بعدي ذُلاًّ شاملاً وسيفًا قاطِعًا، وأَثَرَةً يتَّخِذُها الظّالمونَ فيكُم سُنَّةً) كما ورد في النهج ١٧٩ - ١٨٠. ويبدو أنه حين تصافَّ الجمع خطب فيهم عليه السلام خطبة زلزلت كيانهم إذ قال فيها كما ورد في النهج ١٥٩: (..فأنا نذيركم أن تُصبِحوا صرعى بأثناءِ هذا النّهر، وبأهضام هذا الغائط على غيرِ بيّنةٍ من ربِّكم، ولا سلطانٍ مبينٍ معكم: قد طوَّحتْ بكم الدَّار، واحتَبَلَكُم المِقدار، وقد كنتُ نهيتكُم عن هذه الحكومةِ فأبيتُم عليَّ إباء المُخالِفِين المُنابذين، حتى صرفتُ رأيي إلى هواكم، وأنتم معاشِرٌ أخِفَّاء الهام، سُفهاء الأحلام، ولم آتِ - لا أبا لكم - بُجْرًا، ولا أردتُ لكم ضُرًّا).

ثم أن أمير المؤمنين عليه السلام قال لهم: (ابعثوا إليَّ بقتلة إخواني فأقتلهم، ثم أنا تارككم إلى أن أفرغ من قتال أهل المغرب، ولعلَّ الله يُقَلِّبُ قلوبكم، فبعثوا إليه: كلنا قتلة أصحابك، وكلُّنا مستحِلٌّ لدمائهم مشتركون في قتلهم) كما ذكر المسعودي في مروجه ٤١٦/٢، وذكر أيضًا أن الإمام لم يعدم الوسيلة بنصحهم فدعاهم إلى الرجوع والتوبة، فما كان منهم إلاّ رمي أصحابه، فقيل له: (قد رمونا، فقال كفوا، فكرَّروا عليه القول ثلاثًا، وهو يأمرهم بالكفِّ، حتى أتي برجل قتيل متشحِّطٍ بدمه، فقال عليٌّ: الله أكبر،

الآن حلَّ قتالهم، احملوا على القوم، فحمل رجل من الخوارج على أصحاب عليٍّ، فجرح فيهم، وجعل يغشى كلَّ ناحية، ويقول:

ألبسته أبيضَ مَشْرفيًّا أضربهم ولو أرى عليًّا

فخرج إليه علي رضي الله عنه، وهو يقول:

إنّي أراك جاهلاً شقِيًّا يا أيُّهذا المبتغي عليًّا

هلُمَّ فابرز هاهنا إليًّا قد كنت عن كفاحه غنيًّا

وحمل عليه عليٌّ فقتله.

ثم خرج منهم آخر، فحمل على الناس، ففتك فيهم، وجعل يكرُّ عليهم وهو يقول:

ألبسته بصارمي ثوب غَبَنْ أضربهم ولو أرى أبا الحسن

فخرج عليه عليٌّ وشكَّه بالرمح، فانصرف علي وهو يقول: لقد رأيت أبا الحسن فرأيت ما تكره)، وذكر المبرِّد في كامله ٣/ ١١٠٥: (كان مقدار من أصاب علي صلوات الله عليه منهم بالنهروان ألفين وثمانمائة في أصح الأقاويل، وكان عددهم ستة آلاف، وكان منهم بالكوفة زهاء ألفين ممن يُسِرُّ أمره ولم يشهد الحرب، فخرج منهم رجل بعد أن قال علي رضوان الله عليه: ارجعوا وادفعوا إلينا قاتل عبد الله بن خبَّاب، فقالوا: كلنا قتله وشرك في دمه ثم حمل منهم رجل على صفِّ علي، وقد قال علي: لا تبدؤوهم بقتال، فقتل من أصحاب علي ثلاثة، وهو يقول:

أقتلهم ولا أرى عليًّا ولو بدا أوجرتُهُ الخَطِّيًّا

فخرج إليه عليٌّ صلوات الله عليه فقتله، فلمَّا خالطه السيف قال: حبذا الروحة إلى الجنَّة، فقال عبد الله بن وهب: ما أدري إلى الجنَّة أم إلى النار؟

فقال رجل من بني سعد: إنما حضرت اغترارًا بهذا، وأراه قد شك، فانخزل بجماعة من أصحابه، ومال ألف إلى ناحية أبي أيوب الأنصاري، وكان رحمه الله على ميمنة علي، وجعل الناس يتسللون، وقد قال علي: وقيل له: إنهم يريدون الجسر، فقال: لن يبلغوا النُّطفة، وجعل الناس يقولون له في ذلك حتى كادوا يشكُّون، ثمَّ قالوا قد رجعوا يا أمير المؤمنين، فقال: والله ما كذبت ولا كُذّبت، ثم خرج إليهم في أصحابه، وقد قال لهم: إنه والله ما يُقْتلُ منكم عشرة، ولا يُفلت منهم عشرة، فقُتِل من أصحابه تسعة، وأفلت منهم ثمانية). وروى المبرِّد في كامله ١١٠٧/٣ أيضًا: (ومن شعر علي بن أبي طالب الذي لا اختلاف فيه أنه قاله، وأنه كان يردده أنهم لمّا ساموه أن يقرَّ بالكفر ويثوب حتى يسيروا معه إلى الشام قال:

يا شاهد الله عليَّ فاشهدِ أني على دين النبي أحمد

من شكَّ في الله فإني مهتدِي)

وروى أحمد في ٤٥٧ برقم ٣٥٥ بسنده عن أبي الوضيء قال: (شهدت عليًا حيث قتل أهل النهروان قال: التمسوا لي المخدج. فطلبوه في القتلى، فقالوا ليس نجده. فقال: ارجعوا فالتمسوه، فوالله ما كذبت ولا كُذبت، فرجعوا فالتمسوه، فردّ ذلك مرارًا، كل ذلك يحلف بالله ما كذبت ولا كُذبت، فانطلقوا فوجدوه تحت القتلى في طين، فاستخرجوه، فجيء به فقال: أبو الوضيء: فكأنّي أنظر إليه حبشيًّا عليه ثديان، إحدى يديه مثل ثدي المرأة عليها شعرات مثل شعرات تكون على ذنب اليربوع).

وذكر المبرِّد في كامله ١١٤٣/٣ -١١٤٤ رواية عن الإمام عليه السلام أنه طلب من أصحابه أن يبحثوا بين القتلى عن المخدّج، وبحثوا، وكادوا

ييأسون من البحث، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله قد أخبره عنه كما سبق ذكره، فلمّا وجدوه سجد الإمام وقال: (ما كذبت ولا كُذّبت). وزاد ابن عبد ربّه في عقده ٢/٤١٧ أن الإمام عليه السلام انتهى في البحث عنه (إلى قتلى بعضهم فوق بعض، فقال: افرجوا ففرجوا يمينًا وشمالاً واستخرجوه، فقال عليّ رضي الله عنه: الله أكبر ما كذبت على محمد)، ثم ذكر صفته.

وظنَّ أصحابه أنَّ الخوارج قُتلوا جميعهم، فقالوا كما جاء في النهج ١٨١ : (يا أمير المؤمنين، هلك القوم بأجمعهم! قال عليه السلام: كلاّ واللهِ إنَّهم نُطَفٌ في أصلابِ الرِّجالِ، وقَراراتِ النِّساءِ كلَّما نَجَمَ منهم قَرْنٌ قُطِعَ، حتَّى يكونَ آخرُهم لُصُوصًا سلاَّبين).

وبعد أن قسّم أمير المؤمنين سلاحهم ودوابَّهم على جيشه ردَّ متاعهم وعبيدهم إلى أهليهم، وذكر المسعودي في المروج ٢/٤١٨ أن أمير المؤمنين خطب فيهم وقال: (إنَّ الله قد أحسن إليكم، وأعزَّ نصركم، فتوجَّهوا من فوركم هذا إلى عدوّكم)، ولكنَّ الأشعث بن قيس اعترض هذا اليوم أيضًا وقال: (يا أمير المؤمنين قد كلّت سيوفنا، ونفدت نبالنا، ونصلت أسنَّة رماحنا، فدعنا نستعدّ بأحسن عدَّتنا، فعسكر عليٌّ بالنخيلة)، وبدأ أصحابه بالتسلُّل من معسكره عليه السلام حتى لم يبق معه إلا نفر يسير، كما ذكر المسعودي، فاضطر إلى العودة بهم إلى الكوفة.

الإمام في سنيّه الأخيرة

المناوشات الأخيرة

كانت أخبار الكوفة بمسمع من معاوية، فجواسيسه وعيونه قد انتشروا بين قبائلها ينقلون إليه أخبارها أوّلاً بأوّلٍ، وبعد انتهاء يوم التحكيم بالطريقة التي سبق ذكرها أمسك معاوية بورقة ما كان يحلم بها، فكلا الحكمين خلع عليًّا عليه السلام، بينما هو خلعه أحدهما ومنحه الآخر صفة خليفة وطالب ببيعته، وزوّده بوثيقة تعطيه الحقّ بالثأر لعثمان، فبدأ بالخروج من الشام إلى البلاد التي تحت حكم الإمام عليه السلام يقضمها قضمًا ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، أو يروّع أهلها بالقتل والسلب إن هم أصرّوا على البقاء على بيعة الإمام، أو كانوا من أتباعه أو من شيعته.

وكانت مصر تحت ولاية أمير المؤمنين عليه السلام، كما ذكر المسعودي في مروجه ٤٢٠/٢ واليعقوبي في تاريخه ٩٥/٢ وغيرهما، وقد ولّى عليها قيس بن سعد بن عبادة، وعزله بعد خديعة حبك خيوطها وأشاعها معاوية مفادها أن قيسًا قد بايع معاوية، وعلى الرغم من أن خديعته لم تنطل على أمير المؤمنين فإن عبد الله بن جعفر سوّغ عزله وتولية محمد بن أبي بكر مكانه كما ذكر الطبري في تاريخه ٢٥٤/٤ من طبعة الأعلمي، ونصحه قيس عند وصوله بما يجنّبه حيل معاوية، وما يمكن أن يقع له من الجماعة التي امتنعت عن بيعة الإمام ولكنها لم تعلن الحرب عليه، إلاّ أنه لم يأخذ بنصيحة قيس، ولم يحسن الظنّ به، وقاتل أهل خربتًا، فخرج عليه معاوية بن حُديج الكندي

ودعا إلى الطلب بدم عثمان فأجابه قوم من المصريين حتى فسدت مصر عليه، كما ذكر الطبري في تاريخه أيضًا ٣٥١/٤ من طبعة الأعلمي، ويبدو أن اليمانيين ما كانوا على وفاق معه أيضًا، وحينما شعر الإمام عليه السلام بضعف محمد بن أبي بكر، وممالأة اليمانية معاوية وعمرو ابن العاص، كان بين أن يعيد قيسًا أو يبعث مالكًا الأشتر النخعي واليًا عليها، وفي سنة ثمان وثلاثين للهجرة بعث مالكًا على الرغم من شديد حاجته إليه، وكتب إلى أهل مصر رسالة جاء فيها: (إني بعثت إليكم سيفًا من سيوف الله لا نابيَ الضربة، ولا كليل الحدِّ، فإن استنفركم فانفروا، وإن أمركم بالمقام فأقيموا، فإنه لا يقدم ولا يحجم إلاّ بأمري، وقد آثرتكم به على نفسي)، كما روى اليعقوبي في تاريخه ٩٥/٢، وهي لا تبتعد عنها في تاريخ الطبري ٣٥٢/٤ وزوَّده بعهده الذي سنقف عليه، وهو من أطول عهوده عليه السلام، وأكثرها أهميَّة.

دستور الإمام في عهد مالك

ومن شاء التعرف على نهج الإمام عليه السلام من قرب فلابد أن ينظر في عهده لمالك الأشتر حينما بعثه واليًا على مصر، ولابد من النظر أيضًا في أغلب كتبه ورسائله وخطبه ووصاياه، وفي حكمياته التي مازالت معينًا لا ينضب للكتاب والمفكرين ودعاة الإصلاح، فما أكثر ما وقفت على كلماته اللامعات عند هذا الكاتب أو ذاك الخطيب، زوَّق بها كلامه وحلاَّه، وكان الله شاء أن يبقى كلامه عليه السلام المصدر الثالث للبيان والتشريع بعد القرآن وكلام الرسول صلوات الله عليه، وسيجد في ذلك النهج ما لا يحتاج بعده أن تأخذه الدهشة بما حقّقته الشعوب المتقدّمة لأممها.

أما الأشتر فقد أوصاه بوصايا خاصة وعامة، هي عين الوصايا التي ألزم بها ولاته في الأمصار الأخر، تدور جميعها حول الترغيب والترهيب في الدائم الذي يكفل الخلود في الدارين، وحول القيم التي تهدف إلى إسعاد الإنسان ورقيّه، وإلى إشاعة الرحمة والعدل في مجتمعه، وتحقيق العيش الكريم له.

وإذا كانت دنيا القوم لا تساوي عنده عفطة عنز، فلأن الدنيا التي أحبها وتشوّفها دنيا فاضلة، لذا أهان دنياهم بصورة لم يألفوها من قبل، أهانها بكلّ وسيلة ممكنة قولاً وعملاً وسلوكًا، وقد رأيناه وهو أمير المؤمنين لا يقدم النصح للآخرين فحسب، وإنما كان يعمل، ويقدم كلّ عمله للمجتمع الذي سعى لإسعاده، لقد رأينا ما فعل بعين أبي نيزر، فبعد أن دبّت فيها الحياة بفعل معوله وهو خليفة المسلمين أوقفها على فقراء المدينة، علمًا أنها تساوي

مبلغًا كبيرًا يمكنك تصوَّره إذا علمت أن معاوية دفع فيها ما يكفي لبناء مدينة من مدن ذلك العصر الكبيرة أو العصور التي تلته، ولك أن تتصوَّر ما كان يفعله قبل تولّيه الخلافة.

وإيَّاك أن يراودك الشك في ذلك العهد، أو يحاول أن يشكّك به أحد، وإن راودك أو حاول فما أيسر دفع الشك لأنَّ لغة الإمام في خطبه ووصاياه لا يستطيع أن يطاوله فيها أحد مهما بلغت درجته في فنِّ القول، وبإمكانك استخراج جميع ما ورد فيه من خطبه ورسائله ووصاياه الأخر عليه السلام.

كان يريد من مالك وغيره من عمَّاله أن يكونوا خلقًا آخر، وهو أمرٌ متعذّر في كلِّ الحقب والأزمان، يريد منهم كلَّ شيء ولا يعطيهم أيَّ شيء باستثناء الحقِّ الذي يتساوون فيه مع غيرهم، لأنَّ ذلك واجب يؤديه المكلّف، وثوابه عند الله، ولو نظرت في كلِّ ما أراده من مالك، لرأيت شيئًا عجبًا من ذلك القائد الهمام الذي استمع بأذن صاغية لكلِّ تلك المطالب ولم يسأل إمامه عن مكافأته إذا التزم بتطبيقها، وكأنه يعلم علم اليقين أنه يشارك بتأسيس عدالة سماوية على الأرض، وأنَّ ما سيجنيه يفوق كلَّ مكاسب الحياة، وهو الخلود في الدارين، وهكذا كان صحابته الأبرار.

– أراد من مالك أن يكون مثالاً للتقوى والورع ومكارم الأخلاق واتباع سنن الحق والرحمة والحق والعدل، وأمره أن يتمكن من زمام نفسه حتى يكسر غيّها، وينتصف منها في ما تحب وتكره، لأنها أمَّارة بالسُّوء.

– وأمره أن يكون أحب ما يدخره لنفسه العمل الصالح، وأن يملأ قلبه برحمة الرعية ومحبتهم، وأمر مثل هذا يحتاج إلى رجل لا يكون سبعًا ضاريًا لا يفكر إلا بنهش لحم طرائده، ولم يكن عليه السلام حينما يأمر بشيء يسير على ما

يخالفه إذ إن أوامره التي آمن بها هي دستوره الذي انتهجه وعمل به، وأراده وتمناه للبلاد والعباد، كي يعمهما الخير ولأمن والرفاه.

– وتتجلى صورة أعظم عدالة عرفتها دساتير العالم المتحضر اليوم بعهده في عدم التفريق بين الناس من كل الأجناس والأديان والملل والنحل، لأن الخلق عند الإمام خلق الله، وكلهم من آدم، وكل منهم للآخر إما أن يكون أخًا في الدين، أو نظيرًا في الخلق، وهي رؤية لم تستطع البشرية أن تحققها حتى الساعة، فمازال اللون أو الجنس أو العرق أو الدين يتحكم بالسلوك الإنساني، ولم تستطع الأمم حتى الآن التخلص من عقد لا حصر لها استطاع الإمام نزعها بضربة واحدة، الخلق أخوة في الدنيا، يتساوون في الحقوق، ومال الأمَّة مالهم يوزع عليهم بالسويَّة، أما التفاضل فهو حساب الآخرة.

– ورحمة الخلق فوق العدل عند الإمام، فغلَّبها عليه حيثما استطاع، وتمنَّى على الحاكم أن يغلبها ما وجد إلى ذلك سبيلاً، فإن زلَّ أحد من الرعيَّة أو أخطأ أو تعمد الخطأ، فإن عليه أن يكون في عفوه وصفحه مثل الذي يرجوه من عفو الله وصفحه، فإن لم يفعل فإن الله لا تخفى عليه خافية، أي: أن القانون نص جامد لا روح فيه، والذي يمنحه الروح والحيوية من يقوم عليه، فإذا لم تتمثل فيه الصفات السامية أساء تفسيره، وحوَّله من وسيلة ثواب بكل الصور إلى عصا عقاب، لأن نية المشرِّع على الدوام هي نيَّة حسنة، فإذا ساءت نيَّة المنفذ انهار عمل المشرِّع، ومن بين ما قال: (وأشعِرْ قلبكَ الرَّحْمَةَ للرعيَّة، والمحبَّةَ لهم، واللُطْفَ بهم، ولا تكونَنَّ عليهم سبعًا ضارِيًا تَغْتَنِمُ أكلَهم فإنهم صِنْفانِ: إما أخٌ لكَ في الدِّينِ أو نظيرٌ لك في الخلقِ، يفْرُطُ منهم

الزَّللُ، وتعرِضُ لهم العِلَلُ، ويؤتَى على أيديهم في العَمْدِ والخطأ، فأعْطِهِم من عفوك وصفحِكَ مثل الذي تُحِبُّ أن يُعْطِيكَ الله من عفوهِ وصفحِهِ ...).

– والحاكم العدل هو الذي ينصف الناس من نفسه ومن خاصَّته، وممن أحبه من رعيَّته، فإذا لم يفعل فإنه لم ينصف الله، ويكون قد ظلم نفسه، وويل لم يظلم الناس، فإن الله خصمه، ومن خاصمه الله كان له حربًا إلى أن يتوب أو يموت، فإن لم يفعل فإن عاجل نقمة الله واقعة على من يقيم على الظلم، ومن بين ما قال عليه السلام: (أنْصِفِ الناسَ من نفسِكَ ومن خاصَّةِ أهلِكَ، ومن لكَ فيهِ هَوًى من رعيَّتِكَ، فإنَّكَ إلاَّ تفعل تَظْلِم! ومن ظلم عبادَ الله كان اللهُ خَصْمَه دونَ عبادِهِ، ومن خاصمَهُ الله أدحَضَ حُجَّتَهُ، وكانَ حربًا للهِ حتَّى ينزِعَ أو يتوبَ. وليسَ شيءٌ أدعَى إلى تغييرِ نِعْمَةِ الله وتعجيلِ نِقْمَتِهِ من إقامَةٍ على الظلمِ فإن الله سميعٌ دعوة المضطَهَدِينَ وهو للظالمينَ بالمرصاد ...)

– والوسطية في الحكم هي نهج الحاكم العدل الذي ينبغي أن يسير عليه، ولا يحيد عنه، بحيث تكون أحب الأمور إليه أوسطها في الحق، وأعمها في العدل، وأجمعها لرضى العامة من الرعية، لأنهم عماد الدين، وإجماع المسلمين، والعدة للأعداء، فوجب عليه أن يصغي لهم، ويميل معهم، ومن بين ما قال عليه السلام: (وليكُن أحبُّ الأمورِ إليكَ أوسَطَها في الحقِّ، وأعَمَّها في العدلِ، وأجمَعَها لرِضَى الرعِيَّةِ، فإنَّ سُخْطَ العامَّةِ يُجْحِفُ برِضَى الخاصَّة، وإنَّ سُخْطَ الخاصَّة يُغْتَفَرُ مع رضى العامَّة، وليس أحدُ من الرَّعيَّة أثقَلَ على الوالي مؤونةً في الرَّخاء وأقلَّ معونةً له في البلاءِ، وأكرهَ للإنصافِ، وأسأل بالإلحاف وأقلَّ شكرًا عِندَ الإعطاءِ، وأبطأ عُذرًا عند المنع، وأضعفَ صَبرًا

عند ملمَّات الدَّهر من أهلِ الخاصَّةِ، وإنما عماد الدين وجِماعُ المسلمين والعِدَّةُ للأعداءِ العامَّةُ من الأمَّة، فليكن صَغْوُكَ لهم، وميلُك معهم ...).

— وليس للحاكم أن يبحث عن عيوب الناس ويتجسَّسَ عليهم، إذ لم يكلَّف ببحث الخافي منها، بل عليه أن يستر عوراتهم ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، كي يستر الله ما خفي من عيوبه، ويحاول تطهير الظاهر منها، أما ما غاب فإن حسابه عند الله.

— والحاكم العدل هو الذي يحسن السيرة كي يزيل من النفوس الأحقاد والكراهية، وذلك بالتغابي عن كل ما لا يصلح أن يتدخل فيه، وعليه أن يتحرَّى ولا يتعجَّل بتصديق كل ساع، فإنه غاشٌّ وإن تلبس في لبوس الناصحين.

— وعليه حينما يشاور لا يشاور أصحاب الغرائز التي يجمعها سوء الظن بالله كالبخل والجبن والحرص، لأن البخيل يبعده عن الفضل ويخوفه الفقر، والجبان يهون من عزيمته في مواجهة الأمور، والحريص يزين له الرغبة بالجور، ومن بين ما قال عليه السلام: (أطْلِقْ عن الناسِ عُقْدَةَ كلِّ حقدٍ، واقطعْ عنك سَبَبَ كلِّ وِترٍ، وتغابَ عن كلِّ ما لا يَصِحُّ لك ولا تعجَلَنَّ إلى تصديقِ كُلِّ ساعٍ، فإن السَّاعيَ غاشٌّ، وإن تشبَّهَ بالناصحينَ، ولا تُدْخِلَنَّ في مشورَتِك بخيلاً يعدِلُ بكَ عن الفضل ويعِدُكَ الفقرَ، ولا جبانًا يُضْعِفُكَ عن الأمورِ ولا حريصًا يُزَيِّنُ لك الشَّره بالجَورِ، فإن البخلَ والجبنَ والحرصَ غرائزُ شتَّى يجمعها سوء الظَّنِّ بالله!!!...).

— وعليه اختيار من عرف بالنزاهة والعدل والرأفة ورجاحة العقل، وأن يتخذهم أخلاء لخلوته يستشيرهم، ويستنير بآرائهم ويستعين بها، شريطة أن يكونوا من أكثر الناس ورعًا وتقوى، ويكون أقرب هذه النخبة إلى نفسه

أقدرهم على قول مرِّ الحق أمامه، والحذر من اختيار وزراء أشرار الحكّام، لأنهم سيكونون شرَّ الوزراء.

– وكم من حاكم فسد بسبب فساد بطانته التي تكيل له المدح والثناء في مناسبة وغير مناسبة، وتنسب له ما لم يقم به من صالح الأعمال، لذا فإن على الحاكم العدل تعويد بطانته على عدم مدحه وإطرائه، فيلتفت لهذا الأمر ويحاسب عليه، وهكذا يجنب نفسه الوقوع في فخ السلطة ومكائدها، ويجنب خاصته الوقوع في حبائل الكذب والنفاق من أجل نعيم زائل.

– والحاكم العدل هو الذي لا يساوي بين المحسن والمسيء من موظفيه وعماله ومستشاريه، فيكونا عنده بمنزلة واحدة، فكل يجازى ويحاسب بحسب عمله، فإن لم يفعل فإن ذلك سيؤدي حتمًا إلى تزهيد أهل الإحسان بالإحسان، وتشجيع أهل الإساءة على الإساءة.

– وحسن ظن الحاكم برعيته يترجمه إحسانه إليهم، وذلك بتخفيف ما يثقل كاهلهم، كي يكسب مودتهم، وينال رضاهم وطاعتهم، وذلك بسبب حسن الظن المتبادل بينه وبينهم.

– وعليه أن يحافظ على كل سنَّة صالحة سنها من سبقه، فكانت سببًا لاجتماع الكلمة وصلاح الأمة، وألاَّ يحدث سنَّة تكون سببًا من أسباب تفرقها وإلحاق الضرر بتلك السنة الحسنة، وبهذا يكون الأجر للسابق والوزر على اللاحق.

– والتشاور من أسس الحكم، وعلى الحاكم العدل عدم الاستئثار بالأمر كله، وإنما يكثر من مشاورة أولي الرأي والمشورة من العلماء والحكماء، لتثبيت السنن الصالحة التي تديم استقامة الأمة، أو اقتراح ما يصلحها ويسعدها ويغنيها ويجنبها الفقر والحاجة، مما يضطر بعضها إلى ارتكاب الكبائر من الأعمال.

– والرعية حلقات كالجيش، والشرطة، والإدارة، والقضاء، والضريبة، والتجارة، والصناعة، وأصحاب الحاجات من فقراء ومساكين، أو عاطلين عن العمل، وكل شريحة منها في حاجة إلى الأخرى، وجميعها في حاجة إلى الوعي والمتابعة، على أن يكون وعيًا في حسن ظن، ومراقبة بدون جور.

– فالجيش الذي هو حصن الوطن وعزه وقيام أمنه لا يقوم إلا بما يقوِّم أوده من مال ومتاع، ولا مصدر للمال إلا من الحقوق، والحقوق لا تجمع إلا بالقضاة والعمال والكتاب، وكلٌّ ينبغي أن تتوفّر فيه الأمانة والعدل والرأفة وحسن التقدير وسعة الأفق.

لذا فإن عليه أن يحسن اختيار القادة لجيشه ممن عرف بالأمانة والفضل والحلم والمروءة والحسب الصالح والسابقة الحسنة، ومن أهل النجدة والشجاعة والسخاء والسماحة والشدة على المعتدين كي يكفوا أيديهم عن الظلم والاعتداء.

وعليه أن يتعهد جيشه ويتفقده، وأن يكون أقرب قادته إليه من آثر جنده وواساهم بما يسعهم ويسع من ورائهم، ممن يعرف لكل امرئ حقه فلا ينسب بلاءه وإحسانه لغيره، وأن يواصل حسن الثناء عليهم، لأن كثرة الثناء تهز الشجاع، وتحرض المتخاذل، فتسلم بذلك صدورهم، ويسلم الكل لراعيهم، وبذا يسلم الوطن ويعيش أهله في أمن وطمأنينة من هجوم طامع أو معتدٍ، وكل هذا لا يتم بصورة صحيحة إذا لم يردَّ الحاكم كل شيء إلى الله بالأخذ بما جاء في محكم كتابه، وإلى الرسول بالأخذ بسنَّته الجامعة في ما يشتبه عليه.

– وعليه أن يختار للإدارة أفضل الرعية في نفسه ممن تتوافر فيه كل صفات المروءة، بحيث لا يستميله إغراء أو مديح أو إطراء، ولا يخاف من ترهيب ولا

يطمعه ترغيب، ومثل هذا ينبغي أن يكون عنده بمنزلة لا تسمح لخاصته أن تطمع به، وعليه أن يبذل له من المال ما يسد حاجته ولا يحوجه إلى أحد، والإمام عليه السلام على بينة أن مثل هؤلاء قليل.

وإذا أراد اختيار موظفيه اختارهم على أسس لا تعرف المحاباة والإثرة، بحيث يكون المختار مثالاً لتطبيق قيم العدل والرحمة وحسن التصرف، وعليه أن لا يبخل عليهم، لأن في ذلك قوة لهم على استصلاح نفوسهم، وابتعادهم عن خيانة ما تحت أيديهم، وهو من بعد حجة عليهم إن فكروا بخيانة، وعليه ألا يكتفي بحسن الظن بهم، وإنما يجب أن يتفقد أعمالهم من خلال عيون من أهل الصدق والوفاء والعدالة، فإن تأكدت عنده خيانة أحدهم عاقبه بما يستحقه ووسمه بميسم الخيانة، وقلده عار التهمة.

– ولابد لموارد الدولة أن يتولاها من يتعهدها بالصلاح والإصلاح، وذلك لا يكون إلا بحسن التصرف والتدبير، وموازنة الأمور في أحوالها المختلفة، وعلى المتولي أن يعلم أن في صلاحها صلاح ما سواها، ولاسيما أن الدولة بكل مرافقها عيال عليها، وهو على بيِّنة أن تلك الموارد لا يمكن أن تزدهر وتتطوَّر وتزيد من عطائها إلا بصرف جزء منه على ما تحتاجه من إعمار وتطوير، إذ إن تركها على حالها سيؤدي إلى خرابها وإلى هلاك العباد، وبالتالي سوف لن يستقيم له أمر، وهي قضية تحتاج إلى وعي وتأمل وعدل وتخفيف مؤونة وثقة واعتبار، ومن بين ما قال عليه السلام: (وتفقّد أمرَ الخراجِ بما يُصْلِحُ أهلَهُ، فإن في صلاحِهِ وصلاحِهِم صلاحًا لمن سواهم، ولا صلاحَ لمن سواهم إلاّ بهم، لأنَّ الناس كُلهم عيالٌ على الخراجِ وأهلِهِ، وليكن نظرُكَ في عِمارة الأرض أبلغَ من نظرِكَ في

استجلابِ الخراج، ومَن طلب الخراجَ بغيرِ عِمارةٍ أخربَ البلادَ وأهلك العبادَ ...).

– والإدارات السرِّيّة في غاية الأهميَّة للدولة شريطة أن تتمثل بها أعلى درجات الإخلاص والوعي، وهذا لا يكون إلا إذا تمَّ اختيارها من بين أصحاب الفراسة وبعد النظر، ممن لا يبطره المنصب، ولا يجهل قدر نفسه، وممن عرف بحفظ الأمانة، وحسن التقدير لعواقب الأمور، وبعد الأثر في العامة قبل الخاصة، وإدارات من هذا النوع لا ينبغي أن يختارها الحاكم على أساس ميله وحسن ظنه، وإنما على أساس سوابق أعمال من تصدَّى لها، وحسن بلائهم، وعليه اختيار رأسٍ على كل إدارة هو من أفضل المتسببين لها.

– والصناعة والتجارة ركنان من أهم أركان اقتصاد البلد وإعماره وازدهاره، وهما في أمس الحاجة إلى سياسية واعية، وبعد نظر، ويد تمتد إليهما في كل مكان، لذا فإن عليه أن يديم رعايتهما، ويجاهد في سبيل رقيهما وأن يتعهدهما في داخل البلاد وخارجها، ولاسيما أن القائمين عليهما من الطبقات التي لا يخشى منها، ولكن من الواجب عليه مراقبتهما خوفًا من تفشي الاحتكار والغش، فإن حدث مثل هذا فعلى الإدارة المشرفة أن تنبه وتحذر، ثم بعد ذلك تعاقب وتنكل من غير إسراف.

– أما طبقة الضعفاء والفقراء وأصحاب الاحتياجات الخاصة، فهم الأهم في وصية الإمام عليه السلام، ويستحيل على غير الحاكم العدل أن يحققها، أو يفكر بتحقيقها بالصورة التي أرادها دستور الإمام، أراد من القائم بالأمر أن تخصص حصة في الخزينة لهم، بل حصة في كل مال يصل إلى بيت المال، وأراد أن يخصص حصة من وقته لهم، وأراد أن يدخل الأمن في نفوسهم عند

لقائهم، وأراد أن يصل إلى من لا يستطيع الوصول إليه، وأرد أن يأخذ الضعيف حقه من القوي كاملاً، لأنه عليه السلام سمع رسول الله صلى الله عليه وآله يقول في غير مناسبة: «لن تقدَّس أمةٌ لا يؤخذُ للضعيف فيها حقُّه من القوي غير متعتَعٍ»، وأراد وأراد وأراد، لأنهم من بين الرعية أحوج الناس إلى الإنصاف من غيرهم، وما أعظم قوله لولي الأمر مرغبًا بالثواب الجزيل عند الله (وتعهد أهل اليتم، وذوي الرقّة في السن ممن لا حيلة له، ولا ينصب للمسألة نفسه، وذلك على الولاة ثقيل، والحقُّ كلُّه ثقيل، وقد يخففه اللهُ على أقوامٍ طلبوا العاقبة فصبَّروا أنفسَهم، ووثقوا بصدقِ موعود الله لهم).

ـ والحاكم العدل هو الذي يعرف الله حقَّ معرفته فيلتزم بما فرضه عليه من فروض الليل والنهار، إذ إنه بإيمانه والتزامه سيمكنه من عدم التفريط بكل صغيرة أو كبيرة فرضها عليه المنصب الذي أوكل إليه بما في ذلك صلاته بجماعة المسلمين، فإن من واجبه إن أقامها أن يصلّيها كأضعف ما تكون عليه صلاة أضعفهم، لأن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه قال له عليه السلام حين وجهه إلى اليمن: «صلِّ بهم كصلاة أضعفهم، وكن بالمؤمنين رحيمًا».

ـ وعليه عدم الاحتجاب عن رعيته، لأن احتجابه إما أن يكون بسبب ضيق بهم، أو قلة علم بأمورهم، كما أن احتجابه يدفعهم إلى قالة تعظّم عندهم الصغير وتصغر العظيم، وتقبح الحسن وتحسن القبيح فيختلط الحق بالباطل، بل إنه إذا احتجب دونما مبرر فإنما يحتجب عن حق في واجب، أو فعل كريم رعيته في حاجة إليه، مما يوقعه في نفوس رعيته موقع الريبة فيكفوا عن مسألته، على الرغم من أن غالبيتها لا تكلفه مالاً أو مؤونة، ذلك لأن غالبيتها شكاة من هذا أو ذاك عليه إنصافهم فيها.

– ولبطانة الحاكم غير فقرة في دستور الإمام عليه السلام، فهو يحذره شرورهم وسطوتهم، وعليه أن يقطع أسباب تلك السطوة، إذ إن ما يسطون عليه لهم، وهو سيئة عليه في الدنيا والآخرة، ولا يكون له ذلك إلاّ باتّباع الحق مع القريب والبعيد، ومع القرابة والخاصة مهما كان الحقُّ ثقيلاً عليه، لأن مغبة اتباعه الحمد في الدارين.

– وعليه إذا ظنت الرعية به الظنون أن يخرج لها ويبين عذره، وبذا يعود نفسه على العدل والرفق، فيبلغ مبتغاه، وفي الوقت ذاته يقوي رعيته على اتباع الحق وطلبه، وهكذا لن يخاف المظلوم من ظالمه، لأن أبواب العدالة مشرعة يستطيع أن يصل إلى آخرها بكلٍّ يسر وسهولة.

– والحاكم الذي تهمه مصلحة رعيته لا يدفع صلحًا دعاه إليه عدوه، لأن في الصلح راحة للجند، وأمنًا للبلاد، على أن يتأهب ويتخذ كل الحذر منه، فربما اتخذ من الصلح وسيلة لطلب الغفلة كي يبيِّت له الغدر والخديعة مع الالتزام بقيم الإسلام مع عدوه فإن العهد ذمة وأمانة، وعليه حينما يعقد عهدًا أن تكون بنوده دقيقة واضحة لا تقبل التأويل، فإن عاهد التزم بعهده مهما كانت العواقب، ولا يحق له فسخ ما عاهد عليه بدون وجه حق.

– وعلى القائم بالأمر أيضًا أن يبني دولته على الحق والعدل والرحمة، وليس على سفك الدماء بدون وجهة حق، فإن السلطان الذي يقوّى بها آيل إلى زوال، ومن وراء ذلك حساب الله وعقابه، فإذا ابتلي الحاكم بدم خطأ فعليه ألا يتقوى بسلطانه، ولابد من تأدية الحقوق إلى أهلها، وعدم التعجُّل باتخاذ قرار قبل أوانه، والتعجيل به في وقته.

– وعلى القائم بالأمر عدم الوقوع في حبائل الشيطان فيعجب بنفسه، ويمن على رعيته بإحسانه، ويفخر أمامهم بأعمال لم يقم بها، فإن المنَّة تبطل الإحسان، والافتخار بما لم يكن يذهب بنور الحق، وعليه إن وعد رعيته وفَّى، لأن عدم الوفاء يوجب بغض العبد.

– وعليه عدم الاستئثار بشيء هو فيه كأحد رعيته، فإن ما يستأثر به اليوم سيؤخذ منه غدًا، فتنكشف الأمور وينتصف منه المظلوم، وعليه أن يملك نفسه وسطوة يده ولسانه عند الغضب، ولا يتخذ قرارًا إلا بعد سكون غضبه.

– وعليه أن يضع نصب عينيه كل حكم عادل مضى، أو سنة حسنة مرَّت، أو أثر عن النبي صلى الله عليه وآله، أو فريضة في كتاب الله فيتقي ويقتدي.

وإذا كنت قد أوجزت عهده عليه السلام إيجازًا لا يتناسب مع عظمة ما جاء فيه معنًى ولغة وبلاغة، فلكي لا أقطِّعه لك فيفقد شيئًا من بريقه ولمعانه وقوَّة تأثيره في النفس، ولك أن تنظره بكامله في النهج ٦٢١–٦٤٩ وهو أطول عهوده وأشهرها، وأجمعها للمحاسن، وقد وقفت عليه أمَّة من الكتَّاب والمفكِّرين، شرحًا وإعجابًا وتحليلاً ومحاولة اقتداء.

صولات الباطل

استطاع معاوية إقناع أحد دهاقين العريش على الاحتيال في سمّ الأشتر، ووعده أن يتنازل له عن خراجه عشرين سنة، فلما وصل الأشتر العريش وكان صائمًا رضوان الله عليه ذلك اليوم أهداه الدهقان عسلاً مسمومًا ، فما أن استقرَّ في جوفه حتى فارق الحياة، وقال معاوية قولته الدَّنسة: (إن لله جندًا من العسل).

وحينما علم محمد بن أبي بكر بأمر عزله وتولية مالك مكانه شقَّ عليه الأمر، فكتب اليه أمير المؤمنين عليه السلام رسالة أبلغه فيها أنه إن نزعه من مصر فإنه سيوليه ما هو أيسر عليه، ولما كان الأشتر قد ذهب إلى جوار ربِّه فقد أبقى محمَّدًا على ولايته وأوصاه بالصبر على عدوِّه وكتب أيضًا: (وشمِّر للحرب، وادع إلى سبيل ربِّك بالحكمة والموعظة الحسنة، وأكثر ذكر الله، والاستعانة به، والخوف منه، يَكفك ما همَّك، ويُعِنك على ما ولاَّك، أعاننا الله وإيَّاك على ما لا يُنال إلاّ برحمته) كما ذكر الطبري في تاريخه ٣٥٣/٤ من طبعة الأعلمي، وكان ذلك في سنة ثمان وثلاثين للهجرة.

وبعد نتيجة التحكيم وذهاب الأشتر إلى جوار ربِّه قويت شوكة معاوية، وطمع ابن العاص باسترداد مصر بحسب الاتفاق الذي أبرمه مع معاوية، بل إن الاستيلاء على مصر يمثل نصرًا ماديًا ومعنويًا لهما، بسبب غزارة عائدها المادي الذي هو بأمسِّ الحاجة إليه لإنفاقه على باطله، ولسنا بصدد التأريخ لهذه الحقبة إذ إنه ليس همًّا كبيرًا من هموم البحث بقدر ما هو وسيلة من

وسائل عرض سيرة أمير المؤمنين عليه السلام لابد من عرضها، وعلى كلٍّ الأحوال فقد وجَّه معاوية ابن العاص إلى مصر سنة ثمان وثلاثين للهجرة بحسب الاتفاق في ما بينهما، وأرسل معه جيشًا في أربعة آلاف مقاتل، وأرسل معه معاوية بن خديج، وأبا الأعور السلمي، وقبل وصوله دارت حرب نفسيَّة كلها غشٌّ وخديعة بين معاوية وعمر بن العاص من جهة وبين محمد بن أبي بكر من جهة أخرى، فأرسلوا إليه رسائل كلّها تهديد ووعيد واتِّهام بالمشاركة في قتل عثمان، وانحازت فئة ليست قليلة من المصريين إلى جانب معاوية، فأرسل محمَّدًا رسالتي معاوية وعمرو بن العاص إلى أمير المؤمنين عليه السلام وأبلغه بما يدور من حوله، فبعث له أمير المؤمنين برسالة يوصيه ويلفت نظره بمن يستعين بهم من القبائل ويعده بالمدد السَّريع، وفي الوقت ذاته ثبت محمد بن أبي بكر ولم يرهبه وعيد معاوية وابن العاص ولا ترهيبهما فردَّ عليهما ردًّا شجاعًا كردِّ الواثق من النصر، وهيَّأ جيشه وانتدب كنانة بن بشر على مقدِّمته لمقاتلة ابن العاص وجنده، وبعد حرب طاحنة اجتمع أهل الشَّام على كنانة من كلِّ جانب فنزل (ونزل أصحابه وكنانة يقول: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَاباً مُؤَجَّلاً وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴾، فضاربهم بسيفه حتى استُشهِد رحمه الله)، ثم أقبل ابن العاص نحو محمد بن أبي بكر في موضع يقال له (المسنَّاة)، وقد تفرَّق عنه أصحابه لمَّا علموا بقتل كنانة وكان يوم المسنَّاة من أشدِّ الأيام على ابن العاص كما ذُكِرَ، ولكنَّه استطاع بما عرف به من غشٍّ وخديعة استمالة اليمانيَّة من جيش محمد بن أبي بكر، فتركوه وانحازوا إلى ابن العاص، فاضطر إلى الالتجاء إلى إحدى الخرائب، فأحاط

جيش ابن العاص بتلك الخربة، فقاتلهم قتال الأبطال إلى أن سقط وبه رمق، فأخذه معاوية بن خديج وعمرو بن العاص وغيرهما، ووضعوه في جيفة حمار وأوقدوا النار فيه، كما روى الطبري في تاريخه ٤/٣٥٨–٣٦٠ واليعقوبي في تاريخه ٢/٩٤–٩٥، فلمّا بلغ خبره معاوية أظهر الفرح والسرور، أما الإمام عليه السلام فقال حين علم بالخبر: (جزعُنا عليه قدر سرورهم، فما جزعت على هالك منذ دخلت هذه الحرب جزعي عليه). وأنت تستطيع تقدير مدى حزنه عليه السلام أيضًا على رحيل صاحبه مالك الذي كان له كما كان عليه السلام لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم، فقال في هذه الفاجعة كما ذكر اليعقوبي في تاريخه ٢/٩٧: (على مثلك فلتبك البواكي يا مالك، وأنّى مثل مالك؟ وذكر محمد بن أبي بكر وتفجّع عليه، وقال: إنه كان لي ولدًا ولولدي وولد أخي أخًا)، وهكذا سقطت مصر لقمة سائغة بيد ابن العاص.

ولم يتوقّف معاوية عند هذا الحدّ، وخاصّة بعد أن وصلته أخبار اختلاف أصحاب الإمام في ما بينهم، وانشغاله بأمر الخوارج، فحرّك جنده يعيثون في البلاد التي تحت حكم الإمام فسادًا، وجاهد أمير المؤمنين عليه السلام أن يثير عزائم أهل الكوفة ثانية كي يجمعوا أمرهم لقتال عدوّهم، ونصرة إخوانهم، وخطب فيهم مرّات ولكنّ ساكنهم لم يتحرّك، ولما بلغ به الغضب مبلغه خطب فيهم خطبة قرّعهم فيها غاية التقريع، وأبدى سخطه وحزنه من تقاعسهم، ومن بين ما قاله عليه السلام وهي في النهج ٢٦٥–٢٦٨: (...أيها الشّاهدة أبدانُهُم، الغائبةُ عقولُهم، المختلِفَةُ أهواؤهم، المبتلَى بهم أمراؤهم، صاحبكُم يطيعُ الله وأنتم تعصونَهُ، وصاحِبُ أهلِ الشّام يَعْصِي اللهَ

وهم يُطِيعُونَهُ!! لَوَدِدتُ واللهِ أن معاويةَ صارَفَني بكم صرْفَ الدِّينارِ بالدِّرهَمِ، فأخذَ منِّي عشرةً منكم، وأعطاني رجلاً منهم.

يا أهلَ الكوفة، مُنِيتُ منكم بثلاثٍ واثنتينِ: صُمٌّ ذَوُو أسماعٍ، وبكْمٌ ذَوُو كلامٍ، وعُمْيٌ ذَوُو أبصارٍ، لا أحرارُ صِدقٍ عند اللقاءِ، ولا إخوانُ ثقةٍ عندَ البلاءِ. يا أشباه الإبلِ غابَ عنها رُعاتُها، كُلَّما جُمِعتْ من جانبٍ تفرَّقت من جانبٍ آخر، والله لكأني بكم في ما إخالُ أن لو حَمِسَ الوغى، وحَمِيَ الضِّرابُ، وقد انفرَجتُم عنِ ابنِ أبي طالبٍ انفِراجَ المرأةِ عن قُبُلِها، وإنِّي على بيِّنة من ربِّي، ومنهاجٍ من نبيِّي، وإنِّي لعلى الطَّريقِ الواضحِ ألقُطُهُ لَقْطًا.

انظروا أهلَ بيتِ نبيِّكُم فالزَمُوا سمتَهُم، واتَّبِعُوا أثَرَهُم، فلن يخرجُوكُم عن هُدًى، ولن يعيدوكُم في رَدًى، فإن لَبَدُوا فالبُدُوا، وإن نهَضوا فانهَضوا، لا تسبقوهم فَتَضِلُّوا، ولا تتأخَّروا عنهم فَتَهْلِكوا.

لقد رأيتُ أصحابَ محمَّدٍ صلى الله عليه وآله، فما أرى أحدًا منكم يُشبِهُهُم! لقد كانوا يُصْبِحونَ شُعْثًا غُبْرًا، وقد باتوا سُجَّدًا وقِيامًا، يُراوِحون بين جِباهِهِم وخُدُدِهِم، ويقِفونَ على مثلِ الجمرِ من ذِكرِ معادِهم! كأنَّ بينَ أعيُنِهِم رُكَبُ المِعْزَى من طولِ سُجودِهِم! إذا ذُكِرَ الله هَمَلَتْ أعيُنِهِم حتَّى تَبُلَّ جُيُوبَهم، ومادوا كما يميدُ الشَّجرُ يومَ الرِّيحِ العاصِفِ، خوفًا من العِقابِ، ورجاءً للثَّوابِ)، ولكنَّ ساكنهم لم يتحرَّك أيضًا وبعد سقوط مصر بيد معاوية كاتب أمير المؤمنين عليه السلام ابن عمِّه عبد الله بن عباس واليه على البصرة، فخفَّ إليه واستخلف مكانه زياد بن أبيه، فاستغلَّها معاوية فرصة، وأرسل ابن الحضرمي إلى البصرة فنزل في تميم، وكادت البصرة تسقط بيده، واستطاع زياد بعد جهد أن يحفظ بيت المال باللجوء إلى صبرة بن شيمان

الحدَّاني، فحوَّل بيت المال والمنبر إلى مسجده، وتحوَّل معه خمسون رجلاً، وكتب إلى أمير المؤمنين يخبره بنزول ابن الحضرمي واستمالته الناس وخبَّره أن تميمًا وجلَّ أهل البصرة قد بايعوه، فوجَّه الإمام أعين بن ضُبيعة المجاشعي كي يفرِّق قومه عن ابن الحضرمي، فأتى زيادًا ونزل عليه، ثم جمع رجالاً من قومه، ونهض إلى ابن الحضرمي، ولكنَّ شوكته كانت هي الأقوى مما أدى إلى مصرع أعين، وكتب زياد إلى أمير المؤمنين يخبره بما فعله رسوله وبنهايته، فدعا أمير المؤمنين جارية بن قدامة السعدي ووجَّهه في خمسين رجلاً من تميم، واستطاع جارية محاصرة ابن الحضرمي ومن تابعه وأضرم عليهم النار وأحرقهم وهدَّم الدار التي لجأوا إليها كما ذكر الطبري في تاريخه ٤/٣٦٤–٣٦٧ من طبعة الأعلمي.

حكاية الخرِّيت بن راشد

وبعد التحكيم أيضًا وفي سنة ثمان وثلاثين أظهر الخرِّيت بن راشد بن ناجية الخلاف على أمير المؤمنين عليه السلام، وكان معه في صفيِّن والنهروان وكان معه ثلاثمائة رجل، وقال لأمير المؤمنين: (والله يا علي لا أطيع أمرك ولا أصلِّي خلفك، وإني غدًا لمفارقك)، فأجابه الإمام عليه السلام: (ثكِلتك أمك! إذًا تعصي ربَّك، وتنكُثُ عهدك، ولا تضرُّ إلاَّ نفسك. خبِّرني لم تفعل ذلك؟ قال: لأنَّك حكَّمت في الكتاب، وضعُفت عن الحقِّ إذ جدَّ الجد، وركنت إلى القوم الذين ظلموا أنفسهم، فأنا عليك زارٍ، وعليهم ناقم؛ ولكم مباين)، وحاول أمير المؤمنين ثنيه عن رأيه بما اعتاد عليه في مناقشة أصحابه وتبصيرهم وإرشادهم دونما ترهيب أو تخويف أو عقاب، فوعده أن يعود إليه ليستمع إلى ما يقوله في غد ذلك اليوم، ولكنَّه لم يعد على الرغم من محاولة

أحد أصحاب الإمام مع أصحاب الخريت، ولمّا كان الغد تبين أن الخرِّيت قد فارق الديار بجماعته، فأرسل الإمام من ورائه زياد بن خفصة لعلّه يعيده إلى صوابه، فجمع زياد أصحابه وسار بهم، وكان الخرِّيت قد اتَّجه بأصحابه نحو نِفَّر، وهي قرية من أعمال البصرة تقع اليوم بين الديوانية وعفك، والتقوا فيها دهقانًا يصلّي، فسألوه إن كان كافرًا أو مسلمًا فلما أخبرهم بإسلامه سألوه عن أمير المؤمنين فقال لهم: (إنه أمير المؤمنين وسيِّد البشر، فقالوا له: كفرت يا عدوَّ الله، ! ثم حملت عليه عصابة منهم فقطَّعوه، ووجدوا معه رجلاً من أهل الذمَّة، فقالوا: ما أنت؟ قال: رجلٌ من أهل الذمَّة، قالوا أما هذا فلا سبيل إليه) كما روى الطبري في تاريخه ٤/ ٣٧٠ من طبعة الأعلمي، فلما علم أمير المؤمنين بفعلته بعث إلى زياد بن خَصَفَة، وطلب منه أن يردّ الخرّيت وأصحابه إليه، وإن أبوا فلابد من مناجزتهم بعد مفارقتهم الحقَّ وسفكهم الدم الحرام، واستطاع ابن خَصَفَة أن يلحق بهم بعد أن بلغ الجهد منه مبلغه، فأخذهم بالحجَّة، وطلب منهم العودة، فلمَّا أبوا طلب منهم تسليمه قتلة الدهقان فلما أبوا ناجزهم مناجزة شديدة فلما جنَّ الليل تنحى الخرِّيت بمن معه فتابعهم ابن خصفة حتى بلغ البصرة، ولكن الخرِّيت بلغ الأهواز، والتحق به من الكوفة نحو مائتين، كما التحق به من التحق من أكراد تلك البقاع وعلوجها، فكتب زياد بن خصفة بما جرى لأمير المؤمنين، فندب معقل بن قيس في ألفين، وكتب إلى ابن عباس أن يبعث بألفي رجل يقودهم رجل شجاع من أهل الصلاح كي يلقى معقلاً، ودارت مناجزة أخرى، نجا فيه الخرِّيت واستطاع الهرب إلى سيف البحر، فأفسد عبد قيس ومن والاهم من سائر العرب بالحيلة والمكيدة، وكان قومه قد منعوا الصدقة عام صفّين وذلك

العام، وأسرَّ إلى من كان على رأي الخوارج أنه معهم، وأسرَّ إلى العثمانيَّة بأنه معهم أيضًا، ولمّا رأى أهل تلك البلاد اختلاف المسلمين ارتدوا عن الإسلام إلى نصرانيَّتهم، وانتدب أمير المؤمنين معقل بن قيس للمسير إلى الخرِّيت والجماعة التي ارتدَّت عن الإسلام، فقاتلهم قتالاً شديدًا واستطاع النعمان بن صُهْبان الراسبي قتل الخرِّيت، والخرِّيت عند المسعودي في المروج ٤١٩/٢ اسمه الحارث، وذكر تسريح أمير المؤمنين عليه السلام معقل بن قيس الرياحي، وقتله الحارث ومن معه من المرتدِّين بسيف البحر، وذلك بساحل البحرين، وذكر أن معقل بن قيس نزل (بعض كُوَر الأهواز بسبيٍ من القوم، وكان هنالك مصقلة بن هبيرة الشيباني عاملاً لعليٍّ، فصاح به النسوة: أمنن علينا، فاشتراهم بثلاثمائة ألف درهم، وأدّى من المال مائتي ألف، وهرب إلى معاوية)، أما اليعقوبي في تاريخه ٩٦/٢ فسمّاه الخرِّيت بن راشد الناجي، وذكر أنه خرج في جماعة من أصحابه، وجرَّد السيف بأهل الكوفة، وقتل جماعة منهم، وخرجوا من الكوفة، ونهبوا بيت مال البلاد التي مرّوا بها حتى صاروا إلى سيف عمان، وكان أمير المؤمنين عليه السلام وجَّه الحلو بن عوف الأزدي عاملاً على عمان، فقتله بنوا ناجية، وارتدّوا عن الإسلام، فوجَّه أمير المؤمنين معقل بن قيس، الذي تمكّن من قتل الخرِّيت وجماعته، ثم ذكر سبي من بقي منهم، وفعلة مصقلة، أما سبب هروب مصقلة فيعود إلى أن أمير المؤمنين طالبه ببقيَّة المال فهرب إلى معاوية، جاء في النهج ١٦٧ (قال عليه السلام لما هرب مصقلة بن هبيرة الشيباني إلى معاوية، وكان قد ابتاع بني ناجية من عامل أمير المؤمنين عليه السلام وأعتقهم، فلمّا طالبه بالمال خاس به وهرب إلى الشام: (قبَّح الله مَصْقَلة فعل فِعْلَ السّادات، وفرَّ فِرار العبيد، فما

أنطقَ مادِحَهُ حتى أسكتَهُ، ولا صدَّق واصِفَه حتى بكَّته، ولو أقام لأخذنا ميسورَه، وانتظرنا بماله وُفُورَه)، وذكر حكاية هروب مصقلة بعدما عاد إلى البصرة ومنها إلى الكوفة الطبري في تاريخه ٣٨٢/ -٣٨٣ كما ذكر رواية جديرة بالذكر حول عدل عليٍّ عليه السلام في حكمه، واستقامته في مبادئه، ولكن تلك المبادئ النَّقيَّة الصَّافية كيف تستقيم مع الغشِّ والخداع والعصبيَّة وسوء الظنِّ وضيق الأفق، روى الطبري بسنده عن أبي عبد الرحمن بن جندب أن أحد رجاله عليه السلام أخبره أن رجالاً من أصحابه عقدوا العزم على مفارقته، فأجابه: (إنِّي لا آخذ على التهمة، ولا أعاقب على الظن، ولا أقاتل إلاَّ من خالفني وناصبني وأظهر لي العداوة، ولست مقاتله حتى أدعوه وأُعذِر إليه، فإن تاب ورجع إلينا قبلنا منه وهو أخونا، وإن أبى إلاَّ الاعتزام على حربنا استعنَّا الله عليه وناجزناه)، ثم جاءه الرجل مرَّة أخرى وحذَّره من عبد الله بن وهب الراسبي وزيد بن حصين، وطلب منه أن يسجنهما، وأراد أمير المؤمنين أن يعرف جوهر الرجل فسأله رأيه فيهما فأجابه: (فأنا آمرك أن تدعو بهما، وتضرب رقابهما)، قال الإمام عليه السلام: (فعلمت أنه لا ورعٌ ولا عاقلٌ) وقال له: (والله ما أظنُّك ورِعًا ولا عاقلاً نافعًا، والله لقد كان ينبغي لك لو أردتُ قتلَهم أن تقولَ: اتَّقِ الله، لم تستحلّ قتلَهم ولم يقتلوا أحدًا، ولم ينابذوك، ولم يخرجوا من طاعتك)، ذلك كان عدل الإمام ونهجه، فكيف يستقيم مع نهج من ناصبه العداوة والبغضاء، وكيف يستقيم مع حيل السياسة وألاعيبها.

كانت أيّامه عليه السلام بعد التحكيم خاصة كلها قهر ونكد، ففي سنة تسع وثلاثين للهجرة بدأ معاوية يصول ويجول بعلوجه في أرجاء البلاد

الإسلامية، ولا معين للإمام يردعهم به ويجتث شأفتهم، فقد أغار النعمان بن بشير بأمر معاوية على عين التمر وهي على فراسخ معدودات من الكوفة وقتل واليها مالك بن كعب الأرحبي، وعاث فيها، وليس أمام الإمام في عدله وحكومته إلاّ أن يحثّ أصحابَه على الجهاد، ولكنه كان يحثُّ في صخرٍ أصمَّ استمرأ العصيان والقعود بعد أن أَمِنَ العقاب، فقال كما جاء في النهج ١٦٢ -١٦٣: (مُنِيتُ بمن لا يُطِيعُ إذا أمرتُ، ولا يُجِيبُ إذا دَعَوْتُ، لا أبا لكم ما تنتظِرونَ بنَصْرِكُم؟ أما دِيْنٌ يجمعُكُم ولا حَمِيَّةٌ تُحْمِشُكُم، أقُومُ فيكم مُسْتَصرِخًا، وأُناديكُم مُتَغَوِّثًا، فلا تسمعونَ لي قولاً، ولا تُطِيعونَ لي أمْرًا، حتَّى تَكَشَّفَ الأُمورُ عن العواقبِ المَساءة، فما يُدْرَكُ بكُم ثارٌ، ولا يُبْلَغ بكم مرام؛ دَعَوْتُكُم إلى نصرِ إخوانِكُم فجَرْجَرتم جَرْجَرَةَ الجملِ الأَسَرِ، وتثاقَلْتم تثاقُلَ النِّضْوِ الأَدْبَرِ - صفات للبعير المريض المهزول - ثم خرجَ إليَّ منكُم جُنَيْدٌ مُتَذائبٌ ضعيفٌ ﴿ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴾)، وذكر اليعقوبي في تاريخه ٩٧/٢، أن الإمام بعد أن خطب فيهم دخل بيته، فقام الصَّحابي الجليل عدي بن حاتم، وقال: (هذا والله الخذلان القبيح! ثم دخل إليه فقال: يا أمير المؤمنين، معي ألف رجل من طيٍّء لا يعصونني، وإن شئت أسير بهم سِرتُ؟ فقال عليٌّ: جزاك الله خيرًا يا أبا طريف، ما كنت لأعرِّض قبيلة واحدة لحدِّ الشَّام، ولكن اخرج إلى النُّخيلة، فخرج واتبعه ناس، فسار عديٌّ على شاطئ الفرات، فأغار على أدنى الشَّام).

وذكر اليعقوبي في تاريخه ٩٨/٢ والطبري في تاريخه ٣٨٥/٤ من طبعة الأعلمي أيضًا أن سفيان بن عوف أغار على الأنبار، وقتل أشرس بن حسَّان البكري والي أمير المؤمنين عليها، وكان في خمسمائة رجل تفرَّقوا ولم يبق

منهم إلا مائة رجل، فقاتلهم سفيان بجيشه الذي بلغ ستة آلاف مقاتل، ، فصبر له جند الإمام على قلّتهم، وقتل أشرس بن حسّان وكان في ثلاثين رجلاً واحتملوا ما كان في الأنبار من الأموال وأموال أهلها، وأشرس هذا في خطبة أمير المؤمنين عليه السلام الشّهيرة التي الحثّ فيها على الجهاد حسّان بن حسّان، وقد قرّع فيها أهل الكوفة غاية التقريع، وأبدى أسفه وحرقته على ما نال ساكني الأنبار من قتل شنيع، إذ قال عليه السلام من بين ما قال فيها: (فيا عجبًا -والله - يميتُ القلب ويجلِبُ الهمَّ من اجتماع هؤلاء القوم على باطلهم وتفرُّقِكم عن حقّكم، فقُبْحًا لكم وتَرَحًا حين صرتم غَرَضًا يُرْمى: يُغارُ عليكم ولا تُغِيرونَ، وتُغْزَوْنَ ولا تَغزونَ، ويُعصى الله وتَرْضَونَ...)، وهي من غرر خطبه الخالدات، فبعث عليه السلام كما ذكر اليعقوبي والطبري سعيد بن قيس أحد قادته، فلمّا شعر به سفيان انصرف مولّيًا، فأتبعه سعيد إلى عانات، ولكنّه لم يلحق به.

واستمرَّ معاوية في مناوشاته فبعث عبد الله بن مسعدة الفزاري في ألف وسبعمائة مقاتل كما ذكر اليعقوبي في تاريخه ٩٨/٢ -٩٩، والطبري في تاريخه ٣٨٥/٤ -٣٨٦ وأمره أن يقصد الحرمين، فلما وصل خبر خروجه إلى أمير المؤمنين أرسل إلى المسيَّب بن نَجَبَة، وهو من فزارة أيضًا، وكان يثق بصلاحه وبأسه، وكلّفه بالخروج وراء عبد الله، فخرج في ألفي مقاتل من همدان وطيِّء وغيرهم، فلحقهم المسيب وقاتلهم حتّى تمكّن من أسر ولد ابن مسعدة، وانهزم ابن مسعدة وتحصّن بحصن تيماء، فحاصره المسيّب ثلاثة أيّام، ثم أحرق باب الحصن، فأشرف في اليوم الثالث ابن مسعدة من فوق الحصن، وقال للمسيّب إنما نحن قومك، وأثار عصبيّته، فأطفأ النّار وترك له

الطريق مفتوحًا ليلاً فانهزم تحت جنح الظلام، وفي الصباح دخل المسيَّب الحصن ولم يكن فيه أحد، فقال له عبد الرحمن بن شبيب، وكان معه في جيشه (داهنت والله يا مسيَّب وغششت أمير المؤمنين)، ولما عادوا إلى الكوفة عاتبه أمير المؤمنين عليه السلام، وسجنه أيَّامًا، ثمَّ أطلقه وولاَّه صدقات الكوفة.

وأغار الضَّحَّاك بن قيس بأمر من معاوية على القُطْقطانة، وقتل من لقيه في الطريق ونهب الأموال، فلمَّا انتهى إلى قطقطانة أتى عمرو بن عميس بن مسعود، وكان في خيل لعليٍّ عليه السلام وهو يريد الحجَّ، فأغار على من كان معه، وحبسه عن المسير، وقيل: قتله، كما ذكر اليعقوبي في تاريخه ٢/ ٩٧، والطبري في تاريخه ٣٨٦/٤ فلما بلغه خبر تلك الغارة خطب بهم الإمام عليه السلام ليثأروا لقتلاهم، فردُّوا عليه ردًّا ضعيفًا زاد من غضبه فقال كما روى اليعقوبي، وهو في النهج: (يا أهل العراق! وددتُ أنَّ لي بكم بكلٍّ ثمانية منكم رجلاً من أهل الشَّام..)، فقام إليه حجر بن عدي الكندي، وهو من خيار صحابته فقال: (يا أمير المؤمنين! لا قرَّب الله إلى الجنَّة من لا يحبُّ قربك.. اندب معي الناس المناصحين، وكن لي فئة بكفايتك، والله فئة الإنسان وأهله، إن الشيطان لا يفارق قلوب أكثر الناس حتى تفارق أرواحهم أبدانهم، فتهلل وأثنى على حجر جميلاً، وقال: لا حرمك الله الشَّهادة، فإنِّي أعلم أنَّك من رجالها - وصدق أمير المؤمنين عليه السلام فقد كان من رجالها - وجلس عليٌّ في المسجد فندب النَّاس، وانتدب أربعة آلاف، فسار بهم في طلب القوم، وأغذَّ المسير حتَّى لقيهم بتدمر من عمل حمص، فقاتلهم فهزمهم حتى انتهوا إلى الضَّحاك، وحجز بينهم

الليل، فأدلج الضحاك على وجهه منصرفًا، وشنَّ حجر بن عدي الغارة في تلك البلاد يومين وليلتين).

ودخلت سنة أربعين للهجرة، وفيها بلغ جزع أمير المؤمنين عليه السلام مداه يوم علم باستيلاء ابن أرطأة على اليمن وتمثيله بولدي عبيد الله بن عباس، وقد ذكر أبو الفرج في أغانيه ٢٩٢/١٦ صورة تبين مدى حزنه ولوعته من تلك الفعلة الشنعاء فقال: (ولما بلغ علي عليه السلام قتل ابن أرطأة الصبيين جزع جزعًا شديدًا، ودعا على بسر فقال: اللهم اسلبه دينه، ولا تخرجه من الدنيا حتى تسلبه عقله! فأصابه ذلك، وفقد عقله، فكان يهذي بالسيف ويطلبه، فيؤتى بسيف من خشب، ويجعل بين يديه زقٌّ منفوخ، فلا يزال يضربه حتى يسأم، ثم مات لعنه الله)، وكان بسر هذا قد بعثه معاوية بعد مسرحيَّة التحكيم إلى اليمن، وأمره أن يقتل في طريقه كل من وجده من شيعة الإمام وأصحابه، وألاّ يكفَّ يده عن النساء والصبيان، فقتل مقتلة في مكَّة والمدينة ونجران، وذبح أطفالا، فلمَّا وصل إلى اليمن ذبح طفلي عبيد الله بن عباس بيده لعنة الله عليه.

وسار ابن أرطأة هذا من الشام بثلاثة آلاف مقاتل كما ذكر الطبري في تاريخه ٣٨٨/٤ - ٣٩٠ من طبعة الأعلمي، وأمره معاوية أن يمرَّ بمكَّة والمدينة فيرهب أهلهما ويخيفهم ويطردهم، وأن ينهب مال كلٍّ من لم يدخل في طاعته، ثم يتَّجه من بعد إلى صنعاء، ويبدو أن معاوية كانت له عيون فيها، إذ قال له كما ذكر اليعقوبي في تاريخه ١٠٠/٢ (إن لنا بها شيعة، وقد جاءني كتابهم)، وكان على المدينة آنذاك أبو أيُّوب الأنصاري، الذي اضطرَّ إلى التنحِّي عنها حين دخلها بسر، وفيها من الصحابة أيضًا جابر بن عبد الله

الأنصاري الذي انطلق إلى أم سلمة بعد أن وجد نفسه عرضة لقتل محتّم إن لم يبايع معاوية فقالت له: (إذًا فبايع، فإنَّ التقيَّة حملت أصحاب الكهف على أن كانوا يلبسون الصُّلب ويحضرون الأعياد مع قومهم).

وإذا كان دعا على ابن أرطأة تلك الدعوة التي أفقدته عقله وسلبت دينه، فإنه قال عليه السلام في أتباعه ما تقشعرُّ منه الأبدان، ويمزّق القلوب، ويدمي العيون، فقد رآهم وليته لم يرهم بتلك الصورة التي أعقبت الندامة والحسرة فيهم، وسوء المنقلب إذ قام إلى منبره متثاقلاً مهدودًا، وقال على ما ورد في النهج ١٣٧–١٣٨: (أُنبئتُ بُسْرًا قد اطّلع اليمن، وإني والله لأظنُّ أنَّ هؤلاء القومَ سيُدالُون منكم: باجتماعهم على باطلهم، وتَفرُّقكم عن حقّكم، وبمعصيَتِكم إمامَكم في الحقّ، وطاعَتِهم إمامَهم في الباطِلِ، وبأدائِهم الأمانةَ إلى صاحبهم، وخيانَتِكُم، وبصلاحِهم في بلادِهِم وفَسادِكم. فلو ائتمنتُ أحَدَكُم على قُعْبٍ لَخَشيتُ أن يذهبَ بعَلاقَتِهِ! اللهمَّ إنّي قد مَلَلْتُهم ومَلُّوني، وسَئِمتُهُم وسَئِمُوني، فأبدِلْني بِهم خَيْرًا منهم، وأبدِلْهم بي شَرًّا مِنّي، اللهمَّ مُثْ قُلُوبَهم كما يُماثُ المِلحُ في الماء).

ولا أشكُّ أن تلك الخطبة كان لها وقع الصاعقة على خيار صحابته، وأتخيل أن حزنًا شديدًا عقد ألسنتهم حتى ما يدرون ما يفعلون أو يقولون، وهم يرون بأمِّ أعينهم إمامهم على تلك الحال من الحزن والفجيعة، أما البقيَّة فقد ذهبت تتلمَّظ وتمسح تلك اللّحَى الكالحة بأيديها من دون أن تشعر بالخطر الذي سيدهما عمًّا قريب.

ويبدو أن خطبته تلك فعلت فعلها بجارية بن قدامة السّعدي على ما ذكر اليعقوبي في تاريخه ١٠١/٢ فقام وقال: (يا أمير المؤمنين! لا عدمنا الله قربك،

ولا أرانا فراقك، فنعم الأدب أدبك، ونعم الإمام والله أنت، أنا لهؤلاء القوم فسرِّحني إليهم! قال: تجهَّز، فإنَّك ما علمتك رجلٌ في الشِّدَّة والرَّخاء، المبارك الميمون النَّقيبة؛ ثم قام وهب بن مسعود الخثعمي فقال: أنا أنتدب يا أمير المؤمنين. قال: انتدب، بارك الله عليك)، وكان عبيد الله بن عبَّاس على اليمن فتنحَّى واستخلف بها عبد الله بن عبد المدان الحارثي، الذي قتله بسر، وقتل ابنه مالك، كما ذبح ولدي عبيد الله عبدَ الرحمن وقثمًا.

وخرج جارية بن قدامة من البصرة حتى أتى أرض نجران فطلب بسرًا فيها، وقتل من أصحابه خلقًا، وأتبعهم بقتلٍ وأسرٍ إلى مكّة، ودخل بسر الحجاز لا يلوي على شيء، ويبدو أن جارية حينما دخل مكّة كان ابن ملجم قد فعل فعلته، فلما أخذ جارية أهل مكّة بالبيعة، قالوا له: (قد هلك عليٌّ فلمن نبايع؟ قال: لمن بايع له أصحاب عليٌّ فتثاقلوا، فقال: والله لتبايعُنَّ ولو بأستاهكم، فبايعوا ودخل المدينة وقد اصطلحوا على أبي هريرة، فقال جارية: يا أهل المدينة بايعوا للحسن بن علي فبايعوا، ثم خرج يريد الكوفة، فردَّ أهل المدينة أبا هريرة).

وهكذا تلحظ أن الإمام عليه السلام كلّما قطع ذنبًا طلع له آخر لأن الرأس باقٍ ينفث سمَّه في كلِّ الطرقات.

الطريق إلى الخلود

كانت متاعب أبي السبطين بمسمع من أخيه عقيل، وكأنه أحسَّ بالخطر المحدق به وبالزمان الذي تكالب عليه، فشعر بحرقة وأسى، فكتب إليه من مكة بعد فعلة الضحاك بن قيس رسالة كلها مودة وإخاء ووفاء وخوف، وعرض عليه فيها نصرته بنفسه وأهله، وقد نقلها أبو الفرج في أغانيه ١٦/ ٢٨٨–٢٨٩ وجاء في نهايتها: (فاكتب لي يا ابن أم برأيك، فإن كنت الموت تريد تحمَّلت إليك ببني أبيك وولد أخيك فعشنا ما عشت، ومتنا معك، فوالله ما أحب أن أبقى بعدك فواقًا، وأقسم بالله الأعز الأجل، أن عيشًا أعيشه في هذه الدنيا بعدك لعيش غير هنيء ولا مريء ولا نجيع والسلام)، فأجابه عليه الإمام عليه السلام برسالة جاء فيها: (فإن قريشًا قد أجمعت على حرب أخيك إجماعها على حرب رسول الله صلى الله عليه وسلّم قبل اليوم، فأصبحوا قد جهلوا حقَّه، وجحدوا فضله، وبادُّوه بالعداوة ونصبوا له الحرب، وجهدوا عليه كلَّ الجهد، وساقوا إليه جيش الأمرين، اللهم فاجز عنِّي قريشًا الجوازي، فقد قطعت رحمي وتظاهرت علي، والحمد لله على كلِّ حال)، وأكاد أسمع في صدى كلماته ما يصدع القلب، وينكأ الجرح، ويثير الأسى والأسف، فكيف به عليه السلام، لا شك أنه ما عاد بتلك الحيوية والاندفاع، وأنَّ أيامه تلك كانت أثقل الأيام عليه وأقساها، وأشدها مرارة، وخاصة بعد أن شعر باليأس الشديد من تنفيذ مشروعه العظيم، فلا هو قادر على مقارعة الباطل حين كاد يخنقه بطوقه الذي

أحاط به إحاطة السوار بالمعصم كما يقال، ولا هو قادر على قيادة تلك الأمة التي استكانت، وكأنها قد تعجّلت زحف الذل الذي سيخيم عليها من بعد قرونًا تتلوها قرون

ثمّ كانت ثالثة الأثافي ما حدث بينه وبين ابن عمّه عبد الله بن عباس من مغاضبة أدّت إلى خروجه من البصرة إلى مكّة، وحكايتها على مرارتها تعطيك رؤية أخرى لأفق عليٍّ عليه السلام الذي لا يعرف في الحقّ أحدًا دنا إليه أو بعد عنه، ولا أشك في أنه ما كان ينظر إلى يومه ذاك في كلّ ما صدر عنه، وإنما كان يؤسس لنمط من الحكم تبقى البشرية تستمد منه قوانينها إلى قيام الساعة، وقد فصّل التقي الحكيم حكاية الخلاف في كتابه (عبد الله بن عباس) الذي وقفت معه وقفة مطوّلة في بحث قال لي ولده حفظه الله: إنه قد نشر في كتاب صدر عن الفقيد.

ولا يمكن أن نتخيل أمير المؤمنين عليه السلام في تلك الأيام الكالحة ذلك الفتى الذي رأيناه زمن المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم يتدفّق حيويّة وشبابًا، يسير أمام أخيه كالأسد الهادر يتكفأ في مشيته مهرولاً نحو أبطال الشرك يقطف رؤوسهم، وعلى رأسه يخفق لواء المصطفى الذي حمله في جميع غزواته، أو السرايا التي قادها لدحر الشيطان وجنوده.

وإذا كانت شجاعته وقوته الجسدية الخارقة لم تفارقه في جميع الحروب التي خاضها، فإنه بعد ذلك الامتحان الرهيب الذي مرَّ به لم يعد كما قال ابن عبد البرِّ في استيعابه ١١٢٣/٣ عنه: (ربعة من الرجال إلى القصر ما هو، عريض المنكبين، شثن الكفّين - الشثن: الغليض - عتدًا - العتد: التام الخلق - أغيد، كأنَّ عنقه إبريق فضّة، أصلع ليس في رأسه شعر إلاّ من

خلفه،

كبير اللحية، لَمَنكِبِهِ - مجتمع رأس الكتف والعضد - مشاش - رأس العظم -كمُشاش السَّبع الضاري، لا يتبيَّن عضده من ساعده، قد أدمجت إدماجًا، إذا مشى تكفًا، وإذا أمسك بذراع رجل أمسك بنفسه فلم يستطع أن يتنفَّس، وهو إلى السمن ما هو، شديد السَّاعد واليد، وإذا مشى للحرب هرول، ثبت الجنان، قويٌّ شجاعٌ، منصور على من لاقاه)، ولا حين رآه قُدامة بن عتَّاب كما روى ابن سعد ٢٦/٣ : (ضخم البطن ، ضخم مشاشة المنكب، ضخم عضلة الذراع، دقيق مستدقها، ضخم عضلة الساق، دقيق مستدقِّها، قال: رأيته يخطب في يوم من أيَّام الشِّتاء، عليه قميص قِهْز وإزاران قِطْرِيَّان، معتمًّا بسِبٍّ كتان مما يُنسَجُ في سوادكم)، فقد أدركه التعب والسأم، وهو يرى دولة الباطل تسيح في الأرض ولا من معين يعينه على اجتثاث طغيانها، لم يعد ذلك القوي فقد أنهكه التعب بعد كلِّ الأزمات النَّفسية التي مرَّ بها، وهو يرى ضلالة أمَّة من المسلمين ليس من ورائها هدي على الرغم من جميع محاولاته، فقد كانت تهرول نحو الباطل بأقصى سرعتها، في وقت أتعبه الجهاد هو والنَّفر الذي آمن به للإمساك بزمامها الذي انفلت من عقاله وما عاد بالإمكان السيطرة عليه، بل إن جمعًا غير قليل من ذلك النَّفر أيضًا بدأ بالابتعاد عنه، ولعلَّه توسَّل الأسباب إما للانحياز إلى المعسكر الآخر أو الانزواء بعيدًا عنه، أما الإمام عليه السلام فلا الأحداث غيَّرت من نهجه، ولا تكالب الزمان استطاع ليَّ عوده، وأخاله في الباقيات من أيامه تلك كان يتلفَّت يمينًا وشمالاً بانتظار قاتله كي يريحه منهم ويريحهم منه، فلا هو قادر على أخذهم بسياسة الطغاة لأنها ليست سياسته، ولا هم يستطيعون مسايرته

وهو على تلك المبادئ، لذا فإنه ليس غريبًا أن نتخيَّله كما رآه أصحاب ابن سعد في طبقاته ٣/٢٥ – ٢٧ شيخًا أبيض الشعر طويل اللحية عريضها، أو كما رآه الشعبي على ما ذكر البلاذري في أنسابه ٢/٣٦٠ والذهبي في عهده ٦٢٤ : (رأيت عليًّا أبيض اللحية، ما رأيت أعظم لحية منه، وفي رأسه زغبات)، وكأنه حينما اختضب مرَّة على ما روى الذهبي في عهده ٦٢٣ عن ولده محمد بن الحنفيَّة وجد أن ذلك الخضاب لا يتماشى مع سجيَّته الصافية السمحة التي تستنكر كلَّ زيف وخداع.

ولعلَّ اليأس والحزن بلغ مبلغهما منه عليه السلام حينما بدأت فئة من تلك الأمَّة تتطاول عليه في ما بينها وتتهمه بالكذب! فقال في ذمِّها كما ورد في النهج ١٩٣ : (أما بعد يا أهل العراق فإنما أنتم كالمرأة الحامل! حَمَلَتْ فلمَّا أتمَّت أمْلَصت - ألقت ولدها ميتًا - ومات قَيِّمُها، وطال تأيُّمُها، وورِثها أبعدُها؛ أما والله ما أتيتكُم اختيارًا، ولكن جئتُ إليكم سوقًا، ولقد بلغني أنَّكم تقولون: عليٌّ يكذِبُ! قاتلكم الله فعلى من الكذبُ؟ أعلى الله؟ فأنا أوَّل من آمن به! أم على نبيِّه؟ فأنا أوَّل من صدَّقه. كلاَّ والله، ولكنَّها لَهْجةٌ غِبْتُم عنها، ولم تكُونوا من أهلها. ويلُ أُمِّه كَيْلاً بغيرِ ثَمَنٍ! لو كان له وِعاء ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾).

وكان عليه السلام على بيِّنة بعواقب الأمور وبالفتن القادمات وما سينقصم من الرؤوس والظهور، وقد صرح بذلك في أول خطبة خطبها قبل قبول بيعتهم كما مرَّ بك، بل كان على بينة أيضًا بما سيجري على الكوفة خاصَّة من بلاء، وبسبب من همسهم ولمزهم في صحَّة ما يقول عليه السلام

خطبهم، وكأنه يدلي بآخر حججه عليهم فقال كما جاء في النهج ٢٧٢: (...أيُّها الناس، لا يجرِمَنَّكُم شِقاقي، ولا يستهوِيَنَّكم عِصياني، ولا تتراموا بالأبصارِ عندما تسمعونَهُ منِّي، فوالذي فَلَقَ الحبَّة، وبَرَأَ النَّسَمةَ، إنَّ الذي أُنبِئُكُم به عن النبيِّ الأُمِّي صلى الله عليه وآله، ما كذبَ المُبَلِّغُ، ولا جَهِلَ السَّامعُ، ولكأنِّي أنظُرُ إلى ضِلِّيلٍ قد نعقَ بالشَّام، وفَحَصَ براياتهِ في ضواحي كوفانَ، فإذا فَغَرَتْ فاغِرَتُهُ، واشتَدَّتْ شكيمَتُهُ، وثَقُلَتْ في الأرضِ وطأتُهُ، وعضَّتِ الفِتْنَةُ أبناءها بأنيابِها، وماجتِ الحَرْبُ بأمواجِها، وبدا من الأيَّام كُلُوحِها، ومن الليالي كُدُوحها، فإذا أينعَ زَرعُهُ، وقامَ على يَنْعِهِ، وهدَرَتْ شقاشِقُهُ، وبرَقَتْ بوارِقُهُ، وعُقِدَتْ راياتُ الفِتَنِ المُعْضِلَةِ، وأقبَلْنَ كالليلِ المظلِمِ، والبحرِ المُلْتَطِمِ، هذا، وكم يخرِقُ الكوفة من قاصِفٍ، ويمرُّ عليها من عاصِفٍ، وعن قليلٍ تلتفُّ القُرونُ بالقرونِ، ويُحْصَدُ القائمُ، ويُحْطَم المحصودِ).

وكان المصطفى صلوات الله وسلامه عليه قد بشَّره بالشهادة في غير مناسبة كما سبق القول، ولعل أوَّل تلك البشائر كانت بمكة على جبل النور في ما أظن، كما ذكر ابن عبد البر في الاستيعاب ١٠٩٩/٣ أما الثَّانية فكانت في غزوة العشيرة، وسبق أن وقفنا على خبرها، وروى حديث استشهاده عليه السلام أيضًا ابن عبد البر في الاستيعاب ١١٢٦/٣ عن النسائي، وابن إسحاق، والطبري، وذكر أيضًا عن عثمان بن صهيب عن أبي أن رسول الله صلى الله عليه وسلَّم قال لعلي: « من أشقى الأولين » ؟ قال: الذي عقر الناقة، يعني ناقة صالح. قال: « صدقت، فمن أشقى الآخرين » ؟ قال: لا أدري. قال: « الذي يضربك على هذا ، يعني يافوخه. ويخضِّب هذه، يعني لحيته »،

وقريبًا منه رواه أحمد في فضائله ١١١ برقم ٧٦ وابن الأثير في أسده ٦١٣/٣ الذي روى أيضًا ٦١٣/٣–٦١٢ عن أبي الأسود، وتابعه في الرواية عنه أيضًا ابن عساكر في ترجمته عليه السلام بتاريخه ٣٤٠/٣–٣٤١ أن عليًا قال: (أتاني عبد الله بن سلام - وقد وضعت رجلي في الغَرز - فقال لي: لا تقدم العراق، فإني أخشى أن يصيبك فيها ذباب السيف، قال علي: وأيم الله لقد أخبرني به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أبو الأسود: فما رأيت كاليوم قط محاربًا يخبر بذا عن نفسه)، ورواه الذهبي في عهده ٦٤٨ عن أبي الأسود أيضًا، ولكنه قال: قال ابن عيينة: كان عبد الملك رافضيًا، وعبد الملك هذا أخذ عنه الخبر المذكور ابن عيينة، وعجيب أن يصدر مثل هذا القول عن ابن عيينة، وكأن الرافضي لا يجوز الأخذ بروايته ليس لشيء إلاّ لكونه منهم بزعمه.

روى ابن عبد البر في استيعابه ١١٢٦/٣ عن ثعلبة الحماني أنه سمع الإمام عليه السلام يقول: (والذي فلق الحبَّة، وبرأ النسمة لتخضبنَّ هذه، يعني لحيته، من دم هذا، يعني رأسه)، وقد ذكره الذهبي في عهده ٦٤٧، عنه أيضًا، وذكر قريبًا من هذا ابن الأثير في أسده ٦١١/٣ -٦١٢ عن أبي سنان الدؤلي من طريقين، وذكره أيضًا الخطيب البغدادي في تاريخه ١٣٥/١.

ولم يكن انتظار الإمام عليه السلام ليومه انتظار الخائف الحزين، فهو عنده بشارة وكرامة، ولعلّه كان بانتظاره من يوم أحد، فلمّا تأخَّرت أخبره المصطفى أنها من ورائه، روى ابن الأثير في أسد الغابة ٦١٢/٣–٦١٣ عن ابن عباس قال: (قال علي: للنبي صلى الله عليه وآله وسلم: إنك قلت لي يوم أحد، حين أخرت عني الشهادة واستشهد من استشهد: «إن الشهادة من ورائك، فكيف صبرك إذا خضبت هذه من هذه بدم وأهوى بيده إلى لحيته

ورأسه » ، فقال علي: يا رسول الله، إما أن تثبت لي ما أثبت، فليس ذلك من مواطن الصبر، ولكن من مواطن البشرى والكرامة).

وروى الذهبي في عهده ٦٤٧ عن زيد بن وهب أنه قدم على الإمام عليه السلام قومٌ من خوارج البصرة فقال له الجعد بن نعجة: (اتَّقِ الله يا عليّ فإنك ميت، فقال علي: بل مقتول؛ ضربة على هذه تخضِّب هذه، عهد معهود، وقضاء مقضيٌّ، وقد خاب من افترى)، ويبدو أن ابن نعجة هذا عاتبه على خشونة لباسه: فقال له عليه السلام: (مالكم وللباسي، هو أبعد من الكبر، وأجدر أن يقتدي بي المسلم)، والرواية في فضائل أحمد ٥٩ برقم ٣١ عن زيد بن وهب أيضًا.

وكان الإمام عليه السلام يعرف قاتله وينتظره، فقد ذكر ابن عبد البر في استيعابه ٣/ ١١٢٦ —١١٢٧ عن ابن سيرين عن عبيدة قال: (كان علي رضي الله عنه إذا رأى ابن ملجم قال:

عَذِيرك من خليلك من مرادِ   أريد حياته ويريد قتلي

وروى الخبر المذكور ابن سعد في طبقاته ٣٤/٢٣ عن ابن سيرين أيضًا.

وروى أيضًا أن (مسكين بن عبد العزيز العبدي سمع أباه يقول: جاء عبد الرحمن بن ملجم يستحمل عليًا فحمله ثم قال:

عذيري من خليلي من مرادِ   أريد حياته ويريد قتلي

أما إن هذا قاتلي. قيل: فما يمنعك منه؟ قال: لم يقتلني بعد).

ولم تعرف الدنيا مثل عدل عليٍّ، ولا مثل قضائه، ولقد بلغ الذروة التي لا يدانيه فيها أحد في تاريخ قيم العدل التي عرفها الإنسان، كان يعرف قاتله معرفة عين قبل أن ينوي نيَّته الخبيثة تلك التي جعلت منه أشقى الآخرين، نعم لقد ثبت

ذلك عند أهل الحديث والأخبار والسير أنه كان على معرفة تامَّة به قبل أن يفكر بفعلته بسنوات، ويوم تيقن مَن حوله بنيَّة الرجل أتوا به إليه وأعلموه بها وبما قال، وحذَّروه منه أشدَّ التحذير وطلبوا منه ما يمكن أن يتَّخذه من حذر أو قصاص، ولكنه وهو العدل قال لهم: لم يقتلني بعد، لأن القصاص عنده لا يكون إلاَّ بعد حدوث الفعل، وقيل له عليه السلام: (إن ابن ملجم يسمُّ سيفه، ويقول: إنه سيفتك بك فتكة يتحدَّث بها العرب. فبعث إليه، فقال له: لم تسمُّ سيفك؟ قال: لعدوِّي وعدوُّك. فخلَّى عنه، وقال: ما قتلني بعد).

بل جاءه عليه السلام رجل من مراد وهو يصلِّي فقال: (احترس فإن ناسًا من مراد يريدون قتلك، فقال: إن مع كلِّ رجل مَلَكَين يحفظانه مما لم يُقَدَّر، إلاَّ إذا جاء القدر خلَّيا بينه وبينه، وإنَّ الأجلَ جُنَّةٌ حصينةٌ) كما روى ابن سعد في طبقاته ٣/ ٣٤.

وذكر في طبقاته ٣/ ٣٤ أيضًا رواية عن عبد الله بن سبع الذي سمع عليًّا عليه السلام يقول: (لَتُخْضَبَنَّ هذه من هذه فما يُنْتَظَرُ بالأشقى، قالوا: يا أمير المؤمنين فأخبرنا به نُبيرُ عِتْرَته)، وقد ذكرها الذهبي في عهده ٦٤٧، عن ابن سبع أيضًا، وأضاف إليها (قال: انشدكم بالله أن تقتلوا غير قاتلي).

ولكن هل أخبرهم به: بالتأكيد لا، لقد أخبرهم بشيء آخر لا أشك في أنه أراده درسًا للإنسانيَّة جمعاء، تستنُّ به وتسير على نهجه في قوانينها وقيمها، قال لهم: (إذًا والله تقتلوا بي غير قاتلي) فلا عقوبة على نيَّة من غير فعل، ولو كانت بمنزلة اليقين.

وذكر قريبًا من هذا المبرد في كامله ٣/ ١١٢٠ فقال: (ويروى أن عليًّا رضي الله عنه أُتي بابن ملجَم، وقيل له: إنا قد سمعنا من هذا كلامًا، ولا

نأمن قتله لك. فقال: ما أصنع به)، أي: أن العقوبة لا تقع بسبب كلام أو نيَّة في نهج الإمام، وإنما تكون بعد فعل، لذا قال لهم: (ما أصنع به؟!).

كان عليه السلام مؤمنًا بقدره ويرى فيه حصنه الحصين الذي تدرَّع به في حروب الإسلام الكبرى التي حارب فيها على تأويله كما حارب في حياة أخيه المصطفى صلوات الله عليه على تنزيله، وعلى أساس قدره المحتوم الذي حدَّثه عنه المصطفى كان ردُّه على من حذَّره وطلب منه الاحتراس. ولا أدلَّ على معرفة قاتله قبل اليوم من رواية رواها ابن سعد في طبقاته ٣/٣٣ وابن الأثير في أسد الغابة ٣/٦١٢ والذهبي في عهده ٦٤٨ عن أبي الطفيل: (أن عليًّا جمع النَّاس للبيعة، فجاء عبد الرحمن بن مُلْجِم المرادي، فردَّه مرَّتين، ثمَّ قال: علام يُحْبَسُ أشقاها؟ فوالله ليخْضِبَنَّ هذه من هذه، ثمَّ تمثَّل:

فإن الموت لاقيكا اشدد حيازيمَكَ للموت
إذا حلَّ بواديكا). ولا تجزع من القتل

وكان ابن سعد رواها في طبقاته ٣/٣٣–٣٤ عن أبي نعيم ولكنه قال أيضًا: (وزادني غير أبي نعيم في هذا الحديث بهذا الإسناد عن علي بن أبي طالب والله إنه لعهد النبي الأمي صلى الله عليه وسلَّم إليَّ)، وذكر ذلك أيضًا أبو الفرج الأصفهاني في أغانيه ١٥/٢١٩–٢٢٠، وكان أخي الدكتور حازم قد لفت نظري إلى أن هذا الشعر من الهزج، ولكن فيه خزم، وهو زيادة اشدد في أوَّل البيت، وكنت وقفت على مثل هذا، ولكنه غاب عنِّي.

أما المصطفى صلوات الله وسلامه عليه الذي كان على بيِّنة بنهاية أخيه، يتشوَّفها واقعة وإن بعد حين، فلا أشك في أن لوعته كانت تتضاعف كلما نظر

إليه، وأيّة شفقة كانت، إنها مزيج من عاطفة أبوّة وأخوّة وصحبة وإيمان وفداء ونسل مبارك، ولعلّه كان يذكّره بين حين وآخر بتلك النهاية، وكأنه يذكّر نفسه بما سيحلّ بأخيه من ظلم وعقوق من أمته التي جاهد لنعيمها، وجاهدت في فعل الأفاعيل به وبأهل بيته وذريّته عليهم السلام.

كان يعلم عليه السلام أن ذلك القضاء تتويجًا وتكريمًا لتلك المسيرة العظيمة التي طالما فاخر بها ربُّ السماوات والأرض خلقه من الإنس والجن، في قرآنه المحكم، أو على لسان نبيه المصطفى صلى الله عليه وآله وسلّم، فذهب في طريقه لا يلوي على شيء، ولم يعبأ بنصح أو رأي، سواء أكان من قريب أم من بعيد، لوضوح النهج أمامه.

ويوم غالبه التعب سأل الله أن يخرجه منهم، وأزعم أن صبره بلغ مداه من عقوق تلك الأمة التي أبت إلا العيش تحت خيمة الخوف والعبودية والذل والفقر فكان لها ما أرادت، روى ابن سعد في طبقاته ٣/٣٤ من بين ما روى أن عليًّا عليه السلام قال: (ما يحبس أشقاكم أن يجيء فيقتلني؟ اللهم قد سئمتهم وسئموني، فأرِحهم مني، وأرحني منهم)، وذكر ابن الأثير في كامله ٣/٥٨٠ أن الحسن البصري قال: (سمعت عليًّا على المنبر يقول: اللهم ائتمنتهم فخانوني، ونصحتهم فغشُّوني، اللهم فسلّط عليهم غلام ثقيف يحكم في دمائهم وأموالهم بحكم الجاهلية! فوصفه وهو يقول: الزيال، مفجّر الأنهار، يأكل خضرها ويلبس فروتها، قال الحسن: هذه والله صفة الحجاج).

ويوم حلَّ رمضان الذي رحل فيه عليه السلام وجد فيه مناسبة لتوديع أهل بيته الوداع الأخير، فكان يفطر ليلة عند الحسن، وأخرى عند الحسين عليهما السلام، وثالثة عند عبد الله بن جعفر، (لا يزيد على ثلاث لقم،

ويقول: يأتي أمر الله وأنا خميص، وإنما هي ليلة أو ليلتان) كما روى ابن الأثير في أسده ٦١٤/٣.

اقتراب يوم حكمة الله

ولا أشكُّ في أن عيون أهل بيته عليهم السلام كانت ساهمة ساهر ولهى، وكانوا في حيرة من أمرهم، فهم يعلمون أنه الوداع، وأنه مفارق لا محالة، وأن أهوالاً قادمة ستعصف بالأمة عصف الريح بالهشيم، وأنه أدى رسالته إلى النهاية، وأن جميع ما أراد تبليغه قد بلَّغه، وأن جميع ما استطاع أن يفعله قد فعله، وها هو بانتظار يومه الأخير الذي هو حكمة الله.

ترى كيف كانت حال الحسن والحسين ومحمد بن الحنفية وبقية أبناء الإمام وبناته وأبناء أخوته وأبناء عمومته وأبنائهم رضوان الله عليهم أجمعين، كيف كانت حالهم وهم يرون الشعلة تكاد تنطفئ، فها هي تذبل وليس وراء ذلك إلاَّ القضاء المحتوم الذي لا رادَّ له، وقل أيضًا: كيف كانت حال المخلصين من صحابته، وهم يرون بأم أعينهم انتصار الباطل الذي حاربه إمامهم من قبل بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله فانتصر عليه ذلك الانتصار العظيم، ويرون بأم أعينهم اليوم كيف أنه يذوي أمامهم ويعتصره الألم فلا يجد له من ناصرٍ في وجه تلك الأمواج الهادرة التي تدافعت عليه من كلِّ جانب.

كانت المؤامرة قد حبكت خيوطها بإتقان، ويبدو أن الأشعث بن قيس شارك فيها من بعد، إذ كان يجتمع بالقاتل ويشدُّ من عزيمته، فقد ذكر المبرد في كامله ١١٦٩/٣: (ويروى أن عبد الرحمن بن ملجَم بات تلك الليلة عند الأشعث بن قيس، وأن حُجر بن عدي سمع الأشعث يقول له: فَضَحَكَ الصُّبْحُ، فلمَّا قالوا: قتل أمير المؤمنين. قال حجر بن عدي للأشعث أنت قتلته

يا أعور، ويروى أن الذي سمع ذاك أخو الأشعث عفيف بن قيس، وأنه قال لأخيه: عن أمرك كان هذا يا أعور).

وليس موقف الأشعث بغائب عن الإمام عليه السلام، ولا شك أنه كان يحتملُه على مضض بسبب عصبية القوم التي لم يستطع الإسلام بكلِّ قيمه أن يقضي عليها، ويبدو أنه خطب مرَّة، والأشعث بن قيس إلى جانب المنبر فاستشهد في أثناء حديثه بقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم وهو: « المسلمون تتكافأ دماءهم، وهم يد على من سواهم، من أحدث حدثًا أو آوى محدِثًا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين »، فقال الأشعث بن قيس: هذه والله عليك لا لك، دعها تترحَّل، فخفض علي صلوات الله وسلامه عليه إليه بصره، وقال: ما يدريك ما علي مما لي! عليك لعنة الله ولعنة اللاعنين، حائك بن حائك، منافق بن منافق، كافر بن كافر، والله لقد أسرك الإسلام مرَّة، والكفر مرَّة، فما فداك من واحد منهما حسبك ولا مالك) كما ذكر أبو الفرج في أغانيه ٢١/٢٠–٢١، وفيها زيادة في النهج ١٢٩ قوله عليه السلام: (وأنَّ امرءًا دَلَّ على قومه السيف، وساق إليهم الحتف، لحريٌّ أن يمقُتَه الأقْرَبُ، ولا يأمَنَهُ الأبعَدُ)، وكان الأشعث قد أسر مرَّتين، مرَّة في الجاهلية، وأخرى في الإسلام يوم ارتدَّ، فقدَّم أعوانه للسيف على أن يؤخذ هو وعشرة من قومه يختارهم إلى أبي بكر ليرى رأيه فيه فعفا عنهم أبو بكر، وزوَّجه أخته.

وروى أبو الفرج في مقاتله ٤٨ ما يوثِّق دور الأشعث في قتل الإمام، ومشاركته فيه، قال بسنده عن جعفر بن محمد قال: (حدَّثتني امرأة منَّا قالت: رأيت الأشعث بن قيس دخل على علي عليه السلام فأغلظ له علي، فعرض

له الأشعث بأن يفتك به. فقال له علي عليه السلام: أبالموت تهددني، فوالله ما أبالي وقعت على الموت، أو وقع الموت عليَّ).

الفوز العظيم

كانت ذكرى ليلة معركة بدر قد حلّت سنة أربعين للهجرة لسبع عشرة أو ثماني عشرة من رمضان، وهي ليلة ليست كبقيَّة الليالي بالنسبة للإمام عليه السلام، فيوم مرَّت لم يكن ببعيدٍ عن رسول الله صلوات الله وسلامه عليهما، يده بيده، وهو يحدِّث نفسه بالأفاعيل التي سيفعلها بالجمع القرشي الظالم، أما هذه اللّيلة فعينه بعين أخيه أيضًا، يحدث نفسه كما حدَّثها البارحة، ولكن عما فعلته هذه الأمَّة العاقّة به، وبما لاقاه من خصومتها وعوجها، وبينما هو منشغل بإيقاظ أهله للصلاة وكان السهر قد أخذ مأخذه منه، ملكته عيناه فذهب في إغفاءة لم تطل، إذ سرعان ما سنح له رسول الله صلوات الله وسلامه عليه فقال له: (يا رسول الله، ماذا لقيت من أمَّتك من الأود واللّدد، فقال: ادع عليهم)، ويا لها من دعوة مازال العراق يتجرَّع مرارتها على الرغم من تقادم الدهور والقرون عليها، فما عرف شعبه الراحة بعدها حتى الساعة، وما زال يتجرَّع من غصص حكامه والقائمين على أمره السمَّ الزعاف. قال عليه السلام: (اللهمَّ أبدلني بهم من هو خير منهم)، فأبدله، وكان البديل جوار رسول الله صلوات الله وسلامه عليه، (وأبدلهم بي من هو شرٌّ منّي)، وأي شرٌّ فيك سيدي ومولاي سلام الله عليك، بل من أين يعرف الشرُّ طريقًا إلى نفسك الطاهرة النقيَّة، وسلم أخي الدكتور حازم حينما عقّب بقوله:

نفسٌ هي الطُّهر ما همَّت بموبقة وليس تعرِفُ كيف الذَّنبُ يُرتَكَبُ

نعم لقد استجاب لك ربُّ العرش العظيم، فأبدلك وأبدلها. وقد روى الحكاية المبرد في كامله ١١٦٨ وحكاية الرؤيا فيه عن الحسن عليه السلام، وروى قسمًا كبيرًا منها اليعقوبي في تاريخه ١١٩/٢، وهي عن الحسن أيضًا في استيعاب ابن عبد البر ١١٢٧/٣ برواية عن أبي عبد الرحمن السلمي. ونقل حسين الشاكري في كتابه علي المرتضى ١١٧/٢ عن الشيخ المفيد (كانت شهادة أمير المؤمنين عليه السلام قبل الفجر ليلة الجمعة إحدى وعشرين من شهر رمضان سنة أربعين للهجرة).

كان على علم بيومه عليه السلام كما سبق القول غير مرَّة، ولكنَّ ابن الأثير رجَّح علمه به (بالسنة والشَّهر والليلة)، فقد روى في أسده ٦١٤/٣ عن الحسن بن كثير أن أباه قال: (خرج علي لصلاة الفجر فاستقبله الإوزُّ يصرخن في وجهه، قال: فجعلنا نطردهنَّ عنه فقال: دَعُوهنَّ فإنَّهنَّ نوائح، وخرج فأصيب).

ولم يمهله مؤذن مسجده ابن النَّبَّاح طويلاً كي يستمتع بحلم اللقاء بأخيه سلام الله عليهما، فآذنه بالصَّلاة، فخرج، وخرج المؤذن خلفه، وما أن وصل المسجد حتى (اعتوره رجلان: أما أحدهما فوقعت ضربته في السُّدَّة، وأما الآخر فأثبتها في رأسه)، كما ذكر ابن سعد في طبقاته ٣٦/٣، والذهبي في عهده ٦٤٨، وابن الأثير في أسده ٦١٥/٣.

وعلى الرغم من شدَّة الألم الذي كان يعانيه أثر تلك الضربة، فإنه عليه السلام، خاف على قاتله أن يمثَّل به، أو يقتل، فقال: أطعموه واسقوه، ذكر الذهبي في تاريخه ٦٤٩ عن جعفر بن محمد، عن أبيه سلام الله عليهما (إن

عليًّا كان يخرج إلى الصلاة، وفي يده دِرَّة يوقظ الناس بها، فضربه ابن ملجم، فقال علي أطعموه واسقوه، فإن عشت فأنا وليُّ دمي) قال: رواه غيره وزاد (فإن بقيت قتلت أو عفوت، فإن متُّ فاقتلوه قِتلتي، ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين). وروى ابن سعد في طبقاته ٣/٣٥ أنه عليه السلام قال: (إنه أسير فأحسنوا نُزُلَه وأكرموا مثواه، فإن بقيت قتلت أو عفوت، وإن متُّ فاقتلوه قِتْلَتي ولا تعتدوا إن الله لا يحبُّ المعتدين)، ولقد أورد ابن سعد في طبقاته٣/ ٣٣ -٣٥ روايات كثيرة كلها تدور حول علمه بشهادته بل معرفته قاتله قبل أن يبايعه وأثناء مبايعته وبعدها.

ودخل عليه ولده الحسن عليهما السلام هو يبكي لما حلَّ بأبيه، وأظنُّك تستطيع تصور مدى فجيعته وحرقته، ولكنَّ بكاءه لم يشغل ذلك الأسد الجريح عن تقديم آخر وصاياه لولده، فقد روى ابن عساكر بسنده في ترجمته عليه السلام ٣/٣٦٨ بتاريخه عن عقبة بن أبي الصهباء قال: إن أمير المؤمنين عليه السلام لمّا رأى ولده الحسن باكيًا قال له عليهما السلام: (ما يبكيك يا بنيّ؟ قال: وما لي لا أبكي وأنت في أوَّل يوم من الآخرة وآخر يوم من الدنيا. فقال: يا بنيَّ احفظ أربعًا وأربعًا لا يضرُّك ما عملت معهنَّ، قال: وما هنَّ يا أبه؟ قال: إن أغنى الغنى العقل، وأكبر الفقر الحمق، وأوحش الوحشة العجب، وأكرم الحسب الكرم وحسن الخلق. قال حسن: قلت: يا أبه هذه الأربع، فأعطني الأربع الأخر. قال: إيَّاك ومصادقة الأحمق فإنَّه يريد أن ينفعك فيضرُّك، وإيَّاك ومصادقة الكذّاب فإنّه يقرِّبُ إليك البعيد، ويبعِّد عليك القريب، وإيَّاك ومصادقة البخيل فإنّه يقعد عنك أحوج ما يكون إليه، وإيَّاك ومصادقة الفاجر، فإنه يبيعك بالتافه).

كانت الضربة قد وصلت إلى أم الدماغ، وروى ياقوت في معجم بلدانه ١١٧/١، وتابعه ابن عبد البر في استيعابه ١١٢٨/٣ فقال: (جمع الأطباء لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه لمّا ضربه بن ملجَم لعنه الله تعالى، فأخذ أثير بن عمر السكوني الطبيب الكوفي - وكان أبصر الأطباء بالطب - رئة شاة حارَّة فتتبَّع عرقًا فيها فاستخرجه وأدخله في جراحة علي ثمَّ نفخ العرق واستخرجه، فإذا عليه بياض الدماغ، وإذا الضربة قد وصلت إلى أم رأسه، فقال: يا أمير المؤمنين اعهد عهدك فإنك ميت)، وكان أبو الفرج في مقاتله ٥١ روى قريبًا من هذا، وروى أيضًا أنه عليه السلام دعا بصحيفة ودواة وكتب وصيته، ولو شئت أن تقارن بين ما جاء في خطبة المصطفى في حجَّة الوداع، وبين وصيَّته عليه السلام لما راودك شكٌّ أنها استقت من النبع الذي صدر عنه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم.

آخر الوصايا

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما أوصى به أمير المؤمنين علي بن أبي طالب. أوصى بأنه يشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأنَّ محمَّدًا عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحقّ ليظهره على الدين كلّه، ولو كره المشركون، صلوات الله وبركاته عليه. ﴿ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾، أوصيك يا حسن وجميع ولدي وأهل بيتي ومن يبلغه كتابي هذا بتقوى الله ربنا ولا تموتن وإلاّ أنتم مسلمون، واعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرَّقوا، فإني سمعت رسول الله يقول: « إصلاح ذات البين أفضل من عامَّة الصلاة والصّيام، وإن المبيدة الحالقة للدين فساد ذات البين،

ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العلي العظيم» انظروا إلى ذوي أرحامكم فصلوهم يهون الله عليكم الحساب. الله الله في الأيتام فلا تغيّرنّ أفواههم بجفوتكم، والله الله في جيرانكم، فإنها وصيّة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم مازال يوصينا بهم حتى ظننا أنه سيورثهم. والله الله في القرآن فلا يسبقنّكم إلى العمل به غيركم، والله الله في الصلاة فإنها عماد دينكم، والله الله في بيت ربّكم فلا يخلونّ منكم ما بقيتم، فإنه إن ترك لم تناظروا، وإنه إن خلا منكم لم تنظروا. والله الله في صيام شهر رمضان فإنه جُنّة من النّار، والله الله في الجهاد في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم. والله الله في زكاة أموالكم فإنها تطفئ غضب ربّكم. والله الله في أمّة نبيّكم فلا يظلمن بين أظهركم. والله الله في أصحاب نبيّكم فإنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أوصى بهم. والله الله في الفقراء والمساكين فأشركوهم في معايشكم، والله الله في ما ملكت أيمانكم فإنها كانت آخر وصيّة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم إذ قال: «أوصيكم بالضعيفين في ما ملكت أيمانكم»، ثم قال: الصلاة الصلاة. لا تخافوا في الله لومة لائم فإنه يكفكم من بغى عليكم وأرادكم بسوء، قولوا للناس حسنًا كما أمركم الله، ولا تتركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فيولّي الأمر عنكم فلا يستجاب لكم. عليكم بالتواضع والتباذل والتبار، وإيّاكم والتقاطع والتفرّق والتدابر: ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَاب ﴾ حفظكم الله من أهل بيت، وحفظ فيكم نبيّه، وأستودعكم الله خير مستودع وأقرأ عليكم سلام الله ورحمته).

ولا أشك في أنه قبل ان يذهب شعر بأنه قد شرّع للأمة ما يعزها في الدارين إن أرادت، وما يذلّها فيهما إن أبتْ، شرّع لها ما تحتاج إليه إلى أبد

الدهر، وما من مشرِّع جاء بعده إلا كان عيالاً عليه، ولعلَّ قوله الذي ورد في النهج ١٢٩: (فإنكم لو عاينتم ما قد عاينَ من مات منكُم لجَزِعتُم ووَهِلتُم وسَمِعتُم وأطَعتُم، ولكن محجُوبٌ عنكم ما قد عاينوا، وقريبٌ ما يُطْرَحُ الحِجاب، ولقد بُصِّرتُم إن أبصرتُم، وأُسْمِعتم إن سَمِعتم، وهُدِيتُم إن اهتديتُم. بحقٍّ أقولُ لكم لقد جاهرَتْكُم العِبَرُ وزُجِرتُم بما فيه مُزْدَجَرٌ. وما يُبَلِّغُ عن اللهِ بعد رُسُلِ السَّماءِ إلاَّ البشر).

وهكذا ذهب الإمام عليه السلام، وكانت آخر كلماته بعد أن انتهى من وصاياه (لا إله إلاَّ الله) كما روى ابن عساكر من غير طريق في ترجمته عليه السلام ٣/٣١٧، وعلى الرغم من كل ما كتب وقيل بحقه فإن باب مدينة العلم يبقى مفتوحًا حتى يرث الله الأرض ومن عليها، فأية شخصية هذه التي مازالت تقف القلوب شاخصة في محراب مسيرتها من دون أن تشعر بقدرة على استيعابها وإنصافها مهما حاولت.

موعد مع الشهادة

القاتل

قلنا في غير مناسبة أن الإمام عليه السلام كان على بيِّنة من يومه، بعد امتلائه غيظًا، وقد خبَّر بذلك المصطفى صلى الله عليه وآله سلَّم قبل رحيله في غير مناسبة، إحداها حضرها أنس بن مالك الذي ذكر كما روى ابن عساكر بسنده في ترجمته عليه السلام ٣٢٤/٣ بتاريخه أن المرتضى مرض مرَّة مرضًا أشرف فيه على الموت، فعاده أنس وعاده أيضًا أبو بكر وعمر، وبينما هم عنده إذ دخل عليه النبي صلوات الله وسلامه عليهما، (فقال أبو بكر وعمر: يا نبيَّ الله لا نراه إلاَّ لما به فقال: «إن هذا لا يموت حتى يملأ غيظًا، ولن يموت إلاَّ مقتولاً»، وللرواية رواية أكثر وضوحًا في شرح النهج ٣١٢/٤ (اشتكى عليٌّ عليه السلام شكاة، فعاده أبو بكر وعمر، وخرجا من عنده، فأتيا النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلَّم فسألهما: من أين جئتما؟ قالا: عُدنا عليًّا، قال: كيف رأيتماه؟ قالا: رأيناه يُخافُ عليه مما به، فقال: «كلاَّ لن يموت حتى يُوسَع غدرًا وبغيًا، وليكونَنَّ في هذه الأمَّة عبرةً يعتبر به الناس من بعده»)، وهناك روايات أخر في شرح النهج وفي تاريخ ابن عساكر لا يختلف فيها الخبر عن النبيّ الكريم عمَّا سبق، وكنَّا قد سقنا روايات عدَّة حول استشهاده عليه السلام، وكان ابن عساكر في ترجمته ذكر روايات أخر كثيرة في ترجمته ٣٢٤/٣ -٣٦١ بعضها أخبر بها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وبعضها أخبر بها الإمام عليه السلام، أكتفي منها بذكر خبر فضالة عن أبي فضالة الأنصاري، الذي ذكره ابن عساكر من غير طريق في ٣٤٤/٣ -٣٤٥، وأبو فضالة بدريٌّ استشهد مع الإمام عليه

السلام في واقعة صفّين، فقد ذكر أن المرتضى كان بينبع فمرض مرضًا شديدًا فعاده أبو فضالة رفقة ولده، فلما رآه أشفق أن يموت فيها، فقال له: (ما يقيمك بهذا المنزل؟ إن أصابك أجلك وليك أعراب جهينة، ارحل إلى منزلك بالمدينة فإن أصابك أجلك وليك إخوانك وصلُّوا عليك فسمعت عليًّا يقول: إني لست ميّتًا من وجعي هذا. إن رسول الله صلى الله عليه وسلّم أخبرني أني لا أموت حتى أومَّر، ثمَّ تخضَّب هذه من دم هذا؛ يعني لحيته من دم هامته، قال فضالة: فصحبه أبي يوم صفين فقتل فيمن قتل، وكان أبو فضالة من أهل بدر).

ولا شكَّ أنه يحقُّ لنا أن نتساءل كيف نستطيع التعامل مع أشقى الآخرين؟ أهي إرادة الله دفعته دفعًا إلى تلك الجريمة النكراء التي ارتكبها؟ لا شك أن الله عالم بالسرائر، وإذا كان المصطفى وأخوه صلوات الله وسلامه عليهما على معرفة به وبنهايته التي جعلت منه أشقى الآخرين فكيف سيكون الحكم عليه؟، وحاشا لله أن يظلم عبيده وهو الرحمن الرحيم، نعم نحن نسير بأقدارنا كما قال الإمام عليه السلام حينما سُئِلَ عن القضاء والقدر في غير مناسبة مررنا عليها، ولكنَّه ذكر أيضًا أن الإنسان على بيِّنة من خير طريقه وشرِّه، فإن اتَّبع الخير حُسِبَ له، وإن اتَّبع الشرَّ احتُسِبَ عليه.

لقد منحنا سبحانه البصر والبصيرة، ولكنَّ الشقيَّ فقد البصر والبصيرة، ومرق من الدِّين، واتخذ قراره بعقل شيطاني عن ترصُّد وسابق إصرار وارتكب جريمته فذهب إلى جحيم ليس كمثله جحيم بني البشر.

ومرَّت أيام بل سنيات، واستطاع الشيطان أن يصور للفئة الباغية أنها هي الحق بعينه، وأن الإمام عليه السلام قد زاغ عنه يوم وافقهم على التحكيم، وكانت معركة النهروان التي سبقت الإشارة إليها، وظن خلق أن الأمور

عادت إلى نصابها، ولكنه قدر الله واقع ومن يستطيع دفع قدره، وتفرقت شيع من أتباع تلك الطغمة التي ركبها الشيطان، ولا تدري أنها لم تناصب الإمام عليه السلام، وإنما ناصبت نفسها كما ناصبت الأمة التمزُّق والتشتت والانكسار، لا ليومها ذاك، وإنما على طول المدى، بعد أن منحت الباطل فرصة ما كان يحلم بها، ومن يومها لم تقم للحقّ قائمة، واستمر الباطل بغيِّه يعيث فسادًا في الأرض، ولولا الثقل الثاني أهل بيت الرسول عليه السلام، ما قامت للإسلام قائمة، فقد ذهبوا في سبيل بقائه، وكانوا حصنه على الرغم من الأهوال التي مرُّوا بها

روى ابن سعد في طبقاته ٣٥/٣ -٣٦ واليعقوبي في تاريخه ١١٩/٢ وابن عساكر في ترجمته عليه السلام بتاريخه ٣٦٢/٣-٣٦ - حكاية اجتماع ثلاثة من الخوارج بعد معركة النهروان بمكّة، وتعاهدهم على قتل علي عليه السلام ومعاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص، وأعمى الشيطان بصيرتهم، وغابت عنهم البصيرة التي تأخذ بيد المسلمين إلى السعادة الأبديَّة، فخلطوا كلّ الحقّ بكلّ الباطل، وهكذا تعهد عبد الرحمن بن ملجَم بقتل عليٍّ عليه السلام، فهو يعرفه كما يعرف راحة يده، ويعرف أن قتله غيلة ولا أسهل منه فلا عسكر ولا حماية تحيط به في رواحه وغدوِّه، وهو لا يعرف تحوطات الأمان ولا يعترف بها لأن قدره هو حصنه الحصين الذي تدرَّع به، وكان يعلم أنه عليه السلام لا يخوَّف بموت أو يهدد به.

وتعهد البرك بن عبد الله التميمي بقتل معاوية، أما عمرو بن بكير التميمي فقد تعهد بقتل عمرو بن العاص، واتفقوا على تنفيذ فعلتهم ليلة سبع عشرة من شهر رمضان، واتجه كلٌّ منهم إلى مِصْرِ صاحبه.

وكانت الأجواء مهيأة لابن ملجَم في الكوفة، فالخوارج مازالت بقيَّة منهم منتشرة بين جميع قبائلها، كما أن أهل قتلاهم فيها، ويسبب من سياسة الإمام الماليَّة الصارمة فإن نفرًا غير قليل من رؤساء القبائل استطاع معاوية استمالتهم بذهبه ووعوده، وأنصار الباطل تضج بهم طرقات الكوفة وأزقّتها، ورأس الفتنة الأشعث بن قيس يتربَّص الفرصة للتخلُّص من الإمام عليه السلام، ويوم سأل معاوية الهيثم بن الأسود كما روى ابن أبي الحديد في شرح النهج ٣٠٣/٤ عن سبب امتناع الأشعث من اللحاق به قال: (إن الأشعث يكرِم نفسه أن يكون رأسًا في الحرب، وذنبًا في الطمع)، فبئس كرامته تلك التي دفعته إلى كلِّ ذلك الجحيم الذي هوى به.

اتَّجه ابن ملجَم إلى الكوفة، وفيها التقى أصحابه من الخوارج، وخبَّرهم باجتماع مكَّة وما تمَّ فيه، ويبدوا أنه كان يتنقل بين أحيائهم، وقام يومًا بزيارة نفر من تيم الرباب، ووقعت عينه على قَطام بنت شحنة بن عدي من تيم الرباب، قتل أبوها وأخوها في معركة النهروان، فخطبها ونزل عند أي مهر تطلبه، فاشترطت عليه مهرًا وقع من نفسه أطيب موقع استجاب له بلا تردد، ثلاثة آلاف وقتل عليٍّ، فقال لها: والله ما جاء بي إلى هذا المصر إلاَّ قتل هذا الرجل، وقد آتيتك ما سألت، ورأى أنه لابد له من مساعد لتنفيذ ما عزم عليه، فليس مثل بطل الأمَّة وفارسها يقتل بسهولة ولو غدرًا، فالتقى خارجيًّا من بني أشجع هو شبيب بن بجرة الأشجعي، وأعلمه بما عزم عليه، وطلب منه أن يكون معه، فاستجاب الرجل لتلك الفعلة الشنيعة، وقد ذكر هذا المبرد في كامله ١١٢٠/٣ وابن الأثير في أسده ٦١٥/٣، وابن عساكر في ترجمته عليه السلام في تاريخه ٣٦٢/٣، وغيرهم.

وشحذ عبد الرحمن سيفه وسقاه سمًّا زعافًا، وشعر نفر من أصحاب الإمام من مراد ومن غيرها بما يبيّته هذا المجرم، فأعلموا الإمام عليه السلام مرّة، وجاءوا به إليه في أخرى، ولكنه عليه السلام قال لهم: لم يقتلني بعد.

وجاءت الليلة الموعودة، وقضاها ابن ملجم في بيت الأشعث بن قيس يد الشيطان التي خذلت الحقّ، وكانت سببًا رئيسًا من أسباب انتصار الباطل، بل كان هو ونسله من أشأم الخلق على الإسلام والمسلمين، ويبدو أنها لم تكن الليلة الأولى التي يقضيها ابن ملجم في بيت الأشعث، وإنما نزل عليه، وأقام في بيته شهرًا يشحذ سيفه كما ذكر اليعقوبي في تاريخه ٢/١١٩، وقضّى ليلته الأخيرة حتى الصباح يناجي الأشعث والأشعث يناجيه، ولعله هوّن عليه الأمر، وسدد له الرأي، وقرّب له سبل الفرار والفوز بالزوجة الموعودة، ولعلّه قبل هذه الليلة زوّده بما يحتاج إليه من مال، وخطط له ما ينبغي عليه فعله كي يفوز بالقدح المعلّى، وما كاد فجر تلك الليلة يأذن حتى قال الأشعث لصاحبه: قم لقد فَضَحَكَ الصبح، فقام، ولابد أن صاحبه شبيب كان بانتظاره، فاتجها بسيفيهما وما أن وصلا إلى مقابل المكان الذي يدخل منه الإمام عليه السلام حتى جلسا بانتظاره.

ومعلوم أن الأشعث هو من أهم الرؤوس التي دفعت من اندفع وراء خدعة التحكيم، وكان وجوده على الدوام في معسكر الإمام مصدر خطر حقيقي يعرفه ولا يستطيع أن يتّخذ فيه قرارًا بسبب منهج القضاء الذي التزم به، وقد ألجأه مرّة إلى الخروج عن طوره بعد أن دفعه دفعًا لذلك، فقد قال عليه السلام وهو على منبره، والأشعث جالس بجانب المنبر على ما ذكر الأصفهاني في أغانيه ٢١/٢٠-٢١ عن عبد الله بن عدي وهو من صحابته

المقربين: (أيها الناس، إنكم تزعمون أن عندي من رسول الله ﷺ ما ليس عند الناس، ألا وإنه ليس عندي إلا ما في قرني هذا، ثم نكث كنانته فأخرج منها صحيفة فيها: المسلمون تتكافأ دماؤهم، وهم يدٌ على من سواهم، من أحدث حدثًا أو آوى محدثًا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين)، فردَّ عليه الردَّ الذي سبق ذكره، وإذا كانت أمَّة من المحدثين تنكر حكاية الكنانة هذه، ولاسيما أنَّ ما ورد فيها لا يحتاج من الإمام أن يكتبها ويحفظها في كنانته فهي ليست بذلك الطول الذي يعسر عليه حفظه، فسرُّ رسول الله مع علي عليهما السلام بدليل قوله صلى الله عليه وآله وسلَّم الذي رواه ابن عساكر في ترجمته عليه السلام بتاريخه ٢/ ٣١١ عن أنس بن مالك عن سلمان الفارسي: «صاحب سرِّي علي بن أبي طالب»، فإنها لا تنكر رأيه عليه السلام في الأشعث، وليس هذا هو اليوم الأول للأشعث، ولن يكون الأخير له ولذريته، فقد سبقته أيام، منها يوم جيء به أسيرًا إلى الخليفة أبي بكر بعد أن سلَّم قبيلته وأنصاره للسيف يحصدهم، ولقد ندم أبو بكر في أيام خلافته الأخيرة على عدم قتله على رِدَّته بعد أن تأكَّد عنده أن الأشعث شرٌّ كله على الإسلام والمسلمين.

وخرج الإمام على عادته وابن النَّباح مؤذنه يسير أمامه، وابنه الحسن عليهما السلام من ورائه - على رواية ابن سعد - يوقظ النَّاس لصلاة الصبح، فبرق سيفان صاحبهما نداء حق أريد به كل الباطل الذي عرفته الإنسانيَّة في تاريخها " الحكم لله يا عليّ وليس لك "، أما سيف شبيب فقد خانه، واستطاع صاحبه الهرب به، وأما سيف ابن ملجم فقد تمكَّن حتى وصل إلى امِّ رأس الإمام عليه السلام.

كان عليه السلام بانتظار تلك الضربة منذ عقود خلت وما أن هشمت هامته الشريفه حتى صاح بالباقي من قوّته: (فزت وربّ الكعبة) كما روى ابن الأثير في أسده ٦١٧/٣. ولقد فاز فوزًا رآه قبل أن يرحل، فقد دخل عليه عمر ذو مرٍّ على ما روى ابن الأثير بسنده في أسده ٦١٧/٣ فقال: (لمّا أصيب علي بالضربة دخلت عليه وقد عصب رأسه، قال: قلت: يا أمير المؤمنين، أرني ضربتك. قال: فحلّها، فقلت: خدش وليس بشيء. قال: أني مفارقكم، فبكت أم كلثوم من وراء الحجاب، فقال لها: اسكتي، فلو ترين ما أرى لما بكيت. قال: فقلت: يا أمير المؤمنين، ماذا ترى؟ قال: هذه الملائكة وفودٌ، والنبيُّون، وهذا محمد صلى الله عليه وسلم يقول: يا علي، أبْشِر، فما تصير إليه خيرٌ مما أنت فيه).

وروى الذهبي في عهده ٦٥٢ عن هبيرة بن مريم قال: (خطبنا الحسن بن علي فقال: لقد فارقكم بالأمس رجل ما سبقه الأوّلون بعلم، ولا يدركه الآخرون، كان رسول الله صلى الله عليه وسلّم يعطيه الراية، فلا ينصرف حتى يفتح له، ما ترك بيضاء ولا صفراء، إلاّ سبعمائة درهم فضلت من عطائه، كان رصدها لخادمٍ لأهله).

ورأيت أن أختم هذا المبحث الشجيّ بما رواه ابن عساكر في ترجمته من كتابه تاريخ دمشق ٣٨٢/٣ حول ما حدث في بيت المقدس صباح رحيله عليه السلام، فقد روى بسنده أن ابن شهاب قال: (قدمت دمشق وأنا أريد الغزو، فأتيت عبد الملك لأسلّم عليه فوجدته في قبّة يفوق النائم - كذا - والناس تحته سماطان، فسلّمت عليه وجلست، فقال: يا ابن شهاب أتعلم ما كان في بيت المقدس صباح قتل علي بن أبي طالب؟ قلت: نعم. قال: هلمَّ. فقمت

من وراء الناس حتى أتيت خلف القبّةِ، وحوّل وجهه وأحنى عليٌّ وقال: ما كان؟ فقلت: لم يرفع حجر في بيت المقدس إلاّ وجد تحته دم!! قال: فقال: لم يبق أحدٌ يعلم هذا غيري وغيرك، فلا يسمعنَّ منك. قال: فما تحدّثت به حتى توفّي عبد الملك).

دنيا الله

ترى بعد هذه الرحلة الخاطفة مع الإمام عليه السلام، هل استطعت تكوين فكرة عن مدى اهتمامه بدنيا القوم التي احتربوا عليها، وسفكوا بسببها كل تلك الدماء، لعلك تظن أنه كان زاهدًا بها لا تعنيه من بعيد أو قريب ولاسيما بعد أن أنعمت النظر بكلٍّ ما قاله في حطامها الزائل الذي زينه الشيطان لبني البشر على مرِّ العهود والأزمان، أما أنا فقد ظننت أنها كانت تعنيه أكثر مما كانت تعني غيره ممن اقتتل عليها، فهي دنيا الله التي بسببها بعث الأنبياء والرسل كي يسود فيها ناموسه، وكي تكون دار اختبار تمهد إلى دار البقاء الأزلية، لقد كانت رسالته فيها امتدادًا لرسالة أخيه المصطفى عليهما السلام الذي أراد السعادة الأزلية لأعظم خلق الله في الدارين، ينعم بحريَّة من نوع خاصٍّ لا تستعبده الدنيا بأشيائها الزائلة، ولا يستعبده فيها غيره أراد له أن يعيش ويتناسل وينفذ في أقطار السماوات والأرض بعقله وحكمته، فيعرف الله حقَّ معرفته ويؤدي فروضه عن علم وقناعة، ويشكره الشكر الذي يستحقه على نعم لا تحصى خصه بها من دون بقيَّة خلقه. وأراده أن يعيش فيها بأمن وأمان ودعة ويسر وتكافل اجتماعي تسوده العدالة والرحمة، وأن يعمل ويكدح ويستفيد بيده وعقله بما سخره له الله، ويعين ويستعين، وحين يرحل منها يكون قد فاز في الدارين.

لقد جاهد عليه السلام منذ أن عرف الله أن يكون قدوة لخلقه كي يعرفوه كما عرفه، ويشكروه كما شكره، لم يشكره في صلواته

وصيامه وجهاده فحسب، وإنما شكره أيضًا في ذلك السلوك الذي رأيت بعضه في السرِّ والعلن.

كان بإمكانه ارتداء فاخر الثياب قبل أن يرتديها الآخرون بدون أن يعترض عليه معترض، أو يحرِّمُها عليه محرِّمٌ منذ الغزوة الكبرى التي غزاها بإمرة أخيه المصطفى، أليس من حقّه أن يسلب من قتلهم فيها كما فعل غيره، وجميع من قتل كان من عليّة قريش، بل كان من أحسنهم سيفًا ودرعًا ولباسًا ومطيَّة، وكان بإمكانه أن يكون من أكثر أصحاب رسول الله مالاً وتجارة، ولكننا رأيناه يوم دخل على الزهراء لم يكن معه ما يقدمه لها في ليلة إهدائها أبيض ولا أصفر، ورأيناه في أيّام السُّعود تلك لا يملك ما يسد به أود أسرته من خبز الشعير، وبقي هو هو، تزداد ثيابه بِلًى على مرِّ الزمن، وبثيابه الرثّة تلك، ومن عرق جبينه استطاع أن يفك ألف رقبة من رقِّ العبوديّة وإسارها في بعض الروايات، ولقد أنفق ما لا يحصى على فقراء المسلمين، وهو الذي احتقر دنيا القوم حتى ما ساوت شسع نعله عنده، أما دنيا الله فقد أحبها لدرجة الهيام، وأراد تعريف الآخر بها كي يرتقي به إلى أعلى عليين، ولقد رأيت قطيفته التي جاء بها من المدينة كيف أصبحت، ولعلّه غيَّرَها بعد دهر، بعدما لم يبق فيها مكان لمرتَقَعٍ، وإيَّاك أن تشك أن ثوب خادمه أفضل من ثوبه الجديد، فيوم قرَّر استبداله بقميص لا يلبسه إلاّ فقراء القوم، اشترى آخر لخادمه، ثمَّ خيَّره بينهما، كما ذكر ابن الأثير في أسده ٥٩٩، وقد اشتراه ممن لا يعرفه على عادته خوفًا أن يحابيه البائع في السعر، ويوم اشتراه ظنَّه لا يتناسب مع أمير المؤمنين الذي ينبغي أن يكون لباسه عبرة للآخرين، لذا طلب من البائع أن يكفَّه، فلقد ذكر فروخ أحد موالي بني الأشتر ولابدَّ أن يكون

أحد باعة القماش في الكوفة قال: (رأيت عليًّا في بني ديوار وأنا غلام فقال: أتعرفني؟ فقلت: نعم أنت أمير المؤمنين، ثمَّ أتى آخر فقال: أتعرفني؟ فقال: لا، فاشترى منه قميصًا زابيًا فمدَّ كمَّ القميص فإذا هو مع أصابعه فقال له: كُفَّه، فلمَّا كفَّه قال: الحمد لله الذي كسا عليَّ بن أبي طالب)، ولك في روايات ذكرها ابن سعد وابن عساكر وغيرهما حول ملبسه ومأكله ما يريك العجب من هذا العبد الصالح عليه السلام.

وروى البلاذري في أنسابه ٢/٣٦٠ عن المدائني بإسناده قال: (كانت غلَّة علي أربعين ألف دينار فجعلها صدقة وباع سيفه وقال: لو كان عندي عشاء ما بعته، وأعطته الخادم في بعض الليالي قطيفة فأنكر دفئها فقال: ما هذه؟ قالت الخادم: هذه من فضل الصدقة، فألقاها وقال: أصردتمونا بقية ليلتنا).

يوم رحل الإمام

وكما اختلف في يوم ميلادالمرتضى فطبيعي أن يُختَلَفَ أيضًا في عمره عليه السلام يوم استشهاده، فذكر اليعقوبي في تاريخه ١١٩/٢ أنه ابن ثلاث وستين، وذكر ابن عبد البرّ في استيعابه ١١٢٢/٣-١١٢٣: (قيل: سبع وخمسون، وقيل ثمان وخمسون، وقيل: ثلاث وستون، قاله أبو نعيم وغيره، واختلفت الرواية في ذلك عن أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين، فروي عنه أن عليًّا قتل وهو ابن ثلاث وستين، وروي عنه ابن خمس وستين، وروي عنه ابن ثمان وخمسين، وروى ابن جريج قال: أخبرني محمد بن عمر بن علي أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قتل وهو ابن ثلاث أو أربع وستين سنة، وكانت خلافته أربع سنين وتسعة أشعر وستة أيّام، وقيل: ثلاثة أيّام، وقيل: أربعة عشر يومًا). وقال: إن عائشة لما بلغها خبر مصرعه عليه السلام قالت: (لتصنع العرب ما شاءت، فليس لها أحدٌ ينهاها)، أما أبو الفرج فذكر في مقاتله بسنده عن (إسماعيل بن راشد بإسناده قال: لما أتى نعي عليٍّ أمير المؤمنين عليه السلام تمثّلت:

فألقت عصاها واستقرَّت بها النوى ... كما قرَّ عينًا بالإياب المسافِرُ

ثم قالت: من قتله؟ فقيل: رجل من مراد، فقالت:

فإن يك نائبًا فلقد بغاه ... غلام ليس في فيه التراب

فقالت لها زينب بنت أم سلمة: ألعليٍّ تقولين هذا؟ فقالت: إذا نسيت فذكروني، ثم تمثلت:

مازال إهداء القصائد بيننا ... اسم الصديق وكثرة الألقاب

في كلِّ مجتمع طنين ذباب)   حتى تركت كأنَّ قولك فيهم

وذكر أن الذي جاءها بنعيه سفيان بن أبي أمية بن عبد شمس، وروى أبو الفرج أيضًا عن أبي البختري، قال: (لما أن جاء عائشة قتل علي عليه السلام سجدت!).

وروى الذهبي في عهده أن الباقر عليه السلام قال: (قتل علي وهو ابن ثمان وخمسين سنة، وعنه رواية أخرى أنه عاش ثلاثًا وستين سنة، وكذا روي عن ابن الحنفيَّة، وقاله أبو إسحاق السبيعي، وأبو بكر بن عيَّاش، وينصر ذلك ما رواه ابن جريج عن محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب أنه أخبره أن عليًّا تُوُفِّي لثلاثٍ أو أربع وستين سنة). وروى الخطيب في تاريخ بغداد ١٣٤/١ عن أبي جعفر محمد بن علي عليه السلام قال: (كان سنُّ علي يوم قتل ثلاثًا وستين سنة)، وكأنه يوم رحل كان بعمر أخيه صلى الله عليه وآله وسلم، وروى أيضًا في ١٣٦/١ عن أبي معشر قال: (قتل علي بن أبي طالب في رمضان يوم الجمعة، لسبع عشرة ليلة من رمضان سنة أربعين، وكانت خلافته خمس سنين إلاَّ ثلاثة أشهر)، وروى في المصدر السابق أيضًا: أن سفيان بن عيينة سأل جعفر بن محمد (كم كان لعلي يوم قتل؟ قال: ثمان وخمسون سنة...قال سمعت ابن الحنفيَّة يقول سنة الجحاف حين دخلت إحدى وثمانون: هذه لي خمس وستون سنة جاوزت سنَّ أبي، قلت كم كانت سنُّه يوم قتل؟ قال: ثلاث وستون)، وذكر الرواية السابقة ابن الأثير في أسده أيضًا ٦١٨/٣ عن الواقدي وهي الثبت عنده.

وذكر ابن الأثير في أسده ٦١٦/٣ (مكث علي يوم الجمعة ويوم السبت وبقي ليلة الأحد لإحدى عشرة بقيت من شهر رمضان سنة أربعين وتوفي

رضوان الله عليه، وغسَّله الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر، وكُفِّن في ثلاثة أثواب ليس فيها قميص)، وقال في ٦١٨/٣ : و(قيل: إن عليًا كان عنده مِسْك فضل من حَنوط رسول الله ﷺ أوصى أن يُحنَّط به)، وهي في فضائله عليه السلام لأحمد ٩٦ برقم ٦٦، وقال اليعقوبي في تاريخه ١١٩/٢ : (وأقام يومين ومات ليلة الجمعة أول ليلة من العشر الأواخر).

والذي لا شك فيه أنه قد تجاوز الستين، بل يقرب إلى ظنّي أنه عليه السلام قد قارب الثالثة والستين فعلاً يوم استشهاده، إذ إنه بعد أن هجم سفيان بن عوف على الأنبار كان قد جاوز الستين كما قال عليه السلام في خطبته المشهورة التي حثَّ فيها على الجهاد، وهي في النهج ١٤٠-١٤٣، وختمها بقوله: (لله أبوهم، وهل أحدٌ منهم أشدُّ لها مِراسًا، وأقدم فيها مقامًا منّي، لقد نهضت فيها وما بلغت العشرين، وها أنا ذا قد ذَرَّفْتُ على السِّتِّين)، ومن معاني ذرف الزيادة، ووردت في رواية أخرى (نيَّفت)، وناف من معانيها الزيادة أيضًا.

وطريف أن نختم بموقف بعض من وقف على الحياد يوم كانت بيعته عليه السلام، وهو لا يعلم أنه باجتهاده ذاك إذا كان قد اجتهد كم أساء إلى الإسلام وإلى إمام المسلمين، وإلى نفسه، ذكر البلاذري في أنسابه ٤٠٤/٢ بسنده أن حبيب بن أبي ثابت قال: قال ابن عمر: (ما أجدني آسى على شيء من الدنيا إلا أني لم أقاتل مع علي الفئة الباغية)، وذكر في أنسابه أيضا أن رجلاً جاءه يسأله عن علي عليه السلام، فقال ابن عمر: (إن سرَّك أن تعلم ما كانت منزلته من رسول الله صلى الله عليه وسلم فانظر إلى بيته بين بيوت رسول الله ﷺ. قال الرجل: فإني أبغضه. قال: أبغضك الله).

ويقيت أمَّة ترثيه، وتتفجَّع ليومه، وتندبه، وتأسف عليه، منذ رحيله، وستبقى أخرى تفعل ما فعلت الأولى ولكنَّها تتشبَّث بشفاعته، وتراه إمامًا معصومًا إلى قيام يوم السَّاعة.

من صور الوفاء والكرامة

للراحل العظيم

عجيب أن تعثر على ذلك الكمّ الهائل من مناقب أبي السبطين عليه السلام في كتب التراث بعد تلك الحملة المرعبة التي شنتها العصور في وجه سيرته، وفي ما يتعلق بأخباره، كيف قُدّر لها أن تبقى أو يبقى منها أيّ بصيص، لاشك أن وراء ذلك إعجازٌ أقوى من كلّ طوفان الباطل الذي حارب سيرته بوسائل لم يعرفها التاريخ من قبل، ومازالت تتطور وتتنوع.

وقال بعضهم: إن الباقي منها استطاع التاريخ الاحتفاظ به بسبب شيوعه، ولكن ما أكثر الشائع الذي نسيه التاريخ بعد سنيّات أو أيام بسبب تغيُّر حكم أو سياسة. كانت حرب أعدائه غير الشريفة التي اتبعوها، لا تعرف الرحمة، وليس فيها أي مجال للمقارنة من حيث التسلح المادي أو المعنوي، كان الأعداء يملكون كل شي، المال والسلطة والضمائر والأقلام، وما أكثر علماء السلطان في كلّ زمان، أما أصحابه عليه السلام فما كانوا يملكون في الغالب إلاّ جلودهم وعقيدتهم.

وكلما تباعد التاريخ عنه زاد اختلاط الأمر والأحداث حتى على الأقلام الشريفة التي تناولت سيرته، وأرادت أن تصل إلى الحقيقة في صورتها القريبة من الواقع، فتباينت حتى كتابات المحدثين تباينًا يدعو إلى التأمُّل أحيانًا.

ولقد فعل التراكم طائفي السياسي بعد رحيله عليه السلام فعلته في محاولة تشويه صورته، بحسن نيَّة أحيانًا، وبسوء نيَّة في أحايين، فأصبح الراوي من

شيعته وإن كان قدِّيسًا لا يعتدُّ بروايته ولا يؤخذ بها، فهو إما أن يكون ضعيفًا أو متروكًا، أو مجهولاً، أو ساقطًا، أو كذَّابًا، أو وضَّاعًا، أو متشيِّعًا، أو رافضيًا، أو لا يساوي فلسًا، أو غير هذا، وأنت واجد في كثير من كتب تراثنا شيئًا كثيرًا من كل ذلك.

وتاريخ الإسلام في زمن الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلَّم وزمن الخلافة الراشدة عامَّة، أو زمن الإمام عليه السلام خاصَّة من الولادة حتى الشهادة يستقي أحداثه من مصدرين، أولهما: ما روي عن طريق أهل البيت عليهم السلام، وثانيهما: ما روي عن طريق الصَّحابة والتابعين، أما أهل البيت فرواة أخبارهم شيعتهم في الغالب، ولقد رأيتَ موقف العصور منهم، بل إنَّ التاريخ على الرغم من محبَّة كثير من مدونيه لأهل البيت، فإنَّ من النادر أخذهم خبرًا أو رواية عنهم بسبب خوفهم من سيف السلطة، أو طمعًا بما تجود به عليهم، وأما الصَّحابة والتابعون، فموقف غالبيَّة القرشيين منه موقف العداوة والبغضاء والكراهية، ويتبعهم أيضًا موقف من تابعهم واستن بسننهم، ويتبعهم أيضًا من كَلَمَهُ سيف الإمام في عصر الرسالة، أو في أثناء خلافته ومن تابعهم جميعًا أو سار في ركابهم، وبسبب انتشار هذه المجموعات في البلاد الإسلامية فإن موقف الكراهية هذا تجده قد ساح في جميع البلاد التي وطئها الإسلام بحيث لا تستطيع أن تستثني منها بلادًا، ولم يسلم في أخريات خلافته حتى على الكوفة مركز حكمه، إذ كان فيها كالقابض على الجمر، بسبب ندرة الأصحاب وكثرة الأعداء، ولم تعد كل تلك الفضائل والأوسمة التي وشَّحه بها الرسول ذات فائدة أو تأثير في القوم، ولم يعد المنهج الذي نهجه بهم كي ينقلهم إلى العوالم التي حلم بها وأرادها لهم بنافع لهم، ولم

يعد تعففه عن دنياهم وزهده بها قدوة حسنة يقتدون بها، وما عادت أساليب الترغيب والترهيب بجنَّة أو نار رادعة لهم عن غيِّهم، فما أقسى غربته بينهم، وما أشدَّ معاناته وسطهم، وهو لا يرى كلمة حقٍّ تسمع، ولا نداء استغاثة يستجاب، بل ما عاد دستوره وعدله محل قبول ذلك العصر ولا العصور التي تلته بسبب قوَّة الباطل وجبروته وتسلطه على رقاب العباد، فذهب شهيد مبادئه وإيمانه.

على أن القلة القليلة التي آمنت بهديه كانت من أسباب اشتهار سيرته، وبسببها، وهي مؤيَّدة من الله سبحانه لم يستطع الباطل بكل جبروته أن يثلمها، ولقد رأيت رجالاً ونساء وقفوا بكل شجاعة في مجلس معاوية أو مجالس زمرته الدنسة، أو غيرها من مجالس حكم مبغضيه عليه السلام، فأشادوا بسيرته، ودفعوا أعمارهم رخيصة على مذبح محبته والوفاء له، وكان هذا السلف الصالح سببًا من أسباب استمرار سنا مسيرته، ونشر فضائله، واستمرَّ بكل فخر أبًا للضعفاء والمساكين، وحاميًا لهم حتى بعد رحيله، وسيبقى ملجأ كل من يشعر بالظلم والطغيان حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

وأنت واقف على مشاهد لا تحصى في كتب المؤرخين والباحثين والمحدِّثين نعتت معاوية ابن أبي سفيان في جاهليته وإسلامه وسنوات حكمه، وحكم الذرية الأموية المروانية من بعده بما يستحقونه، ووسموهم بأوسمة الخزي بعد التدمير الذي لحق قيم الإسلام في أثناء حكمهم الملعون، ولم تستثن أحدًا منهم إلاّ عمر بن عبد العزيز الذي لقِّب بالخليفة الراشد، وتقف على نصوص كثيرة في الجزء الخامس من كتاب عبد الله بن عباس حبر الأمة وترجمان القرآن للسيد محمد مهدي الخرسان تريك عجبًا حول الحرب الشرسة التي شنَّها معاوية وزمرته على

سيرة علي وآل بيته عليهم السلام، وتقف فيه أيضًا على نصوص نقلها عن القدماء والمحدثين تدفع كلَّ الغثِّ الذي سوَّقته الطغم البائسة للدفاع عنه وعن حكمه أذكر لقطات مما أورده في الجزء المذكور ١١ -١٧ منها ما نقله عن الجاحظ من رسالته الحادية عشرة ٢٩٢ في رسائله بتحقيق السندوبي، قال: (إلى أن كان اعتزال الحسن رضي الله عنه .. فعندها استبدَّ معاوية على الملك، واستبدَّ على بقيَّة الشورى وعلى جماعة المسلمين من الأنصار والمهاجرين في العام الذي سمُّوه عام الجماعة، وما كان عام جماعة، بل كان عام فرقة وقهر وجبرية وغلبة، والعام الذي تحولت في الإمامة ملكًا كسرويًّا، والخلافة منصبًا قيصريًّا، ولم يَعْدُ ذلك أجمع الضلال والفسق) وقال: (ثم مازالت معاصيه من جنس ما حكينا وعلى منازل ما رتبنا حتى ردَّ قضيَّة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ردًّا مكشوفًا وجحد حكمه جحدًا ظاهرًا، في الولد للفراش وما يجب للعاهر... وليس قتل حجر بن عدي، وإطعام عمرو بن العاص خراج مصر، وبيعة يزيد الخليع، والاستئثار بالفيء...)، ونقل عن أبي الثناء الآلوسي قوله في تفسيره: (وقد اجتمعت لمعاوية أقطار البلاد الإسلامية كلها بعد صلح الحسن بن علي رضي الله عنه، فسمَّى نفسه أمير المؤمنين، ولكنه لم يسر مسيرة من عرفنا من أمراء المؤمنين، وإنما جعل الخلافة ملكًا، وأورثها ابنه من بعده، واستباح أشياء حرَّمها الله في القرآن ..)، ونقل عن كتاب نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ١٨/٢ -١٩ للدكتور سامي النشار أقوالاً منها: (وكان خليفة دمشق غارقًا لأذنيه في جاهليته الأولى بين جواريه ومغانيه وملاهيه وطربه، يرتكب الكبائر سرًّا وعلانية، ويحطم بناء المجتمع الإسلامي الخُلقي كما حطَّم بناءه السياسي والاقتصادي، وظنَّ خطأ أنَّه حلل المجتمع الإسلامي، وأنه أشاع الفاحشة بين

الناس، فعاد واقعهم إلى الخمر والنساء والرذائل العاديّة والشاذّة، وأنه أنهكهم بما حمّلهم من أوزار وخطايا، وبهذا يسهل عليه حكمهم، وظنّ خطأ أنّ النّاس على دين ملوكهم، وأنهم لا يفعلون غير ما يفعل، ولا يأتمرون إلاّ بما أمر)، ونقل أيضًا بعض ما ذكره السيد أمير علي الهندي في كتابه روح الإسلام ٢٩٦ أذكر منه قوله: (ومع ارتقاء معاوية الخلافة في الشام عاد حكم الأوليغاشية الوثنية السابقة، فاحتل موقع ديمقراطية الإسلام، وانتعشت الوثنية بكل ما يرافقها من خلاعات، وكأنها بعثت من جديد، كما وجدت الرذيلة والتبذل الخلقي لنفسها متّسعًا في كل مكان ارتادته رايات حكام الأمويين من قادة جند الشام)، ونقل عن أحمد أمين في كتابه يوم الإسلام أقوالاً لا تبتعد عما سبق من أقوال، وأذكر لك شيئًا مما نقله من كتاب الفتنة الكبرى ٢/ ١٥ لطه حسين، وهو قوله الذي دار حول أقوال فئته فيه، وتقدير طه حسين لأقوالهم: (كان معاوية هو ابن أبي سفيان قائد المشركين يوم أحد ويوم الخندق، وهو ابن هند التي أغرت بحمزة حتى قتل، ثم بقرت بطنه، ولاكت كبده، وكادت تدفع النبي نفسه إلى الجزع على عمه الكريم، وكان المسلمون يسمون معاوية وأمثاله من الذين أسلموا بآخرة، ومن الذين عفا عنهم النبيّ عنهم بعد الفتح بالطلقاء)، ونقل أيضًا نصوصًا مما أورده العقاد في كتابه معاوية في الميزان أذكر منها قوله: (فليس أضل ضلالاً ولا أجهل جهلاً من المؤرخين الذين سمّوا سنة إحدى وأربعين هجرية بعام الجماعة، لأنها السنة التي استأثر فيها معاوية بالخلافة، فلم يشاركه أحد فيها، لأن صدر الإسلام لم يعرف سنة تفرّقت فيها الأمّة كما تفرّقت في تلك السنة، ووقع فيها الشتات بين كلّ فئة من فئاتها كما وقع فيها، إذ كانت خطّة معاوية في الأمن والتأمين قائمة على فكرة واحدة هي التفرقة بين الجميع).

وإذا أردنا سرد مواقف تلك النخبة احتجنا إلى تسطير مجلدات يصعب حملها، ولكنّي أحيلك إن شئت على بعضها تجدها مبثوثة في كتاب معاوية بن أبي سفيان في الكتاب والسنّة لصاحب يونس، وليس لنا إلا أن نذكر أمثلة إن كانت لا تسمن من جوع فهي تفي ببعض الغرض لمواقف متباينة لك أن تنظر فيها.

وذاك عصر عليٍّ قد رأيته بكل أبعاده الخيِّرة، ولك أن تنظر عصر الجواري والقيان والأدب الماجن لذي ساح في مدن الشام والعراق، و في حواري مكة والمدينة وأزقتهما تفوح منه روائح عزَّ على الإسلام أن تشمَّ فيها في عصر بني أمية بعد أن كانتا تتضوعان بأنفس الوحي وعبق النبوَّة، فكان عصر عمر بن أبي ربيعة، والأحوص، والعرجي وغيرهم عشرات، ولولا قبس من نهج النبي وأخيه عليهما السلام مازالت تحمله أمّة من آل الرسول صلوات الله وسلامه عليهم وغيرهم لكتب على الإسلام السلام في دار الإسلام.

نساء في مجلس معاوية

كان الإمام عليه السلام قد علَّم صحابته دروسًا في الوقوف بوجه الباطل بكلِّ شجاعة وعنفوان مهما كانت النتائج، ولم يقتصر الأمر على الرجال فحسب، وإنما تعدَّاهم إلى كثير من النساء، بسبب معرفتهم بموقفه من الباطل، وإصراره على إقامة الحقّ، مما ولَّد عندهم إيمانًا بأنهم سينصرون على أيّ باطلٍ في مجلسه مهما كانت منزلة صاحبه وقربه منه، ويوم رحل سلام الله عليه لم تنطفئ تلك الجذوة ولا بعد حين بعيد، وستبقى.

ويستوي في هذا الأمر الرجال مع النساء، ولقد وقفت على قصص جديرة بالتدوين لنساء كنَّ من أشدّ المناصرات لعليٍّ عليه السلام، ولم تمنعهنَّ

سطوة معاوية في ملكه من الوقوف في وجهه، وهي مواقف خالدة ذكرها التاريخ بكلِّ الإعجاب للمرأة المسلمة، ومن بين تلك المواقف التي ذكرها ابن عبد ربه في عقده ٨١/٢ موقف بكّارة الهلالية، فقد استأذنت على معاوية بالمدينة فأذن لها، وكانت قد أسنَّت وضعفت قوَّتها، فدخلت بين خادمتين ترتعش من شدَّة ضعفها، وما أن رحَّب بها معاوية حتى (قال عمرو بن العاص: هي والله القائلة يا أمير المؤمنين:

يا زيد دونك فاستشر من دارنا ... سيفًا حُسامًا في التراب دفينا
قد كنت أذْخره ليوم كريهة ... فاليوم أبْرَزه الزمان مصُونا

وقال مروان: وهي والله القائلة يا أمير المؤمنين:

أترى ابنَ هندٍ للخلافة مالكا ... هيهات، ذاك– وإن أراد– بعيدُ
منَّتك نفسك في الخلاء ضَلالةً ... أغراك عمرو للشقا وسعيد

وقال سعيد بن العاص: هي والله القائلة:

قد كنت أطمع أن أموت ولا أرى ... فوق المنابر من أميَّة خاطبا
فالله أخَّر مدَّتي فتطاولت ... حتى رأيت من الزمان عجائبا
في كلّ يومٍ للزمان خطيبهم ... بين الجميع لآل أحمد عائبا

ثمَّ سكتوا، فقالت: يا معاوية، كلامك أعشى بصري وقصَّر حُجَّتي، أنا والله قائلة ما قالوا، وما خفي عليك منِّي أكثر، فضحك وقال: ليس يمنعنا ذلك من برِّك، اذكري حاجتك. قالت: الآن فلا).

وموقف الزرقاء بنت عدي الهمدانية، فقد ذكر ابن عبد ربه في عقده ٨٢/٢ أيضًا بينما كان عمرو وسعيد وعتبة والوليد في مجلس معاوية استذكروا موقف تلك السيدة التي وقفت بقامتها الفارعة في جيش عليٍّ بمعركة صفِّين،

وما قالته لحثّ الفرسان على نصرة الحقّ الذي مثّله أبو الحسن عليه السلام، وطلب معاوية من ذلك النفر أن يشيروا عليه بشأنها، فاقترحوا عليه قتلها، فبأس رأيهم، ثم طلب من عامله على الكوفة أن يوفدها مع ثقة من محارمها، وعدَّة من فرسان قومها، وأمره أن يجهزها بأحسن جهاز، فلما دخلت قال لها: (ألست الراكبة الجمل الأحمر، والواقفة بين الصَّفّين في صفّين تحضّين على القتال، وتوقدين الحرب، فما حملك على ذلك؟ قالت يا أمير المؤمنين، مات الرأس، وبُتِر الذنب، ولم يعُد ما ذهب، والدَّهر ذو غير، ومن تفكّر أبصر، والأمر يحدث بعد الأمر...)، ثم قال لها: (والله يا زرقاء، لقد شركت عليًا في كلّ دم سفكه؛ قالت: أحسن الله بشارتك، وأدام سلامتك، فمثلك بشَّر بخير وسرَّ جليسه؛ قال: أو يسرُّك ذلك؟ قالت: لقد سُررتُ بالخبر فأنّى لي بتصديق الفعل، فضحك معاوية وقال: والله لوفاؤكم له بعد موته أعجب من حبّكم له في حياته، اذكري حاجتك؛ قالت: يا أمير المؤمنين، آليت على نفسي أن لا أسأل أميرًا أعنت عليه أبدًا، ومثلك من أعطى عن غير مسألة، وجاد في غير طِلبة).

وروى ابن عبد ربه في عقده ٢/٨٣–٨٤ أيضًا أن مروان بن الحكم حبس غلامًا من بني الليث فأتته جدَّته أم سنان بنت خيثمة المذحجيّة فكلّمته في الغلام، فأغلظ لها مروان، فذهبت تشتكيه إلى معاوية، فدخلت مجلسه وانتسبت إليه، فقال لها: مرحبًا يا ابنة خيثمة، ما أقدمك أرضنا؟ وقد عهدتك تشتمينا وتحضّين علينا عدوّنا)، فلم ترهبه، ولم تتنصّل من موقفها السابق، وإنما أجابته بلسان طليق: (إن لبني عبد مناف أخلاقًا طاهرة، وأحلامًا وافرة؛ لا يجهلون بعد علم، ولا يسفهون بعد حِلم، ولا ينتقمون

بعد عفوٍ، وإن أولى الناس باتباع ما سنَّ آباؤه لأنت؛ قال: صدقت، نحن كذلك، فكيف قولك:

والليل يصدر بالهموم ويوردُ	عَزَبَ الرُّقادُ فمُقْلتي لا ترقد
إنَّ العدوَّ لآلِ أحمد يُقصَدُ	يا آل مذحج لا مُقام فشمِّروا
وسط السماء من الكواكبِ أسعدُ	هذا عليٌّ كالهلالِ تَحُفُّه
إن يهدِكُم بالنُّورِ منه تهتدُوا	خيرُ الخلائقِ وابن عمِّ محمَّدٍ
والنَّصر فوق لوائه ما يُفقَدُ	مازال مذ شَهِدَ الحروبَ مظفَّرًا

قالت: كان ذلك يا أمير المؤمنين، وأرجو أن تكون خلفًا بعده.

فقال رجل من جلسائه: كيف يا أمير المؤمنين، وهي القائلة:

بالحقِّ تُعرفُ هاديًا مهديًّا	إما هلكت أبا الحسين فلم تزلْ
فوق الغصون حمامة قمريًّا	فاذهب عليك صلاة ربِّك ما
أوصى إليك به فكنت وفيًّا	قد كنت بعد محمَّد خلفًا كما
هيهات نأمل بعده إنسيًّا	فاليوم لا خلف يؤمَّل بعده

قالت: يا أمير المؤمنين، لسان نطق، وقولٌ صدق. ولئن تحقَّق فيك ما ظننا فحظك الأوفر؛ والله ما ورَّثك الشنآن في قلوب المسلمين إلاَّ هؤلاء فأدْحِض مقالتهم، وأبْعِد منزلتهم، فإنَّك إن فعلت ذلك تزدد من الله قربًا، ومن المؤمنين حبًّا؛ قال: وإنك تقولين ذلك؟ قالت: سبحان الله! والله ما مثلك مُدِح بباطل، ولا اعتُذر إليه بكذب، وإنك لتعلم ذلك من رأينا، وضمير قلوبنا، كان والله عليٌّ أحبَّ إلينا منك، وأنت أحبُّ إلينا من غيرك؛ قال: ممن؟ قالت: من مروان بن الحكم وسعيد بن العاص؛ ...)، فكتب إلى مروان بإطلاق سراح ابن ولدها، وأكرمها.

ومن المواقف الجديرة بالذكر في مجلس معاوية ما رواه ابن عبد ربه في عقده ٨٥/٢ أيضًا بسنده عن عكرمة، حول وفادة عكرشة بنت الأطرش بن رواحة، فقد دخلت عليه متوكّئة على عُكّاز، وسلّمت بالخلافة فقال لها معاوية بعد أن جلست: (الآن يا عكرشة صرت عندك أمير المؤمنين؟ قالت: نعم، إذ لا عليٌّ حيٌّ، قال: ألستِ المتقلّدة حمائل السيف بصفّين، وأنت واقفة بين الصفّين تقولين: أيها الناس، عليكم أنفسكم... هذه بدر الصُّغرى، والعقبة الأخرى، يا معشر المهاجرين والأنصار، امضوا على بصيرتكم، واصبروا على عزيمتكم، فكأني بكم غدًا، وقد لقيتم أهل الشام كالحُمُرِ الناهقة تصقعُ صَقعَ البقر، وتروث روث العتاق. فكأني أراك على عصاك هذه وقد انكفأ عليك العسكران، يقولون هذه عِكْرشة بنت الأطرش بن رواحة، فإن كِدْتِ لتقتلين أهل الشام لولا قدر الله، وكان أمر الله قدرًا مقدورًا، فما حملك على ذلك؟ قالت: يا أمير المؤمنين، قال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْأَلوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ وإن اللبيب إذا كره أمرًا لا يحبُّ إعادته؛ قال: صدقت فاذكري حاجتك؛ قالت: إنه كانت صدقاتنا تؤخذ من أغنيائنا فتُردُّ على فقرائنا، وإنّا قد فقدنا ذلك، فما يجبر لنا كسير، ولا ينعشُ لنا فقير، فإن كان ذلك عن رأيك، فمثلك انتبه عن غفلة، وراجع التوبة، وإن كان عن غير رأيك، فما مثلك من استعان بالخونة، ولا استعمل الظَّلمة. قال معاوية: يا هذه، إنه ينبُو بنا من أمور رعيّتنا أمور تنبثق، وبحور تنفهق، قالت: سبحان الله، والله ما فرض الله لنا حقًّا فجعل فيه ضررًا على غيرنا، وهو علاّم الغيوب؛ قال معاوية: هيهات يا أهل العراق، نبّهكم علي بن أبي طالب فلن تُطاقوا. ثمّ أمر بردّ صدقاتهم فيهم وإنصافها).

ومن طريف ما رواه ابن عبد ربه في عقده ٢/٨٧–٨٩ أيضًا أن معاوية حجَّ مرَّة فسأل عن امرأة من بني كنانة تسكن الحجون، وكانت سوداء كثيرة اللحم، فجيء بها، فقال: ما حالك يا ابنة حام؟ فقالت: لست لحام إن عِبْتَني، أنا امرأة من بني كنانة؛ قال: صدقت، أتدرين لم بعثت إليك؟ قالت: لا يعلم الغيب إلاَّ الله؛ قال: بعثت إليك لأسألك علام أحببت عليًّا وأبغضتِني، وواليتِهِ وعاديتِني؟ قالت: أوَتُعْفِني؟ قال: لا أعفيك؛ قالت: أما إذا أبيت، فإني أحببتُ عليًّا على عدله في الرعيَّة، وقَسمِهِ بالسويَّة، وأبغَضتُك على قتالك من هو أولى منك بالآمر، وطِلْبتك ما ليس لك بحقٍّ؛ وواليت عليًّا على ما عقد له رسول الله صلى الله عليه وسلم من الولاء، وحُبِّه المساكين، وإعظامه لأهل الدين، وعاديتك على سفك الدماء، وجورك في القضاء، وحكمك بالهوى؛ قال: فلذلك انتفخ بطنك، وعظم ثدياك، وربت عجيزتك؛ قالت: يا هذا، بهند والله كان يضربُ المثل في ذلك لا بي؛ قال معاوية: يا هذه أربعي، فإنا لم نقل إلاَّ خيرًا، إنه إذا انتفخ بطن المرأة تمّ خَلق ولدها، وإذا عظم ثديها تَرَوَّى رضيعُها، وإذا عظمت عجيزتُها رزُنَ مجلِسُها، فرجعت وسكنت. قال لها: يا هذه هل رأيت عليًّا؟ قالت: إي والله؛ قال: فكيف رأيته؟ قالت: رأيته والله لم يفتنه المُلك الذي فتنك، ولم تَشغله النعمة التي شغلتك؛ قال: فهل سمعت كلامه؟ قالت نعم والله، فكان يجلو القلبَ من العمى، كما يجلو الزيتُ صدأ الطَّست؛ قال: صدقت، فهل لك من حاجة؟ قالت: أو تفعل إذا سألتك؟ قال: نعم؛ قالت تعطيني مائة ناقة حمراء فيها فحلها وراعيها؛ قال: تصنعين بها ماذا؟ قالت: أغذو بألبانها الصغار، وأستحْيي بها الكبار، وأكتسب بها المكارم، وأصلح بها بين العشائر؛ قال: فإن أعطيتك ذلك، فهل أحلّ عندك

محلَّ علي بن أبي طالب؟ قالت: ماء ولا كصدَّاء، ومرعى ولا كالسعدان، وفتى ولا كمالك يا سبحان الله، أو دونه؟ ..ثم قال لها: أما والله لو كان عليٌّ حيًّا ما أعطاك منها شيئًا؛ قالت: لا والله، ولا وبرة واحدة من مال المسلمين).

وروى في عقده ٢/٩٢–٩٣ أيضًا (أن أروى بنت الحارث بن عبد المطّلب دخلت على معاوية، وهي عجوز كبيرة، فلمّا رآها معاوية قال: مرحبًا بك وأهلاً يا عمَّة، فكيف كنت بعدنا؟ فقالت: يابن أخي، لقد كفرتَ يدَ النعمة، وأسأت لابن عمِّك الصحبة، وتسمَّيت بغير اسمك، وأخذت غير حقّك، من غير بلاء كان منك، ولا من آبائك، ولا سابقة في الإسلام، بعد أن كفرتم برسول الله صلى الله عليه وسلّم، فأتعسَ الله منكم الجدود، وأضرع منكم الخدود، وردَّ الحقَّ إلى أهله، ولو كره المشركون. وكانت كلمتنا هي العليا، ونبيّنا محمد هو المنصور، فولِّيتم علينا من بعده، تحتجون بقرابتكم من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ونحن أقرب إليه منكم، وأولى بهذا الأمر، فكنّا فيكم بمنزلة بني إسرائيل في آل فرعون، وكان علي بن أبي طالب رحمه الله بعد نبيّنا صلى الله عليه وسلّم بمنزلة هارون من موسى، فغايتنا الجنَّة وغايتكم النار. فقال لها عمرو بن العاص: كفّي أيتها العجوز الضَّالّة، وأقصِري من قولك مع ذهاب عقلكِ، إذ لا تجوز شهادتك وحدك! فقالت له: وأنت يا ابن النابغة، تتكلّم وأمُّك كانت أشهر امرأة تغنّي بمكّة وآخذهنَّ لأجرة؛ ادَّعاك خمسة نفر من قريش، فسُئلت أمُّك عنهم، فقالت: كلهم أتاني، فانظروا أشبههم به فألحقوه به؛ فغلب عليك شبه العاص بن وائل، فلحِقت به. فقال مروان: كفّي

أيتها العجوز، واقصدي لما جئت له. فقالت: وأنت أيضًا يابن الزرقاء تتكلَّم! ثم التفتت إلى معاوية فقالت: والله ما جرَّأ عليّ هؤلاء غيرك، فإن أمَّك القائلة في قتل حمزة:

والحرب بعد الحرب ذات سعر نحن جزيناكم بيوم بدر
وشكر وحشي عليّ دهري ما كان لي عن عتبة من صبر
حتى تَرمَّ أعظمي في قبري

فأجابتها بنت عمّي وهي تقول:

يا بنت جبَّار عظيم الكُفر خُزِيتِ في بدرٍ وبعد بدر

فقال معاوية: عفا الله عما سلف، يا عمَّة، هات حاجتك؛ فقالت: ما لي إليك حاجة وخرجت عنه).

وعلى الرغم من أنف الباطل فإن العصور لم تخل من الأقلام الشَّريفة التي عرفت حقَّ الإمام فأدَّته على قدر استطاعتها، وعلى قدر موقفها من رواة سيرته، ولقد حفظوا شيئًا غير قليل من أخباره، وفضائله، وهذا القليل المحفوظ من الصَّعب أن يجمع لانتشاره بصورة غريبة على طول كتب التراث وعرضها.

وليست كراهية الإمام ومناصبته العداوة والبغضاء ابنة حكمه عليه السلام، وإنما هي قديمة قدم الدعوة المحمدية المباركة، وهي رفيقة مسيرته مع المصطفى، فيوم فتحت قريش عينها على دعوة سيد الكائنات صلوات الله وسلامه عليه رأته بجانبه، ويوم شهر رسول الله سيفه بوجه الشرك دفاعًا شريفًا عن دعوته وحقوق صحابته التي هدرتها، رأت ذلك السيف بيد الإمام يحصد به الرؤوس دونما هيبة أو خوف أو شفقة، إذ كان إيمانه لا يعرف موازنة ولا مهادنة، كان مباشرًا حادًّا كسيفه، ليس للعاطفة أو القرابة محلٌّ عنده، ولا

أشك في أن الرحم تعطفه أحيانًا، ولعلك لمحت ذلك في سيرته يوم يستنجد بها خصمٌ في ساعته الأخيرة، فكم من خصم لم يجهز عليه لأن الرحم قد عطفته عليه، وقد رأينا هذا في معركة أحد يوم جندل كبش الكتيبة وتركه وفيه رمق، ورأيناه لم يسلب ابن عبد ودٍّ العامري للسبب نفسه، ولم نره يسلب فارسًا من الفرسان الذين جندلهم بسيفه في أية منازلة، لا لأن نفسه تعف عن الحطام فحسب، ولكن لأنه كان مجبرًا في كل مرة على استعمال لغة السيف ليقينه بعدم جدوى لغة الحوار، لذا فإن غير قليل من أوسمة الرسول التي وشّحه بها كان بسبب موقفه الذي لا يعرف المهادنة في الحق أو العقيدة، وسأذكر لك جملة من الأحاديث كي تستشفَّ منها موقف الأحداث منه في حياة النبيِّ صلوات الله عليه وبعد رحيله.

ـ من آذى عليًّا فقد آذاني.

والحديث الشريف ذكره الذهبي في عهده ٦٣١ عن عمرو بن شاس الأسلمي قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلّم يقول: ... الحديث)، ورواه ابن حجر في مطالبه ٤/٦٤ برقم ٣٩٦٨ عن سعد بسنده، أما حكايته فذكرها أحمد في مسنده برقم٢٦٤ عن عمرو وكان قد خرج مع الإمام عليه السلام إلى اليمن قال: (فجفاني في سفري ذلك حتى وجدت في نفسي عليه، فلما قدمت أظهرت شكايته في المسجد حتى بلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخلت المسجد ذات غدوة ورسول الله صلى الله عليه وسلم في ناس من أصحابه فلما رآني أبدَّني عينيه يقول: حدَّد إلي النظر حتى إذا جلست قال: « يا عمرو، والله لقد آذيتني » قلت: أعوذ بالله أن أوذيك يا رسول الله، قال: « بلى من آذى عليًّا فقد آذاني ».

وإذا كان أصحاب الحديث قد ذكروا الحديث ومناسبته، فإنهم أغفلوا السبب الذي دفع الإمام إلى جفاء الأسلمي هذا، فلم يكن مزاجيًا، ولا من طبعه جفوة أحد بلا سبب، فخلقه خلق رسول الله صلوات الله وسلامه عليهما.

ويبدو أن الحديث قاله النبي صلى الله عليه وآله وسلّم في المدينة بعد عودة الإمام بجيشه من اليمن لا لأنه كان موضع حسد بعض الصحابة لمنزلته منه فحسب، وإنما لأنه كان موضع بغض ذلك البعض لأسباب ألمحنا إليها في غير موضع.

وأزعم أن دائرة الكراهية والبغضاء بدأت بالاتساع بعد فتح مكّة، فالطلقاء وجدوا لهم في المدينة أهلاً، وبيوتًا دخلوها من أوسع أبوابها، وما كان دخول غالبيتهم الإسلام عن إيمان، وإنما عن رهبة بعد انكسار شوكتهم، ولقد رأينا بعض وجوههم الكالحة التي تبعت جيش حنين كيف كانت تنتظر الفرصة السانحة لهزيمة المسلمين وانكسارهم، ويا لفرحة أبي سفيان ساعة هزيمة جيش المسلمين، بل لعل من اشترك فيه من الطلقاء كان سببًا من أسباب تلك الهزيمة، وكان الإمام إمام الصامدين فيها بين يدي المصطفى، وهكذا كانت الكراهية للحق تكبر يومًا بعد يوم فتلتهب نارها في القلوب، وهناك آلاف الألسنة التي تغذيها همسًا وجهارًا.

روى ابن حجر في مطالبه العالية ٤/ ٦٣ برقم ٣٩٦٦ أن مصعب بن سعد حدَّث عن أبيه قال: (كنت جالسًا في المسجد مع رجلين فتذاكرنا عليًا لنتاول منه، فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم مغضبًا يعرف في وجهه الغضب، فقلت: أعوذ بالله من غضب رسول الله، قال: «ما لكم ولي، من آذى عليًا

فقد آذاني» يقولها ثلاث مرات، قال: فكنت آتي من بعد فيقال: إن عليًا يُعرِّض بك يقول: اتَّقوا فتنة الأخينس، فأقول: هل سمَّاني، فيقولون: لا، فأقول: إن خنيس الناس لضنين، معاذ الله أن أوذي رسول الله صلى الله عليه وسلَّم بعد ما سمعت منه ما سمعت)، وتابعه في روايته ابن كثير في البداية والنهاية ٥/٤٦٠ من غير طريق، فالحديث لم يكن خلسة بين اثنين على قارعة الطريق، وإنما كان على مسمع من جمهور من الصحابة في مسجد رسول الله.

ولعلَّك قد اطَّلعت على ما قاله المصطفى صلوات الله عليه حين أوكل عليٌّ عليه السلام إمرة سريَّته إلى أحد صحابته يوم وصل من اليمن إلى مشارف مكة كي يلتقي النَّبيَّ لإخباره عن بعثته تلك، وما فعله ذلك الصحابي الذي استأمنه على السريَّة بما كانت تحمله من زكاة اليمنيين، فقد كسا الجيش منها بسبب إلحاحهم عليه، فلما عاد الإمام إلى سريَّته عنَّف من استأمنه، وطلب من جنوده خلع تلك الملابس إذ لا يحقُّ لأحد التصرف بها غير رسول الله، وقد أدى ذلك إلى غضب بعضهم، فلما التقوا الرسول شكوه إليه، فقام صلوات الله عليه خطيبًا وقال في حقِّه ما قال، وإذا كانوا قد سكتوا بعد خطبته صلى الله عليه وآله وسلم تلك، فإن سكوت بعضهم كان إلى حين، ولكنَّه لم يكن ببعيد.

وروى أحمد في كتاب فضائل أمير المؤمنين ٢٨٧ برقم ٢١٣ بسنده عن عروة بن الزبير (أن رجلاً وقع في علي بن أبي طالب عليه السلام بمحضر من عمر. فقال له عمر: تعرف صاحب هذا القبر؟ هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب. وعلي بن أبي طالب بن عبد المطَّلب، فلا تذكر عليًّا إلاَّ بخير، فإنك إن أبغضته آذيت هذا في قبره).

– من سبَّ عليًّا فقد سبَّني.

والحديث المذكور ذكره أحمد في مسنده برقم ٢٦٧، وقريبًا منه ما ذكره البلاذري في أنسابه ٤٠٦/٢ والذهبي في عهده ٦٣٤ برواية أم سلمة قال: (وقال أبو إسحاق السبيعي، عن أبي عبد الله الجدلي، قال: دخلت على أم سلمة فقالت لي: أيسبُّ فيكم رسول الله صلى الله عليه وسلّم؟ قلت: معاذ الله ! قالت: سمعت رسول الله ... الحديث) وعلّق الذهبي فقال: (رواه أحمد في مسنده)، وخرَّج محقق الكتاب الحديث المذكور (من مسند أحمد ٣٢٣/٦، والترمذي في المناقب ٣٨٠١ من طريق المساور الحميري، عن أمه، والحاكم في المستدرك).

ولا شكَّ أنَّ النبيَّ صلوات الله عليه لم يقل قوله ذاك إلاّ بعد أن وصله سبّ المرتضى من غير طريق، كما أنَّ كلامه لم يكن بهذا الإيجاز - كما أظن -فلابد له من مقدّمة ذكر فيها فضائل عليٍّ عليهما السلام، وظلم من يقع فيه.

ويبدو أنه لم يكن ذلك موقفها الوحيد من سبِّ عليٍّ عليه السلام، فقد ذكر ابن عبد ربه في عقده ٣٣٥/٤ أنه لمّا مات الحسن بن علي عليه السلام حجَّ معاوية، ولمّا دخل المدينة (أراد أن يلعن عليًّا على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلّم. فقيل له: إن هنا سعد بن أبي وقّاص، ولا نراه يرضى بهذا، فابعث إليه وخذ رأيه. فأرسل إليه وذكر له ذلك، فقال: إن فعلت لأخرجنَّ من المسجد، ثمَّ لا أعود إليه. فأمسك معاوية عن لعنه حتى مات سعد، فلمَّا مات لعنه على المنبر، وكتب إلى عمّاله أن يلعنوه على المنابر. ففعلوا. فكتبت أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلّم إلى معاوية: إنكم تلعنون الله

ورسوله على منابركم، وذلك أنكم تلعنون علي بن أبي طالب ومن أحبَّه، وأنا أشهد أن الله أحبَّه ورسولَه. فلم يلتفت إلى كلامها)، ولك أن تتخيل وضعية أهل البيت ومدى التضييق الذي مورس عليهم وهم يستمعون إلى لعن عليٍّ ولا يستطيعون منعه أو الردَّ عليه.

أما أبو نعيم فقد رواه بسنده في حليته ١/٦٨ عن إسحاق بن كعب بن عجرة عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ « لا تسبُّوا عليًّا فإنه ممسوس في ذات الله تعالى»، فأبو الحسن يسبُّ، وشتيمته يسمعها القاصي والداني، وليس في زمن بني أمية أو بني مروان، ولكن في زمن الرسول، وتحت سمعه وبصره صلوات الله وسلامه عليه، وعلى الرغم من ذلك السباب، واللوك في سيرته الشريفة ما رأيناه يردُّ على أحدٍ سبابه، وما قرأنا في كتاب أنه عاتب هذا أو ذاك على ما قال أو ادَّعى زورًا وبهتانًا.

وذكر ابن حجر في مطالبه العالية ٤/٦٤ برقم ٣٩٦٧ أن أبا بكر بن خالد بن عرفطة قال: (أتيت سعد بن مالك بالمدينة فقال: ذُكِرَ لي أنكم تسبون عليًّا؟ قال: قد فعلنا، قال: فلعلك قد سببته؟ قال: قلت: معاذ الله، قال: لا تسبه، فلو وضع المنشار على مَفرقي على أن أسبَّ عليًّا ما سببته أبدًا بعدما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلّم ما سمعت)، وإذا كان سعد بن مالك قد امتنع عن سبِّه، فهل امتنعت الفئة الباغية؟!!

- لا يحبُّك إلا مؤمنٌ، ولا يَبْغَضُك إلاَّ منافق.

والحديث في سنن مسلم برقم ٣٨١٩، وابن ماجة ٨١/١ برقم ١١٤/١، وأنساب البلاذري ٣٥٠/٢ وفضائل أمير المؤمنين لأحمد برقم ٨٤ وفيها عن زر بن حبيش عن علي، وتابعه ابن الأثير في أسده ٦٠١/٣ قال: (لقد عهد إليَّ النبي صلى الله عليه وسلم أن لا يحبُّك إلاَّ مؤمن ولا يبغضك إلاَّ منافق).

وهو من أوسمة الإمام التي ذكرها مسلم في مناقب الصحابة أيضًا برقم ٣٨٠١ عن ابن بريدة عن أبيه، وذكره أيضًا برقم ٣٨٠٠، وذكره أحمد في فضائل أمير المؤمنين ١٤٤ برقم ١٠٣ عن أبي سعيد الخدري، وتابعه في ذكره ابن الأثير في أسده ٦٠٦/٣ أنه قال: (إن كنَّا لنعرف المنافقين نحن معشر الأنصار ببُغْضِهم علي بن أبي طالب).وذكر الترمذي برقم ٣٨٠١ (عن المساور الحميري عن أمه قالت: دخلت على أم سلمة فسمعتها تقول: كان رسول الله صلى الله عليه وسلَّم يقول: «لا يُحبُّ عليًّا منافق، ولا يبغَضُهُ مؤمن»)، كما ذكره ابن حنبل برقم ٢٦٦ عن أم سلمة، وعن علي عليه السلام أيضًا برقم ٢٦٨، وذكر ابن عبد البر في استيعابه ١١٠٠/٣ أن الحديث المذكور عن طائفة من الصَّحابة، كما ذكر أن عليًّا كان يقول: (والله إنه لعهد النبي الأمي إليّ أنه لا يحبني إلا مؤمن، ولا يبغضني إلاَّ منافق)، ورواه أيضًا الذهبي في تاريخه ٦٣٤ من طرق عدَّة، وقال: أخرجه مسلم، والترمذي، وصححه، كما رواه في طبقات قرائه١ /٨.

وما كان صلوات الله وسلامه يقول ما قال بلا مناسبة، فقد وجد الكراهية قد تغلغلت في نفوس بعضهم ولاسيما الطلقاء من القرشيين، فعليٌّ لا يسير على الأرض، وإنما يسير على أكبادهم ومهجهم يصابحونه ويماسونه، ويتذكرون ما فعله بمن شارك منهم أو من آبائهم وأقاربهم في جيوش الشِّرك، وهم لا يقدرون على الثأر منه بعد أن خذلهم الإسلام بسيفه، فليس أمامهم

إلاّ التشنيع به، وإظهار العداوة والبغضاء له، وإلاّ سبه في كل مناسبة تسنح لهم. فقال الرسول ما قال.

ـ من أحبَّ عليًّا فقد أحبَّني، ومن أبغض عليًّا فقد أبغضني، ومن آذى عليًّا فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله.

والحديث المذكور ذكره ابن عبد البر في استيعابه ٣/١١٠١، وأنت تتساءل عن سرِّ تلك الكراهية والبغضاء، فأنت حينما مررت بسيرته من الولادة إلى الرحيل لم تجد فيها ما يتعارض مع قيم الإسلام، ولم تقف على أمر ميَّز الإمام فيه نفسه عن الآخرين، بل لم تقف على ما يوحي في سيرته على كلِّ ما يدعو إلى شنآن القوم، فلم يدخل يومًا معهم في زحام على سلب أو متاع، ولم يطلب من أخيه المصطفى ما كان يطلبه منه صحابته، ولقد وجدته منصرفًا انصرافًا تامًّا إلى ما يعزّ الإسلام وينصره، ورأيته على الرغم من فقره المدقع يجود بما يملك لمساعدة فقير أو مسكين حتى قال الله سبحانه بحقّه ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً ◆ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُوراً ﴾.

ومن حقائق ما قيل عنه عليه السلام ما رواه أحمد في كتاب فضائل أمير المؤمنين ٣١٦ برقم ٢٣٦ عن سعيد بن جبير الذي روى أنه ذُكر علي بن أبي طالب عليه السلام عند ابن عباس فقال: (إنكم لتذكرون رجلاً كان يسمع وطء جبريل عليه السلام فوق بيته)، وكان النبيُّ صلوات الله وسلامه عليه يحثُّ صحابته على محبَّة أخيه في كلِّ مناسبة، ولا يقصر المحبَّة على حياته، وإنما يعدِّيها إلى ما بعد مماته، فقد روى أحمد في كتاب فضائل أمير المؤمنين ٣٢٧ برقم ٢٤٥ بسنده الذهبي عن الحسين عليه السلام أن الزهراء عليها السلام

قالت: (خرج علينا رسول الله صلى الله عيه وآله وسلّم عشيَّة عرفة فقال: « إنَّ الله عزَّ وجلَّ باهى بكم وغفر لكم عامَّة ولعلي خاصَّة، وإنِّي رسول الله إليكم غير محاب لقرابتي. إن السعيد كلَّ السعيد حقّ السعيد من أحبَّ عليًا في حياته وبعد موته»)، وأنت تلحظ من خلال الحديث أن ذلك الحث لم يكن برغبة من رسول الله فحسب، وإنما هو أمر من الله سبحانه وتعالى، لأنه صلوات الله عليه رسول الله، وحاشاه أن يحابي أحد بسبب قرابة.

ولا شك أنك مدرك السبب وراء تلك العداوة والبغضاء، فسيوف غالبية الصحابة من قريش خرجت من معارك الإسلام الكبرى التي مزَّقت الشرك شرَّ ممزَّق بيضاء نقيَّة تسرُّ القرشيين ومن لفَّ لفهم كما سبق ذكر ذلك، يضاف إلى هذا أن الإمام كان لا يغض النظر في أي أمر يتعلق بقيم العقيدة، أو الحق، وهو أمر كان مثار إزعاج لبعض الصحابة أحيانًا كثيرة.

– عليٌّ رجل يحبُّ اللهَ ورسوله، ويحبُّه اللهُ ورسولُهُ

والحديث المذكور ذكره الترمذي في سننه في أبواب المناقب برقم ٣٨٠٩ عن البراء قال: (بعث النبي ﷺ جيشين وأمَّر على أحدهما علي بن أبي طالب وعلى الآخر خالد بن الوليد وقال: « إذا كان القتال فعلي »، قال: فافتتح عليٌّ حصنًا فأخذ منه جارية فكتب معي خالد كتابًا إلى النبي صلّى الله عليه وسلم يشي به، قال: فقدمت على النبي صلى الله عليه وسلم فقرأ الكتاب فتغير لونه ثم قال: « ما ترى في رجل يحب الله ورسولَه ويُحِبُّه اللهُ ورسولُهُ »، قال: قلت أعوذ بالله من غضب الله ومن غضب رسوله، وإنما أنا رسول فسكت)، وقد ذكر حكايته مع خالد الذهبي في عهده ٦٢٩ عن البراء أيضًا.

ويكفي الإمام فخرًا وشرفًا أن يقول عليه السلام كما روى ابن ماجة في سننه ١/٨٥ برقم ٧/١٢٠ عن عباد بن عبد الله: (أنا عبد الله، وأخو رسوله، وأنا الصِّدِّيق الأكبر، لا يقولها بعدي إلاَّ كذَّاب، صلَّيتُ قبل الناس بسبع سنين)، وعن جابر بن عبد الله في كتاب فضائل أمير المؤمنين ٣٨٠ برقم ٢٩٠ (ثلاث سنين قبل أن يصلي معه أحد)، وعن غيرهما روايات أخر في تاريخ ابن عساكر استغرقت مائة وسبع صفحات من الجزء الأول من ترجمته عليه السلام.

وهكذا تلاحظ أن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه حاول جاهدًا أن يدفع عن أخيه تلك القالة وذلك الأذى، ويمحو الكراهية من النفوس التي ناصبته العداوة، وهو في محاولته لم يصدر عن عاطفة فحسب، وإنما هو أمر الله الذي أنزل المرتضى تلك المنزلة التي لم يشاركه فيها أحد من المسلمين، ويغلب على الظن أن تلك الكراهية من ذلك البعض، قد ظهرت بجلاء بعد الحروب التي قصف بها الإمام ظهر الشرك واقتلعه من مكّة خاصّة ومن الجزيرة عامّة، فيوم دخل الناس في دين الله أفواجًا، دخلته الغالبية العظمى بعد أن تبينت لهم قوته وثباته في وجه معتقداتهم البالية، وكان صعبًا عليهم التخلّي عن سلوكهم غير الإسلامي، وبسبب احتكاكهم بالمرتضى ورؤيتهم منزلته عند المصطفى، وصلابته في ذات الله كان من الطبيعي أن يناصبه ذلك البعض العداوة والبغضاء.

كان الإمام على بيِّنة بما سيلحقه من غدر أمته به، فقد عهد له بذلك رسول الله صلوات الله وسلامه عليه، ولقد ذكر له ذلك في غير مناسبة، روى ابن حجر في مطالبه ٤/٥٦ برقم ٣٩٤٦ أن ثعلبة بن زيد قال: سمعت عليًا

يقول: والله إنه لعهد النبي صلّى الله عليه وسلم: « إنهم سيغدرون بك من بعدي» ، وفيه برقم ٣٩٤٧ عن أبي إدريس الأودي عن علي قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «إن هذه الأمّة ستغدر بك من بعدي» ، وعاده رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم بجمع من صحابته كان بينهم عمران بن حصين فلمّا رآه وهو بتلك الحال ظنّه مشرفًا على الموت ، فقال المصطفى: «إن هذا لا يموت حتى يملأ غيظًا، ولن يموت إلاّ مقتولاً» ، وقد روى الحكاية ابن عساكر في ترجمته بتاريخه ٩٧/٣ من غير طريق كما سبق ذكر ذلك.

ولكي تتمثّل حجم تلك الحملة المروعة لابد من مصدر محايد تركن إليه ، ولقد اخترت بعض ما أورده ابن أبي الحديد في شرحه النهج ، فهو على الرغم من رميه بالتشيُّع لم يكن شيعيًا ، ولكنه كان محبًا للإمام وأهل البيت عليهم السلام كجميع الكتّاب المنصفين من كلِّ المذاهب الإسلاميَّة ، وما أكثر محبِّيهم من المنصفين سواء أكانوا من الأحناف أو الحنابلة أو الشوافع أو المالكية أو الإباضيَّة أو غيرهم ، ولا يستطيع أحد أن يتَّهمه بالانحراف في موقفه من الخلفاء الراشدين ، وقد ركّزت عليه خاصّة بعد أن تعذّر عليَّ الوصول إلى كثير من الكتب الأخر ، ولكنّي لم أعدم الوسيلة أيضًا في الوقوف على عشرات النصوص الأخر في هذا المصدر أو ذاك ، وهي لا تتعارض مع ما ذكره ابن أبي الحديد أو غيره.

وقد رأيت في المبحث الخاص بأوسمته عليه السلام ، أنني لم أكن منحازًا إلاّ إلى ما وثّقته أقلام بعض العلماء من جميع الفرق التي استطعت الوصول إلى مؤلفاتها في هذا الجدب من قلّة المصادر العربية ، وبعد الديار ، وقلّة ما باليد ، وسترى أيضًا ، أننا اخترنا أخبار سيرته من كتبهم أيضًا ولم نركن في كثير من

المواضع إلى كتب أتباع مذهب أهل بيته، خوفًا من اتهامنا بالتحيُّز الذي لا نبرئ النفس منه. وإن كنَّا قد ركنَّا إلى بعضها، فلأسباب اقتضاها البحث والموضوعيَّة. ولقد أخبرتكَ أيضًا في مقدمة الكتاب أنِّي لم أكتبه لإحقاق حقٍّ، أو دفع باطل، أو للتعريف بالإمام أو الدفاع عنه، أو نشر فكره وسيرته، أو للدفاع عن فكر طائفة أو مذهب، لم يدر كل ذلك في خلدي وما فكَّرت به، نعم لقد أخذتني سيرته أخذ مقتدر، واقتلعتني وأنا على أعتاب الشيخوخة من اختصاصي الذي أنفقت عليه جميع فسحة زهرة العمر، وحيِّزًا لا أحصيه من سجنه الذي استغرقته رحلة التغرُّب الطويلة، لقد ملك عليٌّ أبو الحسنين عليه السلام أقطار نفسي حينما كنت أرى آلافًا مؤلفة من البشر تؤمُّ مرقده الشريف أثناء ذهابي إلى النجف رفقة أبويَّ للتشرُّف بزيارته، وفي أثنائها كنت أتأمَّل ضريحه المقدَّس بكلِّ إعجاب الطفولة وانبهارها، واستمرَّ التأمُّل والانبهار عقدًا بعد عقد، أما صاحب الضريح فقد امتزجت محبَّته في وجداني امتزاجًا ليس بسبب عقيدة فحسب، وإنما لأني كلَّما أنعمت النظر في سيرته الشريفة أخذني أخذ مقتدر إلى آفاقها الرحبة، فأزداد تعلُّقًا ومحبَّة وانبهارًا.

وأمَّلْتُ أن أتناول جوانب من سيرته وأنا بجوار ضريحه المقدَّس في الباقيات من أيَّام هذه الشيخوخة المتعبة، حيث كتب التراث في كلِّ مكان، وحيث الكتب الحديثة التي تناولت أحداث تلك الحقبة، أو تخصصت بسيرته عليه السلام في متناول اليد، وكلَّما رأيت الحلم قريبًا باعدته الأحداث التي تغزو العراق وتأكل الأخضر واليابس فيه حتى كاد يكون سرابًا لا ماء لصاد من ورائه، لذا عقدت النيَّة على الغوص في البحر للترويح عن النفس من الهجير

الذي اجتاح كل البلاد من خلال عرض بعض جوانب سيرته المشرقة التي تبنَّت كلَّ قيم الحقِّ والعدل والحريَّة والرأفة في محاولة للمواساة وتعظيم الأجر.

كان الإمام عليه السلام على بيِّنة بما سيفعله أعداؤه في سيرته وجثمانه بعد رحيله إن تمكَّنوا منهما، أما سيرته فكان على يقين أن سناها سيغلب كلَّ كيدهم لأن الله تكفَّل بحفظها وتخليدها، وأما جثمانه الشريف فقد خطط بعناية لإخفائه عنهم، وكان على بيِّنة بما سيفعلونه بأصحابه ومحبِّيه، لذا جوَّز لهم سبَّه لأن السبَّ زكاة له، ونجاة لمحبِّيه، ومنعهم من البراءة منه، لأنه ولد على الفطرة كما قال عليه السلام (فأمَّا السبُّ فسبُّوني؛ فإنه لي زكاة ولكم نجاة، وأمَّا البراءة فلا تتبرأوا منِّي؛ فإني ولدت على الفطرة، وسَبَقْتُ إلى الإيمان والهجرة) كما نقل ابن أبي الحديد في شرح النهج ٣/٢٨٧، وقاربه البلاذري أيضًا في أنسابه ٢/٣٦٢.

ومن النص السابق تستطيع أن تتبين مآل دولة الإسلام إلى أين، وتستطيع أن تتبيَّن ما ستفعله الألسنة الدنسة والأقلام الخبيثة بسيرة ربيب الوحي وترجمان القرآن وسيف الإسلام وعموده، فما أن تسلم معاوية زمام الحكم حتى فعل الأفاعيل كي يطفئ سنا سيرته، ويلصق بها كلما يشينها، بل أصبح من سنَّة منابر مساجد المسلمين لعنه عليه السلام في كل خطبة، أما معاوية فكان يختم خطبته بقوله: (اللهم إن أبا تراب أَلْحَدَ في دينك، وصَدَّ عن سبيلك فالعنه لعنًا وبيلاً، وعذِّبه عذابًا أليمًا، وكتب بذلك إلى الآفاق، فكانت هذه الكلمات يُشار بها على المنابر؛ إلى خلافة عمر بن عبد العزيز) كما ذكر في شرح النهج ٣/٢٧٨، وكان أصحابه عليه السلام يحاولون جهدهم دفع هذا الشر بطريقة أو بأخرى ذكر الجاحظ في بيانه ٢/١٠٥ وابن

عبد ربه في العقد ١/ ٧٨ أن معاوية (جلس بالكوفة يبايع الناس على البراءة من علي رحمه الله، فجاءه رجل من تميم، فأراده على ذلك فقال: يا أمير المؤمنين، نطيع أحياءكم ولا نبرأ من موتاكم، فالتفت معاوية إلى المغيرة فقال: إن هذا رجل فاستوص به خيرًا).

ولكن كم كان بين أصحابه عليه السلام مثل ذلك التميمي بين أهلها؟ أما السواد الأعظم فإن كانت قلوبهم معه، فإنَّ سيوفهم تحرِّكها الرؤوس، وإياك أن تظنَّ أن كلَّ رؤوس الكوفة وأصحاب الكلمة فيها من شيعته، ليس غير قلَّة قليلة منهم كانت على استعداد للتضحية في سبيل المبادئ التي نادى بها واستشهد من أجلها، وأقلّ منها من كانت على استعداد لقول كلمة الحقّ في وجه سلطان جائر، فما زلنا نتذكر ما فعلته الكوفة العلويَّة بولده الحسن الزكيِّ قبل أن يدخلها معاوية، وما فعلوه بأهل بيت النبوَّة من بعد ليس ببعيد، ولاسيما أن القادم من الشام يملك القوَّة كما يملك الأصفر الرنَّان يوزعه كيفما يشاء، لا كما كان يفعل عليٌّ لذا فإن معاوية أرجى لهم، ولاسيما للصفوة التي ازدحمت على بابه من بعد، وقد ذكر ابن قتيبة في عيونه ٢/ ٢٣٠ شيئًا قريبًا من هذا، إذ قال: (قال معاوية لشدَّاد بن أوس: يا شدَّاد، أنا أفضل أم علي؟ فقال: علي أقدم هجرة، وأكثر مع رسول الله إلى الخير سابقة، وأشجع منك قلبًا، وأسلم منك نفسًا، وأما الحب فقد مضى علي، فأنت اليوم عند النَّاس أرجى منه)، ويبدو أن لمعاوية مع هذا الشيخ غير موقف، فقد ذكر ابن قتيبة في عيونه ١/ ١١٩ أيضًا أن معاوية أمر (شدَّاد بن أوس أن يذكر عليًّا ويتنقَّصه. فقال: ... نصحك يا معاوية من أسخطك، وغشَّك من أرضاك بالباطل... فأجلسه وأمر له بمال وقال: ألست من السمحاء؟ فقال: حلالاً وأنفقته فصالاً فنعم، وإن كان مما شاركك فيه المسلمون

فأضجنته دونهم، أصبته اقترافًا، وأنفقته إسرافًا فإن الله يقول: ﴿ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُواْ إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴾.

إلاّ أن كلَّ ذلك الظلم لم يمنع من وقوف نخبة من صحابة الإمام مواقف شجاعة خلّدها التاريخ لهم، ومن طريف ما ذكره صاحب العقد الفريد في عقده ٢/٤٦٦ موقف صعصعة بن صوحان من معاوية حينما طلب منه أن يصعد المنبر فيلعن عليًّا، فلما لم ينفع الامتناع صعد المنبر وحمد الله وقال: (معاشر الناس، إن معاوية أمرني أن ألعن عليًّا فالعنوه لعنه الله).

ويقرب منه ما فعله حُجر بن عدي يوم أمره المغيرة بن شعبة - وكان أميرًا على الكوفة لمعاوية - أن يلعن عليًّا أمام الناس، فأبى ذلك فتوعَّده، فقام فقال: (أيها الناس، إن أميركم أمرني أن ألعن عليًّا فالعنوه، فقال أهل الكوفة: لعنه الله، وأعاد الضمير إلى المغيرة بالنيَّة والقصد) على ما ذكر في شرح النهج ٣/٢٧٩.

أما عبيد الله بن زياد الذي فعل الأفاعيل في صحابة الإمام، فلم يكتف بقتل الحسين وأهل بيته عليهم السلام في تلك المجزرة التي أخزت الحكم الأموي إلى قيام الساعة وكانت من أهم أسباب زوال دولتهم، وإنما فعل الأفاعيل بالباقين من صحابة الإمام، ولقد ذكر ابن الأثير في ما ذكر في تاريخه ٤/٨٣ أن عبد الله بن عفيف الأزدي ذهبت إحدى عينيه يوم الجمل مع علي، ولأخرى بصفين، قتله ابن زياد، وأمر بصلبه في المسجد بعد أن ردَّ عليه حين قال: (الحمد لله الذي نصر يزيد وحزبه، وقتل الكذّاب بن الكذاب الحسين بن علي وشيعته، فردَّ عليه عبد الله، وكان ضريرًا: إن الكذاب بن الكذاب أنت

وأبوك والذي ولاّك وأيّده ! يا ابن مرجانة أتقتلون أبناء النبيين، وتتكلّمون بكلام الصدّيقين، فأمر بقتله وصلبه في المسجد).

وذكر ابن قتيبة في عيونه ٢/٢١٥ أن عبيد الله بن زياد قال لقيس بن عبّاد: (ما تقول فيّ وفي الحسين؟ فقال: أعفني أعفاك الله! فقال: لتقولنّ، قال: يجيء أبوه يوم القيامة فيشفع له، ويجيء أبوك فيشفع لك، قال: قد علمت غشك وخبثك، لئن فارقتني يومًا لأضعن في الأرض أكثرك شعرًا)، ومما ذكره ابن خلّكان في وفياته ٢/٤٦٥ أن معاوية بن أبي سفيان ذكر في مجلسه، فَوُصِفَ بالحلم فقال شريك: (ليس بحليم من سفّه الحقّ وقاتل علي بن أبي طالب رضي الله عنه).

وذكر ابن عبد ربه في عقده ٢/٢٦٤ أن معاوية قال لخالد بن معمر: (كيف حبك لعلي بن أبي طالب عليه السلام؟ قال: أحبُّه لثلاث خصال: على حِلمه إذا غَضِبَ، وعلى صدقه إذا قال، وعلى وفائه إذا وعد).

أما أدوات السلطان وجنود الباطل فكان يَلَذُّ لهم لعن عليٍّ وشتمه إرضاءً لسلطانهم ولو على البعد منه، فمما ذكره ابن أبي الحديد في شرح النهج ٢/٢٧٨ أيضًا نقلاً عن المبرِّد في كامله أن خالد بن عبد الله القسري لمّا كان أمير العراق في خلافة هشام (كان يلعن عليًّا فيقول: اللّهم العن عليَّ ابن أبي طالب بن عبد الطلب بن هاشم، صهر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على ابنته، وأبا الحسن والحسين! ثمَّ يقبل على الناس، فيقول هل كَنَّيْت!)، وروى أبو الفرج في أغانيه ٢٢/٢٥ عن ابن عائشة قال: (حدثني من سمعه وقد لعن عليًّا صلوات الله عليه وسلامه فقال في ذكره: علي بن أبي طالب ابن عم محمد بن عبد الله بن عبد المطلب وزوج ابنته فاطمة، وأبو الحسن

والحسين، هل كنِّيت: اللهم العن خالدًا وأخزه، وجدد على روحه العذاب)، وذكر أبو الفرج في أغانيه ٢٢/ ٢٠ أيضًا أن خالدًا هذا طلب من ابن شهاب أن يكتب له النسب، قال: (فبدأت بنسب مضر، فمكثت فيه أيّامًا، ثم أتيته فقال: ما صنعت؟ فقلت: بدأت بنسب مضر وما أتممته. فقال: اقطعه - قطع الله أصولهم - واكتب لي السيرة. فقلت له: فإنه يمرُّ بي شيء من سير علي بن أبي طالب - صلوات الله عليه - فأذكره، فقال: لا، إلاَّ أن تراه في قعر الجحيم. لعن الله خالدًا ومن ولاّه، وقبحهم، وصلوات الله على أمير المؤمنين)، وروى في أغانيه ٢٢/ ٢٢ أيضًا عن أبي هذيل العلاف قال:

(صعد خالد القسري المنبر فقال: إلى كم يغلب باطلنا حقّكم، أما آن لربكم أن يغضب لكم؟...وكان يقول: لو أمرني أمير المؤمنين نقضت الكعبة حجرًا حجرًا ونقلتها إلى الشام، ودخل عليه فراس بن جعدة بن هبيرة وبين يديه نبق، فقال له: العن عليًّ ابن أبي طالب ، ولك بكل نبقة دينار ففعل، فأعطاه بكل نبقة دينارًا، قال المدائني: وكان له عامل يقال له: خالد بن مي، وكان يقول: والله لخالد بن مي أفضل أمانة من علي بن أبي طالب صلوات الله عليه..).

ونقل ابن أبي الحديد في شرحه ٤/ ٢٧٨-٢٧٩ عن الجاحظ أيضًا، أن بعض بني أميَّة قالوا لمعاوية: (يا أمير المؤمنين، إنك قد بلغت ما أمَّلت، فلو كففت عن لعن هذا الرجل!فقال: لا والله حتى يربوَ عليه الصغير، ويهرم عليه الكبير، ولا يذكر له ذاكر فضلاً).

وروى أيضًا في شرحه ١٣/١٣٥ بسنده عن أبي بكر بن عبد الله الأصفهاني قال: (كان دعيٌّ لبني أميّة يقال له خالد بن عبد الله لا يزال يشتم عليًّا عليه السلام، فلمّا كان يوم الجمعة وهو يخطب بالناس، قال: والله إن كان رسول الله ليستعمله، وإنه ليعلم ما هو! ولكنَّه ختنه، وقد نعس سعيد بن المسيَّب ففتح عينيه، ثم قال: ويحكم! ما قال هذا الخبيث! رأيت القبر انصدع ورسول الله صلى الله عليه وآله يقول: كذبت يا عدوَّ الله!).

ومن معجزات الإمام عليه السلام ما روى ابن أبي الحديد في شرحه ١٣/ ١٥٣ أيضًا عن السدِّي قال: (بينما أنا بالمدينة عند أحجار الزيت، إذ أقبل راكب على بعير، فوقف فسبَّ عليًّا عليه السلام، فخفَّ به الناس ينظرون إليه، فبينما هو كذلك إذ أقبل سعد بن أبي وقّاص، فقال: اللهم إن كان سبَّ عبدًا صالحًا فأرِ المسلمين خزيه، فما لبث أن نفر به بعيره فسقط، فاندقَّت عنقه).

وذكر ابن الأثير في كامله ٤/١٩٣ أن مروان بن الحكم لعنه الله كان إذا وليَ يبالغ في سبِّ علي عليه السلام، أما ولده عبد الملك فقد كان يبغض عليًّا بغضًا شديدًا، حتى وصل من بغضه أنه سأل علي بن عبيد الله بن عباس عن اسمه وكنيته، وكان الإمام عليه السلام قد سماه باسمه وكنّاه أبا الحسن بكنيته، فقال له عبد الملك على ما ذكر ابن خلكان في وفياته: (غير اسمك وكنيتك، قال: أما الاسم فلا، وأما الكنية فأكتني بأبي محمد).

وعلى الرغم من أن مروان بن الحكم على يقين من أن الإمام عليه السلام كان في مقدمة المدافعين عن عثمان، بل كان من أصدق المسلمين نصيحة له، فإنه قال مرَّة للإمام علي بن الحسين عليه السلام: (ما كان أحد أكفَّ عن صاحبنا من

صاحبكم. قال: فلم تشتمونه على المنابر؟ قال: لا يستقيم لنا هذا إلا بهذا) كما ذكر البلاذري في أنسابه ٢/ ٤٠٧، وابن أبي الحديد في شرحه ١٣/ ١٥٢.

وذكر الجاحظ في بيانه ٢/ ١٠٤ أن الوليد بن عبد الملك وكان كثير اللحن صعد المنبر فقال: (عليٌّ بن أبي طالب لُصٌّ ابنُ لُص، صُبٌّ عليه شؤبوبُ عذاب. فقال أعرابي كان تحت المنبر: ما يقول أميركم هذا؟ وفي قوله لُصٌّ ابن لُص أعجوبتان: إحداهما رميه علي بن أبي طالب أنه لِصٌّ، والأخرى أنه بلغ من جهله ما لم يجهله أحد أنه ضمَّ اللام من لص).

وذكر الجاحظ في بيانه ٢/ ١٧٣أيضًا أن ولدًا لعبد الله بن عروة بن الزبير تنقّص عليًا فقال له أبوه: (والله ما بنى الناس شيئًا قطُّ إلاَّ هدمه الدِّين، ولا بنى الدين شيئًا فاستطاعت الدنيا هدمه، ألم تر إلى عليٍّ كيف يُظْهِر بنو مروان من عيبه وذمّه؟ والله لكأنما يأخذون بناصيته رفعًا إلى السماء، وما ترى ما يندبون موتاهم من التأبين والمدح، والله لكأنما يكشفون عن جيف)، وروى ابن قتيبة في عيونه ٢/ ٢٣ شيئًا من هذا عن العتبي، غير أنه ذكر أنه ابن لعامر بن عبد الله بن الزبير، وكذا قال ابن عبد البر في استيعابه ٣/ ١١١٨، أما ابن عبد ربه فقد نسبه في عقده ٥/ ٨٩ لحمزة بن عبد الله بن الزبير.

ونقل ابن أبي الحديد في شرحه ٣/ ٢٧٩ عن الجاحظ تعليقه على موقف عبد الملك بن مروان (مع فضله وأناته وسداده ورُجْحانه) بزعمه، في لعن الإمام، على الرغم من صلة الرحم التي تربط بينهما حتى أن الجاحظ يرى أن شرف علي عليه السلام وفضله عائد عليه، ومحسوب له، ويرى الجاحظ أن فعلة عبد الملك ودافعه كان لمحاولة تشييد ملكه وتأكيد ما فعله أسلافه. وليس لما ذكره الجاحظ

حول محاولة تشييد الحكم أي أساس، فعبد الملك لا ينسى موقف أبي الحسن من الطغمة المروانية التي كانت سببًا في كثير من مآسي المسلمين ومصائبهم.

ونقل ابن أبي الحديد في شرح النهج ١٥٢/١٣ عن الجاحظ قال: حدَّثنا أبو اليقظان قال: (قام رجل من ولد عثمان إلى هشام بن عبد الملك يوم عرفة، فقال: إن هذا يوم كانت الخلفاء تستحب فيه لعن أبي تراب)، ولا أشك في أن عثمان لو استمع إلى مقولة هذا الحفيد الفاجر لتبرأ منه.

وذكر في شرح النهج ٢٧٩/٣ أيضًا أن زياد بن أبيه أراد جمع أهل الكوفة للبراءة من عليٍّ عليه السلام ولعنه، ومن امتنع من ذلك قتله، ولكن الله عاجله بمرض الطاعون (فمات لا رحمه الله بعد ثلاثة أيام، وذلك في خلافة معاوية)، وعجيب أمر تلك النفوس كيف تصل بها الخسَّة إلى هذا الحد، فبالأمس كان زياد واليًا للإمام، وهو من أكثر الناس معرفة به وبسابقته وعدله، كيف سوَّغت له نفسه فعل ما فعله، ولقد حقَّ لأخيه أن يقاطعه أبد الدهر منذ شهادته تلك التي أنقذت المغيرة بن شعبة من الرجم.

وكان الحجاج - لعنه الله - يلعن عليًا ويأمر بلعنه كما ذكر في المصدر السابق، بل ذكرت بعض المصادر أنه نبش ثلاثة آلاف قبر في الكوفة بحثًا عن جسد الإمام الطاهر للتمثيل به.

واستمرَّ اللعن على منابر المسلمين إلى أن تولَّى الحكم عمر بن عبد العزيز فأمر برفعه، وجعل مكانه (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظُكُم لعلَّكم تَذكَّرون)، وذُكِرَ أنَّه كان يقرأ القرآن وهو صغير على عتبة بن مسعود، فقال: (مرَّ بي يومًا وأنا ألعب مع الصبيان، ونحن نلعن عليًّا، فكره ذلك ودخل المسجد، فتركت الصبيان

وجئت إليه لأدرس عليه وردي، فلمَّا رآني قام فصلَّى وأطال في الصلاة - شبه المعرض عنِّي - حتى أحسست منه بذلك، فلمَّا انفتل من صلاته كَلَحَ في وجهي، فقلت له: ما بال الشيخ؟ فقال لي: يا بنيَّ، أنت اللاعن عليًّا منذ اليوم؟ قلت: نعم، قال: فمتى علمت أن الله سَخِطَ على أهل بدر بعد أن رضي عنهم! فقلت: لا أعود، فقال: أشهد الله أنك لا تعود! قلت: نعم فلم ألعنه بعدها، ثمَّ كنت أحضر تحت منبر المدينة، وأبي يخطب يوم الجمعة - وهو حينئذ أمير المدينة - فكنت أسمع أبي يمرُّ في خُطَبِهِ تهدرُ شقاشقه، حتى يأتي لعن علي عليه السلام فيجمجم، ويعرض له الفهاهة والحصر ما الله عالم به، فكنت أعجب من ذلك، فقلت له يومًا: يا أبتِ، أنت أفصح الناس وأخطبهم، فما بالي أراك أفصح خطيب يوم حفلك، حتى إذا مررت بلعن هذا الرجل صرْت ألكن عييًا! فقال: يا بني، إن من ترى تحت منبرنا من أهل الشَّام وغيرهم، لو علموا من فضل هذا الرجل ما يعلمه أبوك لم يتبعنا منهم أحد، فوقرت كلمته في صدري؛ مع ما كان قاله معلِّمي أيَّام صِغَري، فأعطيت الله عهدًا، لئن كان لي في هذا الأمر نصيب لأغيِّرنَّه، فلما منَّ الله علي بالخلافة أسقطت ذلك) وقد روى ذلك ابن أبي الحديد في شرح النهج ٢٨١/٣، ١٥٢/١٣.

ومما ذكر من المواقف للرجل الصالح عمر بن عبد العزيز ما رواه أبو الفرج في أغانيه ٣٠١/٩ -٣٠٢ أن (عيسى بن مورق قال: كنت بالشام زمن عمر بن عبد العزيز، وكان بخناصرة، وكان يعطي الغرباء مائتي درهم، قال فجئته فأجده متكئًا على إزار وكساء من صوف، فقال لي: ممن أنت؟ قلت: من أهل الحجاز. قال: من أيهم؟ قلت: من أهل المدينة. قال: من أيهم؟ قلت:

من قريش. قال: من أي قريش؟. قلت: من بني هاشم. قال: من أي بني هاشم؟ قلت: مولى علي. قال: من علي؟ فسكتُّ. قال: من؟ فقلت: ابن أبي طالب. فجلس وطرح الكساء، ثم وضع يده على صدره وقال: وأنا والله مولى علي، ثم قال: أشهد على عدد ممن أدرك النبي يقول: قال رسول الله ﷺ: من كنت مولاه فعلي مولاه، أين مزاحم - مولى عمر بن عبد العزيز - كم تعطي مثله؟ قال: مائتي درهم. قال: أعطه خمسين دينارًا لولائه من علي. ثم قال: أفي فرض أنت؟ قلت: لا. قال: وأفرض له، ثم قال: الحق ببلادك فإنه سيأتيك كما يأتي غيرك)، ويوم جاءه كتاب من عامله على الكوفة يخبره فيه بسوء طاعتهم وقّع في كتابه كما روى ابن عبد ربه في عقده ١٩٨/٤: (لا تطلب طاعة من خذل عليًا وكان إمامًا مرضيًا)، وذكر الذهبي في عهده ٦٤٥ أن الحسن بن صالح بن حيّ قال: (تذاكروا الزُّهاد عند عمر بن عبد العزيز، فقال: أزهد الناس في الدنيا عليّ بن أبي طالب).

وتقرأ في شرح النَّهج عن عبد الله بن الزبير، وأخيه عروة، وعمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة وأبي هريرة وغيرهم قصصًا في التنقُّص من سيرة الإمام عليه السلام ما لا يصدقه عقل.

ومما ذكره في الشرح ٢٨٣/٣ أن الزهري روى (أن عروة بن الزبير حدَّثه فقال: حدَّثتني عائشة، قالت: كنت عند رسول الله إذ أقبل العباس وعلي فقال: يا عائشة، إن هذين يموتان على غير ملَّتي، أو قال ديني)، وذكر عن الزهري أيضًا (أن عروة زعم أن عائشة حدَّثته، قالت: كنت عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذ أقبل العباس وعلي، فقال: يا عائشة، إن سرَّك أن

تنظري إلى رجلين من أهل النار فانظري إلى هذين قد طلعا، فنظرت، فإذا العباس وعلي بن أبي طالب).

وتنزّه السيدة عائشة من قول مثل ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم فعلى الرغم من موقفها من الإمام عليه السلام فإن كتب الأخبار والسير أوردت غير قليل من أخبار فضله وعلمه ومكانته عند الرسول صلوات الله وسلامه عليه عن طريقها.

أما عمرو بن العاص فذكر ابن أبي الحديد في الشرح ٢٨٣/٢حديثًا عنه قال: (أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما مسندًا متصلاً بعمرو بن العاص، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إن آل أبي طالب ليسوا لي بأولياء، إنما وليّي الله وصالح المؤمنين)، فإذا لم يكن آل أبي طالب من صالح المؤمنين ومنهم عليٌّ وجعفر فمن يكون!.

وروى في الشرح ٢٨٥/٣– ٢٨٦ عن شيخه أبي جعفر الإسكافي أن الأعمش قال: (لما قدم أبو هريرة العراق مع معاوية عام الجماعة جاء إلى مسجد الكوفة، فلمّا رأى كثرة من استقبله من النّاس جثا على ركبتيه، ثمّ ضرب صلعته مرارًا، وقال: يا أهل العراق، أتزعمون أني أكذب على الله وعلى رسوله، وأحرق نفسي بالنار والله لقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إن لكل نبي حرمًا، وأن حرمي بالمدينة، ما بين عَير إلى ثور، فمن أحدث فيها فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، وأشهد أن عليًّا أحدث فيها، فلما بلغ معاوية قوله أجازه وأكرمه وولاّه إمارة المدينة)، والصواب: (ما بين عَير وأحد) ولعل الغلط من الراوي كما رجح صاحب الشرح، وقال ابن أبي الحديد تعقيبًا على قول أبي هريرة: (

فأما قول أبي هريرة: أن عليًا أحدث في المدينة، فحاش الله كان عليٌّ عليه السلام أتقى لله من ذلك، والله لقد نصر عثمان نصرًا لو كان المحصور جعفر بن أبي طالب لم يبذل له إلا مثله)، وعجيب لمن يقول هذا أن يروي في حقِّ الإمام قول رسول الله صلوات الله وسلامه عليه على ما ذكر توفيق أبو علم في كتابه علي بن أبي طالب ٧١ وهو في محفل من أصحابه («إن تنظروا إلى آدم في علمه، ونوح في همه، وإبراهيم في خلقه، وموسى في مناجاته، وعيسى في سنِّه، ومحمَّد في هديه وعلمه، فانظروا إلى هذا المقبل» فتطاول الناس بأعناقهم، فإذا هو علي بن أبي طالب)، ولا أشك إن صحَّ هذا وذاك عن أبي هريرة في حقِّ الإمام عليه السلام فخصيمه هو، وويل لمن خصمه أمير المؤمنين يوم القيامة.

وذكر أيضًا أن المغيرة بن شعبة كان يلعنه عليه السلام (لعنًا صريحًا على منبر الكوفة)، وقال يومًا في مجلس معاوية: (إن عليًا لم يُنكِحْه رسول الله ابنته حبًا، ولكنَّه أراد أن يكافئ بذلك إحسان أبى طالب إليه)، وحقٌّ له أن يصول ويجول في مسجد الإمام بعد أن خلا له الجو، ولم يجد بين الكوفيين من يردعه، يلعن أبا الحسن عليه السلام، الذي لو تمكَّن منه في حياته لرجمه بالحجارة كما كان قد قرَّر على ما ذكر ابن أبي الحديد في الشرح ٢٨٧/٣ بسبب واقعة الزِّنا التي خلَّصه منها زياد بن أبيه بعد أن تملَّص من الشَّهادة.

ولقد نال أصحاب الإمام ومحبُّوه في الكوفة الأمرَّين من بطش ولاة بني أميَّة بسبب ولاء سوادها ومحبَّتهم لعليٍّ وأهل البيت عليهم السلام، ويوم وليها النعمان بن بشير الأنصاري، الذي كان يبغض أهل الكوفة لمحبتهم أمير المؤمنين منعهم الزيادة في العطاء التي أمر بها معاوية بن أبي سفيان كما ورد في

الأغاني ١٦/٣٧ أما بقيَّة ولاتهم، فقد حدَّث التاريخ بما ساموهم به من قهر وتنكيل بما سوَّد تاريخهم وسيرتهم.

وذكر المبرد في كامله ١١٩٣/٣ أن ابن الزبير ما كان يكتم البغضاء لأهل البيت، وكان يحسد محمد ابن الحنفيَّة ويبغضه لقوته، ويقال: (إن عليًّا استطال درعًا فقال: لينقصَ منها كذا وكذا حلقة، فقبض محمد بن الحنفيَّة بإحدى يديه على ذيلها، وبالأخرى على فضلها ثم جذبها فقطعها من الموضع الذي حدَّه أبوه، فكان ابن الزبير إذا حُدِّث بها غضب واعتراه أفكل).

ويكفي أن تكون من مرويَّات حريز بن عثمان كما جاء في شرح النهج ٢٨٨/٣: (حدَّثني فلان عن فلان أن النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم لمَّا حضرته الوفاة أوصى أن تُقطعَ يدُ الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام)، وقال: (أنتم يا أهل العراق تحبُّون علي بن أبي طالب عليه السلام ونحن نُبغضه، قالوا: لم؟ قال: لأنه قتل أجدادي).

وحكايات عن هذا وذاك من بني أميَّة يندى لها الجبين، فقد وصل حقدهم درجة أنهم لم يمنعوا ذكر فضائله فحسب، وإنما عاقبوا من روى شيئًا يتعلَّق بشرائع الدين من طريقه، فلم يجسر أحد على ذكر اسمه، فإذا اضطر قال: عن أبي زينب. وما أكثر شيعتهم من علماء السلطان الذين باعوا دينهم، كسمرة بن أبي سمرة الذي رضي أن يفتري على الله ورسوله بعد أن دفع له معاوية أربعمائة ألف درهم فقال: إن قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ۞ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ

لَا يُحِبُّ الفَسَادَ ﴾ نزل في حقّ عليٍّ، وإن قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللَّهِ ﴾ نزلت في حقّ ابن ملجم. (شرح ٣/٢٨٩).

واستمرَّت مدن بأجمعها تتبرأ من عليٍّ عليه السلام قرنًا بعد قرن، كمدينة خوارزم التي ذكرها أحمد بن فضلان رسول المقتدر في رسالة بعثها إليه في وصفها فقال كما روى ياقوت في معجم بلدانه ٢/٤٥٤: (وأهلها يتبرّؤون من أمير المؤمنين علي بن أبي طالب في دبر كل صلاة)، ويقابل هذه مدينة أخرى لعلها لا تبعد عنها كثيرًا وهي مدينة سجستان التي امتنعت من اللعن أو البراءة ذكرها ياقوت في معجم البلدان ٣/٢١٥ أيضًا فقال: (ومنها جرير بن عبد الله صاحب أبي عبد الله جعفر بن محمد الباقر رضي الله عنه ... وأجلُّ من هذا كله أنه لُعِنَ علي على منابر الشرق والغرب، ولم يلعن على منابرها إلاَّ مرة واحدة، وامتنعوا على بني أمية حتى زادوا في عهدهم ألاَّ يلعن عليًّا على منابرهم أحد.. وأي شرف أعظم من امتناعهم من لعن أخي رسول الله صلى الله عليه وسلَّم على منابرهم، وهو يلعن على منابر الحرمين!).

ولقد ناصبه العداوة والبغضاء غير واحدٍ من الصَّحابة والتَّابعين والمحدِّثين في حياته عليه السلام وبعد مماته ذكر بعضهم ابن أبي الحديد في شرح نهجه ٣/٢٩٠–٣١٥ لا أذكرهم تنزيهًا لكتاب الإمام عليه السلام من أسمائهم، ويكفيه ما أصاب بعضهم بسبب دعوته عليه السلام عليهم، كدعوته على أنس بن مالك، الذي عاد إلى رشده في آخر عمره فقال: (إني آليت ألاَّ أكتم حديثًا سئلت عنه في عليٍّ بعد يوم الرحبة، ذاك رأس المتَّقين يوم القيامة، سمعته والله من نبيِّكم)، وكدعوته على زيد بن أرقم الذي دعا عليه الإمام

بذهاب بصره يوم لم يشهد بأن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم قد قال: «من كنت مولاه فعليّ مولاه»، فلمّا كُفَّ بصره حدَّث الناس بالحديث.

ويكفي أن الله سبحانه وتعالى سيحشر أعداءه محشر المنافقين، ولقد صدق عليه السلام يوم قال: (لو ضربت خياشيم المؤمن بالسيف ما أبغضني، ولو نثرت على المنافق ذهبًا وفضّة ما أحبَّني؛ إن الله أخذ ميثاق المؤمنين بحبِّي، وميثاق المنافقين ببغضي، فلا يُبغضني مؤمن، ولا يُحِبُّني منافق أبدًا) كما ذكر ابن أبي الحديد في الشرح ٢٩٦/٣.

وقال معاوية بن أبي سفيان لسعد بن أبي وقّاص: (ما منعك أن تسبَّ أبا تراب؟ فقال: أما ما ذكرتُ ثلاثًا قالهنَّ له رسول الله ﷺ فلن أسبَّه. لأن تكون لي واحدةٌ منهنَّ أحبُّ إليَّ من حمر النَّعم. سمِعتُ رسولَ الله ﷺ يقول له وقد خلّفه في بعض مغازيه، فقال له علي: يا رسول الله خلّفْتَني مع النِّساء والصِّبيان؟ فقال له رسول الله ﷺ أما ترضى أن تكون منِّي بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبُوَّة بعدي، وسمعته يقول يوم خيبر: لأُعطينَّ الرايةَ رجلاً يُحِبُّ الله ورسولَه، ويحبُّه اللهُ ورسولُهُ، قال: فتطاولنا لها فقال: ادعوا لي عليًّا فأُتيَ به أرمدَ، فبصق في عينيه ودفع الرَّاية إليه. ففتح الله عليه. ولمَّا نزلت هذه الآية: ﴿ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ ﴾، دعا رسول الله ﷺ عليًّا وفاطمة وحسنًا وحسينًا فقال: اللهم هؤلاء أهلي) كما روى مسلم في صحيحه في باب من فضائل علي بن أبي طالب برقم ٣٢/ص١٨٧١، والترمذي في سننه برقم ٣٨٠٨ ص ٣٠١–٣٠٢، وسبق ذكر مناسبة الحكاية مع ردّ معاوية عليه في موضع آخر.

وذكر البلاذري في أنسابه ٢/٣٥٣ أن جابر بن عبد الله سئل: (أي رجل كان علي؟ فرفع بصره ثم قال: أوليس ذاك من خير البشر)، والخبر برقم ٧٢ في كتاب فضائله عليه السلام لأحمد أيضًا.

وما قلاه أحد من صحابته، إلاّ بسبب طمع في دنيا نبذها أمير المؤمنين عليه السلام وراء ظهره، وكان شديدًا في دين الله لا يبالي في إحقاق الحقّ من سخط منه أو من رضي، بل إن بعض صحابته يوم فارقوه أبى عليهم شرفهم كتمان كلمة الحق في مجلس ألدّ أعدائه معاوية، روى ابن أبي الحديد في الشرح ٣/٣٠٠ – ٣٠٢ أن النجاشيّ وهو شاعر أهل العراق في صفّين أُخِذَ وهو سكران في رمضان فضربه الإمام ثمانين سوطًا، وزاده فوق الحدّ عشرين سوطًا لجرأته على الله في الشهر المبارك، فغضبت اليمانيّة لذلك، فدخل عليه طارق بن عبد الله بن كعب النهدي فقال: (يا أمير المؤمنين، ما كنّا نرى أن أهل المعصية والطاعة، وأهل الفرقة والجماعة عند ولاة العدل ومعادن الفضل سيّان في الجزاء، حتى رأينا ما كان من صنيعك بأخي الحارث، فأوغرت صدورنا ، وشتّتّ أمورنا، وحملتنا على الجادّة التي كنّا نرى أن سبيل من ركبها النّار. فأجابه عليه السلام: وإنها لكبيرة إلاّ على الخاشعين، يا أخا نهد، وهل هو إلاّ رجل من المسلمين انتهك حُرمة من حرم الله فأقمنا عليه حدًّا كان كفّارته، إن الله تعالى يقول: ﴿ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾)، وما أن خرج حتى التقاه الأشتر فقال له: أنت القائل لأمير المؤمنين ما قلت؟ فقال: نعم. فأجابه الأشتر رضوان الله عليه (والله ما ذاك كما قلت: إن صدورنا له لسامعة، وإن أمورنا له لجامعة)، فغضب طارق، فلما أجنّه الليل التحق بمعاوية. فاستقبله وقرّب مجلسه وثلب في مجلسه

عليًا عليه السلام، فلم يحتمل طارق قوله، فقام وقال: يا معاوية إني متكلّم فلا يسخطك قولي، ثم قال بعد أن ذكر الله وصلّى على نبيّه وهو متّكئ على سيفه: (فإن ما كنّا نُضع في ما أوضعنا فيه بين يدي إمام تقيٍّ عادل، مع رجال من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أتقياء مرشدين، مازالوا منارًا للهدى، ومعالم للدين، خلفًا عن سلف مهتدين، أهل دين لا دنيا، كلَ الخير فيهم...فلم يكن رغبةً من رغب عنهم وعن صحبتهم إلاّ لمرارة الحقّ حيث جُرِّعُوها، ولوعورته حيث سلكوها، وغلبت عليه دنيا مُؤثَرة، وهوى متَّبع، وكان أمر الله قدرًا مقدورًا، وقد فارق الإسلام قبلنا جبلة بن الأيهم فرارًا من الضَّيم، وأنفًا من الذِّلّة، فلا تفخرنَّ يا معاوية ؛ إن شددنا نحوك الرِّحال، وأوضعنا إليك الركاب)، ولما عاتبه اثنان من أصحابه على ما قال، أجابهم: (والله ما قمت بما سمعتماه حتى خُيِّل لي أنَّ بطن الأرض خير لي من ظهرها عند سماعي ما أظهر من العيب والنَّقص لمن هو خير منه في الدنيا والآخرة، وما زهت به نفسه، وملكه عجبه، وعاب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم واستنقصهم، فقمت مقامًا أوجب عليَّ فيه ألاّ أقول إلاّ حقًّا، وأيّ خير فيمن لا ينظر ما يصير إليه غدًا)، فعظم ما قال على معاوية ولكنه كتم غضبه، ولما بلغ الإمام عليه السلام خبر النهدي قال: (لو قتل النهدي يومئذ لقتل شهيدًا).

وقد لا يتمكّن بعض محبيه من السكوت على مواقف أعدائه إن تمكّنوا منهم، ذكر أبو الفرج في أغانيه ٢١٣/٢٣ أن أبا العبر الشاعر العباسي المعروف كان شديد البغض لعلي بن أبي طالب، وله في العلويين هجاء قبيح، وكان سبب موته أنه خرج إلى الكوفة (فسمعه بعض الكوفيين

يقول في علي صلوات الله عليه قولاً قبيحًا استحلَّ به دمه فقتله في بعض الآجام وغرَّقه فيها).

وعلى الرغم من كلِّ ذلك الحصار الذي حوصر به صحابته وأهل بيته، وعلى الرغم من الرعب الذي أحاط بحياة محبِّيه، فمازال سنا بهائه ينير الظلمات، ولقد وقف صحابته مواقف أخذت بأيديهم إلى دار الجنان، فلم يكتموا محبته أمام سلطان جائر أو عدوٍّ يخافون بطشه وتنكيله، بل إن من صحابته من ترك الملك وفضَّل العيش الكفاف على مفارقته عليه السلام، فقد ذكر ياقوت في معجم بلدانه ١٩٨/٤ أن أبا نيزر مولى علي بن أبي طالب (كان ابنًا للنجاشي لصلبه، وأنَّ عليًّا وجده عند تاجر بمكة فاشتراه منه وأعتقه مكافأة بما صنع أبوه مع المسلمين حين هاجروا إليه، وذكروا أن الأحباش أرسلوا إليه بعد موت أبيه، وهو مع علي ليملّكوه عليهم فأبى وقال: ما كنت لأطلب الملك بعد أن منَّ الله علي بالإسلام).

ولعلَّ في موقف ضرار أمام معاوية خير دليل على ما نقول، إذ طلب منه أن يصف عليًّا، فقال: أعفني. قال معاوية: لتصفه. قال: (أما إذا لابد من وصفه، فكان والله بعيد المدى، شديد القوى، يقول فصلاً، ويحكم عدلاً، يتفجَّر العلم من جوانبه، وتنطق الحكمة من نواحيه، ويستوحش من الدنيا وزهرتها، ويستأنس بالليل ووحشته، وكان غزير العبرة، طويل الفكرة، يعجبه من اللباس ما قصر، ومن الطعام ما خشن، وكان فينا كأحدنا، يجيبنا إذا سألناه، وينبئنا إذا استنبأناه، ونحن والله - مع تقريبه إيَّانا وقربه منَّا - لا نكاد نكلّمه هيبة له. يعظم أهل الدين، ويقرِّب المساكين، لا يطمع القويُّ في باطله، ولا ييئس الضعيف من عدله، وأشهد أني لقد رأيته في بعض مواقفه

وقد أرخى الليل سدوله، وغارت نجومه قابضًا على لحيته، يتململ تململ السَّليم، ويبكي بكاء الحزين، ويقول: يا دنيا غُرّي غيري! أإليَّ تعرَّضت أم إليَّ تشوَّفت؟ هيهات هيهات! قد باينتك ثلاثًا لا رجعة فيها، فعمرك قصير، وخطرك قليل. آه من قِلّة الزاد، وبعد السفر، ووحشة الطريق)، ويقال: (فبكى معاوية حتى اخضلّت لحيته وقال: رحم الله أبا الحسن، كان والله كذلك، فكيف حزنك عليه يا ضرار؟ قال: حزن من ذُبِحَ وحيدها في حجرها)، وإذا كان معاوية في سرِّه يعرف مكانة المرتضى عليه السلام ومنزلته، فإنه لا يبعد عن يقيني أنه يعترف بها في علنه أحيانًا، وقد روى أحمد في كتاب فضائل أمير المؤمنين ٣٦٤ برقم ٢٧٧ ما يرجِّح ذلك اليقين ويقوِّيه، إذ روى بسنده عن قيس بن أبي حازم أن أحدهم سأل معاوية عن مسألة فقال: (سل عنها عليّ بن أبي طالب فهو أعلم. فقال: جوابك يا أمير المؤمنين أحبّ إلي من جواب علي. فقال: بئس ما قلت ولؤم ما جئت به، لقد كرهت رجلاً كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم يغرُّه العلم غرًّا، ولقد قال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أنت منّي بمنزلة هارون من موسى غير أنه لا نبيَّ بعدي، وكان عمر إذا أشكل عليه شيء يأخذ منه، ولقد شهدت عمرًا وقد أشكل عليه شيء فقال عمر: هاهنا عليٌّ قم لا أقام الله رجليك)، وروى السيوطي في تاريخ الخلفاء ١٠٦ أن معاوية أرسل يسأل الإمام في إرث الخنثى، فقال أمير المؤمنين عليه السلام: (الحمد لله الذي جعل عدوَّنا يسألنا عما نزل به من أمر دينه، إن معاوية كتب إليَّ يسألني عن الخنثى المشكل، فكتبت إليه أن يورثه من قبل مباله).

ولقد سأل أحدهم الحارث بن أبي ربيعة أخا ابن أبي ربيعة الشاعر القرشي عن الإمام فقال على ما ورد في بيان الجاحظ ١٣١/١ (كم كان له ما شئت من ضرس قاطع في العلم بكتاب الله، والفقه في السُّنَّة، والهجرة إلى رسوله، والبسطة في العشيرة والنَّجدة في الحرب، والبذل للماعون).

وذكر أبو الفرج أثناء حديثه عن الشاعر عامر بن واثلة بن عبد الله في أغانيه ١٥/١٤٢–١٤٦ وكان من خيار صحابة الإمام، ومن الذين خرجوا مع المختار طلبًا بدم الحسين عليه السلام على الرغم من كبر سنِّه إذ كان ممن أدرك الجاهلية، أن معاوية بن أبي سفيان كان يكاتبه ويلطف به حتى أتاه، (فلما قدم عليه سأله ما مبلغ حبك لعلي؟ قال: حبُّ أم موسى لموسى. قال: فما بلغ من بكائك عليه؟ قال: بكاء العجوز الثكلى والشيخ الرقوب - الذي فقد ولده - وإلى الله أشكو التقصير).

وروى أحمد في كتاب فضائل أمير المؤمنين ٣٦٠ برقم ٢٧٣ بسنده عن شدَّاد بن عبد الله الذي قال: (سمعت واثلة بن الأسقع وقد جيء برأس الحسين بن علي عليهما السلام قال: فلقيه رجل من أهل الشام، فغضب واثلة وقال: والله لا أزال أحبُّ عليًا وحسنًا وحسينًا وفاطمة أبدًا، بعد إذ سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في منزل أم سلمة يقول فيهم ما قال) ثم ذكر حديث الكساء وآية التطهير، وروى أيضًا برقم ١٠٢ عن شدَّاد وأبي عمَّار قال: (دخلت على واثلة بن الأسقع وعنده قوم، فذكروا عليًّا فشتموه فشتمته معهم، فلمَّا قاموا قال لي: لم شتمت هذا الرجل؟ قال: رأيت القوم شتموه فشتمته معهم. قال: ألا أخبرك بما رأيت من رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قلت بلى) وذكر حديث الكساء وآية التطهير.

أما الحسن البصري فقد سأله أحدهم عن الإمام كالمتشكك في رأيه فقال: (كان والله سهمًا صائبًا من مرامي الله على عدوه، وكان ربَّاني هذه الأمَّة، وذا فضلها، وذا سابقتها، وذا قرابتها من رسول الله صلى الله عليه وسلَّم. أعطى القرآن عزائمه ففاز منه برياض مونقة. ذلك علي بن أبي طالب رضي الله عنه يا لكع!)، وقد روى الرواية ابن كثير في البداية والنهاية ٥/٤٨٢ وذكر أن السائل كان من الأزارقة، والرواية أيضًا في العقد الفريد ٤/٢٨٨ وفيها: (دخل رجل على الحسن البصري فقال: يا أبا سعيد يزعمون أنك تبغض عليًّا.قال: فبكى الحسن حتى اخضلَّت لحيته ثم قال: كان والله ...).

وروى ابن أبي الحديد في شرح النهج ٤/٣٠٥ عن الواقدي قال: (سئل الحسن عن علي عليه السلام وكان يظنّ به الانحراف عنه، ولم يكن كما يظن، فقال: ما تقول فيمن جمع الخصال الأربع: ائتمانه على براءة، وما قال له الرسول في غزاة تبوك، فلو كان غير النبوَّة شيء يفوته لاستثناه، وقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «الثقلان كتاب الله وعترتي»، وإنَّه لم يؤمَّر عليه أمير قطُّ وقد أُمِّرت الأمراء على غيره).

وروى ابن أبي الحديد أيضًا في شرح النهج ٤/٣٠٥ عن أبان بن عياش قال: (سألتُ الحسن البصري عن عليّ عليه السلام، فقال: ما أقول فيه! كانت له السابقة والفضل والعلم والحكمة والفقه والرأي والصحبة والنجدة والبلاء والزهد والقضاء والقرابة، إن عليًّا كان في أمره عليًّا، رحم الله عليًّا وصلى عليه! فقلت يا أبا سعيد، أتقول: صلَّى عليه لغير النبي! فقال: ترحَّم على المسلمين إذا ذكروا وصلِّ على النبي وآله، وعليٌّ خير آله. فقلت: أهو خير من حمزة وجعفر؟ قال: نعم، قلت: وخير من فاطمة وبنيها؟ قال:

نعم، والله إنه خير آل محمد كلهم، ومن يشكُّ أنه خير منهم، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «وأبوهما خير منهما!» ولم يجر عليه اسم شِرك ولا شرب خمر، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لفاطمة عليها السلام: «زوَّجتك خير أمَّتي»، فلو كان في أمته خيرٌ منه لاستثناه، ولقد آخى رسول الله صلى الله عليه آله وسلم بين أصحابه، فآخى بين علي ونفسه، فرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خير الناس نفسًا، وخيرهم أخًا. فقلت يا أبا سعيد، فما هذا الذي يقال عنك إنك قلته في عليٍّ؟ فقال: يابن أخي، أحقِنُ دمي من هؤلاء الجبابرة، ولولا ذلك لشالت بي الخُشُب)، وذكر أحمد في كتاب فضائل أمير المؤمنين ١٣٩ برقم ١٠٠ أن ابن جوشن الغطفاني قال للحسن البصري: (يا أبا سعيد إنما أزري بأبي موسى اتِّباعه عليًا. قال: فغضب الحسن حتى تبين الغضب في وجهه ثم قال: فمن يتَّبع؟ قتل أمير المؤمنين عثمان مظلومًا فعمد الناس إلى خيرهم فبايعوه، فمن يتَّبع؟ حتَّى ردَّدها مرارًا).

وعلى الرغم من سيف الحجاج الذي كان يقطر دمًا من كثرة من قتلهم من محبِّي الإمام، فقد كان للحسن البصري موقف يذكر له يوم سأله الحجَّاج عن قوله في أبي الحسن بعد أن نال منه في مجلسه الشعبي راوي الحكاية وغيره من التابعين كما ذكر؛ فقال الحسن: (ما أقول! هو أوَّل من صلَّى إلى القبلة، وأجاب دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإن لعليٍّ منزلة من ربِّه، وقرابة من رسوله، وقد سبقت له سوابق لا يستطيع ردَّها أحد) قال الشعبي: (فغضب الحجاج غضبًا شديدًا، وقام عن سريره، فدخل بعض البيوت، وأمر بصرفنا)، كما ذكر ابن أبي الحديد في شرح النهج ١٣/ ١٥٩،

وروى ابن كثير في البداية والنهاية ٤٩١/٥ عن عبد الرزاق قال: (وأما ابن التيمي - يعني معتمرًا - فقال: سمعت أبي يقول: فضل علي بن أبي طالب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلَّم بمائة منقبة وشاركهم في مناقبهم، وعثمان أحبُّ إليَّ منه).

ومن عجيب بغض بعضهم للإمام عليه السلام ما رواه المبرد في كامله ١/ ٣٤٦ وهي رواية جديرة بالذكر لأنها تدلّل على مدى كراهية ذلك النفر، مفادها أنَّ ابن العاص قال لعائشة: (لوددت أنك قتلت يوم الجمل! فقالت: ولم لا أبا لك؟ قال: كنت تموتين بأجلك، وتدخلين الجنة، ونجعلك أكبر التشنيع على علي).

وذكر في كامله ١١٣٧/٣ - ١١٣٨ أيضًا أن بعض الزبيريين ذكر أن مالكًا

(كان يذكر عثمان وعليًّا وطلحة والزبير، فيقول: والله ما اقتتلوا إلاَّ على الثريد الأعفر)، ولعلك وقفت على جميع النصوص التي تحدَّثت عن طعام الإمام، وما خلَّف بعد رحيله فما رأيت ثريدًا أعفر سامح الله مالكًا إن كان قال مثل هذا في حقِّ علي عليه السلام.

أما الحجَّاج فيكفي أن أذكر من ضحاياه قتله كميل بن زياد النخعي سنة ٨٢ هـ والتمثيل به وكان من أخص صحابة الإمام عليه السلام، وأخلص شيعته، ومن أكثرهم تعبُّدًا كما ذكر في العبر ٧٠/١.

ولم يقصِّر غاليَّة خلفاء بني العباس في التقليل من شأن الإمام وتشويه صورته، ولك في إحدى رسائل المنصور التي بعث بها إلى محمد ذي النفس الزكيَّة التي رواها الطبري وغيره خير دليل على ذلك، وما فعله المهدي ومن

بعده الرشيد وغيرهما بأئمة أهل البيت دليل آخر، بل إن المتوكّل الذي أمر بهدم ضريح الإمام الحسين وأمر أيضًا أن يبذر ويسقى، وأجلى مجاوريه، ومنع زيارته، كان شديد العداوة والبغضاء لأهل البيت ومحبيهم عامة ولأمير المؤمنين عليه السلام خاصّة، وكان من جملة ندمائه مخنَّث أصلع اسمه عبادة يشدُّ تحت ثيابه مخدَّة ويكشف رأسه، ويرقص والمغنون يغنون قد أقبل الأصلع البطين خليفة المسلمين والمتوكل يشرب الخمرة ويضحك، ويذكر ابن الأثير في كامله ٧/٥٥–٥٦ أن ولده المنتصر كان على عكسه، وقد فعل ذلك المخنث ما كان يفعله يومًا بحضور المنتصر، فأومأ إلى عبادة يتهدده، فسكت خوفًا منه، وأخبر المتوكل بالأمر، فقال له المنتصر: (يا أمير المؤمنين، إن الذي يحكيه هذا الكلب ويضحك منه الناس هو ابن عمك، وشيخ أهل بيتك، وبه فخرك، فكلْ أنت لحمه إذا شئت، ولا تطعم هذا الكلب وأمثاله منه، فقال المتوكل للمغنين: غنوا جميعًا

غار الفتى لابن عمّه ... رأس الفتى بحرِّ أمّه

فكان هذا من الأسباب التي استحلَّ بها المنتصر قتل المتوكل) كما ذكر ابن الأثير في كامله ٧/ ٥٦، وكان مجلس المتوكل على ما ذكر في المصدر السابق يغص بالمبغضين لعلي عليه السلام، كعلي بن الجهم وعمر بن فرح، وأبو السمط، وهو من ولد مروان بن أبي حفصة المشهور ببغضه لعلي وأهل بيته عليهم السلام، وعبد الله بن محمد بن داود الهاشمي المعروف بابن أترجّة، وكانوا يخوفون المتوكل من العلويين ويشيرون عليه بإبعادهم والإساءة إليهم.

وكان بعضهم يتفنَّن في محاولة الإيقاع بمحبيّه عليه السلام أمام أولي الأمر، وقد حاول بعض محبّيه كما أسلفنا دفع الشّر عن نفسه بطريقة أو

بأخرى دونما إساءة للإمام أو لأحد من أهل بيت النبوّة ؛ ذكر ابن عبد ربّه في عقده ٤٠٣/٢ أن رجلاً قال لبعض ولاة بني العبّاس أنا أجعل هشام بن الحكم - وهو من محبّي الإمام - يقول في علي إنه ظالم. (فقال: إن فعلت ذلك فلك كذا وكذا، ثم أحضر هشام فقال له: نشدتُك الله أبا محمد، أما تعلم أن عليًّا نازع العبّاس عند أبي بكر؟ قال: نعم. قال: فمن الظالم منهما؟ فكره أن يقول: العباس، فيواقع سخط الخليفة، أو يقول: علي فينقض أصله، قال: ما منهما ظالم؟ قال: فكيف يتنازع اثنان في شيء لا يكون أحدهما ظالمًا؟ قال: قد تنازع الملكان عند داود عليه السلام، وما فيهما ظالم، ولكن لينبّها داود على الخطيئة، وكذلك هذان أرادا تنبيه أبي بكر من خطيئته. فأسكت الرجل، وأمر الخليفة لهشام بصلة عظيمة).

ولست بحاجة إلى التعليق على ذلك الجمع من التابعين الذين نالوا من المرتضى في مجالس الطغاة، فهم وأمثالهم، مكّنوا الظالمين من الظلم، وسوّغوه لهم، فقد كان ولا أقل أن يبتعدوا عن مثل تلك المجالس التي كان ترددهم عليها وبالاً عليهم وعلى المسلمين، فقد نصروا الظالم، وأيّدوه، وساروا في ركابه، وكانوا سببًا في سير غيرهم من بعد في ركاب ظلمة العباد.

وأنت تقرأ مواقف متضادّة، كمثل موقف أبي بردة بن أبي موسى الأشعري من حجر بن عدي وأصحابه، فقد شهد عليهم شهادة أخذت بأيدي من قتل منهم إلى الجنة، إذ كتب رسالة إلى معاوية شهد عليها جمهور من جلاوزة زياد من رؤوس الأرباع وغيرهم، قال فيها على ما ورد في الأغاني ١٤٩/١٧ : (بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما شهد عليه أبو بردة بن

أبي موسى لله رب العالمين، شهد أن حجر بن عدي خلع الطاعة، وفارق الجماعة، ولعن الخليفة، ودعا إلى الحرب والفتنة، وجمع إليه الجموع يدعوهم إلى نكث البيعة، وخلع أمير المؤمنين معاوية، وكفر بالله كفرة صلعاء)، فبعث بحجر وأصحابه إلى معاوية فقتل جلاوزته ستة منهم بعد أن امتنعوا من شتم علي والبراءة منه، وقال عبد الرحمن بن حسان، وكريم بن عفيف، وهما من صحابة حجر على ما ورد في الأغاني ١٧/١٥٥–١٥٦ ابعثوا بنا إلى معاوية كي نقول بما يريد، أما كريم بن عفيف فقال لمعاوية: (أقول فيه قولك وأتبرأ من دين علي الذي كان يدين به).

وأقبل معاوية على عبد الرحمن بن حسان فقال له: يا أخا ربيعة: ما تقول في علي؟ قال: (أشهد أنه من الذاكرين الله كثيرًا والآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر والعافين عن الناس. قال: فما تقول في عثمان؟ قال: هو أول من فتح أبواب الظلم، وأرتج أبواب الحق.قال: قتلت نفسك. قال: بل إياك قتلت.فبعث به معاوية إلى زياد، وكتب إليه: إن هذا شر من بعثت به، فعاقبه بالعقوبة التي هو أهلها، واقتله شر قتلة. فأمر زياد فدفن حيًّا!)، وقد رثي حجر بمراث كثيرة ذكر بعضها أبو الفرج الأصفهاني في أغانيه ١٧/١٣٦.

وكان الشاعر عبد الله بن عمر - وهو من بني أميَّة - من محبي علي وبني هاشم ومادحيهم، فحرم العطاء واضطر إلى الانتقال إلى المدينة، وقد نفعه ذلك عند قيام الدولة العباسية كما ذكر أبو الفرج في أغانيه ١١/٢٩٤

وكان بعض محبيه من الشعراء زمن بني أميَّة يحتالون لدفع ما يمكن أن ينال الإمام بسبب مديحهم أو هجائهم، ومما ذكره أبو الفرج في أغانيه ١٧/٤٠ أن

الكميت هجا كلبيًا وفخر ببني أميَّة، فقال له ولده المستهل: إنك هجوت الكلبي وفخرت ببني أميَّة وأنت تشهد عليها بالكفر، فألا فخرت بعلي وبني هاشم الذين تتولاهم! فقال: (يا بني أنت تعلم انقطاع الكلبي إلى بني أميَّة، وهم أعداء علي عليه السلام، فلو ذكرت عليًا لترك ذكري، وأقبل على هجائه، فأكون قد عرَّضت عليًا له، ولا أجد له ناصرًا من بني أميَّة، ففخرت عليه ببني أميَّة، وقلت: إن نقضها عليٌّ قتلوه، وإن أمسك عن ذكرهم قتلته غمًّا وغلبته).

وكان زيد الخيل من خيار صحابة الإمام، وشهد معه صفّين، (وعاش إلى إمارة معاوية، فأراده على البراءة من علي عليه السلام فامتنع عليه وقال:

يحاولني معاوية بن حرب وليس إلى الذي يهوى سبيل
على جحدي أبا حسن عليًّا وحظي من أبي حسن جليل

وفي الوقت الذي تصدَّرت فيه أمة من شعراء بني أميَّة وبني العباس لشتم علي وآل بيت النبوَّة عليهم السلام، تصدرت فئة أخرى في وجه ذلك الباطل الدنس، فكشفت عن جيفة، ودمغته، وسامته العار والشنار فردَّت، ودافعت، كالفرزدق، وكثيِّر، والكميت، والسيِّد، وغيرهم، ولك في كتاب نسمة السحر في من تشيع وشعر وغيره عشرات بل مئات خير دليل.

وفي ربيع الأول من سنة اثنتي عشرة ومائتين قال المأمون: (إن علي بن أبي طالب أفضل الناس بعد رسول الله) كما ذكر ابن الأثير في كامله ٤٠٨/٦، وسبق أن ذكرنا مقاطع من أسباب تفضيله الإمام سلام الله عليه على غيره نقلها ابن عبد ربه في عقده.

ومن طريف حسن تخلُّص محبِّيه ما ذكره ابن قتيبة في عيونه ٢/٢٢٢ أن خارجيًا لقي أبا جعفر بن محمد بن النعمان، فقال له: (ما أفارقك أو تبرأ من علي فقال: أنا من علي ومن عثمان بريء).

ومن طريف ما رواه أبو الفرج في أغانيه ٢٠/١٣٢ عن دعبل الخزاعي وهو من شعراء أهل البيت المشهورين بحبهم لعلي وأهل بيت الرسول عليهم السلام أنه لما نظم قصيدته

مدارس آيات خلت من تلاوة   ومجلس وحي مقفر العرصات

(قصد بها أبا الحسن علي بن موسى الرضا عليه السلام بخراسان، فأعطاه عشرة آلاف درهم من الدراهم المضروبة باسمه، وخلع عليه خلعة من ثيابه، فأعطاه بها أهل قم ثلاثين ألف درهم، فلم يبعها، فقطعوا عليه الطريق فأخذوها، فقال لهم: إنها تراد لله عز وجل، وهي محرَّمة عليكم، فدفعوا إليه ثلاثين ألف درهم، فحلف ألا يبيعها أو يعطوه بعضها ليكون في كفنه، فأعطوه فرد كمٍّ، فكان في أكفانه).

أما ما فعله حكّام العصور بأهل بيته حتى القرن الرابع من جرائم يندى لها الجبين فلك أن تنظر في كتاب مقاتل الطالبيين لأبي الفرج كي ترى.

إنه باب كان له أوَّل، قطعت منه أشواطًا غالبني الحياء في بسطها بين يديه عليه السلام، وكدت في غير مناسبة من مناسبات مناجاته أن أعتذر عن تقديمها لشديد قصورها في كلِّ مناحيها، وهي سيرة لن ينقضي الحديث عن سناها حتى قيام الساعة، وإن قامت فسيرى الخلق رأي عين ذلك البهاء، والويل كلّ الويل يومها لمن ناصبه العداوة والبغضاء.

مصادر الكتاب ومراجعه

- الإرشاد، الشيخ المفيد «ت ٤١٣هـ»، مؤسسة آل البيت عليهم السلام لتحقيق التراث، ط٢، بيروت ١٩٩٣م.
- الاستيعاب، ابن عبد البر «ت ٤٦٣هـ»، تحقيق علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت ١٩٩٢م.
- أسد الغابة، ابن الأثير «ت ٦٣٤هـ»، دار الفكر، بيروت ١٩٥٥م.
- أسمى المطالب في سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، د. علي محمد الصلابي، دار الفجر للتراث، القاهرة ٢٠٠٤م.
- الإصابة، ابن حجر العسقلاني«ت٨٥٢ هـ»، تحقيق علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت ١٤١٢هـ.
- أصول التلاوة، الدكتور حازم الحلي، مطبعة الأدباء، النجف الأشرف ١٩٩٠م.
- الأصول العامة للفقه المقارن، محمد تقي الحكيم، مؤسسة آل البيت للطباعة والنشر، ط ٢، بيروت ١٩٧٩م.
- أصول العقيدة، السيد محمد سعيد الحكيم، دار الهلال، النجف الأشرف ٢٠٠٦م.
- الأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني « ت ٣٥٦هـ»، دار صادر، بيروت.
- الاكتفاء بما روي في أصحاب الكساء، تلخيص وتعقيب محمد حسين الحسيني الجلالي، دار كنان للطباعة والنشر، ط٤، دمشق ٢٠٠١م.

- الأمالي، الشيخ الطوسي «ت ٤٦٠هـ»، دار الثقافة، قم ١٤١٤هـ.
- الإمام علي حياته وفضائله، محمد جواد مغنية، دار الجواد ودار التيّار الجديد، بيروت ١٩٩٤م.
- الإمام علي بن أبي طالب، توفيق أبو علم، دار المعارف مصر، ط٣، القاهرة ١٩٩٦م.
- الإمام علي سيرة وجهاد، السيد محمد باقر الصدر، دار المرتضى، بيروت ٢٠٠٣م.
- الإمام علي في محنه الثلاث، دار الأمير للتأليف والترجمة والنشر، بيروت ٢٠٠١م.
- الإمام علي ومنهجه في القضاء، فاضل الملا، الغدير للطباعة والنشر، بيروت ١٩٩٩م.
- الإمامة والسياسة، ابن قتيبة «ت ٢٨٦هـ»، تحقيق طه محمد الزيني، مؤسسة الحلبي وشركاه، القاهرة ١٩٦٧م.
- انساب الأشراف، البلاذري (ت ٢٧٩هـ)، دار المعارف، ومؤسسة الأعلمي، بيروت.
- البحار، المجلسي «ت ١١١١هـ»، مؤسسة الوفاء، بيروت ١٩٨٣م.
- البداية والنهاية، ابن كثير «ت ٧٧٤هـ»، مكتبة المعارف، بيروت.
- البيان والتبيين، الجاحظ «ت ٢٥٥هـ»، طبعة بيروت.
- تاريخ الإسلام، عهد الخلفاء الراشدين، الذهبي «ت ٧٤٨هـ»، تحقيق الدكتور عمر عبد السلام تدمري، دار الكاتب العربي، بيروت ١٩٩٧م.

- تاريخ بغداد، لخطيب البغدادي «ت ٤٦٣هـ»، دار الكتب العلمية، بيروت.
- تاريخ الخلفاء، السيوطي « ت٩١١هـ»، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، القاهرة ١٣٧١هـ.
- تاريخ الطبري، الطبري «ت ٣١٠هـ»، طبعة دار الكتب العلمية، وطبعة مؤسسة الأعلمي، بيروت.
- تاريخ الكوفة، السيد أحمد البراقي«ت ١٣٣٢هـ»، تحقيق ماجد أحمد العطية، انتشارات المكتبة الحيدرية ١٤٢٤هـ.
- تاريخ المدينة المنورة، ابن النجار «ت ٦٤٣هـ»، تحقيق عبد الرزاق المهدي، مكتبة دار الزمان، المدينة المنورة ٢٠٠٣م.
- تاريخ المدينة المنورة، ابن شبّة « ت ٢٦٢هـ»، تحقيق فهيم محمد شلتوت، دار الفكر، قم.
- تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر « ت ٥٧١هـ» ، مجلد ٦٧، تحقيق سكينة الشهابي، مطبوعات مجمع دمشق ٢٠٠٦م.
- تاريخ دمشق، ابن عساكر «ج ١، ٣ »، نشر دار الفكر، بيروت.
- تاريخ اليعقوبي، اليعقوبي « ت ٢٩٢هـ» تحقيق عبد الأمر مهنا، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت ١٩٩٣م.
- تحفة العالم في شرح خطبة المعالم، السيد جعفر بحر العلوم، ط٢، مكتبة الصادق، طهران ١٤٠١هـ.
- ترجمة الإمام الحسن من تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر تحقيق الشيخ محمد باقر المحمودي، مؤسسة المحمودي للطباعة والنشر، بيروت ١٩٨٠م.

- ترجمة الإمام علي بن أبي طالب من تاريخ دمشق ابن عساكر، تحقيق الشيخ محمد باقر المحمودي، مؤسسة المحمودي للطباعة والنشر، ط٢، بيروت ١٩٧٨م.
- التزكية الإلهية في الثقلين، محمد الإستنبولي، تعريب مصطفى أوزجان، دار اونور للطباعة والنشر، أنطاكيا ٢٠٠٤م.
- الثورة الحسينية، السيد الحسين آل بحر العلوم، دار الزهراء للطباعة والنشر، بيروت.
- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، لأبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني «ت ٤٣٠هـ»، نشر دار الكاتب العربي بيروت.
- حياة أمير المؤمنين، محمد صادق الصدر، دار الرافدين، بيروت ٢٠٠٤م.
- خصائص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، النسائي « ت ٣٠٣هـ»، تحقيق محمد هادي الأميني، مكتبة نينوى الحديثة، العراق.
- الديارات والأمكنة النصرانية في الكوفة وضواحيها، محمد سعيد الطريحي، مطبعة المتني، بيروت ١٩٨١م.
- رسائل الشريف المرتضى، الشريف المرتضى، إشراف أحمد الحسيني، مطبعة سيد الشهداء، قم ١٤٠٥هـ.
- الرسائل العشر، السيد علي الحسيني الميلاني، مطبعة ظهور، قم ١٣٢٦هـ.
- السبعة في القراءات، ابن مجاهد « ت ٣٢٤هـ»، تحقيق شوقي ضيف، ط٢، دار المعارف القاهرة ١٩٧١م.

- سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، محمد بن يوسف الصالحي «ت ٩٤٢هـ»، تحقيق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١٤هـ.
- سنن الترمذي، الترمذي « ٢٧٩هـ»، تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض ١٩٨٠م.
- السنن بن ماجة بشرح السندي، ابن ماجة «ت ٢٧٥ هـ»، تحقيق خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت ١٩٩٧.
- السنن الكبرى، النسائي «ت ٢٧٥هـ» تحقيق د.عبد الغفار سليمان، دار الكتب العلمية بيروت ١٩٩١م.
- سير أعلام النبلاء، الذهبي «ت ٧٤٨هـ»، مؤسسة الرسالة، ط٩، بيروت ١٩٩٣م.
- السيرة النبوية، ابن هشام «ت ٢١٨هـ»، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- ديوان الفرطوسي، الشاعر عد المنعم الفرطوسي، مطبعة الغري النجف.
- الشافي في الإمامة، الشريف المرتضى «ت ٤٣٦هـ»، تحقيق السيد عبد الزهراء الحسيني، مؤسسة الصادق للطباعة والنشر، طهران ١٩٨٦م.
- شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد «ت ٦٥٦هـ»، مؤسسة الأعلمي، بيروت ١٩٩٥م.
- صبح الأعشى في صناعة الإنشا، القلقشندي «ت ٨٢١هـ»، دار الفكر، بيروت.

- صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج «ت ٢١٦هـ» تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار الكتب العلمية، بيروت.
- صحيفة الإمام الرضا، الرضا عليه السلام «ت ٢٠٣هـ»، تحقيق محمد مهدي نجف، مؤسسة طبع ونشر الآستانة الرضوية ١٤٠٦هـ
- طبقات القراء، الذهبي.
- الطبقات الكبرى، ابن سعد «ت ٢٣٠هـ» دار صادر، بيروت.
- الطرق الصوفية في مصر، د. عامر النجار، ط٤، دار المعارف بمصر، القاهرة ١٩٩٠م.
- أطلس السيرة النبوية، د. شوقي أبو خليل، دار الفكر المعاصر، ط٤، دمشق ٢٠٠٦م.
- العبر وديوان المبتدأ والخبر (تاريخ ابن خلدون)، ابن خلدون « ت ٨٠٨ هـ»، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- العبر، الذهبي « ت ٧٤٨هـ»، المكتبة العلمية، بيروت.
- العبودية، د. فاضل الأنصاري، الأهالي للطباعة والنشر، دمشق ٢٠٠١م.
- عبد الله بن عباس، السيد محمد تقي الحكيم، دار الهادي، بيروت ٢٠٠١م.
- عبقرية الإمام، عباس محمود العقاد، شركة نهضة مصر، ط ٦، القاهرة ٢٠٠٣م.
- العقد الفريد، ابن عبد ربه « ت ٣٢٨هـ»، تحقيق أحمد أمين وآخرين، دار الكاتب العربي للنشر، بيروت.
- علي إمام المتقين، عبد الرحمن الشرقاوي، الناشر إبراهيم الحاج ارزوقي.

- علي بن أبي طالب سلطة الحق، عزيز السيد جاسم، سينا للنشر في القاهرة ومؤسسة الانتشار العربي ببيروت، القاهرة ١٩٩٧م.
- علي بن أبي طالب وأسرته رضي الله عنهم، محمود شاكر، المكتب الإسلامي ١٩٩٧م.
- علي المرتضى حسين الشاكري، نشر الهادي، ، قم ١٤١٥هـ.
- عيون الأخبار، ابن قتيبة «ت ٢٧٦هـ»، دار الكتب العلمية، ١٩٩٧م.
- فضائل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، أحمد بن حنبل«ت ٢٤١هـ» تحقيق حن حميد السنيد، نشر المجمع العالمي لأهل البيت ١٤٢٥هـ.
- فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني «ت٨٥٢هـ»، دار المعرفة للطباعة والنشر، ط ٢، بيروت.
- الفتوح، ابن أعثم الكوفي « ت٣١٤ هـ»، دار الكتب العلمية، بيروت.
- القراءات القرآنية بين المستشرقين والنحاة، د. حازم سليمان الحلي، مطبعة القضاء، النجف الأشرف ١٩٨٧م.
- قصص العرب، محمد أحمد جاد المولى وآخرين، دار الجيل، بيروت.
- الكافي، الكليني « ت ٣٢٩هـ»، تحقيق علي أكبر غفاري، دار الكتب الإسلامية، طهران ١٣٨٨هـ.
- الكامل في التاريخ، ابن الأثير«ت٦٣٠هـ»، دار صادر، بيروت ١٩٦٥م.
- الكامل في اللغة والأدب، المبرد « ت ٢٨٥هـ»، مؤسسة الرسالة، ط ٣، بيروت ١٩٩٧م.
- الكشاف المنتقى لفضائل علي المرتضى، كاظم عبود الفتلاوي، منشورات لسان الصدق، النجف الأشرف ٢٠٠٥م.

- كشف الظنون، حاجي خليفة « ت ١٠٦٧هـ»، استنبول ١٩٤٣م.
- الكوكب الدرّي، حاتم عمر طه، المدينة المنورة ٢٠٠٥م.
- محاضرات في فقه اللغة، د صلاح الفرطوسي، البنك الإسلامي للتنمية، سرايفو ١٩٩٩م.
- المراجعات، عبد الحسين شرف الدين، تحقيق حسين الراضي، دار الثقلين، بيروت ١٩٩٧م.
- مروج الذهب، المسعودي، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة الإسلامية، بيروت.
- المسائل السروية، الشيخ المفيد (ت ٤١٣هـ)، تحقيق صاحب عبد الحميد، ١٤١٢هـ.
- المستدرك. الحاكم النيسابوري « ت ٤٠٥هـ»، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت.
- مستدرك الوسائل، الميرزا النوري، مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، بيروت ١٩٨٧م.
- مسند أحمد. ترتيب أحمد عبد الرحمن البناء، دار الشهاب، القاهرة.
- مسند أحمد، أحمد بن حنبل « ت٢ ٢٤٢هـ»، دار صادر، بيروت.
- المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية، ابن حجر « ٨٥٢هـ»، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، دار المعرفة، بيروت.
- المعارف، ابن قتيبة «ت ٢٨٦هـ»، تحقيق ثروة عكاشة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، نشرته بالأوفست مكتبة الحيدرية ١٤٢٧هـ.

- معجم البلدان، ياقوت الحموي «ت ٤٣٦ هـ»، دار صادر، بيروت ١٩٥٦م.
- المغازي، الواقدي « ت ٢٠٧هـ»، تحقيق مارسدن جونس، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ط٣، بيروت ١٩٨٩م.
- مقاتل الطالبيين، أبو الفرج الأصفهاني « ت ٣٥٦هـ»، تحقيق أحمد صقر، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ط٣، بيروت ١٩٩٨م.
- مكاتيب الرسول، علي الأحمدي الميانجي، مطبعة دار الحديث، ١٩٩٨م.
- مناقب علي والحسنين وأمهما فاطمة الزهراء، فؤاد عبد الباقي، دار الحديث، القاهرة ٢٠٠٣م.
- المنتظم، ابن الجوزي« ت ٥٦٧هـ»، دار صادر، بيروت.
- منع تدوين الحديث، السيد علي الشهرستاني، دار الغدير، قم ٢٠٠٥م.
- موسوعة التاريخ الإسلامي العصر النبوي، العهد المكي، الشيخ محمد هادي اليوسفي الغروي، مجمع الفكر الإسلامي ١٤١٧هـ، العهد المدني(١)، ط٣، قم ١٤٢٦، العهد المدني(٢)، ط(٢)، قم ١٤٢٦هـ.
- موسوعة التاريخ الإسلامي العصر النبوي، الشيخ محمد هادي اليوسفي الغروي، مجمع الفكر الإسلامي، ط(٢)، قم ١٤٢٦هـ.
- موسوعة عبد الله بن عباس، السيد محمد مهدي الخرسان، مركز الأبحاث العقائدية، النجف الأشرف ١٤٢٨هـ.
- النبي وآله عليهم السلام في الشعر العربي د. حازم سليمان الحلي، مؤسسة البلاغ، بيروت ٢٠٠٧م.
- نظريات الخليفتين، نجاح الطائي، مطبعة الهدى، بيروت ١٩٩٨م.

- نفحات الأزهار للكهنوي (حديث الولاية)، السيد علي الحسيني الميلاني، ط٢، مطبعة ظهور، قم ١٤٢٦هـ.
- نهج البلاغة، الإمام علي عليه السلام، تحقيق محمد عبده، مؤسسة المعارف للطباعة والنشر، بيروت ١٩٩٦م.
- وفيات الأعيان، ابن خلكان «ت ٦٨١هـ»، دار الثقافة، بيروت.
- اليتيمة الغروية والتحفة النجفية، السيد حسين البراقي «ت ١٣٣٢هـ»، تحقيق كامل سلمان الجبوري، نشر في مسلسلاً في مجلة آفاق نجفية.

الفهرس

المقدمة الانتصار على الذات ٧
يوم ازدحمت الملائكة على باب رسول الله ٣٥
سريَّة أسامة بن زيد........................ ٣٩
يوم الخميس........................ ٤٤
أيَّام في حضرة المصطفى ٥١
صلاة الخليفة أبي بكر........................ ٥٤
سويعات الوداع وهولها........................ ٦٥
الرحيل ٦٨
دفن المصطفى ومن شارك فيه ٧١
حين أنكر المسلمون قلوبهم ٧٧
ما بعد اجتماع السقيفة ٨٥
ومن يوم السقيفة أيضًا ١٠١
مع أبي بكر في خلافته بعد البيعة........................ ١١١
مع عمر بن الخطّاب في خلافته........................ ١١٥
من فتاواه في خلافة عمر ١٢٤
الشورى ونتيجتها ١٢٩
مع عثمان في خلافته ١٣٩
قرون الفتنة........................ ١٤٠
من أسباب الفتنة ١٤٣

في أيّام الفتنة ١٥١
حصار حتى النهاية ١٥٦
بيعة الإمام ١٦٣
البيعة ومحنة المرتضى فيها ١٨٣
استبدال الولاة ١٩٣
من صدى النبوّة في نهج الإمام وسلوكه ١٩٧
محنة الإمام في أمته ٢٠٥
ركوب الصَّعب ٢٠٩
المدينة بعد مغادرة أمير المؤمنين ٢١١
ركب الناكثين ٢١٤
وداع مدينة رسول الله ٢١٧
إلى البصرة ٢١٩
جيش القراء في ركب علي ٢٣٩
الكوفة عاصمة أمير المؤمنين أم العلوم والمعارف ٢٤٩
سبب اختلاف المسلمين في رواية الحديث ٢٥٥
من قوانين الحكم العادل ٢٥٧
مدرسة الكوفة ٢٥٨
مع أهل الذمّة ٢٦٠
العناية بالإعمار ٢٦٣
دار الحكمة ٢٦٤
مدرسة مكارم الأخلاق ٢٦٦

قوانين العدل الاجتماعي.. ٢٦٧
أم المعارف والعلوم.. ٢٦٨
نظم التعليم ٢٦٩
دواء النفس... ٢٧٥
إمام الزُّهَّاد ٢٧٧
موقفه من عماله وصحابته ٢٨٥
الفتح في زمن الإمام... ٣٠٠
العبد الصالح الذي رأى ربه وآمن برسالته........................ ٣٠٣
قتال القاسطين.. ٣١٩
الرؤيا القاصرة... ٣٢١
الإعلام الرخيص ٣٢٤
الاستعداد للمواجهة.. ٣٢٥
بانتظار الصحوة ٣٢٨
من أيّام مجد علي.. ٣٣٦
استشهاد عمار والمرقال ٣٤٠
الهجوم الكاسح.. ٣٤٢
على مشارف النصر ٣٤٥
ورفعت الفتنة رأسها ٣٤٧
حين انجلى الغبار ٣٥١
المهزلة الكبرى التحكيم... ٣٥٣
قتال المارقين ٣٦٣

بعض ما ورد من أحاديث بشأن الخوارج ٣٦٤
التنوير قبل الاصطدام ٣٦٦
الأمام في سُنَيَّته الأخيرة ٣٧٩
المناوشات الأخيرة ٣٧٩
دستور الإمام في عهد مالك ٣٨١
صولات الباطل ٣٩٣
حكاية الخرِّيت بن راشد ٣٩٧
الطريق إلى الخلود ٤٠٧
اقتراب يوم حكمة الله ٤١٧
الفوز العظيم ٤١٩
آخر الوصايا ٤٢٢
موعد مع الشَّهادة ٤٢٥
القاتل ٤٢٥
دنيا الله ٤٣٣
من صور الوفاء والكراهية للراحل العظيم ٤٤١
نساء في مجلس معاوية ٤٤٦
ـ من آذى عليًا فقد آذاني ٤٥٤
ـ من سبَّ عليًا فقد سبَّني ٤٥٧
ـ لا يحبُّك إلا مؤمنٌ، ولا يَبْغَضُك إلاَّ منافق ٤٥٨
ـ من أحبَّ عليًا فقد أحبَّني، ومن أبغض عليًا فقد أبغضني، ومن آذى عليًا فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله ٤٦٠

مكتبة الروضة الحيدرية
الرقم ٩٣٢٨٣
التاريخ ١٤/٨/١٠م

– عليٌّ رجل يحبُّ الله ورسوله، ويحبُّه اللهُ ورسولُهُ ٤٦١
مصادر الكتاب ومراجعه.. ٤٩٣

- د. صلاح مهدي الفرطوسي.
- ولد في النجف الأشرف / العراق سنة ١٩٤٦.
- دكتوراه في اللغة العربية - جامعة بغداد سنة ١٩٧٩.
- أستاذ في جامعات: بغداد، محمد بن عبد الله بالمغرب، صنعاء، السابع من أبريل بليبيا، الإسلامية بالنيجر، سرايفو، روتردام الإسلامية بهولندا.
- عيّن خبيراً للمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (إيسيسكو) ١٩٩٥-٢٠٠١.
- اختير عضواً في مجمع اللغة العربية بدمشق عن العراق سنة ٢٠٠٧.
- رئيس مجلس أمناء الجامعة الحرة / هولندا.
- صدرت له عشرات الدراسات والمؤلفات والتحقيقات منها: مختصر العين للزبيدي، والمثلث لابن السيد البطليوسي، والمهذب في علم التصريف.